مكتبة

أدب
سويسري
حديث

ريتشارد هارڤل

ترجمة: عماد منصور

الأجراس

رواية

المحروسة

الأجراس

ريتشارد هارڤل

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب: الأجراس The Bells
المؤلف: ريتشارد هارڤل Richard Harvell
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمود شرف
إخراج داخلي: رشا عبدالله

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٢٥٤/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولى: 978-977-313-984-1
جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2023

المؤسسة الثقافية السويسرية
prohelvetia
"The translation of this work was supported by a grant from the Swiss Arts Council Pro Helvetia."

Copyright © 2010, 2011 by Richard Harvell
All rights reserved including the right of reproduction in whole or in part in any form.
This edition published by arrangement with Crown, an imprint of Random House, a division of Penguin Random House LLC

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأجراس

ريتشارد هارڤل

ترجمة
عماد منصور

الطبعة الأولى 2023

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هارڤل، ريتشارد

الأجراس: رواية/ ريتشارد هارڤل؛ ترجمة: عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023

543 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 1-984-313-977-978

1 - القصص السويسرية

أ-منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

849.43

رقم الإيداع 2023/16254

إلى دومينيك

تنويه إلى القارئ

ترعرعتُ ابنًا لرجلٍ لا يمكن بأيِّ حال أن يكون أبي. ورغم أنه لم يوجد أيُّ شك بأن بِذرتي قد أتت من رجل آخر، إلَّا أن موسى فروبن -(السويسري *Lo Svizzero*)- كان يدعوني "ابني" وأدعوه "أبي". في المرَّات النادرة التي حاول فيها أحدهم السؤال عن إيضاحٍ، كان يضحك فحسب كما لو أن السائل إنسان أبله. "بالطبع إنه ليس ابني!" يجيبه. "لا تكن سخيفًا".

لكن متى حدثَ واستجمعتُ شجاعتي لسؤاله عن تفاصيل أكثر عن ماضينا، كان ينظر إليَّ فحسب بحزنٍ. "أرجوك، نيكولاي"، يقول بعد وهلة، كما لو كنَّا عقدنا ميثاقًا ونسيته أنا. بمرور الوقت، أدركتُ أنني لن أعرف أبدًا أسرار ميلادي؛ ذلك أن أبي كان الإنسان الوحيد الذي يعرف تلك الأسرار، وكان عازمًا على حَمْلها معه إلى قبره.

ما عدا ذلك، لم يكن لأيِّ طفلٍ أن يتمنَّى أكثر ممَّا لديَّ. رافقتُه من ڤينيسيا إلى نابولي، وأخيراً، هنا، إلى لندن. لم أترك جانبه إلَّا نادرًا حتَّى

التحقتُ بأكسفورد. وحتَّى بعد ذلك، عندما بدأتُ حياتي العملية، البعيدة عن مجاله، لم يكن افتراقنا عن بعضنا البعض يزيد لأكثر من شهرين قطُّ. كنتُ أسمعه يغنِّي في أكبر الأوبرات في أوروبا. أجلس بجواره في عربته فيما حشود المعجبين تهرع على طول الطريق، وترجوه أن يُحيِّيها بابتسامةٍ. خلال كل هذا، أبدًا لم أعرف شيئًا عن موسى فروبن البائس؛ لم أعرف سوى (السويسري *Lo Svizzero*) الشهير، الذي كان بمقدوره إصابة النساء بإغماءات بمجرد تلويحة من يديه، الذي كان بمقدوره استدرار دموع الجمهور بصوته فحسب.

لَكَ أن تتخيَّل بالتالي مدى اندهاشي عندما اكتشفتُ هذه الكَومة من الأوراق، بعد أسبوعٍ من وفاة أبي في الربيع الفائت، ووجدتُ فيها كل ما كنتُ أتوقُ إلى معرفته: عن ميلاد أبي وميلادي؛ عن أصل اسمي؛ عن أمي؛ وعن الجريمة التي طالما أبقت أبي صامتًا.

رغم أنه فيما يبدو كان يقصدني أنا كقارئ لهذه الأوراق؛ إلا أنني لا أصدق حتمًا أنه لم يرغب في أن تقع أعينٌ أخرى عليها أيضًا. كان أبي مُغنِّيًا، تذكَّرْ، مارسَ غناءه بجوار النوافذ المفتوحة، حتَّى يحظى أيُّ رجل أو امرأة تعبر الشارع بالفرصة لسماع ملاكٍ يُغنِّي.

نيكولاي فروبن

لندن، *6* أكتوبر، *1806*

الفصل الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1)

في البدء كانت الأجراس -ثلاثةٌ منها- مصبوبةً من مجارف ومعازق ومعاول مُلتوية، وقدورٍ مُتكسِّرة، ونصال محارث كابية، وموقد صَدِئ واحد، مصهورةً في بعضها البعض، وعملة ذهبية واحدة في كل منها. كانت أجراسًا خشنة وسوداء باستثناء على طول حوافِّها الفضية، حيث ضَربَت مطارق أمِّي مليون ضربةً. كانت أمِّي ضئيلة بما يكفي لترقص تحتها في برج الأجراس. وفي تمايُلها، تتواثب قدماها من الألواح الخشبية المصقولة، ليقابل الجرسُ المطرقة، ويُجلجل من تاجِه إلى أطراف نعل أمِّي المُدبَّب.

كانت أعلى أجراس الأرض صوتًا، كل أبناء وادي أُوري قالوا بهذا، ورغم أنني أعرف الآن أجراسًا أقوى منها، إلَّا أن موضعها على وادي أوري جعلها صادحةً بحقٍّ. كان بالإمكان سماعها صداها من مياه بحيرة لوتسرن وحتى ثلوج معبر جوتارد. كانت صلصلتها تُحيِّي التُّجار القادمين من إيطاليا، وتُجبِر الجنود السويسريون على الضغط

براحاتهـم عـلى آذانهـم فيـما يسـيرون في أرتـالٍ مُحتشـدةٍ عـلى طريـق أوري. عندمـا تبـدأ في القـرع، ترفـض جحافـل الثـيران التَّحـرُك، وحتَّـى أكـثر الرجـال بدانـةً يفقـد الرغبـة في الأكل مـن الرجفـة في أمعائهـم. سرعـان مـا أصيبـت الأبقـار التـي ترعـى في المـروج بالصَّمَـم، وصـارَ الشـباب مـن رعـاة القطعـان ذوي آذانٍ كابيـة كالعجائـز رغـم اختبائهـم في أكواخهـم صباحًـا وظهـيرةً وليـلًا عندمـا تقـرع أمِّـي أجراسـها.

وُلِـدتُ في بـرج الأجـراس ذاك، فـوق الكنيسـة الصغـيرة. هنـاك أُرضِعتُ. وعندمـا يصـير دافئًـا بمـا يكفـي، هنـاك كنَّـا ننـام. إذا لم تكـن تؤرجـح مطارقهـا، كُنـا نجثـم معًـا تحـت الأجـراس، بالحوائـط الأربعـة لـبرج الكنيسـة مفتوحـةً عـلى العـالم. كانـت أمِّـي تحمينـي مـن الريـاح وتمسِّـد عـلى جبينـي. ورغـم أنهـا لم تنطـق بكلمـة لي، ولا أنـا لهـا، إلَّا أنهـا كانـت تراقـب فمـي فيـما أهـذر بأصـواتِ الرُّضَّـع. كانـت تدغدغني حتَّـى أضحك. عندمـا تعلَّمـتُ الحبـو، كانـت تُمسـك بقدمَـيَّ حتـى لا أسـقط مـن الحافَّـة وألقـى حتفـي عـلى الصخـور الناتئـة في الأسـفل. تسـاعدني عـلى الوقـوف. أمسـك بإصبـع في كل قبضـة، وتقـودني هـي في دوائـر، مارِّيـن بالحافـة مائـة مـرة في اليـوم. مـن ناحيـة المسـاحة، كان بُـرج أجراسـنا عالمًـا متناهـي الصِّغـر- الكثـيرون ظنُّـوه سـجنًا لطفـل. لكـن مـن ناحيـة الصـوت، كان أضخـم بيـت عـلى الأرض. ذلـك أن كل صـوتٍ انبعـثَ قـطّ كان مسـجونًا في معـدن هـذه الأجـراس، وفي اللحظـة التـي تطرقهـا فيهـا أمِّـي، كانـت تُطلـق جمالَهـا إلى العـالم. بذلـك كانـت آذانٌ كثـيرة تسـمع الـدويَّ الراعـد بصـداه يـتردَّد عـبر الجبـال. كانـوا يمقتونـه؛ أو يُلهَمـون بقدرتـه؛ أو ينتشـون حتَّـى يجـدوا أنفسـهم يحدِّقـون في الفـراغ؛ أو يصرخـون فيـما الاهتـزازات تنـزع عنهـم أحزانهـم. لكنهـم لم يجـدوه جميـلًا. لم يكـن بمقدورهـم. كان جَـمال ذلـك الـدَّويِّ محفوظًـا لأمِّـي، ولي، وحدنـا.

* * *

أتمنَّى لو كانت البداية هكذا حقًّا: أمِّي وهذه الأجراس فحسب، حواء وآدم صوتي، وأفراحي، وأحزاني. لكن هذا لم يكن حقيقيًّا بالطبع. لديَّ أب؛ أمِّي أيضًا لديها أب. والأجراس أيضًا، لديها أب. أبوها هو ريتشارد كيلشمار؛ الذي ترنَّح ذات ليلة عام 1725 على منضدة، ثملًا للغاية، لحدٍّ أنه رأى قمرين وليس واحدًا.

أغلق عينًا واعتصرَ الأخرى حتى امتزج القمران في مدار مُغبَّش واحد. تطلَّعَ من حوله: مائتا رجل يملؤون ميدان آلتدورف، في مدينةٍ كانت تفتخر لكونها في القلب من الكونفدرالية السويسرية. كان هؤلاء الرجال يحتفلون بالحصاد، وتتويج البابا الجديد، وليلة الصيف الدافئة. مائتا رجل غارقون حتَّى أعقابهم في الطمي الممتزج بالبول. مائتا رجل بأقداح خمرة الشنابس اللاذعة المسفوعة من ثمار إجاص وادي أوري. مائتا رجل سكارى مثل ريتشارد كيلشمار.

"هدوء!" صرخَ في الليل، الذي بدا له دافئًا ورائقًا تمامًا كالأفكار الدائرة في رأسه. "سأتحدَّث".

"تحدَّث!" صرخوا بدورهم.

صاروا هادئين. وعاليًا فوقهم، التمَعَت ذُرى الألب في ضوء القمر كأسنان وسط لثةٍ سوداء، مُتعفِّنة.

"البروتستانت كلاب!" صرخَ، رافعًا قدحه، ومُوشكًا على التَّعثُّر والسقوط من المنضدة. هتفوا وصبُّوا اللعنات على الكلاب في زيورخ، تلك الكلاب الثَّريَّة. صبُّوا اللعنات على الكلاب في بِرن، وعلى الكلاب ذات البنادق وجيشها الذي بمقدوره تسلُّق الجبال وغزو وادي أوري إذا شاء. صبُّوا اللعنات على الكلاب في الأراضي الألمانية في الشمال البعيد؛ الكلاب التي لم تُسمَع قَطُّ بوادي أوري. صبُّوا اللعنات على الكلاب لكُرهها الموسيقى، لتشويهها مريم العذراء، لرغبتها في إعادة كتابة الكتاب المُقدَّس.

اخترقت هـذه اللعنـات، راكـدةً لمائتـي عـام في عواصـم أوروبـا، قلـب كيلشـمار. اسـتدرَّت الدمـوع في عينيـه- هـؤلاء الرجـال أمامـه هـم إخوتـه! لكـن بمـاذا يجيبهـم؟ بمـاذا يسـتطيع أن يَعِدَهُـم؟ القليـل جـدًّا. ليـس في مقـدوره أن يبنـي لهـم قلعـةً ذات مدافـع. كان واحـدًا مـن أغنـى رجـال وادي أوري، لكـن لا يسـتطيع الإنفـاق عـلى جيـشٍ. لا يسـتطيع مواسـاتهم بحكمتـه؛ ذلـك أنـه لم يكـن رَجُـلَ أدبٍ.

ثـم سـمعوها جميعًـا، الإجابـة عـلى تضرُّعـه الصامـت. جلجلـةٌ جعلتهـم يرفعـون أعينهـم العمشـاء نحـو السـماء. أحدهـم تسـلَّق بـرج الكنيسـة وقـرعَ الجـرس. كان أجمـل وأمـضُّ صوتـًا سـمعه ريتشـارد كيلشـمار في حياتـه. تـردَّد صـداه عـبر المنـازل والجبـال. نغـزَ الـدويُّ بطنَـه المنتفخـة. وعندمـا توقَّفـت الجلجلـة، كان الصمـت دافئـًا ورطبًـا كالدمـوع التـي فركهـا كيلشـمار عـن عينيـه.

أومأ للحشد. أجابته مائتا رأس بمائتي إيماءة.

"سـأمنحكم أجراسًـا"، همـسَ. أجـالَ قدحـه عـبر سـماء منتصـف الليـل. ارتفـع صوتـه حتـى تحـوَّل إلى صيـاح. "سـأبني كنيسـة لإيـواء تلـك الأجـراس، عاليًـا في الجبـال، حتـى يصـل صـدى الجلجلـة إلى كل إنـشٍ مـن تـراب أوري! سـتكون أصـدح وأجمـل أجراسًـا بُنيـت قـطُّ!".

ازداد هتافهـم صخبًـا عـن ذي قبـل. رفـعَ ذراعيـه في انتصـار. غسـلت خمـرة شـنابس جبينـه. ثـم غمـسَ والباقـون أعينهـم في قـاع أقداحهـم واجترعـوا مـا فيهـا لآخـر قطـرة، مُصدِّقـين عـلى وعـد كيلشـمار.

فيـما يحتسي القطـرة الأخـيرة، تعـثَّرَ كيلشـمار في خطـوةٍ راجعة وسـقط مـن عـلى المنضـدة. قـضى بقيـة الليـل مستلقيًا في الطمـي، يَحلُمُ بأجراسـه.

اسـتيقظَ ليجـد نفسـه وسـط دائـرة مـن سـماءٍ زرقـاء مُشـكَّلة مـن عشريـن وجهًـا غارقًـا في التبجيـل.

"أرشِدنا!" توسَّلوا إليه.

بـدا تبجيلهـم لـه وكأنـه يرفعـه لينهـض واقفًـا، وبعـد سـتٍّ أو ثمـاني رشـفاتٍ نهمـة مـن أقماعهـم، ازداد شـعوره بانعـدام وزنـه. سرعـان مـا وجد نفسـه عـلى ظهـر حصانـه يقـود مسـيرةً طويلـة: خمسـين حصانًـا؛ عربـات كثـيرة ممتلئـة بالنسـاء؛ وأطفـال وكلاب تندفـع عـبر العُشـب. إلى أيـن يقودهـم، لم يعـرف، ذلـك أنـه حتَّـى ذلـك اليـوم كان يجـد الجبـال عدائيـةً وتهديديـة. ولكنـه الآن يقودهـم صعـودًا عـلى طريـق أوري نحـو إيطاليـا، نحـو البابـا، نحـو حقـول الجليـد التـي تلتمـع في الشـمس، وعندمـا اسـتولى عليـه الإلهـام، انحـرف بهـم عـن الطريـق وبـدؤوا في التَّسـلُّق.

عاليًـا وعاليًـا صعـدوا، حتَّـى المنحـدرات والجليـد تقريبًـا. كيلشـمار يقـود الآن خمسـمائة مـن أبنـاء أوري، وقـد تَبِعـوه حتـى وصلـوا إلى نتـوء صخـري ورأوا الـوادي يمتـدُّ أمامهـم، ونهـر ريـوس كخيـطٍ أبيـض رفيـع يضـمُّ أطـراف الـوادي معًـا.

"هنا"، همسَ. "هنا".

"هنا"، ردَّدوا. "هنا".

ثـم اسـتداروا لينظـروا إلى القريـة الصغـيرة تحتهـم مبـاشرةً، مجـرد مجموعـة عشـوائية مـن المنـازل البدائيـة. حـدَّقَ أهـل القريـة وأبقارهـم العجفـاء برهبـةٍ في هـذا الاحتشـاد عنـد التَّـلِّ الصخـري.

هـذه القريـة الصغـيرة، الجائعـة، التـي أكتـب عنها هـي قريـة نيبلمات. في هـذه القريـة ولـدتُ (لتحـترق حتَّـى تُسـوَّى بـالأرض ولتُغطِّيهـا انهيـارات الجليد).

* * *

اكتمَلَـت كنيسـة كيلشـمار في عـام 1727، بعـد أن شُـيِّدَت بعَـرَق أوري وبحجـارة أوري فحسـب، وبهـذا ظلَّـت الكنيسـة في شـهور الشـتاء، مهـما

أُحرق من أخشابٍ في الموقد، باردةً كالجبل التي شُيِّدت عليه. كانت كنيسة قصيرة وعريضة، بشكلٍ يشبه الحذاء. طُلبَ من الأسقف إرسال قسٍّ مناسبٍ للمنصب الذي يفرض الوحدة والوحشة. جاء ردُّه بعد أيام قليلة في صورة قسٍّ شاب، كالح الوجه على باب كيلشمار- الأب المُتعلِّم كارل ڤيكتور فوندراخ. "الرجل المطلوب"، قالت رسالة الأسقف، "لوضعه في منصب على جبل ناءٍ، بارد. لا تُعِده إلينا مُجدَّدًا".

صار للكنيسة الآن سيِّدٌ، واثنتا عشرة أريكة بسيطة وسقفٌ يحميها من الأمطار، لكنها لا تحوي بَعدُ ما وعدَهم به كيلشمار: لم تحصل على أجراسها؛ ولهذا حزَم كيلشمار أغراضه في عَربَتِه، وقبَّل زوجته، وقال إنه سينطلق في رحلة استكشافية إلى سانت غال ليبحث عن أعظم صانع أجراس في العالم الكاثوليكي. قرقعَ في اتجاه الشمال تدفعه صيحات الوطنية، ولم يره أحدٌ في أوري مُجدَّدًا قطُّ.

كان بناء الكنيسة قد قَضى عليه.

وهكذا، بعد عامٍ من وضع آخر لوحٍ على سقفها، لم تكن الكنيسة، المُشيَّدة لإيواء أصدح وأجمل الأجراس قاطبةً، تحوي جرس بقرةٍ حتَّى في بُرجها.

* * *

كان أبناء أوري شعبًا ذا عزيمة وكبرياء. ماذا يتطلَّب الأمر لصنع جرس؟ فكروا. قوالب من الفخَّار، بعض المعدن الذائب، بعض العوارض لتعليق الأجراس المُنجزَة عليها- وليس أكثر من ذلك. ربما لم يُرسل لهم الرَّبُّ بكيلشمار إلَّا لوضعهم على بداية الطريق فحسب.

الرَّبُّ يحتاج إلى ذَهبِك، انطلق النداء. اجلب نحاسك وقِصديرك.

معاول صدئة، مجارف مُتكسِّرة، سكاكين متآكلة، قدور مُتشقِّقة- أُلقيَ كل هذا في كومة سرعان ما تحوَّلت إلى برجٍ سامق في ميدان

آلتدورف في نفس الموضع الذي قدَّم فيه كيلشمار وعده قبل ثلاثة أعوام. كانت الحشود تهتف مع كل عطيَّةٍ جديدة. قدَّمَ واحد من الرجال الموقدَ الذي كان يبقيه دافئًا ذلك الشتاء. ليُباركها الرب، كانت الغمغمات عندما طرحت أرملةٌ عجوز كل مجوهراتها. تدفَّقَت الدموع عندما اتَّحدت أفضل ثلاث عائلات لتقديم ثلاث عملات ذهبية. احتاج الأمر إلى عشر عربات تجرُّها الثيران لنقل كل هذا إلى القرية.

لم يكن من الممكن تجاهل أهل قرية نيبلمات، رغم أنه لم يكن لديهم سوى قليل من المعدن لتقديمه. مع اعتنائهم بوعاء الصهر المؤقَّت طوال تسعة أيام وتسع ليالٍ، ساهموا أيضًا بأيٍّ ممَّا تبقى من خمرة شنابس في دوارقهم عند الفجر، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من أسنان ذئب، وقرن وعل منقور، وكسرة مُغبَّرة من الكوارتز.

اثنا عشر رجلًا أصيبوا بندوب إلى آخر حياتهم بسبب الحروق في اليوم الذي صبُّوا فيه الحساء المتوهِّج في القوالب. كان الجرس الأول مستديرًا كديك رومي بدين، والثاني كبيرًا بما يكفي لإخفاء ماعز صغير تحته، فيما كان الثالث، الجرس الثالث العجائبي، بارتفاع قامة رجل واحتاجَ إلى ستة عشر حصانًا لرفعه إلى البرج.

احتشد أهل أوري جميعهم على التَّلِّ أسفل الكنيسة لسماع الأجراس تُقرع للمرة الأولى. عندما هُيِّئ كل شيء، استدارَ المحتشدون بأعينهم التَّبجيلية إلى الأب كارل ڤيكتور فوندراخ. حدَّقَ فيهم بدوره كما لو كانوا مجرَّد قطيع من الأغنام.

"مُباركَة، أيُّها الأب؟" همست واحدة من النساء. "هلّا باركتَ أجراسنا؟".

فركَ صدغيه ثم خطا أمام الحشد. أحنى رأسه، وفعل الجميع مثله. "أبانا الذي في السماء"، نعقَ من خلال اللعاب المتراكم في حلقه. "بارك هذه الأجراس التي منحتَها..."، تنشَّق وتطلَّعَ من حوله، ثم ألقى

نظرةً خاطفة على حذائه، الذي كان يستقرُّ في كعكة رطبة من البراز. "اللعنة عليهم جميعًا"، غمغم. خطا متراجعًا مُخترقًا الزحام. راقبوا شكله البشري حتى اختفى في منزله، الذي كان ذا نوافذ زجاجية، لكن دون ألواح بَعدُ على سقفه.

ثم استدارَ الحشد الصامت لمراقبة سبعة من أبناء عمومة كيلشَمار يسيرون بثباتٍ وعزم إلى داخل الكنيسة- أحدهم لقرع الجرس الأصغر، واثنان لقرع الأوسط، والبقيَّة لقرع الجرس الأكبر حجمًا. حبس كثيرون في الحشد أنفاسهم فيما بدأت الأجراس الثلاثة العظيمة، في برج الكنيسة، في الاهتزاز.

ثم بدأت أصدح وأجمل الأجراس قاطبةً في الطنطنة.

ارتعشَ هواء الجبل. تدفقَّ الدَّويُّ عبر الوادي. كان صارًّا كمِفصَل صدئ، وهادرًا كانهيارٍ جليدي، وحادًّا كصرخة، ولطيفًا كهمسة أُمٍّ. صرخَ كل إنسان وجفلَ وألقى بيديه على أذنيه. تعثَّروا في خطواتهم مُتراجعين. تشقَّقت نوافذ الأب كارل ڤيكتور. ضُمَّت أسنانٌ بشدَّة حتَّى تشظَّت. انفجرت طبلات آذان. شعرت بقرة، وعَنزتان، وامرأة، بوخزاتٍ مفاجئة من ألم المخاض.

عندما تلاشى الصدى من ذُرى الجبال البعيدة أخيراً، ساد الصمت. حدَّقَ الجميع في الكنيسة وكأنها ستنهار. ثم اندفع الباب مفتوحًا وظهرَ منه أبناء عمومة كيلشمار هارعين، راحاتهم تُمسك بآذانهم المعطوبة. واجهوا الحشد وكأنهم لصوص متلبِّسون بسرقة الكنز في سراويلهم.

ثم بدأ الهتاف. ارتفعت الأيادي نحو السماء. اهتزَّت القبضات. تدفَّقَت الدموع. لقد فعلوها! قُرِعَت أصخب الأجراس قاطبةً!

كانت مملكة الرَّبِّ على السماء في أمان!

تراجعَ الحشد ببطء هابطًا التَّلّ. عندما صاح أحدهم: "اقرعوها مُجدَّدًا!"، كان هناك تذلُّل جماعي، وسرعان ما بدأ الاندفاع- ركضَ الرجال والنساء والأطفال، والكلاب والأبقار، وانزلقوا وتدحرجوا هابطين التَّلّ الطيني واختبؤوا خلف المنازل المتهالكة كما لو أنهم يحاولون الهروب من سيلٍ ثَلجي. ثم كان هناك صمت. رؤوسٌ كثيرة أمعنت النظر حول المنازل ونحو الكنيسة. لم يروا أبناء عمومة كيلشمار في أيٍّ مكان. في الواقع، لم يَعُد هناك إنسان في محيط مائتي ياردة من تلك الكنيسة. لم يَعُد هناك إنسان شجاع بما يكفي ليقرع الأجراس مُجدَّدًا.

أم كان هناك؟ امتلأ الهواء بالهمسات. أشارَ الأطفال إلى لطخةٍ داكنة تتحرَّك بخفَّة صاعدة التَّلّ، كربطة تبن، تدفعها ريحٌ رقيقة. رجل؟ لا، ليس رجلًا. بل طفلة -فتاة صغيرة- في أسمال قذرة.

هكذا حدث أن كان لهذه القرية، من بين كنوزها، فتاة بلهاء صمَّاء. كانت معتادة على التحديق في أهل القرية بنظرة متوهِّجة متوعِّدة، كما لو أنها تعلم بالخطايا التي يجاهدون لإخفائها؛ ولهذا كانوا يبعدونها بجرادل مياه الغسل القذرة متى اقتربت منهم. كانت هذه الطفلة الصَّمَّاء تُحدِّق في برج الكنيسة فيما تتسلَّق التَّلّ، وسمعت الأجراس أيضًا، ليس بأذنيها الخاويتَيْن، لكن كما تُسمَع القَداسة: بارتعاشةٍ في الأحشاء.

راقبوها جميعًا تتسلَّق التَّلّ، مُدركين أن الرَّبَّ قد أرسل بهذه الفتاة البلهاء إليهم، تمامًا كما أرسل إليهم بكيلشمار من قبل، وكما أرسل إليهم بالأحجار لبناء هذه الكنيسة، وبالمعدن لصبِّ أجراسها.

رفعت بصرها إلى برج الكنيسة وكأنها تتمنَّى لو تستطيع الطيران.

"اصعدي"، همسوا. "اصعدي".

* * *

لم تسـمع حثّهـم لهـا. لكنهـا اندفعـت، بفعـل ذكـرى دويّ الأجـراس، نحـو أبـواب الكنيسـة التـي لم تطأهـا مـن قبـل قـطُّ. كانـت هنـاك شـظايا مـن الزجـاج عـلى الأرضيـة -مـن النوافـذ المتكسِّرة- مـا جعلهـا تُخلّـف وراءهـا آثـار أقـدام داميـة فيـما تصعـد الـدَّرج الضيـق في ظهـر الكنيسـة. في الطابـق الأول مـن بـرج الأجـراس، كانـت الحبـال الثلاثـة تتـدلّى عـبر السـقف. لكنهـا كانـت تعلـم بأمـر الحبـال، وتعـرف أن هـذا السـحر لا يـأتي منهـا، أنهـا تُرشـدها إلى الأعـلى، فصعـدت السُّـلّم ورفعـت الشـبكة الحاجـزة برأسـها. كانـت جوانـب بـرج الكنيسـة مفتوحـةً -بـلا حاجـز لمنـع السـقوط- ورأت أربعـة مشـاهد مختلفـة: عـلى اليسـار، الجُـرُف الخاويـة؛ في المقدمـة، الـوادي يلتـفُّ صاعـدًا نحـو إيطاليـا؛ إلى اليمـين، معـبر سوسـتين المُغطّـى بالثلـج؛ وعندمـا صعـدت عـبر بـاب الشـبكة، وراءهـا، كان جمهورهـا محتشـدًا حـول المنـازل كالديـدان حـول اللحـم المتعفّـن.

سـارت تحـت أكـبر الأجـراس وتمعَّنَـت في ظلالـه. جسـدٌ أسـود وخشـن. شـبَّت بقدميهـا وضربتـه بيدهـا. لم يتحـرك. لم تشـعر بصـوت. كانـت هنـاك مِطرقتـين نُحاسـيتَين تسـتندان عـلى الحائـط في الزاويـة. رفعـت واحـدة منهـما وأرجحتهـا ضاربـةً الجـرس الأكـبر.

في البدايـة، شـعرَت بـه في بطنهـا، كلمسـة يـدٍ دافئـة. انقَضَـت أعـوامٌ طويلـة منـذ لامسـها بـشر. أغلقـت عينيهـا وشـعرت بتلك اللمسـة تتشـعَّب إلى فخذيَهـا، وتنطلـق عـبر ضلوعهـا. تنهَّـدَت. قرَعَـت الجـرس مُجـددًا بالمِطرقـة، بأقـوى مـا تسـتطيع، ومَضَـت اللمسـة أبعـد. التفَّـت حـول ظهرهـا وكتفَيْهـا. بـدت وكأنهـا تحملهـا؛ صـارت تطفـو في الصـوت. مـرَّةً تلـو الأخـرى ضربـت الجـرس، وازداد ذلـك الصـوت دفئًـا.

قرَعَـت الجـرس الأوسـط. سَـمِعَته في عنقهـا، في ذراعيهـا، في التقويـرات وراء ركبتيهـا. انغمـس فيهـا الصـوت، كأيـدٍ دافئـة تُباعـد بـين أطـراف

جسـدها، صـارت، في ذلـك الجسـد الضئيـل، أطـول وأعـرض مـن أيٍّ وقـتٍ مـضى.

سَـمِعَت الجـرس الصغـير في فكِّهـا، في لحـم أذنيهـا، في تقوُّسـات قدميهـا. طوَّحَـت بالمِطرقـة مُجـدَّدًا ومُجـدَّدًا. رفعـت المِطرقـة الثانية حتَّى تسـتخدم كلتـا ذراعيهـا في ضرب الأجراس.

* * *

في القريـة، في البدايـة، أطلقـوا الهتافـات والصياحـات احتفـالًا بالمعجـزة. ترجَّـعَ صـدى الـدَّويِّ إليهـم عـبر الـوادي. أغلقـوا أعينهـم وأنصتـوا إلى مَجدِهـم.

قَرَعَـت الأجـراس. انقضـت نصـف سـاعة. لم يسـتطيعوا سـماع بعضهـم البعـض. صرخَ بعضهـم حتـى يُسـمَع؛ وجلـسَ أغلبهـم عـلى جـذوع الأشـجار أو اسـتندوا عـلى المنـازل وضغطـوا بأياديهـم عـلى آذانهـم. كانـت الخنازيـر قـد شُـويَت بالفعـل، وبراميـل البـيرة قـد ثُقِبَـت، لكـن كيـف لهـم أن يبـدؤوا احتفـال النَّـصر دون مباركـة؟

"توقَّفي!" صاح أحدهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"اصمتي!".

"يكفي!".

لوَّحوا بقبضاتهم في اتِّجاه الكنيسة.

"ليوقفها أحدكم!".

عنـد هـذه الدعـوة، تطلَّـعَ كل واحـدٍ منهـم بخجـلٍ إلى جـاره. لم يخـطُ أحـدٌ إلى الأمـام.

"أحضروا أباها!" صرخوا. "هذه هي وظيفة الأب".

دفعوا بإيزو فروبن العجوز، راعي الغنم الذي أنجبت زوجته هذه الفتاة المشوَّهة بعد عشرين عامًا من الزواج. لم يزد عمره عن الخمسين، لكنَّ عينيه كانتا غائرتَيْن وساعِدَاه على شكل عصيان معروقة شائخة وكأنه أبٌ لجدٍ. فركَ ظَهْر يده بأنفه الراشحة وحدَّقَ عاليًا في الكنيسة وكأنهم أرسلوه لقتل تِنِّين. تقدَّمَت امرأة، وسدَّت أذنيه بالصوف، ثم لفَّت سروالًا قذرًا حول رأسه، وربطته في مؤخرة الرأس كالعمامة.

هتفَ بشيءٍ ما للرجل الواقف بجواره، الذي اختفى في الزحام وعاد بعد لحظات بسوط بِغال.

مرَّاتٍ كثيرة سأسمع هذه القصة مُصادفةً: إيزو فروبن يناضل لصعود التَّلِّ، إحدى يديه تمسك بالسروال لتمنعه من الانزلاق على عينيه، والأخرى على السوط. كان المجاز المُتحدِّر قد غرقَ في الطمي بفعل آلاف الأقدام المُتحمِّسة لحدٍّ أنه انزلق مرارًا وتكرارًا؛ يتزحلق خطوتين على ركبتيه، ثم ينتزع نفسه من الطمي للوقوف مُجدَّدًا. عندما وصلَ إلى الكنيسة أخيرًا، كان مُغطًّى من رأسه إلى أخمصه بالطين. نثرَ السوط لطخاتٍ فيما يتأرجح في يده. حتى مع الصوف في أذنيه والسروال حول جبينه، قبضت الأجراس على رأسه وهزَّته مع كل قَرعَة جديدة.

ازداد الصوت صخبًا بطبيعة الحال مع دخوله إلى الكنيسة وصعوده الدَّرج، الذي بدا وأنه يرتعش من تحته. ألصق راحتَيْه بأذنيه المسدودتَيْن، لكن بلا جدوى. لعن الرب للمرة الألف لإرساله هذه الطفلة إليه.

في الطابق الأول من برج الكنيسة، لاحظَ أن الحبال ساكنة، ومع ذلك قُرِعَت الأجراس. رأى بُقعًا سوداء أمام عينيه. وفيما يبدأ العالم في الدوران من حوله، أدرك بغتةً: لم تكن هذه أجراس الرَّبِّ على

الإطـلاق! لقــد خُدِعــوا جميعهــم. كانــت أجــراس الشــيطان! خدعهــم الشــيطان جميعًـا. لقــد شــيَّدوا لــه كنيســة. صبُّـوا لــه أجراسًــا!

اســتدارَ ليهــرع هابطًــا الــدَّرَج، لكــن حينهــا لمحَ مــن فوقــه، في الشــقوق بــين ألــواح الســقف، رقصــة أقــدام شــيطانية، صغــيرة.

مــا زال هنــاك أثــرٌ مــن الشــجاعة في ذلــك الجســد الــذاوي، الهزيــل. قبــضَ عــلى الســوط وكأنــه ســيفه. ارتقــى السُّــلَّم إلى بــرج الكنيســة وفتــح الشــبكة الحاجــزة بمــا يكفــي فحســب لإلقــاء نظــرة.

كانــت تتقافــز وتُــدوِّم. تتمايــل وتتطــاول. تؤرجــح المطرقــة وتتــدلّى هــي في الهــواء فيــما تخبــط بهــا. بــدت الأجــراس وكأنهــا تــدقُّ مــن داخلهــا، كــما لــو أن الأجــراس التــي تضربهــا مــا هــي إلَّا قلبهــا الأســود ذاتــه. كانــت تتبخــتر عــلى الحافــة، يــدٌ غــير منظــورة ترشــدها لتعــود إلى الأمــان. تقــرع أكــبر الأجــراس: صــوتٌ كأظافــر تكشــط أذنيــه.

كانــت اللــذَّة المتوهِّجــة في عينيهــا آخــر دليــل يحتاجــه إيــزو فروبــن: أن ابنتــه مسَّــها الشــيطان. فتــحَ البــاب الشــبكي عــن آخــره وزحــف عــبره بصعوبــة. كان الرجــل العجــوز محاربًــا. جلــدَ الطفلة-الشــيطان حتَّــى اســتلقت عــلى أرضيــة بــرج الكنيســة بــلا حــراك. سرعــان مــا تحــوَّل دويُّ الأجــراس إلى مجــرد رنــين خافــت في الهــواء. تفجَّــرت الهتافــات مــن القريــة بعيــدًا مــن تحتــه. تأوَّهَــت ابنتــه.

أســقطَ ســوطه بجوارهــا ثــم هبــطَ مــن الــبرج. مــرَّ عــبر المدينــة المُحتفلة بــلا توقُّــف، ولم يــره أحــد في يــوري مُجــدَّدًا، وهكــذا، بعــد كيلشــمار، صــارَ الضحيــة الثانيــة، لكــن ليســت الأخــيرة، مــن ضحايــا الأجــراس.

* * *

في الكنيســة، لم تتحــرَّك الفتــاة إلَّا بعــد حلــول الظــلام. رفعــت رأســها للتأكــد أن أباهــا قــد غــادرَ، ثــم جلســت مُعتدلــةً. كانــت ملابســها داميــة.

لذعَتْها الحروق في ظهرها. كانت أذناها الميتتان مصمتتَيْن على العربدة التي في القرية في الأسفل. تناولت مطارقها وفتحت الباب الشبكي.

غدًا، قالت لنفسها فيما ترفع بصرها ناظرةً إلى الأجراس. غدًا سأقرعكم مُجدَّدًا.

في اليوم التالي قرعت الأجراس، وكذلك فعلت في اليوم الذي يليه، وفي كل صباح وظهيرة ومساء، حتى موتها.

كان اسم هذه الطفلة آديلهايد فروبن، وأنا، موسى فروبن، ابنها.

(2)

كان لـدى أمِّـي شَـعرٌ عبـارة عـن عـشٍّ قـذر، وعُقَـدٌ مـن عضـلات حديديـة في ذراعيهـا، ولي وحـدي، ابتسـامةٌ دافئـة كشـمس أغسـطس. بحلـول ميـلادي كانـت تعيـش منـذ بضعـة أعـوام في كـوخ صغـير عـلى جبـال الألـب مُحاذيًـا للكنيسـة. لا، هـذا غـير صحيـح. كانـت أمِّـي تعيـش في بـرج الكنيسـة، ولا تـأتي إلى الكـوخ إلَّا عندمـا يصـير الـبرج -مُعرَّضًـا لطقـس الجبـال القـارص- في غايـة البـاردة، أو عندمـا يمتلـئ بالثلـوج، أو عندمـا تجـوع لتـأكل قشـور الجـبن أو العصيـدة البـاردة التـي يتركهـا أهـل القريـة لهـا، أو عندمـا تكتسـح عواصـف الـبرق الصيفيـة الـوادي وتـضرب بـرج كنيسـتنا، وكثـيراً مـا كانـت تفعـل، وحينهـا كانـت الأجـراس تُقـرع كـما لـو عـلى يـد الأشـباح. رغـم أنهـا كانـت قـذرة، ولم تسـتحمَّ قـطُّ طـوال حياتهـا، إلَّا أنهـا كانـت تفركنـي مـن رأسي إلى أخمـص قدمـي في مـاء النبـع البـارد. كانـت تُطعمنـي مـن ملعقـة خشـبية حتَّـى تمتلـئ بطنـي. لم أعـرف حينهـا شـيئًا عـن لَعـب وضحـك الأطفـال الآخريـن، وكيـف يتظاهـرون

بأنهم ملوك وجنود، وكيف يرقصون وينشدون الأغاني معًا. لم أرغب في شيءٍ من الحياة أكثر ممَّا لديَّ. لم أرغب سوى أن أجلس هناك فحسب، ساقاي ذاتا الأربعة أعوام تتدليَّان على حافة برج الكنيسة؛ أتطلَّع إلى الجبال، وأنصت إلى جمال الأجراس.

ولهذا لم تُدهشني مراقبة أهل القرية الدائمة لي. صبيٌّ ذاهل فيما يبدو عن الأجراس التي تُفجِّر طبول الآذان على بعد خمسين ياردة؟ صبيٌّ لا يتحدَّث أبدًا، قدماه لا تبدوان أنهما تخشخشان حتَّى في العشب، صبيٌّ لا يُحدث ضجيجًا على الإطلاق؟ صبيٌّ يتجاهل حتَّى الصيحات الغاضبة للقسِّ كارل ڤيكتور فوندراخ؟ لم يكن هناك تفسير آخر. الصبي أصمٌّ. إنه أبله كأمِّه.

ومع ذلك، لنقترب من هذا الصبي على يجلس على حافَّة عالَمه، الذي يحدِّق بخواء في مشهدٍ الرَّبُّ وحده قادر على خَلقه. نحن في بدايات الصيف، وجبال الألب غارقة في خضرةٍ وافرة لحدٍّ أن المرء يحسد الأبقار بين العُشب، ويودُّ لو ينحني بجانبها ويلتهم العشب معها حتى تتساقط قطرات اللعاب على ذقنه. في الأعلى، تظلُّ بُقَع من الجليد في التجاويف وتحت الجُرُف. الذُّرى البعيدة، الأكثر اخضرارًا، مُترعةٌ بنقاطٍ متناثرة من الأغنام التي ترعى العشب وكأنها قملٌ على رأس شحَّاذ.

هذا الصبي يُنصت. الأجراس الثلاثة جميعها تقرع وراءه، ويسمع النغمات الناقرة الطَّنَّانة، وما بينها من النغماتِ المُجتزَأة الوافرة. وكأن كل جرس عبارة عن بُرج من الجوقات البشرية المُنمنمة، مُكدَّسةً فوق بعضها البعض بخفَّةٍ، وكلٌّ منها تقرع نغمةً مختلفة، تمامًا كما يلتمع ألف ظلٍّ من الطلاء بدرجات لونية متباينة على نحوٍ واهٍ. في عقله، كان يفرد أمامه هذه النغمات كما يفرد الأطفال الآخرين قِطع ألعابهم. كان يضع النغمات المجتزَأة معًا بحيث تجعله يبتسم

أو يجزُّ على أسنانه. يجد فيها النغمات التي يستخدمها الصقر في صرخاته. يجد تلك التي تُشكِّل هزيم الرعد، وتلك التي تُشكِّل صفير السناجب. يسمع النغمات التي يستخدمها هو نفسه عندما يضحك. كانت الأجراس صاخبة، صاخبة للغاية، لكنها لا تؤذي أذنيه؛ ذلك أن أذنيه تشكَّلتا حول تلك الأصوات، وكل قَرعة هائلة تجعلهما أكثر طواعيةً بكثير.

كانت تلك صوت شهيق أمِّه فيما تسحب مطرقتها للخلف؛ صوت زفيرها فيما تدفعها للأمام؛ خشخشة ردائها المُهلهل على ساقها العارية؛ صرير الحوامل الصدئة للأجراس؛ صفير الريح الدافئة عبر الشقوق في السقف فوق رأسه؛ خُوار الأبقار في المرعى؛ صياح الصقر فوق الحقول؛ اندفاع الجليد الذائب هابطًا الجُرُف.

يسمع أيضًا ويُدرك أن الماء على الجرف هو في الحقيقة مياهٌ كثيرة: هو الأحجار تُجَرُّ وتتدحرج؛ هو قطرات تنفجر في قطرات؛ قهقهة البِركة الجيّاشة؛ ضحك الشَّلّالات. كان بمقدوره التحديق في كلِّ هذا عبر التالي: انفراج شفتَيْ أمِّه، اندفاعة الأنفاس في أنفها، الهواء الذي يُصفِّر مارًّا بلسانها، حلقها يئنُّ، رئتاها تنعب مُنفتحةً. كطفلٍ يستكشف شيئًا بفمه ويتحسَّسه بيدَيْه، كان يمسك بكل صوت ويتنهَّد، نعم!

ليس هذا سحرًا، أؤكد لكم بصفتي شاهدكم الأمين، لم يستطع السماع عبر الجبال أو من الجانب الآخر من الأرض، بل الأمر مُجرَّد انتقاء واصطفاء، وإذا كان هذا الصبي، في عُمر الرابعة، بمقدوره فِعل القليل جدًّا -فهو لا يستطيع التَّحدُّث ولا الكتابة ولا القراءة- من انتقاء الأصوات، وتشريح الأصوات، فقد كان ذلك شيئًا لا يستطيع إنسان آخر فعله مِثله. هذا ما منحته له أمُّه وأجراسها.

وهكذا صار الصبي يجلس في عليائه ويُشرِّح العالَم. ينتقي من بين الأجراس الثلاثة، أو يسمعها ككُلٍّ واحد، يُشرِّح دويَّها، ثم يُنحِّيها

جانبًـا، يقبـض عـلى صـوت الريـاح، يسـمع في الريـاح مـا نـراه في أمـواج الميـاه: وفـرة مـن التَّيـارات، فوضويـة ومُرتَّبـة في آنٍ بفعـل قانـون إلهـي غامـض. يحـبُّ الإنصـات إلى الريـاح تمـرُّ عـبر الثقـوب في السـقف مـن فوقـه، أو تنكـسر حـول ناصيـة الـبرج، أو تُرفـرفُ عـبر العُشـب الطويـل في المـروج.

ورغـم بهجتـه تجـاه أيِّ صـوتٍ جديـد، سُرعـان مـا يـدرك أن الأصـوات ليسـت مجـرَّد شيءٍ جديـر بحُبِّـه. يتعلَّـم أن الصفـير عـبر الشـقوق يكـون أضعـفَ مـا يمكـن عندمـا يقـترب المطـر. يخـشى الأقـدام المتباطئـة لأوائـل المُصلِّـين في صباحـات الأحـد، لأن هـذا يعنـي أن أمَّـه سـتهرع للاختفـاء في الكهـوف أعـلى الكنيسـة حتَّـى تُعـاود الظهـور، بعـد سـاعات. فقـط عندمـا يختفـي ظـلُّ الأب كارل ڤيكتـور عائـدًا إلى القريـة. يكـره صـوت سُـعالها؛ لأن هـذا يعنـي أنهـا ستسـقم قريبًـا -وهـذا مـا يحـدث لهـا كل شـتاء- وأن عينيهـا سـتغرقان في الضبـاب، وأنهـا ستسـير كالنائمـين.

عندمـا يبلـغ الخامسـة سـيبدأ في التطـواف، أقـل خجـلًا وجفـولًا مـن أمـه. سـيُشرِّح القريـة: الريـاح التـي تـصرُّ بـين المنـازل الخشـبية؛ دندنـة ميـاه الغسـيل وبـول الحيوانـات خارجًـا مـن الزرائـب وهابطًـا المُنحـدر؛ قعقعـة وجَـرْش عجـلات العربـات عـلى حجـارة الطريـق؛ نبـاح الـكلاب؛ قوقـأة الدِّيَكـة، وفي الشـتاء: جـؤار البقـر وأنـين الماعـز، كـما لـو أن هنـاك مجنونًـا محبـوس في كل زريبـة.

تسـتولي عليـه أصـوات الرجـال؛ أنفاسـهم، تنهُّداتهـم، تأوُّهاتهـم، سِـبابهم. يتزاجـرون ويهتفـون ويضحكـون، وكل صـوت منهـا لـه مليـون شـكل. لكـن رفـوف ذاكرتـه لا تعـرف حـدًّا. الآن صـارت هنـاك كلـمات ليتحـدَّث بهـا، كلـمات يحملهـا عائـدًا بهـا إلى بُـرج الكنيسـة. وفيـما تقـرع أمُّـه أجراسـها، يهـذر هـو، ويـصرخ بالمَسـبَّات في اتِّجـاه السـماء، يتلفَّـظ

بالصلوات في قبضته حتى يبدو كمُزارع القرية الذي قضمَ نصف لسانه.

وهناك أصواتٌ يمقتها، وعلى الأخص أصوات الأب كارل ڤيكتور فونداراخ: مشيته العرجاء؛ أنفاسه المُصفِّرة؛ حفيف وهرس شفتيه، كعجلٍ صغير يلتهم ضَرْعًا؛ الدَّويُّ عندما يفتح الكتاب المُقدَّس هائل الحجم بعنفٍ على المنبر؛ الطقطقة المكتومة لدوران المفتاح في صندوق الصدقات؛ التَّأوُّه عندما ينحني ويقبض على ظهره؛ التَّنهُّد عندما يتطلَّع إليّ.

كم تفضحك أصواتك يا كارل ڤيكتور! عرفتُ في ستة أعوام ما يكفي لإدانتك بالنار الأبدية! أعرف جحوظ عينيك عندما تُغلقهما بقوة، أعرف قرقرة البلغم في حلقك عندما تخطب أيام الآحاد في كنيستنا. أسمع غمغماتك البغيضة عندما تنظرُ من علٍ إلى قطيعك. وعندما تصعد إلينا التَّلَّ أحيانًا، عندما أسمعك في صفيرك الهائج تقول إنك لست صبيَّ مشاوير الرَّبِّ، عندما تنادي على أمِّي، وتصفق باب كوخنا في الليل، أو حتَّى عندما تعجز عن كبح جماح نفسك، في ضوء النهار- رغم أنها لا تسمعك، إلا أنني أسمعك. الهتافات التي تنهمر من فمها الأُمِيِّ، والتي تبدو لك كهذيان أبله؛ تلك الهتافات كانت أنقى التَّوسُّلات قاطبةً في نظري.

(3)

كان أهـل القريـة يقولـون إن أمـي مُختلّـة العقـل. كانـت فَزِعـة، خَجلى، ذات مظهـرٍ متوحِّـش؛ كانـت تبـكي وتضحـك بـلا سـبب. تختبـئ منهـم في الكهـوف؛ أحيانًـا مـا تمـضي بـلا ملابـس؛ ترفـع ابنهـا في بـرج الكنيسـة؛ تـأكل بيديهـا؛ لا تهتـمُّ بـشيءٍ في الحيـاة سـوى بطفلهـا وقـرع أجراسـها.

مـرّات كثـيرة راقبـت أمِّـي تتسـلّق إلى عـوارض بـرج الكنيسـة حتّـى تزحـف عـلى رأس الجـرس الأوسـط، ثـم تتـدلّى وتلـفُّ سـاقيها حـول خصره، حاضنـةً التـاج بـذراعٍ فيـما تـضرب الجـرس الخامـل بمِطرقتها في الآخـر. ذات يـوم، كدَّسَـت برجًـا مـن جـذوع الأخشـاب تحـت الجـرس الأكـبر ووقَفَـت داخلـه، حتّـى تُزغـزغ الأمـواج المُتداخلـة كل نسـيجٍ في جسـدها. وفي يـومٍ آخـر، سرقـت لجـام حصـان مجـدول، ربَطَـت طرفًـا بعارضـة رأس الجـرس والآخـر بخصرهـا. تمايَلَـت وسـط الأجـراس، أغلقـت عينيهـا، وتوهَّمَـت، أعتقـد، أنهـا واحـدة مـن الأجـراس.

في مرَّةٍ أخرى، كَسَت الأجراس بالطمي وقرعتها. أمسكت بُشعلة متوهِّجة بين شفتيها وضرَبَت بها الأجراس. ضربتها بيدها. بجمجمتها. بعظمة فخذ بقرة. بكريستالة وجدتها في كهفٍ. بكتابٍ مُقدَّسٍ أخذته من منبر كارل ڤيكتور (ثم ألقته في الطمي عندما لم يعجبها الرنين المكتوم). أحيانًا ما كانت تجلس في زاوية بعيدة وتقرع الأجراس بسحب حبل الأجراس بإيقاع ثابت بيدٍ واحدة. لكنها دائمًا ما تعود، في النهاية، إلى رقصها: تتقافز وتؤرجح المطارق وتغلق عينيها فيما تمضي الاهتزازات عبر جسدها.

فيما تقرع أمي أجراسها، كانت تُوالف أنسجة جسدها كما يوالف عازف الكمان أوتاره. في عُنقها، تقرع بخفوت نغمةً مجتزأة من الجرس الأوسط. في فَخذَيها، بأخرى مجتزأة. في أسفل قدمَيْها، أسمع الضربة الناقرة لأصغر الأجراس. كل نغمةٍ، تصدح في لحمها، كانت في ذاتها الصدى الأوهى للتناغم الأكبر. لا أستطيع تذكُّر وجه أمِّي، لكنني أتذكَّر هذا المشهد الطبيعي لأصواته. ورغم أنني لا أحمل تشابهًا يمكنني تذكُّرها به، إلَّا أنني عندما أغلق عينَيَّ وأسمع جسدها يصدح بتلك الأجراس، يصبح الأمر كما لو أنني أحمل بورتريهًا لها بين يدَيَّ.

* * *

كانوا ليسرقون طفلًا عاديًّا ويضعونه للعمل تحت ستار الصدقة وعمل الخير، لكنهم سمحوا لي بالبقاء مع أمِّي؛ لأنهم اعتقدوا أنني أصمُّ ومجنون مثلها. أحيانًا ما كنتُ أراقب أطفال القرية يلعبون وأتمنَّى لو انضممتُ إليهم، لكنهم كانوا يرمونني بالأحجار كلما حاولتُ الاقتراب كثيرًا. عشنا لثماني سنوات في برج الكنيسة والكوخ، ولم نعمل قطُّ (سوى في قَرْع الأجراس، الذي كان مكافأةً لنا، وليس

مَهمَّـة عمـل)، وأبـدًا لم نَطـهُ كثـيرًا، رغـم أنـنـا سرعـان مـا اسـتغنينا عـن وجبـات الصدقـة الهزيلـة التـي يقدِّمهـا أهـل القريـة.

كسيِّدٍ للأصوات، لم يكـن مـن الصعـب علـيَّ أن أتسـلَّل إلى واحـد مـن منـازل، ثـم أُنصـت حتَّـى أتأكَّـد مـن خلـو غرفـة المـؤن مـن البـشر، ثـم أختطـف قطعـة نقانـق مـن أفضـل الأنـواع، ثـم أركـض مـارًّا ببـابٍ (خلفـه يسـتغرق زوجٌ وزوجتـه في حديـثٍ عـن أبقـار جارهـم)، لأسرق رغيـف خبـز طـازج يُـبرَّد بجـوار المَوقِـد، ثـم أرحـل بـلا إحـداث أيِّ صـوت. رغـم أننـي بَقيـتُ ضئيـل الجسـد، إلا أننـي اكتسـبت ذائقـة تجـاه سـيقان الحِمـلان، ولحـم الخنزيـر نصـف المطهـو، والبيـض الـذي أمتصُّـه مـن قِشرتـه. بحلـول يـوم ميـلادي الثامـن، كنـتُ سرقـت بيضًـا مـن تحـت الدجـاج، وقـدور يخنـة مـن عـلى المواقـد، وأقـراص كاملـة مـن الجـبن مـن السراديـب. أحيانًـا مـا أُنصِـت إلى الأمهـات الأخريـات يحكـين القصـص لأطفالهـن أمـام الموقـد، أو أراقـب ابنًـا شـقيًّا يتسـلَّق ذراع أبيـه. ذات مـرة، في المسـاء، مُتسـلِّلًا إلى واحـد مـن منـازل القريـة، صادفـت أمًّـا تُهـدِّئ مـن روع ابنهـا العاجـز عـن النـوم، لأن أصدقـاءه أخـبروه أن شـبح إيـزو فروبـين يهيـم في القريـة. كان الأب يجلـس مُنهَـكًا إلى المائـدة. "إنـه هـو مَـن سرق فخـذ الخنزيـر"، قـال الصبـي لأمـه. "والجُبن مـن عِنـد إيجرسـيس والقِـدْر مـن...".

"ششـش"، همَسَـت أمـه، "لا يوجـد شيء اسـمه أشـباح". ثـم غنَّـت بخفـوتٍ في أذنـه. وقفـتُ مأخـوذًا بغنائهـا، وبـدفء موقِدهـا، ناسـيًا لوهلـة أن هـؤلاء النـاس قـد يرونـني في أيِّ لحظـة. خَطَـت جيئـةً وذهابًـا واضعـةً رأس ابنهـا المُتـدلِّي عـلى عنقهـا. ثـم بغتـةً، لَمَحَـت عينَـيَّ اللامعتـين. "آآج!" نعقَـت كـما لـو أنهـا رأت فـأرًا. انتفـض الأب الهُـمام مـن عـلى مقعـده الخشـبي الطويـل. طـارت فـردة حـذاء بجـوار رأسي؛ وأصابـت الثانيـة ظهـري فيـما أنطلـق مُسرعًـا خارجًـا مـن البـاب. تعـثَّرتُ وسـقطتُ في الطـين. فيـما ينطلـق الأب في إثـري ملوِّحًـا بلجـام كسـوطٍ، أسرعـتُ للدخـول في الظـلال. لبضـع دقائـق، بكيـتُ وراء زريبـة، لكـن سرعـان مـا

استولى عليَّ الجوع. انسللتُ إلى داخل الزريبة، ومُقعيًا على رُكبَتَيَّ، جعلتُ حليب عنزة يتفجَّر في فمي. سرقتُ جرَّةً فخَّاريَّة وملأتها بالحليب، وحَمَلتُها إلى أمِّي.

دائمًا ما كُنَّا نحتفل في بُرج الكنيسة، ونلقي بالعظام والقدور والبصاق إلى الوهدة في الأسفل، حيث تتراكم تلك الأشياء كمُخلَّفات معركةٍ دامية. نأكل بأيدينا ونُمزِّق اللحم بأسناننا، ونمسح راحاتِنا في الأسمال التي نرتديها. كنا نتمتَّع بحرية البائسين الباذخة.

لكن كل هذا انتهى في اليوم الذي أدرك فيه الأب كارل ڤيكتور فوندراخ أنني لستُ عاجزًا كما أبدو.

* * *

كنَّا في أواخر الربيع، وشمس آخر النهار قد انبثقت لتَوِّها بعد أيَّامٍ من المطر. حوافر الأبقار مغروزة في الحقول الطينية. الماء ينحت الخنادق في الطين الطري، ثم يتسرَّب إلى الأرض، كرمال تتساقط عبر أصابع مُرتخية. السيول تُقعقع في الوهاد. ومن بعيد، تتناهى إلى سمعي خشخشة نهر ريوس يتدفَّق عبر الوادي.

ثم سمعتُ صوتًا غريبًا، بدا كالرعد، لكن أنعَم قليلًا، وأبدًا لم أسمع ضجيجًا كهذا من قبل. في نفس الوقت، سمعتُ صرخةً. رفعتُ بصري إلى أمي، كانت تطوِّح بمطارقها. نحيِّتُ الأجراس جانبًا، المياه الجارية، الأبقار، أمِّي، ولبضع ثوانٍ لم أسمع شيئًا.

ثم مُجدَّدًا... صرخة.

كان هذا الصوت بشريًّا، لكن ليس من نسيج صوتٍ أعرفه من القرية: خليطًا من الجوع والغضب والبهجة والاحتياج؛ كان ذلك صوت الألم.

أغلقتُ عينَيَّ ووضعته في ذاكرتي. ارتفعَ أربع أو خمس مرَّات، ارتعشَ إلى أعلى نغمة، ثم اختنقَ فيما الهواء ينفد من رئة الصارخ. أفزعتني الصرخة، لكن مع ذلك هبطتُ سُلَّم برج الكنيسة، مُتجمِّدًا مع كل صرخة جديدة، ثم هارعًا عندما تنتهي، مُطاردًا صداها. انطلقتُ من الباب الجانبي للكنيسة، تسلَّقتُ سورًا، وانزلقتُ عبر الحقل الطيني إلى الغابة تحت الكنيسة.

لا يوجد شيء أعلى نيبلمات سوى المراعي والصخور والجليد. تحت القرية، تنزلق الجبال إلى الغابات والوهاد، وليس هناك سوى فُسحات قليلة متناثرة حتَّى موضع التقاء غابة أشجار الصنوبر مع الوادي. ركضتُ بأسرع ما أستطيع على طول ممشًى يؤدِّي إلى تلك الغابة المُتحدِّرة، قافزًا من فوق الصخور الكبيرة، وتاركًا الميلان يدفعني. في فسحةٍ كانت الحرائق قد التهمتها الصيف الفائت انتهاء المسار بغتةً.

ما يزال بمقدوري تصوُّر وجهها. العضلات والأوتار منتفخة في خدَّيها، في عنقها، في ذراعَيْها، وفي يدَيْها اللتين تتشبَّثان بالأرض أمامها. جلدها متورِّد بلون الدم.

كان الطين يحاول التهامها. فكَّاه ناشبان في أمعائها ودوَّامات من الدماء تتسرَّب إلى خيوط فستانها. لا يُرى حولها سوى أحجار سائبة وتراب. سلَّة من الثوم البرِّي كانت مُبعثَرة على الأرض أمامها، كبتلات أزهار في حفل زفاف.

كان الصراخ قد توقَّف. اتَّخذتُ بضع خطوات ناحيتها على الأرض الرخوة وغرقت قدماي في تيارات الطمي والأحجار.

كانت هناك مَخمضة من عُصارة صفراء ودماء في حلقها. سمعتُ همهمة العضلات المشدودة، والضربات المُهتاجة لقلبها. استدارت ناحيتي بهاتَين العينين الخاويتين، وأردتُ إيقاف ألمها. أردتُ أن أحملها كما كانت أمي تحملني. اتَّخذتُ خطوةً أخرى، متفاديًا صخرة بحجم

جذعـي. ثـم قفـزتُ عائـدًا إلى الأرض الصلبـة. كان هـذا الطـين المتوحِّـش يُريـدَني أيضًـا.

ثـم ركضـتُ. تأخَّـر الوقـت حينهـا. كانـت الأجـراس صامتـة ولا أحـد في الحقـول. مـا زلـتُ أشـعر بأنفاسـها، وبالتغيُّر الواهـي، الراجـي، في ضربـات قلبهـا عندمـا رأتْنـي؛ ولذلـك أسرعـتُ في ركضي، مـارًّا بالمنـازل الأولى الهادئة، بالأطفـال الذيـن يلعبـون عـلى المجاز الصخـري، بمنـزل كارل ڤيكتـور، الـذي كان بابـه العـالي السـندياني مغلقًـا. بعـد بضـع خطـوات أخـرى، كان بضعـة رجـال جالسـين عـلى منضـدة خشـبية ذات ألـواح مخشوشـنة. كانـت وجوههـم متـورِّدة مـن الـشُّرب، بظهورهـم القويـة بارتفـاع حائـطٍ فـوق رأسي.

"يقول إيڤو إن لها عينين كالجواهر"، قال واحد من الرجال.

"رجاءً"، همست. لم ينكسر حائط الظهور.

"حتَّـى وإن كانتـا ماسـتَيْن، فسـيكون عليـه استئناسـها عـلى عادَاتِنـا"، قـال آخـر. ضحـك الجميـع. "نسـاء المدينـة حمقـاوات".

"أسرعوا"، قلت بصوتٍ أعلى. "إنها تموت".

"لا بـأس بالحماقـة". قـال ذلـك الرجـل الـذي يعلـوني، وفيـما أضـع يـدي عـلى ظهـره شـعرتُ بهزيـم ضحكاته.

سـمعتُها تـصرخ مُجـدَّدًا، هـذه المـرة مـن داخـل رأسي، مـن مكتبـة الأصـوات التـي لا أسـتطيع التَّخلُّـص منهـا أبـدًا. سـمعتُ الجَيَشـان في حلقهـا، سـمعها تنشـب أظافرهـا في الـتراب أمامهـا. هـل أوشـكت أن تُدفَـن؟ أمسـكتُ بقميصـه. أزاحـت يـدٌ يـدي بعيـدًا.

"أرجوكم!" صحتُ عاليًا.

كان خط الظهور عاليًا كالجُرْف.

صرختُ.

كان ذلـك صوتًـا حتَّـى أنـا لم أسـمعه وهـو يقـترب، كان مثـل بـابٍ فُتحَ في موضعٍ كان حائطًا ذات يـوم، كان كـما لـو أن أرواحًـا كثـيرة -روح أمِّـي، وروح تلـك المـرأة المدفونـة، وروح الأب كارل ڤيكتـور- قـد خرجـت مُتطايـرةً مـن فمـي.

اسـتمرَّت الصرخـة فقـط للَّحظـة التـي تسـتغرقها حصـاة للسـقوط مـن بـرج الكنيسـة والارتطـام بطمـي الحقـل. لكـن خلالهـا، كان حائـط الظهـور قـد اسـتدار؛ وجـوهٌ فائقـة، عيـونٌ جافـة حدَّقـت إليَّ مـن عـلٍ، تجمَّـدَ الأطفـال الذيـن كان يلعبـون بالقـرب، احدودبـت الأُمَّهـات عـلى الرُّضَّـع في أذرعهـن أمـام عتبـات بيوتهـن.

وقفَ الأب كارل ڤيكتور فوندراخ عند بابه المفتوح.

"هناك امرأة تموت"، قلتُ للوجوه. "لا بُدَّ أن نذهب إليها".

مع هذا الأمر، نهضَ الرجال، وأسقطوا المقاعد الخشبية الطويلة.

هرعتُ هابطًا المجاز عبر الغابة، وجيشٌ من الأقدام يتبعني.

"انهيار أرضي!" سمعتُ أحدهم يصرخ، ثم تجاوزني.

داسـوا عـلى الأرض الرخـوة، انزلقـوا، دحرجـوا الجلاميـد، ناضلـوا عـبر الانهيـار الأرضي وكأنهـم يسـبحون لإنقـاذ امـرأةٍ مـن مُنحـدراتٍ نهريـة جارفـة. سريعًـا مـا أخـذوا يمسـحون الدمـاء والـتراب والدمـوع مـن أعينهم، فيـما يسـحبونها مـن الانهيـار الأرضي، برفـقٍ شـديد، كقابلـة تسـحب مولودًا مـن بطـن أمـه. وضعوهـا عـلى المجـاز أسـفل التـل حيـث اختبـأتُ وراء شـجيرة.

"هل هي ميِّتة؟".

"إنها دافئة".

"هذا لا يعني شيئًا".

لطَّخـت الدمـاء والأتربـة فسـتانها. كان وجههـا مُرتخيًـا ومُبيضًّـا، بعروقٍ بُنيـة حيـث كانـت أصابـع الرجـال قـد أمسـكت عنقها ورأسـها.

عرجَ رجل عجوز هابطًا المجاز.

"أبعِدوه. لا ينبغي لأبٍ رؤية هذا".

حـاول رجـلان إمسـاكه لكنـه انطلـق في طريقـه. هـوى عليهـا، مُمسـكًا بوجههـا في كلتـا يديـه.

"أرجوك يا إلهي!".

كان الرجــال شــاحبين، وســمعتُ شــفقةً كالكُلَّابــات، تُهــدئ مــن خطواتهــم، وأنفاســهم الهائجــة، وقلوبهــم المتســارعة.

خطـوتُ مـن وراء الشـجيرة ووقفـت بجـوار الرجـل فيـما يعانـق ابنتـه وينتحـب.

همستُ في أذنه: "إنها حيَّة".

رفع نظره إليَّ. ابتلع ريقه. "كيف تعرف؟".

"أنصِـت". أشرتُ إلى شـفتيها. كانــت أنفاســها موجـات خافتـة لكـن ثابتـة.

اسـتمرَّ في النظـر إليَّ لوهلـة، ثـم دفعتنـي مجموعـة مـن النسـاء جانبًـا. تسـلَّقتُ عائـدًا إلى الأجمـة واختبـأتُ مُجـدَّدًا.

فيـما ينخزونهـا ويصفعونهـا ويقرصونهـا، فيـما عيناهـا تُرفـرف مُنفتحـةً وتبتسـم بضعـفٍ لأبيهـا، ازدادت أصواتهـم صخبًـا. ضَحكـوا حتَّـى دَمعـت أعينهـم. صاحــت النســاء بالأوامــر. وراء الشــجيرة، كنــتُ محجوبًــا عــن الجميـع، باسـتثناء واحـد.

كان الأب كارل ڤيكتـور عـلى بُعـد ثـلاث خطـوات فحسـب أعـلى المجاز. لم يَبـدُ أنـه لاحــظَ المـرأة المصابـة. تجاهـل توسُّـلاتهم مـن أجـل صـلاةٍ.

حـدَّقَ وكأنـه يرغـب في إحراقـي بتحديقتـه. كان يُدمـدم مـع كل نفـسٍ يُطلقـه.

"بمقدورك أن تسمع"، همسَ من تحت أنفاسه.

تراجعتُ، وصعدت التَّلَّ لأهرب.

"بمقدورك أن تتكلَّم".

(4)

في بُـرج الكنيسـة رأت أمـي الرعـب في عينَـيَّ، لكـن عندمـا حاوَلَـت تهدئتـي بـين ذارعيهـا، دفعتُهـا بعيـدًا. هـززتُ رأسي. أخـذتُ يدهـا وحاولت سـحبها لهبـوط السُّـلَّم. أشرتُ إلى جبـل بعيـد؛ في موضـعٍ مـا هنـاك قـد يمكننـا الاختبـاء.

في حُـزن عينيهـا، رأيـتُ أنهـا أدرَكَـت شـيئًا مـمَّا أعنيـه، رغبتـي في الهـروب منـه ومـن هـذه القريـة. لكنهـا هـزَّت رأسـها.

لا يمكنني الرحيل، بَدَت أنها تقول.

وهكـذا نِمنـا تلـك الليلـة في بـرج الكنيسـة، مُتكوِّمَـيْن تحـت الدثـار فيـما الليـل يقـترب حامـلًا معـه هَبَّـاتٍ دافئـة مـن الـوادي. كانـت أمـي تضـم مطارقهـا إلى صدرهـا. لم أسـتطع النـوم؛ لم يكـن لدينـا سـوى أذنيَّ لحمايتنـا في الليـل. أرهفـتُ سـمعي لخُطـوةٍ تقـترب، ليـدٍ عـلى السُّـلَّم تحتنـا. لكـن بعـد منتصـف الليـل اشـتدَّت الريـاح وأضـاء الـبرق الـوادي

بوميضه. بدأ المطر في التساقط. بلَّلَنا عبر الحوائط المفتوحة. تشبَّثَت بي أمِّي، وعندما ومضَ البرق، لمحتُ الرعب في عينيها. مرَّتين على الأقل ضربت الصواعق الكنيسة ذلك الصيف. أدركتُ أنها كانت تفكِّر: ينبغي أن نكون في كوخنا متكوِّمَين الآن. فيما تمضي العاصفة من فوقنا، شَدَتْ الأجراس بتحذيرٍ خافت. رفعت أمي بصرها؛ ذلك أنها سمعته في أحشائها. اهربا، قالت الأجراس.

أخذتني بين ذراعَيْها وهرعنا نازِلَيْن السُّلَّم. قعقع البرق، وتردَّد صداه في الوادي. أنصتُّ لأصوات أقدامٍ تمشي في الطين بتثاقل، لكن في السيل المُنهمر سمعتُ لطخات ألف حذاء، انطباق ألف شَفَة. في هزيم الرعد سمعتُ مليون كارل ڤيكتور يطلقون لعناتهم. حمَلَتني عبر الحقل إلى كوخنا وأغلقت رتاج الباب.

جاء كارل ڤيكتور في ذروة العاصفة، طارقًا على بابِنا. حشرتني أمِّي في زاوية، ورغم محاولتي شدَّها بجواري، إلَّا أنها انسلَّت مُبتعدةً ووقَفَت بين الباب المُتهالك وبيني. لم يستمرَّ الأمر سوى لثلاث طرقات. انقصفَ الخشب وظهرت يدٌ بيضاء عبر الفجوة وعبثت بالرِّتاج.

"اللعنة عليكما!" صاح القسُّ. كان يتمايل؛ ذلك أنه آذى أصابع قدميه فيما يركل الباب. التمعَ حذاءه الطويل وثوبه الكهنوتي فيما البرق يومض عليهما.

اندفعت أمِّي إليه. لكن في ومضة البرق التالية رأى قدومها؛ وبدون أجراسها لا تستطيع مُعاركَته. طوَّحَت بمطرقتها بيدٍ ونشبت الأخرى في وجهه. ضغطتُ بيدَيَّ على أذنَيَّ فيما تُسقطها صفعةٌ واحدةٌ منه على أرضنا الطينية. انكمشتُ خوفًا وصرختُ مع كل مرة يركلها فيها بحذائه الطويل. ثم ضربَ البرق كنيستنا بقعقعةٍ ودوَّت الأجراس. غطَّى كارل ڤيكتور أذنيه من الألم، لكنَّ الدَّويَّ لم يفعل سوى أن زادَ

من غضبه. ركلها مرارًا وتكرارًا حتّى توقّفَت عن الارتجاف من الألم، وحينها فقط توقّفَ. ظلّت هامدة.

مع انقضاء العاصفة، تباطأ المطر. ما زالت الأجراس تُهمهم بخفوت. كانت أمي تطلق أنفاسًا لاهثة. الأب ڤيكتور يقف ساكنًا، مُنصتًا، ينتظر ضربة البرق التالية حتي يستطيع رؤيتي. تكوّمتُ في الزاوية، مُلتصقًا بالخشب، لكن حينها فرّت جهشةٌ من حلقي وانفجرت في الظلام. خطا كارل ڤيكتور ناحيتي وأخذَ في ركل الحائط حتى وجدني، ثم ازدادت ركلاته سرعة وقوّة، مُركّزًا على أحشائي، لحدٍّ أنني تأكّدتُ أنني لن أتنفّس مُجددًا. قبض عليَّ من عنقي ورفعني قريبًا من وجهه.

"أنت أيُّها الوغد المُخادع"، قال. فاحت منه رائحة البصل النّيِّئ المُنتنة. صرختُ ومدَدَتُ يدي نحو أمِّي، التي كانت تستلقي بلا حراك على الأرض، تئنُّ فيما تُطلق أنفاسها. في ومضة برقٍ بعيدة رأيتُ وجهها الغارق في الدماء. جرّني كارل ڤيكتور من قميصي حتّى تمزّق، انتزعَ حزامه، ولفّه حول عنقي كالطوق. "جرِّب أن تهرب"، هسهسَ في أذني كما لو أنه يرغب في قَضْمها. "انطلِق وجرِّب". وفيما يرتفع الفجر الرمادي، هبطنا إلى الغابة. مزّقَ فرع شجرة صنوبر وأخذَ في جلدي به كلما تمايَلتُ جانبًا أبعد من اللازم، أو كلما سرتُ أسرع أو أبطأ من اللازم، أو كلما طفحَ غضبه عليه فحسب. غَشَت الدموع عينَيَّ. سقطتُ وتعثَّرتُ واختنقتُ في طوقي.

قادني إلى طريق أوري، الممتلئ بآثار الحوافر، وغرقت قدماي الحافيتان في الطين حتي ركبتَيَّ تقريبًا. أطلقَ كارل ڤيكتور سبابًا. تطلّع عبر الطريق أمامه وخلفه، لكن في الصباح الباكر لم يرَ أيّة أحصنة أو عربات قد يطلب منها ركوبةً. جذب قميصي بشدّة، لكن ذلك لم يفعل سوى أن مزّقه. أمسكَ بذراعي النحيل وجذبه بشدّة حتى

شـعرتُ أنّنـي عـلى وشـك الانفـلاق نصفـين، لكـن الوغـد لم يُفلتنـي. ثـم بغتـةً كانـت هنـاك فرقعـة، ثـم انسـحاب للهـواء، وتعثَّرنـا، أنـا أمامـه. انضغـطَ وجهـي عـلى الطـين البـارد، ثـم رُفـعَ بالحـزام الـذي يُطوِّقـه. جـرَّني عـبر الطريـق كشـوال مـن الشـوفان، بيـده تحـت ذراعـي. عندمـا تعـثَّرَ، طرحَنـي تحتـه، ولوهلـة اسـودَّ العالَـم بالطـين. عندمـا رفعَنـي لهثـتُ طلبًـا للهـواء وخربشـتُ في أنشـوطتي.

شـققنا طريقنـا بجُهـدٍ عـلى هـذا الحـال لمـا بـدا أنـه سـاعات، قبـل أن نصـل إلى الأرض الصلبـة عنـد جـسرٍ خشـبي يقطـع نهـر ريـوس، حيـث أسـقطني عـلى ألـواح الجـسر المرشوشـة بالطـين. اسـتلقيتُ لاهثًـا، مسـتندًا بظهـري عـلى حاجـز الجـسر، وأزَّ هـو بأنفاسـه وسـعل وبصـق قطـرات مـن الطـين في وجهـي. انسـاب الفيـض في نهـر ريـوس تحـت الجـسر بغضـب أمطـار الربيـع والجليـد الذائـب، وحاولـتُ الهـروب إلى أصواتـه: حدَّقـتُ في تيَّـارٍ إثـر تيَّـار، سـمعتُ رعـد الميـاه المُزبـدة، سـمعتُ الصخـور تتدحـرج في القـاع. لكـنَّ أذنيَّ أجبرتـاني عـلى العـودة. شـحذَ كارل ڤيكتـور يديـه معًـا كحبـل مشـدود يُوشـك عـلى الانقطـاع. ضربـت قدمـاه الأرض. جـزَّت أسـنانه عـلى شـفتيه. دمـدمَ بكلـماتٍ.

رفعـتُ بـصري عـبر الطـين والدمـوع. نظـرتُ إلى وجهـه، الـذي امتـلأ بنـدوبٍ مـن أثـر أظافـر أمِّـي. تدفَّقـت الدمـاء مـن شـفته العضوضـة. كان رداؤه مُبتـلًّا بشـدَّة، لحـدِّ أنـه التصـق بسـاقيه.

جذبَ شعره بيديه كما لو كان لانتزاعه، وغمغمَ مُجدَّدًا في الرياح.

تمنَّيـتُ بشـدَّة لـو كان باسـتطاعتي سـماع مـا يـدور في رأس كارل ڤيكتور في تلـك اللحظـة. مـاذا كان ينـوي بالضبـط؟ أنـا ذكي بمـا يكفـي لأدرك أنـه يُخطِّـط لـشيءٍ في عقلـه: أن يأخـذني ربمـا إلى لوتـسرن ليضعنـي في دار أيتـام؛ أن يبيعنـي إلى مُـزارع في مقاطعـة شـفيت. لكـن هـذا الطـين -هـذا الوحـل الـذي يصـل إلى الرُّكبتـين، الـذي يتجشَّـأ ويتنشَّـق ويُطرطـش- قـد

صنع جزيرةً من ذلك الجسر. كانت العودة بي إلى نيبلمات مستحيلة؛ ذلك أنني سأنشر أسراره المُخزية هناك. فيما الاستمرار في جرِّي لمائة قدمٍ أخرى قد يقتلنا معًا.

تحوَّلَت دمدمته المُتبرِّمة إلى زعيق، وركلَ حاجز الجسر كما فعل مع أمِّي، مرارًا وتكرارًا، لكنه كان متينًا ولم ينكسر تحت ضربات حذاءه. تطلَّعَ إليَّ بعينَيْن حمراوين، وعندما تحدَّث، بصقَ الدماء في وجهي.

"يُفترض أن تكون أصمًّ!".

في تلك اللحظة، كنتُ على استعداد لبذل وعدٍ ألَّا أتحدَّث مُجدَّدًا أبدًا. كنتُ على استعداد لعضٍّ لساني وقطعه، فقط لو سمَحَ لي بالعودة إلى أمي. أبدًا لن أغادر برج الكنيسة، حتَّى لو ضرَبَته الصواعق.

انحنى فوقي، وجهه قريب جدًّا، لحدٍّ أن تنشُّقه، وشفتيه المُحمرَّتين أصبحت صادحة كالنهار. رفعني بالحزام، وعصرني على الحاجز بخصره؛ ثم قبضَ على رأسي بكلتا يديه.

"إذا لم يشأ الرَّبُّ أن يجعلك أصمَّ، فسأجعلك أنا".

انغرست إصبعان في أذنَيَّ كالمسامير. عويتُ وتخبَّطتُ، لكنهما زادتا من انضغاطهما، مُخترقَتَيْن أذنَيَّ حتَّى بَدَتَا أنهما ستلتقيان داخل رأسي. أدركتُ أخيرًا الألم الذي يشعر به الآخرون عندما يسمعون أجراس أمِّي. كان وجهه كل ما رأيته. تحوَّلت تقطيبه من الأبيض إلى الأحمر. زادَ من ضغط أصابعه، وصرختُ.

حاوَلَت يداي الصغيرتان إزاحة يديه، لكنني لم أستطع تحريكهما.

"أبتاه!" صرخت.

أسقطني كما لو كنتُ جمرةً تحترق.

ارتميتُ على الأرض وأمسكت برأسي، منتظرًا الهجمة التالية، لكنها لم تأتِ. وقفَ مُتجمِّدًا فحسب، عيناه هائجتان وذاهلتان.

لم أقصد بذلك اتِّهامًا. في نيبلمات الجميع ينادونه "أبتاه". لم أقصد أكثر من ذلك.

"لستُ أباك"، همسَ. لكنني لم أسمع الكلمات. سمعتُ ارتعاش صوته، تثاقل رئتيه، رجفة يديه وفكَّيه. وسمعتُ كيف أن تلك الكلمة الواحدة، التي أحرقته كالنار، كانت حقيقية.

"أب"؟ أعرف هذه الكلمة: الآباء يحملون أبناءهم عندما يتألَّمون، يجلدونهم عندما يتَشاقُون. يتركونهم يمشون بجوارهم فيما يقودون الأبقار صاعدين المرعى. أعرفها جيدًا، لكن أبدًا لم أتخيَّل أنني قد أستخدمها يومًا.

"لستُ أباك"، قال مُجدَّدًا.

رفعني أبي عاليًا. حَمَلني فوقه كما لو لتقديم قُربان للسماء. "ستكون أبكمَ"، قال.

ثم بهمهمةٍ، رماني من فوق الجسر إلى نهر ريوس الهادر.

(5)

هـل راقـبَ التيـارات الجاريـة تبتلعنـي؟ أم اسـتدار لإخفـاء عينيـه عـن خطيئتـه؟ كل مـا أعرفـه أنـه لم يجـرؤ عـلى التأكـد أن ابنـه قـد مـات حقًّـا. لم يمـشِ بمحـاذاة النهـر بمـا يكفـي لرؤيتـي أتجـرَّد مـن أسـمالي وأنشـوطتي، لرؤيتــي أتخبَّــط وألهــث، فيـما يسـحبني تيَّـارٌ للأسـفل ويدفعنـي آخـر لأعـلى. لم يُراقـب فيـما قـواي تتداعـى، فيـما أبيـض الأمـواج يتحـوَّل إلى الأسـود، وأوشـك عـلى الغـرق. لم يُراقـب جُثَّتـي تهبـط مـع امتـلاء رئتـاي بالمـاء. لم يشـعر بالنـدم ويحـاول إنقـاذي.

* * *

لكــنَّ عينيــه لم تكــن العينَــيْن الوحيدتَــيْن عــلى طريــق أوري ذلــك الصبــاح. عندمــا اسـتيقظتُ، سـمعت أصواتهــم قبــل أن أفتــح عينَــيَّ.

"لا، تَراجَعْ. لن ألمسه مُجدَّدًا".

كان الصـوت الأول رفيعًـا ومكتومًـا، وكأنـه يتحـدَث عـبر شـفتَيْن مشـدودتين، فيـما كان الصـوت الثـاني عميقًـا ودافئًـا: "لا داعـي للقلـق. لقـد اسـتحمَّ لتـوِّه".

"يـا لـه مـن شيءٍ ضـاوٍ"، قـال الأول. "مجـرَّد عظـام. لا بُـدَّ أنـه مصـاب بمـرض مـا. اسـتمع إليـه وهـو يسـعل".

"لقـد شَرِبَ نصـف النهـر. والجلـد والعظـام، هـذا طبيعـي؛ لا شيء يمكن أكلـه في الجبـال. لا شيء سـوى العُشـب والتراب".

انغـرزت أحجـار حـادَّة في ظهـري العـاري. كانـت الشـمس دافئـة، لكـن الضِّفَّـة النَّديَّـة بـاردة كالثلـج. سـعلتُ مُجـدَّدًا، مُخرجًـا مـاءً وقـدرًا كبـيرًا مـن شيء آخـر، ثـم فتحـت عينَـيَّ ورأيـتُ رجلـين يظهـران مـن فوقـي. تطلَّعـتُ إلى أحدهـما ثـم الآخـر، ثـم الأول مُجـدَّدًا، وكان أول مـا فكَّـرتُ بـه أن الـرَّبَّ لم يخلـق قـطُّ رجلـين أكـثر اختلافًـا عـن بعضهـما مـن هذيـن.

أحدهــما كان عملاقًــا وسـيمًا، بهالــة مــن الشــعر الجميــل، ولحيــة رماديـة كثيفـة، وابتسـامة لا تنـزاح عـن وجهـه. فيـما الآخـر أصغـر حجـمًا، وشـاحب. كان يمضـغ شـفتيه، ويعتـصر يديـه المُشـحَّمتين. كلاهـما يرتـدي غلالـة أسـود، مضمومـة عـلى جسـديهما بأحزمـة جلديـة. كانـت غلالـة العمـلاق مُشـبَّعة بالمـاء؛ ذلـك أنـه كان أنقـذني مـن النهـر ثـم ضربَ عـلى صـدري حتَّـى أفقـت.

"إنـه مـوسى يسـبح في النيـل"، قـال العملاق، ابتسـامته دافئة كالشـمس. مـدَّ لي يـدًا هائلـة الحجـم. "تعـالَ وكُـن ملكَنا".

انكمشــتُ خوفًـا مـن اليـد، مُرتعبًـا مـن أيِّ لمسـة سـوى لمسـة أمِّـي. عـلى أيِّ حـال، سرعـان مـا أزاح الرجـل الصغـير يـد الرجـل الكبـير. "قلـتُ لـك ألَّا تلمسـه"، غمغـم.

"إنـه مجـرد صبـي"، قـال العمـلاق، ثـم انحنـى ووضـع كلتـا يديـه حـول أضلاعـي، بإبهاميـه يضغطـان عـلى قلبـي. كانـت يـداه دافئتَـيْن وناعمتَـيْن، ومـع ذلـك توتَّـرَت كل عضلـة في جسـدي. أوقفنـي وكأنـه راعـي ماعـز يفحـص طفـلًا. كنـتُ عاريًـا بالكامـل، وقـد جـرَّدني النهـر مـن كل شيء. "مـا اسـمك؟".

لم أُجِـب. في الحقيقـة، لا أسـتطع الإجابـة؛ دائمًـا مـا كان أهـل القريـة يدعوننـي فحسـب "صبـي فروبـين ذاك" أو "الطفـل الأبلـه". بقيـتُ مُتخشِّبًا عـلى أمـل أن يُفلتنـي مـن يديـه حتَّـى أسـتطيع الهـروب والبحـث عـن أمِّـي. هـزَّ كتفيـه. "حسـنًا، مـوسى اسـم جميـل مناسـب للصبيـان الـذي يسـبحون في الأنهـار. اسـمي نيكـولاي. هـذا الذئـب العابـس اسـمه ريمـوس. نحـن رهبـان".

تطلَّعـتُ إلى الأول ثـم إلى الثـاني، محـاولًا اسـتخلاص معنـى مـن هـذه الكلمـة. (رهبـان)؟ لم أجـد شـيئًا مشـتركًا بـين الاثنـين سـوى الغلالـة التـي يرتديانهـا.

"حسـنًا"، قـال ريمـوس ذلـك، بنفـاد صبر، ووجـه قـد انقبـض كـما لـو أنـه اشـتمَّ رائحـةً كريهـة. "إنـه حـيٌّ. دعـه يمـضي في طريقـه".

"لا!" هتـف العمـلاق. "هـل أنـت قـاسي القلـب هكـذا؟" أرجحنـي لأعـلى بحيـث أجلـس عـلى سـاعده، بخـدِّي مواجهًـا الصـوف النَّـديَّ لغلالتـه حتَّـى شـعرتُ بالحـكاك مـن أذني إلى خـصري. اندفعـت ضربـات قلبـه إلى أذني.

"أتممت واجبك. أنقذتَ حياته"، قال ريموس.

تراجـع جسـد نيكـولاي مصدومًـا. "ريمـوس، أحدهـم ألقـاه في ذلـك النهـر!".

"ليس بالضرورة. ربما سقطَ فحسب".

"هـل سـقطتَ في المياه؟" سـألني العمـلاق. لم أجـب، لم أسـمع مـا قالـه حتَّـى؛ ذلـك أننـي كنـتُ مأخـوذًا بضربـات قلبـه، الأبطـأ والأعمـق كثـيراً مـن ضربـات قلـب أمِّـي. قلـبُ ثـورٍ.

"أجبني"، ألحَّ نيكولاي. "بمقدورك إخباري. مَن ألقاكَ في النهر؟".

أغلقـتُ عينَـيَّ. كان قلبـي يتباطـأ، ليتوافـق مـع الإيقـاع المـوزون لقلـب العمـلاق. ارتخـت عضـلاتي، وبـلا إرادةٍ منِّـي، ملـتُ إلى حضنـه.

"لا يهـم"، قـال ريمـوس. "ربمـا يكـذب علينـا في كل الأحـوال. انتبـه لكيـس نقـودك".

"ريموس!".

"لا بُدَّ أن تتركه هنا"، أشار ريموس إلى الضفة المعشوشبة.

"هنـا؟ عاريًـا عـلى العشـب؟ كيـف أمكنـكَ قـول هـذا؟ مـاذا لـو أن أولئـك الرهبـان الذيـن وجـدوني عـلى عتبـة بابهـم تركـوني هنـاك؟ أيـن كنـتَ لتوجـد الآن؟".

"أقرأ في صومعتي. في سلام".

"بالضبط. لكنك بدلًا من ذلك ترى العالَم".

"لا أريـد أن أرى العـالم. أخبرتـك بذلـك مـن قبـل. أرغـب في العـودة إلى الديـر. نحـن متأخِّرَيْـن لشـهرين".

"يومٌ آخر لن يصنع فارقًا".

"أنزِله".

أدار نيكـولاي ظهـره إلى ريمـوس. حَملنـي لبضـع خطـوات عـلى طـول الضفـة. فتحـتُ عينَـيَّ وتطلَّعـتُ إلى وجهـه. كان ينظـر للأسـفل بألطـف تحديقـة رأيتهـا في حيـاتي. كانـت أنفاسـه كسـحابة دافئـة تنسـاب عـلى جُـرفٍ. "ريمـوس مُحـقٌّ"، همـس لي. "دائمًـا مـا يكـون عـلى حـقٍّ؛ ولهـذا

لا يحبُّـه أحـد. لكننـي لـن أتـركك هنـا فحسـب. أَشِرْ إلى طريـق منزلـك، وسأسـاعدك لتجـدَ أبـاك".

جفلـت بعنـفٍ شـديد لحـدٍّ أن نيكـولاي أوشـكَ عـلى إسـقاطي. تطلَّعـتُ مـن حـولي في رعـب، خائفًـا مـن أننـي قـد أرى كارل ڤيكتـور رابضًـا في العشـب.

"يـا إلهـي"، قـال نيكـولاي. "هـذا هـو الأمـر إذن! أليـس كذلـك؟ كان أبـاك! ريمـوس"، صـاح نيكـولاي، عائـدًا بسرعـة إلى الراهـب الضئيـل، المُتجهِّـم. "أبـوه هـو مَـن ألقـاه في النهـر!".

"لا يمكنك الجزم".

"حـاولَ قتـل ابنـه الـذي مـن صُلبـه. هـذا يعنـي أن الصبـي يتيـم. مثلي تمامًا".

غطَّـى ريمـوس وجهـه بيديـه. "نيكـولاي، لم تَعُـد يتيـمًا، منـذ أربعـين عامًـا. أنـت راهـب، والرهبـان لا يَقبَلـون الأطفـال".

تفكَّـر نيكـولاي في هـذا. انتصـب شـعر لحيتـه فيـما يبتسـم. "يمكنـه أن يصـير راهبًـا مبتدئًـا".

"شتاوداخ لن يقبله".

"سـأتحدث معـه"، أومـأ نيكـولاي بثقـة. "سـأجعله يـدرك مـا هـو جوهـر المشـكلة. حـاولَ أبـوه قتلـه".

"نيكـولاي"، قـال ريمـوس بهـدوء، كـما لـو لـشرح مسـألة حسـابية بسـيطة، "لا يمكنـك أخـذ هـذا الطفـل".

"ريمـوس، كان يطفـو هابطًـا قـاع النهـر. يغـرق. كان مـن الممكـن أن يغـرق بالفعـل".

"وهـا أنــت قـد أنقذتَـه. لكـن أن نأخـذه معنـا فهـذه مسـؤولية لا يمكنـك تحمُّلهـا".

بـدَّلَ نيكـولاي وضعـي بحيـث وصرت أتطلَّـع إلى هالـة شـعره المُجعَّـد، والسـماء وراءه. ربَّـت عـلى خـدِّي بإصبـع سـميك كحبـال الأجـراس. "هـل ترغـب في المجـيء معنـا؟" قـال.

كيـف لي أن أدرك مـا يَعرضـه عـليَّ؟ ذلـك أن كل مـا أعرفـه أن العـالم ينتهـي عنـد تلـك الـذُّرى البعيـدة، وأن كل قريـة لهـا كارل ڤيكتـور خاصَّتها. إذا كان أخـبرني أحدهـم أنـه لا يوجـد سـوى ألـف رجـل في العـالم الواسـع، سـأفكِّر قائـلًا، يـا إلهـي! كثـير جـدًّا! لكننـي رأيـتُ في ذلـك الوجـه الـذي يعلـوني نظـرةَ أمـل. قُـل نعـم، قالـت عينـاه. أخـبرني أنـك في حاجـة إليَّ. لـن أخذلـك.

كنتُ أرغب في العودة إلى البيت إلى أمي.

"نيكولاي، أنصِتْ إليَّ، لقد نَذَرتَ نذرًا...".

"سأنذُر آخر".

"ليس هكذا تمضي الأمور. هذه النذور أبد...".

"أنذُر...".

"نيكـولاي، لا تفعـل. يمكنـك أخـذه حتَّـى نجـد مكانًـا آمِنًـا ونتركـه فيـه، لكـن لا...".

تطلَّـع نيكـولاي إلى عينَـيَّ. يـا لـه مـن حُنـوٍّ. لكـن أيـن أمـي؟ هـل مـا زالـت تسـتلقي عـلى أرضيـة كوخنـا؟

"أنذرُ"، قال، "أنه مهما حدث، سأحميك دومًا".

تـأوَّهَ ريمـوس. أوشـك عـلى قـول المزيـد، لكـن نيكـولاي لم يسـتطع سـماعه؛ لأنـه بغتـةً، كـما لـو أنهـا شـعرَت باشـتياقي، بـدأت أجـراس

نيبلمات في القَرع. انكمش نيكولاي وريموس فيما الدَّويُّ يرجُّهما حتَّى لُبِّ قلبيهما. أحنى ريموس كتفيه وغرز إصبعًا قذرًا في كل أذن. غطَّى نيكولاي أحد جانبَيْ رأسي براحةٍ ضخمة وضغطَ أذني الأخرى على صدره، لكنني جاهدتُ حتَّى أفلتني وأنزلني أرضًا. خطوتُ نازلًا إلى ضفة نهر ريوس ورفعت نظري إلى الجبال. كانت أمِّي حيَّة!

تجاهَلتُ الرجل المُحسن الذي كان أنقذني من النهر. حاول ريموس جذبه بعيدًا، لكن نيكولاي وقفَ فحسب وغطَّى أذنيه وراقبني: الصبي الصغير الذي لم يتأذَّ كما هو واضح بذلك الصوت الذي زلزل الأرض تحت أقدامهم.

كانت أمِّي بخير بما يكفي لتنهض عن الأرضية الطينية وتصعد إلى أجراسها! عَزَفَتها باهتياجٍ شديد، لحدٍّ أنه بدا كما لو أنها تعزف على الجبال ذاتها بمطارقها.

انقضت ربع ساعة، ثم تكرَّر الدَّويُّ. حشا ريموس أذنيه بقصاصات صوفية وأخرج كتابًا. لم يفعل نيكولاي سوى أن راقبَني -بأصابعه تسدُّ أذنيه- كما لو كنتُ بهيمةً متوحِّشة لم يرها في حياته من قبل. قَرَعَت أمي أجراسها أطول كثيرًا مما يُسمَح لها به. انقضت أعوامٌ منذ ضُرِبَت على تجاوزها ذلك الحدَّ. الآن، أعرف، أن أهل نيبلمات يجثمون وراء أبوابهم، بالمفاتيح في أيديهم، جاهزين لصعود الكنيسة فور أن يكون ذلك آمنًا.

وما زالت هي تعزف الأجراس. تضربها باهتياجٍ لم أسمعه من قبل قطُّ. بالكاد كان هناك توقُّف بين كل ضربةٍ وأخرى. ثم سمعتُ تغيُّرًا مفاجئًا: كانت قد شرخت حافَّة الجرس الأصغر. لكنها لم تتوقَّف.

سمعتُها تناديه. فيما يجاهد في عودته صاعدًا المجاز الصخري، غارقًا في الطين والعرق والخزي، سيسمع الدَّويَّ كحُكمٍ يتردد صداه عبر العالم. وسيمقتها عند كل قَرْع، كما مَقَتها عندما أغوته، سيمقتها

لفضح خطيئته مع طفلة، ولأنها جعلته قاتلًا. مع كل قَرْع، لا بُدَّ أنه أقسم على إسكاتها للأبد.

سَخِرَت منه على طول المجاز الطيني بوعدٍ أنها ستذيع ذنبه حتى يوقفها. كنتُ متيقِّنًا أنها لاحظت اقترابه، لكنه لم تُبطئ أو تُخفِّف من القَرْع. جَرَت الدموع عبر وجهي وصرختُ مناديًا أمي. "أنا هنا!" صحت. "أنا حي!" لكن حتَّى نيكولاي لم يستطع سماعي. ضَرَبَت تلك الأجراس أعلى وأعلى، مُتحدِّيةً أبي ليصعد إلى بُرجها ويوقفها. في هذه العاصفة، قعقعت الأرض وحطَّم النهر أمواجه حول أقدامنا، وأغلقتُ عينَيَّ وتوهَّمتُ وسط كل هذا، وأمِّي تطرق أجراسها، مناداة أبي.

* * *

بعد ذلك بعشرين عامًا، عندما عدتُ إلى الوادي لأول مرَّة بعدها، كانت أسطورة القسِّ الذي أنقذ آذان نيبلمات ما تُزال تُحكى في كل حانة. ظنُّوني غريبًا وأخبروني عن القسِّ الخَيِّر والساحرة الشريرة التي كانت تُحاصر القرية من بُرجها، التي تقرع الأجراس ليلًا ونهارًا حتَّى أوشك أهل القرية على فقد عقولهم. أخبروني كيف صعدَ القسُّ المُبارَك المجاز إلى تلك الكنيسة واختفى داخلها، بعد أن منحه الرَّبُّ شجاعةً سماوية. ومن القرية، رأوا ظلَّه يَثِبُ عبر الباب الشبكي إلى بُرج الكنيسة. تراقَصَت هي من حوله، تضرب أجراسها حتَّى انفجرت أذناه وتَلِفَتا بفعل الاصطخاب. ثم في عالَمه الصامت، انقضَّ عليها، تلك الشيطانة الرشيقة، فيما تندفع بين أجراس الشيطان. أمسك بردائها، وأوشك على السقوط، وتمايلَ على حافَّة بُرج الكنيسة، متشبِّثًا بآخر جذاذة من القماش في قبضته. صرخَ طالبًا نجدتها. وثَبَت ناحيته، كما لو أنها ستحتضنه. ثم شاهدت كل عينٍ في المدينة كيف سقطا معًا.

لم يُرسَل في طلب قسٍّ جديد قطُّ. أذيبت الأجراس وصُنِعَت منها مَعازِق.

* * *

لكن في ذلك اليوم، واقفًا بجوار ذلك النهر، فيما أصرخ لأمي أنني لم أمُت، ما تخيَّلتُه كان مُختلفًا تمامًا. كانت تضرب أجراسها بشدَّة لحدٍّ أنني، في المركز من ذلك الضجيج، كنتُ واثقًا أن العالم قد بدأ يفقد ثباته، أن أمواج الصوت قد مزَّقت كل ذَرَّة في جسدَيْ والديَّ. وحيدًا، متساميًا فوق الدَّويِّ، سمعتُ صرخة أبي تتردَّد عبر الجبال. ربما كنت هي اللحظة التي انفجرت فيها طبلتَا أذنه. لكن ذلك الطفل كان متيقِّنًا أن أباه صرخَ لأن جسده تمزَّقَ بفِعل أمواج الصوت.

لم تُقرَع الأجراس مُجدَّدًا. هل رحلت أمِّي؟ بشكلٍ ما أدركتُ أنها رحلت. همهمَ الصدى حولي لبضعة دقائق. تمامًا كما كل قطرة من مياه المحيط كانت يومًا قطرةَ مطر، سمعتُ حينها وكأن كل صوتٍ في العالم كان ذات مرة في أجراس أمِّي: النهر الرَّنَّان، أزيز طيور السنونو تندفع في إثر الذباب، الأنفاس الدافئة للراهب المُحسِن الواقف بجواري. رحَلَت أمي وظلَّت في كل مكان.

سعلَ نيكولاي برفق. رفعني لأتكوَّم في ذراعيه. مع كل شهقةٍ وانتحابةٍ مِنِّي، كان يُحكم ضمَّته أكثر. عندما فتح ريموس فمه ليعترض، لم يفعل نيكولاي سوى أن استعرض أمامه راحة يده العملاقة. أغلق الراهب القبيح فمه وهزَّ رأسه. حمَلني نيكولاي إلى الطريق، حيث يقف أكبر حصانين رأيتهما في حياتي. انسلَّ ريموس في إثرنا. تطوَّح نيكولاي بكلينا على حصان المقدِّمة، ووضعني بين فخذيه الهائلتين.

"تمسَّك جيدًا"، قال. لم أر أيَّ شيء بمقدوري التَّمسُّك به، وفيما يتَّخذ الحصان خُطوتَه الأولى المُهتزَّة، صرختُ في رعبٍ وحاولت الوثوب إلى أمان الأرض. جذبني نيكولاي ليمنعني. أغلقتُ عينَيَّ وانسابت الدموع على خدَّيَّ، وحاولتُ تصوُّر وجه أمِّي، لكنني لم أستطع الاحتفاظ به في عقلي. بدلًا من ذلك، مُستلهمًا العزاء، أنصتُّ إلى الضربات المكتومة لركلات نيكولاي الخافتة على أضلاع الحصان، وغوص الحوافر الوحشية

في الطـين، وحفيـف عُـرف الحصـان. ثـم تطلَّعـتُ أمامـي، عـبر الطريـق المُغبَّـش، وتسـاءلتُ إلى أيِّ حـدٍّ وصلـت أجـراس أمِّـي.

انعطفنـا عـلى الطريـق عنـد جورتنيلـن، وفي تلـك المدينـة التـي تضـمُّ ثلاثمائـة روح، ظننـتُ أننـا وصلنـا إلى مركـز الكـون. كان الرجـال يرتـدون ملابـس رماديـة أو بيضـاء وليسـت بُنِّيَّـة. أحدهـم أخـرج سـاعةً مـن جيبـه، وظننـتُ تكتكتهـا هـي ضربـات قلـب حيـوان جيـب منمنـم مـا. سـيدة، مغـادِرةً منـزلًا مُشـيَّدًا مـن الحجـارة، فتَحَـت شمسـية -شـهقتُ- مـا جعلنـي أتشـبَّث بـذراع نيكـولاي العريـض في رعـب.

غمغـمَ ريمـوس لنيكـولاي أن صبيًّـا عاريًـا عـلى حجـر راهـب هو مشـهد سيتسـبَّب لنـا في متاعـب، وهكـذا، مـن خيَّـاطٍ، اشـترى لي نيكـولاي ملابـس تحتانيـة مـن الكتـان وسروال لركـوب الخيـل مـن الصـوف. كان الكتـان ناعـمًا كالريـش، لكـن السروال لم يكـن مريحًـا، وكأنـه حـزام كارل ڤيكتـور حـول عنقـي. لاحقًـا، ذهبنـا إلى حانـة وأكلنـا أطباقًـا مـن اليخنـة السـاخنة واحتسـينا النبيـذ. بعـد ثمانيـة أو عـشرة أكـواب مـن ذلـك الـشيء الحامـض، وقـف نيكـولاي عـلى قـدمٍ واحـدة عـلى مقعـده. "يـا سـادة"، قـال للتُّجَّـار والمزارعـين في الحانـة، "دعـوني أعلِّمكـم مـا تعلَّمتُـه في رومـا". صفَّـقَ بيديـه الضخمتـين معًـا، أسـقط ذقنـه، وبصـوت جهـوري مُـدَوٍّ، أنشـدَ أغنيـة عجيبـة بلغـة حسـبتُها رطانـة بـلا معنـى لحـدٍّ أننـي ابتسـمتُ لأول مـرة منـذ أيـامٍ كثيرة. ابتهـج الرجـال الآخـرون وصفَّقـوا، لكـن ريمـوس استشـاط غضبًـا، وبعـد أغنيـة أخـرى، جرَّنـا لنمـضي في طريقنـا.

* * *

نمنـا في النُّـزُل عـلى طـول الطريق. كنـت ألتـفُّ بالدثار عـلى الأرض، فيما ينـام نيكـولاي وريمـوس عـلى الأسِرَّة. عندمـا أتنشَّـق في الليـل، كان نيكـولاي يسـتيقظ دائمًـا وينسـلُّ بجـواري عـلى الأرضيـة التـي تـصرُّ ألواحهـا تحتـه. "مـوسى الصغـير"، يهمـس في أذني، "هـذا عالَـم مهـول، يمتلـئ بالأفـراح، كل

فرحـة تقبـع في انتظـارك لتَقتنصَهـا. لا تقلـق، لم تَعُـد مُضطـرًّا للخـوف. نيكـولاي معـك الآن".

في اليـوم الثالـث، خرجنـا مـن مقاطعـة أوري ودخلنـا إلى مقاطعـة شـفيتس، وسرنـا بمحـاذاة بحـيرة لوتـسرن، التـي أعـرف أنهـا تمتلـئ حتـمًا بحيوانـات مخيفـة. لكـن حتَّـى الوحـوش المتخيَّلـة في أعماقهـا كانـت معروفـةً لي أكـثر مـن الحضارة التـي صادَفَتنـا في طريقنـا. كان العـالم أكـثر اتِّسـاعًا بكثـير مـمَّا تصـوَّرت قـطُّ. ادَّخـرتُ كل صـوت بالسرعـة المُهتاجـة لبخيـلٍ وجـد صنـدوق أمـوال مسـكوب في الشـارع: انثنـاءات الأمـواج، صريـر محبـس المجـداف، مسـيرة الجنـود الموزونـة، صفـير تَدرُّبهـم عـلى بنـادق المَسْـكيت، أزيـز محـراث في الطمـي، الريـاح عـبر حقـول شـوفان الربيـع. مـرَّ بنـا تُجَّـارٌ وهـم يتحدَّثـون بألـف لغـة مختلفـة، وأخـبرني نيكـولاي كيـف كانـوا قـد عـبروا جبـال الألـب إلى إيطاليـا.

عـلى طـول الطريـق، تزاحـمَ متسـوِّلون حـول أحصنتنـا وتطاولـوا نحـو نيكـولاي وريمـوس بأصابـع ناحلـة، وهـم يئنُّـون كالماعـز. ألقـى إليهـم نيكـولاي بعمـلات نحاسـية. وتظاهـر ريمـوس أنـه لم يسـمعهم يتصايحـون. بـدأتُ في إدراك أن هـذا العـالم يحـوي مليـون إنسـان بمليـون قَـدَر، معظمهـا أقـدار تعيسـة. وهـا أنـا مثـال عـلى ذلـك: بـلا أب، بـلا أم، بـلا بيـت بمقـدوري العـودة إليـه.

(6)

في الصباحــات، كان نيكــولاي يوقظنــا بإنشــاده لقُــدَّاس الصبــاح. كان موسوسًــا في التزامــه بمهامــه المُقدَّســة، مُتشــدِّدًا في إكمالــه لــدورة المزامــير الأسـبوعية. لم يحمـل أي كتـب في رحلتـه سـوى مُجلَّـد نحيـل مـن (قواعـد القديـس بينديكـت)، وهـو كتـاب لم يكـن في حاجـةٍ إليـه؛ ذلـك أنـه كان يحفظـه عـن ظهـر قلـب نتيجـة القـراءة اليوميـة لمـا يزيـد عـن أربعـين عامًـا تقريبًـا. كنَّـا أنـا وريمـوس نظـلُّ في الفـراش حتـى ينتهـي مـن صلواتـه. ثـم نتنـاول إفطارنـا مـن العصيـدة وألـواح الجُـبن الكبـيرة وبـيرة المِـزر.

في كل يـوم، فيـما نمتطـي أحصنتنـا، كنَّـا نصمـت للحظـة، بقلوبنـا مُثقَلة بمسـتقبلنا، لكـن سرعـان مـا يعفينـا نيكـولاي مـن هـذا العـبء. يبـدأ في التَّحـدُّث حتَّـى نُطفـئ الشـمعة في الليـل وننـام.

«هـل زُرتَ رومـا مـن قبـل؟» سـألني في واحـدٍ مـن أيامنـا الأولى معًـا. نخـرَ ريمـوس عنـد سـماعه السـؤال.

«يـا لهـا مـن مـكان! يومًـا سـنذهب إلى هنـاك معًـا يـا مـوسى... أنـت وأنـا والذئـب العابـس. رغـم أن قلبـه يتـوق إلى فراشـه دومًـا، إلَّا أن ريمـوس يرغـب في العـودة إليهـا بالتأكيـد. تـرى، في رومـا لديهـم مكتبـات كاملـة تمتلـئ بكتـب لم يقرأهـا أحـد؛ ولهـذا سـمحَ لنـا رئيـس الديـر بالرحيـل. عاهـدَ ريمـوس نفسـه عـلى أن يقـرأ كل كتـاب في العـالم بأكملـه، مهـما كانـت مادتـه مملَّـة أو عديمـة الفائـدة».

"هـذا مـن رجـلٍ يؤمـن أن المكتبـات ينبغـي أن تقـدِّم لمرتاديهـا النبيـذ"، غمغـمَ ريمـوس دون أن يرفـع بـصره.

"حسـنًا، هـذا صحيـح"، قـال نيكـولاي. "وحينهـا سيسـعدني التَّوقُّـف عندهـا لأقـرأ صفحـة أو اثنتـين". بَسـطَ ذراعيـه عـلى اتِّسـاعهما ومـالَ قليـلًا للـوراء حتَّـى يسـتدفئ بالشـمس قليـلًا. أجفلـت ضحكتـه الحصـان. "لكـن لبضـع دقائـق فحسـب! هنـاك مـا يكفـي مـن الكتـب مـن أجـلي في سـانت غـال، أكـثر مـما يكفـي. رومـا يـا مـوسى! رومـا! غبـار الآلهـة يتخلَّـف في كل ركـن! يـا لهـا مـن موسـيقى! الأوبـرا! كيـف لي أن أضيـع لحظـةً مـع كتـاب!".

أخـبرني أننـا كُنَّـا في طريقنـا عائديـن إلى موطنهـم، سـانت غـال هـذه، التـي سُـمِّيَت هكـذا لأن رجـلًا يُدعـى غالـوس مـن مـكانٍ يُدعـى أيرلنـدا أصيـب بالحُمَّـى ووجـدَ بالصدفـة غابـةً قبـل أكـثر مـن ألـف سـنة. ذلـك المـكان كان ديـرًا (كلمـة تكـرَّرت كثـيرًا بـين نيكـولاي وريمـوس؛ ولهـذا كنـت مُتلهِّفًـا لمعرفـة معناهـا). حقائـق أخـرى انتزعتهـا عـن ذلـك المـكان: كانـت أقبيتـه ممتلئـة عـن آخرهـا بأجـود أنـواع النبيـذ في العـالم؛ الفُرُش أطـرى مـن أيِّ فـراش في رومـا؛ تضـم أعظـم مكتبـة في الأرض[1]، وريمـوس كان قـرأ كل كتـاب فيهـا (فيـما قـرأ نيكـولاي ثلاثـة فحسـب)؛ تضـمُّ شـيئًا بشـعًا يُدعـى رئيـس الديـر، وهـو رجُـلٌ يُسـمَّى كويلسـتن فـون شـتاوداخ

(1) هي ثاني أقدم مكتبة في العالم بعد مكتبة دير سانت كاترين في مصر. (المترجم)

أو كولـيرك فـون شـتوكدوك، لسـتُ متأكـدًا أيَّهـما. في أغلـب الأحيـان كان نيكـولاي يشـير إليـه باسـم شـتوكدوك فحسـب.

أخـبرني نيكـولاي أن أغلـب النـاس ينـادون ريمـوس بدومينيكـوس، لكـن أصدقـاءه (الذيـن لا يوجـد منهـم سـوى واحـد فقـط حاليًّـا، لكـن بمقدوري أن أكـون الثـاني إذا شـئت) يعرفـون أن اسـمه الحقيقـي هـو ريمـوس وأنـه تـربَّى وسـط الذئـاب العابسـين. لم يـراودني شـكٌّ في ذلـك: كان ريمـوس دائمًـا مـا يعبـس في وجهـي عـلى فـترات منتظمـة، رغـم أن معظـم وجـه كان يختفـي وراء كتابـه فيـما نمـضي عـلى الخيـول؛ بـدا حصانـه مُدرَّبًـا جيـدًا عـلى اتِّبـاع حصـان نيكـولاي. في مناسـبات كثـيرًا كان نيكـولاي يطلـب مـن ريمـوس القـراءة علينـا بصـوت عـالٍ، وحينهـا تبـدو الأصـوات التـي يتحـدَّث بهـا كتعاويـذ سـحرية بلغـة السَّـحرة. دائمًـا مـا كنـتُ أشـعر بالامتنـان عندمـا يقاطعـه نيكـولاي، بعـد دقيقـة أو اثنتـين، ويقـول: "ريمـوس، هـذا يكفـي. قتلنـا الملـل أنـا ومـوسى".

رغـم أن نيكـولاي تحـدَّثَ باعتـزاز شـديد عـن الديـر، إلا أنـه تألَّـم مـع انتهـاء أسـفارهما. في اليـوم الـذي تركنـا فيـه بحـيرة لوتـسرن وراءنـا وبدأنـا في صعـود التـلال، أوقـفَ نيكـولاي الأحصنـة بغتـةً. "ريمـوس"، قـال، "لقـد غـيَّرتُ رأيـي".

"لا تتوقَّـف بغتـةً هكـذا"، قـال ريمـوس، مُثبِّتًـا نظـره مـا يـزال عـلى كتابـه. "يُصيبنـي هـذا بالغثيـان".

عـاد نيكـولاي إلى تحديقتـه في الأفـق الجنـوبي، كـما لـو أنـه رأى شـيئًا أثـار قلقـه هنـاك. "لا بُـدَّ أن نقفـل راجعـين"، قـال. "أرغـب حقًّـا في زيـارة ڤينيسـيا".

رفـعَ ريمـوس بـصره بحـدَّة. كان مـن الواضـح أن اسـم تلـك المدينـة أثـار انزعاجـه. "نيكـولاي، تأخَّرنـا جـدًّا عـلى ذلـك. تأخَّرنـا لشـهور. حسـمنا قرارنـا بالاتِّجـاه إلى الديـر".

"لقد سلَّمتُ بسهولة. كان ينبغي أن أجعلك تعود بمفردك".

"نيكولاي، تابع طريقك". قال ريموس كما لو أنه يتحدّث إلى طفل.

"ريمـوس، لا بُـدَّ أن أزور ڤينيسـيا قبـل أن أمـوت". ضربَ نيكـولاي بقبضتـه عـلى فخـذه.

"مرَّة أخرى". أخفضَ ريموس بصره بحذر إلى كتابه.

سـحبَ نيكـولاي حصاننـا قريبًـا جـدًّا مـن حصـان ريمـوس بحيـث تلامسـت ركبتـه مـع ركبتـه الراهـب الآخـر. لم يرفـع الراهـب القـارئ بصره، رغـم أنـه أبعـدَ سـاقه. في نفـس اللحظـة، مـدَّ نيكـولاي يـده واختطـف الكتـاب.

تطلَّعَ الراهبـان في عينَـيْ بعضهـما البعـض. "ومـاذا لـو لم نغـادر الديـر أبـدًا لبقيَّـة حياتنـا؟" سـأله نيكـولاي.

لم يجبـه ريمـوس. مـدَّ يـده الخاويـة حتَّـى أعـاد نيكـولاي الكتـاب إليـه. فتحـه مُجـدَّدًا. "آمـل ذلـك"، قـال، وعـاد إلى قراءتـه. نخـزَ حصانـه وتهـادى بـه مُتجـاوزًا إيَّانـا.

نـادى نيكـولاي في إثـره. "أنـت في غايـة الحماقـة. أتحـدَّث عـن ڤينيسـيا يـا ريمـوس. أجمـل مدينـة في العـالم بأكملـه. وتركناهـا تمـرُّ بنـا غـير عابئـين بها".

تكلَّم ريموس ونظره في كتابه. "سيحلُّ الظلام قريبًا".

"أعتقـد أننـي سـأجد السـلام هنـاك"، همـسَ نيكـولاي، لنفسـه تقريبًـا. عندمـا رفعـت بـصري، كنـتُ موقنًـا تقريبًـا أن العمـلاق عـلى وشـك البـكاء. أخفـضَ بـصره إليَّ، وابتسـمنا لبعضنـا البعـض. في وجهـي أمَلـتُ أنـه رأى،

لكـن نيكـولاي، سـأذهب أنـا معـك! بـدا أننـي ألهمـت الرجـل الضخـم الشـجاعةَ؛ ذلـك أنـه ركل حصانـه وتحـاذى مـع ريمـوس مُجـدَّدًا.

"في ڤينيسيا كل شيء سيكون مختلفًا".

"لا تكُـن أبلـهَ". بفرقعـة، قَلَـبَ ريمـوس صفحـةً مـن الكتـاب. "أربعـون سـنة كراهـب ولم تتخلَّـص مـن ذلـك الهـوس. مجـرَّد ذريعـة أخـرى".

"إذن فخـذني إلى هنـاك؛ وحينهـا لـن أجـد أيَّـة ذرائـع أخـرى. سـأتوقَّف عـن إزعاجـك".

"ستجد سببًا آخر لضجرك واستيائك. الجميع يفعل هذا".

أوقـف نيكـولاي حصاننـا مُجـدَّدًا. هـزَّ رأسـه. "أنـت، عـلى الأقـل"، غمغـم، "لا عُـذرَ لديـك لتكـون تعيسًـا".

أغلـق ريمـوس كتابـه وتطلَّـع مـن فـوق كتفـه إلى نيكـولاي. ظننـتُ أننـي رأيـتُ ابتسـامة -ومضـة انفعـال- تكـسر ذلـك العبـوس، لكنهـا تلاشـت. "نيكـولاي، لا تُماطـل فيـما اتفقنـا عليـه قبـل زمـن طويـل".

تطلَّـع نيكـولاي إلى الـوراء للحظـةٍ أخـرى، كـما لـو كان بمقـدوره رؤيـة المُنعطـف المـؤدي إلى ڤينيسـيا، الـذي كان في الحقيقـة عـلى بُعـد مئـات الأميـال وراءنـا عـلى الجانـب الآخـر مـن جبـال الألـب، ثـم اسـتدار ناحيـة موطنـه ونخـسَ حصانـه.

* * *

"عزيـزي مـوسى"، قـال لي نيكـولاي ذات صبـاح بديـع عـلى نحـوٍ اسـتثنائيٍّ، بعـد أن امتطينـا الأحصنـة. "هنـاك رهبـان وهنـاك رهبـان. أنـا راهـب. ريمـوس هنـا راهـب. ورئيـس الديـر كوليـرك فـون شـتوكدوك راهـب. نُنْشِـد نفـس الأناشـيد، نُصـلِّي نفـس الصلـوات، ونحتـسي نفـس النبيـذ. نحـن مـن نفـس اللحـم، بمقـدور المـرء أن يقـول". كنَّـا نعـبر مـن الغابـة إلى المرعـى ثـم عائديـن إليهـا مُجـدَّدًا، صاعديـن ومُبتعديـن ببطء

عـن البحـير الشاسـعة التـي تتـلألأ وراءنـا. مـدَّ نيكـولاي يـده ومسـحَ بهـا علـى الشـتائل عـلى طـول المجـاز. "أرواحنـا أيضًـا يـا مـوسى، لا بُـدَّ أنهـا نفـس الـروح، أليـس كذلـك؟ لكـن لا، فـروح رئيـس الديـر شـتوكدوك مُتيبِّسـة وذاويـة، وروحـي سـمينة كخنزيـر". ضربَ حـول بطنـه. "وأحدنـا حتـمًا عـلى الطريـق الخاطـئ، كـما يقـول الرجـل الضئيـل دائمًـا. لكـن مـا نـودُّ أن نعرفـه جميعًـا هـو مَـن عـلى حـقٍّ ومَـن عـلى خطـأ؟".

نكـزَ إصبعًـا ضخـمًا في ركبتـي. "إنـه قلبـي في مواجهـة عقلـه يـا مـوسى. سـيقول نفـس الـشيء لـو سـألتَه، رغـم أننـي لـن أفعـل لـو كنـت مكانـك".

لبضـع دقائـق لم يتحـدَّث أيٌّ منَّـا، ثـم أخـذَ نيكـولاي في الهمهمـة بلحـنٍ عسـكري إيطـالي. مـدَّ يـده إلى الأرض وانتـزعَ فـرع شـجرةٍ ميِّـت. أخـذَ في التلويـح بـه عـلى أجـمات العليـق الناميـة عـلى طـول المجـاز. "تَـرى يـا مـوسى"، تابـعَ بغتـةً، "لـديَّ الكثـير لأخـسره. أحـبُّ أشـياء كثـيرة جـدًّا. أكـثر مـن الـلازم، يقـول رئيـس الديـر. أكـثر مـن الـلازم. امنـح قليـلًا مـن الحـب فحسـب، يشـير إليَّ. عالـج نفسـك مـن تلـك الخطيئـة. هـذا بالضبـط مـا أخـشى منـه، ألا تـرى؟ هـذا بالضبـط أكـبر مخـاوفي، هـذا مـا يُبقينـي مُسـتيقظًا كل ليلـة. مـا أخافـه هـو: أن أسـتيقظ في الصبـاح التـالي وأجـد كل شيء كـما هـو، العالَـم هـو العالَـم، لكـن مـع كل الحـب الـذي أحملـه تجاهـه وقـد اختفـى، ثـم أدرك أن حبِّـي لم يكـن في الحقيقـة سـوى مـرض، مثـل حصبـةٍ في الـروح". تطلَّـع نيكـولاي إلى صديقـه يخبـب بجـواره. "هـل يمكـن أن يحـدث هـذا يـا ريمـوس؟" لم يجبـه ريمـوس، فاضطـر إلى نخسـه بالفـرع في أضلاعـه.

"نعم، من الممكن أن يحدث"، دَمدمَ ريموس. "قد يحدث غدًا".

رفـعَ نيكـولاي الفـرع، تـردَّد للحظـة، ثـم لـوَّحَ بـه في اتجـاه فخـذ الحصـان الآخـر. اندفـع الحصـان إلى الأمـام، شـدَّ ريمـوس عـلى مقبضـه وبالـكاد نجـحَ في البقـاء في سرجـه ومنـع كتابـه مـن السـقوط مـن الوحـل.

وضعتُ يدي أمام فمي لإخفاء ضحكتي. عندما استعاد ريموس ثباته، استدارَ بغضبٍ إلى نيكولاي، لكن نيكولاي رفع يدًا. "تحاول إيذائي فحسب يا ريموس. لا تصدِّق حتى ما تقوله". لوَّحَ بالفرع في الهواء وكأنه سيف. انكمشَ ريموس.

بدا لي ريموس حينها قبيحًا حقًّا، وتمنَّيتُ لو ابتعد بحصانه عنَّا. لم أفهم ما كان يعنيه نيكولاي، لكنني كنتُ أحبُّ الإنصات إليه وهو يتحدَّث. لا بُدَّ أن نيكولاي رآني أصالب بين ذراعيَّ متأفِّفًا، لأنه وضع يدًا على كتفي. "لا تدع تبرُّمَه يخدعك"، قال، "ليس لئيمًا كما يريدك أن تعتقد". ثم انحنى أكثر، وتحدَّث بصوت واطئٍ جدًّا، لحدِّ أن الراهب القارئ لم يستطع سماعنا. "ذلك العابس يؤمن بالحب كما يؤمن أيُّ إنسان في العالم. قَدْر ما أؤمن أنا. كثيراً ما سمعته يهمس بما يؤكد أنه يؤمن بالحب، تمامًا كما أهمس أنا، وتمامًا كما ستهمس أنت يومًا ما لأحدهم، عندما تشعر بتلك الومضة، أن نصفين صارا واحدًا".

انغلق كتاب ريموس بغتةً. حدَّقَ بغضب في نيكولاي. "احذر مَن تخبره أسرارك"، قال.

تورَّد وجه نيكولاي، لكنه هزَّ كتفه استهانةً ومَزَّق فَرعه في شجرة عابرة. "لا تقلق يا ريموس"، قال. "بمقدورنا ائتمان موسى على أسرارنا".

(7)

اتَّضحَ أن رئيس الدير كويلستن جوجر فون شتاوداخ ليس سوى رجل ضئيل كانت أبرز ملامحه جبينًا عريضًا، يحتلُّ ما يزيد عن نصف قماشة وجهه، ووراءها لا بُدَّ ينبض عقلٌ هائل. "راهب مُبتدئ قروي في هذا الدير؟" سألَ عندما أوضحَ له نيكولاي لماذا جلبَ هذا الطفل إلى مكتبه. "راهب مُبتدئ يتيم؟".

أومأ نيكولاي بحماس. تطلَّعَ ريموس إلى أرضية خشب البلُّوط المصقولة.

نهضَ رئيس الدير من وراء مكتبه العريض. مثل نيكولاي وريموس، كان يرتدي أيضًا غِلالة سوداء، لكن يتدلَّى فوقها رداءٌ أسود بقلنسوة، وصليبٌ ذهبي يلتمع على صدره، وفيما يقترب منِّي، حدَّقتُ في الحجر الأحمر المتلألئ على إصبعه. أوشكتُ على التراجع، لكنني كنت بالفعل لَصْق الحائط. نظرَ إلى قدميَّ العاريتَيْن، إلى ملابسي المُغبَّرة، إلى اللطخات التي لم يغسلها نيكولاي عن وجهي. تنشَّق.

"بالتأكيد لا"، قال.

"إنــه هــادئ"، قــال نيكــولاي. "إنــه... إنــه صغــير". باعــدَ نيكــولاي ذراعيــه كــما لــو لاســتعراض حجــم ســمكة بائســة.

حــدَّق إلى رئيــس الديــر مــن علٍ. كانــت أنفاســه ســطحية، تندفــع بشــكل ميكانيــكي كمنفــاخ عــلى مصهــر. داخلــةً، خارجــةً. داخلــةً، خارجــةً. حتَّــى الآن، كنــتُ متيقِّنًــا أن بمقــدوري إيجــاد جــذور لــكل صــوتٍ ســمعته في هــذا العــالم الهائــل -مــن فرقعــات بنــادق الجنــود إلى امــرأة تغنِّــي في نافذتهــا- في الأعــماق الــلا نهائيــة لأجــراس أمِّــي. لكننــي كنــتُ متيقِّنًــا أيضًــا أنــه في موضــع مــا في العــالم كانــت أصــوات أبي، ممزَّقــة ومتناثــرة في الفيضــان، محفوظــةً أيضًــا. في اللحظــة التــي ســمعت فيهــا هــذه الأنفــاس، أدركــتُ مــن أيــن جــاءت أصــوات هــذا الرجــل.

كنَّــا ســافرنا عــبر أراضي الديــر طــوال الأيــام الأربعــة الفائتــة مــن رحلتنــا؛ ذلــك أن ديــر ســانت غــال كان أغنــى وأوســع ديــر في ســويسرا بأكملهــا. لم يكــن رئيســه مســؤولًا أمــام أحــد، كان نيكــولاي قــد أوضــحَ لي فيــما يمســح بيــده ليشــير إلى التــلال الطاويــة، لا مَلــكًا في الأعــلى ولا جمهوريــة في الأســفل. شــهقتُ عندمــا دلفنــا عــبر بوابــات المدينــة البروتســتانتية، التــي كانــت تحيــط بالديــر كقــشرة بثمــرة جــوز[1]. وجــدتُ الشــوارع عريضــةً ومرصوفــة بأحجــار ملســاء مســتوية، والمنــازل العاليــة نصــف الخشــبية تتوهــج بالأبيــض. ورجــال ونســاء المدينــة طويــلي القامــة، ذوي جــمال وكبريــاء، بأزيــاء مــن الكتــان والصــوف، وزركشــات الموســلين الرقيــق. كانــت أصــوات الجِــدِّ والعمــل تنســاب مــن كل قبــوٍ، وكل زقــاق: صريــر وانــزلاق قصبــة المنــوال، خشخشــة عمــلات الذهــب والفضــة، قعقعــة العربــات المُحمَّلــة بأكــوام الكتــان الــذي بيَّضتــه الشــمس. فيــما نخــترق المدينــة،

(1) في سانت غـال، يقـع الديـر الكاثوليـكي في المركـز، تحيـط بـه المدينة البروتسـتانتية، وتحيـط بالاثنـين أمـلاك وأراضي الديـر المتراميـة. - (المترجم)

ازدادت المنازل ارتفاعًا وفخامةً: مباني حجرية بيضاء كالجُرُف التي تعلو كنيسة أمي. مكتبة سُر مَن قرأ

في النهاية وصل ثلاثتنا أخيراً إلى بوابة يحرسها جنديَّان، خطوا جانبًا عند مرأى الراهبَين العائدَيْن، ومررنا إلى ميدان الدير الشاسع. مدَّ نيكولاي يده لملامسة ريموس برفقٍ على مِرفقه، إصبعان فحسب وإبهامه على نسيج غِلالته الكهنوتية. استمرَّت اللمسة للحظة، فيما ينظر الرجلان إلى بيتهما للمرة الأولى في سنتين، ثم استدارَ ريموس ليراني أراقبهما.

أبعد ذراعه مُجفلًا.

كانت مساحة الميدان تكفي عشرة آلاف روح. تحدُّه ثلاثة أجنحة هائلة من أحجار لبنية اللون، كل منها عظيم وكأنه قصر، بنوافذ كثيرة جدًّا، كلها عالية كباب منزل كارل ڤيكتور. وفي وسط الميدان كانت حفرة هائلة يقبع فيها دزينتان من الرجال يرفعون كُتَلًا مهولة من الحجارة. لامسَ نيكولاي كتفي وأشارَ إلى الحفرة.

"انظر يا موسى"، قال. "لقد بدؤوا لتوِّهم... في بضع سنين ستكون هذه أجمل كنيسة في أوروبا".

أومأتُ، رغم أن التجويف المهول لم يشبه الكنيسة التي أعرفها بأيٍّ شكل. تناول نيكولاي يدي وقادني إلى الميدان الفسيح. لا بُدَّ أن كائنات تبلغ حدَّ الكمال تسكن ذلك القصر، فكَّرتُ، وتمنَّيتُ أن يسمحوا لي بالنوم هنا على العشب.

* * *

لكن في حجرة رئيس الدير، فيما ينظر إليَّ شزرًا من علٍ، أدركتُ أخيراً وضعي. كان، حقًّا، الكائن الأسمى، ولم أكن سوى لطخة لا بُدَّ من مسحها.

"دار الأيتام في رورشاخ"،قال، وأومأ بنخرة.

"لا!" قال نيكولاي، بأعلى مما يقصد بالتأكيد. انكمش ريموس. خطا الراهب الكبير للأمام وصرَّت الأرضية الخشبية تحت قدميه الهائلتين. جذب ريموس كُمَّ نيكولاي لتحذيره، لكنه نفضه عنه.

"يمكنه البقاء معي"، تابع نيكولاي.

ارتفعت تحديقة رئيس الدير المُستاءة من وجهي إلى وجه نيكولاي.

"في صومعتي. بمقدوره أن يكون خادمي".

تصوَّرتُ نفسي أحمل نبيذ نيكولاي، أُلبِسُه حذاءه، أدعك كتفيه عندما يكون متعبًا. مقابل بيتٍ في هذا القصر المنيف، كنتُ مستعدًّا لفعل هذا وأكثر.

"الرهبان لا يملكون خَدَمًا".

"أبتاه رئيس الدير"، قال نيكولاي، وابتسم كما لو أن رئيس الدير قد قال مَزحةً. "أين قلبك؟".

ألقى رئيس الدير نظرةً توبيخيةً أخرى في اتِّجاهي. هذا خطؤكَ بالكامل، أدركتُ ما تريد عيناه أن تقول، الأمر بأكمله، أمك الميِّتة، أبوك الشرير، القذارة التي تخلِّفها قدمك مُتخشِّبةُ الجلد على أرضياتي الطاهرة. وشعرتُ بالأسف حقًّا... لو واتتني الشجاعة على التَّحدُّث، لطلبت صفحه وغفرانه على كل شيء، ثم سأتوسَّل إليه ألَّا يطردني؛ لأن نيكولاي هو الشخص الوحيد في العالم الآن الذي أثق به، ولا أرغب في انتزاعي منه كما انتُزِعتُ من أمِّي.

لكنني لم أقُل شيئًا من هذا بالطبع. كنت مرعوبًا بشدَّة على أن أقف مُنتصبًا حتى.

ثـم اقـترب رئيـس الديـر مـن نيكـولاي. لم يكـن عجـوزًا، لكنـه يتحـرّك كـما لـو أن كل خطـوةٍ يأخذهـا بسـبِبنا عبئًـا عليـه. ترهَّـلَ نيكـولاي للقـاء تحديقتـه المتوهِّجـة.

"سـأقبل بعودتـك إلى هـذا الديـر، أخ نيكـولاي، لأنـه ينبغـي لي، رغـم أننـي أعـرف أنـك لا تشـاركنا طريقنـا. إنـه طريـقٌ صعـب. البعـض مُقـدَّرٌ لـه التطـواف. تمنَّيـتُ أنـك سـتطوِّف أبعـد. تمنَّيَـتُ، في هاتـين السـنتين، ألَّا تعـود. لكـن هـا أنـت قـد عـدتُ. سـترى، في الفـترة التـي رحلـت فيهـا، أننـا أحرزنـا تقدُّمًـا في هـذا الديـر". أومـأ عـبر النافـذ إلى العُـمَّال في الحفـرة، ثـم اقـترب أكـثر مـن نيكـولاي، مُحدِّقًـا فيـه. أمـالَ نيكـولاي رأسـه كـما لـو سـماع سرٍّ. "أنصحـك بالبحـث عـن هـذا التَّقـدُّم، أخ نيكـولاي"، قـال رئيـس الديـر. "ابحــث عنــه في وجــوه إخوتــك، في أعمالهــم، في المواعــظ التــي نلقيهـا، في الأناشـيد التـي ننشـدها. ابحـث عنـه في الكنيسـة الجديـدة التـي نبنيهـا. ولا تنظـر فحسـب أخ نيكـولاي، لكـن تفكَّـر. هـل لديـك أيُّ شيء لتُسـهم بـه في هـذا الجَـمال؟ مـن أجـل تتويـج إرادة الـرَّبِّ؟ أم هـل سـتمنع تحقُّقهـا؟ هـل سـتقف في الطريـق الـذي قـدَّره الـرَّبُّ لهـذا الديـر؟".

فتـحَ نيكـولاي فمـه ليتحـدَّث، وأغلقـه، ثـم نظـرَ إلى ريمـوس علَّـه يجـد إشـارةً، عـلى أيٍّ مـن هـذه الأسـئلة الكثـيرة يُفـترض أن يجيـب. هـزَّ رئيـس الديـر رأسـه ونخـرَ. اسـتدار مُبتعـدًا ولـوَّح بيـده فيـما يخطـو عائـدًا إلى مكتبـه. "يمكنـك البقـاء هنـا، إذا شـئتَ"، قـال. "يمكنـك الرحيـل... اخـتر هـذا، وسـأمنحك ذهبًـا لتأخـذه معـك". ثـم اسـتدارَ رئيـس الديـر مُجـدَّدًا. رفـع إصبعًـا في وجـه نيكـولاي. "لكـن إذا اخـترت البقـاء، فـلا تُعرقلنـا. واعلَـمْ أننـي أراقـب وأنتظـر حتَّـى أجـدد سـببًا يكفـي لطـردك مـن هـذا الديـر، ولإرسـال خطابـات إلى كل ديـر في محيـط خمسـمائة ميـل حتَّـى لا تتلقَّـى قطـرة واحـدة مـن نبيـذ الأديـرة".

بـدت الغرفـة وكأنهـا تـدور قليـلًا. أدركـتُ أنني نسـيتُ أن أتنفَّـس. أخـذتُ عـدة أنفـاس متأنِّيـة فيـما ظلَّـت عينـا رئيـس الديـر مُثبَّتتَـيْن عـلى وجـه نيكـولاي. أجـال نيكـولاي نظـره مـن العينـين الباردتـين إلى إصبـع رئيـس الديـر المرفوعـة، ثـم إلى العينـين مُجـدَّدًا. بـدا الراهـب العمـلاق في غايـة الاسـتكانة واللُّطـف. لوهلـة، أوشـكتُ عـلى الاقتنـاع أنـه سـيأخذ رئيـس الديـر الضئيـل بـين ذراعيـه ويحتضنـه. هـل بمقـدوره إذابـة تلـك التحديقـة البـاردة؟ ألقـى نيكـولاي بنظـرةٍ خاطفـة إلى ريمـوس، كـما لـو لمنـحِ الراهـب الكُتُبـيِّ فرصـةً لحـلِّ سـوء التفاهـم البسـيط هـذا بـين الإخـوة. لكـن ريمـوس لم يَقُـل شـيئًا. لهـذا ابتلـع نيكـولاي ريقـه وومضـت نظـرةٌ مـن عـدم اليقـين عـبر وجهـه.

"أبــ.. بتاه رئيس الدير"، شرعَ في القول.

لكـن رئيـس الديـر رفـع يـده وقـال ببـطء، وخفـوت، "خُـذ هـذا الصبـي إلى دار الأيتـام في رورشـاخ، أو ارحـل".

* * *

تقدَّمَنا ريموس في طابور واحد عائدين إلى ميدان الدير.

"كان مـن الممكـن أن يسـوء الأمـر أكـثر"، قـال بعدمـا أغلـق الحـارس البـاب الهائـل وراءنـا. حرَصـتُ عـلى البقـاء قريبًـا قَـدْر الإمـكان مـن سـاقَيْ نيكـولاي العملاقتـين حتَّـى لا ينتزعنـي أحـد. "لم يذكـر أننـا تأخَّرنـا في العـودة، أو أننـا أنفقنـا كل أموالـه واقترضنـا المزيـد باسـمه، أو أنـك أغضبـت كل راهـب في رومـا بحكمتـك ذات الطابـع الاسـكتلندي، أو أننـي فقـدت...".

"أخبرتـك مـن قبـل"، قـال ريمـوس، "'الأب رئيـس الديـر' زائـد عـن الحاجـة[1]. هـذا يعنـي أنـه 'أب أب'".

(1) الكنيسـة الزائـدة عـن الحاجـة هـي كنيسـة مغلقـة ولم تَعُـد مُسـتخدَمة للعبـادة المسـيحية؛

"يحبُّ هذا".

"يحبُّ أن تبدو أحمقَ".

نخرَ نيكولاي. "سيرى هذا بطريقة أو بأخرى".

حدَّقَ الراهبان في الحفرة -التي كانت ترتفع منها الكنيسة الجديدة، المثالية- وكأنها منبع كل متاعبنا. "حسنًا إذن يا سقراط، ماذا سنفعل؟" سأل نيكولاي. استدرتُ ناحية الراهب العابس، مُدركًا أن هذا الرجل المُنفِّر كان ثاني أفضل صديق لي في العالم.

"ماذا سنفعل؟" كرَّر ريموس.

"لديك فكرة حتمًا".

"نيكولاي، دار أيتام".

"دار الأيتام"، صحَّح نيكولاي، "كانت فكرة شتوكودوك. لن أرسل موسى إلى إصلاحية". ابتسمَ وغمزَ لي، لكنني لم أستطع إجبار نفسي على الابتسام بدوري.

"نيكولاي، إنه الحلُّ الوحيد".

"علينا أن ننتظر فحسب إذن"، قال نيكولاي. هزَّ كتفيه وربَّتَ على رأسي. "امنح الرَّبَّ فرصة ليجد حلًّا آخر".

* * *

كانت صومعة نيكولاي، في الطابق الثاني من مهجع الرهبان، مكسوَّة بألواح من خشب البلوط. كان هناك مكتب، ومقعدان، وأريكة مُنجَّدة بمخمل بني، وعدة مناضد واطئة، موضوعة حول حوافِّ سجادة من الصوف دفَّأَت، فور أن خطوتُ عليها، قدمَيَّ العاريتين كأحجار مصفوفة حول نار. في أحد طرفَيْ الغرفة كان فراشٌ هائل وخزانة ملابس، وفي

لأسباب ذات علاقة بهجرة السكان أو دمج الأبرشيات أو تغيُّر الأنماط الاجتماعية. (المترجم)

الطرف الآخر، مدفأة. حملني نيكولاي حتَّى أستطيع رؤية وجهي في المرآة التي تعلو المدفأة الرخامية- الأصفى من أصفى البِرك. عندما أمسكني مُتلبِّسًا بالانبهار بالشمعدانين الفضِّيَّيْن على رفِّ المدفأة، تناول واحدًا وأعطاه لي. "إنه لك"، قال. "يكفيني واحد". شكرته، لكن عندما استدار، وضعته بخجل على إحدى المناضد.

أخرجَ نيكولاي ببطء الكنوز التي جناها أثناء سفرياته ووضعها أمامي لأتفحَّصها: صدفة لؤلؤية، محفظة جلدية مُكدَّسة بتذاكر من أوبرات كثيرة شاهدها، ناي خشبي أخبرني أنه سيتعلَّم العزف عليه ذات يوم، خصلة من شعرٍ أصفر تجعل عنقه يحمرُّ عندما تلتمع أطرافه الذهبية في الشمس.

فردَ لوحةً مائية وسألني إن لم تكن أجمل لوحة رأيتها في حياتي. شهقتُ عند رؤية صورة لقنال ڤينيسيا الكبير. لم أكن أدرك أن أيَّ مكان على الأرض بمقدوره أن يكون زاهي الألوان هكذا. أسَندَها نيكولاي على منضدته. حدَّقنا فيها لبضع ثوانٍ، ثم استدارَ ناحيتي، ووجهه قد اكتسبَ الوقار بغتةً. "موسى"، قال. "من المهم للغاية أن لا يراك أحدٌ سوى ريموس. لن يكون هذا للأبد، لكن علينا أن نمنح الرَّبَّ وقتًا ليخبرنا بما علينا فعله. إذا سمعتَ طرقًا على الباب، فعليك أن تختبئ هناك". أشارَ إلى خزانة الملابس ثم جعلني أتدرَّب على الاستلقاء بسكون تام داخلها.

تلك الليلة، نمتُ على الأريكة. تعالى شخير نيكولاي طوال الليل. في الصباح، سمعتُ طَرقًا على الباب في الرابعة إلا ربع، وزمجرَ نيكولاي ليوقظ نفسه كما لو لطرد نوم الشيطان الذي يُلصقه بالفراش. في الرابعة كان في الكنيسة الخشبية المؤقتة لصلوات الصباح. سمعتُ صوته يرتفع عن بقية الأصوات. هكذا استمرَّ الأمر لبضعة أيام. سمعتُ أنه وحده أبدًا لم يتأخَّر من قبل عن أناشيد الصباح هذه،

أن صوتـه الرَّنَّـان أبـدًا لم يرتعـش. فيـما أسـتلقي عـلى الأريكـة أنصـتُ للمدينـة النائمـة خـارج النافـذة، سـمعتُ صـوت نيكـولاي الطافـح كـما لـو كانـت الأناشـيد خَلْقًـا متجـدِّدًا دومًـا مـن بنـات عقلـه، وليـس مجـرد إلقـاءً لأعـمالٍ عمرهـا قـرون.

الصـلاة الافتتاحيـة، ثـم القُـدَّاس دون جوقـة مرتِّلـين، ثـم صـلاة الترانيـم، ثـم القُـدَّاس كامـل المراسـيم، ثـم صـلاة السـاعة العـاشرة- كان كل هـذا يسـتمرُّ حتـى العـاشرة والنصـف في الصبـاح. ثـم يتناولـون وجبـة الظهـيرة، التـي يجلـب نيكـولاي لي منهـا مـا يعتـبره سَـقْطًا، لكـن بالنسـبة لي كانـت أعظـم وليمـة يمكـن تخيُّلهـا: ألـواح سـميكة مـن لحـم الأبقـار أو الحِمـلان الغضَّـة، لحـم خنزيـر مُدخَّـن، نقانـق داميـة، جـبن، عنـب، مشـمش، تفـاح، لـوز. كان يخفـي هـذه الكنـوز في جيوبـه ويضعهـا عـلى حجـري لألتهمهـا. فيـما أتنـاول طعامـي، كنـا نحتـسي رشـفات مـن جـرَّة نبيـذ، التـي كان يسـمح لـكل راهـب باثنتـين منهـا في اليـوم، لكـن نيكـولاي كان يأخـذ أكـثر مـن ذلـك. "مقـاس خـصري"، ضاربًـا عـلى بطنـه، "يحتـاج إلى هـذا. قاعـدة الجرَّتَـين تلائـم قـوام أنـاس مثـل شـتوكدوك". في الثالثـة، يغـادر نيكـولاي مـن أجـل صـلاة المسـاء، ومُجـدَّدًا يرتفـع إنشـاده فـوق المدينـة. ثـم يظهـر ثانيـة أمـام البـاب قبـل السـابعة بالضبـط، متـورِّد الوجـه مـن العشـاء والنبيـذ، ويـترك لي وليمـة أخـرى لأتعامـل معهـا وحـدي بينـما يشـدو هـو بصـلاة التَّضرُّعـات، التـي تصـل، تحـت تأثـير شَـبعه، إلى أعـلى نشـوةٍ لأيِّ طقـسٍ دينـي.

في الثامنـة يـأوي الرهبـان إلى صوامعهـم، وهـو مـا يعني عـودة نيكولاي، مـع ريمـوس غالبًـا، أو بمفـرده لكـن بلسـان ثرثـار يتحـدَّث أو يغنِّـي حتَّـى يحـل الظـلام. أحيانًـا مـا يطـرق راهـب آخـر عـلى البـاب، توَّاقًـا ليعـرف مـع مَـن يتحـدَّث نيكـولاي. إذا كان احتـسى نصيبـه فحسـب، يصيـح بأنـه راهـب يشـعر بالوحـدة ويحـبُّ أن يتحـدَّث مـع الجُـدران أحيانًـا، لكـن

عندما يحتسي أكثر من ذلك، يزأر في اتِّجاه الباب، "انصرف! النبي موسى يتحدَّث معي على انفراد! ارحل، يا أحمق!".

كنت أفكِّر في أمِّي كل يوم، وأبكي كثيراً، لحدِّ أنني لطَّختُ أريكة نيكولاي بدموعي المالحة، لكنني لم أجزع لاحتباسي، لأنه لم يكن يختلف كثيراً عن حياتي السابقة في برج الكنيسة. ولهذا لم أشعر بالخطر الذي يتربَّص بي فيما أنصت إلى المدينة البعيدة، إلى الرهبان يتحادثون في مُعتزلِهم في الأسفل، أو إلى العُمَّال ينحتون في كتل الحجارة في جدران الكنيسة الجديدة. ظهرَ صوتٌ جديدٌ أيضًا، كان بمثابة لغز لأذنَيَّ. خطوتُ إلى النافذة المفتوحة، وكأنني كلب يتبع رائح لحم. عندما سَكَنَ الهواء، حجبتُ كل صوتٍ آخر وحاولت اقتناص الصوت الجديد، لكنه كان واهيًا جدًّا على أن أمسك به كبقيَّة الأصوات الأخرى. تراخت قبضتي على جزءٍ منه، واختفت الأجزاء الأخرى أيضًا. ومع الوقت بُنِيَت جدائل من هذا الصوت الجديد فوق بعضها البعض، كتجمُّع لزهور الخشاش على سفحِ تلٍّ يُشاهَد من على البُعد؛ بُرعم كل زهرة غير مرئي، لكنها في المجموع، تضيء مُنحدر التَّلِّ بالأحمر.

كنتُ أسمعه كل ظهيرة. ربما كان هذا الصوت هو الرَّبُّ الذي يتحدَّث عنه نيكولاي؟ ليس ربَّ كارل ڤيكتور المُرعب، بل ربًّا للجمال والفرحة. ربٌّ سيجد طريقةً من أجلي لأبقى في هذه المكان البديع، المُتَّسِم بالكمال.

ثم في واحدٍ في صباحات الأحد، في يومي السادس في غرفة نيكولاي، أصبح الصوت أعلى بغتةً، وبدلًا من مجيئه من السماء، بدا أنه يأتي من كل اتِّجاه: من الجُدران، من الأروقة، من ثقب المفتاح. كان الرَّبُّ يقترب، ولا يمكن أن أخطئه. وهكذا، بعد ستَّة أيام من وصولنا إلى الدير، خالفتُ تحذير نيكولاي. غادرتُ صومعته.

(8)

ألصقتُ أذني بثقب المفتاح حتى تأكَّدتُ أن الرواق خالي. ثم فتحت الباب. أغلقت عينَيَّ وأرهفت سمعي لالتقاط وقع أقدام أو أنفاس رئيس الدير الناشزة. ارتعشت ساقاي فيما أتَّخذ خطوةً إلى الأرضية الخشبية المصقولة للرواق الشاسع.

كان الصوت أعلى هنا. يتألَّف من أصواتٍ بشرية؛ صرتُ الآن متأكدًا. كانوا يغنُّون. حاولتُ عدَّهم. في لحظة كانوا اثنَيْن، ثم ثمانية، ثم سمعتُ أخيرًا... اثني عشر؟ ثم صوتين فحسب مجددًا. لوهلة، بقيَ صوتٌ واحد، واستولي عليَّ الشَّكُّ إن كنتُ سمعت أيَّة أصوات أخرى.

هبطتُ عبر بئر الدَّرج الواسعة. مقارنةً بحجرة نيكولاي، كانت هذه المساحات الجديدة مهولة. لم أصدر ضجيجًا، ولم تكن هناك أيُّ أصوات بشرية أخرى في الدير، باستثناء هذه الأصوات. كان العُمَّال قد توقَّفوا عن عملهم. ولا راهب يخطو في المعتزل. لم أسمع سوى الرياح. كان الأمر كما لو كل البشر في العالم قد اختفوا.

تسلَّلتُ إلى المعتزل. كان العشب الرطب باردًا على قدمَيَّ العاريتين. وراء حفرة الكنيسة الجديدة امتدَّ ميدان الدير الخاوي. توقَّفت. انطلق صوتٌ واحد من جديد، بمفرده، وبعدها بلحظات، نطقَ صوتٌ آخر بنفس العبارة، ثم صوت آخر وآخر، كلهم نفس الصوت تقريبًا، ليس تمامًا: بعضها أسرع أو أبطأ، أو تغنِّي بنغماتٍ مختلفة. أصابني الدوار من محاولتي تَبيُّنها. لا بُدَّ أنها الملائكة تغنِّي حتمًا.

اعتصرتُ عينَيَّ بشدَّة حتى آلمتاني. التفافات من الضوء الرمادي كانت ترقص مع الأصوات السحرية. وبغتةً أدركتُ كل شيء. إدراكًا انبثق داخلي. في قعقعة أجراس أمِّي، سمعتُ هذا الجمال من قبل- في ومضات من التناغم العشوائي. وهؤلاء الرجال والصبيان الذين يغنُّون، كان تعلَّموا حقًّا معنى الإعجاز السحري. كان بمقدورهم العَمَل على محيط الأصوات ذلك، الجارف واللا نهائي، وصبُّه وتحويله إلى شيء بديع. وأدركت، أنني، أيضًا، بمقدوري أن أعرف هذا السحر. ربما أعرفه بالفعل.

تجاوزتُ حافَّة حفرة الكنيسة الجديدة وسِرتُ عبر نفقٍ مصنوع من ألواح يؤدي عبر ميدان الدير إلى الكنيسة الخشبية المؤقتة. تتبَّعتُ الأصوات حتَّى وصلت إلى باب عالٍ من خشب البلوط. أزحته بصعوبة بكل قوَّتي لينفتح.

كان يُفترض أن أرى الكنيسة البسيطة ممتلئة بالرُّهبان والعامَّة، يفصل بين المجموعتين حاجز خشبي. كان يُفترض أن أرى جوقة سانت غال تغني أمام المذبح. كان يفترض أن أجفل بما يكفي للهروب. لكن انفتاح الباب أطلق فيضانًا من الصوت، ولوهلة لم أدرك شيئًا سوى هذه الموسيقى. صرتُ عبدًا لأذنيَّ.

آلمتني لحظاتٌ من التنافر بين الأصوات. لكن عندما اصطفَّت الأصوات في أثلاث، دفَّأَت عنقي وظهري. أغلقتُ عينَيَّ واستمعتُ

للموسيقى. شعرتُ بطنين غنائهم في فكَّيَّ وأصداغي. شعرتُ به في صدري الضئيل، وعندما أطلقت زفيري، تنهَّدتُ، وهكذا تداخل الرنين الواهي لصوتي مع الموسيقى. كانت تنهيدتي شرارة. انبثق صوتي إلى الحياة. تأوَّهتُ، محاولًا إيجاد النغمات التي تُطابق رنين جسدي الضئيل مع هذا الجَمال.

لم أكن أعرف الكلمات، ولم أدرك حتَّى أن ما يغنّونه كان كلماتٍ؛ لهذا أطلقتُ الأصوات كيفما اتفق من شفتيَّ. في لحظة شعرتُ بنشوة التناغم، وفي أخرى، بوخزةٍ باردة في ظهري، فيما ضجيجي يتقارع مع أغنيَّتهم. غنَّيتُ كجروٍ يركض مع كلابٍ كبيرة -باهتياج، بنشوة، بحماقة- حتَّى أدركتُ بغتةً أن الغناء قد توقَّف. كنت تائهًا وسط صمتٍ مصدوم.

صفَعَت يدٌ رأسي بقوة، لحدٍّ أن النجوم ومضت أمام عينَيَّ. سقطتُ على ركبتيَّ. انفتح الباب الكبير مُجدَّدًا، ورفعتني اليد من عنقي، وألقتني خارج الكنيسة إلى التراب في الخارج.

* * *

ركضتُ. صعدتُ الدَّرج مسعورًا. بدا كل باب أمرُّ به في ركضي مُماثلًا للذي قبله، وجرَّبتُ خمسة أبواب قبل أن أجد الباب الذي أبحث عنه. اختبأتُ في خزانة الملابس ووضعتُ واحدة من غلالات نيكولاي الصوفية السوداء فوقي. شعرتُ بحرارة مريعة، وسرعان ما انقطعت أنفاسي وبدأت في التَّعرُّق. لكنني ظللتُ هناك حتى دخل زوجان من الأقدام إلى الغرفة. تعرَّفتُ في أحدهما على وقع أقدام نيكولاي المتثاقلة. وفي الأخرى- أعرف تلك الأنفاس. مِنفاخ على مصهر.

انغلقَ الباب بقوَّة.

"أبتاه رئيس الدير..." شرعَ نيكولاي في القول.

"ينبغـي لي أن أطـردك مـن الديـر"، زمجـرَ رئيـس الديـر كويلسـتين. "تخفـي طفـلًا في صومعتـك!".

"ليـس لديـه مـكان ليرحـل إليـه"، توسَّـلَ نيكـولاي. همَـسَ وكأنـه يرغـب في ألَّا يُسـمَع. "فقـط لـو قبلتَـه كراهـب...".

"هـل تسـمعني؟" هتـف رئيـس الديـر. "الطـرد! مـاذا سـتفعل حينهـا؟ تُغنِّـي مقابـل الطعـام؟".

"أبتاه رئيس الدير، أرجوك".

"أين هو؟".

كان هنـاك صمـت في الغرفـة. ببـطء شـديد، للغايـة، انحنيـت حتَّـى أسـتطيع النظـر عـبر الشـقِّ بـين بـابَيْ الخزانـة. حـدَّق رئيـس الديـر باهتيـاج إلى نيكـولاي العمـلاق، وبـدا وكأنـه طفـل غاضـب.

هزَّ نيكولاي كتفيه العملاقتين استهانةً. "ربما هرب".

استمرَّت تحديقة رئيس الدير.

"أبتـاه رئيـس الديـر، أرجـوك. لا تعاقـب هـذا الصبـي عـلى مـا فعلتُـه". وضـع نيكـولاي يـدًا عـلى كتـف رئيـس الديـر.

دون أن يزحـزح عينَيـه، أمسـك رئيـس الديـر بمعصَـم نيكـولاي. أزاحـه مـن عـلى كتفـه. قطَّـبَ نيكـولاي وجهـه فيـما رئيـس الديـر ينشـب أظافـره في لحمـه. تحـدَّث رئيـس الديـر ببـطء، مُشـكِّلًا كل كلمـة بعنايـة. "ربمـا تظـن أن عمـل الخـير وفـير كالهـواء". طـوَّح بـذراع نيكـولاي بعيـدًا.

فركَ نيكولاي مِعصمه. "صبي واحد لن يسبب أي ضرر".

بدا رئيس الدير وكأنه لم يسمعه.

ضـمَّ نيكـولاي راحتَيْـه معًـا. "أبتـاه رئيـس الديـر"، قـال. "أرجـوك، أتوسَّـل إليـك".

ذلك الوجه! هل وُجِدَ -قطُّ- وجه كبير هكذا، وبريء هكذا في آنٍ؟ مُحسنٌ هكذا؟ بدا وكأنه يقول لرئيس الدير، لكننا إخوة، أنا وأنت!

"تتوسَّل إليَّ؟" قال رئيس الدير، مُندهشًا من مجرد الفكرة. تطلَّعَ في أرجاء الغرفة. "تتوسَّل إليَّ من أجل ماذا؟ نيكولاي، منحتُك بالفعل كل ما يمكن منحه. منحتك غرفةً سيسعد أميرٌ بالعيش فيها. منحتُك الطعام. منحتُك نبيذًا أكثر ممَّا يمكن لأي رجل أن يحتسي. أشيِّد لك أعظم كنيسة في الكونفدرالية. وأنت؟ ماذا منحتَني؟ ماذا منحتَ لهذا الدير؟ تصلِّي. تأكل. تغنِّي. تشرب. تنام. ولا شيء آخر".

تحدَّث نيكولاي بضعف، "يقول القديس بيندكت...".

"القديس بيندكت؟" نخرَ رئيس الدير. رفعَ إبهامًا في اتِّجاه صدره. "تقتبس من القديس بيندكت لي أنا؟ انطلِقْ وكُنْ ناسكًا زاهدًا مثل القديس بيندكت يا نيكولاي. هناك كهوفٌ تكفيك أنت ودومينيكوس. وفيما تعيش، بعيدًا، مثل قدِّيسي الماضي، سنتسمرُّ نحنُ في المجاهدة لنصبح قدِّيسي المستقبل".

غَشيَ الصمت الحجرةَ فيما رئيس الدير يأخذ نفسًا مُهدِّئًا طويلًا ويخفض صوته. "هنا يا نيكولاي، لدينا أفواه لإطعامها. لدينا أرواح لإنقاذها. الفلّاحون في أراضيَّ سيسألون يومًا عن معنى الجَمال، سيطلبون أن يروا ويسمعوا ويتذوَّقوا مجد الرَّبِّ لمرَّةٍ واحدة في حياتهم هنا على الأرض فيما تُضيِّع أنت كل يومٍ من حياتك في هذا الدير. ترى، بمقدوري التسامح مع الرهبان عديمي النفع يا نيكولاي، إذا اضطررت لذلك. إذا كان دومينيكوس يرغب في قراءة وترجمة الكتب التي لا يهتمُّ بها أحدٌ غيره، فلا بأس. إذا كنتَ مجرَّد راهب عديم النفع فسأتركك فحسب هنا في هذا الصومعة حتى تموت، وحينها سأشغلها براهب قد يكون مفيدًا للرَّبِّ".

"أبتاه رئيس الدير، لا تقصد ما...".

"بـل أقصـد". أومـأ رئيـس الديـر بـبرودٍ فيـما يتقـدَّم خطـوةً أخـرى. "وإذا خدعتنـي مجـدَّدًا أبـدًا يـا نيكـولاي، إذا أظهـرتَ لي أدنى علامـة أنـك أي شيء بخـلاف الراهـب المهجـور، عديـم النفـع الـذي بمقـدوري التسـامح بـه، فسـأعمل جاهـدًا ألَّا يسـمح لـكَ كلُّ ديـر في أوروبـا بالدخـول عـبر بوَّابتـه".

تـدلَّى فـكُّ نيكـولاي مفتوحًـا. أبـدى إيمـاءةً خافتـة. "نعـم، يـا أبتـاه رئيـس الديـر"، همـس.

مسـحَ رئيـس الديـر مِرفقـه بمنديـلٍ مـن جيبـه. التقـط عـدة أنفـاس ثـم مـسَّ جبينـه العمـلاق وكأنـه يقـول إنـه راضٍ عـن نتيجـة النقـاش. تطلَّـعَ في أرجـاء الغرفـة. سـقطت عينـاه عـلى لوحـة ڤينيسـيا مُسـتندةً عـلى المنضـدة. دون تفحُّصهـا، رفعهـا، أحـدثَ تجعيـدة في منتصفهـا بأظافـره، ثم مزَّقهـا إلى نصفـين. لم يفعـل نيكـولاي سـوى أن انكمـش خوفًـا مـن صـوت المَـزْق. وضـع رئيـس الديـر القصاصـات عـلى المنضـدة مُجـدَّدًا ونظـرَ إلى نيكـولاي. "والآن، أحـضِر لي ذلـك الصبـي"، قـال.

عمَّ الصمت. ثم تحدَّثَ نيكولاي بهمسٍ خفيض: "لا أستطيع".

تمنيَّتُ حينها لو تلاشيتُ إلى صوتٍ.

"إذن فسأحضره بنفسي".

اقـتربَ وقـع أقـدامٍ مـن خزانـة الملابـس. انفتـح البـاب، وشـعرت بالغِلالـة ترتفـع مـن فوقـي. أبقيـتُ عينَـيَّ مُغلقتَـيْن، لكننـي سـمعتُ أنفاسـه فوقـي. أمسـكت بي أصابـع مـن شـعري وصرخـتُ مـن الألم، لكنـه جـذبَ بقـوَّة أكـبر حتـى صرتُ عـلى قدمَـيَّ بجـوار فـراش نيكـولاي.

كان نيكـولاي يقـف في منتصـف الغرفـة. مُطأطئًـا وكأنـه يحمـل شـوالًا مـن البطاطـس عـلى كتفيـه. "أنـا آسـف جـدًّا"، قـال لي.

"غفرت لك"، قال رئيس الدير. "الآن على الأقل".

"أبتاه رئيس الدير"، قال نيكولاي. خطا للأمام ومدَّ يدًا وكأنه سيمسكُ بي. "دعني أجد مكانًا له، سأجد مُزارعًا. ربما أستطيع...".

غرزَ رئيس الدير إصبعًا في وجه نيكولاي لإيقافه. "ستؤدي طقوسك الدينية". وخزَ بإصبعه مجددًا. "ستُفكِّر في الخطايا التي ارتكبتَها في حقِّ هذا الدير. ستنسى الصبي. وسآخذه بنفسي إلى واحدة من ملاجئنا للأيتام وسأرعاه فيه، تمامًا كما أرعى مئات الألوف من الأرواح الأخرى التي تقع ضمن مسؤوليتي. لن ينال عقوبةً ولا ميزةً للضرر الذي تسبَّبَ فيه اليوم".

أطبقَ رئيس الدير على عنقي بإصبعين مُتخشِّبَتيْن وسحبني إلى خارج الغرفة. بدأتُ في البكاء.

جرَّني عبر الدَّرج، رافعًا إيَّاي بما يكفي بكمَّاشته بحيث كانت قدماي بالكاد تلمسان كل سُلَّمة. "إذا قاطعتَ قُدَّاسي مُجدَّدًا"، همس في أذني، "سأقطع لسانك وأُطعمه للـ...".

"توقَّف!".

استدارَ. كان نيكولاي يقف أعلى الدَّرج. كان شوال البطاطس قد اختفى. عيناه مغرورقتان بالدموع.

"لا يمكنك فعل هذا"، قال.

"هل تدرك ما تقوله؟" سأله رئيس الدير.

"أبتاه رئيس الدير، نَذرتُ نَذرًا بحماية هذا الطفل".

لوهلة، كان رئيس الدير عاجزًا عن الكلام. سمعتُ أنفاسه تَعلَق في حلقه. شعرتُ بيده المُطبِقة على عنقي ترتعش من الغضب، وكذلك صوته عندما تحدَّث أخيرًا. "لديكَ نَذرٌ واحد، أيُّها الأخ نيكولاي، وهو هذا الدير. إذن، فلأكن واضحًا: أمامك خيار. بمقدورك العودة إلى نَذْرِكَ الأول والأبدي، وحينها آخذ الطفل هذا إلى حيث أشاء. أو

تحنث بذلك النَّذر، وحينها يمكنك أن ترحل أنت وهذا الطفل من الدير معًا، على الفور. أفضِّل الخيار الثاني".

احمرَّ وجه نيكولاي، كما يحدث عندما يَسْكَر."أبتاه، أتوسَّل غفرانك، اخترتُ...".

لم يكشف عن اختياره قطُّ، لأنه في تلك اللحظة سمعنا شخصًا رابعًا يصعد الدَّرج مُتعثِّرًا. "الحمد لله"، قال هذا الصوت الجديد. "أبتاه رئيس الدير، لقد وجدتَه".

(9)

"أولرتـــش ڤــون جوتيجـــن"، لهــثَ الرجــل مُصفــرُّ الجلــد ومــدَّ يــدًا مُتعرِّقــة ناحيتــي. "أنــا رئيــس الجوقــة في الديــر". انكمشـــتُ خوفًــا مــن اليـد وكأنهـا تنـوي أيضًـا جـرِّي عـبر الـدَّرج. تعرَّفـت عـلى هـذا الرجـل مـن الكنيســة. كان هــو مَــن يقــف أمــام المُنشــدين الذيــن حاولــت الانضــمام إليهــم.

"نعــم، لقــد وجدتــُه"، قــال رئيــس الديــر. دفعنــي درجــةً أخــرى للأســفل بحيــث صرتُ واقفًــا بــين الرَّجُلَــين. "والآن ســيرحل إلى رورشــاخ. لــن يزعجنــا مُجدَّدًا".

"لا!" قال قائد الجوقة. قبضَ على ذراعي.

شــدَّد رئيــس الديــر مــن قبضــة أصابعــه عــلى عنقــي. "مــاذا تعنــي؟" ســأله.

تطلَّع أولرتش من رئيس الدير إلى نيكولاي ثم إلى رئيس الدير مُجدَّدًا. حاولت إفلات ذراعي، لكن قبضة قائد الجوقة كانت مُتصلِّبة.

"من أجل الجوقة، بالطبع".

"الجوقة؟".

"نعم".

في الصمت الذي تلا ذلك، تخلَّيتُ عن التَّلوِّي وتمعَّنتُ في هذا المدعو أولرتش ڤون جوتيجن. كان جلده الأصفر مشدودًا وشفافًا، كجلد دجاجة غُمِسَت لثوانٍ في ماء مغلي. شعره الأبيض، أيضًا، وكأنه ريشٌ نُتِفَ بالغلي، كان مُلتصقًا وراء أذنيه وعلى قمة رأسه فحسب في ذؤابات صغيرة.

لكن منظره لم يدهشني كثيرًا بقَدْر ما أدهشني صوته. رغم أنه كان يلهث من أجل الهواء، إلَّا أن أنفاسه كانت مُجرَّد همسٍ، كنسيمٍ يعبر من تحت باب. قلبه أيضًا كان يضرب بهدوء شديد على أن أسمعه، ورغم أنني اعتصرتُ أذنيَّ للبحث عن أيِّ علامات يمكنني معرفته بها -فَركٌ في يديه أو التواء في ساقيه أو طقطقة في ركبتيه- إلَّا أنني لم أسمع شيئًا.

"نريد أن نسمعه يغنِّي"، قال أولرتش. سحبني ناحيته وعضَّ شفتيه في حماس.

"سمعناه يغني، ولم نَنَل سوى الإزعاج".

"نغمات قليلة، أبتاه رئيس الدير. مجرَّد ومضة، ربما، من شيءٍ خارق للعادة".

"اسمعه". قاطعهما نيكولاي.

استدارَ رئيس الدير وأولرتش إلى الراهب الضخم، الذي كان ما يزال يقف أعلى الدَّرج.

"لا شأن لك بهذا"، قال رئيس الدير. لكنه استدارَ إلى قائد الجوقة وغمغم، "حسنًا، سنسمع الصبي".

* * *

هبطَ أربعتنا الدَّرج وانعطفنا عبر سلسلة من الأروقة غير المألوفة. لم يُفلِت أولرتش ذراعي حتى دلفنا إلى غرفة كبيرة بمرايا على طول حائط واحد. كانت هناك خشبة مسرح صغيرة تقطع الجانب الآخر من الغرفة. وفي منتصف الغرفة ينتصب جهازٌ بدا لي كنعشٍ بثلاثة صفوف من المفاتيح عند أحد طرفيه. خشَيتُ أنهم ينوون دفني حيًّا. وضع أولرتش مقعدًا مرتفعًا بجوار هذا التابوت ورفعني عليه. لاحظَ عينَيَّ المُرتعبتَيْن تُحدِّقان في الصندوق الخشبي وقال بألطف ما يسمح به صوته العُصابي، «لكنك لم ترَ بيانو قيثاري من قبل؟» ضغط على واحد من المفاتيح، وملأ رنينٌ جميل، صافٍ، الغرفة. «يمكنك غناء هذه النغمة، أليس كذلك يا بُنيَّ؟».

فيما الرجال الثلاثة يراقبونني بتلهُّف، شعرتُ بالمقعد العالي وكأنه سيهوي من تحتي. لعقَ أولرتش شفتيه وضربَ المفتاح ثانيةً. «هذه النغمة؟» جفَّ حلقي وتثاقلَ لساني بالخوف.

«غنِّ»، قال رئيس الدير. صفَع ظَهْر يده. «لا وقت لديَّ للألعاب». ضُربَ المفتاح مُجدَّدًا. غنَّى أولرتش النغمة، كان صوته رائقًا وباردًا.

«هيا يا موسى»، قال نيكولاي. أومأَ وابتسم، ورفع حاجبيه الكثَّين لأعلى ما يستطيع. «يريدان فحسب سماعك تغنِّي».

تطلَّع رئيس الدير إلى ابتسامة نيكولاي وقال بفتور: «يا صبي، غنِّ الآن وإلَّا لن ترى نيكولاي مُجدَّدًا أبدًا».

ضربَ أولرتش المفتاح مجددًا، مُنحنيًا بخفَّة.

«هـذه النغمـة فحسـب»، حثَّنـي نيكـولاي، وكأنـه لم يسـمع كلـمات رئيـس الديـر. «مـرة واحـدة فقـط».

أشـكُّ أن مـلاكًا حتَّـى كان بمقـدوره حينهـا مداهنتـي لأغنِّـي. لم أرَ في رنَّـة وتـر البيانـو القيثـاري إلَّا نبحـة كلـبٍ مطلـوب منـي أن أقلِّدهـا. كنـت عـلى استـعداد للجلـوس هنـاك حتـى ينزلـوني مـن المقعـد.

«لقـد نـال فرصتـه»، قـال رئيـس الديـر. قبَـضَ عـليَّ مـن ذراعـيَّ وكان عـلى وشـك جـذبي مـن مقعـدي، لكـن أولرتـش قاطعـه.

«بمفردنـا»، قـال، ثـم وضـع يـده الشـاحبة عـلى يـد رئيـس الديـر. «اتركونـا بمفردنـا. حينهـا سـيغنِّي».

«وكيـف لـه أن يغنـي وأنتـما بمفردكـما فيـما يرفـض الغنـاء ومسـتقبله كلـه عـلى المحـكِّ؟».

«لا بُدَّ أن أتحدَّث معه».

أبعد رئيس الدير ذراعيه. «تحدَّث إذن!».

«بمفردنا».

"بمفردكـما!" زمجـرَ رئيـس الديـر. "لا وقـت لـديَّ لهـذا. أمامـك عـشر دقائـق. ثـم سـيكون عـلى العربـة إلى رورشـاخ".

غـادرَ رئيـس الديـر فيـما راقبـه نيكـولاي فحسـب، لكنـه لم يتحـرَّك ليتبعـه.

"رجاءً، أخ نيكولاي". أومأ أولرتش ناحية الباب.

بـدا الراهـب الضخـم مصدومًـا مـن فكـرة مغـادرتي. "ليـس خائفًـا منِّـي".

أومأتُ موافقًا. صليتُ ألَّا يتركني حاميَّ بمفردي مع هذا الرجل.

لكـن أولرتـش خطـا ناحيـة نيكـولاي وبـدأ في دفعـه للخـارج. "لا بُـدَّ أن أتحـدَّث معـه بمفـردي"، همـس بجدِّيَّـة. "أرجـوك".

تحــدَّثَ أولرتــش بخفــوت وحــزم. "تَركُنــا بمفردنــا هــو أفضــل شيء يمكنــك فعلــه مــن أجلــه. قــف خــارج البــاب إذا أحببــت".

تطلَّـع نيكـولاي إليَّ. لا بـدَّ أنـه لاحـظ عينَـيَّ المتَّسـعتين، وفمـي المفتوح. أحكمـتُ يـدَيَّ إلى قبضتـين. "مـوسى"، قـال. "لـن يؤذيـك. أعـدك. افعـل مـا يقولـه لـك". لكنـه بـدا شـاحبًا ومضطربًـا فيـما يسـتدير ويخطـو إلى خـارج الباب.

ثـم صرتُ بمفـردي مـع هـذا الرجـل الأصفـر ذي الأصـوات القليلـة للغايـة. وقـف قريبًـا منِّـي بشـدَّة لحـدٍّ أنـه يُفـترض بي أن أسـمع المزيـد: صـوتَ سـحقٍ عندمـا يديـر عنقـه، لسـانه وراء أسـنانه، قدمـاه تزحفـان عـلى الأرض الخشـبية، بلـلٌ في حلقـه فيـما يُخـرج أنفاسـه. لكـن كل مـا سـمعته كان اندفاعـة هـواء رقيقـة مـن فمـه. تمعَّـن في وجهـي، ثـم انحنـى تجاهــي.

"لقــد ســمعتُك"، همــسَ، وكأنــه يخــشى أن يســمعه نيكــولاي. "ربمـا سـمع الآخـرون صوتـك. إنـه غـير مكتمـل. ليـس مُدرَّبًـا بعـد. لكنهـم حمقـى. لقـد سـمعتُك. سـمعت رئتيـك. سـمعتك هنـا". مـدَّ يـده، وبإصبـعٍ بـاردة، لامـس برفـق خـطَّ حلقـي. "لم تسـتطع منـع نفسـك، أليـس كذلـك؟ كنـتَ سـتنفجر لـو بقيـتَ صامتًـا ثانيـةً واحـدة أخـرى؟".

كانــت رائحــة قائـد الجوقـة تشـبه التِّـبن المُتعفِّـن. أنفـه في مسـتوى أنفـي. كـدتُ أتمنَّـى أن يعـود رئيـس الديـر ويرسـلني بعيـدًا.

"أعتقـد أنـك سـمعتَني أيضًـا. لا أسـتطيع أن أغنِّـي مثلـك يـا مـوسى. لدينـا مَلـكَات مختلفـة. لكننـا نُكمِّـل بعضنـا البعـض". شـابك أولرتـش أصابعـه أمـام وجهـي.

أغلقتُ عينَيَّ، مرعوبًا من النظر إليه عن قُرب هكذا، متمنِّيًا أن يختفي.

"لن يستطيع رئيس الدير أن يأخذك منِّي يا موسى. لقد سمعتكَ وسمعتَني. شاء الرَّبُّ أن نلتقي".

لامسَ حلقي مُجدَّدًا، بيده كلِّها هذه المرة، وكأنه يريد خنقي. لكن لمسته الباردة كانت رقيقة. ابتعلت ريقي بصعوبة.

"بإمكاني فتح صوتك يا موسى. سأفعل. يمكننا الرحيل عن هذا الدير إذا شئتَ. يمكننا العودة إلى المكان الذي جئتَ منه. لكن يا موسى، أنصت إليَّ: سيمنحك رئيس الدير، المُستعدُّ لإرسالك إلى إصلاحية قذرة، أعظمَ رفاهية يمكن لصبي في مثل عمرك أن يحلم بها، فقط لو قلتُ ذلك. يحتاجون لأناسٍ مثلي ومثلك يا موسى".

فيما يهمس في أذني، شعرتُ بدفء وجهه على جلدي. "يحتاجون إلينا لأنهم يحتاجون إلى ذَهَبِهم وكنائسهم الجميلة ومكتباتهم. هل تريد أن ترى نيكولاي مُجدَّدًا؟ هل تريد أن تبقى هنا؟ أم تريد الرحيل؟ لا يهم بالنسبة لي. سأتشارك معك في حظيرة خيول، إذا كان ذلك اختيارك. لكن إذا أردتَ البقاء، فعليك أن تغنِّي".

ثم بدأَ أولرتش ڤون جوتيجن في الهمس باللحن الذي كنت سمعته في الكنيسة ذلك الصباح. لم يكن صوته دافئًا مثل الأصوات التي حاولتُ مرافقتها، لكنه كان ينتقل بخفَّة ودقَّة من نغمةٍ إلى أخرى. عندما يغنِّي نيكولاي، كان جسده بالكامل يرجِّع صدى الصوت. على النقيض، كان أولرتش ڤون جوتيجن مثل آلة كمان رديئة التكوين؛ تهتزُّ أوتاره بشكل متقن، لكن جسده يرنُّ بضعفٍ وكأنه برميل من النبيذ.

هل كان هذا ما يعنيه نيكولاي؟ هل كان هذا صنيعة الرب؟ كنتُ أحلم بشيءٍ مُختلف، شيءٍ أقل بشاعةً من هذا الرجل عديم الصوت

واستجداءاته. لكن ربما لم يكن الرَّبُّ، خطرَ لي، بارعًا وكاملًا كما يزعم رئيس الدير، وربما كان هذا الرجل كل ما يستطيع الرَّبُّ تقديمه إليَّ.

وهكذا غنَّيت.

اخترتُ صوتًا أتذكَّره من الكنيسة. في البداية كانت نغماتي خافتة وغير واضحة، لكنني شعرتُ بالصوت ينتشر إلى الخارج من حلقي، كما ينتشر رنين جرسٍ بسرعة في أرجاء المعدن. انتقل الصوت من فكِّي، إلى التجويف تحت أذنيَّ. شعرتُ به في عنقه، ونازلًا حتَّى صرَّتي. لم أشدُ بكلمات، لكن بأصوات فحسب.

تراجعَ صوت أولرتش الضعيف فيما يزداد صوتي علوًّا. كان ما يزال يمسك بعنقي، ثم بدأت يده في التحسُّس لأسفل. ربَّتَت عليَّ من ذقني إلى صدري، كأداة طبيب باردة، وفي تلك اللحظة شعرتُ أنه على حقٍّ؛ بدت يده وأنها تفتحني. جعَلَت لَمستُها أصواتي أكثر امتلاءً، كأجراس أمي المُجلجِلة. انضمَّت يده الأخرى إلى الأولى. احتضن وجهي، صدري. وصَلَت اليدان إلى ما حول عنقي وقبَضَت عليه بشدَّة، وكأنه يريد للصوت أن ينساب إلى ذراعيه الناحلين، المصفرَّين، إلى صدره الخاوي. أفلتت جهشةٌ من فمه، رغم أنه لم تكن هناك دموع في عينيه. ثم خطا متراجعًا، ولوهلة، شبَّ على أصابع قدميه، وأغلق عينيه، وأمالَ رأسه بشدَّة، وكأنه ضُربَ بصاعقة ألم مفاجئة.

توقَّفتُ عن الغناء.

تعثَّر للوراء وانحنى على البيانو القيثاري وكأن ساقيه قد عجزتا عن تحمُّله. كانت عيناه مُثبَّتتَين على وجهي. رأيتُ الخوف في عينيه. "يا إلهي"، قال. "أنا ملعون".

(10)

وهكـذا بـدأت حيـاتي الغنائيـة. اسـتلقيتُ لليلـة واحـدة أخـيرة عـلى أريكـة نيكـولاي، وتحـدَّث مطـوَّلًا في صبـاحٍ يمتلـئ بحظِّـي الطيـب. «لـن يكـون عليـك مشـاركة غرفـة مـع راهـب عجـوز، يُشـخِّر في نومـه»، قـال، وابتسـم ابتسـامةً في غايـة الحـزن، لحـدٍّ أنني ظننـت أننـي سـأبتعد عنـه لأكـثر مـن طابقـين. «سـيكون لديـك أصدقـاء مـن عمـرك لتلعـب معهـم. سـتضحك وتركـض. في الليـل، ستهمسـون بـالأسرار لبعضكـم البعـض».

حتَّـى بعـد أن بـدأ نيكـولاي في شـخيره، اسـتلقيتُ مسـتيقظًا. كان أملـه قـد أصابنـي بالعـدوى. أبـدًا لم أتمـنَّ المزيـد عندمـا كنـتُ أعيـش مـع أمـي، لكننـي الآن أدرك أنـه قـد يكـون لي أصدقـاء. هـل سـنمرح؟ هـل سـنلعب معًـا كـما كان يلعـب الأطفـال في القريـة؟ هـل سـأبادرهم بالحديـث؟

في الصبــاح التــالي، حــزمَ نيكــولاي صرَّةً تحــوي تفَّاحتــين، وبعــض المكـسَّرات ومِسـبحة، ووضعهـا في يـدي. فتـح بابـه وأشـارَ لي بـأن أسـبقه في

الخروج. تـردَّدتُ لوهلـة، ثـم مـددتُ يـدي نحـو راحتـه العمـلاق. تطلَّعتُ إلى وجهـه. "شـكرًا نيكـولاي"، قلـت.

اندفعت الدموع إلى عينيه وأخذني بين ذراعيه.

حمَلنـي عـبر الـدَّرج إلى الأسـفل ثـم عـبر رواقٍ إلى حيـث ينتظـر أولرتش خـارج غرفـة التدريبـات. عندمـا أمـره أولرتـش بمغادرتنـا، احتضننـي نيكـولاي بقـوةٍ أكـبر، ثـم أخـذ نفسًـا عميقًـا وأنزلنـي. عـضَّ شـفته، أومـأ، وحـاول أن يبتسـم، ثـم اسـتدار وابتعـد مُسرعًـا، ولم يلتفـت للخلـف أبـدًا.

لم يجـدوا وقتًـا ليجلبـوا لي ملابـس جديـدة، وهكـذا كنت مـا أزال أرتدي الملابـس المتواضعـة التـي كان نيكـولاي قـد اشـتراها لي قبـل عدة أسـابيع في أوري. مـا زلـتُ لا أملـك حـذاءً. عندمـا فتـح أولرتـش البـاب، اسـتدارَ اثنـا عـشر زوجًـا مـن الأعـين في طـور البلـوغ ناحيتـي.

أخـبرَ أولرتـش هـؤلاء الصبيـان بالقليـل الـذي يعرفـه عنـي: أننـي مـن قريـة جبليـة بدائيـة؛ أننـي أتمتَّـع بصـوتٍ غـير مُـدرَّب، اسـتثنائي ، لحـدٍّ أنـه قـد يكـون أجمـل صـوت عرفتـه جوقتهـم قـطُّ. قـال كل هـذا وكأننـي قنينـة مـن النبيـذ الفاخـر عـلى وشـك أن تُخـزَّن في قبـو الديـر.

"إنـه أخوكـم الآن"، قـال أولرتـش لهـم، "مـا دمتـم أنتـم وهـو في هـذه الجوقـة، سـاعدوه عـلى فهـم هـذا العـالم، الغريـب عليـه تمامًـا".

أومـأَ الصبيـان لسـيِّدهم. راقبـت هـذا الرجل الـذي كان أثار اشـمئزازي، والآن أشـعر بامتنـان حقيقـي. أبـدًا لم أكـن سـعيد هكـذا منذ فقـدتُ أمِّي.

بعـد ذلـك، أمـرَ أولرتـش صبيًّـا يُدعـى فيـدر بقيادتنـا في تمرينـات الإحـماء. دفعنـي برفـق ناحيـة الصبيـان، ثـم غـادرَ الغرفـة. احتشـد الصبيـان حـول فيـدر. "مرحبًـا"، قـال. بـدا في مِثـل عمـري، لكـن أطـول قليـلًا. ابتسـم.

أومأتُ وابتسمت بدوري، أدفأ وأنقى ابتسامة عرفها العالم قطّ. فكَّرتُ في قول شيءٍ ما، لكن فمي لم يستجب لي. كنتُ خائفًا بشدَّة أن أبدو أحمقَ في أعين أصدقائي الجدد.

خطا فيدر ناحيتي، مُبتسمًا ما يزال، حتَّى وقف قبالتي يعلوني في الطول. كنتُ أصل إلى كتفيه فحسب. ثم اختفت الابتسامة من وجهه بغتةً، لحدٍّ أنني انكمشتُ من المفاجأة. تضاحك الصبيان وراءه.

"ربما تغنِّي معنا... إذا استطعت"، قال. كانت عيناه باردتين كصوته. "لكنك لستَ واحدًا منَّا". تطلَّع إليَّ من علٍ وكأنه يبحث عن إشارة أنني فهمت، ولم أخيِّب أمله. انسابت الدموع في عينَيَّ. جاهدتُ لكي لا أطْرف، لكنني فعلت، وحينها تساقطت قطرتان على خدِّي. قرقرَ الصبيان وصاحوا فيه حتَّى يُسقطني أرضًا، لكنه لم يفعل. فيما تتدفَّق دموعي بلا قيد، تشمَّمَ الهواء وقال، "هل يوجد أحدٌ في عائلتك رائحته كالماعز؟".

وهكذا تلاشى حلمي القصير بأصدقاءٍ في مثل عمري فورَ أن راودني تقريبًا. لكنني لم أشكُ إلى نيكولاي أو إلى أيِّ أحدٍ آخر؛ ذلك أنه ماذا كنتُ أتوقَّع، كيتيم، غير هذا؟ في الظهيرة تَبعتُ زُمرة الصبيان إلى قاعة الطعام. أخذتُ طبق الطعام، وفي اليد الأخرى أضخم وأكثر تفَّاحة حُمرَةً رأيتها في حياتي. لكن حينها ظهر فيدر ورائي، شدَّ على ذراعي وقادني إلى مقعد يواجه الحائط. "هذا مقعدك"، همس في أذني. "وهذا الطعام هدية مني. هدية منِّي. ذلك الفلاح الذي يقوم بغرف الطعام- ابن عمِّه يعمل في ضيعتنا". أشار فيدر إلى الحائط الخاوي. "ستنظر إلى ذلك الحائط. إذا جرؤتَ واستدرتَ لتتطلَّع إلينا، سأنزع هديتي منك. إذا نطقت بكلمةٍ لأصدقائي، سأنتزع هديَّتي. مفهوم؟"، قرصَ ذراعي بشدَّة، لحدٍّ أنني أوشكتُ على إسقاط طبقي. "وهذه"، قال، مُنتزعًا التُّفَّاحة من اليد الأخرى، "ليست لأمثالك".

كان فـراشي ناعـمًا ودافئًـا كحِضـن أمِّـي، وكنـتُ لأنـام أعمـق نـومٍ عليـه فقـط لـو كان سُـمحَ لي. خمسـة صبيـان آخريـن تشـاركوا معـي غرفتـي، ورغـم أن فيـدر لم يكـن واحـدًا منهـم، إلَّا أن أوامـره أُبلِغَـت لهـم. "مـاذا تفعـل؟" سـألني تومـاس البديـن عندمـا وجـدني أسـتلقي عـلى فـراشي تلـك الليلـة الأولى. "الـكلاب تنـام عـلى الأرض". ركلنـي في قصبـة سـاقي ومُجـدَّدًا عـلى مؤخـرتي فيـما أسـقط مـن عـلى الفـراش. لم يتذمَّـر أحـدٌ عندمـا تسـلَّلت يـدي لاختطـاف دثـارٍ. تكوَّمـتُ تحـت فـراشي، واسـتغرقتُ في النـوم عـلى صـوت الصبيـان يتمازحـون بشـأن الـكلاب ذات الرائحـة الكريهـة.

في اليـوم التـالي مبـاشرةً هـرعَ نيكـولاي إلى غرفـة التدريبـات حامـلًا حـذاءً وملابـس جديـدة مـن أجـلى. احمـرَّ وجهـي وضحـك الصبيـان ضحـكات مكتومـة فيـما يعرِّينـي مـن ملابـسي في الزاويـة. لكـن في النهايـة، بـدا لي أننـي صرتُ أبـدو مثلهـم. رغـم ذلـك، سرعـان مـا أدركـتُ أنـه كانـت هنـاك إشـارات أخـرى عـلى تفوُّقهـم، لكنهـا كانـت خافتـة جـدًّا عـلى أن أقرأهـا. أبنـاء المسـؤولين، وكبـار النسَّـاجين، أو ورثـة مالـكي أراضي هـؤلاء، كان لهـم آبـاءٌ وأعـمام وأبنـاء عمومـة بأسـماءٍ تجعـل الآخريـن يلحسـون شـفاههم. وضعهـم آباؤهـم هنـا في الجوقـة فحسـب لبضـع سـنوات، عـلى أمـل أن يُهيئهـم تكـرار الاتصـال مـع الـرَّبِّ -والكثـير جـدًّا مـن الذهـب- لمصائرهـم كأرسـتقراطيين أصحـاب أراضٍ. وهكـذا كان جهادهـم مُسـتمرًّا لتسـلُّق سُـلَّم، كنـت أنـا واقفًـا في أول درجـةٍ فيـه. انتـصرَ بلتـازار عـلى مصطلـح تومـاس "الكلـب" بمصطلـح "الخنزيـر". تظاهـر جـيرارد المغـرور بأنـه لا يـراني، لكنـه هـرسَ عَقبَـه في قدمـي فيـما يمـرُّ بي، رآني يوهانـس، الأشـقر ذو الوجـه الملائـكي، أبـدي إعجـابي بالمسـبحة التـي أهـداني إيَّاهـا نيكـولاي. تأكَّـدَ مـن احتشـاد الآخريـن حولـه قبـل أن ينتزعهـا مـن يـدي، ويمـزِّق الخيـط ويبعـثر الحبَّـات عـلى الأرض. كان هوبـرت (طفـل مهـزول ومُصفـرٌ بعينـين غائرتَـيْن، يقـال إنـه لا يسـتطيع الغنـاء، لكنـه أغنـى صبـي

في العصابـة) ذا تَـوقٍ شـيطاني للسـخرية. "انظـروا، إنهـا لعبـة الراهـب العمـلاق"، قـال ذات ليلـة فيـما أدلـف إلى الغرفـة المكتظّـة. ثـم لي: "أراهـن أنـك كنـت تحـبُّ النـوم في غرفتـه". احمـرَّ وجهـي رغـم أنني لم أدرك حينهـا التلميـح. صرتُ أخـشى المـرور بنيكـولاي عندمـا أكـون بصحبـة الصبيـان. "لمـاذا يبتسـم لـك دائمًـا؟" يسـألني فيـدر دائمًـا، بـبراءة شـديدة. "ربمـا يتوجَّـب عليـك الليلـة، مُتأخِّـرًا في الليـل، زيارتـه في غرفتـه".

وعندمـا بـدأتُ في الغنـاء بتبتُّـل واسـتمتاع، همـس فيـدر للصبيـان، "انظـروا، يريـد أن يكـون مُغنِّيًـا إذن! بالطبـع! لكـن مـاذا غـير ذلـك متـاح لأمثالـه؟" ثـم اسـتدارَ إليَّ. "قلـتَ مَـن كان والـداكَ؟ هـل كانـا يحتفظـان بخنازيـر؟" للمـرة الأولى في حيـاتي شـعرتُ بالخجـل مـن أمِّـي. أدركـتُ أن راعـي خنازيـر كان لينظـر إليهـا بتعـالٍ. خشـيتُ أن فيـدر بشـكلٍ مـا كان يعـرف أكـثر مـمَّا يقولـه؛ تلـك الابتسـامة الوحشـية قالـت لي ذلـك. خطـا ناحيتـي، ورغـم أنني تراجعـتُ، وضـعَ ذراعًـا حـول عنقـي وجذبنـي بشـدَّة تزايَـدَت مـع كل كلمـة. "لا تقلـق يـا بنـيَّ"، جـأرَ. "بعـد خمسـة أعـوام، عندمـا يخشوشـن صوتـك الناعـم هـذا، ولا يعـود ذلـك الراهـب القمـيء راغبًـا فيـكَ وكأنـك لعبتـه، سـيظلُّ هنـاك مـا يكفيـك مـن خنازيـر لترعاها".

كنَّـا نسـتيقظ في السادسـة، بعـد الرهبـان بكثـير. بعـد الإفطـار نتمـرَّن حتَّـى وقـت القُـدَّاس، ثـم نـدرس نطـق النصـوص اللاتينيـة، ونتـدرَّب عـلى الحـروف، ونـؤدي التماريـن حتَّـى الغـداء. بعـد اسـتراحة الظهـيرة، يُجلِسـنا أولرتـش عـلى الأرض حـول البيانـو القيثـاري ويعطينـا أوراقًـا وأعقـاب أقـلام رصـاص. يـضرب عـلى المفاتيـح، ويحـدِّق الصبيـان فيـه بانشـداهٍ يـشرح الفـرق بـين المقامـين الموسـيقيَّيْن: الهيبوفريجيـا والأيـوني، أو يخطـو جيئـةً وذهابًـا مُعنِّفًـا مَجمَـع ترينـت[1]. في كل يـوم تقريبًـا كان ينغـز إصبعًـا

(1) مجمـع ترنت بـين عامـي 1545 و1563 في ترنـت في إيطاليـا، المجمـع المسـكوني التاسـع عـشر للكنيسـة الكاثوليكيـة. كان انعقـاده مدفوعًـا بالإصـلاح البروتسـتانتي، وأصـدر مراسـيم بشـأن الموسـيقى المقدسـة والفـن الدينـي، انتهـت إلى أشـكال عديـدة مـن فنـون عـصر النهضـة. (المترجـم)

واحـدةً في المفاتيـح. "هكـذا هـم الرهبـان"، كان يقـول. "لألـف عـامٍ عـلى نفـس الـشيء: نغمـة أحاديـة تقريبًـا، بفواصـل مـن التبجُّـح تظهـر عَرَضًـا عـلى يـد العباقـرة". ثـم يـضرب بعـض التوليفـات الموسـيقية. "الوضـع مختلـف تمامًـا الآن. مـا يجـب أن تتعلَّمـوه هـو الغنـاء: أصـوات متعـدد. جهـارة ثقيلـة، تبايُنـات. حتَّـى لـو لم تسـتطيعوا تعلُّـم سـماعها هنـا"، نقـرَ عـلى رأسـه، "ومعظمنـا لا يفعـل، فـلا بُـدَّ أن تسـتوعبوها عـلى الأقـل، وإلّا سـتظلُّون أدوات بـلا عقـل، غبيَّـة كهـذا البيانـو القيثـاري". ثـم يعـزف بعض المقطوعـات لفيالـﭬـدي، ويطلـب منَّـا تدوينهـا، وهـو مـا كان بمقـدوري فعلـه بنفـس السـهولة التـي يرسـم بهـا الأطفـال الآخـرون منـزلًا بنافذتـين وبـاب. كان الصبيـان الآخـرون يسـترقون النظـر مـن فـوق كتفـي وينسـخون مـا أكتبـه بالضبـط. عندمـا ينفـد صـبر أولرتـش، كان يعتِقنـا حتـى موعـد تدرُّبنـا مـع المُغنِّـين البالغـين بمصاحبـة الآلات، وهـو تـدرُّب كان يسـتمر حتَّـى العشـاء. طـوال كل تلـك السـنوات، لم أتعلَّـم الرياضيـات أو اللغـة الفرنسـية، ومـا أعرفـه عـن الإنجيـل وعـن الـرَّبِّ تعلَّمتـه مـن العِظـات اليوميـة فحسـب.

في الأشـهر السـتة الأولى بعـد التحاقـي بجوقتـه، بعـد أن يملـك نهاراتي، كان أولرتـش يتركنـي بمفـردي مـن العشـاء حتـى الإفطـار. لكـن مـع تعلُّمي كيفيـة السـيطرة عـلى صـوتي، ازداد اهتياجًـا في انتباهـه لي. عندمـا نصطـفُّ أمـام مرايـا تدرُّبنـا، كنـتُ أنـا دائمًـا مَـن يـراه في مرآتـه، خلفـي مباشرةً، عينـاه مُغلقتـان، وكأنـه يحـاول اقتنـاص رائحـة شَـعري. وسرعـان مـا نَـدُرَ أن تمـرَّ أمسـيةٌ لا يتلـكَّأ فيهـا خـارج بـاب قاعـة الطعـام. كان يضـع يـدًا صلبـة عـلى كتفـي. "مـوسى"، يقـول، "هنـاك شيء واحـد أخـير أتمنَّـى أن أُريـكَ إيَّـاه"، ثـم يقـودني إلى غرفـة التدريبـات، ويـده لا تـشرد أبـدًا عـن كتفـي. كنـتُ أمقـت البقـاء معـه وحيـدًا؛ رائحتـه العفنـة، صوتـه البـارد، افتقـاده للأصـوات البشريـة. أحيانًـا مـا أقـول لنفـسي إنـه مـن الأفضـل أن

أقضي الوقت مع جثَّة؛ ذلك أنها لن تمدَّ يدها وتحاول لمسي على الأقل.

رغم ذلك، تمامًا كما كنتُ تعلَّمتُ السَّمع في برج الكنيسة، كان هناك، وحيدًا مع أولرتش في المُحترَف، أن تعلَّمت التَّمكُّن من سوطي. كان بمقدور ماعز أن يتعلَّم الغناء لو نال اهتمام ذلك الرجل! ولمَن يقول إنني عبقري ظهرَ من العدم، وأن موهبتي لا تحتاج وقتًا لتنضج- أقول لهم، تمرَّن، تمرَّن! لا يوجد طريق آخر نحو العَظَمة.

في هذه الساعات الطويلة مع أولرتش، تعلَّمتُ الاتِّزان السَّلِس، التشكيل الموسيقي المضبوط، النطق الدقيق لِلَّاتينية. كان يلامسني دومًا. يده الباردة كالثلج تنساب على ظهري أو تُمسِّد صدري، وأحيانًا ما تصل إلى ما وراء ركبتيَّ أو إلى أعلى: إلى أصداغي. كانت لمسةً تشبه التي يستخدمها المرء في مداعبة بتلات زهرة. اكتشَفَت يد أولرتش تلك الأجزاء منِّي التي ما تزال خاملة، وصلَ إلى الحدود المتخشِّبة العنيدة في جلجلتي. وهكذا تراءت لي لمسته كالسحر؛ ذلك أن الصوت الذي خرج أولًا من حلقي فحسب انتشر في ثوانٍ إلى فكِّي، وبيديه الصفراوين على صدري وظهري، سرعان ما صدحت الأغنيات عبر جسدي وكأنني جرس. بحثت اليدان عميقًا. اكتشفتا مزيدًا من الأغنيات المحتجبة في الفخذين المشدودتين، في القبضتين المضمومتين، في قوسَيْ قدمَيَّ المرتخيين. كان جسدًا ضئيلًا، لكنه جعله ضخمًا بالأغنيات.

* * *

في المرَّة الأولى التي جاءَ فيها ليلًا، دلفَ إلى غرفتي باضطراب، وتعثَّر في فراش، وغرزَ ركبتيه ومرفقيه في بطون الصبيان النائمين. زحفتُ من تحت فراشي واختلستُ النظر عبر الغرفة- كخلدٍ يُطلُّ من جُحره. هزَّ أولرتش توماس. "أين موسى؟" سأل الصبي، الذي تخيَّلَت عيناه

المُتَّسعتان قاتلًا. "هناك شيءٌ... لا بُدَّ أن...". رفعَ توماس إصبعًا مُرتعشة وأشار إلى عينَيَّ المتوهِّجتين.

طرحني أولرتش على كتفه وحمَلني من الغرفة. كانت الأروقة مظلمة؛ والدير نائم. ألصقني بالحائط، أنفاسه الدافئة ذات رائحة التبن المُتعفِّن تهبُّ على وجهي. أنفه يحتكُّ بأنفي. "لقد نسيتُه!"، همس، وكنت لأظنُّ حينها أنه سكران، لكن الجميع كان يعرف أن النبيذ لم يلامس شفتيه قطُّ. "اختفى مُجدَّدًا!".

وضعني على الأرض، تناولَ مِعصمي وجرَّني عبر الأروقة، خطواتنا صامتة كخطوات الأشباح.

كانت غرفة التدريبات مُظلمة، لكنه رفعني مُجدَّدًا ووجدت المقعد العالي تحت قدمَيَّ. أنصتُّ إليه، ولم أسمع صوتًا. صلَّيتُ فحسب أن يختفي. عندما تحدَّث مُجدَّدًا شعرتُ برجفة.

"هناك مُلحِّنون صمٌّ"، همسَ في الظلام، "يسمعون الموسيقى في رؤوسهم. جميلةً في الصَّمَم كما هي في الحياة، يزعمون!".

مددتُ يدًا لتحديد موقع الصوت. وقبل أن أتمكَّن من فرد مِرفقي، احتكَّت يدي بوجهه. شهقَ على وقع لمستي، وانسحبت في رعب. لكنه أمسك بذراعي وقبض على مِعصمي بشدَّة، لحد أنني تأوَّهت. "أنا على استعداد للتَّخلِّي عن أذنيَّ مقابل ذلك!" هتف. "اقطعهما بحيث لا أسمعك تغني مُجدَّدًا، فقط لو استطعتُ سماع غِنائك هنا!". نقر على رأسي بقوة بإصبعه، وأوشكتُ على السقوط، لكنه جذبني ناحيته من مِعصمي حتى صرتُ ملتصقًا به. مُجدَّدًا، شعرتُ بأنفاسه على خدِّي. همسَ في أذني. "أستلقي مستيقظًا يا موسى. كل ليلة منذ مجيئك. كما لو أنك خارج نافذتي، لكن هناك رياح تهبُّ. أعتصر ذاتي لأسمعك، لكن لا أستطيع".

ضغطَ بجبينه على جبيني، بخدِّه البارد مقابل أنفاسي الدافئة. "كان من الأفضل لو لم تجئ"، همسَ.

أفلتَ ذراعي ودفعني للخلف بحيث أستطيع الانتصاب في جلستي. تراجعت خطواته. عبَثَت أصابعه على البيانو القيثاري. عزفَ نغمةً.

"غنِّ"، قال. غنيتُ تلك النغمة الواحدة. جعلها الرعب ضئيلة.

"لا!" صاح. "غنِّ!"، خبطَ بإصبعه على المفتاح بقوة.

أخذتُ نفسًا، وفيما أطلقه مُجدَّدًا سمعتُ أنفاسي في صدري. لم أفتحه عنوةً، لكن كما كان أولرتش قد علَّمني، شعرتُ بشهيقي يتدفَّق إلى تلك الأماكن المُغلقة، بحيث انفتحت هي أيضًا. تراجعَ خوفي. ومع زفيري التالي ظهرت النغمة، ليست عالية هذه المرة، لكن رائقة. غنَّيتُ، مالئًا الغرفة بصوتي، حتى نضبَ نفسي. حلَّ الصمت.

"ستغنِّي قانون الإيمان اليوم"، قال وعزف لحن السوبرانو الصادح من الحركة الثالثة. غنَّيت.

صارت يداه بغتةً عليَّ مُجدَّدًا: اليد التي تُلاطف الزهرة. على صدري، تحت ذراعي، أسفل ظهري، حتَّى صارت كل هذه الأجزاء تهتزُّ مع الأغنية. ثم اندفعت يداه على ظهري وضغطَ بصدري على أذنه.

"غنِّ!" أمرني. شعرتُ بالأغنية تفيض داخلي. هززتُ ركبتَيَّ.

"نعم!" قال لاهثًا. شعرتُ أنه على حق، أن صوتي لم يرنَّ مُشرقًا هكذا قَطُّ. فيما أقف وأغنِّي لدقائق طويلة، أبقى رأسه على صدري، كطفلٍ على صدر أمه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(11)

علينـا أن نلـوم القدِّيـس بولـس عـلى وجـود مُرتِّـل القُـدَّاس. بـدون تحريمـه (فلتـدع النسـاء تظـلُّ صامتـة في الكنيسـة *Mulier taceat in ecclesia*)، لم يكـن العـالم ليحتـاج لهـؤلاء الصبيـان الأشـقياء. ذلـك أن القديـس بولـس، في أمـره للنسـاء أن يصمـتن في كنائسـه، لا يسـتطيع إسـكات الصـوت الأنثـوي. لشـهور قبـل ولادتنـا، تتوالـف آذاننـا عـلى أصـوات أُمَّهاتنـا (في حالتـي كانـت هـذه الأصـوات هـي أجـراس أمِّـي)، وبالتـالي، في سـعيها نحـو الجـمال المُطلـق، احتاجـت الكنيسـة إلى بديـل. في جوقـة سـانت غـال، كنـتُ أفضـل بديـل عرفـوه قـطّ.

بغتـةً صـار رئيـس الديـر يُقـدِّرني كـما يقـدِّر الجوهـرة التـي في خاتمِـه، أو الحجـارة البيضـاء النقيـة لبُرجَـيْ كنيسـته الجديـدة، التـي بـدأت في الارتفـاع مثـل سُـلَّمَيْن غـير مُكتملَـيْن نحـو السـماء. عندمـا يسـمعني أغنِّـي، أو يتوقَّـف قليـلًا لمشـاهدة تدريباتنـا، كان يبتسـم بنهـمٍ وكأنهـا وليمـة يجـري تحضيرهـا ليأكلهـا. كان تكتُّمـي ميـزةً. أتحـدَّث مـع نيكـولاي فقـط،

الـذي كنـت أختبـئ في غرفتـه كلَّـما اسـتطعت الهـروب مـن أولرتـش والجوقـة، لكـن حتَّـى حينهـا لم أكـن أقـدِّم مـا يزيـد قليـلًا عـن الهمهـمات. عندمـا يسـألني نيكـولاي عمَّـن كان أبي، كنـت أهـزُّ كتفَـيَّ بـلا مبـالاة. وعندمـا يسـألني عـن اسـمي الحقيقـي، أجيبـه، "مـوسى".

في صلـوات السـاعات الاعتياديـة، ومعظـم القُدَّاسـات، كان غنـاء رهبـان الجوقـة أمثـال نيكـولاي كافيًـا لرفـع قطيـع شـتاوداخ نحـو السـماء. لكـن في الأيـام المُقدَّسـة، أو للاحتفـال بوصـول المُتحجِّـرات المُقدَّسـة، أو للقُدَّاسـات في ذكـرى وصيـة بمـيراث كريـم، كان رئيـس الديـر يسـتدعي جوقـة أولرتـش لنسـتغرق نحـن في سـبب وجودنـا الطقـوسي. في المُجمـل، كنَّـا نغنـي عشريـن قُدَّاسًـا كل عـام كجوقـة موحـدة، فيـما يرسـل بأجـزاء مـن مجموعتنـا في مناسـبات عديـدة آخريـن لتشريـف الأبرشـيات الأصغـر في أراضي الديـر الشاسـعة. كان ذوق أولرتـش الراقـي ينتقـي مـن ذخـيرة مؤلفاتنـا الموسـيقية، التـي تضـم قُدَّاسـات أثيريَّـة مـن كاڤـالي، تشـاربنتيير، مونتيڤـيردي، ڤيڤالـدي، ودوفـاي. في تدريباتنـا المُختلَسـة في منتصـف الليـل، كان الرجـل المثـير للاشـمئزاز يسـحب مقطوعـات موسـيقية مُهرَّبـة مـن لايبتسـج، وسرًّا كنـتُ أنـا ألـوِّثُ الديـر بأغـاني بـاخ البروتسـتانتية.

تمامًـا كـما كان أثريـاء سـانت غـال مـن الكاثوليكيـين يتوقـون إلى القطـن مـن أمريـكا، والشـاي مـن الهنـد، والقهـوة مـن تركيـا، فلـم تكـن جنـازة ولا موكـب أو عيـد في الأبرشـيات يمـرُّ دون مصاحبـة موسـيقية مـا مـن جوقـة سـانت غـال. في ذاكـرتي، كانـت هـذه الأماكـن مجـرد بقعـة مـن الموسـلين ذي الزخرفـة المُتكلِّفـة في الكنائـس الصغـيرة شـديدة الرطوبـة، صمـتٌ مكـوَّن مـن شـخير النـوم وأزيـز الأنفـاس.

كلُّها، أعني، باستثناء مكان واحد.

* * *

عـادةً مـا كُنَّـا نسـافر في عربـات تجرُّهـا الثـيران إلى حفلاتنـا؛ ذلـك أن غالبيـة كاثوليكيِّـي سـانت غـال كان يعيشـون خـارج أسـوار المدينـة. في أمسـية بعينهـا، رغـم ذلـك، خرجنـا في مسـيرةٍ مـن طابـور واحـد مـن بوابـة الديـر الغربيـة مُتَّجهـين إلى المدينـة البروتسـتانتية. قـاد أولرتـش الطريـق، يتبعـه عازفـا الكـمان ذوا الوجـه الرمـادي، والشـعر الرمـادي؛ ثـم هايـنرش عـازف البيانـو القيثـاري بديـن العنـق، أندريـاس مـؤدي (البـاص) الجهوري، مؤدِّيَـا تينـور بالغـان تمامًـا ومؤدِّيَـا كونترالتـو عـلى وشـك البلـوغ؛ فيـدر السـوبرانو؛ أويـلي، مُرتِّـل قُـدَّاس سـابق كانـت عمليـة بلوغـه القاسـية قـد أحالتـه إلى حامـل حقائـب ومقلِّـب صفحـات؛ وأخـيرًا أنـا، متباطئًـا في أحيـان كثـيرة لألتقـط كل صـوت يتسـرَّب مـن نوافـذ المدينـة المفتوحـة.

غابـت مؤخِّـرة أويـلي عـن نظـري مـرَّاتٍ كثـيرة فيـما نعـبر المدينـة، لكـن لم يكـن مـن الصعـب اللحـاق بـه. أغلقـتُ عينَـيَّ ووالفـت أذنيَّ عـلى عقبَيْـه يجـترَّان الشـارع. بعـد عـشر دقائـق مـن المـشي، وجـدتُ الآخريـن ينتظـرون عنـد منـزلٍ يشـبه القـصر، مُشـيَّد مـن الحجـر الرمـادي. كان هـذا منـزل آل دوفـت، أخبرنـا أولرتـش، بيـت (دوفـت وأبنـاؤه للمنسـوجات). "بيـت كاثوليـكي"، قـال، "رغـم أننـا داخـل أسـوار المدينـة (البروتسـتانتية)". ثـم همـسَ فيـدر بصـوتٍ عـالٍ بعـض الـشيء أن عائلتـه لا يمكـن أبـدًا أن تعيـش وسـط الفـئران. "ليكـن هـذا درسًـا لـك"، أجابـه أولرتـش بقسـوة. "هـؤلاء الذيـن يضعـون الجهـد والعمـل قبـل الديـن يسـتفيدون مـن قـوة صبرهـم. حقًّـا، إن آل دوفـت هـم أغنـى أبنـاء المقاطعـة، كاثوليـك كانـوا أو إصلاحيـين. الليلـة علينـا أن نـؤدي بأفضـل مـا في وسـعنا".

دلفنـا عـبر بـاب جانبـي، وكأننـا طهـاة مُعجَّنـات. كان ممـر القبـو المـؤدي إلى الكنيسـة الصغـيرة رطبًـا وحالـك الظُّلمـة. تَبعـتُ ذيـل معطـف أويـلي لبضعـة خطـوات، لكننـي توقَّفـتُ بعدهـا. سـمعتُ قعقعـة قـدورٍ معدنيـة بوضـوح عـلى يسـاري، لكـن عندمـا اسـتدرتُ لأنظـر إليهـا، لم أرَ سـوى حجـارة الحائـط الرماديـة. اتَّخـذتُ خطـوةً للأمـام؛ تلاشـت القعقعة،

لكـن الآن تحدَّثـت امـرأة. بعـد خطوتـين أخريَـيْن للأمـام سـمعتُ ثرثـرة: مجموعـة مـن الرجـال، دزينـة عـلى الأقـل.

تباطـأتُ في مشـيتي. انسـابَ الصـوت وكأننـي مـررت بثـلاث نوافـذ مفتوحـة، عـلى ثـلاث غـرف مختلفـة، لكـن الحائـط كان مجـرد حجـارة مُصمتـة. تمعَّنـتُ فيـه عـن قـرب. لم أجـد أي ثقـوب، وحينهـا ارتجفـت، مسـتنتجًا أن الأشـباح تعيـش في هـذا الممـر حتـمًا. رغـم ذلـك، بمقـدوري الآن إدراك أن الأمـر لم يكـن معجـزة أو شـيطنة عـلى الإطـلاق، كان مجـرد ظاهـرة (phénomène). قـرأتُ بعـد ذلـك أن الحجـر الجـيري يتألـف مـن أصـداف قديمـة، ولا بُـدَّ أن أصـداف آل دوفـت جـاءت مـن الكهـوف بالتحديـد؛ لأنهـا، مثـل أصـداف قوقعاتنـا، تحبـس كل الأصـوات المُنبعثـة مـن ذلـك المنـزل العمـلاق، وتحملهـا بعيـدًا. تمامًـا كأزيـز شـفتَي عـازف بـوق، ينتقـل مـن المبسـم إلى مخـرج البـوق عـبر انحنـاءات والتفافـات النحـاس، كانـت أصـوات منـزل آل دوفـت تتراكـم، ثـم تنتقـل مـن صَدفـةٍ إلى أخـرى، وتنطلـق خارجـةً عـبر جُـدران غرفـة أخـرى تمامًـا.

فيـما أتابـع طريقـي عـبر ذلـك الدهليـز الـكابي في إثـر رفقـائي، سـمعتُ زجاجًـا يتشـظَّى عـلى الأرض، يـدًا تخبـط بقـوة عـلى مكتـب، رجـلًا يغنِّـي أغنيـة غريبـة، طفـلًا يبـكي، وامـرأةً تحـاول تهدئتـه. (إذا سـألتَني كيـف تيقَّنـت مـن الجنـس مـن سـماع الهسـيس فحسـبُ فـلا بُـدَّ أن تُحـرَم مـن دخـول قاعـات الحفـلات. منحـكَ الـرَّبُ أذنَـيْن لتُنصـت بهـما). وراء تلـك الأصـوات القابلـة للتحديـد، تُرفـرفُ داخلـةً وخارجـةً، سـمعتُ عـددًا هائـلًا مـن الخشخشـات والدَّقَّـات، وكأن جيشًـا أخـرس يُنقِّـب عـن الفضـة داخـل الجُـدران.

اسـتغرقَ الأمـر منِّـي دقائـق طويلـة لاجتيـاز ذلـك الممـر القصـير. توقَّفـتُ عنـد كل صـوت وحاولـت بـلا جـدوى التَّلصُّـص عـبر ثُقـبٍ في الحجـارة. عندمـا وصلـتُ إلى النهايـة أخـيرًا، حيـث يتشـعَّب الممـر يسـارًا

ويمينًا، كنتُ وحيدًا. أنصتُّ إلى عقبَيْ أويلي، حدَّدتُ اتجاههما، سرتُ خطوتين إلى اليسار، أدركتُ أنني كنتُ مخطئًا، عدتُ إلى موضع التَّشعُّب، سمعتُ العقبَيْن يجترَّان الأرض إلى اليسار وإلى اليمين في نفس الوقت، ثم سمعتهما فوق رأسي.

لقد تُهت.

أنا إنسان عديم النفع دون أذني. كانت حواسي الأخرى مُعطَّلة نتيجة قِلَّة استعمالها. مع كل خطوة في أيِّ اتِّجاه، كانت جُدران منزل دوفت تنطق بأصوات جديدة أحاول استكشاف ماهيَّتها، لكن بلا طائل. رغم أن الردهات الطويلة والزوايا القائمة لمنزل دوفت ربما بدت للآخرين بسيطة كحقل مفتوح، إلَّا أنها بدت لي كمتاهة.

أخيرًا، اخترتُ واحدًا من الاتِّجاهات وسرتُ إلى نهاية الممر. على يساري كان باب، وعلى يميني يستمرُّ الممرُّ حتى يُظلم. كنتُ على وشك اختيار الباب عندما سمعتُ صوتًا ودودًا ينادي من بين الظلال.

"اقترب"، قال الصوت. "اقترب الآن. أنا صديقك. لا تخجل".

خطوتُ ببطء عبر الممرِّ المظلم نحو الصوت. انفتح بابٌ على ما يشبه مخزنًا مُعتمًا كانت فيه مئات من الجِرار الزجاجية تملأ صفوفًا من الأرفف الخشبية.

"لا بأس"، قال الصوت الخيِّر. "لن أؤذيك. أريد أن أساعدك".

شاعرًا بالاطمئنان، خطوتُ إلى الغرفة.

كان تركيزي مُنصبًّا على الأصوات، لحدِّ أنني لم ألمح العين المُحدِّقة إلَّا بعد خطوات كثيرة داخل الغرفة. تجمَّدتُ مكاني. ثم رأيتُ عينًا أخرى، ثم اثنتين أخريَيْن، ثم ألف رأس مقطوعة تحملق فيَّ. رأيتُ رؤوس دجاجات، رؤوس دزينات من الطيور البرية، رأس خنزير، رأس ماعز بقرون مُنمنمة. في أحواض زجاجية خضراء على طول الرَّفِّ

العلـوي كانـت تطفـو رؤوس حيوانـات برِّيَّـة: أيـل، ذئـب، رأس عملاقـة لـدبٍّ، ثـلاث قطـط ضخمـة، ورؤوس أصغـر حجـمًا لسـناجب كثـيرة. أعـينٌ ضبابيـة، فاغـرة كانـت تحـدِّق عـبر السـائل الشـفاف. اهـرب! بـدا أنهـا تقـول. سـيأخذون رأسـك أيضًـا.

لكـن فـورَ أن اسـتدرتُ لأفـرَّ، تحـدَّث الصـوت الهـادئ مُجـدَّدًا. "لا بـأس"، قـال الصـوت، "لا تَخَـفْ".

لكننـي أدركـت حينهـا أن التطمـين في صوتـه لم يكـن موجَّهًـا لي عـلى الإطـلاق؛ ذلـك أن هـذه (الإنسـانة) كانـت تولينـي ظهرهـا. رأيـتُ حـذاءً أسـود وجـوارب بيضـاء، والظهـر الأخـضر لفسـتانٍ مخمـليٍّ بتقوُّسـين أبيضَـيْن عـلى كتفيـه، مـع ضفيرتـين شـقراوين. كنـتُ أنظـر إلى فتـاة، نـوعٌ مـن المخلوقـات كنـتُ رأيتـه كثـيراً في الكنيسـة، لكـن باسـتثناء شـقيقتين معروقتَـيْن كانتـا تشـبهان الفـئران أكـثر مـن النسـاء، لم أقـترب هكـذا مـن فتـاة قـطُّ.

كانـت تنحنـي عـلى قفـص خشـبي كبـير، تغطـس بكتفيهـا وترفـع سـاقًا لتُـوازن نفسـها، مانحـةً إيَّـاي فرصـة لرؤيـة جواربهـا البيضـاء مـن كاحلهـا النحيـل إلى انحنـاءة مؤخرتهـا الهزيلـة. باهتـمام مباغـت، أدركـتُ أن لغـزًا يكمـن في تلـك البقعـة الناعمـة حيـث تلتقـي خيـوط جواربهـا الدقيقـة. غطَسَـت أكـثر في القفـص، وارتفـع فسـتانها أكـثر، كمِظلَّـة تنفتـح، سـاقاها تتلويَّـان ناحيـة السـقف. تُقـتُ إلى لمسـهما. هـل كانتـا دافئتَـيْن أم باردتَـيْن؟ خشـنتَيْن أم ناعمتَـيْن؟

"أمسكت بك!" قالت لاهثةً. ركلت قدمها بانتصار.

هبَطَـت السـاقان. عـاد الفسـتان إلى موضعـه. خرجـت كتـفٌ بتقـوُّسٍ أبيـض مُتَّسـخ، ثـم أخـرى بتقـوُّسٍ مفقـود، ثـم الضفيرتـان الذهبيتـان بحفنـات تـبن تتعلَّـق بهـما، وجـهٌ أحمـر مُلطَّـخ بالـتراب، ذراعـان عاريـان، وأخـيراً يـدان قذرتـان وثعبـان.

كان بطـول سـاقي ويلتمـع بأسـود زيتـيٍّ في وميـض المصبـاح. طوَّحَـت الفتـاة بضفـيرةٍ مـن عـلى وجهها، جذبـت الثعبـان المتلـوِّي نحـو شـفتيها، قبَّلَتـه، ثـم قالـت، "لا بـأس، چان-چـاك. أنـت حـرٌّ".

يمكننـي تذكُّـر كل تفصيلـة في ذلـك المشـهد: نَمَشِـها، كل بقعـة تـراب عـلى وجهها، الابتسـامة المُحِبَّـة، المزهـوَّة التـي منحتهـا للثعبـان. ربمـا مـا أراه الآن في عـين عقـلي ليـس سـوى ذكـرى لذكـرى بعيـدة أخـرى، كسـاعةٍ قديمـة أُصلِحَـت مـرَّات كثـيرة بحيـث لم يتبـقَّ فيـه تـرسٌ أصـلي واحـد. كثـيراً مـا اسـتدعيتُ المشـهد إلى عقـلي: تلـك الفتـاة ذات الشـعر المُشـعَّث، اليـدان القذرتـان، وثعبـان عشـب مرعـوب محمـول أمـام فمهـا.

بشفتَيْها على بعد نَفسٍ من الثعبان، رأتْني.

في رعشــة المصبــاح، راقبــتُ شــعورها بالإحــراج يرتفــع إلى خدَّيهــا. حاوَلَـت إخفـاء الثعبـان وراء ظهرهـا، لكـن تَلوِّيـه كان كثـيراً جـدًّا عـلى يـد بمفردهـا، فهـربَ منهـا عـلى الأرض. تـردَّدَت لوهلـة وتفكَّـرَت، ثـم هـوَتْ عـلى ركبتَيْهـا ومِرفقَيْهـا، يداهـا تُمسـكان بچان-چـاك فيـما ضفيرتاهـا تتدلَّيــان كآذانٍ طويلــة عــلى الأرض. رفَعَــت بصرهــا إليَّ.

"مَن أنت؟" قالت. "ماذا تفعل هنا؟".

أُخِـذتُ عـلى الفـور بالثقـة في صوتهـا، بالنطـق الواضـح في كلماتهـا. بـلا أثـرٍ للَهجـةٍ قرويـة. أدركـتُ عـلى الفـور أن هـذه الفتـاة كانـت مـن طبقـةٍ أعـلى حتَّـى مـن صبيـان الجوقـة الذيـن يسـخرون منِّـي. لا يهـمُّ كـم تقـف قريبـةً منِّـي الآن؛ ذلـك أنـه حتـمًا لا يوجـد مَـن هـو أبعـد عنِّـي الآن في العـالم بأكملـه.

أحكمـت قبضتهـا عـلى چان-چـاك ورفعـت ركبتَيْهـا عـن الأرض ثـم نهضـت واقفـةً، مُمسِـكةً بالثعبـان أمامهـا وكأنهـا قـسٌّ يقبـض عـلى كأسٍ مملـوءةٍ بالنبيـذ. كانـت أطـول منِّـي بمقـدار رأسـها، ولهـا وجـه عجيـب، وكأنـه لوحـة قماشـية لعـرض المشـاعر: الفضـول في تضـامِّ جبينهـا، الحـذر

في تطاول عينيها، الحَرج في ثنيَّة ذقنها، لمسة من البهجة في اتِّساع فمها. تمعَّنَت في رداء الجوقة الذي أرتديه.

"هل أنت راهب؟" أوحَت نبرتها بأنها تفضِّل الثعابين على الرهبان.

مُجدَّدًا، لم أقل شيئًا.

"عندما أكبر"، قال، مقتربةً مني ببطء شديد ومُتحدِّثةً بسرعة مع ذلك، "لن يعود هناك رهبان، لكن فلاسفة (*philosophes*) فحسب، وهو ما يمكن للنساء أن تكونه، حتَّى وإن كانت النساء لا يستطعن إدارة المصانع". عندما انتهت من حديثها، كان چان-چاك، قريبًا من وجهي. قد توقَّفَ عن التَّلوِّي وأخذَ في التحديق باسترخاء في الظلام. تطلَّعَت الفتاة إلى عينَيَّ. تراجعتُ خطوةً. تقدَّمَت.

حفحفَ فستانها فيما تتحرَّك. صرَّ حذاؤها الأسود المُتيبِّس. نقَرَت بأسنانها مرَّتين. "إذا أخبرتَ أيَّ إنسان بما رأيتَه، سأسحق وجهك"، قالت.

ثم خَطَت بجواري مباشرةً.

استدرتُ لمراقبتها وهي ترحل، وحينها فحسب أدركت أنها تعرج. كانت قدمها اليمنى مُستديرة للداخل وركبتها لا تنحني. ألقَت بنظرة خاطفةٍ للوراء فيما تغادر الغرفة وأمسَكَت بي مُتلبِّسًا بالنظر إلى ساقها. انضمَّت ومضة ألمٍ إلى المعركة على وجهها. "من الموجع أن تُحدِّق"، قالت.

ثم رحلَت. راقبتُ مدخل الباب، ثم أغلقت عينَيَّ حتى أستطيع استرجاع أصواتها، المُخزَّنة الآن في ذاكرتي. حفيف فستانها، الصوت الرقيق مُغوي الثعابين وقد أيقظ حواسِّي الأخرى. هل هذه هي رائحة صابونها وليمونها ما زالت عالقةً في هواء الغرفة؟

عـدتُ إلى الدهليـز الرئيـسي واسـتندتُ عـلى الحائـط حتّـى سـمعتُ أويـلي يجـرُّ قدميـه عـلى الأرض، ذلـك أنهـم أرسـلوا بـه للبحـث عنـي.

* * *

كنَّـا هنـاك لغنـاء صلـوات مسـاء الأحـد. غنّينـا (قـال الـرَّبُّ *Dixit Dominus*) لڤيڤالـدي، مقطوعـةٌ تعـرض البراعـة والتناغـم والتقـوى كـما ينبغـي لخلـق تأثـيرٍ عـلى العباقـرة والبلهـاء الأثريـاء، وبالتـالي إلهامهـم للنظـر مُجـدَّدًا في الوصايـا الأخـيرة بطُـرق أكـثر كرمًـا لمصلحـة الديـر. كانـت الكنيسـة الملحقـة بمنـزل آل دوفـت كتلـة رطبـة مـن الحجـير الجـيري ممتلئـة بوفـرةٍ مـن الأيقونـات ونحـو ثلاثـين مـن المُصلِّـين. وقفنـا -فيـدر وأنـا- كَتِفًـا بكتـف في مقدمـة الجوقـة. في تلـك الليلـة لم يُخـفِ إبـرةً في قبضتـه وينخزهـا في ذراعـي، أو يهمـس بـأن رئيـس الديـر طـردَ نيكـولاي بسـبب جرائمـه المخزيـة. كان الأمـرَان مزحـةً معتـادة عندمـا نتـدرَّب. الآن، في الكنيسـة الصغـيرة، ممتلئـةً بأفضـل دمـاء سـانت غـال، كان يبتسـم كمـلاكٍ، ولم يُبـدِ أيَّ علامـةٍ عـلى أنـه يزدرينـي.

فيـما نوشـك عـلى أن نبـدأ، انفتحـت الأبـواب في مؤخـرة الكنيسـة وخطـا داخـلًا سـيد المنـزل. ڤيليبالـد دوفـت. لم يكـن رئيـس إمبراطوريـة (دوفـت وأبنـاؤه للمنسـوجات) نحيـلًا فحسـب، بـل كان قصـيرًا كذلـك، وبـين الرجـال البدينـين الآخريـن في الكنيسـة، كان لـه مظهـرٌ صبيـانيٌّ. لم يتوقَّـف لرسـم الصليـب بيـده، لكـن غمـسَ إصبعـه فحسـب في جُـرن المـاء المقـدس ورسـم دائـرةً في الهـواء، ناثـرًا المـاء المقـدس عـلى الأرض. كانـت يـده اليـسرى تمسـك الآن باليـد النظيفـة لطفلتـه الوحيـدة، أماليـا دوفـت، مُقبِّلةِ-الثعابـين. سـارت عارجـةً بجـواره.

جلسـا بجـوار امـرأةٍ في الصـف الأول كان لهـا ذلـك المزيـج المُنفِّـر مـن خدَّيْـن غائرَيـن، وكتفـين نحيلتـين وفخذيـن عريضتـين؛ مـمَّا جعلهـا تبـدو كهَـرَمٍ لحيـم، مرتـخٍ، يسـتقرُّ عـلى المقعـد الكنسي. جلَسَـت أماليـا بينهـما.

تصـوَّرتُ مخطئًـا أن المـرأة ذات شـكل الإجاصـة هـي أمُّ أماليـا وزوجـة ڤيليبالـد؛ واكتشـفتُ لاحقًـا أنهـا شـقيقة دوفـت العزبـاء، كارولـين دوفـت، المصـدر الرئيـسي للتقـوى في المنـزل، وصاحبـة فكـرة هـذا الطقـس الكنـسي الخـاص.

أثنـاء أول حركَتَيْن في المقطوعـة الموسـيقية، راقبـتُ هـؤلاء الثلاثـة. كان فريـق مؤدِّيـي التينـور والألتـو يتعاركـون مـع بعضهـم البعـض ومـع آلات الكـمان والبيانـو القيثـاري للسـيطرة عـلى الكنيسـة، مُسـتخدمين درجـاتٍ مبالَـغ فيهـا مـن الصـوت وتوسـيع محسـوس بالـكاد لنغماتهـم كأسـلحة. لكـن الجمهـور لم يفهـم هـذه الحـرب؛ لم يفعـل الصخـب سـوى أن أخمـدَ انتباههـم. ابتسـمَ بعضهـم بـلا معنـى. آخـرون حمَلـوا نظـرةً حمقـاء مـن الرضـا الزائـف عـلى وجوههـم. سـقط كثـيرٌ مـن المُصلِّـين فريسـةً للنـوم. كان دوفـت يحـدِّقُ في حذائـه. بجـواره، تؤرجـح أماليـا قدمهـا بفتـورٍ، ولا تبـذل جَهـدًا لإخفـاء الملـل عـلى وجههـا. وبـدا أن كارولـين دوفـت لـن تكـون أسـعد لـو أن ڤيڤالـدي نفسـه قـامَ مـن موتـه وتنـاول كمانـه وعـزف عليـه. أغلقـت عينيهـا وتمايَلَـت عـلى إيقـاعٍ مـا لا علاقـة لـه بالموسـيقى الحـاضرة. تسـاءلتُ، "هـل هـي صـمَّاء؟".

الحركـة الثالثـة مـن مقطوعـة (*Dixit Dominus*) هـي دقيقتـان مـن أجمـل تنويعـة كتبهـا ڤيڤالـدي ليُغنِّيهـا مؤدِّيَـا سـوبرانو. كانـت ملائمـةً إلى حـدٍّ الكـمال لصـوت فيـدر وصـوتي، وهـما صوتـان لم يكونـا متألِّقَـيْن ومكتملَـيْن بعـدُ، لكنهـما خفيفـان وسريعـان. أحببـت مراقبـة ردِّ فعـل الجمهـور عندمـا بـدأ فيـدر في غنـاء (عصـا سـلطانك *Virgam virtutis tuae*)، وبعدهـا بثـوانٍ، كـرَّرتُ العبـارة. تطلَّـبَ الأمـر هـذه اللحظـة فحسـب لإخـراج الجمهـور مـن سُـباتِه.

غنَّينـا عبـارةً أخـرى معًـا في تناغُـمٍ قبـل أن يُفرِّقنـا ڤيڤالـدي. ثـم صرنـا مثـل عصفورَيْـن راقصَـيْن: نرتقـي في تناغـم. نتباعـد متفرِّقَـيْن، لكـن بعدهـا

نَعـزِم عـلى الاتِّحـاد، ثـم نرتقـي مُجـدَّدًا. كان صـوت فيـدر رشـيقًا للغايـة، لحـدِ أنـه كان يبـدو أحيانًـا وكأنـه سـيفرُّ مبتعـدًا عـن صـوتي. لكـن لوهلـة كنَّـا إخـوةً، وأوشـكتُ عـلى مـدِّ ذراعـي واحتضانـه فيـما نُغنِّـي.

مـالَ الحـاضرون في الكنيسـة للأمـام في جلسـتهم وارتفعـوا قليـلًا عـن مقاعدهـم؛ صرَّت الأرائـك الكنسـية مـن تحتهـم. لكـن دوفـت لم يفعـل سـوى أن مـدَّ قدمًـا لنَفْـض لطخـة غبـار عـن الأخـرى ثـم تثـاءبَ، وكأنـه لم يسـمع الموسـيقى. لكـن أماليـا كانـت تُنصـت. حدَّقَـتْ إليَّ، وفي بطنهـا كان رنـين صغـير.

انتهـت الحركـة الموسـيقية، وللمـرة الأولى منـذ دخولنـا الكنيسـة، كان هنـاك صمـتٌ مطلـق. لا اعتـدال في جلسـة ولا سـعال. لا همـسٌ ولا تقريع. أنـاسٌ كثـيرون تنفَّسـوا بصفـيرٍ رقيـق فيـما يطلقـون زفيرهـم، وفكوكهـم تتـدلَّى مرتخيـةً.

اسـتمرَّت الموسـيقى. احتـوت الحركتـان التاليتـان عـلى اشـتباكٍ بـين مؤدِّيـي التينـور والبـاص، وآلات الكـمان والبيانـو القيثـاري، كل الآلات وقـد جـدَّدت إلهامهـا. ثـم البـوق وقـرار الأرغـن، وقـد أُعيـدت كتابتهـما بشـكل مُرهِـق ليلائـما البيانـو القيثـاري وآلات الكـمان. بـدأت الحركـة الثامنـة القصـيرة بـآلات الكـمات المتثاقلـة التـي اسـتخدمها ﭬيڤالـدي بشـكل مُتقَـن لتهيئـة الآذان. هـدَّأت الحركـةُ الجمهـورَ، ومُنحـت آلتـا الكـمان الرماديتـان في فرقتنـا الفرصـة للاشـتراك في الموسـيقى. ثـم بـدأتُ غنـاء السـوبرانو منفـردًا، (السـيل *De Torrente*).

كنـتُ صبيًّـا ضئيـلًا، بالـكاد بنصـف طـول الرَّجُـل الـذي أنـا عليـه الآن. وقفـت الجوقـة خلفـي مُنصاعـةً لقيـادتي. لم يكـن صـوتي عاليًـا، لكنـه مـلأ كل ركـنٍ في تلـك القاعـة. ارتجـف ذقنـي فيـما أمـدُّ كل مقطـع ليسـتمرَّ لعشريـن نغمـةً أو أكـثر. بالنسـبة للجمهـور بـدا ذلـك عفويًّـا وهيِّنًـا -أبـدًا لم تتشـنَّج عينـاي، لم ترتفـع كتفـاي- لكـن بالنسـبة لي، تطلَّـب الأمـر أعمـق

تركيز ممكن. اتَّجهت ذراعاي للأسفل وللأمام قليلًا، وشعرتُ بأغنيتي في كل إصبع ممدودة. هُصِرَت رئتاي، ورغم أن صوتي كان مكتملًا بمقدار العُشر فقط ممَّا سيكون عليه يومًا ما، إلَّا أنه كان رائقًا مثل هواء الجبال حول كنيسة أمِّي. في كنيسة آل دوفت، تخضَّبَت عيناي. كانت أماليا، في الصف الأول، قد تغضَّنَ جبينها؛ أصابعها البيضاء قابضة على المقعد الخشبي. تغلغلت أغنيتي في كل نسيجٍ فيها.

عندما انتهيت، كان هناك صمتٌ. كان فيدر تمثالًا مُتخشِّبًا بجواري. فغرَ أولرتش فاه. رآني، مُجدَّدًا، للمرة الأولى. ودوفت ما يزال يتأمَّل حذاءه.

جلَسَت أماليا في سكون، مُنتشيةً وذاهلةً، وكأن ثعبانها قد أنبتَ أجنحة بهيَّة وشرعَ في الطيران أمام عينيها.

(12)

بعدهــا، جلســنا في بهــوٍ ضيــق وأَوْلَمنــا. كان الطعــام والــشراب هــو الوسـيلة الوحيـدة لدفـع أتعـاب غنائنـا (يتلقَّـى رئيـس الديـر كويلسـتين أتعابـه بحسـب ترتيباتـه الخاصـة بالطبـع). بـدا وكأن الجميـع قـد نسـيَني، الجميـع باسـتثناء أولرتـش، الـذي كنـت أضبطـه مـن وقـتٍ آخـر يُحـدِّق في وجهـي، مُحـاولًا بـلا طائـل أن يسـتحضر مـن صورتـه ذكـرى صـوتي. أمسـكتُ بسـاق لحـم حَمَـل في يـدٍ، وجنـاح دجاجـة في الأخـرى، وشرعـتُ في انتـزاع اللحـم وكأننـي أنـوي أن أكـبر إلى حجمـي الكامـل قبـل انبـلاج الصبـح.

«بسسـت!» سـمعتُ أحدهـم يهمـس. لم يبـدُ أن أحـدًا غـيري سـمعَ الصـوت. اسـتدرتُ نحـو البـاب. تلصَّصَـت عينـي عـبره. أبـدًا لم يرغـب أحـد في التَّحـدُّث معـي مـن قبـل، باسـتثناء أولرتـش ونيكـولاي؛ لهـذا تجاهلـت الصـوت واسـتدرتُ عائـدًا إلى وليمتـي.

«بسست! أيُّها الراهب!» استدرتُ مجدَّدًا، وهذه المرة رأيت رأس أماليا دوفت يبرز من الباب. «تعال!».

أطعتُ الأمر، لكن بحذر، مدركًا جيدًا الآن أن وراء المفاتحات الودودة بالكلام غالبًا ما تكمن مكائد قاسية. عندما وصلتُ إلى الباب، جذبتني أماليا عبره وأغلقته وراءنا. كانت ترتدي فستانًا أبيض وحدَّقت في وجهي بنزق.

«أنت مثير للاشمئزاز»، قالت.

فكَّرتُ، لماذا يبحث الناس عنِّي فقط من أجل إهانتي؟

لكن حينها شعرتُ بوخز عصارة الحَمل ودهن الدجاج على النصف السفلي من وجهي. نظَّفتُه برداء الجوقة. تأوَّهَت أماليا وقبضت على مِعصمي. سحبتني إلى آخر الرواق. في مُغتسَلٍ، مسحت وجهي ويدَيَّ بفوطة ناعمة وألقتها على الأرض.

«بسرعة»، قال، جاذبةً كُمِّي. «يفترض أن أكون في الفراش».

ارتفعت خشخشات وتقطيرات وثرثرات آل دوفت وخفتت فيما تقودني أماليا عبر رَدَهاتٍ لم يكن لي أبدًا أن أجول فيها بمفردي. سِرنا بما يقترب من الركض، فيما تتمايل هي من جانبٍ إلى آخر بعرَجِها. أدارت بصرها إليَّ.

«كثيرٌ من الناس يسقطون من الأسطح»، قالت. «سقط ماتياس ڤون جروب من نفس السطح الذي سقطتُ منه، لكنه هبط على كومةٍ من السِّباخ فيما هبطتُ أنا على محراثٍ. تقول كارولين إنه الرَّبُّ فعل ذلك ليبطئ سقوطي، لكنه لم يبطئ سقوطي، وعلى أيِّ حال لا يوجد ربٌّ».

جعلتني هذه الجملة الأخيرة أتراجع مصدومًا، لكنها جذبتي بشدَّة أكبر. عندما لم أقل شيئًا رغم ذلك، هزَّت رأسها. «لماذا لا تتحدَّث؟».

لأنني لا أعرف ماذا أقول، كنتُ سأقول، لو واتتني الشجاعة.

هـزَّت كتفيهـا بـلا مبـالاة وتابعـت الحديـث. «هـذا يناسـبني. أمقـت الإنصـات إلى النـاس. مـاري لا تصمـت أبـدًا. حاولـتُ سـدَّ أذنيَّ بالشـمع، لكنهـا دائمًـا مـا تـصرخ حتَّـى أسـمعها. أنـت، بالطبـع، لا يمكنـك أن تبقـى هادئًـا، لكنـك لسـتَ مُضطـرًّا لأن تتحـدَّث».

أبـدًا لم يتحـدَّث إنسـان معـي بـكل هـذه الكلـمات، باسـتثناء نيكـولاي وأولرتـش. بـدا كل هـذا مثـيرًا للشـكوك. لـن أجـد طريـق العـودة أبـدًا لـو تركَتنـي، أو ربمـا يحـدث الأسـوأ وتقـودني إلى عُصبـة أصدقائهـا الأشرار. لم نكـن مررنـا بنافـذةٍ حتَّـى الآن، وازدادت الأصـوات القادمـة مـن الجُـدران خفوتًـا أكثر وأكثر. قـدَّرتُ أننـا دلفنـا إلى جنـاحٍ غـير مسـكون في منـزل آل دوفـت.

أبطـأَت أخـيرًا. في نهايـة ممـر طويـل كانـت هنـاك منضـدة، وخلفهـا بـاب مـزدوج مُغلـق. رجـل عجـوز يجلـس عـلى المنضـدة بعينـين نصـف مُغلقَتـين. وشـمعة وريشـة وورقـة وسـاعة فضِّيَّـة موضوعـة بنظـام عـلى المنضـدة أمامـه.

«آنسـة دوفـت»، قـال فيـما نقـترب. كتـبَ شـيئًا مـا عـلى ورقتـه. اختلسـتُ نظـرة ورأيـتُ أنـه خربـش اسـمها.

"إذا لم تخبر أبي أننا جئنا يا بيتر"، قالت، "سأجلب لك سيجارًا".

استمرَّ في الكتابة.

"سيجارَيْن؟".

هزَّ رأسه. "بيانات دقيقة".

نظـرتُ إلى الورقـة أمامـه. كان فيهـا جـدول مُنسَّـق يشـطرها إلى عموديـن.

الحدث	الوقت
سعال (جاف)	20:02 (المدة: 45)
سعال (تسليك الحلق)	20:08 (المدة: ثانيتين)
الممرِّضة بلات تدخل	2:14
نافذة تُفتَح (الممرِّضة بلات)	2:15
نافذة تُغلَق (الممرِّضة بلات)	20:18
مثانة تُفرَّغ حسب الطلب	
اللون: مصفرٌّ؛ الحجم: 1/6 من الطبيعي	20:20
سعال (جاف)	20:22 (المدة: 31 ثانية)
الممرِّضة بلات تغادر	20:25
زائر (الآنسة دوفت)	20:32

فيما أقرأ هذه القائمة، سمعتُ سعالًا جافًّا من خلف الباب المزدوج. نظرَ بيتر في ساعته. تأوَّهَت أماليا وأمسكت بمقبض الباب.

"لا تقاطعوني!" أصدر أمرًا وأمال أذنيه. عندما توقَّف السعال، تفحَّصَ ساعته. كتبَ: "سعال (جاف): 20:34 (المدة: 24 ثانية)".

"سندخل"، قالت أماليا. انتزَعَت قصاصتين من الحرير الأسود من كومةٍ على المنضدة.

بغتةً اختفى بيتر الخامل. بدا وأن فارسًا مغوارًا قد حلَّ محله فيما ينهض بسرعة ويقبض على ذراعي. "لا!"، قالَ في صدمة. "ليس هو!".

"لكنني أقبله"، قالت أماليا.

تطلَّع إليها بيتر في اندهاش. جذبني قريبًا منه وشممتُ رائحة أنفاسه، الغارقة في النبيذ الحامض المُنتن. "لا يمكنها قبول أحد"، همسَ لي.

خطتَ أماليا على قدمها السليمة. "سندخل"، كرَّرت.

جذبني الرجل العجوز إليه أكثر. حاولتُ أن أتملَّص، لكن قبضته كانت في غاية القوة. "لا تدخل"، همس في أذني كالفحيح.

قبَضَت أماليا على مِعصمي الآخر. "لا تنصت إليه. سيبتهج أبي".

"سيبتهج!" قال بيتر. "سيبتهج بتدميرِك لعملية التجريب؟ كيف ستستعيد السيدة دوفت صحتها يومًا ما إذن؟ أخبريني، آنسة دوفت!".

فيما الاثنان يعتصران ذراعيَّ، تطلَّعتُ إلى وجهه العابس ثم إلى وجهها الغاضب.

"اركله"، همَسَت.

وهكذا فعلتُ. ركلتُه في كاحله، فصرخَ عاويًا وأفلت مِعصمي. تواثبَ وأخذَ في دعك قدمه. أغرقني الندم، ووددتُ لو ساعدته في دعك كاحله، لكن أماليا كانت قد دفعت الباب لفتحه ودفعتَني عبره.

"سأجلب السيد دوفت!" صرخ بيتر. لكن أماليا أغلقت الباب، وصرنا بمفردنا في الغرفة المظلمة.

ليس بمفردنا تمامًا: أحدهما كان معنا. كانت امرأة، سرعان ما تبيَّنتُ. كانت تسعل قبل دخولنا، والآن تلتقط أنفاسها في شهقات جشَّة وافرة، حتى بدأَ الهواء في التَّسرُّب من رئتيها، وكأن جسدها مثقوب. كانت هناك شمعة هزيلة تستقرُّ على منضدة، لكن عيناي لم تستطيعا رؤية أيِّ شيء خارج هالَتِها. كانت أصوات منزل آل دوفت صامتة هنا. لم أسمع قعقعات ولا همسات الجُدران، ولا المدينة ولا رياح الليل في الخارج.

جفلتُ فيما تَربِط أماليا قصاصة من الحرير على وجهي. كانت لها رائحة الفحم.

"لا بـأس"، قالـت. "علينـا أن نرتديهـا حتّـى لا نصـاب بالمـرض. تمـرَض عندمـا تتشـارك الأنفـاس مـع أنـاسٍ مـرضى. أمّـي مريضـة".

إذن فتلـك المـرأة في الجانـب الآخـر مـن الغرفـة هـي السـيدة دوفـت. أرعبنـي هـذا، وابتهجـتُ عندمـا أخَـذَت أماليـا يـدي في يدهـا. كانـت أنعـم مـن أيِّ يـدٍ لمَسـتُها في حياتي.

تكيَّفَـت عينـاي مـع الغرفـة المظلمـة. رأيـتُ فراشًـا عملاقًـا. كان مُثقـلًا بدُثُـر ووسـائد لم يكـن لي، دون أصـوات تنفُّـس، أن أتيقَّـن إن كان شـخص واحـد أو خمسـة أشـخاص يسـتلقون تحتهـا. بالشـمعة وراءنـا، ألقينـا أنـا وأماليـا بظـلٍّ هائـل عـلى الحائـط. شـددتُ عـلى يدهـا بقـوَّة.

"أمِّـي!" همسـت أماليـا. "أمِّـي، اسـتيقظي!" شرَعَـت في إرشـادي عـبر الفـراش. قاومـتُ، لكنهـا كانـت أقـوى وأكـثر تصميـمًا.

ظهـر شـقٌّ في الدُّثُـر عـلى الفـراش. انسـلَّت يـدٌ معروقـةٌ إلى الخـارج. كانـت الأصابـع نحيلـة وبيضـاء. أخَـذَت أماليـا اليـد في يدهـا بحيـث صارت حلقـة وصـل بيننـا.

"أماليـا"، قـال همـسٌ مبحـوح. "مـاذا تفعلـين هنـا؟ الوقـت متأخـر". مـن تجويـفٍ مظلـم في الدُّثُـر، تبيَّنـتُ بريـق عينيهـا.

"أحـضرتُ لـك أحـدًا لرؤيتـه يـا أمِّـي. مُغـنٍّ". جذبتنـي أماليـا لتُقرِّبنـي خطـوةً. راقبتهـا، غـير واثـقٍ مـما يتوجَّـب فعلـه. اعتصَرَت يـدي وأومـأت. "حسـنًا"، همَسَـت. "غـنِّ".

كنـتُ تدرَّبـتُ في جوقـة كنيسـة. نغنِّـي الموسـيقى المقدَّسـة في أماكـن مقدَّسـة. رغـم أنـه كان مـن الممكـن اسـتئجارنا لأداء صلـوات خاصـة، إلا أننـا لم نفتـح أفواهنـا قـطُّ بالغنـاء مـا لم يكـن هنـاك مذبـح قريـب بمـا يكفـي لوضـع الكتـاب المقـدس عليـه. لم أكـن موسـيقيًّا ولا رجـل طِـبٍّ يعـرف أناشـيدَ تعالـج المـرضى.

لذلك لم أغنِّ.

"أرجوك"، قالت أماليا. اعتصرت يدي وضغطَت بها على قلبها الخافق. "ليس لدينا الكثير من الوقت. أبي قادم".

بدا هذا سببًا منطقيًّا للهروب، وليس سببًا للغناء. شعرتُ بغتةً بالرعب من هذه الفتاة التي تُقبِّل الثعابين وتقول إن الرَّبَّ غير موجود. حاولتُ الإفلات من قبضة يدها. أوشكتُ على التَّحرُّر -كانت تمسك إصبعي السبابة فحسب في قبضتها- عندما تحرَّكَت الدُّثُر.

رأيتُ وجه السيدة دوفت في الضوء.

ربما بدا ذلك بعيد الاحتمال، لكنني رأيتُ أمِّي. لوهلة كنت متيقِّنًا أنها هي مَن كانت تختبئ تحت تلك الأغطية، وأوشكت على الصراخ مُبتهجًا. لكنني تذكَّرتُ أن وجه أمي كان قذرًا، بينما هذا الوجه، وجه السيدة دوفت، نظيف وشاحب. جلد أمي قاسٍ، كجلدٍ مدبوغ، وجلد السيدة دوفت كالموسلين الممطوط الهشِّ. شَعر أمي أشعث وفائر، وشَعر السيدة دوفت مغسول بعناية ومربوط وراء رأسها. أمِّي قوية. السيدة دوفت ضعيفة. لكن في هاتين العينَيْن الغائرتَيْن، في الشَّفة السفلى المشدودة التي ترتعش بالجَهْد، كان هناك صدى للدفء الذي لا أجده سوى في ذكرياتي عن برج الكنيسة. في تلك اللحظة، كنتُ على استعداد لأبذل للرَّبِّ وعدًا بإغلاق فمي للأبد فقط لو استطاعت أمِّي سماعي أغنِّي ولو لمرَّة واحدة.

وهكذا غنَّيتُ للسيدة دوفت. غنَّيتُ لحن (المجد *Gloria*) من سباعية (قُدَّاس التتويج الباباوي *Missa Papae Marcelli*) لباليسترينا، المقطوعة التي كانت أغوتني من غرفة نيكولاي قبل عامين تقريبًا من الآن. أبدًا لم أُغنِّ من قبل في حجرة صغيرة كهذه؛ الأثاث والدُّثُر والستائر غَرقَت في اتِّساع صوتي. تماوَجَت أنفاسي مُخترقةً قناع الفحم، ومَدغدِغةً أنفي. أنصتُّ لذلك الارتداد الخافت لصوتي في هذين الجسدين. في

شكل السيدة دوفت العَظْمي لم أسمع سوى أوهى الهمسات. لكن أماليا، التي ما تزال تعتصر يدي، كانت تتمتَّع بموهبة هؤلاء الذين بمقدورهم السَّمْع دون آذان. افترقت شفتاها قليلًا. انغلقت عيناها. شدَّتْ كتفيها للوراء. مثل كأسٍ كريستالي بإصبع مبتلَّة تمسِّد على حافَّته، تصاعد الرنين الخافت فيها شيئًا فشيئًا- اهتزَّ صوتي في عضلات عنقها وأعلى ظهرها. أهكذا كانت أمِّي لتسمع صوتي؟

فيما تُوالف أماليا نفسها على غنائي، ضبطتُ درجة نغماتي عليها، وصرتُ وكأنني أمسك بعنقها بيدَيَّ الدافئتين. شعرتُ، للمرة الأولى، بذلك التوق لمعرفة صوتي فيها، كما يقع الرَّسَّام في حبِّ مَن يرسمه بسبب طاقة فرشاته ذاتها.

كُتبَ لحن (Gloria) من أجل الجوقة الكنسية، وفي غياب أصواتٍ أخرى، كرَّرتُ نفسي، وغصتُ إلى أعذب نغمات الكونترالتو، واخترعتُ انتقالات لم توجد. في اللحظات التي أصمتُ فيها، لم نسمع سوى أنفاسنا: أنفاس أماليا خفيفة ومتحرِّرة، وأنفاسي متعطِّشة للهواء، وأنفاس السيدة دوفت تنبعث في ألمٍ.

لم أتوقَّف إلا عندما سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب.

(13)

"لا أحـد يتحـرَّك!" صـاح ڤيليبالـد دوفـت فيـما يهـرع داخـلًا الغرفـة، وهـو يربـط باهتيـاج واحـدًا مـن أقنعـة الفحـم حـول رأسـه. توقَّـفَ، بـدا خائـب الأمـل بعـض الـشيء عندمـا اكتشـفَ أن المُعتـدي عـلى منزلـه لا يزيـد طولـه عـن أربـع أقـدام. قرَصَـت أماليـا مِرفقـي، وشـاكرًا انسـللت وراءهـا. تحـوَّلَ وجـه دوفـت بالتدريـج مـن البنفسـجي إلى الأحمـر، وعـبَّ الهـواء في شـهقاتٍ عـبر القنـاع. تطلَّـع بغضـب إليَّ واقفًـا وراء ابنتـه، ثـم خطـا إلى جانـب زوجتـه، بحـذرٍ شـديد، لحـدٍّ أنـك تظـنُّ أنـه يخـشى إيـذاء الهـواء مـن حولهـا.

لامسَ خدَّها بظَهْر يده. "هل أنتِ على ما يرام يا عزيزتي؟".

"أنا بخير، ڤيليبالد".

بعـد أن اطـمأنَّ عليهـا، اسـتدار ناحيتـي. ضيَّـقَ عينيـه. "هـل تـدرك مـاذا فعلـت؟".

هززتُ رأسي. تمنَّيتُ ألَّا يضربني.

"لقـد تدخَّلـت في طريـق العِلـم"، قـال. وتطلَّعـتُ حـولي في الغرفـة، محـاولًا إيجـاد هـذا (العِلـم) رابضًـا في الظـلال.

كان هنـاك مزيـدٌ مـن وقـع الخطـوات تفـرك الأرض قادمـةً عـبر الردهة. راقَبْنـا بيـتر المتكاسـل يدلـف عـبر البـاب بصعوبـة، وجهـه لا يقـلُّ حُمـرةً عـن وجـه دوفـت.

"توقَّف!" صاح دوفت.

توقَّـف بيـتر قبـل عبـور عتبـة البـاب، متفاديًـا بالـكاد التداخـل مـع طريـق (العِلـم) هـو أيضًـا.

"أبي"، قالت أماليا، "لم نفعل أيَّ شيء...".

"لم تفعـلا أيَّ شيء؟" هتـفَ دوفـت. ثـم ألقـى بنظـرةٍ سريعـةٍ عـلى زوجتـه وأخفـض صوتـه. "ليـس بمقـدوركِ ألَّا تفعـلي أيَّ شيء! في اللحظـة الـذي تأخذيـن فيهـا أنفاسـك هنـا فإنـك تفعلـين شـيئًا مـا! شـيئًا غـير معـروف. لا سـبيل إلى معرفتـه ربمـا!" لـوَّحَ بيديـه، ثـم تجمَّـدَ وصالـب بينهـما بخنـوعٍ عـلى صـدره، وكأنـه فَـزِع بغتـةً مـن العواقـب الغامضـة لتلويحتـه.

تطلَّعـت أماليـا بكبريـاء إلى مـا وراء أبيهـا. حتـى مـن وراء القنـاع، كان بمقـدوري رؤيـة بـروز شـفتها السـفلى وقـد تغضَّنـت للخـارج في عبـوسٍ حَـرون.

"أماليـا، أنصتـي إليّ"، قـال دوفـت بوهـن. تنـاولَ يـد زوجتـه. مـا زالـت ابنتـه ترفـض تحديقتـه. ومَضَـت الشـمعة في عينيـه، ورأيـت باندهـاش أنهـا تمتـلآن بالدمـوع. "أحـاول أن أفهـم هـذا يـا أماليـا".

"ڤيليبالـد"، قـال صـوتٌ باعـث عـلى الاطمئنـان، "إنهـا تحـاول فحسـب...".

"سيدي"، صاح بيتر من الردهة، "ماذا بشأن البيانات؟".

تطلَّع ڤيليبالد إلى الباب. أومأ. "حسنًا، بيتر"، قال من فوق الرأس. "البيانات لها الأولوية حتمًا".

"الصبي كان يغنِّي"، قالت السيدة دوفت. انفجرت في نوبة سعال. نظرَ دوفت إليها في رعب.

ورائي، سمعتُ بيتر يغمغم، "... ثمانية... تسعة... عشرة"، ثم خربشة ريشة كتابة على رقٍّ عندما توقَّفَت عن السعال.

"غناء!" قال ڤيليبالد منقطع الأنفاس، بعد أن سُجِّلَت نوبة السعال بأمان. تطلَّع إليَّ. كنت أعرف من فيدر والصبيان أن الغناء قد يكون شيئًا رقيعًا أو مُخزيًا حتَّى. لكن للمرة الأولى في حياتي، خطرَ لي أن الغناء، كالحديث، قد يكون خطيرًا. "أبدًا لم نعرف الغناء. ماذا لو أفزعتَ قلبها؟" نظرَ دوفت إليَّ بغضب.

"لم يفزعني"، قال السيدة دوفت بأعلى ما تستطيع. "كان غناؤه بديعًا".

أردتُ أن أتسلَّق الفراش وأدعها تحتويني في ذراعيها.

«أكتب الآن 'إزعاج (غناء: صدمة قلبية محتملة)'«، جاء التقرير من الردهة.

أطلقت أماليا زفيرًا بصوتٍ عالٍ عبر أنفها.

«هل تكرَّم أحدكم وأغلق الباب؟» قالت السيدة دوفت.

تكرَّمَت أماليا بسرعة. وددتُ لو أتبعها؛ ذلك أنها تركتني مكشوفًا. لكن ڤيليبالد لم يهاجمني؛ خطا إلى زوجته. «عزيزتي، علينا أن نستبعد الحوادث العارضة. وحينها نستطيع أن نجد السبب، ومن ثمَّ العلاج».

«قلتَ ذلك من قبل»، قالت بضجر. «مرَّات كثيرة جدًّا».

«لكن شيئًا ما يربكنا دائمًا»، قال. «فور أن نكون مستعدِّين لبدء التحليل الحقيقي».

«ربما هذا مصيري. ربما لا يفترض لي أن أُشفى».

«لكن العِلم، يا عزيزتي».

"ربما". قالتها بيأسٍ شديد، لحدٍّ أن كلمةً واحدة مَحتْ كل أملٍ من وجه دوفت. هزَّ رأسه، لكنني لم أكن متأكدًا إن كان يعني بذلك مناقضتها أو مغالبة دموعه. تعجَّبتُ أنه الآن في غاية التداعي، بينما قبل ساعات، كان غنائي قد أثَّرَ على الكنيسة بأكملها ولم يمسَّه بأيٍّ شكل. تلكَّأت أماليا بالقرب من البابِ وحدَّقَت في الأرض.

مسحَ دوفت عينيه بظهر يده، وحاول أن يتكلَّم. "هذه المرة"، قال، "سأتأكَّد ألَّا يزعج عزلتكِ أحدٌ".

"لا مزيد من العزلة!" هذه المرة، كان صوت المرأة السقيمة أقوى عشر مرَّات من صوت زوجها. حتَّى أماليا رفعت بصرها في اندهاش، لكن حينها بدأت نوبة جديدة من السعال. أحنَيْنا رؤوسنا في صمتٍ تبجيلي حتَّى توقَّفَ السعال. في اللحظة التي استعادت فيها السيدة دوفت أنفاسها مجدَّدًا، تحدَّثت. "عندما سمعتُ هذا الصبي يغني، تذكَّرتُ أن هذا العالَم كان جميلًا ذات يوم".

أوشكتُ على أن أبدأ في الغناء مُجدَّدًا على الفور.

"سيكون جميلًا ثانيةً يا عزيزي، عندما تُشفَيْن".

هزَّت رأسها.

تحرَّكت أماليا بغتةً من سكونها. عَرَجَت نحو الفراش وأمسكت بيدي. "لكن ربما يشفيها هذا!" قالت.

بدا دوفت مرتبكًا. "ما الذي سيشفيها؟".

"هو، بغنائه". هزَّت ذِراعي المرتخي.

اشـتعلَ الأمـل، ذلـك الوحـش ذو الألـف حيـاة، في عينَـيْ دوفـت. تطلَّع إليَّ بفضـولٍ جديـد. "فكـرة شـائقة. لم أفكِّـر في التجريـب باسـتخدام الصـوت. سـيكون هـذا مسـار أبحاثنـا القـادم إذن. لكـن ينبغـي أن نبـدأ ببسـاطة أكـبر. غـدًا سـنقرع جرسًـا إيقاعيًّـا واحـدًا".

"لا أريد أن أسمع أجراسًا يا ڤيليبالد".

"لا يتعلَّق الأمر بما تريدينه يا عزيزي، بل بالخواص الصوتية".

"ڤيليبالد". كان صوتها مُرهقًا.

خطـا دوفـت جيئـةً وذهابًـا بخطـوات منتظمـة قصـيرة. "إنهـا مجـرَّد بدايـة"، قـال. "لجمـع البيانـات فحسـب. ثـم سـنضيف جرسًـا ثانيًـا، ونجـرِّب بحـدَّة الصـوت ودرجتـه، وهكـذا".

أسـقطت أماليـا يـدي. نخـرت بخفـوت، ثـم في يـأس، أغلقـت عينيهـا وغطـت أذنيهـا بيديهـا.

"هـل يفـترض أن أضيـع حيـاتي مـع الأجـراس في حـين يمكـن لصبـيٍّ الغنـاء بهـذا الشـكل؟"، كان صـوت السـيدة دوفـت قويًّـا مُجـدَّدًا، لحـدِّ أنـه أوقـفَ خطـوات دوفـت. "دعـه يـأتي ويُغنّـي لي. أجـرِ كل التجـارب التـي تريدهـا، لكنـه دعـه يُغنِّـي".

تجهَّـمَ دوفـت. "لكـن..."، تفكَّـرَ في كلماتهـا لوهلـة، ثـم هـزَّ رأسـه. "يسـتحيل احتـواء الصبـي يـا عزيـزتي. الجـرس جـرس؛ شيءٌ ثابـت. الصبيـان تتبـدَّل؛ ولهـذا فصوتـه لـن يكـون نفسـه بـين كل لحظـة وأخـرى. يقـول ڤولتـير...".

"أريد أن أسمع الموسيقى يا ڤيليبالد".

شرعَ دوفت في الخطو المنتظم مُجدَّدًا، ببطء أكثر من ذي قبل، وكأنه يخشى أن يُسقطه اهتزازٌ مفاجئٌ للمنزل. "ربما بمقدور بيتر تعلُّم العزف على البوق". تطلَّع ناحية الباب المُغلق.

"أنا أحتضر يا ڤيليبالد!".

جفلتُ عند الكلمة. كانت أسوأ كلمة في العالَم. تجمَّدَ دوفت. أدار وجهه ببطء إلى زوجته. تناولت أماليا يدي. اعتصَرَتها، وبشكل ما أدركتُ أنها تريدني أن أعتصر يدها بدوري. فعلتُ.

"أرجوك دعه يأتي"، قالت السيدة دوفت. "سيجعلني هذا سعيدة".

رفع ڤيليبالد قناعه ومسح أنفه بظهر يده. "ربما... وقت منظَّم... مُدَد معيَّنة".

"إنه صبي هادئ جدًّا. أهدأ من بيتر بكثير".

"سيكون علينا البدء ببطء".

"بالطبع".

"في حالة حدوث آثار سلبية".

"وسأكون أنا النَّسَّاخة"، قالت أماليا، وبدأ الضوء في هاتين العينين الزرقاوين في التوهُّج مُجدَّدًا. "يمكنني فعل ذلك أفضل من بيتر".

تطلَّعَ ڤيليبالد إلى ابنته. "أنتِ؟".

أومَأَت أماليا. تطلَّعت إليَّ، لكن ليس بحميمية- كان تحدِّيًا، وكأنها تقول، أترى ما فعلتَه أنت وصوتك؟ هل أنت مستعد؟

تطلَّعتُ من حولي ورأيت أن الجميع الآن يحدِّق إليَّ. كيف حدث هذا؟ بالطبع كنت أرغب في الغناء لهذه المرأة السقيمة، العطوف. ومع ذلك فهناك هذا الرجل القاسي والمرتعش، هذه المنزل الفخيم،

هـذه الفتـاة التـي أفقدتنـي إحسـاسي عندمـا أمسَـكَت بيـدي... لا، لا أنتمـي إلى هنـا.

"سوءٌ الأمر إذن"، قال دوفت. "سأرى رئيس الدير غدًا".

قبَّل جبين زوجته عبر القناع. ثم دفعني وأماليا نحو الباب.

"انتظر"، قالت السيدة دوفت. استدرنا.

"مـا اسـمك؟" قالـت لي. كانـت أمـي لتملـك هـذا الصـوت الرقيـق أيضًـا لـو كانـت تتكلَّـم.

"لا يستطيع التَّكلُّم"، قالت أماليا.

لكـن كان بمقـدوري التَّكلُّـم. "مـوسى"، قلـتُ، بصـوتٍ كالفـأر. اتَّسَـعَت عينـا أماليـا. "ليلـة طيبـة، سـيدة دوفـت".

(14)

"مـوسى"، كان كل مـا قالـه رئيـس الديـر عندمـا ظهـر عنـد بـاب غرفـة التدريبـات أواخـر الصبـاح التـالي. بصـقَ اسـمي وكأنـه شيءٌ كريـه ملتصـق بلسـانه، وظـلَّ الاشـمئزاز عـلى وجهـه حتَّـى بعدمـا لفظـه. اسـتدارَ أولرتـش والصبيـان إليَّ. أعتقـد أننـي حتَّـى لمحـتُ نظـرة شـفقة عـلى وجوههـم. تهـادت قدمـاي بصمـت عـبر الأرضيـة وانسـللتُ عـبر البـاب دون أن أديـر ظهـري إلى رئيـس الديـر.

كنـتُ عـلى يقـين أنهـم أخـبروه بغنـائي في غرفـة نـوم السـيدة دوفـت. أغلـقَ البـاب وتطلَّـع إليَّ مُنحنيًـا لأسـفل. اختلجـت أنفـه.

"الموسـيقى"، قـالَ، ومـع كل جملـة كانـت عينـاه الباردتـان تقتربـان أكـثر مـن وجهـي، "ليسـت عَقَـارًا شـافيًا. ليسـت شراب طبيـب. أُشـيِّد كنيسـة وليـس مستشـفى! ذلـك الرجـل أحمـق".

انتفضَ مُعتدلًا واستدارَ للنظر عبر نافذةٍ إلى الجُدران البيضاء البِكر لكنيسته. أجفله بريقها.

رفع إصبعًا ووضعها في وجهي. "لو لم يكن هناك سوى قلّة قليلة من الحجّارين الملاعين في هذه المدينة، كان المسألة لتنتهي تمامًا. لكنه يقول إنهم بحوزته- نصف دزينة بمقدوره إقراضهم لي. لماذا يساوي صوتك الكثير جدًّا له؟".

اضيقّت عيناه فيما يطرح هذا السؤال، وشعرتُ أنه يحاول قراءة الإجابة في التقاطيع الناعمة لوجهي.

مرَّ بنا راهبٌ مُبتدئ في الرواق. انحنى لرئيس الدير وحاول أن يمضي في طريقه، لكن الرئيس رفع يدًا أمامه. "اجلب لي الراهب نيكولاي"، قال. وانطلق الراهب المُبتدئ مُسرعًا. عادت تحديقة رئيس الدير المُستنكِرة إليَّ، وظلّت عِندي حتى سمعنا وقع خطوات نيكولاي المُتثاقِلة تُسرع عبر الرواق.

"أبتاه رئيس الدير"، قال، بتعبيرٍ جَزِع. انحنى مع خطوته الأخيرة. "هل توجد مشكلة؟".

رفعَ رئيس الدير جبينه الطويل لنيكولاي، وكأنه يقول، بوجود أمثالك في هذا الدير، هل تحتاج إلى السؤال حتّى؟

لكنه بدلًا من ذلك قال، ببطء شديد، وكأنه يُصدر أمرًا لخادم فلاح: "مساء كل خميس سيُغنّي هذا الصبي صلوات المساء في منزل آل دوفت. تأكّد من نظافته وارتدائه ما يليق بتمثيل الدير لدى أرقى عائلة في هذه المدينة".

"بالطبع"، قال نيكولاي. ابتسم إليَّ وشعَّثَ شعري. "في منزل آل دوفت! يا له من شرف!". ابتسمتُ له بخفوت. "أبتاه رئيس الدير"، وضع نيكولاي يدًا على ذراع رئيس الدير، "سآخذه إلى هناك بنفسي".

تراجعَ رئيس الدير وكأن نيكولاي قد أحرقه. "لن تفعل!".

"ليس بعيدًا، مجرَّد..." لـوَّحَ نيكولاي بيده وكأنها سمكة تسمح في اتِّجاه النافذة. هزَّ كتفيه استهانةً. "بمقدوري إيجاده".

كانت تحديقة رئيس الدير قاسية. أشار بإصبع نحو الإنشاءات في الميدان. "أنا على استعداد لمنح هذه الكنيسة إلى الإصلاحيِّين (البروتستانت) في أقرب فرصة، على أن أجعلك تسير مُستعرضًا نفسك في هذه المدينة في المساء. وكأنك تجلس في بهوهم!" ارتجف رئيس الدير.

كان من الواضح أن نيكولاي أصيب بخيبة أمل كبيرة، لكنه وضع يدًا على كتفي. "إذن فسأرسم خريطةً لموسى".

تطلَّع رئيس الدير إليَّ مجدَّدًا. "لا، أنت على حق. إنه في حاجة إلى مُرافق". أخذَ في لعقِ شفتيه وكأنه تناول قرصًا سكريًّا حامضًا. أومأَ. "الأخ دومينيكوس سيأخذه".

* * *

في تلك الليلة أبلغَ نيكولاي ريموس بالأخبار فيما نحن جالسون في صومعة نيكولاي.

«سأفعل ماذا؟» أمسك العابس بنصفَيْ كتابه المفتوح وكأنه يريد تمزيقه. خطا نيكولاي جيئةً وذهابًا أمامه. جلستُ أنا على الفراش.

«اصحبه حتَّى يجتاز بأمانٍ أخطارَ العالم»، قال نيكولاي، فيما يداه تُفرِّقان كَرْمات غابةٍ وهمية. أشارَ. «إلى منزل آل دوفت».

«لماذا أنا؟».

«أنت الوحيد الذي يتمتَّع بالشجاعة».

«ماذا يظنني شتاوداخ؟ بغل؟».

غمزَ نيكولاي لي. «لا أتصوَّر أنه يُقدِّرك عاليًا هكذا».

«لـن أفعـل هـذا. لـديَّ أشـياء أخـرى لأفعلهـا». تراجـع ريمـوس في مقعـده. ضغـطَ بكتابـه عـلى صـدره.

بـدا نيكـولاي مُتشـكِّكًا. "أشـياء أخـرى؟" أجـابَ ريمـوس تحديقتـه بالصمـت. "أوه، ريمـوس، افعلهـا مـن أجـل مـوسى".

"مـن أجـل مـوسى؟" قـال ريمـوس باسـتهزاء. "مـاذا سيسـتفيد مـوسى مـن هـذا؟".

تطلَّـع كلانـا إلى نيكـولاي. رغـم أننـي كنـتُ أتـوق للعـودة إلى ذلـك المنـزل الغامـض، البـاذخ، إلَّا أننـي كنـت مرعوبًـا. أنـا أيضًـا كنـت أودُّ لـو أعـرف لمـاذا ينبغـي أن أذهـب. لـوَّح نيكـولاي بيـده في اتِّجـاه النافـذة. "سـيرى العالَـم".

"العالم الواقع بين هنا ومنزل آل دوفت؟".

وقـفَ نيكـولاي أمـام النافـذة ونظـرَ مـن خلالهـا وكأنـه يتفحَّـص في الطريـق المـؤدي إلى المنـزل. هـزَّ كتفيـه اسـتهانةً. "جـزءٌ منـه، نعـم".

"جزء صغير جدًّا".

أجـالَ نيكـولاي يـده في الهـواء، مُبـدِّدًا ضباب ارتبـاك ريمـوس. "ريمـوس، لا بُـدَّ أن يبـدأ مـن مـكانٍ مـا. لا تريـده أن يَكـبُر ليصبـح راهبًـا مثلـك بالتأكيـد؟".

كان نيكـولاي أقـربَ مَـن لعـبَ دور الأب في حيـاتي طـوال هـذه السنين، وفاجأتنـي كلماتـه. كانـت المـرَّة الأولى التـي أفكِّـر فيهـا في أيِّ مسـتقبل بخـلاف الحيـاة في الديـر كراهـب. مثـل ريمـوس. مثـل نيكـولاي.

تطلَّـع ريمـوس إليَّ بتجهُّـم. "ولمـاذا أهتـمُّ بمـا قـد يصـير إليـه؟" لكنـه عندمـا قالهـا، نظـرَ إلى الأرض في خجـلٍ مُقنِّـع بشـكل بائـس، ورأينـا جميعًـا أنـه، أيضًـا، كان مُتورِّطًـا في حيـاتي.

ابتسمَ نيكولاي. "موسى"، قال، "ألا ترى؟ ريموس خائف".

تنشَّقَ ريموس.

"ترى، هناك نساء في ذلك المنزل". غمزَ نيكولاي. "لا تقلق، سأتحدَّث معه. هذا خوفٌ لا بُدَّ له أن يتجاوزه".

* * *

وبالفعل، في الثلاثاء التالي، بعد أن أحضرني نيكولاي من التدريبات وغَسلَ وجهي ومشَّطَ شعري، وقف ريموس هناك، مرتديًا قُبَّعة وعباءة، ويحمل حقيبةً ممتلئة بالكتب وكأننا سنسافر لأيامٍ طويلة، وكأن نفاد الكتب يعادل نفاد الهواء. في اليوم الأول، أمسكَ بخريطةٍ في يده، وعند كل ناصية شارع كان يديرها مرارًا وتكرارًا وكأنه يحاول فكَّ شفرتها. "هذه الشوارع اللعينة"، يغمغم. "يبدو أنها تمضي في دوائر. لماذا لا يجعلونها تبدو كما هي على الخريطة؟ كنتُ أتبعه بخطوةٍ وراءه وأُنصت بانتباه. في الأسابيع التالية، عقدنا ميثاقًا. يمسك بكتابٍ أمام عينيه ويسير. عندما أسمع سكِّين الجزَّار، أدفعه إلى اليمين؛ وإلى اليسار عندما أسمع مطرقة الحدَّاد. عندما أسمع الباعة يصيحون في السوق، أقوده إلى التَّلِّ المنبسط.

دلفنا إلى منزل آل دوفت من نفس الدهليز الذي ضلَّلني في المرَّة الأولى. تخيَّل منزلًا تُقشَّر حوائطه ويُعادُ طلاؤها كل يوم، تُعلَّق لوحاته وتُنزَع مرارًا وتكرارًا، تضاف أو تزال سلالمه وأبوابه حسب المزاج. هكذا كان الحال معي في هذه المنازل ذي الأصوات المُتبدِّلة دومًا. من بقعةٍ في الجدار حيث أسمع يومًا يدًا تضرب منضدة، أسمع في الأسبوع التالي قعقعة قدور، ومن بقعة أخرى حيث أسمع يومًا الهمس الخافت لخادمة، أسمع في الأسبوع التالي الصوت الأجش لكارولين دوفت.

في كل أسبوع كنتُ أقاد إلى البهو، حيث كانت أماليا تجلس دائمًا على مكتبٍ بجوار أبيها؛ ذلك أن زيارتي كانت تتزامن دائمًا مع دروسها في الفلسفة، المادة الوحيدة التي لم يَعهَد بها أبوها إلى الممرِّضة الفرنسية البضَّة ماري. يا له من ارتياحٍ ذلك الذي كان يجتاح وجه صديقتي الشابة عندما أظهر! في ثوانٍ، تتلاشى الفلسفة ويحمرُّ هذان الخدَّان. تنهض عن عملها وتُحيِّي راموس، الذي يمدُّ كتبه إليها كدرعٍ واقٍ. يأخذ مقعدًا بعيدًا عن كارولين قدر الإمكان. ثم تومئ أماليا إليَّ، كمُضيِّفة وقورة حقيقية، وتقودني عبر رواق. فور أن نبتعد عن مجال سمع أبيها وكارولين، تتناول يدي وتُبطئ من خطوتها حتَّى تطيل المسافة إلى غرفة أمِّها؛ ذلك أنها تكون المرَّة الوحيدة طوال الأسبوع بأكمله التي يكون كلانا بمفرده، مع شابٌّ آخر من عمره له أن يدعوه صديقًا. كانت تتولَّى معظم الحديث، مُقلِّدةً تقريعات كارولين القاسية، "هذا لا يحدث، أماليا دوفت، في هذا المنزل"، أو حاكيةً لي كيف ستهرب- إلى سفينة قراصنة أو قبيلة من الإسكيمو، أو تتخفَّى كصبيٍ وتدرس الفلسفة في جامعة (*collège*) في باريس. أحيانًا ما كانت تُوقفني في طريقنا؛ ذلك أنه حتَّى خطواتنا المتباطئة كانت سريعة جدًّا على عقلها المُتفجِّر. ذات أسبوع، أرَتْني جمجمةً قالت إنها لإنسان (لكنها بدت كجمجمةٍ لواحد من الخنازير التي يحتفظ بها أبوها). في الأسبوع التالي عرَضَت عليَّ لوحةً رسَمَتها لملكٍ أفريقي. في زيارةٍ أخرى، ترجَمَت مشهدًا داميًا من ملحمة إغريقية كان أبوها قد قرأها عليها بالفرنسية.

شيئًا فشيئًا بدأتُ في إدراك أن السقطة التي شوَّهت جسدها قلَّصت من حريتها أيضًا. مثلًا، ذات أمسية دافئة، بعد أن انتهيتُ من الغناء، أشارت أماليا بخجلٍ على أبيها أنها تودُّ رؤية تَقدُّم العمل في الكنيسة: ستمشي مع ريموس ومعي إلى الدير وتعود قبل الظلام. "أعرف الطريق"، قالت.

كان أبوهـا منغمسًـا في الأعـمال وغمغـمَ فحسـب، "حسـنًا عزيـزتي، هــذا جميـل".

لكـن كارولـين لم تتجاهـل الأمـر. أمسـكت بنـا عنـد البـاب. "أماليـا!" هتفـت. "مـاذا تظنّـين؟".

أخبرتها أماليا أنها ترغب في رؤية الكنيسة.

"الأحـد"، قالـت كارولـين، متناولـةً يـد أماليـا ومُعيـدةً إيَّاهـا إلى داخـل المنـزل. "الأحـد بمقـدورك الذهـاب معـي".

"لكننـي لا أريـد الذهـاب معـكِ!" أجابتهـا أماليـا بسرعـة، وانتزَعَـت يدهـا.

"أماليـا"، عاتَبَتهـا كارولـين هامسـةً، "هـل نسـيتِ مـاذا حـدثَ لـكِ في آخـر مـرَّة خرجـتِ فيهـا بمفـردك؟" نظَـرَت إلى ركبـة أماليـا وكأن الإصابـة تتوهَّـج عـبر نسـيج فسـتانها. "هـل تريديـن ندبـةً أخـرى؟".

استدارت أماليا وقد احمرَّ وجهها بهوانٍ غاضب.

قـادت كارولـين ابنـةَ شـقيقها بعيـدًا. "غـدًا"، قالـت فيـما تختفيـان في غرفـةٍ أخـرى، "سـتأخذكِ مـاري في العربـة. لا تريديـن أن يحـدِّق الجميـع في عَرجِـك، أليـس كذلـك؟".

* * *

في لقائنـا الثـاني، قادتنـي أماليـا عـبر الأروقـة وهـي صامتـة، مُتجهِّمـة الوجـه. تزمجـر بـشيءٍ مـا فيـما تطلـق أنفاسـها. تَبعتُهـا بعصبيـة وهـي تعـرج أمامـي- حتَّـى توقَّفَـت بغتـةً في ممـرٍّ هـادئ. "لـن أمـضي خطـوةً واحـدة أخـرى"، قالـت بسرعـة، "حتَّـى تقـول لي سـت كلـمات عـلى الأقـل".

لا بُـدَّ أننـي بـدوتُ مرتبـكًا. نغزَتنـي في صـدري وتحدَّثـت ببطـء وكأنني طفـل صغـير. "وهـذا يعنـي كلمـة واحـدة أكـثر مـمَّا تحدَّثـتَ إلى أمِّي".

حاولتُ أن أتحدَّث حينها، حاولتُ حقًّا -سمعتُ في مُناشدتِها نفس الوحدة التي كانت تسيطر على وجودي- لكنني لم أستطع. استغلق عليَّ الكلام. حدَّقتُ بخواء في الجدار خلفها، وكأن السِّرَّ المقدَّس لخلق الصداقة كان مكتوبًا هناك، لكنه مُسجَّل بلغةٍ أجنبية. انتظَرَتْ بالكاد ثلاثين ثانية قبل أن تُغمغم، "الصبيان أغبياء جدًّا"، وجذبتني قُدمًا.

في زيارتي الثالثة أو الرابعة، أدركتُ أن السِّرَّ لا يكمن بالضرورة في الكلام لكن في الصمت. صرتُ أبتسم للقصص التي تختلقها، وأضحك عندما تُقلِّد عمَّتها ساخرة. كانت تُمسك بيدي دائمًا، وكثيرًا ما تدفعني إلى الجدار فيما نمشي، وبالتالي أضطر للالتصاق بها. سرعان ما وجدنا في دفء يدَيْ بعضنا البعض، في احتكاك أكتافنا، بل وحتَّى في العِناقات العابرة- بعض الإشباع لحاجة الطفل للمسةٍ، وهو ما كان يفتقده كلانا: أنا لأنني يتيم، وهي، بأمِّها المريضة، وأبيها الذي لا يستطيع العناق دون تحليل حبِّه بالأوزان والقياسات.

عندما نصل أخيرًا إلى باب أمِّها، كان بيتر دائمًا ما يقدِّم لأماليا قناعَين من الفحم، وورقة فارغة، وريشة كتابة، ومحبرة، ويطلب منَّا التَّمعُّن في بيانات اليوم الثمينة. كان سلوكه تجاهي قد تغيَّر بالكامل منذُ بدأت العمل حسب العِلم، وليس ضدَّه. "تضرَّرتَ من المَطر؟" كان يسأل، ثم يتفحَّص خدَّيَّ وكأنه يلاحظ تورُّمًا. "لم تتناول أي بطاطس، أليس كذلك؟"، كان يقول عن النبتة العجيبة. "تصيبك بالجُذام، آمل أن تدرك ذلك". ثم يصرُّ على أن أصعد على ميزان، ويسجِّل وزني في دفاتره. في النهاية، دائمًا ما يتمعَّن في حلقي قبل إبداء الإيماء الأخيرة أن بمقدورنا المُضيَّ عبر الباب.

في الداخل، بمصباح السقف مُضاءً، وشموع كثيرة موضوعة في أرجاء الغرفة، كان بمقدوري رؤية أن وجه السيدة دوفت كان جميلًا ذات يومٍ كوجه أمِّي، قبل أن يتراخى الجلد على العظم وتغور العينان.

كانـت ابتسـامتها مـا تـزال دافئـة رغـم ذلـك، وصوتهـا، باسـتثناء نوبـات السـعال الشـديدة، كان يُهدِّئنـي تمامًـا لحـدٍّ أن غرفتهـا صـارت المـكان الوحيـد في العـالم، بعـد بـرج الكنيسـة وصومعـة نيكـولاي، الـذي أشـعر فيـه بالأمـان حقًّـا.

تضـع أماليـا الريشـة والورقـة عـلى منضـدة (تختلـق البيانـات لاحقًـا) وتجلـس بجـوار أمِّهـا. أحيانًـا مـا كانـت تميـل عـلى الفـراش برأسـها عـلى حِجـر أمِّهـا بحيـث تسـتطيع السـيدة دوفـت تمسـيد شـعرها. لوهلـةٍ، عـلى الأقـل، تكونـان كـما أتخيَّـل دائمًـا لأمٍّ وطفلهـا أن يكونـا، وليسـتا حياتـين وحيدتَـيْن دمَّرهـما المـرض وباعـدَ بينهـم العِلـم.

في غرفـة النـوم تلـك غنَّيـتُ بعضًـا مـن أسـوأ أداءات حيـاتي وبعضًـا مـن أفضلهـا. ذلـك أن الموسـيقى التـي نُغنِّيهـا في الكنائـس، رغـم جمالهـا في كثـيرٍ مـن الأحيـان، لم تُكتـب لسـوبرانو في العـاشرة مـن عمـره يغنِّـي منفـردًا في غرفـة نـوم. لأن أولرتـش لم يكـن مُهتـمًّا بمسـاعدتي عـلى التحضـير لهـذه الحفـلات الخاصـة التـي لـن يسـمعها بنفسـه، كنـتُ أنشـدُ أغنيـاتي مُتسـلِّحًا فحسـب بالموهبـة السـاذجة التـي كانـت أمِّـي تطـوِّح بهـا مطارقهـا. كثـيرًا مـا تعـثَّرتُ، مُـدركًا بالغريـزة فحسـب كيـف أبـدِّل المقـام أو أنتقـل مـن نشـيدٍ جريجـوريٍّ هـادئ إلى مقطوعـة مُبهرجـة لڤيڤالـدي. يـا لـه مـن فسـوق ذلـك التـي ارتكبتـه في غرفـة النـوم تلـك! كنـتُ أمـزِّق الابتهـالات ثـم أعيـد ترميمهـا، أقطـع المزامـير إلى نصفـين، أخلـط اللاتينيـة بالألمانيـة، وأشـوِّه اللغتـين، وكل هـذا خـارج الكنيسـة أو كنيسـة المنـزل، كل هـذا في غرفـة نـوم صغـيرة، معتمـة.

في سـنواتي اللاحقـة، أدركـتُ أنـه في غرفـة السـيدة دوفـت كان أن اكتسـبتُ الأدوات الضروريـة التـي افتقدتهـا في تدريبـي في سـانت غـال. ذلـك أنـه في نابـولي المشمسـة، حيـث يتـدرَّب الصبيـان أمثـالي في الكونسرڤاتـوار النابوليـونيِّ العظيـم، حيـث يتعلَّمـون إنشـاد ألحـان الآريـا

في سان كارلو أو تياترو دوكال، فإنهم لا يتعلَّمون فقط إتقان التنفُّس ووضعية الوقوف والنَّغَم -كان أولرتش أعظم مُعلِّم بينهم جميعًا في هذه الناحية- لكن أيضًا اختراع الموهبة. بعد عشرين عامًا، في سان كارلو الصاخبة، سأستطيل بلحن آريا من ستِّ جُملٍ فقط إلى خمسة وعشرين دقيقة؛ ثم بعد عشر دقائق من التصفيق، أفعلها ثانيةً بلا تكرار. لكن في غرفة نوم السيدة دوفت، كنتُ فحسب أبدأ بالشعور كيف تُكتَب الأغاني، وكيف يمكن بالتالي محوها، وتحسينها، وإنارتها وإظلامها، وتمديدها وتخفيفها- أو قَلْبها بحيث تسخر من نفسها. باستخدام نفس النغمة، جعلتُ السيدة دوفت تبكي حينًا، وتبتسم حينًا آخر. إذا تقتُ للغناء عاليًا، بتكرارات وتسجيعات سريعة، فلا بأس. إذا كنتُ في مِزاج قاتم، أبدأ بأناشيد نيكولاي من صلوات المساء والاستطالة بها حتى تغرورق عيون السيدة دوفت وأماليا، تلك العيون التي تحلم الاثنتان وراءها بعالَمٍ مثالي.

عندما أغنِّي بهدوء كانتا تصمتان، باستثناء صفير أنفاس السيدة دوفت. ثم مع ارتفاع صوتي، أسمع أعلى نغماتي في المصباح فوق رأسي، وفور أن يبدأ ذلك الزجاج بالرنين، أُنحِّي أصوات فمي، باحثًا عن نغمة مميَّزة مختلفة بعض الشيء. كان كل شيء يعتمد على الأغنية، أو على الطقس، أو على المزاج المُتقلِّب لتلك الفتاة الصغيرة. أحيانًا ما كان صوتها ينضمُّ لصوتي كقوس كمان ينسحب برفقٍ على وتر، وحينها أجاهد لدفعه قُدمًا، ناحتًا أُغنيتي بحسب شكلها البشري. لم تكن واعية بذلك- لم تستطع سماع نفسها؛ ذلك أن صوتي كان أعلى من الرنين الخافت لجسدها. لم تشعر بالأمر سوى كدفء. كان تحتضن نفسها عندما يصدح صوتي. تتعلَّم معي، تُدرِّب كلَّ نسيجٍ -من خدَّيها المستديرَيْن وحتَّى تَقوُّس قدميها- على سماع الدرجات المختلفة لأغنيَّتي. وفي أيَّامٍ نادرة، عندما تكون السيدة دوفت في أعلى درجات وعيها، كنتُ أسمع في الأم، أيضًا، صدى بعيدًا للابنة.

(15)

كان أولرتـش حانقًـا بشـدَّة. بالطبـع، لـو كان مريضًـا في الفـراش، فـإن الـدواء الوحيـد الـذي كان ليتمنَّـاه هـو أن أغنِّـي لـه أغـاني بـاخ المُهرطِقـة، لكـن هـذا لم يمنعـه مـن الاحتجـاج في المـرَّة التاليـة التي جـاء فيها شـتاوداخ لإلقـاء نظـرة عـلى تدريباتنـا. "أبتـاه رئيـس الديـر"، همـس أولرتـش حتَّـى لا يسـمعه الصبيـان، "إنــه مهـمٌّ جـدًّا للجوقـة. لقـد اخـترت المقطوعـات خصِّيصًـا لصوتـه. لا يمكننـي إنجـاز شيء بدونـه، حتَّـى ولـو لظهـيرة واحدة".

"هــذا مـن أجـل الكنيسـة"، قـال رئيـس الديـر. "مـن أجـل الكنيسـة". أدارَ خاتـم الياقـوت عـلى إصبعـه.

"أرسِلْ صبيًّا آخر إذن يا أبتاه. أيَّ صبي عداه".

"مـا شـأن هـذا الصبـي؟" قـال رئيـس الديـر عـبر أسـنانٍ مُطبَقـة. كـوَّرَ قبضتَيْــه وكأنــه يريــد اقتنــاصي بمخالبــه. "آل دوفــت لا يريــدون صبيًّــا

آخر. حاولت بالطبع إرسال رجل حقيقي. والآن تقول إنك لا تستطيع الاستغناء عنه. لماذا لا يمكنك تعليم الصبيان الآخرين الغناء مثله؟".

بفمٍ فاغر، هزَّ أولرتش رأسه، تاه منه ما ينبغي قوله. "أبتاه رئيس الدير"، غمغم أخيراً، بتوسُّلٍ كالأطفال على وجهه، "أرجو أن تعيد التفكير".

"من أجل الكنيسة"، قال رئيس الدير بحسم. "ذلك أنها ينبغي أن تسبق الآن كل أفكارنا".

* * *

وكيف لها ألَّا تسبق أفكارنا؟ كانت التماثُل المُتقَن لبُرجَيْ الكنيسة يحوم مهيمنًا على ميدان الدير. في الأيام المشمسة، كان وهج الحجارة البيضاء يدفعني لحَجْب عينَيَّ. "نصف مليون غولدن"، هسَهسَ ريموس ذات ليلةٍ لنيكولاي. "هل لديك أي فكرة أيُّ مبلغ هذا؟".

"هي محاولة لهدم كنيسة عمرها ثمانمائة عام وتشييد أخرى مثالية"، أجابَ نيكولاي واحتسى رشفة نبيذ. جثمَ على مقعده وارتفع مِرفقه، لوهلة كان راقيًا كأمير. "كنت لتُنفق أكثر لو شيَّدتَها أنت. ربما يُجبر شتاوداخ هؤلاء البنَّائين على العمل مقابل أمان أرواحهم فحسب. في العادة يطلبون من الأوغاد أمثالك أن يدفعوا لهم الضعف".

"ليست مسألة كيف أفعلها"، قال ريموس. "أنت لا تنصت لما أقوله. لا أحد من الرهبان يُنصت".

"أتساءل لماذا؟" غمزَ لي نيكولاي. كتمتُ ضحكةً.

"كل غولدن جاء من جيب مُزارع أو نسَّاج"، تابعَ ريموس. "بعضهم لم يتبقَّ له شيئ ليأكل به بعد دفع ضرائبه. ماذا سيمنحهم في المقابل؟".

كان نيكولاي في حاجة للتفكير لوهلةٍ فقط. "الجَمال"، قال بإيماءة، وكأنها إجابة لا جدال فيها.

"الجَمال؟" قال ريموس. تطلَّع إليَّ. "الجَمال؟".

استدار كلانا إلى نيكولاي. لم أمسك قطُّ بغولدن واحد في حياتي. أردتُ أن أعرف، وريموس كذلك، كيف يمكن للجَمال أن يساوي نصف مليون غولدن.

أخذَ نيكولاي نَفَسًا عميقًا وأنزلَ عويناته. "ريموس"، قال. "موسى. لا تظنَّ أنني أحبُّ ذلك الرجل. لا أحبُّه. يثير اشمئزازي. إنه كالنبيذ الذي يُحتَسَى بعد فوات أوانه بعشرة أعوام. لكنه أصابَ في شأن هذه الكنيسة. ألم تَرَوها؟" أشارَ نيكولاي إلى خارج النافذة، حيث حتَّى في ضوء القمر الكابي كانت الكنيسة البيضاء تسطع وكأن شموعًا تحترق داخل أحجارها. "ما يُنجزه هو عمل الرب، ورغم أن شتاوداخ قد يكون أحمق في تعامله مع أقرانه من بني البشر، إلَّا أنه يفهم الرَّبَّ كما ينبغي". كان وجه نيكولاي منبسطًا ومبتهجًا وكأنه لمح ملاكًا يحوم فوق على الكنيسة. "الرَّبُّ جميل. إنه مثالي. ويُلهمنا أن نكون جميلين ومثاليِّين بدورنا. لسنا كذلك بالطبع؛ ولهذا بالضبط نحتاج إلى الجمال في حياتنا: لتذكيرنا كم نستطيع أن نكون أخيارًا. لهذا ننشد. لهذا يغنِّي موسى. ولهذا يشيِّد شتاوداخ كنيسة مثاليةً من أجلنا؛ ذلك أنه إذا أدركنا الجَمال المثالي، بأعيننا وآذاننا، ولو لثانية واحدة، فسنقترب بمقدار تلك الثانية من أن نكون جميلين ومثاليِّين". فيما يُنهي نيكولاي كلامه وضع يدًا على قلبه، وأبدى إيماءةً نهائية للتأكيد على موعظته. وجدتُ نفسي أجيبه بإيماءةٍ؛ ذلك أنني لم أكن أرغب في شيءٍ أكثر من أصير مثل هذه الموسيقى الجميلة التي أغنِّيها، مثل هذه الكنيسة المثالية التي ترتفع من أحجارٍ صمَّاء.

"يا له من عفن غبي"، قال ريموس. نظر إلى كلينا بتجهُّم وتناول كتابه مُجدَّدًا. "نصف مليون غولدن".

* * *

لكن نيكولاي أصابني بالعدوى. هل ستجعلني هذه الكنيسة نقيًّا؟ راقبتها تنمو بتوقٍ عُصابي، شهرًا بعد شهر: أُنجِزَ البرجان، ووُضِعَت الألواح الحمراء على السقف. اكتمل تشييدها تقريبًا حينها، وتسرَّبت أخبار الافتتاح إلى الدير كوعدٍ بمعجزة. سيأتي الآلاف ليَشهدوا الحدث العظيم، من الكونفدرالية السويسرية ومن النمسا. سيباركنا شتاوداخ بقُدَّاسٍ صباحي. ثم سنخرج في مسيرة عبر أراضي الدير، قبل العودة من أجل الإكمال الرمزي للكنيسة: نقل آثار الكنيسة المُقدَّسة إلى مكانها في القبو. وبعدها، عندما يُوضع رأس أوتمار المُقدَّس، شَعْر القديس إراسموس، وأضلاع القديس هياسينثو وجُذاذات أخرى كثيرة من الشعر والعَظْم في مُستقرِّها، سيُتوَّج اليوم بأغنية المجد (أيَّتها الآلهة *Te Deum*) البديعة لشاربنتييه. كان أولرتش قد أرسلَ إلى إنسبروك في طلب أربعة مؤدِّيي صولو معروفين لغناء الأجزاء الصعبة. كان مُقرَّرًا لي أن أُغنِّي في الجوقة.

لكن حينها قرأ شتاوداخ رسالة أولرتش إلى إنسبروك كابلمايستر واكتشفَ أن أولرتش ينوي وضع مؤدٍّ ذكر ذي صوت عالي الطبقة في السوبرانو المعتدل ومؤدي موزيكو (*musico*) في السوبرانو. اقتحم شتاوداخ غرفة التدريبات ذات مساء فيما أتدرَّب منفردًا مع أولرتش. كان قائد الجوقة يحتويني في عناقٍ، برأسه على صدري، ويداه تداعب التجاويف وراء أذني. عندما دخل شتاوداخ، فاتحًا الباب بعنف، تراجعَ، وتطوَّحتُ أنا من على مقعدي.

"لا تقصد طواشيًّا؟ ليس نصفَ رجل!" جأرَ شتاوداخ كالثور، ملوِّحًا برسالة أولرتش كأمر إعدام.

تنهَّد أولرتش، لكن من الواضح أنه كان مُستعدًّا لهذا الجدال. "نعم، أبتاه رئيس الدير. هذا هو الموزيكو. طواشي (*evirato*)". أومأَ أولرتش لي وكأنه يفترض بي أن أوافقه، لكن عيناي اتَّسعتا فيما أحاول تخيُّل هذا الكائن العجيب الذي وصفه لتوِّه.

"في كنيستي؟" تلعثمَ رئيس الدير. "في افتتاحها؟".

"إنهم يغنُّون في كنيسة سيستين الصغيرة، أبتاه رئيس الدير".

كان وجه شتاوداخ قد تحوَّل إلى الأحمر الداكن. "هذه الكنيسة"، قال ببطء، "هي كنيستي وليست كنيسة سيستين، أخ أولرتش".

تطلَّع أولرتش إليَّ وكأنه يطلب رأيي في هذه المسألة. انكمشت خوفًا من نظرات رئيس الدير.

"بمقدوري الوعظ أمام نصف مذبح"، قال شتاوداخ، "ملوِّحًا بالرسالة مُجدَّدًا. "إنهاء نصف السقف. نزع نصف المقاعد في الكنيسة. لكن نصف رجل لن يغنِّي في كنيستي!".

"أصواتهم جميلة...".

"الكَمال جميل"، قال رئيس الدير. حدَّقَ بازدراءٍ في أولرتش المُحتجِّ، وكأن كلماته وحدها بمقدورها أن تُفني الطواشيِّين من كل كنائس العالم. تطلَّع إليَّ أخيراً بجوار مقعدي وتعمَّقَ نخيره. "اجلب رجلًا كاملًا لغناء ذلك الجزء".

"مؤدُّو الطبقة العالية لا يلائمون السوبرانو الأول في مقطوعة شاربنتييه"، قال أولرتش، محاولًا مُجدَّدًا. "الموسيقى عالية جدًّا. لا بُدَّ أن يكون المغنِّي... ملائكيًّا. ربما نفكِّر... في... امرأة ربما؟".

برزت عينا شتاوداخ. سرعان ما لوَّح أولرتش بيده مُستبعدًا هذا الاقتراح.

"إذن فلنحذف هذا الجزء".

انحبست أنفاسي في حلقي عند سماع هذه الكلمات. كان بمقدوري رؤية أولرتش يحاول إخفاء ردٍّ فعلٍ مشابهٍ. "نحذف السوبرانو الأول؟" قال مُتلعثمًا.

"أو لنُغنّه بطبقة منخفضة".

كان أولرتش صامتًا. هزَّ رأسه.

مزّقَ شتاوداخ رسالة أولرتش إلى جُذاذات، باصقًا كلماته مع كل تمزيقة. "لن أسمح. بدخول. طواشيٍّ إلى كنيستي!".

"أبتاه رئيس الدير، لا أرى...".

تطلّع شتاوداخ إليَّ. "يمكنه غناء ذلك الجزء". قال تلك الكلمات وكأنها اتِّهام.

عند هذا، فقدَ أولرتش ثباته بالكامل. حدَّق إليَّ فاغرًا فاه، ثم في شتاوداخ. "الصبي؟" قال باندهاش.

"تقول إنه جيد".

"نعم. إنه عظيم. لكن...".

أومأ شتاوداخ. "حسن. إذن فقد حُسمَ الأمر".

"لكنه غير جاهز للغناء مع محترفين"، قال أولرتش. "إنه في العاشرة من عمره".

كان شتاوداخ حاسمًا. أشارَ إليَّ مجدَّدًا. "إمَّا هو، أخ أولرتش، أو لِتُعِد كتابة ذلك الجزء ليُعزف بالبوق"، قال واندفع خارجًا.

* * *

وهكذا تحدَّدَ ظهوري الأول على مسرح: سأغني سوبرانو (*Te Deum*) لشاربنتييه في افتتاح الكنيسة. هرعتُ لإخبار نيكولاي. "شاربنتييه!" قال. رفع بصره عبر سقف صومعته وكأنه هذه الأخبار

قـد منحتـه القـدرة عـلى النظـر مباشرةً إلى السـماء. "ريمـوس! هـل تتذكّـر؟ في رومـا!".

هـزَّ ريمـوس كتفيـه اسـتهانةً، وقـال إنـه ليـس متأكـدًا. لكنـه ابتسـمَ لي، وهـو مـا كان نـادرًا للغايـة لحـدٍّ أنـه دغدغنـي بالخجـل. "هـذا شرف كبـير يـا مـوسى"، قـال. "ينبغـي أن تكـون فخـورًا جـدًّا".

"سيكون عظيمًا"، أضاف نيكولاي وعبثَ بشعري.

حينهـا، للمـرة الأولى في حيـاتي، بهذيـن الوجهـين المُبتسـمَيْن يحدِّقـان إليَّ، شـعرتُ بذلـك الخـوف الموسـوس يتصاعـد داخـلي مـع إدراكي أنـه إذا كان بمقـدوري أن أكـون عظيـمًا، فقـد أكـون كارثـةً أيضًـا. قـد يكـون في هـذا خَلقـي، أو فنـائي.

كان تفكـير أولرتـش مشـابهًا لحـدٍّ كبـير. لم ننشـغل بـشيءٍ آخـر في الأشـهر التاليـة. أسـتيقظ في منتصـف الليـل بسـوبرانو الحركـة السادسـة منفـردةً في رأسي، يملـؤني القلـق كيـف سـيملأ صـوتي تلـك الكنيسـة المهولـة. كان أولرتـش يخـشى مـن تـضرُّر حلقـي الرقيـق بسـبب الغنـاء بجانـب رجـال بالغـين، وهـم رجـال برئـاتٍ أكـبر أربـع أو سـتّ مـرات مـن رئتـي. لكـن أبـدًا لم يوجـد رجـل مثـل أولرتـش يعـرف جيـدًا كيـف يجعـل الجسـد يُجلجـل بالصـوت. في الأسـابيع السـابقة عـلى ظهـوري الأول، كانـت يـداه تخلـط تشـجيعها باسـتماتةٍ متزايـدة، فيـما يصـل أعمـق داخـل جسـدي ويعلِّمنـي كيـف أغنـي كرجـل بالـغ.

مـن أجـل الافتتـاح، كان شـتاوداخ عـلى ترقُّـب لثمانيـة عـشر رئيـس ديـر سـويسري، إلى جانـب أسـاقفة مـن كونسـتانس وبيتـيرا. "وعـدوني بجلـب موسـوعة (Encyclopédie) ديـدرو"، قـال ريمـوس، كان يتحـدَّث عنـد وفـد چنيـڤ.

"ماوسوعة (encyclopody)؟" سأله نيكولاي، مُشوِّهًا الكلمة الفرنسية. "هل هو نوع من الحشرات؟ أرجوك، لا تحضرها إلى هذه الغرفة".

وذات ليلة، نجحَ أولرتش في إرعابي أكثر. "موسى"، همسَ، وكأنه يخشى أن أحدهم يتنصَّت عند الباب. "لقد كتبتُ إلى شتوتجارت. أريدهم أن يعرفوا بك. لا يوجد مكانٌ أفضل للموسيقى من شمال جبال الألب، سيرسلون برجل، إيطالي، لا بُدَّ أنه يعرف شيئًا عن الموسيقى وإلَّا ما كان اختاروه". مدَّ يده ولامسَ خدِّي بإصبعه. توتَّرتُ بفعل اللمسة الباردة والميتة. "موسى، هل تودُّ أن تسافر يومًا إلى تلك المدينة معي؟ هل تودُّ أن تغني أمام الدوق كارل إيوجين؟" أنهى حديثه بشفتيه ليستا بعيدتَيْن عن شفتيَّ. ارتجفتُ من فكرة الذهاب معه إلى أيِّ مكان.

ثم ذات نهار ظهرَ نيكولاي عند عتبة غرفة مهجعنا فيما الصبيان يتهيَّؤون للنوم. بدا غاضبًا للغاية. "موسى، تعالَ معي"، قال بصوتٍ غليظ وجاد. "أوامر رئيس الدير. ستُحضر كل شيء لديك". لم أتحرك لبضع ثوانٍ، لكنه غمزَ لي وابتسم. "لكنني جاد بشأن إحضار كل أشيائك"، قال. "لديَّ مفاجأةٌ لك". جمعتُ حفنة ملابسي القليلة بين ذراعيَّ- لم يكن لديَّ أيُّ شيء آخر نجا من تدمير الصبيان الآخرين.

"استمتع بوقتك"، همسَ توماس بشكل لاذع فيما أغادر، وكان آخر صوتٍ سمعته كان ضحكات مكبوتة متناثرة. تَبعتُ نيكولاي صاعدًا الدَّرج، ثم مررنا بطابقه وتابعنا طريقنا إلى العلِّيَّة. فتح الباب على غرفة صغيرة جدًّا بفراش تحت نافذة مربَّعة ولا شيء آخر سوى مرآة على الحائط.

"يقول أولرتش إن الفنان يحتاج إلى الهدوء"، قال نيكولاي، "وتمكّن من إقناع رئيس الدير. هذه غرفتك! لا يُسمح لأحدٍ بدخولها إلّا بإذنك- ولا حتّى أنا". ثم قبّلني على جبيني وانصرف. أغلقَ الباب.

وقفتُ هناك مذهولًا، بصُرّة الملابس على ذراعيّ. حدّقتُ في الباب المُغلق وأنصتُّ للصمت. بمفردي، فكّرت، عليّ أن أعيش بمفردي؟ هل هذا ما يعنيه أن تكون فنّانًا؟

أسقطتُ ملابسي على الأرض وبدا صوت سقوطها كقصف رعد. صعدتُ إلى الفراش وضغطتُ بأنفي على النافذة. التمعت الكنيسة الجديدة في ضوء القمر المتناثر. تطهّرتُ بفعل مظهرها. كان مثاليًّا، وبمقدوري أن أكون كذلك أيضًا. تخيّلتُ صوتي يُجلجل بين جدرانها العالية. رأيتُ نيكولاي وريموس يبتسمان. بل ورأيتُ الصبيان الآخرين يحدِّقون إليّ بإعجاب. ثم استلقيتُ على فراشي. للمرة الأولى في حياتي، فيما أخطو إلى النوم، كانت أنفاسي هي الأنفاس الوحيدة التي أسمعها.

(16)

ما زال ذلك الحدث، حتَّى اليوم، يحمل حضورًا شرِّيرًا، متوعِّدًا، في عقلي، رغم أنه كان منذ نصف قرنٍ. لو أن زلازلًا كان هدمَ كنيسة شتاوداخ وسوَّاها بالأرض في اليوم السابق على ذلك الافتتاح، لاختلف كل شيء. لكنني لا أستطيع خداعك. إنها المثالية متجسِّدةً في حجارة. التناسق يَحكم هندستها. البُرجان، نقيَّان وأبيضَان، يشرفان على أسقف بيوت المدينة. البناء المُستدير المقبَّب يقبع في المنتصف بالضبط، وتحتها، شبيكة بوريقات ذهبية تفصل الكنيسة إلى نصفين متماثلين، تمامًا كما ينقسم العالَم: في المذبح السامق، الرعاة؛ في الجانب الآخر، القطيع. نوافذ هائلة من الزجاج مُطَّعمة بالأخضر الشاحب، بحيث تلتمع الشمس الساطعة عبرها وكأنها تنفذ من نبعٍ جبلي. ثمانية عشر عمودًا أبيض تمسك بالسماوات عاليًا.

في الليلة السابقة على الافتتاح، أزيلت السقالات. عُلِّقَت الستائر المخملية الحمراء على كراسي الاعتراف، وصُقِلَت الأرضية الحجرية

حتَّى تلألأت. فتح شتاوداخ باب غرفة المقدَّسات المؤدية إلى مهجع الرهبان، وتوافدَ الرهبان والمبتدئون ومُنشدو الجوقة كفيضانٍ أسود. وبدأتُ في إدراك أن العمارة تُصنع من الصوت كما تُصنع من الصورة. عندما ترنَّم الرهبان أمام الآباء المُقدَّسين المرسومين على السقف المقوَّس، أجابنا القديسون بترنيماتهم أيضًا. بارَكَ صدى أقدامنا على الحجارة كل خطوة من خطواتنا. لم تصرَّ مقصورات الجوقة من خشب البلوط تحت وطأة وزن نيكولاي الهائل حتَّى. وعندما لامست مفاصل أصابعنا الشبيكة الذهبية فيما نمضي بجوار صحن الكنيسة المُخصَّص للعامة، جعلنا طنين المعدن نشعر بصلابة ذلك الحاجز الذي يفصلنا عنهم. وعندما غنَّى نيكولاي لأول مرة في السماوات البِكر، جعلتنا جلجلة صوته في الأركان البعيدة نشعر أن الرَّبَّ وكنيسته وموسيقاه كانوا حقًّا أعظم مما قد ندرك.

* * *

استيقظتُ مُتحمِّسًا للتَّغيُّرات التي ستحدث أخيرًا عندما يشدو صوتي بأجمل موسيقى في اليوم. أفضل ما هذه التغيّرات، أن صديقتي الوحيدة من نفس عمري، أماليا، ستكون هناك لسماعي أغنِّي. عندما أوشكتُ على الانتهاء من ارتداء ملابسي، وقُرِعَت أجراس الدير الجديدة مُعلنةً بدء القُدَّاس، تذكَّرتُ الإنسان الوحيد الذي لن يكون هناك لسماع اكتمالي. أحنيتُ رأسي وتساقَطَت بضع قطرات دموع على الأرض من أجل أمِّي.

أنصتُّ إلى القُدَّاس من نافذتي، كان أولرتش قد أمرني بالبقاء في غرفتي وإراحة صوتي. فيما كل روح كاثوليكية على مدى فراسخ كثيرة تنضمُّ إلى المسيرة، كنتُ أخطو وحيدًا جيئةً وذهابًا عبر أروقة الدير وأختلس النظرات إلى صوامع الرهبان. سرقتُ طعامًا من المطبخ الخاوي. أخيرًا، في المساء، بعد أن سمعتُ الحشود تعود، دفآنين

بالطعام والشراب، جلستُ على فراشي وأخذتُ في مراقبة الباب. ثم سمعتُ وقع خطوات نيكولاي الخابطة تهرع صاعدةً الدَّرج. اندفع إلى الغرفة. "حان الوقت!" هتفَ. لعق أصابعه وملَّسَ شعري، وقرص خدَّيَّ، ثم رفعني وقلبني وأدارني للبحث عن أية أوساخ. ثم حملني خارجًا من الباب. توقَّفَ عند أعلى الدَّرج وتطلَّع في عينَيَّ. "موسى"، قال بصوتٍ مُخضَّب بالفرحة، "أشكر الرَّبَّ كل يوم على أنه اختارني لإنقاذك من النهر". ثم حملني إلى الكنيسة.

مع ذلك، وجدتُ، هذه المرة، أن الاتِّساع المثالي كان أقلَّ هدوءًا مما كان عليه الليلة الفائتة. كان يغصُّ بوجوهٍ جديد ويئزُّ بثرثراتٍ حماسية، وكنتُ لأُدهَس طويلًا قبل أن أتمكَّن من الغناء، لو لم يكن نيكولاي يحميني. لففتُ ذراعيَّ حول عنقه فيما يحملني من غرفة المُقدَّسات إلى حشد الأسود الرهباني. كان كل وجه تقريبًا نمرُّ به مجهولًا لي؛ ذلك أنني دائمًا ما كنتُ أحدِّقُ في الرُّكَب، والآن، متطلِّعًا من علٍ إليها فيما يحملني نيكولاي، لم أستطع تبيُّن أيٍّ من الرهبان يقيم في الدير وأيِّهم سافر أميالًا كثيرة ليكون هنا من أجل الافتتاح. اقشعرَّ عمودي الفقري من مشهد الوجوه المرتخية لثمانية عشر رئيس دير: صفٌّ من التيجان الأسقفية في المقصورات الكنسية. لا بُدَّ أنه كان هناك ما مجموعة خمسمائة راهب، وبينهم أيضًا لمحتُ أردية قساوسة كثيرين. لوهلة، تخيَّلتُ أنني سمعتُ أجراس أمِّي تدوِّي بتحذيرٍ، وبحثتُ برعبٍ عن وجه أبي. لم يكن هناك.

في جانبنا من الشبيكة الذهبية كان هناك أيضًا كثيرٌ من الضيوف لا يرتدون الزِّيَّ الكنسيَّ. بينهم كان سفير أولرتش من شتوتجارت، دكتور رابوتشي. في اليوم السابق، كان مُعلِّمي قد قادني في حفلة موسيقية خاصة للرجل. كانت يد قائد الجوقة ترتعش في يدي فيما يرشدني عبر الباب، وعندما اقترب منِّي الدكتور الشاحب، بكل شَعرَة على عنقي وقد انتصبت بفعل ابتسامته الضاوية، شعرتُ بأولرتش يُبعدني

للوراء برفق، وكأنه لا يرغب أن يلمسني الرجل. "عليكَ أن تغنِّي له"، قال أولرتش، بعصبية، "لكن لدقائق وجيزة. بخفوت. لا تُجهد صوتك". حدَّق أولرتش في المقامات الموسيقية فيما يُرافقني في الغناء، وفور أن انتهيت، قبضَ على يدي واصطحبني إلى الخارج وكأنه يخشى عليَّ البقاء لدقيقة واحدة أخرى مع هذا الرجل. الآن، في الكنيسة، منحني رابوتشي ابتسامة عارفة، وكأنه وأنا نتشارك سرًّا. ثم اختفى في الزحام.

بعد أن حمَلني نيكولاي بعيدًا بما يكفي إلى داخل الجوقة، أدركتُ أن هذا البحر المُزبِد المُقدَّس، الأسود، لم يكن سوى نصف الحشد. عبر الشبيكة الذهبية، كان النصف الآخر من صحن الكنيسة مغمورًا بالبضاعة المبهرجة لتجَّار النسيج في سانت غال، بشكلٍ أصابني بالغثيان. في أرديتهم الوردية والخضراء والبنفسجية، بدت صفوة أرواح سانت غال وكأنها دُمًى محشوة ألبَسَتها فتيات صغيرة أرديتها، تثرثرُ بصخَب. انحنى كل عنق للوراء وأشارت كل إصبع إلى اللوحات الحيَّة على السقف.

استدرتُ وصادفتُ وجه أولرتش الباهت، الذي منحني على الفور العزاء المُعتاد. جلست الجوقة الثلاثية، التي انتقيت من بين كل صوت مقبول في محيط مائة ميل، في نصف دائرة أمام المقصورات. حولها كانت الأبواق والوتريات والطبلتَيْن الهائلتين، التي ظننها في البداية براميل من النبيذ المُقدَّس. في المركز من كل هذا، كان المؤدون الثلاثة المنفردون الآخرون مستعدِّين في أماكنهم. حدَّقَ جيرين جلومسر، مؤدي الباص، بخواء عبر صحن الكنيسة، وكأن هذه الكنيسة المثالية كانت مكانًا زراه مرَّاتٍ كثيرة من قبل. كان چوزيف شوك، مؤدي التينور صغير الرأس، عريض الكتفين، لطيفًا معي في التدريبات، لكن بدا أنه لا يراني الآن؛ ذلك أنه كان بدأ في التَّعرُّق والتحديق في يديه المرتعشتين.

لكـن المـؤدي المنفـرد الثالـث، السـوبرانو المعتـدل أنتونيـو بوجـاتي، ابتسـم لي بدماثـة. قبـل يومـين، بعـد أن غنَّيـتُ معـه للمـرة الأولى، هرعـتُ إلى صومعـة نيكـولاي لأخـبر صديقـي عـن المعجـزة التـي شـهدتها: رجـل يُغنّـي بالطبقـات العاليـة لطفـل، لكـن بوضـوح وقـوَّةٍ يضاهيـان صـوت أيِّ رجـل سـمعته مـن قبـل. في المـرة الأولى التـي سـمعتُ فيهـا بوجـاتي يغنّـي، أصـاب صوتـه جسـدي بأكملـه بخَـدَر، ونسـيتُ أن أغنِّـي فقـرتي. شـعرتُ بالدمـوع في عينَـيَّ فيـما أحـكي لنيكـولاي عـن هـذا الجَـمال.

لكـن صديقـي ابتسـمَ فحسـب بتشـكُّك. "أريـد أن أرى هـذا المـؤدي ذا الصـوت عـالي الطبقـة الـذي أتى بـه أولرتـش بنفسي"، قـال. "ربمـا يكـون رئيـس الديـر قـد خُـدع، لكننـي بمقـدوري أن أعـرف المـلاك فـور رؤيتـه". عندمـا سـألته عـمَّا يعنـي، رفـض الإيضـاح، لكنـه وعـدني بحمـلي إلى موقعـي في يـوم الافتتـاح حتّـى أسـتطيع أن أرى الرجـل عـن قُـرب.

والآن، في الكنيسـة، بعـد أن اكتملـت مَهمَّتـه، ابتسـم نيكـولاي فيـما يركـع بجـواري، متظاهـرًا بتمسـيد شـعري. "مـوسى"، همـسَ في أذني، "كنـتُ عـلى حـقٍّ. المـؤدي عـالي الطبقـة الـذي جلبـه شـتاوداخ هـو موزيكـو. يمكننـي رؤيـة ذلـك".

رفعـت بـصري إلى بوجـاتي مـؤدي السـوبرانو المعتـدل، كان وسـيمًا كأي رجـل رأيتـه مـن قبـل: رقيـق العظـام، مُرهـفٌ في حركاتـه كـما في غنائـه. تذكَّـرتُ أن شـتاوداخ قـد منـع أي موزيكـو مـن الغنـاء في كنيسـته.

"نيكولاي"، همستُ، "ما هو الموزيكو؟".

"الموزيكـو رجـلٌ"، أجابنـي نيكـولاي، "ليـس رجـلًا؛ ذلـك أنهـم جعلـوا منـه مَـلاكًا".

* * *

لم أرَ الآثار تُحمَل إلى القبو. لم أتمكَّن من رؤية شتاوداخ على منبره. لم أُنصت فيما يعلن للحشود أن هذه الكنيسة هي تجسيد لإرادة الرب على الأرض، وأننا ينبغي أنا نرى فيها ما في مقدورنا أن نصيره. تجاهَلتُ الهمسات والأنفاس القصيرة والحفيف المتطاير نحوي من كل الاتِّجاهات؛ ذلك أنني كنتُ منشغلًا بالتَّحديق في أصابع بوجاتي الطويلة مُستقرَّةً على ركبتيه. هل لديه أجنحة يخفيها تحت ردائه؟ عندما بدأت الطبول في قَرْع الافتتاحية، ابتسم لي مُجدَّدًا، ولم يكن هناك مكانٌ باستطاعتي أن أكون فيه سوى بجواره. بدأت الأبواق في العزف، واستدفأ كلَّ وجه في الكنيسة، بما في ذلك وجهي، بصوت المجد.

غنَّى جلومسر الباص. أطلق أصواتًا بقوَّةٍ بدت من المستحيل أن تصدر عن جسدٍ واحد. ملأَ صوت الرجل كل ركنٍ في الكنيسة وأسكت كل همسة. سمعتُ صوته يُجلجل في أمعائي. جعلَ الصدى المُرتجع من القُبَّة الشاهقة صوتَه يملك الكنيسة بأكملها، أعتقد أن كثيرين ظنُّوا أن الرب كلِّيَّ القدرة قد انضمَّ إليه في غنائه.

في هذه الحركات الأولى، المُسترشدة بصوت جلومسر، مُتخَمين بولائم النهار التي لم تنقطع، ومستدفئين بنبيذ الموكب، ملأنا جميعًا الكنيسة بأصواتنا حتى رنَّت نوافذها. كان أولرتش قد وجدَ فُرجةً في جسدي الضئيل؛ لم أعانِ كثيراً حتَّى أُسمَع بين هؤلاء الرجال. اختلط صوتي بأصوات المؤدِّين المنفردين الآخرين كدوَّامات من الأصباغ الفاخرة في الماء، وأدركتُ أن صوتي كان بديعًا كأيٍّ صوت آخر صدحَ في تلك الكنيسة، حتى وإن كانت القوة المحضة لصوت بوجاتي قد سحرتنا جميعًا. عندما أتوقَّف عن الغناء، كنتُ أغلق عينَيَّ وأسمع صوته يرنُّ في صدري. عندما يصمت، كنتُ أفتح عينَيَّ وأختلس النظر عبر الشبيكة الذهبية، باحثًا بلا طائل عن وجه أماليا، الوجه الوحيد

الـذي كنـتُ أتـوق لرؤيتـه في ذلـك الزحـام. لكنهـا كانـت مُحتجبـةً عنّـي قَـدْر احتجـابي عنهـا بالتأكيـد.

مـع انتهـاء الحركـة الخامسـة، توقَّـف أولرتـش. كان هنـاك هـدوء مفاجـئ، حـادٌّ، في الكنيسـة. أوقفـت يـداه المرفوعتـان الموسـيقى، ولوهلـة، أجبرنـا جميعًـا عـلى التأمُّـل في الخـواء، والشـعور بالتَّـوق الـذي كان لعنـة أولرتـش: رغبتـه في الجَـمَال الـذي تـلاشى لتَـوِّه، وأضحـى بعيـد المنـال.

* * *

ثـم جـاء دوري، كانـت الحركـة السادسـة غنـائي المُنفـرد. وغنَّيـتُ. بالسَّـمع المثـالي الـذي كان موهبـةَ أمِّـي، بالرئتـين الصغيرتـين اللتـين علَّمتهـما يـدا أولرتـش التَّنفُّـس، بجسـدٍ بمقـدوره أن يـرنَّ بالأغـاني. غنَّيـتُ لنيكـولاي، لأماليـا؛ وغنَّيـتُ لأمِّـي الميِّتـة وللسـيدة دوفـت. مـلأ صـوتي تلـك الكنيسـة المثاليـة فيـما يرفـرفُ مـن نغمـةٍ إلى أخـرى. عندمـا توقفـتُ لالتقـاط أنفـاسي، سـمعتُ انسـحاب ألـف نَفَـسٍ مـع نَفَـسي. ثـم فيـما أبـدأ مجـدَّدًا، حبسـوا أنفاسـهم مـن أجـلي. بـدت نغـماتي الأعـلى طبقـةً وكأنهـا ترفعنـي عـن الأرض. بجـواري، عندمـا أمسـكتُ بنظـرةٍ مختلسـة، كانـت عينـا بوجـاتي مُغلقتَـيْن، بابتسـامةٍ عـلى وجهـه. ترجَّـع صـدى جسـدي الضئيـل في القبـة الهائلـة ومـن أعمـق مُختليـات صحـن الكنيسـة، وهكـذا، للمـرة الأولى في حيـاتي، شـعرتُ أننـي ضخـم، ضخـمٌ ككنيسـة شـتاوداخ.

ثـم توقَّـف غنـائي، ولم يسـتمرَّ مائـة ثانيـة حتـى. لم يتحـرَّك أحـد. كانـت أعـين كل راهـب وكل مُغـنٍّ مثبَّتـة عـليَّ، لكننـي أدركـت أنهـم لم يكونـوا يحدِّقـون في هـذا الصبـي الهزيـل، بـل في الصـوت داخلـه، الـذي كانـوا يتوقـون لسـماعه مُجـدَّدًا. عـبر الشـبيكة، بـين زحـام المُتعبِّديـن، رأيـتُ رأسًـا يجاهـد للارتفـاع فـوق البقيـة. ولمحـتُ، للحظـة واحـدة، أماليـا تقـف بتلهُّـفٍ عـلى مقعدهـا، حتَّـى جذبتهـا عمَّتهـا لأسـفل مُجـدَّدًا.

ثـم تطلّعـتُ إلى أولرتـش. كان وجهـه منطفئًـا. عينـاه مُتّسـعتَيْن، كان توقّـفَ عـن التنفـس، وكأن سـكينًا قـد غُـرزَ في صـدره.

* * *

أولمَنـا مُجـدَّدًا طـوال ذلـك المسـاء وحتّـى الليـل. كنـتُ أمـضي مـن مائـدة إلى مائـدة وأمـلأ فمـي وجيـوبي بطعـامٍ يَسـيل لـه لعـاب الملـوك والأمـراء. لا بُـدَّ أننـي اسـتهلكتُ وزن جسـمي مـن لحـم الحَمـل المشـوي ذلـك، ولم أعـرف أيـن اختفـى، فهـذا الجسـد الصغـير لم يَكْـبُر بعـد.

كانـت أقبيـة نبيـذ الديـر مفتوحـة للرهبـان المقيمـين والزائريـن عـلى السـواء. حـلَّ منتصـف الليـل عـليَّ في نافـذة عِلِّيَّتـي أنصـتُ لجماعـات مـن الرُّهبـان السـكارى في المُعتـزل في الأسـفل، فيـما يحتفلـون بالديـر المثـالي المكتمـل. مـن نافـذة واحـدة، مضـاءة كخشـبة مـسرح، كان نيكـولاي يغنّـي الأناشيد الشـعبية لحشـدٍ يهتـف كلـما اختتـم قافيـةً. كان جمهـوره يرقـص في دائـرة حتّـى تداعـى في كومـةٍ مـن السـكارى. وراء أبنيـة الديـر، كان ميـدان الديـر هادئًـا، بعـد أن أُرسـلَ شـعب الكنيسـة مـن العامـة إلى بيوتهـم بـلا طعـام أو نبيـذ. في المُسـتراح البعيـد في المُعتـزل، سـمعتُ صـوت أولرتـش يهمـس بالتـماسٍ مُلـحٍّ للتنغيـم الأنفـي الهـادئ لطبيـب شـتوتجارت. قُبالتهـم، كان ريمـوس يغمغـم تحـت الواجهـة البيضـاء للكنيسـة الجديـدة، حيـث يبـدو أنـه منغمـس في جـدال مـع رجـل فرنـسي، لكـن عندمـا أمعنـتُ النظـر في الظِّـلِّ، لم أرَ أحـدًا بجـواره، مجـرَّد كتـاب يقبـض عليـه أمـام عينيـه. مـن الظـلال الأخـرى، سـمعتُ همسـاتٍ مُغويـة. في ليلـةٍ كهـذه، بإخـوةٍ زائريـن كثيريـن لـن يـروا بعضهـم البعـض مُجـدَّدًا أبـدًا، وبالنبيـذ الـذي يُخمِـد الوعـي، انطلـق رهبـانٌ كثـيرون لتـذوُّق رحيـق العالَـم.

سـمعتُ صـلاةً مهتاجـة عـلى ألسـنةٍ متداخلـة. سـمعتُ رجـلًا يُغنّـي أدائي المنفـرد بصريـرٍ هامـس. سـمعتُ برميـل نبيـذ يتدحـرج عـبر المُعتـزَل. سـمعتُ أقداحًـا تـضرب الجـدران.

أتذكَّر أفكاري جيدًا: كم أنا محظوظ. أريد أن أكون راهبًا.

للمـرَّة الأولى منـذ جئـتُ الديـر، شـعرتُ أننـي أنتمـي إليـه. كأحجـار كنيسـة شـتاوداخ، كنـتُ ذات مـرة خشـنًا ورخيصًـا، لكننـي الآن تشـكَّلتُ إلى شيءٍ ناعـم وبديـع ومُقـدَّس.

كم كنتُ مخطئًا.

(17)

عندمـا جـاءَ إليَّ، كان المُعتـزَل هادئًـا. احتـواني بـين ذراعيـه، ولوهلـة ظننـتُ أنـه حـضرَ ليحتويني فحسـب. لم تعجبنـي لمسَـته؛ لذلـك تصنَّعـتُ النـوم. لم أسـمع سـوى أنفاسـه الخفيفـة (حتَّـى مـع أذني ملتصقـةً بكتفـه، لم أسـتطع سـماع قلبـه). شـعرتُ بتحديقتـه فوقـي. ثـم سـقطَ شيءٌ دافـئ ورطـب عـلى وجهـي. سـمعتُ نشـجةً.

وبعـزمٍ مباغـت، طوَّحنـي إلى الهـواء. حمَلنـي خـارج غرفتـي ونـزل بي الـدَّرج، الـذي كان مُضـاءً في كل طابـق بضـوء القمـر الخافـت عـبر النوافـذ الكبـيرة المُطلَّـة عـلى المُعتـزَل. اسـتلقيتُ في ذراعيـه وكأننـي نائـم، وسـمعتُ الشـخير الـذي كان يعنـي أننـا نمـرُّ بصومعـة نيكـولاي. عـلى بسـطة الـدَّرج الأولى، توقَّـفَ، وكان تـردُّده مفاجئًـا لي لحـدٍّ أننـي فتحـتُ عينَـيَّ وتطلَّعـتُ إليـه. في ضـوء القمـر الـكابي، بـدا وجهـه الشـاحب وقـد انسـحَبَت منـه الدمـاء. تـلألأت عينـاه بالدمـوع.

«أولرتش»، قلتُ. «أفلتنِي».

«لا أستطيع»، همسَ.

تلوَّيتُ في قبضته. «أفلتني»، كرَّرتُ. لكنه هزَّ رأسه.

«صوتك»، همسَ. «علينا أن نحفَظ صوتك».

الحِفظ كان ما يفعله دوفت مع السحالي ورؤوس الدببة. هل كان يعني انتزاع صوتي وعَرضَه في جرَّة؟ أم تركيبه على حائط؟ جاهدتُ للتحرُّر، لكنه أحكم قبضته.

«أنا آسف»، همسَ. «أنا آسف».

اقترب وجهه الْملتاع من وجهي لحدٍّ أنني ظننتُ أنه سيُقبِّلني.

صرخت.

لكن يده امتدت بمجرّد أن صرخت، غطَّى فمي وأحكم قبضته على أنفي. لم أستطع التَّنفُّس إلَّا عبر الصراخ فيما يتحرَّك بسرعة هابطًا الدَّرج وعلى طول الأروقة الخاوية، مارَّيْن براهب سكران يفترش الأرض.

لكن فور أن أوشكت على الإغماء، أزال يديه. تنشَّقتُ الهواء لاهثًا. همسَ، «ابقَ هادئًا. لا يوجد أحد في هذا الجزء من الدير ليسمعك. ستحتاج إلى قوَّتك». تلوَّيتُ وجاهدتُ للإفلات، لكنه شدَّني إليه أكثر، وكأنني رضيع عليه أن يكتم صوته قبل أن يسرقه.

وصلَ بي إلى حجرة التدريبات، المضاءة بسطوع في هذه الساعة بمصابيح وشموع مُرتَّبة في أنحاء الغرفة. كان البيانو القيثاري ينتصب وحيدًا في المنتصف، وكأنه مذبح. كان مُغطًّى بكتَّانٍ أبيض. فيما يقف دكتور رابوتشي، تعلوه وجهه تلك الابتسامة المميَّزة المثيرة للقشعريرة، بجانب البيانو القيثاري. صبَّ النبيذ في قدح زجاجي وأمسكه أمامه، وكأنه كأس مُقدَّس.

اتَّخذ خطوتين إلى الأمام نحوي فيما أجاهد للمرة الأخيرة للإفلات من قبضة أولرتش المستميتة. جرَّبتُ الركل، لكن قدماي تطوَّحَتا في هواءٍ خاوٍ.

"لا تَخَف"، قال الطبيب. تحدَّثَ بلكنةٍ إيطالية. "لن أؤذيك".

اقتربَ أكثر، لكن عندما تلوَّيتُ مجدَّدًا توقَّف. هزَّ رأسه وابتسم، وكأنني أحمق لأنني لا أثق به. ارتفع حاجباه الرفيعان، مُتصنِّعًا الحنوَّ. "هل تعرف أين تقع شتوتجارت يا موسى؟".

على ظهر يديه البيضاوين، كانت كتلة من العروق تطابق لون النبيذ.

"ليست بعيدة من هنا... سفر لبضعة أيام فحسب. آمل أن تأتي إلى هناك يومًا وتزورني. هذا الدير جميل، لكنه لا يُقارَن بشتوتجارت. هل قابلتَ دوقًا من قبل؟ الدوق كارل إيوجين هو ربُّ عملي. إذا أخبرته عن صوتك، سيدعك تنام في قصره. ألا تحب أن تنام في قصر؟".

لم أكن أحب، لكنني لم أتحدَّث.

"الدوق يرعى الموسيقى الجميلة أكثر من أيِّ إنسان في أوروبا يا موسى. أكثر من رئيس ديركم حتَّى؛ ولهذا استقدمني إلى شتوتجارت، من إيطاليا نفسها. أنا طبيب، طبيب للموسيقى".

ثم خطا للأمام. تملَّصتُ، لكن قبضة أولرتش كانت كالحديد.

"لديك صوت بديع جدًّا يا موسى. صوت من أجمل الأصوات التي سمعتُها في حياتي. علَّمكَ أولرتش جيدًا. لكنني بمقدوري أن أجعلك أفضل. هل تريد أن تغنِّي أفضل يا موسى؟".

صوتي مِلكي! كنتُ لأصرخ لو لم أكن مرعوبًا. مِلكي! كان على بُعد خطوة واحدة الآن. خشيتُ أن يُسلِّمني أولرتش إليه.

لكـن أولرتـش لم يُفلتنـي. أحكـم قبضتـه. رفـعَ رابوتـشي القـدح. بيـده الأخـرى قـرصَ ذقنـي.

"افتح فمك يا موسى. اشرب بعض النبيذ".

كانت أصابعه باردة جدًّا. هززت رأسي، ثم أفلتني.

أطلق سبابًا.

همـسَ أولرتـش بأنـه يجـب أن أشرب النبيـذ، سـيجعلني هـذا راغبًـا في النـوم. تلوَّيـتُ بـكل مـا لـديَّ مـن قـوة.

"ضعـه عـلى الأرض إذن"، قـال رابوتـشي. رفسـتُ وقاومـت حتَّـى جلـس أولرتـش متباعـد السـاقَيْن فوقـي وثبَّـت ذراعـيَّ عـلى الأرض. ركـعَ دكتـور رابوتـشي بجـواري. "افتـح فمـك"، أمـرني بحـدَّة.

عندمـا رفضـتُ مُجـدَّدًا، هـازًّا رأسي مـن جانـب لآخـر، مُطبِقًـا عـلى فـكَّيَّ بقـوة، أطلـقَ سـبابًا مُجـدَّدًا. أقحـم أصابعـه المُعرَّقـة في فـكَّيَّ حتـى انفتحـت فُرجـةٌ، صـبَّ فيهـا بعـض النبيـذ. اختنقـت. فـاضَ وانسـابَ عـبر عنقـي. أطبـقَ عـلى فمـي وضغـط عـلى حلقـي حتَّـى ابتلعتـه.

"يكفي هذا"، قال لأولرتش. أفلتني الرجل. سعلتُ وبصقت.

مـع ذلـك كانـت حسـابات رابوتـشي خاطئـة. كان معظـم النبيـذ المُطَّعَم بالأفيـون قـد انسـاب مـن فمـي واسـتقرَّ في بركـةٍ عـلى الأرض. ورغـم أنـه سرعـان مـا تكوَّنـت غمامـة عـلى عقـلي، وفقـدت القـدرة عـلى مقاومتهـما، إلَّا أننـي لم أسـقط فريسـةً للنـوم. بمقـدوري تذكُّـر كل لمسـة وكل صـوت لمـا تـلا ذلـك وكأنـه مسرحيـة مثَّلتُهـا ألـف مـرة.

جـرَّداني مـن ملابـسي، ولوهلـة شـعرتُ بـبرودة الأرض الحجريـة عـلى جسـدي العـاري. أُخِـذتُ بالسـقف. هـدَّأَ مـن خـوفي؛ هنـاك شيءٌ نعيمـي في أشـكال العـوارض الخشـبية. ينبغـي أن أغطِّـي نفـسي، لكـن ملابـسي اختفـت وأنـا مُنهـك جـدًّا عـلى أن أبحـث عنهـا.

رُفعتُ ووضعتُ في حوضٍ ممتلئ بماء دافئ. أستلقي هناك، غاطسًا حتّى صُرَّتي. أُغلق عينَيَّ وأستمتع بالدفء. يبدو الحوض وكأنه كبير كمحيطٍ دافئ. والحافة الخشبية، القاسية، وسادةٌ وثيرة تستند رأسي عليها.

تتحدّث أصواتٌ عن تفاصيل.

سكاكين.

إبَر.

أعتقد أنني سأنام.

أُرفَعُ كرضيع، أُجفَّف برفق، وأُوضع بوجهي لأسفل على البيانو القيثاري. رأسي في اتِّجاه المفاتيح. عندما يتحدَّث هذان الرجلان، ترنُّ الأوتار بصوتيهما. أريد أن أغنِّي أيضًا، لكن هذا مستحيل. يبدو الآن جَهدًا رهيبًا. لا أستطيع تخيُّل أنني نجحتُ أبدًا في فتح فمي وإخراج صوتٍ في حياتي.

في كل مرَّة أُوشك على السقوط في النوم على الملاءة الناعمة، توقظني لمسة يدٍ باردة. يخطر لي أن هذين الرجلين، حتّى وإن كان أحدهما أولرتش، لا ينبغي أن يلمساني. ليس بهذه الطريقة. هذه ليست اللمسة التي طالما عرفتها جيدًا: يدا أولرتش تستثيران صوتي.

أفكِّر، نادِ نيكولاي. أفكِّر، نيكولاي سيجعلهما يكفَّان أيديهما عنِّي. لكنه ليس هنا. الأيدي الباردة ترفعني وتضع المناشف تحت خاصرتي بحيث تبرز مؤخِّرتي العارية في الهواء. يُباعدان بين ساقيَّ حتَّى أظن أنهما ستنفسخان. هذه الأيدي تؤذيني، لكنني لا أستطيع تشكيل الكلمات. أتأوَّه. يربطان كاحليَّ حتَّى لا أستطيع إغلاق ساقيَّ. أشعرُ بهما يلمسانني في موضعٍ لم يجرؤ أولرتش قطُّ على التفكير في لمسي فيه.

يداي حرّتان، أضمهما في قبضتين. أبدأ في النحيب.

سأسقم.

هنـاك رائحـة في الهـواء، وكأنـه شيءٌ في غايـة... الـبرودة؟ الحموضـة؟ لا أسـتطيع أن أحـدِّد. شيءٌ بـارد ورطـب يمسِّـد عـلى فخـذيَّ، بـين سـاقي. يفـرك خِصيتَـيَّ ويُصيبنـي بالغثيـان. لا أريـد أن أُلمَـس هنـا! أوتـار البيانـو القيثـاري تـرنُّ مـن تحتـي، لكـن لا يوجـد منطـق في صوتهـا. أحتـاج إلى صـوتي، أتـوق لأقـول. لا تأخـذوه. إنـه الـشيء الوحيـد الـذي يجعلنـي نقيًّـا. لكـن كل مـا يفلـت منـي، "لا، لااا-ااا"، وكأننـي أنـوح.

ربَّتَـت يـدٌ عـلى رأسي. صـوت أولرتـش في أذني، "لا بـأس يـا مـوسى. عُـد إلى النـوم".

النـوم! نعـم، أريـد أن أنـام، لكـن اليـد تلمسـني مُجـدَّدًا! أولرتـش! حاولـت أن أصرخ. لا تأخـذ صـوتي! لكننـي لم أسـتطع سـوى النطـق باسـمه؛ البقيـة تأوُّهـات.

"لا تخف"، يقول. "أنا هنا".

أشـعر بغثيـان وتثاقـل. لا أسـتطيع التحـرُّك، لكـن لا بُـدَّ أن أتحـرَّك، وإلا اختفـى صـوتي.

"ثبِّته!" يهتف رابوتشي. "ضع ثقلك عليه!".

لا أســتطيع النهــوض. أحدهــم يســتند عــليَّ. صــدري ينســحق. لا أســتطيع التنفُّــس.

"ثبِّته جيدًا! لا بُدَّ أن يكون في غاية السكون".

أشـعر بدفقـة ألم بـين سـاقيَّ. أتـأوَّه وأتلـوَّى وأبـكي، والبيانـو القيثـاري يبـكي معـي.

"عليك أن تثبِّته!".

أصرخ.

"من أجل الرَّبِّ يا رابوتشي، ماذا...".

"ثبِّته!".

شيءٌ يوجد داخلي. يدٌ. تنخس وتبحث عن صوتي! أسعلُ مُخرجًا النبيذ وجُذاذات لحم الحَمل. أصابع أولرتش تُمسِّد خدِّي. يسحقني. أقاوم، ورغم ذلك لا أستطيع التحرُّك.

"الآن عليه أن يظلَّ ساكنًا وإلَّا سيموت ممَّا نفعله!" يهتف رابوتشي، وتدندن الأوتار الخفيضة للبيانو القيثاري.

هناك شدٌّ داخل جسدي ووخزةُ ألم حادَّة للغاية لدرجة أنني أشعر بها في أصابع أقدامي.

لم يعد هناك هواء لأتنفَّسه. "لم يكن لديَّ اختيار"، همسَ أولرتش، بخفوت شديد لحدِّ أنني أشك أنه رابوتشي نفسه قد سمع. "صوتك"، يغمغم. "صوتك". نخزة لاذعة، مزقٌ بين ساقيَّ، لكن بغتةً يبدو كل شيء وكأنه ينزاح. أنا مكدود. أستغرق في النوم، وفكرتي الأخيرة، فيما رابوتشي ينخر وأولرتش ينتحب بهدوء، هي أنني سأستردُّ يومًا ما مُجدَّدًا، ما انتزعه هذا الرجلان البشعان.

الفصل الثاني

(1)

استيقظتُ في فراشي. كان الدير المُنهك هادئًا. النافورة تُبقبق في المُعتزل.

هل كان ذلك حُلمًا؟

تقلَّبتُ تحت أغطية الفراش وشعرتُ بمزقٍ بين ساقيَّ، كخطاطيف مُثبَّتة بإحكام في أمعائي. تغبَّشت رؤيتي بالدموع. استلقيت هادئًا حتَّى تراجعَ الألم، ثم أزحتُ الغطاء. ما زلتُ عاريًا. عضوي الذكري الطفولي ينتصب عاليًا. كان أرجوانيًّا، ووراءه، كانت خصيتاي قرمزيَّتان وبدتا أكبر من حجمهما بمرتين. خربشات بالأحمر والأزرق تمتدُّ على داخل فخذَيَّ. لكن لم أستطع رؤية شيء ناقص. لم يؤخذ شيء.

بحذر، مددتُ إصبعًا ولامستُ خصيتي اليمنى. كان الجلد رقيقًا، لكن فيما عدا ذلك كان كل شيء مُخدَّرًا.

"علينا أن نحفَظ صوتك"، قالها أولرتش حينها. تخيَّلتُ نفسي داخل واحدة من جِرار دوفت الزجاجية، أغنِّي ولا أحد يسمعني.

سمعتُ طرقًا على الباب. غطَّيتُ جسدي العاري.

لم ينتظر نيكولاي ردًّا. احتلَّ نصف مساحة غرفتي في العليَّة.

"علينا أن نبني كنيسة جديدة كل أسبوع"، قال. كانت عيناه داميتَيْن وبدا أنه كَبُرَ خمسة أعوام. "ليبارك الرَّبُّ شتوكدوك وافتتاحاته". ابتسم ابتسامة عريضة، لكن ابتسامته تلاشت ببطء. تمعَّن فيَّ. "ما الأمر؟ هل أنت مريض؟".

أومأت.

"لا عجب. تحتاج إلى إجازة. سأخبر أولرتش أن يتركك بمفردك هذا الصباح".

أومأت.

خطا ناحيتي. تجهَّمَ وانحنى للتَّفرُّس في وجهي. "أوه، موسى. تبدو أسوأ حالًا من راهب دير اينسيديلن الذي كان ينام في النافورة. تحتاج بعض الطعام؟".

هززتُ رأسي.

"هل توجد مشكلة؟".

هززتُ رأسي. كنتُ أرغب في إخبار نيكولاي، لكنني الآن ممتنٌّ أنني لا أستطيع إيجاد الكلمات.

اعتدل. "حسنًا. عليك أن تستريح، وسأعود لاحقًا"، قال. "وسأجلب بعض شرائح اللحم الغارقة في العصارة".

عندما لم أردَّ له الابتسامة، منحني نظرةً أخيرة، مُتشكِّكة، وغادر الغرفة. عندما أُغلقَ الباب، التففتُ بحيث تدلَّت قدماي على حافة

الفـراش. مـع كل حركـة تهتـاج أنفـاسي، والخطاطيـف في حقـوي تُمـزِّق أعمـق. نهضـتُ، محدودبًـا كرجـل عجـوز. جـرَت الدمـوع عـلى خـدَّيَّ. سرتُ متثاقـلًا عـلى الأرض وأقفلـت البـاب بالرتـاج، شيءٌ لم أفعلـه مـن قبـل قـطُّ. وقفـتُ عاريًـا أمـام مـرآتي.

غنَّيـتُ النغـمات الثـلاث الأولى مـن السـوبرانو المنفـرد مـن اليـوم الفائـت. كان غنـائي ضعيفًـا ومضطربًـا، لكنـه كان صـوتي. لم يُنتـزع منِّـي. نشـيجٌ خانـق قطـعَ الأغنيـة.

بشكلٍ ما جررتُ نفسي عائدًا إلى فراشي واستغرقتُ في النوم.

* * *

سـمعتُ خبطـاتٍ قويَّـة، وصرخـات في نومـي. أحدهـم كان يطـاردني عبر أروقـة الديـر؛ كانـت الأبـواب جميعهـا موصـدة؛ وبهـذا لم أسـتطع الاختبـاء. ثـم كان هنـاك تحطُّـم مُشَـظٍّ، واسـتيقظت لأرى بـابي يسـقط إلى الداخـل، مشـقوقًا مـن المنتصـف. اندفـع نيكـولاي إلى الداخـل. وراءه كان ريمـوس، بعينـين قلقتـين، ضيِّقتَـيْن، ووراءه، الطبيـب رابوتـشي، يحمـل مصباحًـا أمـام وجهـه المُصفـرِّ، المُتجهِّـم. اندفـعَ الطبيـب بـين صديقَـيَّ وخطـا ناحيتـي. انكمشـتُ مـن الخـوف فيـما يضـع راحـةً بـاردةً عـلى جبينـي ثـم يغمـس إصبعـين في عينـي.

"سـيكون بخـير"، قـال لنيكـولاي، الـذي كان يقـف وكأنـه مسـتعدٌّ لأخـذي بـين ذراعيـه في أيّ لحظـة. دفعـه رابوتـشي للخلـف. "لا بُـدَّ أن تتركـه بمفـرده. إنهـا مجـرَّد حمَّـى".

كان جفناي في غاية الثِّقل لحدٍّ أنني تركتهما ينغلقان.

"لكنه لم يَفِق"، استجداه نيكولاي، بصوته يرتعش. "ظننتُ أنه...".

"إنـه شـاب وقـوي. دعـه ينـام"، أجبـه الدكتـور رابوتـشي بصرامـة. "سأسـهر عليـه".

"سأسهر عليه أنا"، قال نيكولاي.

"أنا طبيب".

فتحتُ عينَيَّ. بدت الغرفة وكأنها تتمايل. كان ريموس يقف صامتًا على عتبة الباب المُحطَّم، مُتجاهلًا الكتاب في ذراعيه. راقب الرجلَيْن يتجادلان بشأني، الشَّكُّ على وجهه. أردتُ أن أخبر نيكولاي -وريموس حتَّى- ألَّا يتركاني بمفردي مع هذا الطبيب، لكن في ضبابيَّتي لم أستطع تشكيل الكلمات. كنتُ خائفًا بشدَّة، وراقبتُ حُماتي يخطوان فوق الجُذاذات الخشبية، بوجهيهما يتوسَّلان إليَّ أن أناديهما ليعودا.

عندما صرنا وحدنا، انحنى دكتور رابوتشي مقتربًا منِّي. ابتسم عندما رأى أنني مستيقظ. وضع إصبعًا على شفتيه النحيلتين. "عليك ألَّا تخبر مخلوقًا بما حدث ليلة أمس"، قال. "إذا أخبرت أحدًا، لم يسمحوا لك بالبقاء هنا. سيجبرونك على مغادرة الدير، وستكون وحيدًا. لا تثق بأحد سوى بصديقك أولرتش".

لم أستوعب هذا التحذير بالكامل، لكنني أدركت بالغريزة أنه كان على حقٍّ.

"هل تستوعب ما فعلتُه يا موسى؟".

لم أتجاوب. في ضوء المصباح الخافت رأيت أن نفس الأوردة القرمزية في يده تتشابك في وجهه الشاحب.

"لقد جعلتُ منكَ موزيكو".

أنا، موزيكو؟ تلك اليد تلتفُّ وتحفر داخل جعَلَتني مثل بوجاتي؟ الموزيكو رجلٌ، قالها نيكولاي، ليس رجلًا. ذلك أنهم جعلوا منه مَلاكًا.

"موسى!" كان الدكتور رابوتشي ما يزال يتحدَّث لي. حاولت التركيز عبر الحمَّى. "ستلاحظ بعض التغيّرات في جسدك في الأسابيع القليلة القادمة"، قال. "لا تجزع".

اعتـدلَ رابوتـشي ونفـخَ في المصبـاح لإطفائـه. تـسرَّب الضـوء الخافـت مـن الـرواق إلى الغرفـة.

"يومًـا مـا"، قـالَ مـن الظـلام، "سـيكون لديـك واحـد مـن أعظـم الأصـوات في أوروبـا. لا تنسَـني يـا مـوسى. لا تنـسَ مَـن جعلـكَ مـا تكونـه".

أغلقتُ عينَيَّ.

وأبـدًا لم أنـسَ. بعـد سـنوات كثـيرة، عندمـا انتهـت بي مسـيرتي أخـيراً إلى مدينـة كارل إيوجـين، أخفيـتُ خنجـرًا في عبـاءتي وأخـبرتُ راعـي الحفـل الموسـيقي أننـي أودُّ مقابلـة رابوتـشي، (طبيـب الموسـيقى) الأشـهر في شـتوتجارت. لكـن الرجـل احتقـنَ فحسـب وهـزَّ رأسـه. "أرجوك يا سـيدي"، قـال، "لا نتحـدث عنـه". في النهايـة أنهكـتُ عامـل مـسرح عجـوزًا بالنبيـذ حتَّـى أخـبرني مـا حـدث حقًّـا: كان رابوتـشي قـد عـاد حقًّـا إلى شـتوتجارت بعـد إخصـائي، لكـن بعـد سـنتين في بـلاط كارل إيوجـين، قضاهـما في إخصـاء الصبيـان حتَّـى يتمتَّـع الـدوق بعزبـة الطواشـيين الموزيكـو الوحيـدة في شـمال الألـب، شُـنقَ رابوتـشي لمغازلتـه واحـدة مـن الدوقـات.

(2)

مـع تـلاشي الألم والحُمَّـى، تلاشـت خصيتـاي أيضًـا. بعـد أسـبوع صارتـا حبَّتَـيْن صلبتـيَنْ. وبعـد بضعـة أيـام، اسـتيقظت وأجريـت فحصتـي المعتـاد تحـت الأغطيـة... ثـم اعتدلـت بسرعـة. صرتُ خاويًـا.

كانـت عمليـة بسـيطة، ومـا زالـت تُجـرى كل عـام عـلى يـد الجرَّاحـين والحلَّاقـين عـلى السـواء لآلاف مـن الصبيـان في الأراضي الإيطاليـة. كان دكتـور رابوتـشي قـد قطـعَ التَّشـعُّب المـزدوج لشريـاني المنـوي الداخـلي. ومحرومتَـيْن مـمَّا يحتاجانـه للحيـاة، ماتـت خصيتـاي، وذابتـا في دمـائي. لم ألاحـظ أيَّ تغـيُّر آخـر، سـواءً في جسـدي أو في عقـلي. كان صـوتي جميـلًا ومُشرقًـا كـما كان عنـد الافتتـاح، وهكـذا، فيـما أغنِّـي، كل مـا كنـتُ ألاحظه هـو الغيـاب المفاجـئ لهاتـين الكُرتـين الصغيرتَـيْن بـين سـاقيَّ.

لم يتبـدَّل شـعوري. لم تَنـمُ لي أجنحـة. لم أزدد طـولًا وعرضًـا مثـل الموزيكـو بوجـاتي. مـع ذلـك أدركـتُ أن عمليـة رابوتـشي لم تفشـل... أخبرتنـي نظـرات أولرتـش المُشـفِقة بذلـك. لا تقصـد طواشـيًّا؟ ليـس نصـفَ

رجل! كان شتاوداخ قد قال عندما طلب أولرتش طواشيًّا للغناء في كنيسته. لم أستطع فهم ماذا أنا، ولا إلى ماذا سأصير، لكنني أدركتُ أنه شيءٌ عليَّ إخفاؤه. كنت لا أستحمُّ إلَّا في منتصف الليل، بمنشفةٍ قريبةٍ من يدي. أوصد الباب عندما أبدِّل ملابسي. أبدًا لم أسأل نيكولاي عن فائدة الأعضاء التي فقدتها. أبقيتُ سِرِّي لنفسي، على أمل أن أنسى فحسب تلك الليلة الشنيعة وآثارها. لسنوات طويلة تراءى لي أن بمقدوري ذلك.

* * *

بعد قُرابة عامين من إنجاز الكنيسة، ساءت حالة السيدة دوفت بشكل ملحوظ. بدا لي أن عظامها تنمو. صار جلدها مشدودًا، وازداد ذقنها ومحجرَا عينيها بروزًا. صار كل نَفَس وكأنه يخرج بمساعدةٍ من يدٍ خفيَّة تعتصر الهواء لإخراجه من رئتيها. كان صوتها همسًا، وذلك الدفء الذي طالما نَشَرَته صارَ يُكلِّفها الآن الكثير من الألم.

غَرقَ السيد دوفت، المعروف بنشاطه، في الكآبة والوجوم. تعامَلَت أماليا -التي أحبَّت تلك الأم السقيمة أكثر ممَّا تحبُّ أغلبُ الفتيات أمهاتهن القادرات على الرقص والثرثرة بالهراء طوال اليوم- مع قلق والدها بالفكاهة ومرافقته دائمًا. "لكن لماذا فعل الإسكندر كل شيء طلبه منه أرسطو؟" تقول. أو،"يقول موسى إنه يودُّ رؤية الرؤوس"، ثم تنغزني حتى أُومئ، حتَّى لو كانت تلك الجِرار تُرعبني في الحقيقة. كان السيد دوفت يُستثار فقط عندما يتحدث عن الثروات التي جناها بسهولة، أو عندما يناقش خططه للتوسُّع شرقًا، عبر مراسلاته مع وجيهٍ يعمل في النسيج من ڤيينا، ينوي أن يغزو معه العالَم الذي يرتدي القماش المنسوج.

ذات ليلة مع وصولي أنا وريموس إلى البهو، كان دوفت يُحدِّق إلى خارج النافذة، بوجهٍ رمادي (وهو ما كان غريبًا على رجلٍ لونه

المعتـاد يشـبه اللحـم غـير المطهـو). فيـما أماليـا تُحـدِّق بخـواء في كتـاب أمـام عينيهـا ولم تحـاول إيقاظـه مـن غفوتـه، بـل لم تُحيِّنـا حتَّـى.

اندفعـت كارولـين إلى الغرفـة بغتـةً، وكأنهـا كانـت تحـوم خـارج البـاب، تنتظـر حتَّـى ندخـل. "ليـس الليلـة!" قالـت بعفويـة، وكأنهـا تتحـدَّث إلى طفلـين شـقيَّيْن. "السـيدة في حـال سـيئة للغايـة. يخـشى الطبيـب أنهـا قـد تمـوت". تقافـزت السـيدة الثقيلـة مـن قـدمٍ إلى قـدمٍ، كراقصـة خرقـاء لكـن مُبتهجـة. في عينهـا كان بمقـدوري رؤيـة أنهـا بـدأت بالفعـل في تخيُّـل السـيدة دوفـت الجديـدة: أكـثر نقـاءً، أكـثر خصوبـةً مـن القديمـة. هشَّـتنا للخـروج مـن البـاب ببضـع رفرفـات مـن مِعصمهـا. تراجعـتُ، لكننـي اصطدمـت بريمـوس. في العـادة كان يندفـع خارجًـا مـن المنـزل ككلـب صيـدٍ مـن قفصـه، لكـن عندمـا رفعـت نظـري، رأيـتُ غضبًـا عنيـدًا عـلى وجهـه.

"أيَّتها الحقيرة"، غمغمَ، عاليًا بما يكفي فحسب ليسمع الجميع.

"معـذرةً؟" تسـاءلت كارولـين دوفـت. لكـن ريمـوس كان قـد اسـتدار بتحديقتـه لإبـداء الإعجـاب بالجـدار الفـارغ. تطلَّعـت إليَّ المـرأة المُتزمِّتـة بـازدراء، وكأنهـا تنتظـر منِّـي تقديـم اعتـذار.

حدَّقت أماليا في ريموس بإعجاب.

تحـرَّكَ دوفـت بغتـةً. بـدا وكأنـه يـراني للمـرة الأولى. "تعـالَ الأسـبوع القـادم"، قـال بضعـف. "سـتكون حالتهـا أفضـل حينهـا. بـلا شـكٍّ".

أومأتُ.

حـدَّق إليَّ الرجـل بإمعـان، وكأنـه لا يوجـد سـوانا في الغرفـة. "مـوسى، نحتـاج مزيـدًا مـن الوقـت فحسـب".

وضعَ ريموس يدًا على كتفي. بدأنا في التراجع نحو الباب.

"أصيب ڤولتير بالجُدَريِّ ذات مرة"، قال دوفت بغتةً. نهضَ واتَّخذَ خطوات بطيئة ومدَّ يده، وتَبعني بهدوء. "كاد أن يقتله الجدري. هل تعرف ماذا فعل؟ احتسى ستِّين لترًا من الليمونادة. كانت سببًا في شفائه". تطلَّعَ دوفت إلى السقف وفركَ شفتيه. خشيتُ أنه سيبدأ في البكاء. ازداد صوته ضعفًا، مُتصدِّعًا من حينٍ لآخر. "جعلتُها تجرِّب ذلك أيضًا. لكنها لم تكن مصابة بالجدري، والأمر لا ينجح إلَّا إذا كنت مُصابًا بالجُدَري. فقط لو كانت مصابةً به. حينها سنعرف على الأقل كيف نعالجه. لكن هذا هو الوضع. ألا ترى؟ كل مرضٍ له علاج يناسبه وحده. لكن الأمراض والعلاجات مُختلطة ببعضها تمامًا". حرَّك الهواء عاليًا أمام صدره بيديه. "أمراض لا نهائية. علاجات لا نهائية. جميعها مختلطة ببعض. حتى لو اجتمعَ أكثر من أرسطو معًا، سيحتاج الأمر إلى الأبد". أنهى حديثه وقد اقترب مني بشدَّة، لحدِّ أنني سمعت أصابع قدميه تنعصر في حذائه، الذي كادَ يُلامسني. أومأتُ إليه موافقًا.

"لماذا يفعل الرَّبُّ هذا؟" همس لي. "لماذا؟ لماذا يقدِّم لنا أحجية يستعصي حلُّها؟".

تمنَّيتُ لو كان نيكولاي هنا؛ كان حتمًا سيجد إجابة. أبدًا لم يفقد حسَّه بجَمال العالم، مهما أظلمت أحجية الرَّبِّ الكبرى. لكن نيكولاي لم يكن معنا، ولهذا وضع ريموس يدًا على ذراع دوفت، وكأنه يقول، نعم، أنت على الحقِّ. الحياة ليست مُنصفةً. ثم جذَبني ريموس للخلف، ومضينا عبر الرواق. راقبتُ ظلَّ دوفت، بلا حراك، واقفًا على العتبة، وكأنه ينوي انتظاري هناك حتَّى أعود.

* * *

لم تَعُد أماليا تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تُمسك بيدي في الأروقة المُظلمة. ازدادت طولًا؛ صار بمقدور الناظر أن يلحظ المرأة القادمة في وجهها. لكن بالنسبة لي كانت حنونًا كما هي دومًا، ذلك

أنـه رغـم حفـلات الحدائـق وتنـاول الغـداء مـع أفضـل فتيـات سـانت غـال الكاثوليكيـات الأخريـات، إلَّا أننـي كنـتُ الصديـق الحقيقـي الوحيـد لهـا في تلـك السـنوات. كنَّـا مـا زلنـا نتسـكَّع في الأروقـة كل خميـس تسـمح لنـا صِحَّـةُ أمِّهـا بزيارتهـا. قالـت لي ذات يـوم بحـزن، "مـوسى، أنـت محظـوظ جـدًّا أنـك لسـت فتـاة. أمقتهـن. كل فتـاة قابلتُهـا". عضَّـت شـفتها السُـفلى وجذبـت خيطًـا مفكـوكًا في كُمِّـي. "لا أريـد أن أَراهُـنَّ أبـدًا، لكـن كارولـين تجـبرني عـلى ذلـك. في الأمـس ذهبـتُ حتـى رورشـاخ، فقـط مـن أجـل أن يتطاولـن عـليَّ". أبـرزت شـفتها السـفلى وقلَّـدت صوتًـا صـارًّا، "أشـعر بالأسـف مـن أجلـك يـا أماليـا. لا بُـدَّ أنـه مـن المريـع أن تكـوني عرجـاء. ومـع ذلـك هـا أنـتِ واقفـة؟ لـو كنـتُ مكانـك لاختبـأتُ في غرفتـي طـوال اليـوم". احمـرَّ خدَّاهـا؛ كانـت مـا تـزال تشـعر بالمهانـة مـن الذكـرى. "إنـه خطـأ الصبيـان. ليـس الأمـر أنـه يوجـد القليـل منهـم، لكـن هـؤلاء الفتيـات يتصرَّفـن وكأن هنـاك ألـفٌ منَّـا، وثلاثـة شُـبَّان فقـط جديـرون بنـا في العـالم. لا يمكننـا الـزواج بعـدُ حتَّـى، لكـن كل مـا يفكِّـرن فيـه هـو الـزواج".

أخذنا بضعت خطوات وحكَّت ذراعها بذراعي بذهنٍ شارد.

تطلَّعتُ إليها. غامرتُ بالقول: "هل ستتزوَّجين؟".

ضحكَـت أماليـا مـن وجهـي الجـادِّ. "بالطبـع سـأتزوج يـا أحمـق. هـل تظـنُّ أننـي سـأعيش للأبـد مـع تلـك العجـوز الشـمطاء؟ سـأتزوَّج". أومأت، وحدَّقَـت حالمـةً إلى آخـر الـرواق. "لكنـه سـيكون غنـي. وأبلـه. سـيمضي وهـو يمتطـي حصانـه ويصطـاد أو يفعـل أيًّـا مـا يفعلـه الرجـال البالغـون"، قالـت. "سـيفعل كل شيءٍ أقولـه".

* * *

كانـت تحلـم بالهـروب مـن سـجنها. ذات يـوم سـحَبَت ورقـةً مطويَّـة. فردتهـا لتكشـف عـن رسـمٍ مُتقـن للديـر. "لقـد نسـختُه"، قالـت بفخـر. "كل نافـذة، كل بـاب. سـيكون خريطتـي، عندمـا أزورك".

"متى ستزورينني؟" سألتها.

"أوه"، قالـت، "في الأسـبوع القـادم عـلى الأغلـب. قبـل انقضـاء الشـهر بالتأكيـد. ارسـم X عـلى غرفتـك حتَّـى أتمكَّـن مـن إيجـادك".

"لكنهم لن يسمحوا لكِ بالدخول".

"أنا من آل دوفت"، قالت بكبرياء.

درسـتُ مهاجـع الرهبـان، وجـدتُ النوافـذ الصغـيرة في السـقف، وعددتهـا بعنايـة مـن نهايـة السـقف.

"هذه نافذتي"، قلت، وبقلمِها الرصاص رسمتُ علامة X.

في الأسـبوع التـالي سـألتُها لمـاذا لم تـأتِ. "كنـتُ منشـغلة"، أجابـت. "في الأسـبوع القـادم سـأتدبَّر الأمـر. انتظـرني في المسـاء".

وهذا ما فعلته... كل مساء لأشهر كثيرة، لكنها أبدًا لم تأتِ.

* * *

حـلَّ وقـت في الصيـف التـالي كان للهـواء الرائـق، الجـاف، الوفـير، تأثـيرٌ جيِّـد عـلى حالـة السـيدة دوفـت، وغنَّيـتُ لهـا كل أسـبوع. ثـم جـاءَ الخريـف بأمطـاره، وحينهـا سـاءت حالتهـا مُجـدَّدًا. لشـهرين لم أغـنِّ لهـا عـلى الإطـلاق. صرتُ مُجـدَّدًا صبـيَّ جوقـة فحسـب، رغـم أننـي كنـتُ أفضِّـل الحفـلات السريـة مـع هاتـين المرأتـين مـن آل دوفـت عـلى أيِّ مـسرح في أوروبـا.

ثـم ذات صبـاح، ظهـر واحـد مـن الجنـود الذيـن يحرسـون بوابـة الديـر في غرفـة التدريبـات أمامنـا.

"عـلى مـوسى صبـي الجوقـة أن يحـضر معـي"، قـال لأولرتـش. "رئيـس الديـر يأمـر بذلـك".

ارتعبتُ. لكن أولرتش صرفَني لأذهب مع الجندي، وبدلًا من رئيس الدير، وجدتُ كارولين دوفت تنتظرني عند البوابة.

"تعال"، قالت، واستدارت على عقبَيْها. سرتُ وراء مخروط المرأة ذاك عبر السوق المزدحم، الذي كان ينفتح لها كانشقاق البحر. لم تَقُل شيئًا حتى غادرنا الشوارع المكتظَّة.

"يقول الطبيب إنها ستموت"، قالت، وكأنها تتحدَّث عن فرَسٍ عجوز حانَ أجلها. "طلَبَت حضورك، ولم يمانع (السيد دوفت). اعترضتُ، لكنه فقدَ عقله". زادت من سرعة مشيها، واضطررتُ للركض تقريبًا. "واحد من آل دوفت بدون عقله لا يُعدُّ واحدًا من آل دوفت. ظلَّت تلك المرأة في الفراش لسبع سنوات. لم تفعل سوى تعطيل تقدُّمِنا واستنزاف ثروتنا. والآن تريد حفلةً موسيقية". توقَّفَت بغتةٍ واصطدم رأسي بمؤخرتها الناعمة. تطلَّعَت إليَّ باستهانة. تنشَّقت. "أعتقد أنك تريد أتعابك".

لم تكن لديَّ أي فكرة أن المغنِّين قد يتلقون أجرًا على غنائهم.

"وستحصل عليها، أنا متأكدة. رئيس دير مُبارك واحد، وأرواح كثيرة تُثقل عليه. لا أعرف كيف يتحمَّل هذا، لا أعرف!".

كنتُ معتادًا للغاية على إرشاد ريموس عبر الشوارع لحدٍّ أنني عندما سمعتُ ضربات ساطور الجزَّار، وضعتُ يدي على خاصرة كارولين الواسعة ودفعتها.

عوَت وصفعت أذني براحتها. "أنت أيُّها الطفل المُقزِّز!".

فركتُ أذني فيما ننعطف حول الناصية. دلَّكَت هي خاصرتَها وكأن لَمْستي قد أحرقتها. "من المؤسف أن هذه المدينة تمتلئ بأتباع المذهب البروتستانتي. حتَّى الأطفال الآن يتحرَّشون بالنساء. كيف

يمكـن لڤيليبالـد أن يجـد زوجـةً هنـا؟ سـيكون عليـه أن يذهـب بعيـدًا. إلى إنسـبروك. أو سـالزبرج. لا بُـدَّ أن أكتـب خطابًـا الليلـة".

استدارت لتهزَّ إصبعًا أمام وجهي.

"أنـت صبـي جوقـة. ينبغـي أن تكـون أفضلهـم جميعًـا، وانظـر إلى نفسـك. في سـنتين سـتتطلَّع إلى أماليـا مـن رأسـها إلى قدميهـا، حتَّـى مـع تشـوُّهها. وربمـا تـردُّ لـك الابتسـامة، بمعرفتـي لهـا". هـزَّتْ كارولـين رأسـها في امتعـاض. "طفـل واحـد! وفتـاة!".

* * *

وصلنـا إلى منـزل آل دوفـت، ودلفـتُ للمـرة الأولى عـبر الأبـواب الرئيسـية إلى بهـو الاسـتقبال الـذي يشـبه القصـور. كان عبـارة عـن قاعـة بارتفـاع طابقـين، بـدَرَج مـزدوجٍ عريـض، وحوائـط هائلـة مُجصَّصـة، حتـمًا تخفـي أكوامًـا مـن الحجـر الجـيري المُرجِّـع للصـدى، لأن بهـو الاسـتقبال هـذا بـدا وكأنـه مـسرح في منـزل آل دوفـت؛ قنـوات صوتيـة لا تُحـصَى تتلاقـى في هـذه البهـو. وبَّخَـت المُربِّيـة مـاري ضحيـةً مـا بالفرنسـية. صرَّ خنزيـرٌ صغـير. انغمسـت ممسـحة في دلـو. شـقَّ سـاطورٌ عظمـةً. ثرثـرت خادمتـان في حجـرة غسـل الصحـون. أنَّـتْ الريـح عـلى طـول السـقف.

صعَـدَت كارولـين دوفـت حتـى مُنتصـف الـدَّرَج، تاركـةً إيَّـاي مذهـولًا في مـكاني، غارقًـا في الأصـوات مـن حـولي. اسـتدارت وقالـت بعصبيـة: "أغلـق فمـك. تبـدو كالأبلـه. ألم تَـرَ ثـراءً كهـذا مـن قبـل؟".

أعتقـد أنهـا كانـت تعنـي السـجاجيد السـميكة، وأثـاث خشـب البلوط، والبورتريهـات الرديئـة لآل دوفـت عـلى الجـدار. بالنسـبة لصبـي جوقـة مـن كنيسـة سـانت غـال، كان كل هـذا لا شيء.

تَبعتها عبر أروقةٍ ملتوية، حتَّى ظهرَ بيتر المُطيع، قابعًا في موضعه.

"موسى!" نهض كحارس يُحيِّي جنرالًا، ثم أدرك أنه نسيَ تسجيل وصولي، راجعَ ساعته، ودوَّن اسمي قبل العودة إلى وضع الانتباه. قدَّم لي قناعًا من الفحم.

"إذن لم يستسلم العِلم بعدُ!" قال. "كنت أعرف أنك ستعود مُجدَّدًا. في الوقت المناسب بالكاد أيضًا. يقول الطبيب إن كل ما في مقدورنا فعله هو الصلاة، لكننا للأسف لا نصلِّي هنا في منزل آل دوفت".

"بالتأكيد نصلِّي!" قاطعته كارولين.

"أعني"، قال الكاتب المخلص، وكأنه يلاحظ الإجاصة البشعة للمرة الأولى، "العِلم هو طريقتنا في الصلاة".

"لو كانت هناك صلواتٌ أكثر وعِلمٌ أقل في هذا المنزل"، قالت كارولين، "لم نكن لنواجه كل هذه المتاعب".

"نعم يا سيدتي"، قال بيتر. بدا منزعجًا بشكل بشع، ولهذا خربش هوامشه، وكأن لديه مبلغ هام جدًّا عليه حسابه.

"حسنًا، ادخل"، قالت لي. "لا تنتظرني؛ لن أخاطر بصحتي الفيَّاضة".

منحني بيتر نظرة خاطفة أخيرة، غارقة في الأمل، وكأنها هتاف للعِلم. أو للموسيقى. أو لكليهما.

* * *

كانت أماليا جالسةً على أحد جانبي فراش أمِّها، والسيد دوفت على الجانب الآخر. كانت عيناه ممتلئتين بالدموع، لكنه مسحهما على الفور، ناهضًا من مقعده فيما أدلف. خطا ناحيتي مُسرعًا وشعَّث شعري. بعدها، ظلَّت يده على رأسي وكأنه نسيَ أين وضعها. وقفنا في هذا الوضع لدقيقة فيما يحدِّق بعينيه اللامعتين في الباب ورائي. أماليا تجلس في مقعدها ولا تنظر إلى أيِّنا.

"لقـد أخفقنـا يـا مـوسى"، قـال دوفـت أخـيراً. "حاولنـا، لكننـا أخفقنـا. لم نَنـل مـا يكفـي مـن الفُـرَص، هـذه هـي المشـكلة. ليـس مُنصفًـا، كيـف تمـضي الأمـور. المـرض ينـال كل الفـرص التـي يريدهـا، ولا ننـال نحـن سـوى القليـل جـدًّا. لـو كان الأمـر معكوسًـا لكُنَّـا عثرنـا عـلى الحـلِّ بطريقـةٍ أو بأخـرى. رغـم ذلـك، أشـكرك عـلى محاولتـك. أنجـزتَ شـيئًا نبيـلًا".

تطلَّعـت أماليـا إلى جسـدِ أمِّهـا الخامـد في الفـراش. لم تسـتطع أنفـاس المـرأة السـقيمة أن تجعـل الغطـاء يرتفـع وينخفـض حتـى.

تابـعَ دوفـت. "طلَبَـت حضـورك باكـرًا، لكـن انتهـى الأمـر الآن. يقـول الطبيـب إنـه لم تَعُـد هنـاك فائـدة مـن الأمـل. أحضرنـاك إلى هنـا مـن أجـل لا شيء. يمكنـكَ..." اختنقـت كلماتـه بغتـةً. غطَّـى فمـه، ورأيـت أن اسـتغناءه عـن خدمـاتي كان العلامـة عـلى استسـلامه، للمـرة الأولى ربمـا في سـبع سـنوات بعـد مـا لم يعـد الأمـل يُوهمـه بأفعـالٍ لا طائـل منهـا.

أنصـتُّ لأنفـاس السـيدة دوفـت: هادئـة وقصـيرة. ثـم تطلَّعـتُ إلى صديقتـي مجـدَّدًا. بـدت أماليـا المنطلقـة التـي أعرفهـا خاويـة وهشَّـة، وأدركـتُ أنـه عندمـا ترحـل هـذه المـرأة في نهايـة المطـاف، سـتكتمل وحـدة الفتـاة. لـن تجـد أحـدًا بعـد الآن ليُمسـك بيدهـا ويُمسِّـد شـعرها، لـن تجـد صديقًـا تتباهـى بـه وتَحلُـم معـه؛ ذلـك أن وظيفتـي في منـزل آل دوفـت سـتتلاشى مـع تـلاشي أمِّهـا.

أنـا، أيضًـا، بـدأت في البـكاء، مـن أجـل الأم والابنـة... لكـن أيضًـا مـن أجـل نفـسي. أومـأ دوفـت، بالدمـوع في عينيـه ليُجـاري دموعـي، مُتبـصِّرًا وكأنـه صـارَ مُهيَّـأً أخـيرًا للاعـتراف بوجـود الحـزن في العـالم. قـادني إلى البـاب.

"غنِّ أرجوك"، قالت أماليا، ذاهلةً، دون أن ترفع بصرها.

"عزيزتي"، قال دوفت، "لا فائدة من ذلك. إنها ليست مستيقظة".

"أرجـوك"، قالـت. تصـدَّع صوتهـا، لكنهـا لم تبـكِ. لم أكـن قـد رأيـتُ الدمـوع قـطُّ عـلى ذلـك الوجـه.

وهكـذا، بالتعـارض مـع الحـسِّ العلمـي، بـدأتُ في الغنـاء. مـن تلـك المكتبـة الموسـيقية الصغيرة في رأسي، اخـترتُ أجـزاءً مـن (قُـدَّاس للقديـس أنتـوني) لدوفـاي، مقطوعـة كُتِبَـت عندمـا كانـت الموسـيقى مـا تـزال نقيَّـةً ورائقـة،ب وكأنهـا نبـع جبـلي غـير عميـق مقارنـةً بالمحيطـات الموسـيقية السـحيقة لزماننـا. كانـت السـيدة دوفـت قـد سـمعتها مـرَّات كثـيرة، وأعـرف أنهـا أحبَّـت (المجـد للـه في الأعـالي).

غنَّيـت. حـدَّقَ دوفـت في جسـد زوجتـه النائـم. غطَّـت أماليـا وجهـه بيديهـا وأطلقـت أخـيراً كل الدمـوع التـي حبَسَـتها داخـل روحهـا طـوال سـنين الزيـارات العصيبـة هـذه. غنَّيـتُ بصـوتٍ أعـلى. بـدأ المصبـاح فـوق رأسي في الرنـين. لم يُصـدر جسـد دوفـت أيَّ صـوت. السـيدة دوفـت، أيضًا، لم تسـتقبل صـوتي. لكـن أماليـا بَكـت بنشـيجٍ أقـوى، انفتـح جسـدها لصـوتي، وصـار يـرنُّ بخفـوتٍ كالمصبـاح فوقنـا، صـوتٌ لم تسـتطع سـماعه، لكننـي أملـتُ أنهـا شـعرت بذراعـيَّ الدافئتـين وكأنهـما تلتفَّـان حـول عنقهـا.

وضَعَت رأسها على حافة فراش أمِّها وانتحبت.

ثـم بغتـةً، رفـرفَ جفنـا السـيدة دوفـت. نظـرتُ، وكـما في اليـوم الأول الـذي غنَّيـتُ فيـه لهـا، رأيـتُ مجـدَّدًا صـدى أمـي في هاتـين العينـين.

مـدَّت يـدًا ناحلـة، مرتعشـة، لتلمـس رأس ابنتهـا البـاكي. جفلـت أماليـا، اعتدلـت، وحاولـت إيقـاف دموعهـا، لكنهـا كانـت غزيـرة، وقـد انتظَـرَت وقتًـا طويـلًا جـدًّا لتتسـاقط. ولم تسـتطع هـي هـذه المـرة كبحهـا. تناوَلَـت يـد أمِّهـا وبكـت فيهـا، مُمسـكةً بالعظـم والجلـد عـلى خدِّهـا المبتـل. لم تسـتطع السـيدة دوفـت احتضانهـا؛ حتَّـى جفناهـا كانـا ثقيلَـيْن.

تابعـتُ الغنـاء. كان صـوتي قويًّـا، قويًّـا بمـا يكفـي لاحتضـان أماليـا فيـما تبـكي، قويًّـا بمـا يكفـي لمحاربـة المـوت. غنَّيـتُ بصـوتٍ أعـلى. كانـت

ذراعـاي بـلا وزن برنينهـما؛ بـدت قدمـاي وكأنهـا ترتفعـان عـن الأرض، حتـى صرتُ مثـل جـرسٍ يتـدلّى مـن السـماء. لم يـرنَّ صـوتي في المصبـاح فحسـب، لكنـه كان يـرنُّ أعـلى في أماليـا الآن، ويطنطـن في ألـواح الأرضيـة، في السـقف، وفي حـوافِّ النوافـذ وراء الفـراش.

التهَمَـت جُـدران ذلـك المنـزل صـوتي ورجَّعـت صـداه. امتـلأت كل واحـدة مـن المليـون مليـون صَدَفـة الصغـيرة تلـك بصـوتي وتناقلتـه في سلسـلةٍ مـن الأغنيَّـات، حتـى اندمـج المنـزل بأكملـه في الغنـاء. ثـم تمـادى صـوتي أكـثر: إلى الأرض تحـت المنـزل وفي الخـارج إلى السـماء، وسرعـان مـا أدركـتُ أنني أجعـل العـالم بأكملـه يهتـزُّ، تمامًـا كـما كانـت أمِّـي تُجلجـل العالَـم بأجراسـها. كان الاهتـزاز سـاكنًا، لم يسـمعه أحـد سـواي، لكـن كل إنسـان في آل دوفـت كان بمقـدوره الشـعور بـه كـدفءٍ يجعلهم يبتسـمون.

غنّيـتُ أعـلى وأعـلى، ونفـضَ صـوتي الغبـار والقـذارة التـي تُثقـل علينـا. طـردَ الحـزن والمـرض. طـرد الخـوف والكمـد. هـزَّ الخنـوع وحوَّلـه إلى شـجاعة. نهـضَ المـرضى مـن فُرُشِـهم. زعـزعَ صـوتي اليـأس في أعينهـم. نفضَ الوَهَـن مـن أجسـادهم، والمـرض مـن رئاتهـم. نِلنـا مُجـدَّدًا مـا كنَّـا فقدنـاه.

(3)

لم تَمُت السيدة دوفت في ذلك اليوم، لكنها كانت المرة الأخيرة التي سمعَت فيها صوتي. بعدها بأسبوع، غنَّينا (ترتيلة جنائزية *Trauermusik*) في جنازتها.

أبدًا لم أُدعَ مُجدَّدًا إلى منزل آل دوفت. انتهت صداقتي مع أماليا، أو هكذا بدا لي في الأسابيع التي أعقبت الجنازة. رأيتُها كثيراً، رغم ذلك، لأنه مع ازدياد تأثير عمَّتها على المنزل، كانت أماليا تُؤخذ إلى القُدَّاس كل يوم تقريبًا. عندما أجلس بين صبيان الجوقة غير المؤدِّين الآخرين قُرب المذبح العالي، لم تكن تتوفَّر لي فرصةٌ للاقتراب من الشبيكة التي تفصل صحن الكنيسة إلى نصفين؛ لكن في المرَّات التي أغنِّي فيها، كنت أتسلَّلُ إلى بوابة الشبيكة قُرب جدار الكنيسة. كانت تلك البوابة موصدة دائمًا ولم تُستخدَم أبدًا. كان بمقدوري الاختباء إذا التصقتُ بالعمود الحجري المُثبَّتة عليه مفصَّلاتها. عبر الزخارف

المعدنيـة للبوابـة اقتنصـتُ نظـراتٍ إليهـا وهـي خلـف عمَّتهـا مبـاشرةً، بـين حشـد المُصلِّـين الخارجـين مـن بـاب الكنيسـة.

لأشـهرٍ كثـيرة لم أفعـل سـوى اختـلاس النظـر إليهـا مـن بـين وريقـات الشـجر الذهبيـة، لكـن ذات يـوم أحـد، لم أسـتطع المقاومـة؛ شـدوتُ باسـمها بخفـوتٍ. نظَـرَت إلى يسـارها، إلى يمينهـا، إلى ورائهـا. كثـيرٌ مـن المُصلِّـين الآخريـن أداروا أنظارهـم أيضًـا -حمـدًا للـرَّبِّ أن عمَّتهـا صـمَّاء تقريبًـا- ثـم مـرَّت خارجـةً مـن البـاب. فعلـتُ نفـس الـشيء في القُـدَّاس التـالي الـذي غنَّيـتُ فيـه، ومُجـدَّدًا في الـذي يليـه. في تلـك المـرة الثالثـة، لاحظـتُ أنهـا تسـير ببطء، تنتظـر أن تسـمع اسـمها، وعندمـا همسـتُ بـه، اسـتدارت لتنظـر إليَّ مبـاشرةً في عينـيَّ عـبر بوابـة الشـبيكة.

في المـرة التاليـة التـي غنَّيـتُ فيهـا، بعدهـا بأسـبوعين، لم أضطـرَّ لمناداتِهـا. سـمعتُ تقـول لعمَّتهـا إنهـا ترغـب في رؤيـة التمثـال الجصِّي للقديـس غالـوس، الـذي يزيّـن الجـدار بجـوار الشـبيكة مبـاشرةً. رفعـت كارولـين بصرهـا إلى التمثـال وكأنهـا تشـكُّ أن هنـاك خدعـة مـا في الأمـر، لكـن فيـما تسـتقرُّ عيناهـا عـلى القديـس راعـي الكنيسـة، أومـأت بموافقـة وخَطَـت خارجـةً عـبر بـاب الكنيسـة. خَطَـت أماليـا إلى المُجسَّـم، ولـولا الزخـارف المنسـوجة بكثافـة للبوابـة، لـكان بمقـدوري مـدَّ يـدي وملامسـة كتفهـا. أحنَـت رأسـها. لوهلـة شـككتُ أنهـا أدركـت أننـي هنـاك.

تجهَّمَ وجهها التَّقيُّ. "ستقع في المتاعب"، قالت.

"وكذلك أنتِ".

"لكنني لا أبالي"، قالت بكبرياء. "لا أخاف منها".

"لا أخاف منها أيضًا"، كذبتُ.

تجهَّمَت مجدَّدًا، ثم قاومت التجهُّم. بدت أنها عادت إلى صلواتها.

"سآتي كل أحد"، قالت بغتةً بصوتٍ عال.

"فقط عندما أغنِّي. الأحد القادم هو عيد العنصرة".

"أعرف متى تغنِّي. يمكنني سماعك".

"حقًّا؟".

"نعم. حتَّى وإن كان هناك عشرون صوتًا آخر يغنِّي".

"كيف تعرفين أنه أنا؟" سألتها.

"لا تكن أحمقَ. أعرف". نظَرَت إلى عينَيَّ. ابتسَمَت بدفء. "عليَّ أن أذهب". خطت مُبتعدة والتحمت بتيَّار المُصلِّين الخارجين من الباب الشمالي.

في عيد العنصرة، تمامًا كما وعدتني، عندما ضغطتُ بعينَيَّ على البوابة، مُستكينًا وراء العمود الكبير حتَّى لا يراني أيُّ راهب، كانت هناك، تُخبر عمَّتها مجدَّدًا أنها تريد الصلاة أمام القديس. إيماءة موافِقة من كارولين.

"قلتُ لكَ سآتي"، قالت.

تحادثنا لمدة ثلاثين ثانية، ثم رحلت. حدَثَ نفس الشيء في المرة التالية التي غنَّيتُ فيها، وفي كل يوم أحدٍ بعد ذلك لشهورٍ طويلة. أبدًا لم نتحادث طويلًا؛ خشية أن يمسكوا بنا، ورغم أنني كنتُ أرى كل ما يمكن رؤيته منها، إلَّا أنها لم ترَ منِّي أكثر من تلك العين الواحدة وكَسرات ردائي الكنسي الأسود.

"يا لها من حيزبون"، تلفَّظَت أماليا في ظهر عمَّتها المُنسحبة ذات يوم أحد. "الآن تقول إنني لا أستطيع المشي إلى الكنيسة".

"لماذا؟" سألتها.

"'الفتيات من سنِّك لا يجدر بهنَّ السير في الشوارع، حتَّى مع مُرافقة'. هل سأقضي حياتي في ذلك المنزل أو في عربة تجرُّها الأحصنة؟

معهـا؟، ’سـأجعل منـك سـيدة حقيقيـة‘، تقـول، ’حتّـى لـو كلّفنـي ذلـك حيـاتي‘. أتمنّـى أن يحـدث هـذا. فقـط لـو تَـسرِقُ كلُّ لطخـةِ غُبـارٍ عـلى فسـتاني سـاعةً مـن عمرهـا. إنهـا غاضبـة فحسـب لأنهـا عانـس، لكـن هـذا لا يعنـي أن تجعـل منّـي السَّـيِّدة التـي تتمنّـى لـو كانَتْهـا". تـورَّد وجههـا بالغضـب.

"أعتقد أنك سيدة بالفعل"، قلتُ.

ضمَّـت أسـنانها بقـوة، لكـن الضحـك انفجـر مـن أنفهـا. كَبحـت شـعورها بالحـرج.

"وما أدراك؟".

لم أجبهـا حينهـا، لكننـي كنـتُ أرى كل أسـبوع أن مـا قلتـه كان حقيقيًـا: أنهـا في طريقهـا لُتصبـح سـيدة. الذَّهبـيُّ في شـعرها ازدادَ دُكنـةً قليـلًا. وازدادت هـي طـولًا. لم يَعُـد رأسي يصـل إلى كتفهـا؛ ذلـك أننـي كنـتُ مُتقزِّمًـا. لم أكتسـب سـوى إنـشٍ واحـدٍ كل عـام منـذ ألقـاني كارل ڤيكتـور في النهـر. كان لـديَّ القليـل جـدًّا لإخبارهـا بـه في زياراتنـا، فيـما كان لديهـا الكثـير. "تحـاول لسـنواتٍ اسـتثارته برفـق"، قالـت ذات أحـدٍ في صـوم الأربعـين، "لكـن بالأمـس غَضِبَـت بشـدَّة أخـيرًا لحـدٍّ أنهـا قالتْهـا بصراحـة: ’آنَ الأوان يـا ڤيليبالـد. حـان وقـت إيجـاد زوجـة‘. صُـدمَ أبي! وكأنـه اكتشـفَ لصًّـا يعبـث في خزانتـه. تطلَّـعَ عـبر المائـدة، إليَّ ثـم إليهـا. ’زوجـة؟‘، قـال. ’زوجـة؟ لا يـا كارولـين. لـن أتـزوج ثانيـةً. أبـدًا‘. وعندمـا عاتبتْـه، صرخَ -كـما لم يـصرخ مـن قبـل قـطُّ- ’لـن أتـزوج ثانيـةً أبـدًا. لا تتحـدَّثي إليَّ في هـذا الموضـوع مُجـدَّدًا‘".

أخبرتنـي أماليـا كيـف أن أباهـا قـد ازداد ثـراءً فحسـب. "بـل إن رئيـس ديركـم الرهيـب قـد زاره في منزلنـا! أردتُ الاختبـاء في غرفتـي، لكـن كارولين أجبرتنـي عـلى الجلـوس بخنـوع بجانبهـا".

ثـمَّ عندمـا حـلَّ عيـد العنـصرة التـالي وانقـضى: "لم يَعُـد بمقـدوري احتـمال الأمـر يـا مـوسى. أمقُـتُ ذلـك المنـزل. إنـه كالسـجن. سـألتُ أبي إن كان بمقدورنـا السـفر. إلى مـكانٍ مـا، أيِّ مـكان. كنـتُ على اسـتعداد للسـفر بصحبـة كارولـين حتَّـى، لكـن الحيزيـون رفضـت التفكـير في الأمـر أصـلًا. 'سـتتزوَّجين قريبًـا'، قالـت، 'وحينهـا يمكنـكِ السـفر إلى منـزل زوجـك'".

* * *

عـلى النقيـض، لم تتغـيَّر حيـاتي إطلاقًـا، حتَّـى مـع تغـيُّر العـالم مـن حولي. في الجوقـة، وصـلَ صبيـان جُـدد ليحلُّـوا مـكان الذيـن بَلَغَـت أصواتهـم. كان فيـدر واحـدًا ممَّـن رحلـوا عـن الجوقـة بعـد وفـاة السـيدة دوفـت بفـترة قصـيرة. ذات يـوم، فيـما نتـدرَّب عـلى ثنائيـة جديـدة، وبينـما ينظـر إلينـا الصبيـان الآخـرون برعـبٍ، ارتقينـا أنـا وفيـدر معًـا في اسـتداراتٍ مُعقَّـدة، ومـرَّةً تلـو الأخـرى، تعـثَّرَ صـوت فيـدر ولم يسـتطع اللحـاق بصـوتي.

"إنـه يـؤدي بشـكل خاطـئ"، قـال زاعقًـا لأولرتـش، وأومـأ كل صبـي جالـس عـلى الأرض بعينـين مُتَّسـعتَيْن، رافضـين قبـول مـا لا سـبيل إلى تفاديـه.

"مـوسى يـؤدي بشـكل مُتقَـن". قـال أولرتـش مُؤنِّبًـا. "دائمًـا مـا يفعـل". ابتسـمَ لي، وانكمشـتُ خوفًـا؛ ذلـك أننـي كنـتُ أدرك أن هـذا النـوع مـن الإطـراء سـيزيد مـن كراهيـة الصبيـان لي.

"هذه المرة يؤدي بشكل خاطئ"، أصرَّ فيدر.

"إذن فغـنِّ المقطوعـة بمفـردك". عـرضَ عليـه أولرتـش. اسـتدرنا جميعًـا لننظـر إلى فيـدر، كان الاحمـرار يزحـف إلى عنقـه، فيـما يَـشرَع في الغنـاء. ضـمَّ الصبيـان قبضاتهـم وهـزُّوا رؤوسـهم بحـماس، وكأنهـم يهتفـون لحصـان. ارتقـى في الغنـاء، ولسـانه الرشـيق يشـطر كل نغمـة، ثـم مجـدَّدًا، تعـثَّرَ؛ لم يسـتطع الوصـول إلى النغمـة. تحامـلَ عـلى صوتـه، وتراجـع كل

صبيٍّ فيما صوته يتشقَّق إلى نشازٍ صارٍّ. غَشِيَنا الصمت. استدارَ فيدر إليَّ ورفعَ إصبعًا، ورغم أنني تراجعت، إلَّا أنه لم يجد إهانة مناسبة. انسحبَ خارجًا من الغرفة.

ظلَّ معنا لبضعة أيَّام، يغنِّي بهدوء في الخلفية، ملقيًا نظرات غاضبةً عليَّ كل ثانية. في يوم تدريب فيدر الأخير، طلبَ مني أولرتش قيادة الصبيان في السلالم الموسيقية، التي كانت تلقائيَّةً وجليَّةً لي كما الألوان للرسَّام. لدقيقتين، أنصتَ قائد الجوقة لي فيما أغنِّي ويُكرِّر الصبيان الآخرون ورائي في تناغُم. لم يغنِّ فيدر حينها. "استَمِرَّ حتى أعود"، قال أولرتش وغادر الغرفة.

كالمُعتاد، تداعت هَرَميَّة الموهبة في اللحظة التي اختفى فيها. لسُلَّمَين أو ثلاثة، استمرَّ الصبيان في تقليد نغماتي، لكن بحماسٍ أقلَّ، ثم بدؤوا في التململ وخفض أصواتهم، حتى صرتُ أغنِّي بمفردي في نهاية المطاف.

ترنَّحَ صوتي، ووقفتُ صامتًا أمامهم كملكٍ خُلعَ عن عرشه. لم ينظروا إليَّ، لكنني شعرتُ بازدرائهم لي. فيما يحتشد الصبيان حول فيدر، عاودتني فكرة أن صوتي، بكل كمَالِه ومثاليَّته، لا يعني شيئًا في العالم الواسع في الخارج، عالمٌ سيعود إليه قريبًا فيدر عالي النَّسَب، وإليه سأُلقى أنا أيضًا ذات يوم، عاجزًا وبائسًا.

ثم أدارَ فيدر ظهره إليَّ وسحبَ شيئًا من تحت قميصه، كان من الواضح أنه يريد إخفاءه عنِّي. اقترب حشد الصبيان منه أكثر، وصمتوا على الفور عند مرأى ما يحمله. نظرَ واحدٌ أو اثنان منهم بعصبية إلى الباب، الذي سيعود عبره أولرتش بعد قليل، لكنهم سرعان ما أشاحوا بنظرهم عن كنز فيدر الغامض. لم أجرؤ على الاقتراب من المجموعة، رغم أنني كنتُ أحترق بالفضول بالطبع. كنت على يقين أن ما يحمله كان دليلًا ضدي.

بعـد بضـع دقائـق، كان الصبيـان أثناءهـا يتدافعـون كالخنازيـر عـلى حـوض مـاء، اسـتدارَ فيـدر ناحيتـي. كان يضـمُّ ورقـة صغـيرة عـلى صـدره.

"هـل تحـبُّ أن تـرى يـا مـوسى؟" سـألني، وتحـت سـتار تلطُّفـهٍ، كإيقـاعٍ راعـد يتصاعـد ببـطء عـلى غشـاء طبلـة، سـمعتُ تهديـدًا. لكـن فيـما يخطـو للأمـام، تمنَّيـتُ أن يكـون هـذا فصـلًا أخـيرًا يملـؤه السـلام. اقتربـتُ منـه. ابتسـمَ ومـدَّ الورقـة إليَّ.

كانـت رسَـمةً بالقلـم الرصـاص، بشـحمٍ عـلى حـوافِ الورقـة نتيجـة تمريرهـا عـبر أيـادٍ شـابّة كثـيرة، تُصـوِّر امـرأةً تسـتلقي عاريـةً عـلى فـراش، سـاقاها منفرجتـان، مـع كهـفٍ مُظلـم في موضـع التقائهـما. كانـت عيناهـا كبيرتَـيْن عـلى نحـو مسـتحيل. تُحدِّقـان بلهفـةٍ في رجـلٍ يقـف فـوق رأسـها، مـن بطنـه يمتـد عضـوٌ عمـلاق، منتفـخ. خصيتـان تتدلَّيـان عـل جانبيـه، كشـمَّامتين في شِـوال.

زحـفَ الفـوران عـلى عنقـي وأحـرقَ خـدَّيّ. تضاحـكَ الصبيـان مـن الصدمـة عـلى وجهـي. تمايلـوا عـلى بعضهـم البعـض لمنـع أنفسـهم مـن السـقوط فيـما يسـتغرقون في الضحـك. بالطبـع، كنـتُ سـمعتهم يتحدَّثـون عـن مشـهدٍ كهـذا مـن قبـل، لكننـي لم أتخيَّلـه بهـذه الوضـوح في عقـلي قـطُّ. رفـعَ فيـدر الصـورة أمامـي لمـا بـدا أنـه سـاعات، لكننـي لم أسـتطع انتـزاع عينَـيَّ عـن الرجـل، عـن عضـوه، عـن الثَّقـب الأسـود بـين سـاقَيْ المـرأة. أبعـدتُ عينَـيَّ أخـيرًا واتَّجهـتُ بهـما إلى الأرض.

"ألا تريد أن تنظر إليها أكثر؟" همس فيدر بوحشية.

أردتُ ذلـك. بالطبـع أردت، لكننـي أدركـتُ أنـه لا ينبغـي أن أجعلهـم يـرون تلهُّفِـي.

"هـل رأيـتَ امـرأةً عاريـةً في حياتـك مـن قبـل؟ هـل تعـرف أصـلًا مـا يعنيـه هـذا؟" قـال فيـدر ببـطء شـديد، وكأنـه يتحـدَّث إلى معتـوه. أشـارَ إلى مـا بـين سـاقَيْ المـرأة، وانفجـر الصبيـان وراءه في ضحـكٍ مُهتـاج.

تحامَلتُ على نفسي لأنظر إلى الأرض مُجدَّدًا. شعرتُ بتحديقاتهم عليَّ كهِرَاواتٍ ناخزة. "أو ربما"، قال، وقد استدار الآن ليتحدَّث إلى الصبيان، "لا تثير هذه المرأة اهتمامه على الإطلاق. ربما تُفضِّل الرجل".

توقَّف الضحك الآن، ولم يبقَ سوى الصمت.

عندما طَرَفتُ بعيني، بدا دَفق الدموع عاليًا لحدٍّ أنني تيقَّنتُ أن كل صبي كان بمقدوره سماع خِزيي.

"سأرحل اليوم"، قال فيدر أخيرًا، بخفوتٍ يكفي ليبدو أنه يتحدَّث إليَّ أنا وحدي الآن. "أنا سعيد جدًّا لأنني لن أضطرُّ أبدًا لمشاركة الجوقة مع واحدٍ من أمثالك مُجدَّدًا. كنتُ أتمنَّى، رغم ذلك، لو استطعتُ البقاء لفترة أطول قليلًا، حتى ترحل أنت في النهاية. وددتُ أن أرى هذا الدير وقد عادَ إلى ما كان عليه مُجدَّدًا. بدونك. بدون الراهبَيْن القذرَيْن، صديقَيْك الوحيدَيْن".

أدركتُ حينها أن سرَّ نيكولاي وريموس كان قد انتشرَ منذ زمن طويل في الدير. طالما همسَ الصبيان بشأنهما، لكن هذه كانت أول مرة ينطق أيُّ أحدٍ بالسِّرِّ بصراحةٍ هكذا. انفجرَ خجلي من هذه الصورة، وحبِّي لصديقَيَّ، وتحوَّلَ إلى غضب. اختطفتُ الصورة من يد فيدر ومزَّقتُها إلى نصفين. مزَّقتها مُجدَّدًا فيما يُسقطني أرضًا، لكنني فقدتُ القصاصات فيما يركلني بقدمه.

انكسرَ الصمت. تجمَّع الصبيان حولنا، وكان بمقدوري سماع الكراهية في أصواتهم وهم يهتفون في فيدر "اركل الكلب". أطلقَ العنان لأفضل ما لديه. انسابت الدماء من فمي حتَّى تيقَّنت أنني لن أتنفَّس ثانيةً أبدًا. وطوال كل هذا، فيما غضبه يزداد اهتياجًا بشكل غير مفهوم، ما زلتُ أسمعهم يهتفون ساخرين، "اركله يا فيدر! حان الوقت لكي يفهم! اجعله يدفع الثمن!".

ثمن ماذا؟ حاولت أن أصرخ. أدفع ثمن ماذا؟

في اليـوم التـالي رحـلَ. بقيـت في الديـر، كأكـبر صبيـان الجوقـة سـنًّا وأكثرهـم موهبـةً وأقلِّهـم نيـلًا للاحـترام. تـراءى لي حينهـا أن حيـاتي لـن تتغـيَّر أبـدًا.

(4)

بعد عامٍ من وفاة السيدة دوفت، بدأتُ في النُّموِّ.

كان الأمـر وكأن كل غنائـم نيبلـمات تلـك، كل سـيقان حِمـلان سـانت غـال تلـك، كل لحـم الخنزيـر ذلـك، ولحـوم الضـأن، والأجبـان، وثمـار اللـوز، والحليـب، وخمـر التفـاح، والنبيـذ، كانـت تخزَّنـت وتراكمـت في جسـدي الضئيـل، ثـم اكتشـفتُ، بغتـةً، كل ذلـك الوقـود المُختبـئ واسـتخدمته للانبثـاق أخـيراً مـن صَدَفتـي.

بـدأ الأمـر، ذات يـومٍ أثنـاء تدريبـات الجوقـة، كألمٍ خامـد في يـدَيَّ وقدمَـيَّ. اسـتمرَّ الوجَـع لبضعـة أسـابيع، ثـم اسـتيقظتُ ذات صبـاح لأكتشـف أنـه انتـشرَ إلى ركبتـيَّ وخـصري، ومرفقـيَّ، ثـم إلى كل مفاصـلي. صـار يؤلمنـي بشـدَّة لدرجـة أننـي لم أسـتطع النـوم. امتـدَّ الألم إلى مِحجـرَيْ عينـيَّ، وظننـتُ أن جمجمتـي ستنشـقُّ. في سـتة أشـهر تضاعـف حجـم يـديَّ وقدمـيَّ؛ في سـنة صرتُ أطـول بمقـدار رأس.

في الديـر أثـار نُمُـوِّي القلـق، كاحتشـاد سـحبٍ داكنـة. "سـنرى أوقاتًـا عصيبـة "، قـال لي نيكـولاي ذات ليلـةٍ في صومعتـه. أخـبرني أن صـوتي سيتشـقَّق قريبًـا، وأننـي لـن أعُـد مـؤدِّي سـوبرانو.

"لا أحـد يعـرف مـاذا سـيحدث"، قـال. "ربمـا تصبـح تينـور، أو ربمـا بـاص". كان يأمـل أن يكـون أولرتـش خـيِّرًا بمـا يكفـي ليجـد لي طريقـة للبقـاء في الديـر. شـتاوداخ، أخـبرني نيكـولاي، ربمـا لـن يوافـق عـلى جَعـلي راهبًـا مُبتدئًـا، دون أبٍ ثَـريٍّ يتـبرَّع للديـر مـن أجـلي، لكـن ربمـا يجعلنـي أُلمِّـع الفضَّـة حتـى يسـتقرَّ صـوتي في وضعـه النهـائي. "حينهـا"، قـال نيكـولاي، "نسـتطيع أن نجـد أفضـل مـكان متـاح لتبـدأ فيـه مهنتـك". أومـأ وكأنـه عـالم ببواطـن الأمـور. "ڤينيسـيا، عـلى الأغلـب".

"مهنتي؟" سألته.

"تريد أن تكون موسيقيًا، أليس كذلك؟".

فكَّرتُ في هذا. "مثل بوجاتي؟".

"حسـنًا"، قـال نيكـولاي، وألقـى بنظـرةٍ خاطفـة عـلى ريمـوس، المُسـتغرق في كتابـه، "تقريبًـا. ربمـا يسـمح لي شـتاوداخ بأخـذِكَ في رحلـة. بمقدورنـا أن نغنِّـي في أعظـم كاتدرائيـات أوروبـا". لـوَّح نيكـولاي بذراعـه وكأنـه تلـك الأبنيـة المهيبـة تصطـفُّ عـلى جـدار صومعتـه.

أخبرته أنني أحبُّ ذلك.

"بالطبـع"، قـال، "في المـرة القادمـة التـي أغـادر فيهـا هـذا المـكان، أشـكُّ أن شـتاوداخ سيسـمح لي بالعـودة مـرَّةً أخـرى. لكـن حينهـا سـيكون بمقدورنـا تشـييد ديرنـا الخـاص- أنـت وأنـا وريمـوس". عنـد هـذا، رفـع ريمـوس بـصره عـن كتابـه. نخـرَ، ثـم عـادَ إلى صفحاتـه. تجاهَلَـه نيكـولاي. "أمـر واحـد مؤكَّـد: إذا سُـمحَ لـك بالانطـلاق في جولـةٍ حـول العـالم وصرتَ ثريًّـا ومشـهورًا، فلـن تتركنـي وراءك!".

ابتسمتُ.

عـادَ للاسـتلقاء عـلى فراشـه وأغلـق عينيـه في ارتيـاحٍ ورضـا. "الآن ليـس علينـا سـوى أن ننتظـر صوتـك. كُـن صبـورًا".

* * *

ليـالي كثـيرة كنـتُ أقـف فيهـا عاريًـا أمـام المـرأة الصغـيرة في غرفتـي في العِلِّيَّـة وأتفحَّـص جسـدي الـذي كان يبـدو وكأنـه يتغـيَّر كل ليلـة. لقـد جعلـتُ منـك موزيكـو، قـال رابوتـشي حينهـا، والآن لم يَعُـد هنـاك شـكٌّ. كانـت هنـاك أصابـع بوجـاتي الطويلـة، الرقيقـة، صـدره المسـتدير، المُتكـوِّر، وكأنـه صـدر طائـر. صـار رأسي يحتـكُّ بالسـقف المائـل. كان بوجـاتي يبـدو لي طويـلًا قبـل سـنوات، لكننـي الآن صرتُ أطـول منـه، أطـول حتَّـى مـن كل الرهبـان باسـتثناء نيكـولاي. كان للرهبـان المبتدئـين مـن سِـنِّي شـعرٌ أحمـر فـوق شـفاههم، لم يكـن لـديَّ. كانـت تفاحـة آدم عندهـم تـبرز مـن أعناقهـم؛ فيـما كانـت عنـدي ناعمـة كأعنـاق النسـاء. كان جلـدي أبيـض ونقيًـا، مـع لمسـات خفيفـة حمـراء عـلى خـدَّيَّ، لكـن بـلا شـائبة واحـدة، بـلا أيٍّ مـن البـثرات التـي تمـلأ وجـوه الصبيـان الآخريـن. كانـت شـفتاي ممتلئتَـيْن، لا تختلفـان كثـيرًا عـن شـفاه النسـاء، لكـنَّ أحـدًا لم يكـن ليُخطـئ هـذا الوجـه ويظنـه وجـه امـرأة. كانـت هاتـان العينـان نافذتَـيْن للغايـة لحـدٍّ أننـي كنـت أجفـل في كل مـرَّة ألمحهـما في المـرآة. ومـع ذلـك كنـتُ أنظـر كل ليلـة؛ ذلـك أن مـا أراه في المـرآة لم يكـن رجـلًا، ولا امـرأة، بـل كان مَـلاكًا.

نَمـوَتُ حتَّـى فـاق حجمـي تلـك الكنيسـة. عَصفـتُ بالجوقـة، لأنـه حتَّـى عندمـا أغنِّـي بأخفـض درجـة كان صـوتي يجعـل صـوت الصبيـان الآخريـن مختنقًـا وبـاردًا. في لقاءاتنـا القصـيرة عنـد بوابـة الشـبيكة، حيـث مـا تـزال أماليـا تَحنـي رأسـها وتبـدو كأنهـا في صـلاةٍ لأيٍّ ممَّـن قـد يراهـا، كنـتُ أتـوق لأسـمع إطراءهـا عـلى غنـائي. "أوه، مـوسى"، قالـت ذات أحـدٍ،

"قلبـي يُرفـرف عندمـا تُغنِّـي. مجـرَّد التفكـير أنـك كنـتَ لنـا وحدنـا أنـا وأمِّـي". صرتُ أختلـس النظـر عـبر فُرجـةٍ أعـلى الآن، لأتطلَّـع مـن عـلٍ إلى جمالهـا. مـن وقـت لآخـر، تُلقـي هـي بنظـراتٍ خاطفـة لأعـلى، وأراهـا أنـا تحـاول تبيُّن شـكلي البـشري عـبر تشـابُكات أوراق الشـجر الذهبيـة، لكنهـا أبـدًا لا تـرى هيئتـي الملائكيـة. "المـس يـدي"، قالـت لي ذات يـوم، بتهـوُّرٍ، متجاهلـةً انحناءاتهـا التَّقيَّـة لوهلـةٍ حتـى تتطـاول وتُلامـس البوابـة. أُمـرِّر إصبعـين نحيلتَـيْن طويلتَـيْن عـبر فرجـةٍ وأفـركُ جلـد يدهـا الناعـم للحظـة. يحمـرُّ خدَّاهـا فيـما تسـتدير مُسرعـةً للقـاء عمَّتهـا.

كان الجميـع يتـوق إلى سـماعي. حتَّـى البروتسـتانت كانـوا يجيئـون مـن المدينـة لسـماع قُدَّاسـنا. في نهايـة المطـاف، صـارت الكنيسـة العملاقـة صغـيرة جـدًّا عـلى اسـتيعاب الحشـود. قسَّـمَ شـتاوداخ المدخـل بحيـث يضمـن المصلُّـون الأكـثر ثـراءً، هـؤلاء الذيـن يحتـاج إلى رعايتهـم، مكانًـا للجلـوس في مقاعـد الكنيسـة، فيـما يتزاحـمَ الآخـرون للوقـوف في المؤخـرة. كان الجَمـع يتهامـس وينـام ويـأكل فيـما شـتاوداخ يَعِـظُ بكـمال الـرَّبِّ ومِثاليتـه، لكنهـم يصمتـون فيـما أغنِّـي.

ثمَّ، في ليلةٍ واحدة، تغيَّرَ كل هذا، وأكثر بكثير.

* * *

كنَّـا في غرفـة نيكـولاي. ريمـوس يقـرأ عابسًـا، ونيكـولاي يُبهجنـي بتصوُّراتـه عـن مسـتقبلنا: سنسـافر عـبر أوروبـا معًـا كمُغـنٍّ ووكيـل أعـمال. كان قـد تآمـرَ بشـكلٍ مـا للتَّسـلُّل مـن حجـرة الطعـام تلـك الليلـة بثلاثـة أباريـق مـن نبيـذ الديـر، وبعـد أن احتـسى اثنـين منهـا بالفعـل، دَمَعـت عينـاه، وصـارَ في أفضـل مـزاج. الآن كانـت خطَّتـه مـن أجـلي قـد تشـكَّلَت: قـصرٌ في ڤينيسـيا سـيكون بيتنـا، ومـن هنـاك سنسـافر إلى أعظـم مسـارح أوروبـا. سـنصطحب ريمـوس معنـا ليحمـل حقائبنـا، فـسَّرَ لي، ضاحـكًا

وصاخبًا بصوتٍ عالٍ جدًّا، لحدٍّ أنني تيقَّنتُ أن كل راهب في الرواق بمقدوره سماعنا.

كان نيكولاي قد قرَّر، بما أن صوتي كان بطيئًا على نحوٍ مُدهش في تغيُّره، أنني سأصير بالتأكيد مؤدي تينور. "مؤدُّو التينور هم الأخبث"، قال. "يرتدون أزياءً مثل الأمراء، يمشون مُتبخترين وكأن حركتهم وحدها قادرة على تدويخ النساء، وهو ما يحدث في الحقيقة. في كل مكان يذهبون إليه يتركون وراءهم قافلة من النساء فاقدات الوعي. لا يمكنك دعوتهم إلى حفلات العشاء في منزلك؛ لأنك ستجد كومةً من الضيوف على الأرض في نهاية الليلة". بدا جَزِعًا بغتةً. "لكنك لن تصير مثلهم، أليس كذلك يا موسى؟".

هززتُ رأسي.

"لا؟" هتف، بعد اجتراع كأس آخر من النبيذ. "ولِمَ لا؟ ما المشكلة في تدويخ بضع نساء؟ هذا ما يُرِدنه. كل امرأة ترغب في أن تدوخ من الحب مرَّةً واحدة في حياتها على الأقل. الرجال يرغبون في ذلك أيضًا، لكن حجمهم يجعل من الصعب عليهم أن يفقدوا وعيهم. فقدتُ وعيي ذات مرَّة بسبب الحب".

"لم يكن ذلك حقيقيًّا"، قال ريموس، رافعًا بصره. "في تياترو دوكاله كنتَ تتظاهر بذلك".

"لم أكن أتظاهر".

لمحتُ ابتسامةً مكبوتة على وجهه. "إذا فقدتَ وعيك حقًّا"، قال، "سيعلم العالَم أجمع بذلك. فالأرضيات ليست مُصمَّمة لتحمُّل أوزان كوزنك".

هزَّ نيكولاي كتفيه استهانةً. "إنه على حقٍّ. لا يُسمح لي بالإغماء. ماذا أُقدِّم لأصبح سيدةً نحيلة! حينها سأرتمي ساقطًا متى استولى

عليَّ الشراب! سأفعل ذلك طوال الوقت حينها". نهضَ وتصنَّع التَّأنُّق بأفضل ما لديه، يداه العملاقتان ممدودتان أمام صدره كمخالب أرنب. "سأوالف أذنيَّ وعينيَّ بدقة شديدة على الجَمال بكل صوره لحدِّ أنني سأتمايل على الحافة. لن أحتاج سوى إلى نظرة خاطفة ليُرفرف قلبي، ثم أسقط". تطلَّع إليَّ، مُتظاهرًا بالوقوع في الحب، ووضع يدًا على جبينه، ثم فقدَ وعيه، بحذَر، برفق، واستلقى على الفراش. حتَّى مع ذلك، انبعث الأنين من هيكل الفراش. صفَّقتُ تحيَّةً لأدائه. نخرَ ريموس.

"والحال هكذا"، قال نيكولاي، مُتَّكئًا على الحشيَّة ومُحدِّقًا في السقف، "بهذا التكوين الجسماني عليَّ أن أُخمد أذنَيَّ وأُعتِّم عينَيَّ حتى لا أُجري المخاطر على نفسي وعلى البشرية. هذا الجسد مسؤولية جسيمة". ثم فركَ بطنه المهول بيدين عملاقتين.

هزَّ ريموس رأسه.

"لا تَخَف يا موسى"، قال نيكولاي، مانحًا بطنه تربيتةً مُحِبَّة، أخيرة. "ريموس يُقدِّس هذا التكوين الجسماني بشكل أو بآخر".

رفع ريموس بصره بغضب عن كتابه، اختفت الابتسامة عن وجهه الآن. "انتبه لما تقوله. هذا النبيذ يُرخي لسانك حقًّا".

"أوه، عزيزي ريموس، ليس لدينا أسرار هنا. ليس مع موسى. إنه لا يخفي شيئًا عنَّا، ولا نخفي شيئًا عنه".

"بعض الأمور من الأفضل أن تظلَّ طيَّ الكتمان".

أومأ نيكولاي في اتِّجاه السقف. "أنت على حقٍّ يا ريموس. هناك من الحُبِّ ما لا يجدر الحديث عنه".

قطَّب ريموس جبينه. "شكرًا". هزَّ كتفيه بحرَجٍ ناحيتي وكأنه يطلب معذرتي.

"أحيانًا ما يحتاج الأمر لأغنية فحسب". اعتدلَ نيكولاي. ابتسمتُ. بدا ريموس مُتألِّمًا. سمعَ كلانا العزيمة في صوته: احتشاد عاصفة.

"لا يا نيكولاي. ليس الآن". مكتبة سُر مَن قرأ

"موسى؟".

"نعم؟" اعتدلتُ ووضعتُ يديَّ على ركبتيَّ، كمُستمعٍ توَّاق.

صبَّ كأسًا آخر واجترعه كالماء، ثم وقفَ في منتصف الغرفة. تمايلَ من جانبٍ إلى آخر. كانت عيناه متأرجحتَيْن، لكن برَّاقتَيْن ومبتهجتَيْن للغاية. "حان وقت الغناء!".

أغلق ريموس كتابه. "نيكولاي، الوقت متأخِّر جدًّا"، قال. انتصب واقفًا. "أنا وموسى سنغادر".

"أبدًا لا يتأخر الوقت لأغنية حبٍّ".

"تأخَّرَ الوقت الليلة". أشار ريموس بكتابه إلى نيكولاي. "لا تمنحهم سببًا آخر لكُرهكَ يا نيكولاي".

"كُرهي؟ كيف لأيِّ إنسان أن يكرهني بسبب حبِّي؟".

"سنتحدَّث عن ذلك في الصباح".

"عندما لا أكون ثمِلًا بالحبِّ؟".

"وبسوائل أخرى"، أومأ ريموس إليَّ وأشارَ إلى الباب.

"لا!" هتف نيكولاي، وكأننا على وشك خيانته. وضعَ إصبعًا لإبقائي في مقعدي، مُتمايلًا برفقٍ ورائي. "المُحبُّ المخلص لا يتراجع أبدًا عن إعلان حبِّه. الآن عليَّ أن أغنِّي، وإلَّا لن تُصدِّق الآلهة حبِّي".

"أرجوك"، قال ريموس بجدِّيَّة. "ليس الليلة".

تطلَّعَ نيكولاي إليَّ. "هل ترى المشكلة؟ إذا غنَّيتُ سيبغضونني؛ وإذا لم أغنِّ، سأبغض نفسي". هزَّ كتفيه استهانةً. "ليس خيارًا صعبًا".

عادَ إلى نبيذه، صبَّ كأسًا مُجددًا، اجترعَ رشفةً، ثم خطا إلى خشبة مسرحه الارتجالي. جذبَ ريموس كُمِّي. انحنيتُ وكأنني سأنهض لمغادرته، لكنني لم أفعل. لم أستطع.

بدأ نيكولاي بهدوءٍ شديد:

!" O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir"

"أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!".

استدارَ ناحيتي وهمس: ألا ترى يا موسى؟ أنا مُعذَّب بالحبِّ!".

"هذه الأنوار الجاحدة *Luc' ingrate, dispietate*". تمايلَ باهتياج، ذراعاه كأغصانٍ في الريح. ازداد غناءه صخبًا الآن، صخبًا يكفي لأن يسمعه الرهبان الآخرون عبر الجُدران حتمًا:

"Più del gelo e più dei marmi fredde e sordi ai miei martir, fredde e sorde ai miei martir."

"عديم الرحمة، عديم الرحمة، صامت، بارد، تجاه استشهادي، وكأنه الجليد، وكأنه المرمر".

وضعَ نيكولاي يديه على عينيه وكأنه يريد انتزاعهما.

"حسنًا يا نيكولاي"، قال ريموس. جذَب قميصي بشدَّةٍ أكبر. "هذا يكفي. أوضحتَ وجهة نظرك".

كرَّر نيكولاي: "أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!".

"مـوسى"، قـال ريمـوس. هـزَّ ذراعـي. "علينـا أن نذهـب. سـيتوقَّف إذا غادرنـا".

"هـذا مـا يفعلونـه دائمًـا"، قـال نيكـولاي لي، وكأن ريمـوس ليـس معنـا. "يكـرُّون نفـس الـشيء مـرارًا وتكـرارًا، مـرارًا وتكـرارًا. يجعلـه هـذا أقـوى. وإلى ذلـك، ليسـت الكلـمات مـا يهـم. بـل الغنـاء".

"أوه، اعتقنـي مـن هـذا العـذاب، أوه، دعنـي أمـوت، دعنـي أمـوت!" غنَّاهـا بصخـبٍ أكـبر الآن، ووضـعَ يـدًا عـلى قلبـه وكأنـه عـلى وشـك الانفجـار. صـدَح رنينـه البـاص المرتعـش في معـدتي. كنـتُ عـلى يقـين أن الجنـاح بأكملـه قـد سـمعَ أغنيـة حُبِّـه. لم أسـتطع كتـمان الضحكـة المتنامية عـلى وجهـي. ضحكـتُ بابتهـاج. لم يكـن نيكـولاي يتمتَّـع بنفـس سـيطرتي المُطلقـة عـلى النغـمات، لكنـه اقتنـص عَظَمـة الموسـيقى.

"أنت أيضًا يا موسى". مدَّ يدًا للترحيب بي على خشبة مسرحه.

"موسى، أرجوك"، قال ريموس.

نظـرتُ إلى أحدهـم ثـم إلى الآخـر، ريمـوس بقلـقٍ كبـير عـلى وجهـه، ونيكـولاي ببهجـةٍ عارمـة. لم يكـن خيـارًا صعبًـا.

أبـدًا لم أغـنِّ بالإيطاليـة مـن قبـل، لكنني بذلـتُ مـا في وسـعي لتقليـد نيكـولاي، بمقـدار أوكتافَيْن أعـلى.

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

"أعلى!" هتف بي، وكأنه قسٌّ وثنيٌّ. "السماء تحتاج لأن تسمعنا!".

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

"معًا!" أغلق عينيه ولوَّح بذراعيه.

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

فيما أكرِّرُ الكلمات بمفردي مُجدَّدًا، ارتجلَ نيكولاي، ثم غنَّى سطر باص بسيطًا فيما ارتجلتُ أنا. غنَّينا نفس الكلمات مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة نبتعد أكثر وأكثر عن الأصل حتَّى لم يتبقَّ من الأغنية سوى الكلمات. لم تَعُد الأغنية حول الحُبِّ؛ صارت الآن حول الموسيقى، حول قوَّة الموسيقى. قوَّة كصواعق زيوس.

غنَّى نيكولاي بمفرده.

غنَّينا معًا.

غنَّيتُ بمفردي.

ضحكَ نيكولاي فيما أجول وأدورُ. كنتُ أمطُّ كل كلمة لتصل إلى عشر نغمات، عشرين نغمة، ولتستمرَّ كل جملة واحدة لدقيقة كاملة. هزَّ نيكولاي رأسه بإعجاب. رغم أن ريموس كان مُقعيًا وكأنه ينوي الهروب من الغرفة، كانت عيناه مُثبَّتَتيْن على وجهي، وفمه فاغر بعض الشيء. أدركتُ في تلك اللحظة أن لا أحد، باستثناء أولرتش، كان يدرك القوة الحقيقية لصوتي. في الكنيسة، كنتُ مُقيَّدًا بتلك الأغاني المقدَّسة، المروَّضة. والآن أشعر بقوة هذه الموسيقى الإيطالية، الأكثر إعجازًا بكثير من موسيقى باخ حتَّى. أخذتُ نَفَسًا في رئتَيَّ الواسعتَيْن وغنَّيتُ. انتفخَ صوتي فيما يرتقي. صدحت مرآة نيكولاي بارتعاشات صوتي. غنَّيتُ بصوتٍ أعلى. أردتُ أن أحطِّم كل نافذة في الدير بجمال غنائي. تنفَّستُ مُجدَّدًا، وانحسرَ صوتي، ثم تصاعدَ مُجدَّدًا أكثر، حتَّى وجدتُ نغمةً عاليةً ورائقةً لم أُغَنِّها من قبل قطُّ. أمسكتُ بها، بصوتي يرتعش بموجات صغيرة من الصوت داخل الموجة الأكبر، حتَّى تلاشى ذلك النَّفَس الهائل.

توقَّفتُ لاهثًا. استغرقَ الأمر بضع ثوانٍ حتَّى تبدَّدَ صوتي أخيراً في الليل. حينها، وسط الصمت، رأيتُ على وجهَيْ صديقَيَّ أن حياتي كانت قد تغيَّرت في لحظة واحدة.

لم يَعُد نيكولاي يبتسم. وضع يده أمام أنفه. كان وجهه شاحبًا، وكأنه رأى شبحًا. "ليسامحنا الرَّبُّ"، قال.

حدَّقَ ريموس في الأرض.

"ماذا؟" سألت. "ما الأمر؟" لكنني أدرك بالفعل ما الأمر، أدركتُه رغم أنني لم أستوعبه بالكامل.

اغرورقت عينا نيكولاي بالدموع. "كيف كنتُ بهذه الحماقة؟" قال.

رفع ريموس بصره إليَّ، وبدت عيناه وكأنها تقول، موسى، حان الوقت لنتوقَّف عن التظاهر. ثم عاد ببصره إلى الأرض.

حدَّقَ نيكولاي إليَّ وكأن جسدي كان يتحلَّل إلى ضباب. اتَّخذَ خطوةً للأمام ومدَّ يده.

تراجعتُ عنه. شعرتُ أنني حيوان مُحاصَر، وكأنني أشعر بالفعل بفكَّيْن حول عنقي.

انقضَّ نيكولاي. ضغطَ بجسده العملاق عليَّ قبالة الجدار. فاحت منه رائحة النبيذ.

«لا!» صرختُ. هززتُ رأسي باهتياج.

«أنا آسف يا موسى»، قال. «عليَّ أن أتأكَّد». جذبَ ردائي لأعلى.

حاولتُ أن أدفعه بعيدًا، لكنه كان في غاية القوة. شعرتُ بيديه على ملابسي التحتانية، وفيما أتلوَّى في قبضته، انتزعها عن جسدي، وبغتةً صرتُ واقفًا أمامهما عاريًا. لم يتحرَّك أيٌّ من الراهبين لوهلة

طويلة؛ ثم أفلتني نيكولاي. مدَّ يدًا مُرتعشة، وكأنه يرجو العفو عن الاعتداء. كانت أنفاسه مُهلهلة. ضمَّ قبضتيه وطرفَ بعينيه الداميتين المكدودتَيْن وكأنه يناضل حتَّى تنصاع له رؤيته المُغبَّشة، الثَّمِلة.

وقفَ ريموس وراء نيكولاي. وضع يدًا على كتف الرجل الأضخم منه. "نيكولاي"، قال. "عليكَ أن...".

أزاحَ نيكولاي اليد بعيدًا. أخذَ بضعة أنفاس بطيئة. ثم نظرَ عميقًا في عينَيَّ. رغم أنني أدركتُ أن الغضب الكامن فيهما لم يكن موجَّهًا لي، إلَّا أنني وجدتهُ مُرعِبًا. "مَن فعلها؟" همسَ.

"لا يا نيكولاي"، قال ريموس، بأهدأ ما يستطيع.

"موسى، لا بُدَّ أن تخبرني. أخبرني الآن".

قبضَ ريموس على ذراع نيكولاي بكلتا يديه. في زماننا معًا بأكمله، أبدًا لم أره يُمسك بنيكولاي هكذا. "أرجوك يا نيكولاي"، قال. هزَّ ذراعه. "نيكولاي! أرجوك!".

أمسك نيكولاي بكتفَيَّ بغتة. "أولرتش؟ هل هو أولرتش؟".

"نيكولاي، لا تفعل"، ترجَّاه ريموس. "ليس الآن. غدًا. لا تتسرَّع".

أخذَ نيكولاي في هزِّي وكأنني عديم الوزن. "أخبِرني يا موسى!" زمجرَ.

اغرورقت عينا ريموس بالدموع. "أرجوك يا موسى"، قال. "لا تُجِبه".

"أقسمتُ على حمايته"، صاحَ نيكولاي في ريموس.

"فات الأوان"، قال ريموس لي.

"أخبِرني"، قال نيكولاي. في عينيه كان غضب لم أدركَ قَطُّ أنه قد يوجد في هذا الرجل المُحسِن.

تحوَّلـتُ ببـصري عـن وجـه ريمـوس المتوسِّـل إلى نيكـولاي. أرجـوك، كانـت أعينهـم تقـول. أرجـوك.

"أولرتش"، قلت.

أومـأ نيكـولاي فيـما يخطـو متراجعًـا. تشـبَّثَ ريمـوس بكـم قميصـه وتوسَّـلَ إليـه أن يتوقـف. اسـتدارَ نيكـولاي، وبدفعـةٍ واحـدة، عفويـة، أسـقطَ صديقـه عـلى الأرض. فتـح نيكـولاي البـاب، تعـثَّر قليـلًا عـلى حافَّـة البـاب، ثـم اختفـى.

* * *

هرعنـا في إثـره، لكـن رغـم أنـه كان ثمِـلًا للغايـة، إلَّا أنـه ركـضَ بسرعـة عـبر الظـلام. تعـثَّرَ وسـقط عنـد أعـلى الـدَّرج، لكنـه سرعـان مـا نهـض. تـردَّدَ صـدى خطواتـه عـبر أروقـة الديـر، لكـن مـع وصولنـا إلى الطابـق الأول، كان الرهبـان الآخـرون يتلصَّصـون بأنظارهـم بالفعـل عـبر أبوابهـم.

"لا شيء"، قـال ريمـوس، ملوِّحًـا لهـم ليعـودوا أدراجهـم، لكـن هـذا لم يفعـل سـوى أقنعهـم في السـير في إثرنـا. جاءنـا صـوت خبطـات قويـة مـن الطابـق الأرضي. وصلنـا لـنرى نيكـولاي يندفـع إلى بـاب أولرتـش. خلَخلـه مـن موضعـه بصـوتِ تحطُّـم، أخـذ ثـلاث خطـوات للـوراء، ونَفَسًـا عميقًـا، ثـم زمجـر فيـما يندفـع ناحيتـه مُجـدَّدًا. حطَّمـه بكتفِـه، مُنتزِعًـا مفصَّلاتـه. خطـا إلى الغرفـة، التـي كانـت مُضـاءةً بشـمعة وحيـدة.

كان أولرتـش يتوقَّـع هـذا. كان ينتظـره لخمسـة أعـوام، ويحـاول الهـروب بالفعـل. كان الرجـل العجـوز بجـوار نافذتـه، يرتقـي بحَـذَرٍ عتبـة النافـذة حتَّـى يسـتطيع القفـز إلى المُعتـزَل المظلـم. لكـن نيكـولاي كان وصـلَ إليـه بالفعـل، وبـدلًا مـن جـذب قائـد الجوقـة عائـدًا بـه إلى الغرفـة، أمسـك بـه -بيـدٍ عـلى ردائـه الكهنـوتي ويـدٍ عـلى الشـعيرات المتناثـرة عـلى مؤخـرة رأسـه- ثـم طـوَّحَ بـه عـبر النافـذة المفتوحـة.

صرخَ أولرتش فيما يطير في الهواء، كانت صرخةً خاوية، عديمة الروح. اصطدمَ بالأرض وسمعتُ تكسُّر ضلوعه، كتشظِّي آلة كَمان. صفَّرَت رئتاه فيما يلهث طلبًا للهواء.

تَبعه نيكولاي بجسده العملاق عبر النافذة. قفزَ من على عتبة النافذة ووصل إلى الأرض بقدمٍ واحدة، لكنه سرعان ما وقفَ على قدميه معًا مُجدَّدًا. تعثَّر بالرجل المَحطَّم وشَرعَ في ركله. حاولَ أولرتش الهروب زاحفًا، لكن ركلة نيكولاي الأولى كَسرت ذراعه اليسرى. سقطَ على وجهه. انضغطَ وجهه على العُشب. تأوَّهَ مع كل ضربة.

كان هناك رُهبانٌ يحدِّقون من كل نافذة. تسرَّبَت الدماء من فم أولرتش. بصقَ فيما يحاول التَّنفُّس.

راقبتُ من نافذة أولرتش. لم أحوِّل عينَيَّ. لم تمنحني الركلات والصرخات أيَّ بهجةٍ... كان العار يتصاعد عميقًا داخلي، العار الذي كان يمورُ كامنًا منذ أخبرني رابوتشي بما فعله بي. العار، لأنني رغم أنني لم أفهم بالكامل ما صرتُ إليه بعدها، إلَّا أنني أدركتُ أنه كان شيئًا مريعًا، مريعًا لحدٍّ أن هذا الرجل يستحق الموت جزاءً له.

بجواري، كان ريموس خارج النافذة بنصف جسده، يرجو نيكولاي أن يتوقَّف، لكن العملاق لم يكن يتوقَّف إلَّا لمسح دموعه. دفنَ نيكولاي وجهه في يديه وزأر. "مجرَّد صبي!" صرخ. "إنه مجرَّد صبي!" ثم ركلَ أولرتش الزاحف، الباكي، مُجدَّدًا: ارتجاجاتُ ألمٍ عن كل بهجةٍ مستقبلية سَرقها هذا الرجل مِنِّي. غرغَرَت الدماء من فم أولرتش فيما يتوسَّل الغفران، لكن نيكولاي لم يكن لديه أيُّ غفرانٍ ليمنحه.

هرعَ أربعة جنود عبر المُعتزَل. رفعَ اثنان المصابيح، واستلَّ الآخران سيوفهما. لكن عندما رأوا أنه لم يكن لصًّا، بل نيكولاي فحسب، أكثر الرُّهبان إحسانًا، تجمَّدوا، غير مُتيقِّنين ممَّا عليهم فعله.

هتفوا فيه ليتوقَّف، لوَّحوا بسيوفهم، لكنه لم يُلقِ لهم بالًا؛ لم يستطع. خطا واحدٌ من الجنود إلى الأمام ورفع سيفه، لكنه أسقطه مُجدَّدًا. ثم وضع الرجلان المُسلَّحان نصالهما أرضًا وأمسك الأربعة بذراعَيْ الراهب العملاق. اشتبكوا معه، فيما أولرتش الدامي يحاول مُجدَّدا الهروب زاحفًا. زعقَ الرهبان جميعهم في نيكولاي ليتوقَّف. "من أجل محبَّة الرب، ستقتله!" الآن كان رئيس الدير قد ظهرَ أيضًا. وقفَ عند نافذة مفتوحة، وصرخَ في الجنود في الأسفل، "أوقفوه! استخدموا سيوفكم إذا اضطررتم! أوقفوه!".

لكن نيكولاي لم ينتهِ بعد. قاومَ الحُرَّاسَ، جائرًا كالمجنون. حرَّر ذراعًا، وبدلًا من استخدامها لدفعهم بعيدًا، تناولَ واحدًا من مصابيح الجنود ورفعه فوق العِراك، عاليًا فوق وجهه. كانت عيناه مضاءتَيْن كقطرتين من النار. أدركتُ أن هذا الغضب كان من أجلي، من أجل عاري، العار الذي أبقيته سرًّا طوال تلك السنين. ورغم أن الجميع -ريموس، الرهبان، رئيس الدير- كانوا يصرخون من حولي، إلَّا أنني كنتُ صامتًا. لم أطلب من نيكولاي التَّوقُّف.

طوَّحَ بالمصباح في اتِّجاه أولرتش المُنسحِق، الذي كان قد تخلَّى عن محاولات الهروب. تحطَّم المصباح على الأرض، ولوهلة كان وجه أولرتش مُبتلًّا بالزيت. حدَّقَت عيناه إليَّ برعب. وقبل أن يتمكَّن من إبعاد اللهب، احمرَّ وجهه، ثم احترق مُعلِّمي، وسط صرخاته.

(5)

"إنه ينشد العفو".

تحـدَّثَ ريمـوس بالنيابـة عـن نيكـولاي الصامـت فـور أن صرنـا بمفردنـا مـع رئيـس الديـر. كان منتصـف الليـل قـد حـلّ، ولم يكـن ناسـخه المرتـاع قـد أشـعل سـوى شـمعةٍ واحـدة قبـل هروبـه مـن المشـهد. موضوعـة عـلى مكتـب شـتاوداخ، أضفـى لهـب الشـمعة عـلى رئيـس الديـر الضئيـل طـولًا خارقًـا للطبيعـة. كان ظـلَّ رأسـه مُتعملِقًـا عـلى السـقف والجـدار وراء مكتبـه.

«العفو؟».

أومأ ريموس.

هزَّ شتاوداخ رأسه بعصبية. "ليس مِنّي".

سـمعتُ رهبانًـا يُنشـدِون في الكنيسـة، يُصلُّـون مـن أجـل روح أولرتـش، ومـن أجـل روح نيكـولاي. لم يَنَـم أحـدٌ تلـك الليلـة. بقينـا جميعًـا نراقـب

أولرتش يضرب وجهه بيدين، مَحاولًا إخماد اللهيب الذي أذاب عينيه وجلده. لم يساعده أيٌّ منّا. ظللنا نراقبه فحسب في صمت الصدمة حتَّى انطفأت النيران واستلقى ساكنًا على الأرض. ثم حملَ أربعة رهبان جسده الذي ينبعث منه الدخان إلى النافورة وغمَروه فيها حتَّى احمرَّ الماء بالدماء.

"إذا مات، ستُشنَق"، قال شتاوداخ.

ورغم أن نيكولاي كان يقف بكبرياء وتحدٍّ أمام رئيس الدير، إلَّا أن أنفاسه كنت ضحلةً، والخوف يسري في ارتعاشاتها.

"بالتأكيد، أبتاه رئيس الدير"، قال ريموس، "حتَّى وإن لم يكن هناك مجال للعفو، فحتمًا هناك رحمة". كان ريموس يقف أمامنا عند المكتب، بعينيه النديَّتَيْن تلتمعان في ضوء الشمعة.

"الرحمة؟" هزَّ شتاوداخ رأسه، وتكرَّرت تلك الحركة عشر مرَّات بصورة أكبر في الظلال وراءه. "لا لا أستطيع منح الرحمة لمَن يرغب في تدمير هذا الدير".

"لا تقتل رجلًا مُحسنًا باسمنا"، ارتعشَ صوت ريموس، فيما يداه ترتفعان قليلًا في تضرُّع.

"رجل مُحسن؟" انحنى رئيس الدير للأمام وتضاعفَ ظلُّ رأسه على الجدار. "دومينيكوس، الرجل المُحسن لا يوسع أخاه ضربًا. الرجل المُحسن لا يُضرم النار في أخيه".

"يستحق كل ذلك وأكثر"، قال نيكولاي من بين الظلال. كان صوته هادئًا، لكن واثقًا.

أدار شتاوداخ عينيه إلى نيكولاي وتفحَّصه في الضوء الخافت. تحدَّث بحدَّة. "أيُّ جريمة قد تستحقُّ ما فعلتَه به؟".

نظرَ نيكولاي بخواء إلى رئيس الدير، لكنه لم يُجب.

"تحدَّث!" أمره شتاوداخ.

"نَذرتُ نذرًا".

"لديـكَ نـذرٌ آخـر، وهـو نَـذرٌ بذلتـه لي!" زأرَ شـتاوداخ وخبـطَ عـلى مكتبـه براحتـه. انكمشـتُ خوفًـا. تطلَّـع رئيـس الديـر إلى ريمـوس ثـم إلى نيكـولاي. "الآن، أيُّكـما سـيدافع عـن هـذه الجريمـة؟".

"لقد أقسمت بالفعل على قتلي"، أجابه نيكولاي. "لن أقول".

تحوَّلَـت العينـان الباردتـان إلى الراهـب الضئيـل. "تحـدَّث أنـت إذن يـا دومينيكوس".

"كلا، يا أبتاه رئيس الدير".

"وأنت"، قال أخيراً لي. "لماذا أنتَ هنا؟ ماذا لديك لتقوله؟".

رغـم أننـي كنـتُ أطـول مـن رئيـس الديـر بكثـير، إلَّا أننـي شـعرت وكأننـي مـا أزال ذلـك الطفـل الضئيـل الـذي وقـفَ في هـذا المكتـب منـذ سـنوات، الطفـل الضعيـف الـذي كان رئيـس الديـر يـودُّ طـرده مـن هـذه الغرفـة ذاتهـا.

"تحدَّث!".

اسـتغرقنا في الصمـت. أزَّت الشـمعة. تنفَّـس شـتاوداخ. تطلَّـع إلى نيكـولاي. "لم تـترك لي خيـارًا إذن"، قـال.

كانت يدا نيكولاي ترتعشان.

"لقد أخصاني"، قلتُ.

شـعرتُ بعينيـه تنزلقـان ببـطء عـلى كل تفصيلـة في وجهـي. عـلى وجهـه، في البدايـة كان عـدم التصديـق، ثـم الرعـب. أدركَ أخـيراً لمـاذا كان صـوتي قـد قـاوم طويـلًا هكـذا.

"أخصاك؟" همس. حدَّق صديقاي في الشمعة المُحترقة على المكتب.

"أين؟".

لم يجيباه.

استدارَ إليَّ. كان حَلْقه مشدودًا؛ قاومَ ليطلق أنفاسه. سعلَ بالكلمات. "تحدَّث! أين! هل كان ذلك في هذا الدير؟".

أردتُ بشدَّة أن أكون قويًّا، لكن ركبتاي ارتجفتا وكأن الأرض نفسها قد انتفضت تحتهما.

نهضَ رئيس الدير وانحنى فوق الشمعة. "إذن فأنت مخصيٌّ؟ طواشي؟".

أومأتُ. كان وجه رئيس الدير أبيضَ كحجارة كنيسته. التمع صليبه على صدره في وهج الشمعة.

"منذ متى؟".

"منذ تدشين الكنيسة".

"لكن هذا كان منذ خمسة أعوام"، قال شتاوداخ، وقد تزايدَ الرعب في صوته.

أومأتُ.

"ليرحمنا الرب"، همسَ. لبضع ثوانٍ لم يتحرَّك على الإطلاق. حدَّق فيماَ وراءنا. "الموت للخاصي"، تلا رئيس الدير. "الحرمان الكَنَسي لكلِّ مَن يساعده. هذا هو القانون. قانوني. قانون البابا. إنه قانون الربِّ". وكأنه أدرك أن صوته يتصاعد، سعلَ بخفَّةٍ وهمس مُجدَّدًا، "صبيٌّ يُخصَى. في دَيْري!" عادَ اللون إلى وجهه. حدَّق في نيكولاي باهتياجٍ. "أبدًا لم أُرِدْه هنا. حاولتُ إبعاده، لكنكَ لم تدعني".

تابعَ، "والسفير الباباوي نائم هنا؟ وثمانية عشر رئيس دير! سمعوكَ تغنِّي! سيظنُّون أنني أمرتُ بذلك. أنني حملتُ السِّكِّين. سيطردونني من الكنيسة. أنا!"، أمسك رئيس الدير بالصليب المُتدلِّي على صدره.

"لن يكون عليهم أن يعرفوا أبدًا، أبتاه رئيس الدير. سنرحل"، قال ريموس، وخطا للأمام. "الليلة".

"نعم"، قال شتاوداخ، مومئًا، مُتطلِّعًا عبر ريموس إلى ظلٍّ بعيد ناءٍ ما. "نعم، لا بُدَّ أن ترحلوا. أنت ونيكولاي معًا".

"والصبي".

"لا!" قال شتاوداخ. مدَّ يده وكأنه سيقبض عليَّ. أمسكَ نيكولاي بكُمِّ قميصي وجذبني للخلف. "لا، لا بُدَّ أن يبقى هنا"، تابعَ رئيس الدير، مُشيرًا بإصبع مُرتعشة إلى نيكولاي ثم إلى ريموس. "أنتما، عليكما أن ترحلا. أنتما منفيَّان. إذا وضعتما قدمًا على أراضي هذا الدَّير مُجدَّدًا سأشنقك لارتكابك القتل والإخصاء".

"هذا جنون"، قال ريموس.

أومأ رئيس الدير، وإصبعه الآن موجَّهة إلى صدر ريموس. "على هاتين الجريمتين ستموتان كلاكما، إذا عُدتما أبدًا إلى هنا أو إلى أي دير في سويسرا بأكملها".

نطقَ نيكولاي. "لن أترك موسى هنا".

"ستفعل!" تطاولَ رئيس الدير عبر مكتبه.

"أفضِّل أن أموت". اقترب نيكولاي ببطء من المكتب، واعتقدتُ أنه سيقْلبه. تراجع شتاوداخ خائفًا وسقطَ في مقعده. تأوَّهَ ورفع يدًا وكأنه يحمي وجهه. أمسك نيكولاي بحافَّة المكتب.

"لا"، قلت. استداروا جميعًا في دهشة. "لا يا نيكولاي. لا بُدَّ أن ترحل".

هزَّ نيكولاي رأسه. "لا يا موسى. لن أرحل. ليس بدونك".

"لقد أمرتك بذلك!" هتفَ رئيس الدير.

بالشمعة وراءه، لم أستطع تبيُّن وجه نيكولاي، ولا وجه ريموس الواقف بجواره، رغم أنني رأيت من بينهما تقطيبة رئيس الدير بوضوح. لسنوات طويلة، هكذا سأتذكَّر المشهد: خيال ظلِّهما يقف ببسالة بيني وبين رئيس الدير، مُستعدًّا للموت على أن يهجرني.

"نيكولاي"، قلت.

خطا نحوي وأمسكَ بكتفَيَّ. "لن أتركك معه"، قال، كان صوته الآن عميقًا ورنَّانًا، جسورًا كأناشيده.

"لا بُدَّ أن ترحل"، همستُ، صوتي أضعف ألف مرَّةً من صوته. "لا خيار أمامك".

"أفضِّل الموت"، قال نيكولاي.

"وحينها سأكون وحيدًا بحقٍّ".

هزَّ نيكولاي رأسه. كان قريبًا بما يكفي الآن لأرى الدموع تملأ عينيه. "موسى، أقسمتُ على حمايتك".

"يومًا ما سألحقُ بك"، قلتُ. "أعِدُكَ".

كان ريموس عند مِرفقي الآن. "سنذهب إلى مِيلك"، همسَ في أذني حتَّى لا يسمعه رئيس الدير. "في النمسا. دومًا سيكون لديك صديقان ما دُمنا حيَّيْن. سننتظرك. الحَقْ بنا".

أومأتُ له، عاضًّا شفتيَّ. تناول ريموس ذراع نيكولاي، لكن الرجل الأضخم لم يكترث له. هزَّ رأسه، اتَّسعت عيناه.

"نيكـولاي"، قلـتُ. بـدا أنـه سـينهار، لكـن بغتـةً صرنـا في عنـاق. الآن، بعـد ثمانيـة أعـوام مـن انتشـاله لي مـن النهـر، كان رأسي يصـل إلى مـا فـوق كتفـه، وعندمـا ضمَّنـي، شـعرتُ بدموعـه الدافئـة عـلى جبينـي.

"أنا في غاية الأسف".

"سـآ... سـآتي وأجـدك"، همسـتُ بـدوري. أمسـكتُ بنسـيج ردائـه الكنـسيِّ في قبضتـيَّ. احتضننـي وأدركـتُ أنـه لـن يفلتنـي أبـدًا مـا لم أُفلتْـه أولًا، ولهـذا أزحتـه بعيـدًا برفـق. ثـم قـاده ريمـوس إلى البـاب، ورحـلا، دون أن ينظـرا مُجـدَّدًا إلى الرئيـس. لاحقًـا، عندمـا مـررتُ بصومعتيهـما، اكتشـفتُ أنهـما لم يتوقَّفـا لجَمـع أغراضهـما حتَّـى. لم يـؤدِّ نيكـولاي صـلاة واحـدة أخـيرة في تلـك الكنيسـة. لم يأخـذ ريمـوس كتابًـا واحـدًا.

لم يَعُد أيٌّ من الرَّجُلين قطُّ إلى سانت غالن، أو إلى سويسرا.

* * *

بقيـتُ بمفـردي مـع رئيـس الديـر كويلسـتين جوجـر فـون شـتاوداخ. حـدَّقَ في الشـمعة عـلى المكتـب، لهبهـا يتوهَّـج بمثاليـة تمامًـا كالعالَـم الـذي طالمـا تـاق إلى تحقيقـه في هـذا الديـر. بعـد بضعـة دقائـق، رفـعَ بـصره إليَّ. كانـت عينـاه قـد فقدتهـا برودتهـما، كراهيتهـما.

"تعال يا بُنيّ"، قال. أومأ بحنوٍّ، وكأنه يقول، انتهى الأمر الآن.

تـردَّدتُ للحظـة فحسـب. فرغـم أننـي وجدتـه مقيتًـا وبشـعًا، إلَّا أنـه لم يَعُـد لي أحـدٌ في العـالم الآن. خطـوتُ حـول المكتـب ووقفـتُ بجـواره في ضـوء شـمعته. أحنيـتُ رأسي. جالـت عينـاه عـبر وجهـي، عـبْر جسـدي النحيـل، الطويـل.

"تتمنَّى أن ترحل معهما، أليس كذلك؟".

"نعم"، أجبته.

نظَرَت عيناه عميقًا في عينيَّ. "موسى، هل تدرك ما أنتَ عليه؟".

لم أجب.

نظـرَ إليَّ بتمعُّـن في ضـوء الشـمعة المُرتعـش، تحديقتـه تنزلـق عـلى كل تفصيلـةٍ في وجهـي، ثـم أومـأ ببطء، وكأنـه رسـولٌ يحمـل أخبـارًا مريعـة. كان صوتـه هادئًـا وموزونًـا مُجـدَّدًا. "بنـيَّ، أنـت طـواشيٌّ. لسـتَ رجـلًا. ولا امـرأة. أنـت مخلـوق لم يقصـد اللـه قـطُّ أن يخلقـه، مُقـدَّرٌ عليـك أن تظـل خـارج خطـط الـرَّبِّ. يقـول قانونـه إنـه لا يمكنـك أن تتـزوج؛ ولا بمقـدورك أن تكـون قسًّـا. هـذه ليسـت قسـوةً. أعتقـد أنـه إذا كُنـتَ صادقًـا مـع نفسـك، سـترى لمـاذا ينبغـي أن يكـون الأمـر كذلـك. مـوسى، جسـدك لـن يسـمح لـك أن تكـون أبًـا. أنـت ضعيـف: عضـلات امـرأة عـلى هيـكل رجـل ثقيـل. لا يمكنـك العمـل في الحقـول. عقلـك أيضًـا ضعيـف. أبـدًا لـن تعـرف التفكـير الذكـوري. هـل أخـبرك صديقـاك بهـذا يـا مـوسى؟".

هـززتُ رأسي. رغـم أننـي لم أسـمع هـذه الأشـياء تقـال مـن قبـل قـطُّ، إلَّا أنهـا دائمًـا مـا أثـارت خـوفي.

"يريـدان أن يسـاعداك، لكنهـما لا يسـتطيعان. ليـس لديهـما سـقفٌ لينامـا تحتـه". لـوَّح بيـده بـازدراء. "لـن يقبـل بهـما أيُّ دَيـرٍ؛ ذلـك أنهـما لوطيَّـان. بمقـدور أي رئيـس ديـر أن يقـرأ الخطيئـة عـلى وجهيهـما بسـهولة، كـما فعلـتُ أنـا، وحينهـا سـيُعرِض عنهـما. بمقـدورك اللحـاق بهـما، لكنكـم سـتموتون مـن الجـوع معًـا. لكنهـما رجـلان يـا مـوسى، وأنـت لسـتَ كذلـك. سـيتضاحك النـاس عليـك خـارج هـذه الجُـدران. هنـا خُدعنـا بالتَّقـدُّم البطـيء لحالتـك. الآن فقـط أراهـا بوضـوح في جسـدك. أنـتَ صُدفـةٌ طبيعيـة، نِتـاج للخطيئـة وليـس للنعمـة الرَّبَّانيَّـة".

تطلَّـعَ رئيـس الديـر إلى مـا ورائي، باحثًـا عـن تفسـير لوجـودي في غرفتـه المُظلمـة. هـزَّ رأسـه. "هـذا مؤسـف حقًّـا يـا مـوسى"، قـال. "مؤسـف حقًّـا. هـذا العـالم، ببسـاطة، لم يُخلـق مـن أجـل أمثالـك".

شـعرتُ بضعـفٍ شـديد يتفـشَّى مـن قلبـي، بارتجـافٍ يوشـك عـلى إسـقاطي عـلى ركبتـيَّ. كل شيء قالـه كان حقيقيًـا. كيـف لي أن أنكـر؟ في وجـه رئيـس الديـر المهمـوم، للمـرة الأولى، رأيـتُ أنـه ربمـا لم يكـن بـاردًا وميِّـتَ القلـب كـما ظننـتُ. كان رجـلًا طالمـا عَمِـل بشـدَّةٍ ليخلـق نظامًـا مـن عـالمٍ فوضـويٍّ. مائـة ألـف إنسـان يعتمـدون عـلى إرشـاده، والآن، هـا هـو، قبـل الفجـر بسـاعات، يحنـو عـلى روحٍ واحـدة فحسـب.

تفحَّصتنـي عينـاه. "مـوسى، لا أسـتطيع إبقـاءك هنـا ضـد إرادتـك. لـن أفعـل. الديـر ليـس سـجنًا. مـا قُلتـه منـذ قليـل -أن بمقدورهـما أخـذك معهـما- قلتـه لمصلحتهـما ومصلحتـك. لكننـا الآن بمفردنـا، عليـكَ أن تختـار. ارحـل، إذا شـئت؛ قـد تسـتطيع اللحـاق بهـما. اذهـب وأخبرهـما أن عليهـما الاعتنـاء بـك، أن عليهـما أن يأخـذاك معهـما. أنهـما لـن يتـبرآن منـك، أنهـما سـيجدان طريقـةً لإطعامـك، أنهـما سـيجدان وسـيلةً للاعتنـاء بـك، حتَّـى وإن كان ذلـك يعنـي أنهـما سـيعانيان مـن أجـل ذلـك".

كان رئيس الدير صامتًا. نظرَ إليَّ بتمعُّن.

أرحـل؟ لم أرغـب في شيءٍ أكـثر مـن هـذا. مـع رحيـل صديقـيَّ، كنـتُ أشـعر بالفعـل بخـواء ووحـدة الديـر تتـسرَّب إلى كل غرفـة. وهنـاك خارجـه، يوجـد صديقـان منحـاني الحـبَّ.

مـا زال رئيـس الديـر صامتًـا. أنفاسـه الموزونـة تنسـاب داخلـةً وخارجـةً، داخلـةً وخارجةً.

"سأسـمح لـك بالبقـاء هنـا يـا مـوسى"، قـال أخـيرًا. "مَـن في الديـر أوقعـوا بـك ظُلـمًا رهيبًـا؛ ولهـذا سـأفعل مـا في وسـعي لتصحيحـه. إذا اخـترتَ البقـاء، سـأمنحك مـا حرمتُـك منـه قبـل أعـوام: الفرصـة لتصبـح راهبًـا مُبتدئًـا لتصبـح ذات يـوم، ربمـا، راهبًـا حقيقيًـا. سـتحتفظ بصومعتك. سنسـتمرُّ في إعاشـتك. سـأعمل عـلى ألَّا تـضرَّ أحـدًا بضعفـك. لا بُـدَّ ألَّا

يعرف أحدٌ بنقيصتك. لن يعرف أحدٌ سواي. موسى، أتمنّى أن تدرك أنه لا يوجد شيء أكثر من ذلك يمكن لي أو لغيري منحه لك".

تخيَّلتُ نيكولاي وريموس، ليس كما قابلتهما أول مرَّة -على أفخم الأحصنة، ونيكولاي بعملات معدنية من الدير في جيوبه لإلقائها على المتسوِّلين على الطريق- لكن كما هما الآن: يتسلَّلان عبر المدينة، على أقدامهما، بجيوبٍ فارغة، بلا كتاب واحد مع ريموس يقرؤه. إلى متى ستستمرُّ عزيمة نيكولاي الشديدة؟ يوم؟ أسبوع؟ أبدًا لم يمشِ ميلًا في حياته. هل سيصيران متسوِّلَيْن الآن؟ بالتأكيد لديهما ما يكفي من الأحمال ولا حاجة بهما، كما قال رئيس الدير، إلى حِملٍ آخر على شكل صُدفةٍ من صُدَف الطبيعة. كان نيكولاي قد فعل الكثير من أجلي بالفعل: من أجلي نُفيَ من وطنه.

"موسى"، قال رئيس الدير. "عليك أنا تختار".

كانت إيماءتي واهية، لكن كافية.

"حَسنًا. إذن فعليكَ أن تعدني بشيءٍ ما أيضًا يا موسى".

نظرتُ إلى عينيه الضيِّقَتَيْن، اللامعتين.

"عليك أن تعدني بأنك لن تُغنِّي ثانيةً أبدًا".

مكتبة
t.me/soramnqraa

(6)

بذلتُ قَسَمي له. جعلني أركع أمامه وتلا صلاةً ثم أومأ بحنوٍّ في اتجاه الباب. لكن بالنسبة لي، بَدَت صلاته وكأنها تعويذة، لأن كل شيء سمعته حينها كان مُتغيِّرًا: صرير الباب، هسيس خطواتي الخافتة عبر مدخل الدير الخاوي؛ للمرة الأولى في حياتي لم أجد أيَّ عزاء في هذه الأصوات، أو في أيِّ أصوات أخرى. في الخارج، تدلَّى ضبابٌ صباحي فوق العُشب في تدويماتٍ عديمة الحياة أخمَدَت ارتعاشات ضوء الشموع المُنبعث من نوافذ الكنيسة. سقطتُ على ركبتيَّ على العشب وأصابني السَّقَم، هائج الأنفاس حتى لم يتبقَّ شيء داخلي. بكيتُ حتى استهلكتُ الدموع أيضًا.

لكن حتى فيما أنتحب في يدَيَّ، فيما أقول لنفسي إنني لا بُدَّ أن أكون ممتنًّا لهدية رئيس الدير، انتصبت أذناي لتُرهفا السمع: الرهبان يُنشدون في الليل، انقضاضة خُفَّاشٍ يُطاردُ طائرًا في بدايات الصباح.

قاومتُ الأصوات. تشبَّثتُ بالعشب الندي، البارد، حتَّى انتزعته في كُتلٍ متداخلة. نشبتُ أظافري في التراب حتى دَمِيَت أصابعي.

لا! هذه الأصوات ليست لك. هذا العالَم ليس لك. لا تسمح لها بإغوائك! لن تفعل هذه الأصوات سوى أن تجعلني أتوقُ إلى المزيد، أتوق إلى الألغاز خارج تلك الجُدران، إلى الأصدقاء، إلى الحبِّ، إلى أجراس أمِّي، إلى نيكولاي وريموس، والأسوأ من كل هذا أنها تجعلني أتوق إلى الغناء مُجدَّدًا.

* * *

وهكذا بدَأَت الفترةُ الأكثر بؤسًا في حياتي. كنتُ ممنوعًا من مغادرة الدَّير، بل ومن التجاسُر على الدخول إلى ميدان الدَّير، حيث قد يُلقي واحدٌ هائم من العامَّة نظرةً خاطفة على وجهي الملائكي، المعيوب. خلال الصلوات اليومية والقُدَّاس، كنت أجلس على مقاعد الرهبان المبتدئين، بعمودٍ هائل يفصل بيني وبين صحن الكنيسة الأضخم. أبدًا لم أرفع صوتي في نشيدٍ أو غناء، ولم يُسمح قطُّ لصلواتي الصامتة حتَّى أن تتصاعد داخل رأسي في ذكرى لما كان يومًا صوتي. مرَّةً أو مرتين أتذكَّر ما قالته لي صديقتي أماليا: «بمقدوري سماع صوتك. حتَّى من بين عشرين صوتًا آخر يُغنِّي». أحلم أنني أناديها، وسط غناء الآخرين؛ كنتُ على يقين أن شتاوداخ لن يسمعني. لكن حتَّى في لحظات كهذه يُبقيني العار صامتًا. لم أجرؤ حتَّى على الاقتراب من بوابة الشبيكة الذهبية مُجدَّدًا قطُّ.

منحني شتاوداخ ذات يومٍ الفرصة لأقسم قَسَمَ الرَّهبنة، وهكذا صرتُ أرتدي رداء الرُّهبان المبتدئين، الذي لا يختلف كثيرًا عن رداء الرهبان، لكن تنقصه القلنسوة. (أوه، كم رغبتُ في قلنسوةٍ لإخفاء وجهي!) كان هذا يعني في العادة الدراسة مع المبتدئين الآخرين كل يوم تحت إشراف كبير الرهبان المبتدئين، الأخ ليوديجار، لكن ربما كان

رئيس الدير يخشى أن ألوِّث بِركَة المبتدئين النقية، ذلك أنه فكَّرَ أنه يجب أن أصير راهبًا عَلمانيًا، جاهلًا. لا يحتاج إلى تعلُّم ڤيرچيل أو القديس توما الأكويني، لكن الطاعة والخضوع فحسب.

أبدًا لم يُنشَّأ راهب مبتدئ بهذه الطريقة في الدير لسنوات طويلة، لكن شتاوداخ يزعم أنني لن أستطيع أبدًا أن أكون راهبًا عصريًّا يمكنه، عبر التعلُّم والتقوى، أن يردَّ الجميل للعالَم. في أحسن الأحوال، سأكون مثل القديس غال نفسه: ناسك وحيد، بائس.

طوال هذا الفترة، كنتُ أحارب الأصوات، تمامًا كأيِّ راهب يتصارع مع رغباته. عندما أسمع البقبقة المُبتهجة لنافورة المُعتزَل، أقمَعُها بالصلاة. عندما أسمع طشيش اللحم في حجرة الطعام، أصوم. عندما تتصاعد الصرخات المرحة للأطفال خارج جدران الدير، ويصبح بمقدوري الشعور بدفء بهجتهم، أبتعد إلى صومعةٍ خالية ما وأتلو الصلوات على المسبحة. عندما تبدأ أذناي في الشرود إلى تعاويذ الرياح على طوال ألواح السقف فوق غرفتي، أغرز أظافري في جلد رأسي، أو أنتزع الشعر الأزغب على مؤخرة عنقي. أجدُ قميصًا من الشَّعر يتعفَّن في دولابٍ، وأرتديه حتَّى يُشتِّتني نسيجه الحاكُّ أثناء الصلوات اليومية عن جَمال الأناشيد. أُنصتُ إلى اعترافات الرجال الآخرين، أسمعُ رغباتٍ تتحرَّك في أحقائهم وعندما يحين دوري، أكرِّر ما سمعتُه، على أمل أن أتحرَّر بشكلٍ ما عبر هذا الخداع من خطايا الصوت التي تملؤني.

على هذه المنوال انقضى عامٌ، ثم آخر. وكما وعدني شتاوداخ، ظلَّت حالتي سرًّا. كان صوت حديثي حادًّا وخافتًا، فيما كان الرجال الآخرون يزعقون ويتأفَّفون؛ لذلك لم أنفضح. ولم يكن مظهري، رغم غرائبيته، كافيًا لإثارة شكوك الرهبان الذي يعرفونني لسنوات.

حلَّ رئيس جوقة جديد، متواضع المستوى، محلَّ أولرتش ذي البراعة الفائقة. أبدًا لم يتحدَّث هذا الأخ المدعو ماكسميليان معي. ولم يجرؤ أحدٌ على ذِكر قائد الجوقة السابق صراحةً، لكنني سمعتُ همساتٍ. "أرسله رئيس الدير إلى مستشفى في زيورخ. لن يغادر فراشه أبدًا مُجدَّدًا"، قال واحد من الرهبان. "سمعتُ أنه ميِّت"، همسَ آخر. لكن عندما رأى الراهبان أن عينَيَّ مُثبتَّتان عليهما، نظرا بخجل إلى أقدامهما. في البداية لم أفهم ما كان يعنيه هذا الصمت المفاجئ الغارق في الخِزي، لكن ذات يوم، فيما أمضي بهدوء عبر واحد من الأروقة، سمعتُ محادثةً بين ثلاثة رهبان جعلتني أدرك أنهم ظنُّوا سرِّي المُخزي سرًّا آخر لا يَقِلُّ خِزيًا. "صبي يجلب عارًا كهذا إلى نفسه"، كرَّر واحد من الرهبان للآخرين. "الأخ أولرتش سمحَ لنفسه بالوقوع فريسة للإغواء، وارتكاب خطيئة عظيمة، لا أحد منَّا يُنكر هذا. لكن هذا الصبي لم يكن ينبغي أن يخطو إلى هذا الدير من البداية. إنه أفعى في وسطنا. أعتقد أنه يرغب في أن... في أن يُلَاعَب". "يومًا بعد آخر، ليلةً بعد أخرى"، وافقه واحد من الراهبَيْن الآخرَين، "كان أولرتش مضطرًّا لقضاء وقت طويل جدًّا مع الصبي؛ لقد وقع فريسةً للغواية، هذا هو الأمر بكل بساطة".

لم يكن هناك شيءٌ يميِّز يومًا عن الذي يليه. عندما أقدر على تهدئة شغفي تجاه الأصوات، كانت المأساة تتخدَّر؛ ولا يعود شيء يؤلمني حينها سوى الوحدة. كنت أفكِّر كثيراً في نيكولاي وريموس، مُتمنِّيًا لو أن هناك طريقةً ما لمعرفة كيف كان ارتحالهما.

لم يكن الرهبان المبتدئين الآخرين متوحِّشين كما كان صبيان الجوقة، لكنهم كانوا مُترفِّعين. تجاهلوني تمامًا. كان آباؤهم يدفعون مبالغ ثابتة حتَّى يصيروا ما صرتُه أنا مقابل الشَّفقة. ظَنُّوا أنني مُجرَّد معتوه؛ رأيٌ لم أفعل ما ينفيه. عوضًا عنهم، صرتُ أترك نافذة صومعتي

مفتوحة حتَّى تجثم الحمامات على سقفي وتمنحني الصُّحبة، لكنها أبدًا لم تأتِ.

كبرتُ حتى وصلتُ إلى مُنتهى طولي، أطول من الرهبان الآخرين بمقدار رأس. نَمَت أضلاعي أكثر وأكثر. تحتها، اتَّسَعَت رئتاي أكثر: "أكبر رئتان في أوروبا"، سيتفاخر ناقِدٌ من لندن بعدها بسنواتٍ طويلة. لكنَّ أحدًا في الدير لم ينظر إلى هيئتي الضخمة وصدري المنتفخ باعتبارهما شيئًا مهيبًا أو عظيمًا؛ ذلك أنني كنتُ متراخيًا في مشيتي، وشاحبًا وسقيمًا. كانت هناك كدمات حول عينَيَّ بسبب نقص النوم؛ ذلك أنني كنت أخشى إغلاقهما. عندما أفعل، كنتُ أحلم بأجراس أمي، بغناء نيكولاي، أو بصوتي ذاته، يرنُّ في أصابعي، وحينها يكون الاستيقاظ في غاية الألم.

* * *

هناك واقعةٌ بعينها من تلك السنة الأولى بعد نفي صديقيَّ لا بُدَّ أن أرويها. كان يوم أحد في الشتاء. انتهى القُدَّاس، وعلى جانبي الشبيكة التي تفصل صحن الكنيسة إلى جزأين، كان الرهبان والعامَّة يتدفقون خارجين من الكنيسة. بقيتُ في مكاني في مقاعد المبتدئين، مختبئًا عن المُصلِّين وراء واحد من الأعمدة البيضاء الهائلة.

"موسى!".

بدا الصوت المألوف وكأنه يناديني داخل رأسي. ملأني بدفءٍ مُباغت، دفء لم أشعر به مؤخرًا سوى في أحلامي. قبل أن أعاقب نفسي على الاستمتاع بهذا الصوت...

"موسى!".

كان الصوت حقيقيًّا؛ لأن الرهبان الآخرين استداروا نحو الشبيكة.

أجلتُ نظري حول العمود. كانت تقف أمام الشبيكة، بيديها قابضتَين على القضبان الحديدية والكَرْمات الذهبية وكأنها تنوي تحطيم الشبيكة. لم تكن الزخرفات مشغولة بتعقيدٍ كبير في هذا الجزء من الشبيكة، ولهذا رأيتُ وجهها فيما تُحرِّكه من فُرجةٍ إلى أخرى، مُكرِّرَةً اسمي بين حشد الرهبان، الذين حدَّقوا فيها باندهاش. تجاهَلَت وجوههم المصدومة. كانت وكأنها تبحث عنِّي وسط غابةٍ من الأشجار الثابتة.

"موسى؟ هل أنت هنا؟" صاحت مُجدَّدًا، حتَّى تستطيع كل أذن في الكنيسة سماعها. وراءها، سمعتُ صوت كارولين دوفت يقترب، تُزاحم الحشد، في محاولة لإنقاذ اسم دوفت من الخزي الأبدي.

"أرجوك يا موسى"، زعقت أماليا. "هل أنت هنا؟".

لم تكن نَسِيَتني. شعرتُ بالأمل يستيقظ من سباته. أردتُ أن أهرع إلى تلك الشبيكة. أردتُ أن ألامس يد صديقتي.

تملَّصَت أماليا على طول الشبيكة بعيدًا عن عمَّتها. بحَثَت بعينيها في كل وجهٍ حملقَ فيها، مُحاولَةً إيجاد الصبي الذي تعرفه من بين هؤلاء الرجال المُقلْنَسين. بدأتُ في التَّحرُّك حول العمود.

بغتةً، كان هناك، بيده على كتفي. استدرتُ نحوه. رفع المُعلِّم الديريُّ رأسه عاليًا في مستوى رأسي.

"تذكَّر ماذا تكون يا موسى"، همسَ. "لن تفعل سوى أن تجلب العار عليها وعلى الدير".

أحنيتُ رأسي. راقبني لوهلة أخرى، ثم انسلَّ بعيدًا. عندما تطلَّعتُ ورائي مُجدَّدًا، كانت كارولين دوفت قد اختطفت أماليا عائدةً بها إلى الزحام.

* * *

ضاعفتُ جهودي، لم أعُد عازمًا على تدمير توقي تجاه أصوات العالم مثل مُجرَّد شجرةٍ تموت ببطء طلبًا للماء- الآن، سأضرب الشجرة بصاعقة، سأحرقها لتتحوَّل إلى رماد. صلَّيتُ للرَّبِّ ليخلط كل صوتٍ بالألم، ليجعلني أشمئزُّ من كل نغمةٍ أسمعها. احتسيتُ شَرْباتٍ من مياه القار في الأيام المُقدَّسة حتَّى أتقيأ عندما تُغنَّى أعذب الأغاني. لم آكل. كنتُ أخطو جيئةً وذهابًا في غرفتي حتى لا أنام الليل وأحلم. ثم، باكرًا ذات صباح، عندما لم أعُد قادرًا على السيطرة على توقي، ووجدتُ ذاكرتي تُغويني بسيمفونيات بديعة من أصواتٍ نصف مَنسية، حطَّمتُ مرآتي في فورة غضبي. ثم استخدمتُ الجذاذات الباردة لإحداث جروح غائرة في ذراعيَّ. سرعان ما صارت يداي غارقتَيْن في الدماء لحدٍّ أنني لم أعُد قادرًا على الإمساك بالشظايا، وللحظة، لحظة واحدة مباركة، أوشكتُ على الشعور بالبهجة والرضا.

لكنني لم أستطع هزيمة أذنيَّ، ليس أكثر من قدرتي على كتم أنفاسي حتى أموت. ما زال قلبي يخفق كطبلة، واضعًا العلامات على ثواني حياتي. في الليل، أستيقظ، ونصف واعٍ، أتحرَّر وأحتضن خشخشة النافذة وكأنها صوت معشوقة. أو الأسوأ، أستيقظ مباشرةً من حُلم بأجراس أمي أو بجهير نيكولاي المُدوِّي وأجد غطاء فراشي مبتلًّا بالعرق، وصدى أحلامي ما يزال يرنُّ في أذنيَّ. في لحظاتٍ كهذه، أغلق عينَيَّ وأفتح مكتبة ذكرياتي، ليتذوَّق خيالي لذائذ كل صوتٍ سمعته في حياتي. يُرفرف قلبي عاليًا. ويبدأ الأمل -أنه بمقدوري أن أكون سعيدًا في هذا العالَم الجميل- في الاستيقاظ داخلي من جديد.

حتَّى أفتح عينَيَّ وأجد نفسي في صومعتي، في سِجني، في هذا الجسد المعيب، ومُجدَّدًا أزدري نفسي لأنني حَلُمت.

* * *

قـرَّرتُ ذات ليلـةٍ أن أتَّخـذ الخطـوة الأخـيرة. سرقـتُ ريشـة كتابـة مـن راهـب. جلسـتُ عـلى فـراشي، بـلا ضـوءٍ في غرفتـي سـوى كتلـة ضـوء القمر السـاقطة عـلى الأرضيـة. أقلِّـب الريشـة مـرارًا وتكـرارًا وأتخيَّـل طرفهـا الذهبـي يمـرُّ عـبر طبلتَـيْ أذنيَّ. جلسـتُ هنـاك لزمـن طويـل، منتظـرًا سـببًا مـا لـكي لا أفعـل مـا انتويـت فعلـه، لكـن بـدلًا مـن التمـرُّد، بَـدَت الأصـوات في ذاكـرتي وكأنهـا تتـلاشى ببـطء، مُذعِنـةً لأول مـرة منـذ بـدأت في محاربتهـا. ازداد الديـر والمدينـة هـدوءًا في السـاعات الأولى مـن الصبـاح، ثـم تـراءى لي أن هسـيس تلـك العصـا الخشـبية التـي تنزلـق عـبر يـدي كان الصـوت الوحيـد في العـالم.

بعـد أن تنازلـت أذنـاي عـن آخـر أثـر للمقاومـة، رفعـت الريشـة إلى أذني اليمنـى وتهيَّـأتُ لطعـن نفـسي بالصمـت الأبـدي.

* * *

ثـلاث مـرَّات في حيـاتي نادتنـي أمِّـي الميتـة عـبر الأجـراس. في هـذه الليلـة كانـت المـرة الأولى: قُـرِعَ جـرس الديـر مرَّتـين. دويٌّ مـزدوج رنَّـان تمامًـا في اللحظـة التـي أوشـكت فيهـا عـلى اسـتئصال أكـثر حـواسي بهـاءً. اسـتمرَّت القرعتـان في الرنـين المتـلاشي لعـشر ثـوانٍ، عشريـن ثانيـة، حتَّـى لم أعُـد أسـمع سـوى الصـدى الخافـت القـادم مـن المدينـة البعيـدة.

أصمَّ مثلكِ، يا أمِّي، كنتُ لأصير.

سـمعتُ همـس أقدامهـا الراقصـة على تلـك الأرضية الخشـبية. سـمعتُ جسـدَها يصـدح مـع أجراسـها. أوه، كان سِـجْنها أبشـع مـن سـجني! أبي الملعـون يتربَّـص بالقـرب منهـا ليـلًا ونهـارًا. تنتـشي هـي مـع ذلـك في كل صـوتٍ بمقدورهـا استنشـاقه بـكل ذرَّة في جسـدها. وكنـتُ أنـا -المُنعَّـم بأذنَـيْن مثاليَّتَـيْن- عـلى وشـك تدميرهـما.

سـقطت الريشـة عـلى الأرض مُقعقعـةً، وحدَّقـتُ فيهـا وكأنها سِـكِّين مُلطَّخ بالدمـاء. شـعرتُ بغتـةً بالهـواء خانقًـا للغايـة في غرفتـي الضيِّقـة؛ لم أسـتطع التَّنفُّـس. فتحـتُ البـاب عـلى مصراعيـه، لكـن حتَّـى الـرواق بـدا أكـثر اختناقًـا. الجـدران والسـقف تنغلـق وتقـترب مـن بعضهـا. اسـتدرتُ واندفعـتُ عـبر غرفتـي، ووثبـتُ مـن نافـذتي. بالـكاد اسـتطعتُ حـشر كتفـيَّ عبرهـا. كان هـواء الليـل في غايـة العذوبـة، والسـماء بعيـدة جـدًّا. ارتشـفتُ مـلء رئتـيَّ ليـلَ الصيـف البـارد، لكـن لا بُـدَّ أن أهـرب مـع ذلـك. وهكـذا ارتقيـتُ النافـذة بصعوبـة، قرفصـتُ عـلى العتبـة، وأمسـكتُ بالإطـار الخشـبي حتـى لا أسـقط عـلى المُعتـزَل البعيـد في الأسـفل. جذَبنـي الفضـاء الـلا نهـائي فوقـي بعيـدًا عـن سـجني. لا بُـدَّ أن أتحـرَّر! أفلـتُّ قبضتـي وانزلقـتُ عـبر ألـواح السـقف المُنحـدر حتَّـى وصلـت الحافـة لاهثًـا.

سـطعَ الديـر الأبيـض في ضـوء القمـر. كانـت شـوارع المدينـة كالشـقوق السـوداء بـين صفـوف مـن الأسـقف الرماديـة. أنصَـتُّ إلى العـالم.

في مـكانٍ مـا، انفتـح شـباكٌ مُخلَخـلٌ، متأرجحًـا، واصطـدمَ بجـدار المنزل. نبـحَ كلـبٌ. أسرعَ فـأرٌ عـلى طـول الشـارع وتوقَّـف ليمضـغ نتفـة طعـام مُتعفِّنـة. تـسرَّب سـائلٌ بـين بـلاط الشـارع وتسـاقط مُحدثًـا رنينًـا معدنيًـا في المجاريـر. طقطقـت خطـواتُ أقـدامٍ في منـزل. همهَمَـت الريـاح الخفيفة فيـما تلتـفُّ عـبر الأزقَّـة. في مـكانٍ مـا انفتـح بـابٌ، وأنَّـت مفصَّلاتـه. فـئران وقطـط وكلاب تحكـم الليـل الدافـئ، تبحـث في القمامـة، وتُشـاكس بعضهـا البعـض. سـمعتُ المدينـة نائمـةً. سـمعتُ الأنفـاس الثقيلـة لرجـال بدينـين، وتنهُّـدات نسـاء. سـمعتُ شـخيراً. سـمعتُ بـشرًا يهـذرون بالأمنيـاتِ في نومهـم.

صار العالَم ضخمًا مُجدَّدًا، وصارت لي أذنان لكل صوتٍ فيه.

(7)

كان بمقدوري أن أصير لصَّ منازل عظيم لو كان الرَّبُّ منحني حُبَّ الفضَّة بدلًا من حبِّ الأصوات.

بكل ليلة، كنتُ أهرب من سجني، وسرعان ما اكتشفتُ أنني لستُ أول من يفعل هذا. انطَلِقْ وألقِ نظرةً على واحدٍ ممَّا تُسمَّى أديرة أوروبا العظيمة. ستجد الأرض مجوَّفة قليلًا تحت البوابة، والقِفل ملتويًا على نافذة واطئة. إلى ذلك، في الأقبية هناك توجد أنفاقٌ سرية وأبواب مختفية، يفترض ألَّا يعرفها سوى رئيس الدير، لكنها تُكتَشف من قِبَل أيِّ راهب تستثيره الشهوة أو الفضول، وجميعنا كنَّا مستثارين، جميعنا باستثناء مَن يحمل روحًا ضامرة.

في الطقس السيئ، كنتُ أخاطر بالمرور في واحد من الممرَّات التي يسلكها الرهبان الآخرون. كنت أُفضِّل نفقًا في الأساسات التي بُنيَت في العصور الوسطى تحت الاصطبلات، حفرته قرونٌ من صبيان الاصطبلات الكسولين جدًّا على أن يدوروا من حولها وصولًا إلى بوابة

الديـر. لكـن عندمـا تكـون الأرض جافـة مـن الأمطـار والجليـد، والريـح لا تهـبُّ بعنـف، أتسـلَّق السـقف بصعوبـة. في البدايـة أتَّخـذ خطـوات قصـيرة، مـترددة عـلى طـول الألـواح المتكـوِّرة عـلى الحافـة العليـا؛ وأقفـز. ثـم أزحـف عـلى سـقف جنـاح الديـر لأسـقط عـلى قمـة الـبُرج القروسـطي، الـذي كان آخـر مـا تبقَّـى مـن الديـر القديـم، المعيـب. هنـاك أمـرٌ تحـت نوافـذ المسـاكن الديريـة، التـي تتوهَّـج فيهـا المصابيـح مـن الغَسَـق حتـى الفجـر. حمـدًا للـرَّبِّ أن رئيـس الديـر لا يخطـو أبـدًا إلى نافذتـه للتأمـل في أحـوال العالَـم المعيـب.

أندفـع بمحـاذاة الجـدار الـذي يفصـل الديـر عـن المدينـة البروتسـتانتية. كانـت المنـزل مبنيَّـةً أمامـه مباشرةً؛ لذلـك أنزلـق عـلى أسـطحها غـير المسـتوية، ثـم أثـبُ عـلى الأرض في الأسـفل.

وحينها أصير حرًّا.

حـرًّا في الاختبـاء فحسـب بالطبـع، لكـن في أيِّ ظـلٍّ أشـاؤبه. أسرق قلنسـوة وأبقيهـا فـوق جبينـي، حتـى لا يـرى أحـد وجهـي الشـاحب يسـطع مـن أعماقهـا. أوجِّـهُ أذنيَّ إلى خطـواتٍ تقـترب، إلى اسـتدارة مفتـاح، إلى تنهيـدةٍ أرِقَـة تنبعـث مـن نافـذة مفتوحـة. كان قَـرع جـرس الكنيسـة بوصلتـي، وفي كل سـاعة أدقِّـق في حجمـه ونغمتـه لتحديـد موقعـي. بدونه، كنـتُ لأتـوه وسـط الشـوارع المتداخلـة، محرومًـا مـن أصـوات النهـار التـي أرشـدتني ذات يـومٍ أنـا وريمـوس إلى منـزل آل دوفـت.

مشـاهد طبيعيـة مـن الأصـوات، وكأنهـا لوحـات مرسـومة، تتألـف مـن طبقـات. الريـاح هـي الأسـاس، وهـي ليسـت صوتًـا، بالمعنـى الحـرفي، لكنهـا تخلـق الصـوت فيـما تتلاعـب بالمدينـة: تـضرب نافـذةً مُخلخَلـة، تُهمهـم في ثقـب مفتـاح، تصنـع صفـيرًا في شـعار النبالـة القصديـري المُعلَّـق أعـلى متجـر الجـزَّار: مـع الريـاح تـأتي أصـوات الطقـس الأخـرى: المطـر ينقـر عـلى بـلاط الشـارع، يتسـاقط مـن الإفريـز، ويندفـع إلى المجاريـر.

نـدَف المطـر يهسـهس. الجليـد يكتـم الأصـوات الأخـرى. الأرض تتبـدَّل. المنـازل تَـصرّ.

عـلى قمـة هـذه الأصـوات كانـت الأصـوات الـذي تتغـذَّى عـلى صمـت المـوت والتَّفسُّـخ: أفـكاك الفـئران، الـكلاب؛ الديـدان؛ التيـارات المُخرخـرة لمـاء الغسـيل والبـول المتدفـق في المجاريـر؛ أكـوام فضـلات الطعـام المُتعفِّنة التـي تقوقـئ في انتظـار مُسـتمعٍ صبـور؛ رُكام الـرَّوث الدافـئ الـذي يئـزُّ في عمليـة تعفُّنـه؛ رفرفـة الأوراق السـاقطة؛ اسـتقرار الغبـار عـلى قـبرٍ جديـد. في ضـوء الشـفق، البهائـم المُجنَّحـة تُولِـم عـلى المـوتى والمحتضريـن: رفرفـة خُفَّـاش، الصَّفْـق الوقـح لأجنحـة يمامـة هابطـة، التينـور الصـادح لبعوضـة، الهمهمـة المنتشـية لذبابـة بدينـة تتقافـز مـن الـبراز إلى البـول. مـا مـن صـوتٍ قبيـح. أضـعُ أذني عـلى القبـور. أجثـم عـلى أكـوام الـرَّوَث. أتتبَّـعُ البـول في جريانـه عـبر الميازيـب.

«في الأوبـرا يـا مـوسى، يوجـد نوعـان مـن الأغنيَّـات»، قـال لي نيكـولاي ذات ليلـةٍ قبـل أعـوام، وهـو يخطـو جيئـةً وذهابًـا في صومعتـه، وكأس النبيـذ يتـماوج في يـده، سـاكبًا قطـراتٍ قرمزيـة عـلى البُسـاط القشـديٍّ الـذي لا يُقـدَّر بثمـن. «أصـغِ إليَّ يـا مـوسى، سـتحتاج إلى هـذا في مسـتقبلك. أولًا، فالغنـاء بإيقاعـات الحديـث اليومـي (المرويـات *Recitatives*) يدفـع القصـة قُدمًـا. أحيانًـا مـا تبـدأ الموسـيقى في أثنـاء الغنـاء بإيقـاع الحيـاة اليوميـة وتتدفَّـق كالحديـث. ثـم نسـمع معلومـات يـرى المؤلف الموسـيقي أننـا نحتاجهـا". رفـعَ إصبعًـا. "في تلـك الإيقاعـات، أحيانًـا مـا يغلبنـي النعـاس. لكـن لا بـأس في ذلـك. لا شيء لأخجـل منـه. فـلا أحـد يذهـب إلى الأوبـرا لسـماع تلـك المرويَّـات يـا صديقـي. بـل يذهبـون إلى الأوبـرا مـن أجـل أنغـام الآريـا. الآريـا تَلـوي أعيننـا وتفتحهـا عـلى اتِّسـاعها. انفعـال محـض، موسـيقى محضـة، بـلا أيِّ اعتبـار آخـر".

كنتُ قد احتفظت بهذه التعاليم بعيدًا عن متناول يدي؛ ذلك أنني لم أتصوَّر قطُّ أنني قد أحتاجها، خارج أيِّ مسرح على الأقل. لكن في تجوالاتي الليلية سُرعان ما أدركتُ أن بمقدوري تقسيم أصوات الليل البشرية إلى النوعين اللذين ذكرهما نيكولاي من أغاني الأوبرا. على مسرح الحياة، يمكنك سماع المرويَّات من الشارع في ليلةٍ دافئة، وفي الشتاء لا تحتاج سوى إلى تسلُّق نافذة أو معالجة قُفل والدخول إلى ردهة استقبال. هذه الأصوات، كأبناء عمومتها في عالم الأوبرا، هي الأصوات التي تدفع حياتنا. هي الشخير، الأنفاس المنتظمة، الاهتياجات، تأوُّهات التَّقلُّب على الفراش، هذيانات الأحلام. إنها الهسيس في إناء التَّبوُّل، بوق أنفٍ مُحتقن. إنها تقطيع الأخشاب وإيقاد النار في الشتاء، عَجْن العجين في ساعات الصباح المُظلمة. مرويَّات ليالينا هي تقليب الصفحة بيدٍ ساهدة، وَقْع خطوات الأقدام الأرِقة. هي أصوات مثيرة للاشمئزاز. أصوات كئيبة، مُكرَّرة، مُهمَلة، غير مسموعة. هي أصواتٌ لا غنى عنها.

لأسابيع طويلة كنتُ أسمع هذه الأصوات. أجلس على دَرَجٍ خاوٍ، آكل بقايا الطعام في مطابخ خالية فيما القاطنون نائمين في الأعلى. أنسلُّ إلى غرف أطفال، أنحني على أسرَّتهم وأهيم في أنفاسهم الناعمة، المريحة. وكلما أَنصتُّ إلى هذه الأصوات كلما صرتُ أصغر؛ وصار العالَم كبيراً؛ ويا له من عزاء كان هذا لي. لم أرغب إلَّا في الصوت. أنسلُّ عبر النوافذ أو أتسلَّل عبر الأروقة، ولا أشعر بأيِّ ذنب، تمامًا كالملائكة التي تنظر إلينا في أحلامنا.

استغرقَ الأمر عدة أسابيع قبل أن أكتشف مستوى آخر: معزوفة الليل. لا بُدَّ أن تكون محظوظًا لتسمعها، أو أن تكون في غاية الشجاعة؛ ذلك أن البشر يخفون هذه الأصوات كما يُخفون الرُّقَع الأكثر حميميةً من أجسادهم. لتسمع معزوفة الآريا في ليلة حارَّة؛ عليك أن تدفع بنفسك إلى نافذة مفتوحة، أو أن تجد بابًا غير موصد في ليلةٍ باردة،

أو تتعلَّم معالجة القُفل عبر الأصوات التي يُصدِرها عندما يُنكَز بالدبابيس. لا تتوقَّف عند رَدهة المدخل، بل ارتقِ الدَّرج، وتقدَّم ببطء حتى تجد بابًا يمكنك وضع أذنك عليه. أو ربما من الأفضل أن تجد ساكنين مشغولين بالاغتسال، ثم تختبئ تحت فراشهم أو في خزانة ملابسهم. وإن لم يكن هذا، فلتتسلَّق إلى سقفٍ وتتحسَّس الألواح حتَّى تجد فُرجةً يمكنك من خلالها حَصد الأصوات في الأسفل. وحدهم الأشباح والملائكة واللصوص لهم الحق في سماع معزوفات الآريا.

للبكاء ألف صورة: رضيعٌ يعوي في احتياج، تأوُّه سقيم، انتحاب وحيد. البعض يبكي في الوسادة الكاتمة أو يضغط بقبضةٍ على أسنانه حتى يتنشَّق حُزنه. بعض الأحزان ما هي إلا فيضانات من الدموع والمُخاط المبصوق. بعضها مخلوقات جافة، لاهثة، تُيبِّس القلب. قد يبدو الحزن كولادة طفل غير مرغوب فيه. وهي مخلوقات تحلُّ على الإنسان بلا دعوة أو تحيُّز؛ قد يَهذي الرجل الرصين، المُتغضِّن، ويضرب جبينه، فيما حُزن حفيدته الهَشَّة يجعلها تختلج فحسب.

وأصوات الكراهية -التي تمثِّل جزءًا من أيِّ ليلٍ- ما هي، في أبهى صورها، إلَّا الصيحات والسيوف المتقارعة التي يحاكيها المسرح النابوليونيُّ بأفضل شكل. منها أيضًا الصفعات الغاضبة والقبضات الثَّمِلة، الأكثر شيوعًا بكثير، والإهانات والتقريعات، التي لا تخلو منها غرفة نوم وإن خلَتْ من الفراش. سمعتُ عظامًا تنفلق، ودماءً تتقاطَر على الأرض، وثيابًا تُمزَّق. رغم أنه بمقدوري الإنصات للنحيب لساعات -ذلك أنني دائمًا ما أشعر برهبةٍ من عُمق الأحزان في هذا العالم- إلَّا أنه عندما تنساب الصفعات والسِّباب، أعضُّ قبضتي لأحتملها.

بالطبع، إنه الحبُّ ما تعيش الأوبرا من أجله، وله تُبنى المعابد في كل مدينة. وسرعان ما صرتُ مثل تلك الجحافل من الرجال الإيطاليين الذين يقضون الأسبوع دون عشاء حتَّى يستطيعوا توفير ثمن تذكرة

واحـدة. أُضنـي نفـسي بحثًـا عــن أسـمى الأصـوات جميعًـا: معزوفـات الحـبِّ. أتسـلَّل إلى غُـرَف النـوم، أختبـئ في الخزائــن (ولا أتسـلَّل خارجًـا إلَّا عندمـا يـأتي النـوم الحقيقـي). الضحكـة الخجلى. الهمهمـة المُشـجِّعة. همـسُ يـدٍ عـلى جِلـد عـارٍ. تناغُـم الأنفـاس. دفء الاهتياجـات حتَّـى يبـدو وكأنهـم يهمسـون حـارٌ! حـارٌ! حـارٌ! القبلـة التـي تتزايـد حِدَّتهـا فيـما تنتقـل مـن الشـفاه إلى العنـق إلى الصَّـدر.

ينبغـي أن أتوقَّـف هنـا. أغلقـوا السـتائر. ذلـك أنـه لا يُسـمح بالحُـبِّ عــلى مســارح أوروبــا إلَّا لأن أكــثر الأصــوات بــذاءةً قــد تُرجِمَــت إلى الإيطاليـة. رغـم أن البابـا يكافـئ أغنيـة المخـصيِّ المُوجِعـة عــن الحــب بالذهــب، إلَّا أن المـرأة التـي تضـع يدهـا بـين سـاقيها وتتـأوَّه في حضـور الكـرسي البابـاوي سـتجد نفسـها في السـجن. لكـن لا بُـدَّ أن أخبركـم عـن الأصـوات المُحرَّمـة؛ ذلـك أن الإنصـات إلى الحـب قـد سـاعدني أخـيرًا عـلى اسـتدراك مـا كُنتـه، ومـا ينقصنـي. عندمـا تتحـوَّل القُبـلات إلى تحسيسـات، وعندمـا تلتحـم بالأنفـاس إيقاعـات ثابتـة أخـرى (دقَّـات لـوح الفـراش، صفـير الأغطيـة، التنهُّـدات المُتزامنـة)، فـلا أطلـب الإذن بالانـصراف. بـل تتتبَّـع أذنـاي أصـوات تلـك الأجسـاد كواحـد مـن ميكروسـكوبات السـيد دوفـت يُركِّـز عـلى عـين برغـوث. أسـمع فرقعـة أصابـع الأقـدام المضمومـة، الأيـادي التـي تهـرس في الصـدر والمؤخـرة بصـوتٍ يشـبه شـدَّ حـزامٍ مـن الجليـد. الصـدر عـلى الصـدر وانـزلاق الجلـد الجـاف وانسـياب العَـرَق، تلاطـم الأحضـان، تطاحـن الضلـع عـلى الضلـع.

ممارسـة الحـب تشـبه الغنـاء. عنـد النَّفَـس الأول -الاندفاعـة الأولى- يكـون الجسـد خـادرًا غافـلًا عـن الصـوت. تمـوت التَّنهُّـدات والتَّأوُّهـات في الحلـق. لكـن الإيقـاع يتسـارع، واللَّـذَّة تتوهَّـج، والجسـد يتوالـف ليسـتقبلها. سرعـان مـا تندفـع التَّنهُّـدات إلى الصـدر، ورغـم أنهـا قـد لا تكـون أكـثر صخبًـا، إلَّا أنهـا تنهُّـدات أكـثر امتـلاءً؛ يتـأوَّه المُتـأوِّه عـلى أنامـل أصابـع المعشـوقة.

لم أكــن أدرك حينهــا أنــه في ممارســة الحــب يشــعر المــرء بلمسـةٍ سـحرية، لكــن كان بمقــدوري أن أســتوعب بســهولة تماوجـات جناحَــيْ صقـر في تحليقـه الصاعـد؛ لذلـك اعتقـدتُ في البدايـة أن هـذه الأنشـودة هــي مـا يبحـث عنـه العاشـقان. يتحـرَّكان معًـا، يتأوَّهـان معًـا، يلهثـان معًـا. يهمسـان نعـم! نعـم! في أذنَيْ بعضهـما البعـض، ويرتجفـان مـن الـرأس حتـى أصابـع أقدامهـما في أغنيتهـما المتوحِّـدة. أسـمعها عندمـا يخلـدان إلى الراحـة -صامتَـيْن، باسـتثناء أنفاسـهما ودقـات قلبيهما المُتسـارعة- نشـوتهما نفـس نشـوتي في الغنـاء، جسـدٌ مُتَّحـدٌ مـن أجـل غايـة واحـدة: أن يَـرِنَّ مـع جـمال الأنشـودة.

كان في أصـوات معزوفـات العُشَّـاق هـذه أن اسـتوعبتُ أخـيرًا مـا قالـه لي نيكـولاي منـذ سـنوات طويلـة، وأنـا جالـس معـه عـلى حصانـه: اتحـاد نصفـين في الحــب. اسـتوعبتُ هــذا عندمــا ســمعت الصرخـات المُنتشـية للاتحـاد في تلـك المنـازل، لكننـي أيضًـا لأننـي سـمعت روحـي ذاتهـا تهتـف، أرجـوك! أرجـوك! أنـا، أيضًـا، أتمنَّـى أن أُحَـبَّ! أتمنـى أن أكتمـل! لكـن مـع هـذا أدركـت مأسـاتي: أنـه بسـبب نقيصتـي، كان الحـبُّ مُسـتحيلًا بالنسـبة لي. بغتــةً، صــارت صفقــة الطــواشيِّ مفهومــة: لقــد تخلَّينــا عــن أغنيــة الاتحـاد هـذه مـن أجـل أغنيـة علينـا أن نغنيهـا بمفردنـا.

(8)

أثنـاء تجـوالاتي الليليـة كان هنـاك منـزل واحـد كثـيراً مـا مـررتُ بـه، توّاقًـا لاستكشـافه، لكننـي أبـدًا لم أدلـف إليـه: منـزل آل دوفـت. حتّـى مـن الخـارج كنـتُ أسـمع أصـداء تلـك الأصـوات الخادعـة وأدركُ أننـي كنـت لأتـوه في أروقتـه التـي تشـبه المتاهـة، أو الأسـوأ: أن أنخـدع وأتوهَّـم أن إحـدى غرفـه خاويـة، لأكتشـف أن العَمَّـة كارولـين المقيتـة رابضـةٌ وراء البـاب.

لكـن أحيانًـا مـا كنـتُ أحـوم في الظـلال وأراقـب نافـذةً مضـاءة لبعـض الوقـت، عـلى أمـل اقتنـاص نظـرة عـلى أماليـا. لكـن مـاذا لـو ظهَـرَت؟ مـاذا لـو حدَّقَـت إلى الخـارج في الليـل؟ لا شيء غـير هـذا: سـأتراجع أعمـق في الظـلام الـذي يخفينـي.

كان خـارج منـزل آل دوفـت ذات ليلـة أن اكتشـفتُ أننـي لسـتُ شـبح المدينـة الوحيـد.

كنـتُ في الظـلال أراقـب نافـذةً مضـاءة، عـلى أمـل أن أتبـيَّن لمحـةً عابـرةً مـن ذلـك الشـعر الطويـل ذي لـون التِّبن، أو مـن ظـلٍّ يعـرج. كانـت أذنـاي تنتقـل مُرفرفـةٍ مـن فـأرٍ ينزلـق برشـاقة، إلى أوراق شـجر تتسـاقط متناثـرةً، إلى دجاجـةٍ هرَبَـت مـن حظيرتهـا وصـارت تهيـم ذاهلـةً خرسـاء في الشـوارع.

بغتـةً، في زاويـة عينـي، رأيـتُ شـكلًا بشريًّـا يندفـع إلى أحـد الأبـواب. مـا بـدا مسـتحيلًا هـو أن هـذا الشـكل البشري لم يُحـدِث أيَّ صـوت. تراجعـتُ إلى ظِـلالي وانتظـرت. لم أسـمع شـيئًا. افترضـتُ أننـي توهَّمـتُ الرؤيـة، وخطـوتُ مبتعـدًا عـبر الشـارع، جاهـزًا للتراجـع إلى الديـر. قبـل أن أسـتدير حـول أحـد النـواصي عـلى الفـور، تطلَّعـتُ إلى ورائي. هيئـةٌ بشريـة قائمـة كانـت تتحـرَّك بخفـوتٍ بـين المنـازل المُظلمـة. لم تُبـدِ أيَّ صـوت عـلى الإطـلاق بمقـدوري سـماعه. كان الأمـر مُرعبًـا لي وكأننـي رأيـت رَجُـلًا يخطو مخترقًـا جـدارًا صَلبًـا.

فررتُ هاربًا.

ركضـتُ عـبر زقـاقٍ، ثـم انعطفـتُ مـرَّةً تلـو الأخـرى، حتـى تأكـدتُ أننـي أفلـتُّ مـن الشـبح عديـم الصـوت. كنَّـا في الخريـف، والنوافـذ المُغلقـة تحجـب أنفـاس المدينـة النائمـة. لم أسـمع سـوى أصـوات التَّعفُّـن المتواريـة وراء الريـاح البـاردة، المُصَفِّـرة، المُتنهِّـدة. بعيـدًا في الزقـاق الـذي خرجـتُ منـه لتـوِّي، أُضيئـت نافـذة. كان لهـا أن تكشـف أي شيء يقـترب منِّـي. لم يكـن سـوى متـشرِّد، قلـتُ لنفـسي. مُتـشرِّد سرقـت الريـح أصواتـه. فأنـا شـبح المدينـة الوحيـد.

ثـم سـمعتُ النقـر الخشـن لخشـبٍ عـلى حجـارة الزقـاق قبـل النافـذة. أرهفـت سـمعي بحثًـا عـن وَقْـع أقـدام أو أنفـاس. لم أسـمع شـيئًا سـوى الـدَّقّ. كان يُكـرِّر نفسـه بانتظـام مُتقَـن، كدقـات تـروس السـاعة في بـرج شـتاوداخ الشـمالي.

رأيتُ ظلًّا لرجل. احدودبَ على جانب واحد وعرَج مُسرعًا عبر الزُّقاق. كان يرتدي عباءةً سوداء طويلة، بقلنسوةٍ تخفي وجهه. من الطريقة التي يدقُّ بها الشارع بعصاه، أدركتُ أنه أعمى. ثم توقَّف أمام النافذة المضاءة. اعتدلَ وأدارَ رأسه جيئةً وذهابًا، مُنصِتًا.

كان هناك شيء مألوف في هذه الإيماءات؛ أعرف هذا الرجل. كان شبحًا حقًّا.

ركضتُ. انعطفتُ عبر أزقَّة ضيقة دون أن أعرف إلى أين تؤدي. لم أبالِ إن كان رآني أو سمعني أحد. في كل مرَّة أتوقَّف، كنتُ أسمع الدَّقَّ ورائي، يبدو أنه يخترق جمجمتي ذاتها. ركضتُ كبغلٍ مذعور، مصطدمًا بالجدران، مُتعثِّرًا في الزقاق غير المستوى، ومُدميًا يدَيَّ على أحجاره.

انتهى بي الأمر إلى زقاقٍ مسدود. تحسَّستُ الجدار العالي بحثًا عن مَخرَج ولم أجد، ثم استدرتُ وأنصتُّ. دقَّة. دقَّة. دقَّة. أقعيتُ وراء بعض البراميل المُتعفِّنة وأرغمتُ أصواتي على الاختفاء. كانت أنفاسي بأدنى همسٍ، لكن قلبي ما يزال ينبض كالطَّبْل. دقَّة. دقَّة. دقَّة. اجتاز الصوت مدخل الزقاق. توقَّف الشبح هناك. احتشَدَت الريح في نهاية الزِقاق، عاويةً حول البراميل.

كان العُكَّاز قد استدارَ الآن وأخذَ في الدَّقِّ عبر الزقاق ناحيتي. كان أقلَّ إلحاحًا. دقَّة. نقرَ مرةً واحدة فيما ألتقط أنفاسي في رعب.

دقَّة. مرَّةً فيما أُخرج أنفاسي.

دقَّة.

عندما اقترب الشكل البشري، تبيَّنتُ وقع خطوات خافتة، هادئة كخطواتي عندما أعبر الأسقف وأتسلَّل من غرف النوم. لم يكن شبحًا، لكن رَجُلًا تلامِس قدماه الأرض حقًّا. لم يمنحني هذا العزاء.

توقَّف العُكَّاز والخطوات. رفرَفَت الريح عباءته. كانت أنفاسه أكثر خفوتًا من أنفاسي. نهضتُ واقفًا. تعثَّرتُ بين البراميل. انفلَقَت، ناثرةً الخشب المُتعفِّن عبر الزقاق. اقتربَ منّي، مؤرجحًا عُكّازه عند قدمَيَّ. تراجعتُ ملتصقًا بالجدار. عندما تأرجحَ عُكّازه مجدَّدا نحو قدمَيَّ، اندفعتُ مُتجاوزًا إيَّاه، لكن أذنه كانت أسرع. أمسكت يدٌ بكُمٍّ ردائي وهزَّتني بقوَّةٍ لحدٍّ أنني فقدتُ توازني. جرَّني نحوه. حاوَلتُ أن أتملَّصَ من قبضته، لكنه أسقطَ عُكَّازه -قعقعَ على الأرض- وقبضَ عليَّ بكلتا يديه.

"أفلِتني!" صرختُ. كان عجوزًا ومعاقًا، لكن بالنسبة له لم أكن أقوى من طفلٍ يصرخ. أزاحت يدٌ قلنسوته. إنشات كانت تفصل بين وجهينا. حتَّى في الضوء الخافت، كان بمقدوري تبيُّن كل تفصيلة خَرِبة في وجهه. لم يتبقَّ فيه شَعرٌ على الإطلاق. كان جلده أحمر مُرقَّطًا، بلُطخٍ من البياض كغضاريف حَمَلٍ نيئ. كان خدُّه الأيسر مشدودًا وناعمًا، كنسيجٍ رقيق عرضةً للمزق عند لمسة إبرة. فيما خدُّه الأيمن مُلطَّخ بالفقاقيع والندوب. مِحجرًا عينيه خاويَيْن؛ وجفناه سدائل مُجعَّدة من الجلد.

"وجدتُك"، قال أولرتش.

* * *

"مَن هناك؟" صاح أحدهم من نافذةٍ في الزقاق.

"تعالَ معي"، همسَ أولرتش. "منزلي قريب".

حاولتُ التَّحرُّر.

"لن أتركك مُجدَّدًا"، قال. ثم أحكم قبضته عليَّ بكلتا لديه. "لا أبالي إن أمسكوا بنا، رغم أننا سُنعاقب كلانا".

"من هناك؟ نحن مسلَّحون!" هتفَ الصوت.

"تعـالَ!" قـال أولرتـش مُتعجِّـلًا. أمسـكني مـن كُمِّـي وجذبنـي. كنـتُ مُستسـلمًا تمامًـا كـما كنـتُ ذات يـومٍ عندمـا حمَلنـي إلى الأسـفل عـبر أروقـة منتصـف الليـل. رغـم أننـي الآن أكـثر طـولًا منـه، لم أسـتطع اسـتجماع شـجاعتي لـضرب الرجـل المُعـاق.

دقَّ بعُـكَّازه عـبر الزقـاق. تلـوَّى بنـا بخـبرة الشـوارع، وهكـذا أدركـتُ أن ذاكـرة الأشـكال لديـه كانـت أفضـل كثـيراً مـن ذاكـرة الأصـوات. وصلنـا إلى ميـدانٍ بنافـورة ثلاثيـة الميازيـب، ودفعنـي نحـو بـاب لمنـزل ضيِّـق. فتـحَ رتـاج البـاب ودفعنـي إلى الداخـل.

كان للمنـزل غرفـةٌ واحـدة في الطابـق الأرضي. كانـت مُرتَّبـةً بشـكل مُدهـش، بمقعـدٍ واحـد مـع منضـدة صغـيرة، وفـراشٍ مُلتصـق بالزاويـة. لم تكـن هنـاك أيُّ زينـةٍ عـلى الجُـدران، ولا أيَّـة قطـع أثـاث أخـرى، ولا مصابيـح ولا شـموع مـن أيِّ نـوع. كان الضـوء الوحيـد قادمًـا مـن توهُّـج الفحـم في موقـد. دَرَجٌ مائـل بحـدَّة كان يـؤدي إلى الطابـق الأعـلى المُظلـم. الفـراش مُرتَّـب بعنايـة، والمقعـد يتوسَّـط المنضـدة. لم يكـن هنـاك أيُّ رمـاد متطايـر حـول الموقـد، ولا بقايـا طعـام عـلى الأرض. التمعـت الأرضيـة الحجريـة.

أوصدَ الباب ووضع المفتاح في جيبه.

"افتح الباب"، قلت.

ارتفـعَ رأسـه وكأن بمقـدوره أن يـراني بعينيـه المجوَّفتـين. "صوتـك مـا يـزال كـما هـو"، قـال. "لكـن أقـوى".

"افتحه"، قلتُ.

"إذا فتحته، هل سترحل؟".

"إذا شئتُ".

تفكَّـر لوهلـة، ثـم فتـحَ قُفـل البـاب. خطـا ناحيتـي، مـدَّ يـده حتـى وجـد صـدري، ثـم دسَّ المفتـاح في جيبـي.

"هذا مفتاحك"، قال. "هذا منزلك. إذا شئتَ".

"لا أريده".

لم يَقُل شيئًا. طَقطَق الجَمْر في الموقد كالجليد.

خطـوتُ متجـاوزًا إيَّـاه نحـو البـاب. كان ظَهْرانـا قُبالـة بعضهـما البعـض عندمـا تحدَّث.

"عندمـا اسـتعدتُ قـدرتي عـلى المـشي، منحنـي رئيـس الديـر كويلسـتين زكيبـةً مـن الذهـب. قـال إنـه سيشـنقني عـلى إخصائـكَ إذا عـدتُ أبـدًا إلى هـذه المدينـة. ثـم أرسـلني إلى زيـورخ. ألقـوا بي مـن العربـة وتركـوني بجـوار البحـيرة. لم تكـن لـديَّ عصـا حتَّـى. أنصـتُّ إلى العربـة تختفـي. إلى الأمـواج في البحـيرة. الخيـول العابـرة. الباعـة في سـوقٍ قريـبٍ. أبـدًا لم أسـمع في حيـاتي عالَـمًا خاويًـا كهـذا. لـو كان بحـوزتي مُسـدَّس لوضعتُـه في رأسي وأطلقتـه".

سـمعتُ التَّوسُّـل في صوتـه، لكـن مـع ذلـك مـددتُ يـدي نحـو مقبـض الباب.

تابع أولرتش: "'عربة'، صحتُ حينها. 'أحضروا لي عربة!'".

ارتعـشَ ظهـري عندمـا سـمعتُ صـوت مُعلِّمـي الفاتـر، المُتلهِّـف. اتَّخـذَ خطوتـين ناحيتـي. ارتعبـتُ مـن لمسـته الرقيقـة الآن تمامًـا كـما كنـتُ أشـمئزُّ منهـا عندمـا كنـتُ طفـلًا.

"مـوسى، كان ينبغـي لنيكـولاي أن يأخـذ أذنيَّ! كان بمقـدوره بَتْرهـما، وكنـتُ لأشـكره فيـما أصرخ. لكـن العمـى هـو لعنـة الشـيطان! لا أفعـل شـيئًا سـوى السَّـمْع. أسـمع النمـل يزحـف عـلى الأرض. أسـمع الطـين ينسـاب تحـت قدمَـيَّ. أسـمع نـدوبي تتقـرَّح فيـما أحـاول النـوم. أسـمعك

يـا مـوسى. أنـا أيضًـا أهيـم في الليـل؛ ذلـك أنني أيضًـا عـليَّ أن أبقـى مختبئًـا. طالمـا تَبعتُـكَ. طالمـا سـمعتُ خطواتـك وأنفاسـك. تلـك الأنفـاس التـي علَّمتُهـا كيـف تنطلـق".

استدرتُ إليـه ورأيـت الدمـوع تنسـاب مـن حيـث كانـت عينـاه يومًـا. مـدَّ يـدًا وكأنـه يتـوق إلى لمـسِ ذراعـي. جَفلـتُ متراجعًـا.

"لكـن مـاذا هنـاك لأسـمعه؟ سـمعتُ الجَـمال في هـذا العـالم ذات مـرة، لكـن ضجيـج هـذا المدينـة المريعـة يذكّـرني كل لحظـةً بمـا فقدتُـه. مـوسى، كل مـا أريـده أن أسـمعك تغنِّـي مُجـدَّدًا. أرجـوك".

توقَّـفَ. لم أسـتطع انتـزاع عينَـيَّ عـن رأسـه المحـترق، الـذي كان يلتمـع قرمزيًـا في ضـوء الفحـم المتوهِّـج. مسـحَ وجهـه الغـارق في الدمـوع.

"موسى، أرجوك...".

"لم أعُد أغنِّي"، قلتُ بغتةً. "رئيس الدير يحظر عليَّ ذلك".

"رئيس الدير أحمق".

"طالمـا كان رئيـس الديـر عطوفًـا عـليَّ"، قلـت، بغضـبٍ في صـوتي. "جعلَ منـي راهبًـا مبتدئًـا. يومًـا مـا سـأصير راهبًـا حقيقيًّـا".

فتحَ أولرتش فمه لكن توقَّف. اختلجَ وجهه فيما يتأمَّل ما قلتُه لتوِّي.

"هـذا... مـن حُسـن... حظِّـك"، قـال، لكننـي سـمعتُ في تـردُّده أنـه كان يُخفـي مـا يعتقـده حقًّـا. "تنـوي البقـاء هنـا إذن؟ للأبـد، في هـذه المدينـة؟".

"إلى أين غيرها يمكنني الذهاب؟".

رأيـتُ الدهشـة عـلى وجـه الرجـل الأعمـى، لكنـه سرعـان مـا خَنقَهـا. "رئيـس الديـر في غايـة الكَـرَم"، قـال. "هـذا عالَـمٌ قـاسٍ عـلى أمثالـك. بمقـدور الديـر أن يوفِّـر لـك الكثـير مـن الـتَّرف".

"لا أريد التَّرف. أرغب أن أُترَك وشأني فحسب".

"حسَنًا"، قال. أومأ. مدَّ يدًا مرتعشة وعثرَ على كُمِّي، لكن بخفَّةٍ شديدة لحدٍّ أنه كان بمقدوري الابتعاد. بيده الأخرى ربَّتَ على ذراعي، وكأنه عمٌّ غير معتاد على الأطفال. "موسى"، تابع. "دعني إذن أعرض عليك الشيء الوحيد الذي لا يستطيع رئيس الدير تقديمه. حينها ستنال كل ما تريده. ستكون سعيدًا للأبد".

"ماذا بمقدورك أن تعرض عليَّ؟".

"أن تُغنِّي"، قال بهدوءٍ شديد.

انتزعتُ ذراعي وتراجعتُ بضع خطوات.

"أرجوك أنصِتْ"، قال بهدوء، مُجاهدًا ليسيطر على حماسته المتَّقدة. جرَّ قدميه ناحيتي، محاولًا استعادة قبضته. "أرجوك غَنِّ هنا. في هذا المنزل. في الليل، بدلًا من التطواف في الشوارع. لن أقول لك ماذا تغنِّي. لن أتحدَّث. سأجلس فحسب وأنصت".

فتحتُ الباب.

"أرجوك يا موسى، غنِّ"، همسَ وكأنه يصلي.

استدرتُ لألقي عليه ما كنتُ آمل أنه النظرة الأخيرة. ثم قلت. "كيف لك أن تطلب مني ذلك؟".

"موسى!".

"لقد دمَّرتَني".

"لم... لم... يكن لديَّ..." لم يستطع إنهاء جملته.

"لن أُغنِّي مجدَّدًا أبدًا"، قلت. "لا لكَ. ولا لأيِّ إنسان".

(9)

كنـتُ شـبحَ المدينـة الصامـت، أتلبَّـس الشـوارع والمنـازل، أجمـع كل صـوتٍ مـا عـدا صـوتي؛ ذلـك أننـي لا أُبـدي أيَّـة أصـوات. كنـتُ مغتبطًـا أكـثر مـن أيِّ وقـتٍ منـذ نفـي صديقَـيَّ. نجحـتُ في التصالـح مـع بـلاويَّ، وتقبُّـل أن الـرَّبَّ لم ينـوِ في الأصـل أن يمنـح هبـة الفرحـة لمَـن يحملـون نقيصتـي. في التاسـعة عـشرة مـن عمـري فحسـب، كنـتُ تخلَّيـتُ عـن العالَـم. وكنـتُ سـأظل هكـذا حتـى اليـوم -شـبحًا عجـوزًا، صامتًـا- لـو لم يُعِـدني مـلاكٌ إلى الحيـاة.

حـدثَ انبعـاثي بغتـةً. باكـرًا ذات صبـاح، انزلقـتُ عـلى سـقف الديـر عائـدًا إلى نافـذتي، مُنتبهًـا حتَّـى لا أُحـدِث صوتًـا. بهـدوء وضعـتُ قدمـي عـلى حافـة نافـذتي وأقعيـت، مُسـتعدًّا للسـقوط عـلى فـراشي. كنـتُ أحجـب ضـوء النجـوم عـن الغرفـة.

فيـما أُلقـي بهـذا الظِّـلِّ عـلى أرض غرفتـي، سـمعتُ تنهيـدةً. كانـت في غايـة الخفـوت لحـدٍّ أن معظـم النـاس لـن يسـمعوها، لكـن بالنسـبة

لي كانـت ذات دلالـة وكأنهـا بورتريـه. تعرَّفـتُ عـلى الرئتـين اللتـين دفعتـا الهـواء، والحلـق الـذي صـاغ شـكله.

لم أتحرّك. لم أكن لأرتعب أكثر لو سمعتُ أسدًا يقف هناك.

"موسى"، قالت. "هل هذا أنت؟".

لم أُجِـب. أقعيـتُ عـلى حافـة نافـذتي وحاولـتُ الامتـزاج بالليـل. خَطَـت عـبر غرفتـي. كانـت ترتـدي عبـاءة سـوداء بقلنسـوة، مثـل عبـاءتي. لكـن قلنسـوتها كانـت مخفوضـةً. في الظـلام، كان بمقـدوري رؤيـة حـدود وجهها، ووهـج شـعرها الذهبـي.

هبطـتُ إلى الفـراش ثـم نزلـت إلى الأرض. كانـت قمـة رأسـها تصـل إلى ذقني.

"موسى؟".

أنصتُّ إلى أنفاسها. كان زفراتها رطبة ودافئة.

"ألا تريد التَّحدُّث إليَّ؟".

سمعتُها تعضُّ شفتها.

"يا لي من حمقاء"، قالت. "يقتلني الخزي".

اسـتدارت لتنـصرف. أنصـتُّ إلى حذائهـا عـلى الأرض. سـمعتُ نسـيج ردائهـا يُحفحـف عـلى ظهرهـا.

"انتظري"، همستُ، بنعومةٍ كنعومة ذلك الصبي الضئيل.

اسـتدارت. انتظَـرَت. لم أتحـدَّث. حاولـتُ أن أسـمع قلبهـا. كان خافتًـا للغايـة عـلى أن أسـمعه مـن نهايـة الغرفـة، لكننـي كنـتُ مرتعبًـا عـلى أن أخطـو خطـوةً واحـدة.

"انتظري"، قلتُ مُجدَّدًا. "لا ترحلي".

لبضع ثوانٍ وقفنا هناك فحسب في الظلام.

"هل لديك شمعة؟" سألَت أخيراً. "مصباح؟".

"كلَّا".

"كيف تستطيع الرؤية؟".

"لا حاجة بي إلى الرؤية".

"أريـد أن أرى وجهـك"، قالـت. "لخمـس سـنوات لم أكـن أرى شـيئًا سـوى عينيـك وبضـع أصابـع عـبر تلـك البوابـة اللعينـة. ازداد طولـك كثـيراً منـذ ذلـك الحـين".

أغلقتُ عينَيَّ وتمنَّيتُ لو تجمَّد العالَم وأبقى لي أصواتها فحسب.

"ألا تريد أن تراني؟" سألَت.

"رأيتـكِ"، أجبتهـا. "في كل مـرَّة تحدَّثنـا فيهـا. وفي العـام الفائـت أيضًـا. في الكنيسـة".

سـمعتُ الهـوان يسـتولي عـلى صوتهـا. بعـد بضـع ثـوانٍ تحدَّثَـت. "إذا كنـتَ هنـاك حقًّـا، لمـاذا لم تُجبنـي؟".

لم أجبها، لأنني لم أستطع إخبارها بالحقيقة.

"أردتُ أن أراك"، قالـت. "أريـد أن أراك الآن. مـضى زمـنٌ طويـل. طالمـا ظننـتُ أنـك صديقـي. صديقـي الوحيـد. هـل نسـيتَني؟".

"كلَّا"، همستُ. "لم أنسَكِ على الإطلاق".

خطَـت بخفَّـةٍ عـبر الغرفـة. انكمشـتُ في قلنسـوتي، حتَّـى لا تـرى وجهـي، حتـى لا تقـرأ نقيصتـي في انحناءاتـه الناعمـة. كانـت عـلى بُعـد إنشـات الآن. أسـتطيع سـماع قلبهـا الآن، كالطَّبـل. كل خفقـة تهـزُّ جـزءًا ذاويًـا داخـلي وتُعيـده إلى الحيـاة. لاحظـتُ بغتـةً كـم هـي صغـيرة غرفتـي في العِلِّيَّـة، وكيـف يوشـك رأسي عـلى ملامسـة السـقف المائـل. لـو

فـردتُ ذراعـيَّ سـيكون بمقـدوري ملامسـة كلا الحائطـين. صـارت غلالتـي الكهنوتيـة ضيِّقـة بغتـةً، لحـدٍّ أننـي لم أسـتطع التَّنفُّـس.

"هـل يمكننـي رؤيـة وجهـك؟" مـدَّت يـدًا ولامَسَـت القلنسـوة. تناولـتُ يدهـا في يـدي حتَّـى لا تكشـف عـن وجهـي.

«أرجـوكِ لا تفعـلي»، قلـتُ. عندمـا تركـتُ يدهـا، أفلَتَـت قـماش ردائي، لكنهـا أبقـت يدهـا قريبـةً مـن وجهـي.

«لم يكن ينبغي أن آتي».

كانــت أنفاســها قــد تبدَّلَــت. صــارت أكــثر دفئًــا الآن؛ وحلقهــا أكــثر توتُّــرًا. ابتلَعَــت ريقهــا.

«قبـل شـهورٍ سرقـتُ هـذا الـرداء مـن مصنـع أبي. فكَّـرتُ، سـأتنكَّر فيـه. فكَّـرتُ، سـأذهب لرؤيـة مـوسى. وجـدتُ هـذه. هـل تتذكَّرهـا؟» خشخشـة ورقـة تنفتـح. اسـتطعتُ رؤيـة القليـل منهـا في الظـلام؛ كان عليهـا مـا يشـبه رَسـمةً. «علامـة X مـا تـزال تشـير إلى غرفتـك".

اسـتحضرتُ ذكـرى طفلـين سـاذجَيْن يثرثـران في الـرواق. كـم تمنَّيـتُ لـو كنـتُ هنـاك مُجـدَّدًا.

"مـوسى"، تابَعَـت، "عندمـا أسـتلقي في الفـراش وأحـاول التفكـير في شيءٍ سـعيد واحـد في حيـاتي، أفكِّـرُ فيـك. مـرَّةً في الأسـبوع، كل خميـس. تـزور كارولـين خالتَهـا في بروجـن. يصـير المنـزل خاويًـا للغايـة- يمكننـي فِعـل مـا يحلـو لي حينهـا. أفكِّـر دائمًـا: لكـن مـاذا يحلـو لي؟ مرَّتَـين، وصلـتُ إلى حـدود الكنيسـة قبـل أن أسـتدير عـلى أعقـابي، بهـذا الـرداء تحـت ذراعـي. الليلـة لم أسـتطع التَّوقُّـف. تسـلَّقتُ تلـك الشـبيكة الذهبيـة. لا أعتقـد أن أحـدًا رآني، لكننـي لا أبـالي عـلى أيِّ حـال. مـوسى، كيـف لي ألَّا آتي؟".

وقفنـا هكـذا لبضـع ثـوانٍ، يدهـا مـا تـزال مرفوعـةً أمامـي، وكأنهـا تمنحنـي البَرَكـة. ثـم بأنفـاسٍ مُتقطِّعـة، وكأنهـا لم تسـتطع مقاومـة الرغبـة،

مـدَّت يدهـا ولامسـت ذقنـي بإصبعهـا. تتبَّعـت إصبعهـا حافَّـة فـكِّي. وضعـت راحتهـا عـلى خـدِّي، ثـم حرَّكَـت أصابعهـا عـبر شـفتيَّ، وحينهـا شـعرتُ بأنفـاسي الحـارَّة ترتـدُّ مـن عـلى أصابعهـا.

"يا إلهي"، همَسَت. "يا لي من حمقاء".

تسـارعَ قلبانـا معًـا. سـمعتُ ابتـلال فمهـا فيـما تبتلـع ريقهـا مُجـدَّدًا. مـدَّت يدهـا وراء أذني. أجـرَت أصابعهـا عـبر شـعري، ثـم بـدأت في جـذب وجهـي ناحيـة وجههـا، وشـعرتُ بشـفتيها تلامسـان شـفتَيَّ. لم تسـتجب شـفتاي لشـفتيها، لكـنَّ أذنيَّ سـمعتا كل نغمـةٍ في القُبلـة: افـتراش شـفتَيْها، شـدِّهما الناعـم عـلى شـفتَيَّ، تحرُّرهـما.

خَطَـت متراجعـةً للـوراء في خجـل. لكـن فيما توشـك عـلى اتِّخـاذ خطوة أخـرى -للهـروب للأبـد ربَّمـا- ارتفعـت ذراعـي. أمسَـكَت يـدٌ بكتفِهـا، والأخـرى بخاصرتهـا. لم أعانقهـا، أو أجذبهـا ناحيتـي حتَّـى، لكنـي أمسـكتُ بهـا فحسـب، وكأننـي أمسـك بكنـزٍ ثمـين سـهل الانكسـار في يـدَيَّ.

أطلَقَـت زفـيراً، ثـم تنفَّسَـت مُجـدَّدًا. كانـت كل نبضـةٍ مـن قلبهـا، متماثلـة تقريبًـا لسـابِقتها، صوتًـا جديـدًا وجميـلًا لي، ووجـدتُ نفـسي أقـترب منهـا ببـطء، بذراعـيَّ يتسـلَّلان حـول ظهرهـا لتقريـب أصواتهـا إليَّ.

تنهَّـدَت، وأرسـلت الهمهمـة الرقيقـة في رئتيهـا برعشـة انتشـاء عـبر ظهـري. قرَّبُتهـا أكـثر. انضغـطَ نهداهـا الناعـمان عـلى صـدري، وأسـفل منهـما، لامَسَـت أضلاعهـا أضلاعـي. عندمـا تنهَّـدَت مُجـدَّدًا، انتقـلَ الاهتـزاز مـن جسـدها إلى جسـدي، وشـعرتُ بـه في رئتَـيَّ. ضغَطَـت بخدِّهـا عـلى كتفـي، برأسـها تحـت فـكِّي. صـارت كل زفـرةٍ عَذْبـة الآن سـجينةً في عُنقـي.

لم أعُـد أحتمـل الأمـر. شرعـتُ في غنـاء نغمـةٍ أحاديـة، بخفـوتٍ في البدايـة، ثـم بالـكاد اسـتطعتُ مقاومـة اسـتخدام كل قـوة هاتـين الرئتـين. كان قـد مـضى وقـتٌ طويـل جـدًّا، أكـثر مـن ثلاثـة أعـوام، منـذ غنَّيـتُ آخـر مـرَّة. انتـشَرَت الوخـزة المألوفـة للنغمـة خارجـةً مـن عنقـي، إلى صـدري

وفكِّي، حتَّى صرتُ أرنُّ من جديد. انطلقت الأغنية مباشرةً مني صدري إلى صدرها. كان صوتي ما يزال همسًا، لكن سمعتُ صداه في عنقها، في عضلات ظهرها، وكأنه جرسٌ طَرَقتُه برفقٍ بِمِدقَّةٍ من اللِّبَّاد الناعم.

رفعتُ صوتي بالغناء وضممتُها إليَّ أكثر. وضعتُ إصبعًا على كل ضلعٍ في ظهرها، حتَّى أشعر بصوتي فيما يمرُّ عبرها.

ثم سمعتُ وقع خطواتٍ في الرواق. قطعتُ صوتي، وكأن يدًا قبَضَت على حلقي. كان أحدهم قد سمعني أغنِّي فيما يقف في الرواق، خارج غرفتي مباشرة.

"ما الأمر؟" همَسَت.

"أحدهم هناك"، قلت.

اتَّخذَ أيٌّ مَن كان ذلك خطوتين نحو بابي وانتظر. وضعتُ إصبعي على شفتيها.

بعد بضع ثوانٍ، تراجعَ وقع الخطوات عبر الرواق.

"تعالَيْ معي". قُدتها نحو النافذة.

"إلى الأعلى؟".

"سأمسك بيدكِ".

ارتقينا النافذة، ثم حملتُها حتَّى وقفت بقدميها على حافة النافذة، وصار بمقدورها النظر إلى المُعتزَل في الأسفل. أحكَمَت يدها حول يدي. كان ليلًا بلا قمر، وبالتالي ظلَّ وجهي آمِنًا في الظِّلِّ. كانت المدينة سوادًا محضًا وراء الدير الأبيض. بقبقت النافورة في المُعتزَل. حَفحَفَت الريح كحريرٍ رقيق على السقف. ناحت حمامةٌ. قعقَعَت عربة عبر شارع بعيد.

ساعدتُها لتتسلَّق إلى الطُّنُف، ثم وقفنا، يدًا بيدًا، وسرتُ في الخلف وهي في المُقدِّمة، بساقها العرجاء تتخبَّط. انزلقنا عبر البُرج، متجاوزين نوافذ رئيس الدير، ثم زحفنا على طول الجدار لنهبط إلى المدينة. كان منزل آل دوفت المكانَ الوحيد الذي بمقدوري إيجاده بكل ثقة؛ ذلك أنني كنتُ أزوره في كل ليلة طوال العام الفائت، رغم أنني لم أدخل إليه. قدتُها عبر الشوارع المظلمة، مُسترشدًا في طريقي بنغمة أقدامي على أحجار الشارع، وحفيف الرياح. لم نتهامس حتَّى، ليس لأننا خشينا أن يسمعنا أحد، لكن لأن كلينا شعرَ بأننا كنَّا في حُلمٍ، وأن أيَّ ضجيج قد يُفزعنا ويوقظنا. تشبَّثَت بذراعي برفقٍ حتى وصلنا إلى منزل آل دوفت، ظلًّا أسود في الليل.

خطوتُ وراءها، أمسكتُ بذراعَيْها أسفل كتفَيْها، وهمستُ في أذنها. "في هذه البقعة"، قلت. "بعد أسبوع. سأكون هنا". وبدفعةٍ رقيقة، قُدتُها إلى بوابة حديقة المنزل وأفلتُّها.

استدارت ناحيتي، لكنني كنتُ رحلت. اختفيت كشبح.

(10)

في الليلـة التـي تلـت زيـارة أماليا، تسـلَّلتُ إلى منزل أولرتش. اسـتخدمتُ المفتـاح الـذي كان وضعـه في جيبـي. لم أطـرق البـاب. في البدايـة، بسـبب الغيـاب المُطلـق للأصـوات البشريـة، كنـتُ متأكِّـدًا أن الرجـل العجـوز قـد مـات بسـبب لحـم جسـده المُتعفِّـن، لكـن عندمـا دلفـتُ إلى الغرفـة، أبـانَ الفحـم المتوهِّـج في الموقـد قائـد الجوقـة السـابق جالسًـا عـلى المنضـدة. كان مِحجـرَا عينيـه الخاويـان يشـيران إلى يديـه متصالِبَتَـيْن أمامـه. كانـت جمجمتـه المتقيِّحـة جـرداء.

لم يُبـدِ ردَّةَ فِعـلٍ عـلى دخـولي، لكننـي كنـتُ متأكـدًا أنـه سـمعني. لم يصـدر عنـه صـوت أكـثر مـما تُصـدِر جثَّـة. كنـت جلبـت معـي شـمعةً، أشـعلتها مـن الفحـم. ثـم تسـلَّقت الـدَّرج. لم يحـرِّك رأسـه.

أبانـت طبقـةٌ مـن الغبـار عـلى السُّـلَّمة الرابعـة أبعـدَ نطـاق وصـلَ إليه اهتـمام أولرتـش المهـووس بالنظافـة. لم يكـن أحـدٌ قـد ارتقـى الـدَّرَج حتَّـى هـذه السُّـلَّمة في عـامٍ أو يزيـد. في الطابـق التـالي، كان هنـاك رواق طويـل

تتناثـر فيـه مقاعـد، وسـجاجيد ملفوفـة، وإطـارات لوحـات مكسـورة، وزهريَّـات مُحطَّمـة، وكومـة مـن الأواني الفضيـة القـذرة، وكل هـذا يسـدُّ الأبـواب الأربعـة الخارجـة عـن الـرواق. عنـد النظـر عـن قـرب اكتشـفت أن المقاعـد والسـجاجيد والأُطُـر كانـت ملطَّخـة أيضًـا ببقـع كثـيرة. غبـار؟ دمـاء؟ وضعـتُ يـدي عـلى أنفـي وتراجعـتُ بسرعـة عـن هـذه الفـوضى المُغثِيـة، مُتابعًـا طريقـي عـلى الـدَّرَج المُغبَّر حتـى الطابـق الأخـير، حيـث انتهـى الـدَّرَج ببسـطة ذات بـاب، فتحتـه ودلفـت عـبره.

كانـت هـذه المسـاحة تحـت سـقف المنـزل عبـارة عـن غرفـة طويلـة واحـدة. سـقفها ينحنـي لحـدٍّ أن رأسي احتكَّـت بالعـوارض فيـما أخطـو نحـو النافـذة العريضـة في الناحيـة الأخـرى. كان الغبـار يغطـي كل شيء.

بجـوار البـاب ينتصـب موقـدٌ غـير مُشـعَل، وفـراش قديـم يقبـع بجـوار النافـذة تتناثـر عليـه أوراق وكتـب صفـراء. في منتصـف الغرفـة تنتصـب منضـدة مسـتطيلة، بمقـدور عـشرة أفـراد تنـاول عشـائهم عليهـا بـكل أريحيـة، لـو لم تكـن مكسـوَّة بطبقـة مـن السـخام وتعلوهـا جِـرار ومخلَّفـات أخـرى. بالتَّمعُّـن فيهـا عـن قـرب، اكتشـفت سـكاكين وفُرَشًـا متنوِّعـة مبعـثرة عـلى المنضـدة، ورأيـت أن الجِـرار الزجاجيـة كانـت ممتلئة بأطليـة، مفتوحـة للهـواء في معظمهـا، وقـد جفَّـت تمامًـا، لكـن بعضهـا مـا يـزال مغلقًـا، وفي هـذه الجِـرار، كانـت الأطليـة قـد اسـتقرَّت في طبقـات وكأنهـا عيِّنـات مـن الرمـال. عـلى الجُـدران، كانـت أقمشـة الرسـم غـير المؤطـرة تغطـي كل إنـش مربَّـع. مزيـدٌ مـن اللوحـات كانـت مرصوصـة في الزوايـا، مئـات منهـا ربمـا، بعضهـا كبـير كبورتريـه شـتاوداخ المُعلَّـق في مكتبـة الديـر، وبعضهـا صغـير كأيقونـة مريـم المنمنمـة التـي طالمـا كانـت مُعلَّقـة فـوق فـراش نيكـولاي.

كانـت بورتريهـات. كلٌّ منهـا يصـوِّر وجهًـا منفـردًا، وكان بمقـدوري عـلى الفـور تبيُّن أنهـا رُسـمت جميعًـا بنفـس اليـد. كانـت الخطـوط غـير مُتقَنة،

ومع ذلك فيما ألوِّح بالشمعة أمام أقمشة الرسم، شعرتُ على الفور بألفةٍ مع هذه اللوحات، أكثر ممَّا منحتني الوجوه الحقيقية قطُّ.

وجدتُ وجهًا لامرأة مكرَّرًا بكثرة: كبير أحيانًا ومنمنم أحيانًا، ترتدي فستان حفلات في بورتريه، وهناك، في بورتريه آخر في نهاية الغرفة بجوار الفراش، لا ترتدي شيئًا سوى جلدها الشاحب. على قماشة الرسم الأخيرة هذه كانت تجلس على مقعد، في وضعية وقورة لا تلائم العُريَ. حدَّقَتُ في جسدها العاري. هذا المرأة -لا، هذه اللوحة لهذه المرأة- أوقفت أنفاسي. سمعتُها. هل كان صوتها أم أنفاسها أم انزلاق فخذٍ ناعمة على الأخرى؟ سمعتُ كل هذه الأصوات في اندفاعة صاخبة مرَّت من خلالي كريحٍ عاصفة.

نظرتُ من فوق كتفي. هل كانت معي في الغرفة؟

لكنني كنتُ بمفردي.

سرعان ما بدت الغرفة صاخبة. مع كل نظرة خاطفة، كانت كل لوحة تهمس لي. أزلتُ الكثير منها وقلَبتُها حتى يواجه مَن فيها الحائط، لكنني تركتُ ثلاثة بورتريهات لوجه هذه المرأة الساحرة، والبورتريه التي تجلس فيه عاريةً.

ألقيتُ بالجِرار والفُرَش في الشارع في الأسفل. انفجَرَت في طرشطات متعددة الألوان. ظهرَ ضوء الشموع في المنازل على الناحية الأخرى من الشارع، وسمعتُ امرأة تصرخ، "يا إلهي! الشبح!" تُربِسَت نوافذ وسُلسِلَت أبوابٌ. صوَّبتُ بالجِرار على النوافذ، مُخلِّفًا خطوطًا خضراء وزرقاء على المنازل المواجهة لمنزل أولرتش. لطَّخت جرَّةٌ حمراء شاردة النافورة وأغرقتها بالدماء.

سرعان ما أفرغتُ الغرفة من كل شيءٍ ما عدا اللوحات، والمنضدة الطويلة والفراش. ضربتُ على حشيَّة الفراش حتَّى امتلأت الغرفة بضبابٍ غُباريٍّ.

كنتُ أنوي تجاهل أولرتش، لكن عندما عدتُ إلى الأسفل لاحظتُ الكمال التشريحي لأذنيه، البارزَتين للغاية وسط حطام وجهه. رفعَ رأسه بغتةً. وجدتُ نفسي أحدِّقُ في عينيه الخاويتين.

"كان خيَّاطًا مثل أبيه". قال أولرتش. "أبدًا لم يخبرهم أنه كان يرسم وجوههم. لم يعرف بالأمر سوى زوجته. لكنها ماتت حينها".

ميِّتة؟ فكَّرتُ، مدركًا بالغريزة أن أولرتش يتحدَّث عن المرأة في اللوحات. كيف لها أن تكون ميِّتة؟

"ماتت وهي تلد طفلها، وأخذت الطفل معها إلى القبر. قيل لي إنه لم يبكِ في الجنازة. ظنُّوا جميعًا أنه مُتحجِّر القلب". اختلجت عينا أولرتش الخاويتان فيما يتحدَّث. "بعد الجنازة، عاد إلى المنزل، هنا، وجرحَ وريدًا. تناول واحدة من فُرَشه، ورسمَ لوحتها بدمائه. ليس على قماشة رسم، بل هنا، في هذه الغرفة. على الحوائط، على الأرضية، على النوافذ". أدارَ أولرتش وجهه وكأن بمقدوره رؤية بقايا الدماء. "وجدوه على الأرض غارقًا في الدماء من رأسه إلى قدميه، والفرشاة ما تزال في يده. قالوا إن شَبَحها أجبره على فعل ذلك... غاضبًا لأنه لم يبكِ عليها. لم يَقبل أحدٌ تنظيف الدماء". بحثتُ عن آثار دماء الرَّسَّام على الأرضية والحوائط، لكن كل إنش من الغرفة كان مفروكًا بنظافة شديدة. "يظنُّون أن الشبح ما يزال يعيش هنا. عندما استخبرتُ عن المنزل، ترجَّاني وكيل أبيه ألَّا أشتريه. قال إنه من الأفضل أن يُحرق. لم يكلفني شيئًا تقريبًا".

اتَّجهَت عينا أولرتش الخاويتان ناحيتي. "ظننتُ أنني لن أواجه أيَّة متاعب. كان لديَّ وقت للتنظيف؛ كل الوقت الذي في العالم. ما لا أستطيع رؤيته لا يمكن أن يصيبني بالاشمئزاز. لكن الدماء كانت كثيرة جدًّا. مهما نظَّفتُ، ما أزال أشمُّ رائحة تعفُّنها. أشعرُ بها كامنة

في ثنايا أصابعـي". مـدَّ يديـه الجافتـين، المُتشـقِّقتَيْن ناحيـة شـمعتي. كانتـا بيضاويـن كاللُّطـخ عـلى وجهـه.

"هل رأيتَ لوحاته؟" سألني.

"نعم".

"هل كانت المرأة جميلة؟".

"نعم".

أومـأ أولرتـش ببـطء، مسـتغرقًا في أفـكاره. "هـل تعـرف لمـاذا فعـل ذلـك؟".

"كان يُحبُّها"، قلتُ.

نمَّـت عنـه ضحكـةٌ خاويـة دون ابتسـام. "أنـت مثـل رئيـس الديـر"، قـال. "يريدنـا أن نحـبَّ الـرَّبَّ، لكنـه شـيَّدَ كنيسـةً جميلـة لنقـع في حبِّهـا. تـركَكَ تغنِّـي، وأحببنـا غنـاءك. مـوسى، نحـن نحـبُّ مـا نـراه، مـا نسـمعه، مـا نلمسـه. مثـل جسـد امـرأة جميلـة في ضـوء الشـموع. مثـل رنـين صوتـك".

"لكـن هـذه الأشـياء تختفـي"، تابـعَ، "ونصـير نحـن أكـثر خـواءً مـما قبـل. إذا كان هـذا هـو الحـبُّ، فالحـبُّ هـو لعنتنـا. الحـبُّ كالدمـاء التـي تقاطَـرَت مـن وريـد ذلـك الرَّسَّـام يـا مـوسى. نحـن العُشَّـاق حمقـى. مـن الأفضـل لنـا جميعًـا أن نبحـث عـن ذلـك الـشيء الـذي نحبُّـه وندمِّـره، قبـل أن يفـوت الأوان".

(11)

مـن خزانـة المكانـس في الطابـق الثـاني مـن الديـر، سرقـتُ كل الأدوات التـي أحتاجهـا لنفـض وكنـس وتنظيـف غرفـة العلِّيَّـة تلـك حتـى صـارت بقـع الطـلاء، التـي كانـت تُلطِّـخ ألـواح الأرضيـة كنـدوب مـرضٍ لا شـفاء منـه، تلتمـع كوريقـات شـتاوداخ الذهبيـة. سرقـتُ مـلاءات، وفُرُشًـا مـن الريـش، ووسـائد، وأغطيـة موائـد مـن الديـر. سريعًـا مـا أصبحـت غرفـة العلِّيَّـة تلـك مناسـبة للعُشَّـاق مـن جديـد.

مرَّتـين دلفـتُ في الليـل لأجـد أولرتـش مُقعيًـا عـلى ركبتيـه، يفـرك في بقعـة تخيَّلَهـا عـلى الأرضيـة التـي لا تشـوبها شـائبة. خطـوتُ مـن فوقـه فحسـب. لم أقاطـع عملـه.

* * *

بعـد أسـبوع، كانـت ليلـة موعدنـا بـاردة ومطـيرة؛ أسـوأ ليـالي أكتوبـر. تسـلَّلتُ عـبر النفـق في الاصطبـلات فـور أن سَـكنَت المدينـة بمـا يكفـي

لأنسلَّ مُتخفِّيًا مـن ظـلٍّ إلى آخـر، ثـم دلفـتُ إلى منـزل أولرتـش وأوقـدتُ الفحـم في الموقـد. ثـم عُـدتُ إلى الليـل النَّـديّ، وشرعـتُ في الـدوران طـوال سـاعتين حـول منـزل آل دوفـت، مراقبًـا فيـما تخبـو المصابيـح في النوافـذ شـيئًا فشـيئًا، حتَّـى قرَعَـت سـاعة الديـر مُعلنـةً منتصـف الليـل، وصـار منـزل آل دوفـت بنـاءً مسـودًّا، مُصمتًـا مـن كل جانـب.

شرعـتُ في مطـاردة خادمـة في ملحـق المطبـخ، مُتلصِّصًـا عـلى مَهمَّتهـا العاطفيـة، لكننـي سرعـان مـا أدركـتُ مـن اسـتواء وقـع خطواتهـا أنهـا لم تكـن أماليـا(تي). في السـاعة الواحـدة تكاثـفَ المطـر، ورغـم أننـي جثمـتُ في الظـلال التـي منحتنـي بعـض الحمايـة، إلَّا أن رداء الرَّهبَنـة سُرعـان مـا أطلـق رائحـةً كقطيـعٍ مـن أغنـام نيبلـمات.

* * *

في ذاكـرتي، تدلـف هــي كقعقعــة جــرس؛ وكل نغـمات جســدها تمـلأ الليـل بـدفءٍ مباغـت. تتوقَّـف أسـناني عـن الاصطـكاك. لا تعـود أصابـع قدمَــيَّ تتألَّــم مــن الــبرد. لكــن ذاكــرتي تكــذب حتــمًا، فليــس هــذا مــا سـمعتُه في الحقيقـة. لا بُـدَّ أنهـا كانـت تلميحـات فحسـب: جرجـرة سـاقها العرجـاء، باسـتدارة المفتـاح في بوابـة تلـك الحديقـة، ربمـا الهمـس باسـمي يُحفحـف في الليـل.

لم أهــرع إليهــا، ولم أنادِهــا. كنــتُ مرتعبًــا. لكــن مــن مــاذا؟ يُفــترض أن هــذا هــو الفصــل الثــاني والأخــير مــن المسرحيــة: ينجــح العاشــقان في الهــروب مــن ســجنهما، فيــما ينتظرهــما عــشُّ الحــب. لهــما أن يتعانقــا حتَّــى تزحــف أصابــع الصبــاح الورديَّــة عــبر الســماء! ليــس هــذا وقــت الخــوف!

لا تُصــدِّق مــا تعلَّمتَــه في الأوبــرا. الحــبُّ ليــس مجــرد فتــح أبــواب روحَـيْن. ولا هــو تريــاقٌ للقلــب الحزيــن؛ إنــه مُهيِّــج. تحــت تأثــيره، يتعاظــم ذلــك القلــب حتــى تتوهَّــج كل نقيصــة متناهيــة الصِّغــر ببرهــانٍ أليــم.

ونقيصة المخصيِّ ليست متناهية الصِّغَر. كنت أعرف ما يكفي من تجوالاتي الليلية لأدرك أنني متورِّط في أفظع أنواع الخداع. في هذا العالم التعيس، حيث جميعنا غير مُكتملين، كنتُ فقدتُ الهِبَة التي بمقدورها جعلنا مُكتملَيْن مُجدَّدًا.

وبغتةً، هناك كان نصفي الآخر، جميلًا، يعرج تحت المطر.

جزءٌ شريفٌ من روحي -جزءٌ طالما حاولتُ تجويعه وحرمانه من النور- تحدَّثَ حينها، فيما أختبئ منها في الظِّلّ. قالَ لي أن أعود إلى الدير وأبحث هناك عن العزاء الذي تُقتُ إليه في حياتي، أيًّا ما كان. اقتبسَ ذلك الجزء من كلمات رئيس الدير وقرأه عليَّ مُجدَّدًا. أنت صُدفَة الطبيعة، نتاج الخطيئة وليس الفضيلة. لا تُثقل على الآخرين بمأساتك، قال هذا الصوت داخلي. اتركها في هذا المطر. لا تشاركها محنتك؛ لن تستعيد ما فقدتَه أبدًا.

لكنَّ جزءًا آخر -ذلكَ الجزء المتَّقد الذي يحبُّ ويصبو- قال: هيَ! هيَ! هيَ! نسيَ المطر، والبرد. ومع اقترابها إلى هذا الحدِّ، وجدَ العالم في غاية الدفء.

وهكذا، وكأنني لصٌّ، فيما تنادي على اسمي وتبحث عني بعينيها، اختبأتُ من أذنَيْها. لم تُبدِ قدماي أيَّ صوتٍ فيما تنسلَّان على حجارة الطريق المُبتلَّة. لم أنادِ عليها. ثم انتزعتُ من داخل رداء الرهبنة -حيث كنتُ أخفي من المطر، على صدري- راية خداعي.

كانت شريطًا من الحرير الأحمر الناعم، مسروقًا من مخزن رئيس الدير الخاص، وهو حريرٌ كان يومًا جزءًا من أندر الملابس. حملتُه في كلتا يدَيَّ فيما أتلصَّص وراءها -مُطابقًا خطواتها بخطواتٍ أطول- حتى اقتربت بما يكفي لأسمع قطرات المطر تُطقطق على كتفها. كان لأيِّ رجُل يرانا من نافذته أن يفترض أنني على وشك خنقها.

رفعتُ الحرير عاليًا ثم شددتُه، فورَ أن وصل إلى مستوى عينيها.

صرخـت بالطبـع. مـع ذلـك كنـتُ خائفًـا أن تنتـزع العِصابـة وتـرى وجهـي، لتقـرأ في تقاطيعـه الناعمـة عـاري وخزيـي؛ لهـذا شـددتُ الحريـر أكـثر، وجذبتهـا ناحيتـي، عـلى أمـل أن تهـدأ بفعـل ملامسـة جسـدي، الـذي كان مبتـلًّا وبـاردًا، وعفنًـا كالأغنـام.

لم يحدث ذلك. صرخت مُجدَّدًا.

«أماليـا»، قلـت. «هـذا أنـا، مـوسى. لا تخـافي». كان هـذا، عـلى الأقـل، اسـتراتيجية أفضـل. لم تـصرخ، لكـنَّ يديهـا لم تتوقفـا عـن محاولـة انتـزاع الحريـر، الـذي كان لا بُـدَّ يضغـط عـلى عينيهـا بشـكل مـؤلم.

«هذا أنا، موسى»، قلتُ مجدَّدًا.

توقَّفت عن جذب العِصابة بعض الشيء، وأرخيتُ قبضتي.

«موسى؟» سألَت.

«نعم»، قلت. «إنه أنا».

«ماذا تفعل؟».

فضَّلـتُ الصمـت. ومـضَ ضـوءٌ في أقـرب منـزل إلينـا، أيقـظ صراخهـا قاطنيـه.

«موسى، أفلتني رجاءً».

«لا يمكنك انتزاع العصابة»، قلتُ باندفاع.

«لماذا؟».

«لا يمكنـكِ رؤيتـي». توهَّـج الضـوء أكـثر ثـم انكمـشَ حتـى صار شـمعة واحـدة في إحـدى النوافذ.

«لماذا لا يمكنني رؤيتك؟».

«بسرعـة»، قلـت. «أحدهـم هنـاك». بـدأت نافـذة في الانفتـاح بصريـر. ربطـتُ العصابـة وراء رأسـها. لم تحـاول انتزاعهـا مُجـدَّدًا لحسـن حظـي. تناولـتُ يدهـا وقدتهـا عـبر الشـارع. سـارت بيدهـا الأخـرى ممـدودة لتفـادي العوائـق. اسـتدرنا نحـو الأزِقَّـة الضيقـة في حـيٍّ أولرتـش.

"موسى"، قالت. "هذا سخيف".

لم يكن سخيفًا، لكن كيف لي أن أقنعها؟

اعتـصرت يـدي، تمامًـا كـما اعتـصرت تلـك الفتـاة يـدي منـذ سـنوات خلـت قبـل أن تقـودني إلى عالَـمٍ عجيـب.

"لا بُدَّ أن هناك سببًا".

لمـاذا تحتـاج إلى سـبب؟ كنـتُ لأدعهـا تعصـب عينَـيَّ للأبـد دون كلمـة واحـدة. لم أسـتطع أن أقـول: إذا رأيـتِ وجهـي، سـترينَ في تقاطيعـه أننـي لسـتُ نصفَـكِ الآخـر المثـالي الـذي انتـوى الـرَّبُّ أن أكونـه. سـترينَ أننـي مكسـور، ولـن تقعـي في حبـي. لم أسـتطع أن أقـول: ذلـك الرجـل الـذي ترينـه الآن، في عقلـك، ذلـك الرجـل المثـالي؛ هـو أنـا الحقيقـي.

وبالتالي قلتُ، "إذا رأيتِني، سأختفي". لم تكن ذلك كذبة.

"لكن هذا مستحيل"، قالت.

"أرجوك، أماليا، صدِّقيني".

وضعَـت يدهـا عـلى كتفـي، وشـعرتُ في اللمسـة بتحسُّـسٍ، كـما لـو أنهـا تحـاول رؤيتـي بهـا، لمعرفتـي عـبر ارتفاعـات وانخفاضـات عظـام كتفـي. تلوَّيـتُ تحـت وقـع لمسـتها.

"هل سنسير تحت المطر طوال الليل؟" سألت.

"لا"، قلتُ. "سنذهب إلى مكانٍ ما".

"بإمكاني إذن انتزاع العِصابة؟".

"لا".

"متى يمكنني انتزاعها؟" تحرَّكت يدها على طول كتفي.

"لا يمكنك انتزاعها".

"أبدًا؟".

"ليس وأنتِ بصحبتي".

"وإلا ستختفي؟" جسَّت بأصابعها على طول العضلات إلى عنقي.

"نعم".

"لكنني اعتقدتُ أنك أورفيوس".

"ماذا؟".

"لقد أسأتَ فهم القصة يا موسى".

"أيَّة قصة؟".

"أورفيوس ويوريديس".

"مَن هما؟".

"هل تتعلَّم أيَّ شيء في ذلك الدير؟ أورفيوس هو ابنٌ لملكٍ وكاليوب مُلهِمة الشِّعر"، كانت تتكلم كما لو أنها تقرأ من كتاب، بيدها تستكشف نتوءات عمودي الفقري. "رجلٌ لا مثيل له: جميلٌ وقوي. لكن أكثر من ذلك، كان أعظم موسيقيٍّ عاشَ على الأرض. يوريديس كانت زوجته"، قالت. أوقَفَت سيرنا. استدارت ناحيتي حتَّى تتمكَّن من استكشاف عنقي بكلتا يديها. "تموت يوريديس، ومع ذلك يروِّض أورفيوس ربَّات الانتقام في العالم السفلي بأغانيه ويستعيدها، لكن على شَرطٍ واحد: لا يمكنه النَّظر إليها حتَّى يغادرا العالم السُّفلي. وإذا فعلَ، ستموت مُجدَّدًا، وسيفقدها إلى الأبد. هل هذا هو الأمر؟".

"نعـم"، قلـتُ، وكلماتهـا (رجـلٌ لا مثيـل لـه) يـتردَّد صداهـا في رأسي. اكتمـلَ الخـداع.

"إذن فأنت من تحتاج إلى عصابة العينين، يا أورفيوس".

"لا تريدين أن أنظر إليكِ؟" سألتُ، مُستشعرًا مساومةً.

"بالطبـع أريـد. أريـدك أن تنظـر إليَّ"، قالـت. أمالـت رأسـها إلى الأمـام، بلمحـة مـن ابتسـامةٍ تتلاعـب عـلى شـفتيها. "حسـنًا"، تابَعـت. أمسـكت رأسي بقـوَّةٍ بكلتـا يديهـا. "سـأرتدي العصابـة. لكـن عليـك أن تدعنـي ألامسـك. توقَّـف عـن التلـوِّي".

شرَعَـت يداهـا في استكشـاف أيـن يَكمُـن عـارِي: في الاسـتدارة الخفيفـة لخـدَّيَّ، في أنفـي الدقيـق، في جبينـي الضَّيِّـق، في جلـدي الناعـم عديـم الشَّـعر كجلـد رضيـع. لامَسَـت يداهـا كل هـذا، ثـم لامسـته مُجـدَّدًا فيـما يصيـب المطـر وجهـي ويديهـا بالـبرد والبلـل. توقَّفَـت يدهـا اليـسرى عـلى عنقـي -حيـث ينبغـي أن تكـون تفَّاحـة آدم- واسـتقرَّت هنـاك.

"لماذا أنت خائف؟" سألَت.

"خائف؟".

"قلبك ينبض كما لو أنك خائف منِّي".

أنصـتُّ إلى قلبـي وحاولـت إبطـاءه. لكنـه لم يكـن ليطيعنـي الآن. أبعـدتُ يديهـا المُتحسِّـستَيْن برفـقٍ ونكزتهـا لتتقـدَّم إلى الليـل.

سرعـان مـا سـمعتُ النافـورة ذات الميازيـب الثلاثـة واطمأنَّـت نفـسي أننـا نمـضي في الاتِّجـاه الصحيـح. عندمـا أوقفتهـا أمـام بـاب أولرتـش، أدارت رأسـها وكأنهـا تحـاول الرؤيـة عـبر العِصابـة. حللـتُ مـزلاج البـاب وقدتُهـا إلى غرفـة أولرتـش. كان يجلـس عـلى منضدتـه، برأسـه مُنحـنٍ كالمعتـاد، لكـن عندمـا دلفنـا، ارتفـع رأسـه بغتـةً. خشـيتُ أن تسـمعه، لكنـه لم يُبـدِ أيَّ صـوت أعـلى مـن صـوت الدخـان الـذي يـدوِّم حـول بـاب الموقـد.

"تعـالي معـي"، قلـت، فيـما عينـا أولرتـش الخاويتـان تتبعاننـا عـبر الغرفـة.

ارتقينـا إلى العِلِّيَّـة في الظـلام، وعـمائي لا يقـلُّ عـن عمائهـا. أمسَـكَت يـدي اليمنـى بيدهـا اليمنـى، فيـما يـسراي تدعـم أسـفل ظهرهـا حتَّـى لا تسـقط. كان الـدَّرَج المائـل بحـدَّةٍ يشـقُّ عـلى ركبتهـا العرجـاء، التـي لا تنثنـي.

عـلى بسـطة الـدَّرج، تحسَّسـتُ بحثًـا عـن البـاب -وجدتـه في اندفاعتـي الثالثـة- وفتحتـه. جفَّـفَ الهـواء الدافـئ وجهينـا المُبتلَّـيْن. كان الوهـج القـادم مـن الموقـد كافيًـا لأرى سـواد المنضـدة الكبـيرة، وبيـاض الفـراش، والمسـتطيلات القاتمـة لبورتريهـات المـرأة عـلى الحائـط.

"موسى؟".

بيـدي عـلى أسـفل ظهرهـا، دفعـتُ أماليـا إلى الغرفـة وأغلقـتُ البـاب وراءنـا.

وراء البـاب، في البدايـة، كان الصمـت فحسـب. واجهنـا الموقـد، تسـاقَطَت القطـرات مـن أكمامـي المُشـبَّعة بالمـاء وصنعـت بِـرَكًا صغـيرة عـلى الأرضيـة. اسـتدرتُ وتطلَّعـت إليهـا؛ تدلَّـت عصابـة الحريـر الأحمـر، مُلطَّخـةً بالقرمـزي بفعـل المطـر، عـلى ظهرهـا واشـتبكت مـع شـعرها. بـدت مأخـوذةً بالحـرارة، وكأن الفحـم الملتهـب يجذبهـا نحـوه.

هـل تُنصِـتُ الآن إلى نبـوءات عمَّتهـا كارولـين عـن الفضيحـة والعـار تنعـب في رأسـها؟ مَـنْ هـذا الرجـل؟ لا بُـدَّ أنهـا تتسـاءل. مَـن يختبـئ وراء هـذه العصابـة؟ هـل هـذه هـي إجابـة القَـدر عـلى وحـدتي؟ مـاذا حـدثَ لتلـك الفتـاة التـي كانـت تجلـس صابـرةً لسـاعات طويلـة جـدًّا بجـوار فـراش أمهـا؟ هـل أسـعى إلى إحيـاء تلـك الفتـاة الليلـة؟ أم أنَّنـي عـلى وشـك فَقدِهـا؟

وفي رأسي: جسدي مأساتي. لا يستطيع أن يُحِبَّ أو يُحَبّ. كيف أجرؤ على الكذب عليها؟ كيف أجرؤ على إحضارها إلى هذه المنزل المريع؟ لا بُدَّ أن أنزع تلك العِصابة عن عينيها، قبل أن تقع في الحبِّ حقًّا. أوشكتُ على فعل هذا.

أسمع صرير ألواح الأرضية عندما تُبدِّل من وزنها، الخشخشة المنتظمة للمطر على السقف فوق رأسينا. في واحدة من زوايا الغرفة، تتسرَّب المياه عبر ثقبٍ في السقف وتتقاطر في بركةٍ على الأرضية. ولا أنزع عِصابتها.

ما ينقذني من فَضْح نفسي أمامها -ما ينقذني من شفقتها- ليس سوى قطرةٍ من مياه المطر. تتجمَّع على خصلات الشعر المُبتلَّة بجوار أذنها وتنساب على خدِّها، على طول الفك. لا بدَّ أنها تُدغدغها، لأنها ترفع إصبعًا، وأسمع تلك الإصبع تمسح على جلدها الناعم، المُبتلِّ، حتَّى تتوازن قطرة المطر على مفصل إصبعها. ثمَّ كصوتٍ من الجنَّة، تُقبِّل قطرة المطر تلك.

شفتاها تحتوي إصبعها. أخطو مُقتربًا. أنفاسها، عميقةً ما تزال من أثر صعود الدَّرج، تؤلمني، لأنها في غاية الجمال. أمدُّ يدي وأربِّت على ذقنها، حيث أنقذَت إصبعها قطرة المطر تلك قبل لحظات، وأسمع جلدها كريحٍ دافئة تمضي عبر العُشب. أدركُ أنه صوت جلدي، أيضًا، يلامس جلدها.

تتثاقل أنفاسها إلى تنهيدة.

تجد أصابعها الباردة طريقها إلى الجلد الرطب لعنقي. أرتعش فيما تتسلَّل إلى شعري. تجذبه هي بشدَّة حتى يؤلمني، ويتوتَّر فمها وكأنها تشعر بنفس الألم. لكن حينها ترتخي شفتاها وتجذب وجهي ناحيتها. إنها قبلة محمومة، ساذجة، تخلط بين أصواتنا. أشعر باهتزازِ تأوُّهها على طرف لساني.

تنشب أظافرها في قلنسوتي وكأنها تريد انتزاعها. أرفعها من على رأسي وأُسقطها أرضًا. ثم تُمسك بردائي. فيما أساعدها لترفع فستانها، أضع رأسي على صدرها. خفقاتُ قلب، خفقاتُ قلب. يداها ترتجفان فيما تحلُّ الكورسيه وتركل آخر جذاذات من النسيج الأبيض الأنيق. ثم صارت لا ترتدي شيئًا سوى العصابة الحمراء. جلدها الشاحب، الرطب يرتجف، لكنني أستغرق لحظةً أخرى قبل أن أعانقها.

أضغط برأسي على صدرها لأقترب من ذلك القلب قَدْر المستطاع، ثم أسمع أنفاسها في رئتيها. تتأوَّهان كريحٍ في كهفٍ رطب، هائل، وفي كل شهيق تعلو لتقترب من التنهيدات.

اللمسة الباردة الأولى لفراش الدير الأملس تجعل أنفاسنا ترتعش، لكنه دافئ الآن، نطفو فوقه، ونتحسَّس بحثًا عن بعضنا البعض. تنكتُ في صدري وكأنها لم تدرك قطُّ من قبل كم هي كبيرةٌ الأجساد. تمدُّ يدها نحو آخر قطعة ملابس أرتديها -قماشة ملفوفة بإحكام حول منتصفي، كضمادة- لكنني أُبعد يدها؛ ذلك أنني لن أسمح لها بملامسة ما هناك.

تشهق عندما تهيم يدي تحت سُرَّتها. تَزفر عندما أُقبِّل كتفها. تبدو أصواتها وكأنها تأتي من داخل رأسي. تشهق مُجدَّدًا. يداي تلامسان صدرها، تتحسَّسان الانحناء الغضَّ لبطنها. تعتصران العظام الناتئة لخَاصرتها. تبدو أنفاسها وكأنها نحيبٌ فيما أصابعي تتتبَّع أثر الندبة التي تمضي من منتصف سَمَّانتها إلى أعلى ركبتها ثم إلى الداخل الناعم لفخذها. يداها تجذبان يدَيَّ، لكنني لا أحتاج إلى دليلٍ؛ لأن أنفاسها، وشهقاتها، وتأوُّهاتها- تُرشدني. تلاعبني بأصواتها، وألاعبها بلمساتي. وفيما تبدأ في الارتجاف تحت يدَيَّ، أضغط بأذني على تأوُّهها الحار حتى لا تفوتني قطرةٌ من صوتها.

(12)

ليلةً واحدة كل أسبوع أصير حيًّا.

صلَّيتُ ألا تموت خالة كارولين المريضة، ولسنةٍ نعيمية واحدة، على الأقل، أُجيبَت صلواتي. كل خميس، فور أن يحلَّ الظلام، كنَّا أنا وأماليا نهرب من سجنَيْنا. كنتُ هناك أُمسك بيدها وأقودها إلى غرفتنا فور أن أثبِّت العصابة حول رأسها. دائمًا ما كان أولرتش على المنضدة، رأسه منحنٍ وكأنه نائم. أدرك أنه ليس نائمًا، وأنه يسمع ضجيجنا كله. لكن سرعان ما نسيته، لم يَعُد بالنسبة لي سوى تمثال في ذلك المنزل.

في ليالي الخميس تلك التي تضطر فيها كارولين للتَّخلِّي عن رحلتها الأسبوعية بسبب الجليد أو لأي مانع آخر، كانت أماليا تترك لي رسالةً على عتبة نافذة. كانت تركت لي مفتاحًا، يمكنني به التسلُّل إلى حديقة آل دوفت ومنها صعودًا إلى المنزل. كنتُ أرتعب وأنا أمدُّ يدي إلى النافذة الحجرية الباردة؛ يئنُّ قلبي إذا وجدتُ قصاصةً من

الـورق عـلى عتبتهـا. فحينهـا أهيـم في الشـوارع وحيـدًا، أتصيَّـد الأصـوات التـي تُذكِّـرني بهـا.

في غرفـة العِلِّيَّـة، أسـتلقي بجوارهـا عـلى الفـراش، فيـما تُمسـك هـي بـأذني أو شـعري، أو تضـع يـدًا عـلى خـدِّي أو عـلى صـدري، وكأنني سـأطفو مبتعـدًا لـو لم تفعـل. «غـنِّ يـا مـوسى»، سـألتني، ورغـم أنني كنـتُ أقسـمتُ لأولرتـش في هـذا المنـزل ذاتـه أننـي لـن أفعـل أبـدًا، أجـد نفـسي أغنِّـي مُجـدَّدًا. أيَّمـا خطـرَ لي: القُدَّاسـات التـي علَّمنـي إياهـا أولرتش والتـي طالمـا غنَّيتهـا للسـيدة دوفـت، أو أناشـيد الرهبـان، أو رعويـات نيكـولاي (تضحـك أماليـا مـن نطقـي الاعتباطـي للفرنسـية)، أو أغـاني بـاخ، أو ارتجـالات مـن كل هـذا. أحيانًـا مـا كنـت أغنِّـي نغـمات فحسـب تبـدو بـلا معنـى لأيِّ إنسـان باسـتثنائي أنـا وأماليـا.

أراقبهـا تسـتلقي مُتكاسـلةً، وعنـد نغـماتي الأولى ترفـع ذقنهـا برفـق وتُقـوِّس أصابـع قدميهـا، وتُديـر قدمهـا إلى الخـارج قليـلًا، ثـم إلى الداخـل ثـم إلى الخـارج مُجـدَّدًا، كعـازف كـمان يلـوي عصـا عَزْفـه. لم تكـن تـدرك أنهـا تفعـل ذلـك حتَّـى أخبرهـا، لكنهـا لم تتوقَّـف عـن فِعلـه. كان يبهجهـا.

حينهـا أغلـق عينَـيَّ دائمًـا. كان كلانـا يَعمـى عندمـا أضغـط بـأذني عـلى كل إنـش مـن جلدهـا حتَّـى أسـمع مـا يـرنُّ تحتـه. كان جسـدها جَرسي.

حاوَلـت مـرَّاتٍ كثـيرة أن تزيـل قطعـة القـماش التـي تشـبه الضـمادة والتـي تحمـي سِرِّي. لكننـي أوقفهـا دومًـا. ظنَّـت أننـي أحمـي عفَّتهـا (التـي لم تُبـدِ أي دفـاع عنهـا). بالتأكيـد لم يكـن في بـالي شيء مـن ذلـك، وأيُّ تمنُّـع كان عائـدًا لمسـألة إخصـائي فحسـب. هنـاك شـائعات عـن مخصيِّـين مـا زالـوا قادريـن عـلى ممارسـة فعـل الحـب. لا تصدِّقهـم. لقـد قُطِعنـا مبكِّـرًا جـدًّا.

كانـت أماليـا أول شـخص في حيـاتي أحـكي لـه عـن أمِّـي. "كنـا نـنام عـلى القـش"، قلـتُ ذات الليلـة، وراقبـتُ وجههـا بحثًـا عـن اشـمئزاز. لم أجـد أيًّـا

منه. "كنَّا نأكل بأيدينا. تُحمِّمني في نبعٍ. أرتدي قصاصات من قماشٍ كان فيما مضى الملابس الداخلية لمزارعٍ ما". مع ذلك، لم تُشِح في خجل عنِّي. استلقت بجواري وأَجرت إصبعًا جيئةً وذهابًا على ذراعي، التي كانت تنغزني عند المِرفق. "أماليا"، قلتُ. "ألا يفاجئكِ هذا؟".

"يفاجئني؟" قالت. وضعت أذنها على ذراعي، وكأنها تريد الإنصات إلى ارتعاشة عضلاتي. "لا".

توهَّجَ عنقي. إذن فقد كانت تظنُّ دائمًا أنني فلَّاح قذر؟

"ترى"، قالت، وهي تُقبِّل رسغي وتتذوَّقه، "اعتقدتُ في البداية أنك مُجرَّد واحد من أولئك الصبيان الذين يطمحون لأن يكونوا رهبانًا. اعتقدتُ أن لديك أبًا غنيًّا يحبُّ الرَّبَّ ويرغب أن تصير مثل رئيس الدير. ما تخبرني به الآن يُفسِّر لماذا أحببتك بتلك الطريقة. لو كنتَ أخبرتني من قبل أنك يتيم فلاح ربما لم أكن لأتصرَّف معك بخبث. كنت سأساعدك أكثر. لكنني اعتقدتُ أنك أحمق فحسب".

غرزت أسنانها في ساعدي.

تجمَّدَت حياتي خارج تلك الغرفة. لم يرَ شتاوداخ عَجلةً في أن أترهَّب؛ لذلك بقيتُ راهبًا مبتدئًا لا يفعل سوى حضور ما يكفي من صلوات الساعات حتَّى أتجنَّب لفت الأنظار. إذا كان لحياتي في الدير أن تتغيَّر، فعليَّ أن أبادر وأفعل شيئًا، لكنني لم أرغب في التغيير. كنتُ على استعداد الآن لأشيخ في تلك الغرفة.

لكن مع أماليا، الابنة الوحيدة لأغنى رجل عرفَته سانت غال، كان العالم مُهيَّأ للعمل. كان الخُطَّاب همًّا مقيمًا. كانت تنسج هي أبرع الإدانات لعيوبهم، وهو ما أقنعَ كارولين، لبعض الوقت، أن أماليا تبحث بإخلاص عن الرجل المثالي.

"لم تفعل كارولين سوى أن كثَّفَت من بحثها"، أخبرتني أماليا ذات ليلة خميس. "الورق الذي بدَّدَته في إرسالها في طلب 'المُتقدِّمين'! 'سنة أخريه'، تقول، 'على أقصى تقدير. إذا لم تُقرِّري، فعلى أبيكِ أن يفعل!' نخرَ أبي عند هذا. 'الصبر يا كارولين'، قال لها. 'سنجد زوجًا مناسبًا؛ هناك دائمًا شخص مناسب مثالي'".

ضحك كلانا على كل هذا، مُدرِكَيْن أنه أبدًا لن يظهر رجل مثالي.

* * *

لكن بعدها:

"تزوَّجني"، قالت ذات ليلة.

بغتةً، لم أستطع التَّنفُّس. لم أتحرَّك. لم أقُل شيئًا. شعرتُ وكأن أيَّ صوت سيفضح خديعتي وعاري.

"موسى؟" سألت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"نعم؟".

"سألتكَ أن تتزوَّجني".

"لا أستطيع".

"ولِمَ لا؟" سألت، وضحكت. "لأنك راهب؟ موسى، أنت لا تعرف الإنجيل حتَّى. تقضي كل ليلة بصحبة امرأة. أنت...".

"ليس لهذا يا أماليا".

"لماذا إذن؟".

شكرتُ الرَّبَّ على العِصابة حينها؛ ذلك أنها لم تستطع رؤيتي أرتعش خشية أن أفقد كل ما لديَّ.

"لا أستطيع".

"لكن لماذا؟" سألَت، لم تَعُد وقحة.

"أرجوكِ، لا تسأليني".

لا بُدَّ أنها سمعَت إخلاصي؛ ذلك أنها لم تُلِحَّ.

"أرى"، قالـت. "حسـنًا، لا أحتـاج إلى الـزواج منـك. لنهـرب بعيـدًا. أنـا متعبـة مـن أيامـي بعيـدةً عنـك. يمكننـا الذهـاب إلى زيـورخ. أو إلى شـتوتجارت. أورفيـوس، بمقـدورك أن تُغنِّـي".

"أرجوكِ، لا تناديني بهذا الاسم".

"لم لا؟ بالنسبة لِي أنت أورفيوس. أورفيوس(ي)".

هـزتُ رأسي، رغـم أنهـا لم تـرَ ذلـك. كان هـذا الاسـم رمـزًا لمدى بشـاعة خداعـي لهـا، ومـدى خداعـي لنفـسي. فـما تاقـت إليـه كنـتُ أتـوق إليـه: أن أهـرب بعيـدًا، أن أفِـرَّ مـن شـتاوداخ وأولرتـش وسِـجني النهـاري أنـا وأماليـا. أن نكـون واحـدًا كرجـل وزوجـة. أردتُ ذلـك بشـدَّة تمامًـا كـما أرادت، بـل وأكـثر ربمـا.

"أرجوكِ لا تسأليني الهروب بعيدًا"، قلتُ. "هذا غير ممكن".

"لا أمانع أن أكون فقيرة"، قالت.

"لا تسـأليني ذلـك مُجـدَّدًا أبـدًا"، قلـتُ ذلـك بشـدَّة لم أتحـدَّث بهـا مـن قبـل قـطُّ. حبسـتُ دموعـي واختنقـت بها.

لدقائـق كثـيرة كان كلانـا هادئًـا. ثـم بـدأت يدهـا في تحسُّـس صـدري، وعنقـي، وذقنـي. لامسـت شـفتاي، ثـم بلَّلَـت إصبعهـا عـلى لسـاني.

"أريد أن أراك يا موسى"، قالت. "أريد أن أراك بعينَيَّ".

"لا يمكنك"، قلت. ما دمتِ تُحبِّينني، لا يمكنك".

(13)

سُرعـان مـا بـدأَ المسـتقبل في الإثقـال علينـا بحِملِـه كأكـوامٍ مـن الكتـب عـل بيانـو قيثـاري. عندمـا أغنّـي، كنـتُ أضطـرُّ إلى إخـراج الهـواء عنـوةً مـن رئتَـيَّ لأشـعر بالصـوت يـرنُّ في ركبتَـيَّ ومرفقَـيَّ. كانـت يـداي وقدمـاي تنضـمُّ بشـدَّة لحـدٍّ أنهـا لـن تُـردِّد الصـدى إذا وُضِعَـت بجـوار جـرس. أضغـط بـأذني عـلى صـدر أماليـا حتَّـى أسـمع صوتهـا.

فقـط في ذُرى نشـوتنا كان هـذا الحِمْـل يبـدو وكأنـه يتـلاشى، ولهـذا تحوَّلَـت حاجتنـا إلى لمسـاتِ وأصـوات جَسـدَي بعضنـا البعـض إلى جـوعٍ محمـوم. عنـد افتراقنـا، كنـت أتـوق إليهـا وأبغض نفـسي، وأقرِّر في الأسـبوع التـالي أن أنتـزع تلـك العصابـة. لكـن مـن اللحظـة التـي ندلـف فيهـا إلى الغرفـة، كانـت تضغـط بيديهـا وتأخـذ في تحسُّـس جسـدي وكأنهـا تبحـث عـن منفـذٍ في لحمـي، وأسـمعُ أنـا التآلُـف التدريجـي لأنسـجة جسـدها الـذي سرعـان مـا يصـير صادحًـا كجـرسٍ مُـدلًّى مـن السـماء. حينهـا فحسـب

أستغرق في النعيم وأتيقَّن أن هذا الحب الذي نشعر به كان حقيقيًّا. ويتلاشى حينها كل شكٍّ.

لكن بحلول صيف 1761، بعد اثني عشر عامًا من وصولي إلى الدير، وتسعة أعوام من إخصائي، وأربعة أعوام من نفي نيكولاي، وعامٍ كامل من إغارة أماليا على غرفتي في العلِّيَّة، أدركتُ أن هذا لا يمكن أن يستمرَّ. أصابني الكَرْب.

* * *

"اسمه أنطون ريشر"، قالت ذات ليلة فيما نستلقي في الفراش. تمطَّعَت بتكاسل، بيدها اليسرى تقبض على رسغي. كان ظهري ملتصقًا بالحائط. "أنطون چوزيف ريشر"، تقول كارولين، وكأنَّ اسمًا ثالثًا سيُحدِث فرقًا. "الابن الأكبر للكونت سباستيان ريشر. رغم أن الرجل قد اشترى اللقب منذ بضع سنوات. هل سمعت به؟" اعتصرت رسغي.

باستثناء المؤلفين الموسيقيين الذي كان أولرتش يجلب لي موسيقاهم، أبدًا لم أسمع بأي شخص حيٍّ سوى القاطنين في سانت غال. «كلَّا»، قلت.

«كان أبي يراسله لعدة سنوات. يُمثِّل لڤيينا ما يمثِّله أبي لسانت غال: الإمبراطورة ترتدي أقمشة سباستيان ريشر، وكذلك فلَّاحو النمسا. أعتقد أنه أغنى من أبي حتَّى، الكونت ريشر ذلك. ڤيينا كبيرة بشكل فظيع». كانت هناك مسحة من التشامخ، من معرفة أناس مُهمِّين أكثر مما أعرف، وهو الأمر الذي كان، في ليالينا كلِّها، غائبًا حتَّى الآن. لوَّحَت بيدها بعفوية في الهواء. «أتساءل كيف يتصرَّف ابن رجلٍ بهذا الثراء»، تابعت. «كأميرٍ بالتأكيد. على أيِّ حال، سنعرف قريبًا. سيسافر كل تلك المسافة ليراني. يُفترض أن يصل بعد بضعة أيَّام».

تصوَّرت أنطون ريشر وسيمًا مثل نيكولاي، مزهوًّا بنفسه مثل شتاوداخ، وثريًّا مثل ڤيليبالد دوفت. وفيما أجمعُ معًا صورته العظيمة، تركَّزَ اهتمامي على مركزه، الذي يحمل مزيَّته الأكبر عليَّ.

«قرَّر أبي وكارولين أن أتزوَّجه»، قالت أماليا. «يقول أبي إن الأمر يعود إليَّ بالطبع، لكن لا يوجد شيء أكثر نفعًا من ذلك لتجارته، فيما تقول كارولين إنه زواج متكافئ بشكل استثنائي. تقول إنني مخطوبة، رغم أنني لم أقابله بعدُ حتَّى. أخبروه بشأن... بشأن ساقي، وكتبَ لهم أن اختيار زوجة له لا شأن له بتفاهات كهذه».

استلقيتُ ساكنًا، وكأنني سمعتُ عاصفةً قادمة ولم أجد خطةً أفضل من الاستلقاء ملتصقًا بالأرض وتغطية رأسي.

«موسى؟» قالت. «هل تسمعني؟».

«نعم»، قلت.

«سيرث كامل ثروة ريشر عندما يموت أبوه، تمامًا كما سأرث أنا كامل شركة 'دوفت وأبنائه'، رغم أنني لا أستطيع إدارتها. ترى أن الأمر منطقي إذن؟ بمقدورنا أن نكون أكبر عائلة منسوجات في العالم- أو خارج إنجلترا على الأقل، وبعض الأماكن الأخرى ربما. سنذهب إلى ڤيينا، حيث تعيش الإمبراطورة ماريا تيريزا. سأتحرَّر من هذه المدينة، من ذلك السجن الذي على شكل منزل. لن أرى كارولين اللعينة مُجدَّدًا. سيكون بمقدوري فعل ما أريده».

في استدارة هلالية حول صُرَّتها، انتصبت الشعيرات الذهبية الضئيلة وتوهَّجت في ضوء الشمعة، وكأن ريحًا باردة قد أيقظتها.

«سيكون أطفالنا من آل ريشر، لأنه لا يمكنهم أن يكونوا من آل دوفت».

حاولتُ تهدئة أنفاسي.

«موسى، هل تنصت؟» اعتدلَت ووجَّهت عينيها المعصوبتَيْن ناحيتي.

«أنا مُنصت».

«لماذا لا تقول شيئًا إذن؟».

شعرتُ وكأن الزمن قد تباطأ، وأن أمامي الأبدية لأمنحها إجابةً.

«موسى، ماذا أفعل؟» سألت.

«تزوَّجيه»، قلتُ. أبدًا لم يكن طعم الكلمات مريرًا هكذا.

لم تقُل شيئًا لزمن طويل. أمسَكَت يدها بالحرير الأحمر وبدا أنها على وشك انتزاعها. لم أخبرها أن تتوقَّف. ربما شعرَت بضعفي؛ ذلك أنها سحبت يدها.

بدَأَت في الانتحاب، وتفتَّحت لُطخٌ قرمزية على الحرير. أنصتُّ إلى حزنها: النشجات، الشهقات الخافتة، البلل في أنفها وفمها. لوهلة، تمنَّيتُ أن تَنزع تلك العصابة لترى نصف الرجل الواهن الذي كنتُه. استلقيت هناك، نشجاتها تُوخزني كمئاتٍ من الخناجر المُنمنمة.

«أنت ضعيف يا موسى»، قالت. أدارت ظهرها إليَّ، وتقتُ بشدَّة إلى الضغط بأذني على المسار المُجوَّف في عمودها الفقري، لكنني شعرتُ أن هذا مُحرَّمٌ عليَّ الآن. بقدميها العاريتَيْن، تحسَّسَت بحثًا عن الأرضية. وقَفَت، عاريةً، بيديها تكنس الهواء أمامها. تعثَّرت للأمام واصطدمت بواحد من مقاعد المنضدة الصغيرة مُتقشِّرة الطلاء. قبَضَت على حافة المنضدة ودارت حولها بمشقَّة، وعضلات ظهرها ومؤخرتها تختلج فيما تناضل لموازنة نفسها. كان عليها فحسب أن تَنزع العصابة ليصير كل شيء في غاية السهولة. لكنها لم تكن لتَّتخذ الخيار نيابةً عني.

استدارت ناحيتي مُجدَّدًا: «أنت واقعٌ في حبِّي حقًّا»، قالت. «وهذا يجعلك أضعف فحسب. لا أعرف ممَّا تخاف يا موسى، لكن لا ينبغي لأحد أن يكون خائفًا من أيِّ شيء هكذا». حاوَلَت مُجدَّدًا أن تجد

موضعًا لتخطو فيه، لكنها لم تستطع، وأوشكت على السقوط. «هل تعرف لماذا أحتاج دائمًا لألمسك؟» قالت فور أن استعادت توازنها. «لأنني إذا أفلتُّك فلن أرى سوى ذلك الصبي الضئيل الذي لا يصل إلى كتفي. ربما أنا واقعة في حبِّ شبح». راقبتُها تُجاهد في خطواتها، وأبدًا لم أتمنَّ أن أكون قويًا، أن أكون رجلًا حقيقيًا، كما تمنَّيتُ الآن. لكنني كنتُ مشلولًا بالحزن. والخوف. تعثَّرَت وسقطت على ركبتَيْها وزحفت على طول الأرضية حتَّى وصلت إلى الحائط.

«قُل أيَّ شيء»، صرخت. فيما تنهض مُجدَّدًا، اصطدمتَ يداها بلوحة زوجة الرسَّام العارية. لاحظتُ للمرة الأولى كم كانتا متشابهتين، وكأنهما شقيقتان، أو نفس الملاك وقد أُرسِل إلى رجُلَيْن مختلفين.

«قل أيَّ شيء!» صرخت مُجدَّدًا.

أنا آسف، حرَّكتُ شفتَيَّ، لكنني لم أنطقها.

«قُل شيئًا!» لكن الأمر تلاشى إلى انتحاباتٍ. ارتجفت الدواخل الناعمة لفخذيها العاريين فيما تبكي، وتوتَّرت بغتةً من عَقبَيْها إلى عنقها. مزَّقت اللوحة عن الحائط. ألقتها نحو الفراش. تشظَّى الإطار عندما اصطدم بالأرضية أمامي، واندفعتُ ناهضًا. استنَدَت على الحائط وانتحبت في شهقات مهتاجة، ثم انزلقت هابطةً حتى جلست على الأرضية واحتضنت ركبتَيْها. مع كل هذا، لم تنزع تلك العصابة، تمامًا كما لم تجرؤ يداها على فكِّ الضمادة حول وسطي.

جلبتُ لها ملابسها وساعدتها على ارتدائها في صمتٍ. فيما أقودها إلى المنزل ذلك الصباح، سمعتُ أن شيئًا داخلها كان قد انكسر. تقتُ للعودة إلى غرفتنا في العلِّيَّة لأضغط بأذني على كل إنشٍ من لحمها، علِّي أستطيع إصلاح ما انكسر.

فيما نقترب من منزل آل دوفت، أوقفتنا أماليا قبل البوابة. أقلقني هذا التَّغيُّر في عاداتنا، فدفعتها برفقٍ إلى الأمام، لكنها قاوَمَت. لبضع

لحظات وقفنا بلا حراك. صاح ديكٌ في فناء قريب. رفعتُ بصري إلى المنزل. ظننتُ أنني لمحتُ حركةً عند أحد نوافذه.

"قد يرانا أحدهم"، همستُ. "السماء تتحوَّل إلى الرمادي".

بغتةً، استدارت ناحيتي. "انتهى"، قالت. "لن أفعل ذلك بعد الآن". مدَّت يدها ودسَّت يدها تحت العصابة، رافعةً إيَّاها. توتَّرت كل عضلة في جسدي.

أزالت العصابة. لم أستطع التَّحرُّك. لم أستطع التنفس.

كانت عيناها مُغلقتَيْن.

أبعدت العصابة وأسقطتها. ببطء شديد؛ رفرفت حتى وصلت إلى الأرض.

لكنها لم تفتح عينَيْها بعدُ. "موسى، لن أرتديها مُجدَّدًا"، قالت. "أبدًا. في الأسبوع القادم سأراك بعينَيَّ. إذا جئتَ".

تحسَّسَت يدها ذراعي، وصولًا إلى كتفي وعنقي حتى عثرت على خدِّي، واستقرَّ إبهامها على شفتي السفلى. تباطأت راحتها.

"ليلة طيبة يا أورفيوس"، همَسَت.

لم أستطع إيجاد صوتي حتَّى أجيب.

استدارت إلى البوابة، وأدركتُ أن عينيها كانتا مفتوحتَيْن؛ ذلك أنها سارت بخطواتٍ واثقة. لم تنظر وراءها، ورغم أنه كان بإمكاني مناداتها حينها، إلَّا أنني تركتها ترحل.

(14)

لا تظنَّ بي الجُبْن لدرجة أن أستردَّ تلك العِصابة، وأنظِّفها من التراب، ثم أجعلها ترتديها مُجدَّدًا. تركتُها في الشارع حتَّى تطأها الأحصنة.

فيما ينقضي أسبوع "صلوات الساعات" بتثاقُل، أدركتُ أن خديعتي قد انتهت. ستعرف أنني مخصيٌّ، حتَّى وإن لم تقرأ ذلك بشكلٍ ما في نعومة وجهي، سأخبرها. رغم أنني قاوَمتُ تصوُّرات ضحكاتها القاسية كسخريات فيدر والصبيان الآخرين، إلَّا أنني أدركتُ في قلبي أنها لن تكون ناقمة.

ربما تصرُّ أن الأمر لا يُحدث فارقًا. أنها تحبُّني كما كانت دومًا. ربما تُصدِّق هذا حقًّا. لكنني أعرف ما هو الفرق. كان أورفيوس رجلًا، ولم أكن أنا. إذا أعدتُها إلى تلك العلِّيَّة، سيتورَّد كلانا. سنحدِّق في لُطخِ الطِّلاء على المنضدة ولن نعرف ماذا نقول. إذا تلاقت أعيننا، سنبتسم في خجل. هل ستعانقني كشقيقة؟

آلمني الندم فيما أجلس في مقاعد المُرتِّلين، غافلًا عن الغناء من حولي. لم أسمع سوى تلك الأصوات في ذاكرتي، الأحبِّ إليَّ، والتي سأفقد قريبًا الحقَّ في سماعها. مع ذلك، فيما يمضي الأسبوع، شعرتُ بحماسةٍ تتنامى من حولي. قريبًا سيُفْشي أحدهم سرِّي.

عندما غربت الشمس أخيرًا في ذلك اليوم الأخير من الانتظار، أوقدتُ شمعة ووقفتُ أمام آخر شظايا المرآة على حائط غرفتي. كنتُ استحممتُ، وفركتُ كل لطخة من القذارة. منذ آخر مرَّة شاهدت فيها انعكاسي، كان محجرا عينَيَّ قد فقدا دوائرهما المُظلمة. ازداد خدَّاي امتلاءً واكتسبا لحمًا مُعافى.

خرجتُ إلى المدينة، وطفتُ حول منزل آل دوفت مرَّتين، في انتظار أن تنطفئ المصابيح. حاولتُ استخراج الأصوات من داخلي، لكنها راوغتني كعادتها. سمعتُ صلصلات المطابخ قادمةً من الأحياء النائمة، وحديثًا مُستثارًا في غرفةٍ ذات نافذة مُظلمة.

انطفأ المصباح الأخير فور أن قَرعَ جرس الدير الثانية عشرة. اختبأتُ خارج حديقة البوابة، مُنصتًا لصرير المفصلات. لم تأتِ. في الواحدة، نفدَ صبري وقرَّرتُ معرفة ما إذا تركت لي رسالة. أخرجتُ المفتاح الذي كانت منحتني إيَّاه وفتحتُ البوابة، ثم تسلَّقتُ إلى نافذة الحديقة.

يا لها من خيبة أمل أشعرُ بها عندما أجد قصاصة من الورق على تلك العتبة! فضضتُها وأملتها ناحية نور القمر. أوشكتُ على ملامستها بأنفي لقراءتها.

موسى العزيز،

كم سأسعد في الصباح عندما لا أجد رسالةً على عتبة النافذة هذه وأعرف أنك أتيت. أتوق بشدَّة لرؤيتك بعينَيَّ! لا أستطيع التفكير في شيءٍ آخر. لكن هذا لن يكون الليلة. هناك شيءٌ ما يدور. كارولين

ساحرة داهية- غادَرَت إلى بروجين، لكنني سمعتها في القبو. لا أجرؤ على المجيء. لكنها سترحل في الأسبوع القادم مُجدَّدًا، وسأخرج إلى الليل، لأتملَّى في أورفيوس(ي).

أ.

ضممتُ الرسالة إلى صدري، وكأن صوتها سيخرج من الحِبر ويعانقني. أسبوع آخر بطولِه! كيف لي أن أحارب شكوكي لزمن طويل كهذا؟

ثم سمعتُ بابًا ينفتح على الحديقة.

جاءت في نهاية المطاف! تقافزتُ تقريبًا لرؤيتها، لكنني لم أُرِد إخافتها، ليس في هذه الليلة التي تحمل الكثير على المحكّ.

"أماليا"، همست.

ثم كان هناك شهقة، وأدركتُ في لحظة أنني ارتكبتُ خطأً مريعًا. تلك الأنفاس المتثاقلة لم تكن أنفاس أماليا.

"هل سمعت هذا!" قالت كارولين دوفت. "أخبرتك أنني رأيتُ شيئًا عبر البوابة. لديَّ عين قطَّة. سنُمسك بهذا الوغد حتمًا".

لم أكن رأيتها لسنواتٍ طويلة، لكنني تعرَّفتُ على الفور على ذلك الظِّلّ الذي يخبط بأقدامه في الحديقة، رغم أن وركَيْها قد اتَّسعتا الآن، لحدٍّ أن المرء قد يصدِّق أنها تخفي ثروة شقيقها في ملابسها التحتانية. دوَّمت برأسها الضيق من جانب آخر وكأنها تريد زحزحة شيء داخله.

بخبط أحذية طويلة، خطا رجلان -كلاهما من حرس الدير- إلى الحديقة وراءها. كانوا يتحرَّكون ببطء.

"إنه هنا"، قالت. "في هذه الحديقة. اعثروا عليه".

نظـروا بـتراخٍ وراء الأجـمات فيـما رفعـت هـي جونلتهـا وشرعـت في الصيـد. كانـت أصـدَح قطَّـة عرفتهـا الطبيعـة، تنتـزع أذرع الشـجيرات، تنفـخ مـن الجَهـد، وتُطلـق سـبابها بمـا يتبقَّـى مـن هـواءٍ داخلهـا.

لم أتحـرّك. صلَّيـتُ أن يبحثـوا في الاتجـاه الآخـر أولًا، حتَّـى أسـتطيع الانطلاق عـبر الحديقـة وأخـرج مـن البوابـة. لكـن الجنـود نكـزوا الأسـيجة عـلى طـول سـياج الحديقـة بهراواتهـم، واقتربـت كارولـين منِّـي أكـثر. ثـم صـارت فوقـي، بوركَيْهـا تحجبـان الليـل.

"اخرج!" أمرتني. "أنت رهن الاعتقال!".

خرجـتُ حقًّـا. وثبـتُّ مـن حولهـا بصمـتٍ وسرعـة لحـدٍّ أنهـا زعقـت وسـقطت عـلى مؤخرتهـا الناعمـة. اندفعـتُ نحـو البوابـة. لكـن كان في انتظـاري جنـديٌّ هنـاك، وفيـما أمـرُّ بـه، رفـع سـاعده وأصـاب عنقـي. سـقطتُ عـلى الأرض. اختنقـتُ ولهثـت، وتيقَّنـت أننـي لـن أتنفَّس مُجـدَّدًا. ثبَّـتَ حـذاءٌ ثقيـل صـدري عـلى الأرض.

سـمعتُ وَقْـع خطواتهـم الثقيلـة على الأرض. ثـم ظهـرَ وجههـا الأبيـض فوقـي، محجوبًـا بعـض الـشيء بِرسـغها الهائـل.

"راهب!" هتَفَت.

"لا يـا سـيدتي"، قـال الجنـدي الثـاني، الـذي انضـمَّ وجهـه المُرهَـق إلى الوجـوه الأخـرى في التحديـق فيَّ. "مُجـرد راهـب مُبتـدئ".

"يـا للفسـوق!" قالـت، وهـزَّت إصبعهـا وكأنهـا سـتطرد الفسـوق مـن روحـي القـذرة. "لكنـك لـن تلـوِّث هـذا المنـزل! ليـس وأنـا حيَّـة! هاتـان العينـان تُراقبـان دائمًـا. رأيـتُ الذنـب في عينيهـا! يـا للفسـوق! يـا للـشر! راهـب! انتظـر حتـى يسـمع رئيـس الديـر بهـذا!".

"سـيفعل"، قـال الجنـدي ذو الحـذاء الـذي يهـرس في صـدري. "أول شيء في الصبـاح".

"في الصباح!" قالت كارولين. "خذني إليه الآن!".

"سيدتي، رئيس الدير نائم".

في ضوء القمر، رأيتُ كارولين تنظر إلى الجندي بنفس الازدراء الذي تنظر به إليَّ. "هذا ليست مُجرَّد نجاسة مع خادمة منزل"، قالت ببطء. "إنه يهدِّد سُمعة منزل ذي أهمية قصوى لرئيس الدير. هذا الصبي يهدِّد خطوبة ذات أهمية قصوى لهذه المدينة. خذني إلى رئيس الدير الآن".

تنهَّدَ الجندي، ببطءٍ شديد لحدٍّ أنني تيقَّنتُ أن أحدًا لم يسمعه سواي. قبضَ على مِرفقي ورفعني وكأنني مصنوع من القش. "أيَّة مشاكسة وسأنتزع ذراعك"، قال، ولواه مرَّةً لتأكيد كفاءته في تلك الإجراءات. دفعني نحو البوابة.

"أعطِني هذا"، انتزعت كارولين الخطاب الذي ما زلتُ أحمله في يدي. لم أُفكِّر في إخفائه.

قرأتْه.

"لا أفهم ما يعنيه هذا الهراء الداعر"، قالت، "لكن يبدو من الأفضل أن نترك الخطاب حيث وجدتَه. لا ينبغي لها أن تعرف أنَّكَ كنتَ هنا على الإطلاق. قليلٌ من خيبة الأمل سيفيدها".

دهسَت كارولين الأجمة الواطئة تحت النافذة ووضعت الرسالة مُجدَّدًا على عتبة النافذة. فكَّرتُ أن أنادي على حبِّي، أن أصيح أنني جئتُ لإظهار وجهي، وأنني على استعداد للمجيء مرَّةً تلو الأخرى، حتَّى لو كان هذا يعني موتي. استدرتُ وفتحتي فمي لأُغنِّي، "أماا...".

وضعَ ذلك الجندي يدًا مكسوَّة بقفازٍ على فمي. "ابقَ هادئًا. قضضت مضجع ما يكفي من النائمين لليلة واحدة".

جرَّني بصمتٍ عبر الشوارع، فيما الجندي الآخر يهرع إلى رئيس الدير.

(15)

في قبـوٍ بـلا نوافـذ في ديـر سـانت غـال، كانـت هنـاك صومعـةٌ يمكـن فيهـا للرهبـان، بعـد أن اكتفـوا مـن تقلُّبـات الدهـر، أن ينصرفـوا إلى أنفسـهم. كان البـاب ذا فـراغٍ عـلى طـول الأرضيـة حتَّـى يُـدَسَّ الطعـام عـبره دون تعكـير خلـوة الراهـب. وفي واحـد مـن طـرفَيْ الغرفـة الصغـيرة كان ثقـبٌ يُـصرِّفُ مُخلَّفـات شـاغل الصومعـة إلى النهـر. بمقـدور هـذا الراهـب أن يُغنِّـي أو يُصلِّي أو يصيـح بأعمـق أحزانـه دون أدنى خـوف أن يسـمعه أحـد؛ ذلـك أن جدرانًـا مـن الحجـارة وأبوابًـا مـن البلـوط السـميك كانـت تفصلـه عـلى المهاجـع في الأعـلى.

في تلـك الأيـام، مـع التقديـر الشـحيح للتَّصـوُّف العبثـي، نـادرًا مـا كانـوا يسـتخدمون هـذه الصومعـة. تفـشَّى العفـن عـلى طـول الأرضيـة البـاردة، الرطبـة. تصوَّرتُ أننـي أول قاطـن لهـا منـذ عـشر سـنوات أو أكـثر.

كان رئيـس الديـر خـيِّرًا بمـا يكفـي ليـزورني بعـد بضعـة أيَّـام. لم تتطلَّـب هـذه الزيـار قَطْـع التَّأمُّـل أو الصلـوات المقدَّسـة؛ ذلـك أننـي اسـتفدتُ

مـن سـاعات عُزلتـي بطـرقٍ أخـرى. تكوَّمـتُ عـلى شـكل كـرةٍ وانغمسـت في البـكاء. انفجـرتُ في نوبـات مـن الغضـب وضربـتُ بيـدَيَّ البـاب حتَّـى أُدميـت راحتَـاي. ومسـتخدمًا أكـبر رئتَـيْن في أوربـا، صرخـتُ طلبًـا في أن يطلقـوا سراحـي. وعندمـا وصلـت وجبتـي الأولى، بعـد سـاعات كثـيرة -شـحيحة وبـاردة، بحسـب احتياجـات الاسـتبطان الرهبـاني- ألقيـتُ بهـا عـلى الحائـط في اهتيـاج، ثـم نمـتُ نومًـا مكـدودًا ومضطربًـا وسـط مـا تبقَّـى منهـا. حَلُمـتُ بأماليـا تَقـرع أجـراس أمِّـي بجنـون.

عندمـا جـاء رئيـس الديـر أخـيراً، كانـت قـوَّتي قـد تضاءلـت كثـيراً. يُخجلنـي القـول أننـي قَبِلـتُ الـكأس الـذي رفعـه إلى شـفتَيَّ، وأبـدًا لم أسـتطعم مـاءً بهـذه العذوبـة. أسـندني عـلى الحائـط، وجلـبَ واحـدٌ مـن الجنـود مقعـدًا حتَّـى يجلـس رئيـس الديـر بجـواري. أطعمنـي ثمـرة تـين شـعرتُ وكأنهـا غارقـة في الدمـاء. التهمتهـا بجشـع.

«لا بُـدَّ أن تسـتفيد مـن هـذا الوقـت يـا بنـيَّ»، قـال، «في التَّأمُّـل. يؤسـفني أن أخـبرك أنـك سـتبقى هنـا لبضعـة أيـام أخـرى».

لا بُـدَّ أنـه رأى الرعـب في عينَـيَّ؛ ذلـك أنـه ابتسـم ابتسـامة الخـال تلـك. «هـذا لمصلحتـك. رغـم أنـك هـدَّدتَ سـمعة الديـر وسـمعة أرقـى عائلـة في هـذا المدينـة، لا تظـنَّ أننـي لا أبـالي بسـعادتك».

وضـعَ ثمـرة تـين أخـرى في فمـي، داسًّـا إيَّاهـا بالقـوة بـين شـفتَيَّ. «لمصلحتـك فحسـب أنـا هنـا اليـوم. تـرى، إذا كنـتَ أيَّ راهـب مُبتـدئ آخـر يـا مـوسى، كنـتُ سـأتحدَّث معـك الآن حقًّـا، لكـن محادثتنـا كانـت لتختلـف كثـيراً. لـو كنـتُ أتحـدَّثُ إلى صبـيٍّ سـيصير رجـلًا يومًـا، لطلبـتُ منـه أن يبحـث داخـل روحـه ويسـأل نفسـه إذا كان مسـتعدًّا لقَسـم الرهبنـة التـي تنتظـره. إذا كان مُسـتعدًّا للتَّخـلِّي عـن الحـب الدنيـوي مـن أجـل حـبٍّ أسـمى. ربمـا يخـبرني أنـه ليـس مسـتعدًّا، وحينهـا، في تلـك الحالـة، سـأقترح عليـه أن يبحـث عـن حرفـةٍ أخـرى».

«لكن، موسى»، استمرَّ بخفوت، «بالنسبة لك، الأمر كله مختلف. لا توجد حرفةٌ أخرى. ليس لديكَ سوى ما عرضتُه عليك وإلَّا فلن تجد سوى البؤس. بالنسبة لك، فالحب الدنيوي ليس خداعًا. ولا يمكنني أن أعرض عليك الاختيار الذي يُعرض على الرهبان المبتدئين في هذا الدير لألف عام. اتُّخِذَ الاختيار بالفعل بالنسبة لك».

عرضَ عليَّ تينةً أخرى، لكنني زممتُ شفتَيَّ الآن. أخبرتُ نفسي أنه لا ينبغي أن أقبل إحسانًا آخر من هذا الرجل المريع الذي حرمني من حبِّي. رغم ذلك، أمسكَ بالتينة أمام شفتَيَّ، مُنتظرًا بصبر أن أفتحهما.

«تحدَّثتُ مطوَّلًا مع كارولين دوفت. مطوَّلا. ربما تهدأ إذا علمتَ أنني لم أخبرها بشيءٍ عن...» هنا توقَّفَ مُتهيِّبًا، وانكمشتُ أنا من الخوف، «... حالتك. إنها قلقة جدًّا بشأن شرف عائلتها المحترمة، وترغب، كما أرغب أنا، في أكبر تكتُّم ممكن في هذا الموضوع. وهي قلقة أيضًا بشكل مُضاعَف بشأن الزواج المُرتقب لابنة أخيها، الفتاة التي يبدو أنك خدعتها. تقول إن الفتاة تقاوم رغبات أبيها بلا أسباب واضحة، وهو ما أيقظ شكوك كارولين في بداية الأمر. تظنُّ أنها أدركت أخيرًا لماذا ترفض الفتاة الزواج: لأنها مفتونة برجل آخر».

أبعدَ التينة عن شفتيَّ، وفيما أفتح عينَيَّ، شعرتُ بالدماء تسري مُجدَّدًا في عروقي. إنها لي، أردتُ أن أصرخ فيه، رغم أنني أدركت أن سأبدو كأكبر أحمق في العالم. لي!

في النهاية، أعادَ التينة إلى القصعة. أخذَ نفسًا عميقًا، ثم تحدَّثَ مُجدَّدًا، كانت صوته مشوبًا بالغضب قليلًا.

"كيف أمكنك أن تكون بهذه القسوة يا موسى؟ إنها فتاة راقية، من أفضل عائلة في أراضي الدير. وهو رجل نبيل من أعلى طبقة في واحدة من أفضل مدن أوربا. بُنيَّ، سيكونان سعداء معًا".

تنهَّدَ، منتظرًا إجابتي. كنتُ صامتًا. هزَّ رأسه في ارتياع.

"هـل كانـت الغـيرة؟ هـل تزدريهـا لأنهـا ثريَّـة ومُتعلِّمـة؟ هـل لديـك أسـباب خفيَّـة لفسـوقك هـذا؟ في البدايـة، عندمـا أبلغـوني أن راهبًـا مبتدئًـا متـورِّطٌ في بـذاءة كهـذه، لم أتصـوَّر لوهلـة أنـه قـد يكـون أنـت. أنـتَ مـن بـين كل الرهبـان المُبتدئـين. لكننـي أعـدتُ التفكـير. أيًّـا كان الأمـر، فهـم يحبُّـون صوتـك في أكـثر مُـدن أوربـا تفسُّـخًا. هـل غنَّيـتَ لهـا؟ لا بُـدَّ أن الأمـر كذلـك. تلـك الفتـاة السـاذجة مسـحورة بصوتـك. أشـكر الـرَّبَّ لأنني منعتـك مـن الغنـاء في كنيسـتي منـذ سـنوات خلـت".

نهـضَ رئيـس الديـر. خطـا ناحيـة البـاب ثـم اسـتدار ناحيتـي مُجـدَّدًا. حفحفـت أطـراف عباءتـه عـلى الأرض. كل كلمـة قالهـا كانـت حقيقيـة، ومـع ذلـك بـدأ الغضـب في الخفقـان داخـلي. كيـف يجـرؤ عـلى التحقـير مـن ذلـك الصـوت الـذي هـو أغـلى مـا عنـدي؟ "البـؤس، لـك ولـكل مَـن تخدعَـه"، تابـع. "آمـل أن تـرى ذلـك الآن. مـن حسـن الحـظ أنـه لم يحـدث ضرر دائـم كـما يبـدو. بالطبـع، السـيدة دوفـت متخوِّفـة للغايـة أن تكـون أتلفـتَ الفتـاة قبـل زواجهـا. سـألتني مـا إذا كان هنـاك عـلاجٌ مـا بمقـدور أطبَّـاء الديـر توفـيره". شـدَّ رئيـس الديـر شـفتيه لكبـت ضحكتـه. "أخبرتهـا أنـه لا داعـي لهـذا، لكنهـا مـا تـزال غـير راضيـة. لا بُـدَّ أن تكـون كذلـك. لكننـي أثـق أن الـزوج لـن يشـعر بخيبـة الأمـل".

تورَّدَ وجهي في خجل، وصلَّيتُ ألا يرى رئيس الدير ذلك في وجهي.

"لكنهـا قلقـة أكـثر أن ترفـض الفتـاة الارتبـاط بدافـع مـن" -لـوَّح بيـده في الهـواء، باحثًـا بـازدراء عـن الكلمـة المناسـبة- "التَّشـبُّث المتطـاول بـك، وفي هـذا، يُسـعدني القـول، كنـت قـادرًا عـلى طمأنتهـا. سُـوِّيَت المسـألة بسـهولة".

اعتدلتُ في جلستي.

"تـرى، الفتـاة لا تعـرف شـيئًا عـمَّا حـدَث؛ ولهـذا كتبـتُ خطابًـا إلى السـيد ڤيليبالـد دوفـت، أخـبره بمـوت مُرتِّـل القُـدَّاس الـذي غنَّـى لزوجتـه المريضـة قبـل سـنوات. فـسَّرتُ لـه أنـك سـقطت مـن عـلى السـقف. لم أفهـم مـا الـذي دفعـك للصعـود إلى هنـاك في منتصـف الليـل. أثـق أنـه سيُشـارك هـذه الأخبـار الحزينـة مـع ابنتـه؛ سـتتأكَّد كارولـين دوفـت مـن هـذا عـلى أيِّ حـال". أحنـى رأسـه بخشـوع. "ربمـا مـا أبلغتُـه بـه ليـس سـوى نصـف الحقيقـة، وفي هـذا بعـض الخـزي". ارتفـعَ رأسـه بغتـةً. "لكنـه يصحِّـح خداعـك الأسـوأ بكثـير. هـذا أفضـل لـك، ولهـا، ولبقيَّتنـا...".

"أرجـوك"، توسَّـلتُ. جثمـتُ عـلى يـدَيَّ وركبتَـيَّ، مُحـاولًا النهـوض. شـعرتُ بضعـفٍ شـديد. "لا بُـدَّ أن تدعنـي أتحـدَّث...".

تجاهلنـي رئيـس الديـر. "يبـدو أن الفتـاة لا ترغـب في شيءٍ الآن سـوى الهـروب مـن هـذه المدينـة. الزفـاف غـدًا. هنـا، في كنيسـتنا. سـأعقد زواجهـما بنفسـي".

حاولـتُ النهـوض. راقبنـي رئيـس الديـر أجاهد. هزَّ رأسـه وكأن الشـفقة قـد غمرتـه. ثـم رفـع قدمـه ووضـعَ حـذاءه عـلى كتفـي. دفعـةً خفيفـةً كانـت كل مـا يحتاجـه ليطرحنـي أرضًـا.

غـادرَ الصومعـة، ثـم تحـدَّثَ عـبر آخـر شـقٍّ قبـل إغـلاق البـاب. "الحقيقـة، مهـما كانـت بائسـة، مُفضَّلـة دائمًـا عـلى الخـداع يـا مـوسى. سـأطلق سراحـك عندمـا يكـون الوضـع آمِنًـا لـك... ولهـا".

في الظـلام، حاولـتُ الصيـاح طلبًـا للعـون، لكننـي لم أسـتطع سـوى النـواح. بعـد بضعـة سـاعات دسَّ أحدهـم الطعـام مـن تحـت البـاب. جاهـدتُ لأزحـف عـبر الأرض وأحشـو فمـي بـه. كان علـيَّ أن أكـون قويًـا مُجـدَّدًا. في سـواد الصومعـة، فقـدتُ شـعوري بالزمـن؛ تباطـأ وتسـارع. بعد سـاعات أو أيـام، سـمعتُ ثرثـراتٍ وأقدامًـا خابطـة لألـف إنسـان، وأدركـتُ أنهـم كانـوا يتوافـدون مـن أجـل الزفـاف. جاهـدتُ للوقـوف عـلى قدمَـيَّ.

وصرخـتُ أن هنـاك حريقًـا، فيضانًـا، أنني مريـض، أننـي أتـوق للاعـتراف بخطايـاي، لكـنَّ أحـدًا لم يـأتِ إلّا لجلـب الطعـام. صرخـتُ مناديًـا أماليـا. كنـتُ أخبرتهـا أن عليهـا أن تتـزوَّج، لكـن الآن تفـشَّى داخـلي السَّـقَم. لا! كنـتُ لأقـول لهـا، فقـط لـو كان بمقدورهـا سـماعي. تخـبرني أذنـاي أننـا ارتكبنـا خطـأ فظيعًـا! نحـبُّ بعضنـا البعـض، أنـتِ وأنـا! توقَّفـي! لسـتُ ميِّتًـا!

فقـدتُ أثـرَ الدقائـق والسـاعات. ثـارت أذنـاي عـلى حـواسي الأخـرى. أيُّهـا الأحمـق! قالتـا. أيُّهـا الأحمـق! تسرَّبَـت أصـوات الاحتفـالات إلى صومعتـي. غطَّيـتُ أذنَيَّ وصرخـت، لكـن هـذا لم يفعـل سـوى أن زادَ مـن صخـب الأصـوات؛ ذلـك أنهـا لم تَعُـد تـأتي مـن الكنيسـة فوقـي، بـل عميقًـا مـن داخـل رأسي. كانـت هنـاك عندمـا أخطـوُ عـبر الصومعـة مسـتيقظًا؛ كانـت هنـاك عندمـا أنطـرح عـلى الأرض تهـدُّني الكوابيـس. كارل ڤيكتـور عـلى المنـبر. بوجـاتي يغنِّـي للعشَّـاق. نيكـولاي وريمـوس في الزحـام المُبتسـم. أجـراس طفولتـي هـذه تصـدح عـبر العـالم. أماليـا بـين ذراعـي زوجهـا. الجميـع قـد نسـيني.

* * *

في النهايـة، انفتـحَ البـاب. "يمكنـك العـودة إلى صومعتـك"، قـال رئيـس الديـر. انفرجـت شـفتاه قليـلًا اشـمئزازًا مـمَّا رأى. كان هنـاك جنديَّـان يقفـان وراءه، لكننـي كنـتُ مُسـتعدًّا لهزيمـة الثلاثـة. لا أحتـاج سـوى إلى إجابـة أولًا.

"هـل تـمَّ الزفـاف؟" سـألت. كان صـوتي مُتصدِّعًـا وأجـشَّ. "هـل فـات الأوان؟".

هـزَّ رئيـس الديـر رأسـه بحـزن. "لكـن بُنـيَّ العزيـز"، قـال، "كان هـذا منـذ ثلاثـة أسـابيع".

(16)

رفعنـي الجنديَّـان مـن ركبتَـيَّ وجـرَّاني وراء رئيـس الديـر إلى خـارج القبـو. عندمـا وصلنـا إلى الطابـق الأرضي مـن المهاجـع، توقَّـف رئيـس الديـر واسـتدار. أسـقطني الجنديَّـان عـلى الأرضيـة الخشـبية. ركعـتُ ورفعـت بـصري إلى رئيـس الديـر.

"لا بُـدَّ أن تسـتحم"، قـال. "اسـتبدِلْ ملابسـك. في حـال رغبـتَ في الاعـتراف بخطايـاك، يمكنـك المجـيء إليَّ".

لم تَعُـد هنـاك ابتسـامة أبويـة الآن، لا شيء سـوى الاشـمئزاز مـمَّا رآه في الضـوء: ملابـسي القـذرة، جلـدي المُصفـرِّ، ونواقـصي الأخـرى.

اندفعـتُ ناحيتـه. لم يتوقَّـع هـذا، ولهـذا أسـقطه انقضـاضي إلى الـوراء. أصـوات قليلـة اسـتمتعتُ بهـا في حيـاتي مثـل صـوت ارتطـام جمجمتـه المُبهِـج عـلى الأرض الخشـبية. صرخَ. أطلـق سـبابًا. رفـع يدَيْـه أمـام عينيـه خشـية أن أحـاول تقويرهـما. لكـن هـذا كان عليـه أن ينتظـر ليـومٍ آخـر.

أمسـكَ بي الجنديـان لمنعـي مـن الانطـلاق. كانـت سـاقاي طويلتـان، وجسـدي خفيـف، فيـما هـما مُسـلَّحان بعضـلات صُلبـة. لكـنَّ الحُـبَّ كان ضربنـي عـلى ظهـري بقـوَّة. لم يجـد الجنديـان فرصـةً للإمسـاك بي فيـما أندفـع ناحيـة المُعتـزَل. عـبرتُ البوابـة وخرجـتُ إلى ميـدان الديـر قبـل أن يتمكَّنـا مـن تحذيـر الجنـود الآخريـن.

كان الوقـت منتصـف الصبـاح في أوائـل الخريـف. المائـة إنسـان الذيـن يعـبرون إلى قـصر رئيـس الديـر، يتسـكَّعون في الشـمس، أو يتَّجهـون إلى الكنيسـة المثاليـة، اسـتداروا جميعًـا لينظـروا إلى هـذا الراهـب القـذر -سـاقاه النحيلتـان بالـكاد تُلامسـان الأرض، كسـاقَيْ طائـر هابـط- يهـرع عـبر الميـدان. صـار ثلاثـة جنـود يطاردوننـي الآن، لكننـي خلَّفتهـم بعيـدًا ورائي.

صاحـوا مُناديـن عـلى جنـدي رابـع كان يقـف حاجبًـا البوابـة المؤديـة إلى المدينـة.

"أسقِطْه أرضًا"، صرخَ أحدهم.

"حاول اغتيال رئيس الدير"، صاح آخر.

كان الجنـدي عنـد البوابـة شـابًّا، بعينـين كابيتـين، وجسـدٍ كالـدُّبِّ، وكتفَـيْن عريضَتـيْن ضِعـف كتفَـيَّ، رغـم أنـه لم يكـن بنفـس طـولي. ابتسـمَ وكشـفَ عـن أنيابـه.

عـلى بُعـد عـشر خطـوات مـن هـذا الشـاب المنفـرد الضخم، استنشـقت أعمـق نفـس بمقـدوري، وعندمـا زفـرتُ، غنيَّـتُ أبشـع صرخـة صـارَّة شـيطانية. لويـتُ وجهـي لأعـلى. فـردتُ ذراعـيَّ الطويلَتـين كأجنحـة تنـين. كانـت صرختـي عاليـة وحـادَّة لدرجـة أن كل إنسـان في الميـدان غطَّـى أذنيـه. تعـثَّر الحلُّـوف عنـد البوابـة سـاقطًا للـوراء في رعـب، مُتيقِّنًـا أننـي شـيطانٌ هـربَ لتـوِّه مـن الجحيـم. رفـع يدَيـه أمـام وجهـه. لامسـتُه

فحسب بخفَّة على ذراعه فيما أمرُّ به، لكنه تراجعَ وكأنَّ لمستي قد أحرقته.

كان هناك بشرٌ في الشوارع!

لم يكن تفاعلي تجاه دخول المدينة تحت ضوء النهار لأول مرة منذ سنوات يختلف كثيرًا عن رجلٍ يصل منزله ليجده يغصُّ بالفئران. طالما كانت هذه الشوارع لي ولها وحدنا! كم تمنَّيتُ أن ينسحب هؤلاء البشر مُجدَّدًا إلى منازلهم. كانوا يقودون عربات الأحصنة والثيران الممتلئة بحِزَمِ الكتان الأبيض. ملابسهم أنيقة ونظيفة. حدَّقوا في الوحش القذر. أشارَ الأطفال بأصابعهم الوردية.

عندما وصلتُ إلى منزل آل دوفت، كان الجنود قد فقدوا أثري، أو أنهم تخلَّوا عن المطاردة. خبطتُ بقبضتَيَّ على الباب الأمامي الفخيم حتى فتحه البوَّاب العجوز. أمسكتُ بتلابيب معطفه المخملي بيدٍ وجذبتُ ربطة عنقه العجيبة بالأخرى.

"استدعِ أماليا"، قلتُ. "لا بُدَّ أن أتحدَّث معها على الفور".

لاحظتُ أنه لن يستطيع استيعاب كلماتي ما دام يختنق، لهذا أفلتُّه وسوَّيتُ ملابسه. حملقَ فيَّ وكأنني ذئب، وأذهلته رائحتي ووجهي القَذر.

"الآنسة أماليا دوفت"، قلتُ، بهدوء وصبر كناظر مدرسة.

"الآنسة دوفت"، كرَّرَ بتردُّد. ثم أشرقت عيناه. "السيدة ريشر الآن"، قال. هزَّ رأسه. "لكنها غادرت إلى ڤيينا منذ عشرة أيام".

تراجعتُ، ولم يفوِّت هو الفرصة: صفقَ الباب في وجهي.

* * *

مضيـتُ عـبر المدينـة بخطـواتٍ مضطربـة. لم يتبـقَّ لي سـوى مـكان واحـد في العـالم لأذهـب إليـه.

فـور أن حللـتُ مـزلاج البـاب، سـمعتُ مقعـدًا ينقلـب. كان الرجـل العجـوز ذو النـدوب قـد جفـلَ مـن المفاجـأة. «أيـن كنـت؟» صرخَ أولرتـش. قبـضَ عـلى المنضـدة وكأن الأرض تهتـزُّ مـن حولـه. «أيـن هـي؟ مـاذا حـدث؟».

خطوتُ عبر الغرفة وبدأت في ارتقاء الدَّرج.

«مـوسى!» صـاحَ في إثـري. «أخـبرني أن كل شيء عـلى مـا يـرام! أيـن هـي؟».

في غرفتنـا، حيـث طالمـا قضينـا ليالينـا، ضغطـتُ وجهـي الدامـع عـلى غطـاء الفـراش. بكيـتُ حتـى انجرفـتُ إلى أحـلامٍ بهـا.

عندمـا فتحـتُ عينَـيَّ مُجـدَّدًا أخـيرا، كان الظـلام قـد حـلَّ تقريبًـا، ورائحتهـا قـد تلاشـت بفعـل رائحتـي المُنتنـة. بحثـتُ في الغرفـة عـن آثـارٍ أخـرى، لكـن لم يكـن هنـاك شيء. كنـتُ وجـدتُ وأضعـتُ أعظـم كنـوز العـالم: أصـوات الحـب.

في آخـر أضـواء المسـاء الورديـة، رأيـتُ زوجـة الرَّسَّـام في البورتريـه. كان يسـتلقي سـاكنًا عـلى الأرض حيـث كانـت أماليـا ألقتـه في غضبهـا. احتضنـتُ قماشـة الرسـم إلى صـدري وتذكَّـرت حينهـا أن الرَّسَّـام، في حزنـه، قـد رسـمَ بورتريهًـا لهـا بدمائـه. فقـط لـو أسـتطيع سـكب دمـائي بأغنيـة!

خطـوتُ إلى النافـذة وحطَّمـتُ زجاجهـا بقبضتـي. خشـخشَ الزجـاج المكسـور في الشـارع في الأسـفل كجليـد متسـاقط. انتزعـتُ شـظيَّة كبـيرة وجلسـتُ عـلى الفـراش، بالبورتريـه بـين قدمَـيَّ. سأشـقُّ أوردتي وأمـوت هنـا عـلى هـذا الفـراش.

لكن بغتةً وجدتُ أولرتش واقفًا عن الباب.

«مـاذا تفعـل هنـا!» جـأرتُ، مُهتاجًـا أنـه جـرؤَ عـلى تلويـث حرمـي المُقـدَّس.

«أرجـوك»، قـال. «انتظـرتُ كل ليلـة طـوال شـهر. لا بُـدَّ أن أعـرف. هـل هـي... هـل هـي ميِّتـة؟».

"لا يعنيـك الأمـر في شيء!" صرخـت. "اخـرج وإلَّا سـأجندلكَ عـلى الـدَّرج!".

لكنـه اتَّخـذ خطـوةً زَلقـة أخـرى إلى داخـل الغرفـة، بيديـه ممدوتَـيْن وراءه. "كنـت أتسـمَّعكما"، قـال. "كل ليلـة. أسـمعك تُغنِّـي. أسـمعها تَصـدح بصوتـك".

أبـدًا لم تَبـدُ كلـماتٌ مثـيرة للاشـمئزاز هكـذا في أذنيَّ. نهضـتُ واقفًـا. رفعـتُ مقعـدًا مـن المنضـدة وقذفتـه عـبر الغرفـة. سـمعَ أزيـز الهـواء ورفعَ ذراعـه. كشـطَ المقعـد ذراعـه، ودفعـه إلى الخلـف، لكنـه لم يسـقط.

"فقط أخبرني وسأغادر"، قال. "هل هي ميِّتة؟".

"ماتـت بالنسـبة لي"، صرخـتُ. "تزوَّجـت ورحلـت إلى ڤيينـا. والآن ارحـل".

لكنـه لم يتحـرَّك. مـدَّ يـدًا وكأنـه يبحـث عـن شيء ليسـتند عليـه، لكنـه لم يجـد شـيئًا.

"ليست ميِّتة؟" قال، لنفسه تقريبًا.

"اخرج!" صرختُ مُجدَّدًا.

"لكن إذن"، قال فيما أضع يدَيَّ على مقعد آخر. "لماذا أنت هنا؟".

طوَّحـتُ بالمقعـد فـوق المنضـدة. هـذه المـرَّة، أوشـكَ عـلى إصابـة رأسـه. تعـثَّرَ للخلـف وسـقط، دون كثـير مـن التـأوُّه. جلـسَ بجـوار البـاب. عينـاه المُختومتـان تحدِّقـان إليَّ.

"موسى. لماذا لم تذهب في إثرها؟" غمغم.

زاد غضبي اهتياجًا بسؤاله الأحمق هذا.

"دَعَتْك أورفيوس(ها)".

لم يجلب هذا سوى الشعور اللاذع بذنب خديعتي. "وهذا"، قلتُ، رافعًا مقعدًا آخر، "بالضبط ما لن أكُنه أبدًا".

فكَّرتُ حينها كيف أن هذا الرجل المتكوِّم على الأرض الآن هو مهندس مأساتي، ومع ذلك فإن قتل أولرتش المهيض، المثير للشفقة، لن يكون سوى تعويضٍ بخسٍ عن كل ما فقدتُه. أسقطتُ المقعد، ولم يجفل هو حتى من الضجيج.

"اتركني وشأني"، قلتُ. استدرتُ وأخفيتُ وجهي في يدَيَّ.

غَشِيَنا صمتٌ جعلني أخشى أنني ربما أقتله في نهاية المطاف. لكن عندما استدرتُ مُجدَّدًا، كان ما يزال يجلس هناك، برأسه يرتجف قليلًا. "لقد جنيتُ عليك"، قال.

"نعم"، أجبته.

"لا"، قال. "ليس ذلك. بالطبع هناك ذلك الأمر أيضًا، وقد كان منذ زمن طويلًا جدًّا، ولم أنقطع عن سؤال الرَّبِّ كلَّ أيوم أن يغفره له. ما أتحدَّثُ عنه هي جنايةٌ أخرى، جنايةٌ ما زالت مُستمرَّة حتَّى يومنا هذا".

كان يحاول النهوض. تسرَّبَ الدم في خطٍّ من صدغه إلى ذقنه. مدَّ يدًا بحثًا عن شيء يستند عليه.

"موسى، عندما وجدتُكَ أخيرًا مُجدَّدًا، خشيتُ بشدَّة أن ترحل عن هذه الدينة، أنني لن أسمع صوتك ثانيةً أبدًا. كنتُ أدرك أنني لن أجدك أبدًا إذا رَحلتَ؛ ولهذا، عندما أخبرتني بالخزي الذي استغلَّه

رئيس الدير لإبقائك هنا، لم أناقضه. يخشى أنك ستخبر الآخرين بما حدثَ في ديره؛ ولهذا، كذبَ عليك. أنا أيضًا، بصمتي، كذبتَ عليك".

راقبتُه، ذاهلًا. مدَّ يده وخطا نحو المنضدة مُتخبِّطًا.

"نعم، العالَم مكان صعب حقًّا لأمثالك. إذا كان رئيس الدير قد أخبرك أنك لا تستطيع الزواج، أنك لا تستطيع أن تكون قسًّا، في هذا لم يكذب عليك. وإذا كان أخبرك أن الرجال البُسطاء سيضحكون عندما يسمعون أنَّكَ لست رجلًا، أنهم لن يدعوك تعيش بينهم دون سخرية، فهذا أيضًا حقيقي".

وضعَ يدًا على المنضدة الآن. شعرتُ بوخزٍ دافئ على طول عنقي.

استمرَّ في تحرُّكه فيما يتحدّث. "لكن هناك شيءٌ آخر لم يُخبركَ به. شيءٌ كنتُ لأخبرك به إن لم أخشَ أنني لن أسمعك تُغنِّي مُجدَّدًا. موسى، فيما وراء هذه القرى التي لن تجد فيها أيَّ أصدقاء، هناك مُدنٌ لا يستطيع رئيس الدير ذاته تَصوُّرها".

لاحظتُ أن يديه ترتجفان فيما تنزلقان على حافة المنضدة. "في هذه المدن بإمكانهم أن يكونوا قساةً أيضًا، لكن هناك، ستُغنِّي. ستروِّضهم بصوتك. سيمنحونك الذهب ويجعلونك ثريًّا. موسى، لا بُدَّ أن تعلم أن ڤيينا هي مكانٌ كهذا!".

وصلَ إلى نهاية المنضدة. أفلتَها. مدَّ يدًا إلى وجهي. "دَعتْك أورفيوس!" قال مُجدَّدًا، وكأن هذا سببٌ كافٍ للارتحال عبر العوالم. اتَّخذَ خطوةً زلقةً نحوي؛ اليد البيضاء المعطوبة تتوتَّر بحثًا عن وجهي. "سمعتُ كل شيء، كل نغمة في كل ليلة. امقُتْني من أجل ذلك! اقتُلني! لم أعُد أبالي. لكن، موسى، أنت أيضًا، سمعتَ كل شيء! عندما جئتَ الليلة وحيدًا، ظننتُ أنها ماتت. الموت وحده كان ليفسِّر لي ذلك، لكن حتَّى الموت لا يكفي لإيقاف أورفيوس! موسى! يوريديس(تك) حيَّة!".

عندما وصلت يده إلى خدِّي، لم أجفل من لمسته. لهثَ، وكأن ملمس جلدي قد أيقظ داخله مليون ذكرى خافتة عن صوتي.

"لكنني لستُ أورفيوس"، قلتُ بضعف.

تحسَّسَت يداه على طول فكِّي. أجراهما عبر عنقي الطويل، الأغر. توقَّفت يدٌ واحدة للحظات للإمساك بالموضع الذي يستقرُّ فيه كنز صوتي في حلقي. ثم تحسَّسَ ثنايا صدري المُقبَّب، الذي تحته كان تتنفَّس رئةٌ أكبر عشرين مرَّة من تلك التي لامسَها قبل أعوام.

"نعم"، قال. "نعم، أنت أورفيوس".

لمرَّةٍ أخيرة وضع يدًا على حلقي، بلمسةٍ خفيفة كالحرير. "اذهب!" همسَ. "اذهب!".

الفصل الثالث

(1)

لم أتوقَّـف حتـى لأغسـل وجهـي مـن كلاحـة السـجن. غـادرتُ ذلـك الرجـل الأعمـى في العِلِّيَّـة. سـقطَ عـلى ركبتيـه ونـاداني مـن أجـل الغنـاء لمـرَّة واحـدة أخـيرة. لم أفعـل.

خطـوتُ خارجًـا مـن المدينـة عنـد الغسـق، ثـم سـألت أول مُـزارِع قابلتـه عـن اتِّجـاه النمسـا. نظـرَ إليَّ مليًّـا؛ ذلـك أنـه حتـمًا لم يـرَ قـطُّ رجـلًا ضخـمًا هكـذا بوجـهٍ صبيـاني هكـذا، وشـعرتُ بظـلِّ العـار القديـم. لكنـه فـركَ ذقنـه، واسـتدار كلانـا مرَّتـين حـول بعضنـا البعـض. أشـارَ أخـيراً ناحيـة نهـر الرايـن البعيـد. «هـذا الاتِّجـاه»، قـال. ثـم هـزَّ كتفـه اسـتهانةً واسـتدارَ إلى محراثـه.

وهكـذا سرتُ حتـى وصلـتُ إلى النهـر العظيـم في الفجر. لم أكن سـمعتُ أبـدًا مياهـه الفيَّاضـة تُجلجـل عـلى طـول الضفـاف السـاكنة، رغـم أننـي قضيـتُ اثنـي عـشر عامًـا عـلى بُعـدٍ لا يزيـد عـن خمسـة فراسـخ. تتبَّعـتُ عكـس تيـاره؛ ذلـك أنـه كان مـن المنطقـي بالنسـبة لي أن ڤيينـا السـاحرة

هـذا تقـع حتـمًا حيـث تنبـع المياه البلَّوريَّـة لهـذا النهـر. تابعـتُ طريقـي بهـذه الشـكل لعـدة أيـام، مراقبًـا الأفـق بحثًـا عنـد مدينـةٍ متلألئـة.

بالطبـع، بسـبب جهـلي المُطبـق بالجغرافيـا، لم ألاحــظ أن الرايـن قـد انحنـى عـلى نفسـه مُرتـدًّا وقـادني إلى الجنـوب الغـربي[1]. وهكـذا، لأيـام كثـيرًا، تسـلَّقتُ الجبـال، وجهـي يتوهَّـج بالأمـل، مُولِّيًـا ظهـري إلى غايـة قلبـي. كنـت أسرق الطعـام في الليـل مـن أرقـى المنـازل التـي أمـرُّ بهـا -مـع سرقـة أصواتهـا أيضًـا- ثـم أشـاركه مـع أي فلَّاحـين فقـراء، عطوفـين أقابلهـم.

لكـنَّ واحـدًا مـن هـؤلاء الأكـثر فقـرًا وعطفًـا، رجـلٌ عجـوز كان جنديًـا فيـما مـضى، قـال لي أخـيرًا، «بُنـيَّ، أنـت أحمـق». هـزَّ رأسـه. «الاتِّجـاه غربًـا طـوال حياتـك لـن يقـترب بـك مـن ڤيينـا. شرقًـا يـا بُنـيَّ. الـشرق هـو مـا تريـده!»، أمسـكني مـن كتفَـيَّ وأدارني حـول نفـسي وكأننـي دُميـة.

«كل يـوم، اتَّجِـه ناحيـة شـمس الصبـاح»، همـس في أذني مـن خلفـي. «اسـترِح في الظهـيرة، ثـم اتبـع ظلَّـك مـع اقـتراب المسـاء». دفعنـي، وتقدَّمـتُ مُتعـثِّرًا عـبر نفـس الطريـق الـذي كنـتُ تسـلَّقته. بالتـالي نهبـتُ نفـس المنـازل الراقيـة مُجـدَّدًا، وهتـفَ لي نفـس الأصدقـاء الفلَّاحـين مُجـدَّدًا. التزمـتُ نصيحـة حكيمـي وسـألتُ كل وجـهٍ ودود كيـف أصـل إلى الإمبراطوريـة الرومانيـة المُقدَّسـة.

شـكرًا للـرَّبِّ أننـي كنـتُ أحمـقَ! وإلَّا فلـم أكـن أبـدًا لأملـك القـوة عـلى بـدء رحلـة كهـذه مُجـدَّدًا. اسـتحضرت ذاكـرتي أصـوات أماليـا عنـد كل انحنـاءة، وبهـذا لم أستسـلم حتَّـى عندمـا بـدأت قدمـاي العاريتـان في النَّـزف، عندمـا اشـتدَّ الـبرد حتـى آلمتنـي أصابعـي، عندمـا طرحنـي رتـلٌ مـن الجنـود النمسـاويين في الطمـي.

---

(1) منبع الراين يقع في جنوب سويسرا في بحيرة توما. (المترجم)

كان ممرُّ آرلبيرج مُغلقًا بفعل الثلوج، وأبقاني ذلك في بولدينز طوال الشتاء. عملتُ في نفض الغبار وتلميع الأرضيات لأرملة سمعتني أغطُّ في النوم في قبوها، وسمعت في صوتي ما أثار شفقتها. جلَبَت لي حذاءً وملابس وصنعت مني ما يشبه رجلًا. اجتزتُ الممرَّ فورَ أن ذابت الثلوج، وامتطيتُ عربة تاجر نزولًا إلى إنزبروك. في أوائل الصيف، بدا الزمن وأنه يسبقني فيما أهبط الجبال إلى الأراضي المنبسطة، لحدٍّ أن قرونًا قد انقضت قبل أن أترك المجازات الوعرة ورائي مُتَّجهًا إلى الطُّرق المحاذية للقنوات. ثم صادفتُ أوسع نهر بمقدور الرَّبِّ أن يخلقه.

سألتُ رجلًا عابرًا عن اسم هذا النهر العجيب، وإذا ما كان يقودني إلى بُغيتي.

«إنه الدانوب»، أجابني. «إذا كنتَ سمكةً، فربما تصل إلى ڤيينا قبل الخريف». جلستُ على ضفافه وراقبت التيار الهادئ. مضغتُ الجذاذات الأخيرة من لحم خنزير مملَّح مسروق. آلمتني قدامي. قرَّرتُ ألَّا أمشي مُجدَّدًا، وأن أجد طريقةً للطفو عبر هذا النهر المهيب؛ ذلك أن حبِّي كان فيَّاضًا كمياهه.

أخذتُ في التلويح لكل قاربٍ عابر، كبيرًا كان أم صغيرًا. كنتُ أصرخ، «هل تمضي مع التيار؟» وكأن اتِّجاه قيدومه ليس دليلًا كافيًا. البعض هزَّ رؤوسه؛ آخرون تظاهروا بأنهم لم يسمعوني. لم يتوقَّف أحد ليُقلَّني كمُسافر. نظرتُ إلى انعكاسي في المرآة، وأذهلني ما رأيتُه. لم أكن استحممتُ منذ منزل الأرملة في الشتاء، قبل أربعة أشهر تقريبًا. حاولتُ إزالة كتل التراب بالماء المُعكَّر، لكن ذلك لم يفعل سوى أن صنعَ خطوطًا من الطمي على خدَّيَّ، كخطوط طلاء الحرب على وجوه المتوحِّشين.

أخيرًا، عند الغسق، انجرفَ قارب صغير مُثقَل بأشولة الحبوب بتراخٍ على مجرى التيار. كان مشهدًا مؤسفًا. أظهر بدن القارب رُقعات

كثيرة تمامًا كملابس قبطانه، الذي كان يقف عند الكوثل يدفع عصا مُربَّعة بتراخٍ في المياه الضحلة. فيما صبيٌّ أعجف، لا شيء سوى عظام وبثور، يجلس أخرسَ عند القيدوم. شعرتُ في أصابع قدمَيَّ المُنهكة أن هذه السفينة لي. نهضتُ مسرعًا وخطوت بجوارها على الضفَّة.

غنَّيتُ أغنيةً بسيطة.

غرزَ القبطان العصا المُربَّعة بقوَّة في طمي الضفة، وكأنه يلوي خنجرًا في جرح. تمايل القارب على هذا الارتكاز. تدلَّى فكُّ الرجل مفتوحًا، كفَكِّ ابنه. لم يتحرَّكا، أنصتا فحسب، مذهولَيْن.

انتهيتُ من غنائي، لكنهما لم يُغلقا فكَّيْهما؛ ولهذا شرعتُ في أغنية جديدة. فيما يُنصتان في ذهولٍ أحمق، خطوتُ إلى النهر المُتعكِّر، وخُضته إلى القارب، ثم تسلَّقتُ صاعدًا.

من اللحظة التي خطوتُ فيها على القارب المتمايل، أدركتُ أن القوارب لم تُخلق من أجلي؛ كان أول ما شعرتُ به اضطرابًا مُزعجًا في بطني، وكأنني احتسيتُ شرابًا فوَّارًا. توقَّفتُ عن الغناء وأطبقت فمي خشية أن أفقد عشائي مع أغنيَّتي. فيما البحَّار يستأنف تقليبه المُتراخي في حساء النهر، أصابني شلل السَّقَم، وانهرتُ على الأشولة. فكَّرتُ أن أصيح فيهما ليطرحاني على الضِّفَّة، لكنني أوقفت نفسي؛ ذلك أنها حينها بدأنا في الانجراف ببطء عبر التَّيَّار، وفي ضباب الغثيان، صاح قلبي في بهجة، أماليا، أنا قادم!

(2)

نمتُ بين أشولة القمح لعدة أيام في ضبابٍ مُغثٍ، حتَّى أيقظتني أمي ذات صباح. أو هكذا تراءى لي. انهض! صاحت في غيبوبتي. انهض! حان الوقت! حان الوقت! كانت صيحتها رنينًا مدوِّيًا، هائلًا. في اللحظة التي سمعتُه فيها، أدركتُ أنني المقصود به؛ كانت تصيح فيَّ لمرَّةٍ ثانية.

نهضتُ فزعًا كچنرال أيقظه نداء بوق الحرب. جاهدتُ للخروج من عناق القمح ووقفتُ على قدمَيَّ. ضربني الدُّوار كركلة حصان، وانهرتُ مُجدَّدًا.

دوَّت السماء مُجدَّدًا، وهكذا، من أجل أمي، نهضتُ مُتعثِّرًا وأوشكتُ على السقوط في المياه المُنتنة، لكن ابن البحَّار احتضنني بذراعين عظميَّتين. ناولَني سطلًا، وأخذته منه، ظانًّا أنه أداة للوصول إلى الشاطئ البعيد، لكنني لاحظتُ الإشفاق في عينيه. «هيَّا»، قال،

فيما يساعدني على رفع السطل ذي رائحة الزنخ إلى فمي، «أخرجه. ستشعر بتحسُّن كبير بعدها».

«لا!» هتفت، وأشرتُ إلى السماء. «أنصِت!».

نظرَ الصبي إلى أبيه، الذي هزَّ كتفيه لا مُباليًا.

«أرجوك»، قلت. «خذني إلى الشاطئ!».

كان النهر مزدحمًا للغاية هنا، بصنادل وقوارب أصغر، وكان أضيق كثيراً. كنَّا في مركز مدينةٍ ما. على الجانبين كانت الضفاف الطينية قد استُبدِلَت برصيف حجري يغصُّ بالحركة. جلجلَ الدَّويُّ مُجدَّدًا، بل وأعلى وأكثر استمرار، وبدأت النوبة التالية قبل أن تتلاشى الأولى. صارَ الآن وكأنه وقْع خطوات عملاق يركض عبر السماء.

«أسرعوا! صحتُ في قبطاني.

كان ذلك الأحمق متباطئًا كتيَّار النهر. اندفعتُ إلى القيدوم وانحنيت حتَّى أستطيع التجديف بالسطل. كنتُ نسيتُ دُواري تقريبًا. وقفَ الصبي ذو البثور بجواري.

«هل أنت»، سألَ، ونقرَ بإصبع على صدغي، «مريض؟».

طوَّحتُ بيدَيَّ عاليًا. إذا كانت أذناه الغبيَّتان عاجزتان عن فهم المغزى من الصوت، فلا يمكنني شرحه له في لحظة. أخيراً، اقتربنا من الرصيف العالي، الذي كان مزدحمًا ببشر أكثر ممَّا رأيتُ قطُّ، وكأن سانت غال بأكملها قد احتشدت في ساحة ضيِّقة واحدة. رجال وأحصنة وعربات تتدافع فيما بينها لتتجنَّب السقوط في المياه الكريهة. انطلقَ ذلك الدَّويُّ مُجدَّدًا عبر العالَم. تماوجَ سطح النهر، غطَّى بعض الرجال آذانهم، لكن أحدًا منهم لم يرفع بصره (رغم أن واحدًا من البغال المُحمَّلة نهقَ نحو السماء بحماس، وكأنه يرجوها ألَّا تسقط).

بـدا أننـا اقتربنـا بمـا يكفـي مـن الحافـة الحجريـة؛ لذلـك وثبـتُ، لكـن أحـدًا لم يـشرح لي قَـطُّ قوانـين نيوتـن للحركـة. فيـما أقفـز، أوقـف عَزْمـي عَـزْمَ القـارب؛ وبالتـالي كانـت قفـزتي للأعـلى أكـثر منهـا للأمـام. لم أسـتطع سـوى ملامسـة الرصيـف بشـكلٍ خاطـف فيـما أسـقط قبلـه وتَنغمـس سـاقيَّ حتـى رُكبتـيَّ في المزيـج العَفِـن. لم أسـتطع إيجـاد شيء لأمسـك بـه، وكنـتُ لأنزلـق وأغـرق لـو لم يعتـصر الصبـي المبثـور قميـصي ويسـاعدني عـلى التَّسـلُّق عائـدًا إلى سـطح المركـب.

بـدأَ في تعنيفـي وتعريفـي بمخاطـر السـباحة في قنـاة الدانـوب، لكـن لم يكـن لـديَّ وقـت لهـذا؛ بحسـاباتي كنـتُ أضعـتُ سـنوات كثـيرة ولم يَعُـد أمامـي سـوى دقائـق قبـل أن يختفـي الصـوت! لهـذا قفـزتُ مُجـدَّدًا، هـذه المـرة هابطًـا وسـط الزحـام.

اصطـدمَ جبينـي برجُـلٍ وحـشيٍّ يقبـض عـلى دجاجـة حيَّـة في كل يـدٍ مـن يديـه المُنتفختـين، وطـوَّحَ بواحـدةٍ منهـا ناحيتـي فيـما أندفـع قُدمًـا. ركضـتُ عـلى طـول الرصيـف المُزدحـم، الـذي كان مسـوَّرًا بأعـلى جـدار رأيتـه في حيـاتي، أعـلى مـن قـصر شـتاوداخ، وبـلا نافـذة واحـدة. جـاء الـدَّويُّ مـن الجانـب الآخـر مـن هـذه الاسـتحكامات؛ ولهـذا قفـزتُ بـين حصـان وعَرَبتـه المتحرِّكـة إلى نفـقٍ في السـور يغـصُّ بالبـشر.

أصـواتٌ كثـيرة جـدًّا! مخبـول بعـينٍ واحـدة يعـوي، صلصلـة عمـلات نحاسـية في قِـدرٍ خشـبية أمـام مجـذوم، قعقعـة عجلـة عربـةٍ ملتويـة، هسـيس قـطٍّ أسـود تسـاقطَ نصـف فـروهِ بفعـل مـرضٍ مـا. فيـما أندفـع عـبر النفـق، سـمعتُ أصواتًـا أكـثر تنوُّعًـا مـما تخيَّلـتُ وجـوده في عالَـمٍ واحـد، الجميـع يتصايـح ليُسـمَع وسـط الصخـب: غرغـرة الهنجاريـة، أزيـز التشـيكية، اختنـاق الهولنديـة، الفرنسـية السـاحرة، الإيطاليـة وكأن أحدهـم يـضرب بكـرةٍ عـلى رأسي. كان النفـق مُظلـمًا، لكننـي كنـتُ الأطـول في الحشـد، وأرى حتَّـى سـوق اللحـم في الجانـب الآخـر. أبـدًا لم أسـمع

مذبحـةً كهـذه: السـواطير تشـقُّ السـيقان الثخينـة للأبقـار؛ الشـفرات تسـحج قشـور السـمك؛ ماعـز يثغـو بحـدَّة ويُقـاوم حبـلًا يجـرُّه إلى مقتلِـه؛ امـرأة بـأذرعٍ عريضـة كالصواري تُخـلِّي خروفًـا مـن عظامـه وتلطـم بكُتَـلِ اللحـم عـلى منضـدة غارقـة في الدمـاء؛ طفـلٌ يشـقُّ أمعـاءً بسـكين صدئـة؛ رجـل بسـاق واحـدة يتمـدَّد أمـام كومـةٍ مـن السَّـقْط ويلـوِّح بعـكَّازه في الطيـور التـي تحـاول اختطـاف الأعـين والحوافـر.

وما زال ذلك الدَّويُّ يُجلجل.

كان أقـوى في هـذا الجانـب مـن السـور. شـعرتُ بـه في أصابـع قدمَـيَّ، عـلى طـول ظهـري. ركضـتُ عـبر شـارع واسـع تحيـط القصـور بجانبَيْـه، كل قـصر منهـا فخيـم وسـامق كديـر شـتاوداخ. سـمعتُ بيانـو قيثـاري يصـدح خارجًـا مـن النوافـذ، صليـل كريسـتال وقعقعـة فضَّـة. كان الشـارع مرصوفًـا بأحجـار مسـتوية. زامنـتُ خطـواتي مـع وَقْـع الـدَّويِّ، واثبًـا كل أربـع خطـوات حتَّـى يضربنـي الصـوت فيـما أنـا مُعلَّـق في الهـواء. شرَّحتُـه إلى مليـون نغمـة. سـمعتُ النغـمات المُرتفعـة في العضـلات المشـدودة لرَبلتَـيَّ، والنغـمات الواطئـة في ذراعـيَّ، اللتـين كانتـا تتطوَّحـان بخَـرْقٍ عـلى جانبـيَّ كجناحـين مهيضـين.

فيـما أركـض، كانـت القصـور تـزداد حجـمًا وزخرفـةً، وأحجـار الطريـق تـزداد انتظامًـا، والروائـح تغـدو أقـل بشـاعةً. ضـاق الشـارع، ثـم اتَّسـع، ورأيـتُ ميدانًـا فسـيحًا في نهايتـه. كان كل إنسـان هنـا يسـدُّ أذنيـه عـن الجلجلـة، راكضًـا إلى وجهتـه، وكأنـه يحـاول أن يَسـبق عاصفـةً. اندفعـتُ إلى أكـبر ميـدان رأيـتُ في حيـاتي، ونظـرتُ إلى بنـاءٍ كان مـن الضخامـة لحـدٍّ أننـي ظننتـه جبـلًا. رفعـتُ بـصري إلى الشـمس، إلى ذلـك الصـوت الـذي هـزَّ قلبـي، ولمحـتُ عمـودًا هائـلًا ظليـلًا أدركـتُ أن عـليَّ أن أتسـلَّقه. هرعـتُ إلى داخـل الجبـل الأسـود. أزحـتُ جانبًـا جـدَّاتٍ مُتغضِّنـات وأرامل نائحـات. جندلـتُ جِـنرالًا عـلى ركبتيـه، سـكبتُ ميـاهًا مُقدَّسـة عـلى الأرض.

ألقى زجاج نوافذ أحمر كالدم بظلالٍورديَّة على الوجوه الشاحبة. باستثناء الدَّويِّ الذي لم ينقطع، كان وَقع خطواتي على الأرض المتلاونة بالأبيض والأسود هو أعلى صوتٍ داخل ما أدركتُ أنه كنيسة هائلة. توقَّفتُ في منتصف صحن الكنيسة ورفعت بصري إلى السقف. كان وكأنه سقفُ لغابة: أعمدة رمادية سامقة مشقوقةً إلى أفرع متداخلة من الأحجار كان بمقدورها أن تُمسك السماء أن تسقط.

كنتُ على وشك تسلُّق الأعمدة والتَّدلِّي من على فروعها، لكنني رأيتُ حينها رجلًا ضئيلًا، ووراءه باب ضيِّق. ذكَّرتني النظرة الكليلة، الكابية على وجه الرجل، ببيتر الوفيِّ يقفُ حارسًا أمام غرفة السيدة دوفت المريضة قبل سنوات طويلة.

عبر الباب المفتوح رأيتُ دَرَجًا. ركضتُ، مستُجمعًا سرعتي فيما أعبر الكنيسة. رآني الرجل الضئيل قادمًا؛ ذلك أن عينيه اتَّسعتا من اندفاعتي وبدأ لسانه في التَّحرُّك بعصبية داخل فمه. رفع يديه: دبٌّ يحمي كهفه. لكنه مع ذلك دبٌّ ضئيل، صغيرُ دبٍّ، ليس بنصف حجمي، وهكذا في اللحظة الأخيرة، فيما أحمل عليه لأسويه بالدَّرج، نظرَ بشرود نحو المذبح وخطا جانبًا. انحنيتُ لأنقذ رأسي واندفعتُ صاعدًا الدَّرج المُلتفَّ.

«سيدي»، صاح في إثري، «لا يمكنك الذهاب هناك. أذناك...».

دوَّمتُ صاعدًا أعلى وأعلى، برأسي يدور، لكن كان عليَّ أن أُسرع. اندفعتُ إلى غرفةٍ مُربَّعة ورأيتُ ستة عشر رجلًا، ظهورهم ناحيتي، وآذانهم محشوة ومربوطة بقماش، يجذبون ستة عشر حبلًا يتدلَّى من السقف. كانوا يشدُّون حتى يجلسوا على الأرض. صدحَ الدَّويُّ، هازًّا كل أعضائي الداخلية. ثم شُدَّت الحبال عن آخرها وتوتَّر الستة عشر رجلًا، وبتناغم مُطلق، كراقصات روسيَّات، قفزوا عشر أقدام فوق الأرض. وعندما وصلوا إلى الطُّنف في الأعلى، صدحَ الدَّويُّ مُجدَّدًا.

لكنني لم أُلقِ على هذا المشهد سوى نظرة خاطفة. اندفعتُ صاعدًا دَرَجًا أضيق، مائلًا بشدَّة، لحدٍّ أنني تسلَّقته مُستخدمًا يدَيَّ وقدمَيَّ.

ثم وصلتُ أخيرًا إلى القمة، إلى غرفةٍ ذات أربعة جوانب مفتوحة على السماء، هناك كان هو: البوميرين (Pummerin)، أعظم أجراس الإمبراطورية، مسبوك من 208 مدفع تركي. كان بارتفاع ضعفَيْ طولي. له مِدقَّة طويلة وعريضة كجذع شجرة. كانت حبال الستة عشر رجلًا هؤلاء ملفوفة هنا في جديلةٍ واحدة تُدير عجلةً بعرض عشرين قدمًا. فيما تدور، يهتزُّ الجرس، ويشقُّ الهواء كقيدوم سفينة مندفعة. وفي ذروة كل تطويحة، يصطدم الداخل السميك لشفته بالمِدقَّة وتدوي نغمته المضروبة -نغمة رِي مثالية، طنَّانة- عبر المدينة.

خطوتُ تحت الجرس. كانت المِدقَّة تتدلَّى على بُعد إنشات أمام وجهي. رأيتُ أنها مُلتفَّة ببطانة من الجلد لإخماد قَرْع الجرس الهائل. وددتُ لو شققتُ البطانة حتى أسمع صوته الذي خُلقَ من أجله، لكن المِدقَّة في اصطدامها، كانت تتقافز وتتلَّوى، وأدركتُ أنني إذا لمستُها سأفقد أصابعي. لكنني وعدتها أن أعود ذات يومٍ لتحريرها. أزَّت شفتا الجرس فوق شعري تمامًا. إذا قفزتُ، كان لينتزع رأسي من مكانها.

أغلقتُ عينَيَّ. جعلتني قوة رياحه أتمايل من جانبٍ إلى آخر. تدلَّى فكِّي مُرتخيًا، تهدَّلت ذراعاي، انفتحتَ يداي. لامس صوته كل موضعٍ في جسدي. دغدغَ دواخل فخذيَّ وأرعشَ أجفاني. أزَّت أصابعي. تفكَّكت عضلاتي -المشدودة من طول السير، والنوم تحت الأجمات، والوحدة- وهُيِّئَت للرنين مُجدَّدًا. في كل موضع مُتخشِّب في جسدي، جعلني الجرس ليِّنًا مُجدَّدًا. أذهلتني نغماته الكثيرة مثل لا نهائية

مسحات ألوان غروب الشمس. هناك كانت أجراس أمِّي، كأمواجٍ في هذا المحيط الهائل.

تخفَّفَ دويُّه.

فتحتُ عينَيَّ لأرى أن أرجحته تناقصت كثيرًا، كان الرجال الستة عشر قد أفلتوا حبالهم. لدقائق كثيرة كان اندفاعه الذاتي يضرب ما يزال المِدقَّة. ثم عندما توقَّف عن ملامسة المِدقَّة، تهادى رنينٌ في جسده لبضع دقائق أخرى، ولم يتبقَّ سوى صوت أزيز الهواء أمامه فيما يتأرجح برفقٍ، حتَّى توقَّف ذلك أيضًا، وصارت أنفاسي وجَلبة المدينة في الأسفل، هي الأصوات الوحيدة التي تتحرَّك في الهواء.

ثم سمعتُ وقع خطوات، قبَضَت يدٌ على كتفي وأدارتْني برفق.

كان الحارس. حدَّقتُ في رأسه الأصلع، الذي كانت قطرات العرق تحتشد عليه. مرَّت بضعة دقائق قبل أن تسمح له أنفاسه اللاهثة بالتحدُّث.

"لا يُسمح بالتواجد في الأعلى هنا"، صرخَ وحرَّك شفتيه بحذرٍ حتى أقرأهما، مُفترضًا أنني أصمُّ. لكنَّ شفتيه كانتا على حافَّة مجال رؤيتي؛ لأن عينيَّ كانتا مُثبَّتتَين على المشهد وراءه. وضعتُ يدًا على كتفه حتَّى لا أسقط. قادني إلى الحافة.

بذراعَيْنا حول كتفَيْ بعضنا البعض، حملقنا إلى الأسفل، إلى مدينةٍ أكثر بهاءً من أجمح خيالاتي. شوارع عريضة، تزدحم بالأحصنة والعربات والبشر كنملٍ ضئيل، تؤدي إلى كل اتِّجاه من الميدان. قصورٌ مستطيلة الشكل بأفنية ممتلئة بالزهور كانت متناثرةً بين هذه الشرايين. على البُعد، كانت الأسوار تضمُّ كل هذا جميعًا في نجمةٍ ذات نقاط كثيرة. وراء تلك الأسوار، تمتدُّ المدينة أكثر، وصولًا إلى التلال الخضراء على البُعد.

"يا إلهي"، قلتُ للرجل الذي أستند عليه. "ما هذا المكان؟".

"هـذه سـيدي"، قـال وكأنـه يتحـدَّث إلى أحمـق"، "هـذه مدينـة جلالتهـا. هـذه ڤيينـا".

* * *

وهكـذا، أخـيراً، بعـد عـامٍ تقريبًـا مـن الأسـفار، وصلـتُ إلى نفـس المدينـة التـي وصَلَـت إليهـا محبوبتـي. لكـن حينهـا همـسَ صوتٌ شيطانيٌّ، كان صامتًـا طـوال هـذه الشـهور، في أذني بغتـةً، "لكـن لمـاذا تتصـوَّر أنهـا تُحبُّـك؟ لقـد تزوَّجَـت، رجـلًا!".

عـليَّ أن أعـترف، لم أتوقَّـع أن تكـون ڤيينـا ضخمـة هكـذا، تغـصُّ بالبـشر الذيـن ينظـرون، عندمـا أصطـدم بهـم، إلى أسـمالي ووجهـي القـذر وكأننـي حيـوان فـرَّ مـن الغابـة. لكننـي أغلـق عينَـيَّ وأدع أصـوات المدينـة تنسـاب عـبر جسـدي، لأسـتدعي كل أصـوات حبِّنـا الكامنـة، وحينهـا أسـتعيد إيماني.

هِمـتُ طـوال النهـار عـبر المدينـة باحثًـا عـن أيِّ أثـرٍ لأصواتهـا، وجامعًـا بسـعادة أصواتًـا أخـرى فيـما أتسـكَّع. كنـتُ أسـتدير عـلى عقبَـيَّ عندمـا أصـل إلى نهايـة مسـدودة، أو إلى واحـدة مـن تلـك البوابـات التـي تقـود إلى خـارج هـذا المـكان السـاحر. مـرَّةً واحـدة فحسـب جـرؤتُ عـلى إلقـاء نظـرة خاطفـة عـلى مـا يقـع خـارج الجُـدران؛ خرجـتُ بخطـوات مُتعـثِّرة مـن شـتوبينتور عـبر جسر المشـاة إلى المنحـدر الأخـضر، ذلـك الحقـل الذي يشـبه الحدائـق ويحيـط بسـور المدينـة بحيـث تسـتطيع قـوَّات جلالتهـا القضـاء عـلى أيِّ غـزاة ببنادقهـم. وجـدتُ الصَّمـتَ غـير محتَمَـلٍ: طيـور تُزقـزق وحصانـان يمضغـان الشـوفان.

بعـد العـودة إلى داخـل البوابـات، أخـذتُ في تأمـل الاندفـاع العجيـب للبـشر: قضـاة وموظفـين وكَتَبـة في عرباتهـم أو عـلى أحصنتهـم الضخمـة، فيـما المسـاعدون والخـدَم عـلى أقدامهـم. أرتـالٌ مـن الجنـود يزحفـون

جيئةً وذهابًا عبر الشوارع، بالمهزولين والمنهوكين منهم، في غاية الابتهاج لعودتهم أحياءً من الحرب مع روسيا، ومن حلَّ محلَّهم من الجنود المتوثِّبين حزانى لما ينتظرهم من شتاءٍ قارس. وقفتُ في ميدان صغير بعض الشيء وبنظرة خاطفة واحدة استوعبتُ شحَّاذًا يستجدي العملات النحاسية، رجلًا بلحية رمادية وساق واحدة يتمايل على عكَّازه، وقسًّا في غاية البدانة لحدٍّ أن ظَهْر حصانه تهدَّل للأسفل. سيدة تسترق النظر من عربةٍ بأنفٍ كمنقار صقر. سرعان ما أدركتُ أن لا أحد، شريطة أن أبقى بعيدًا عن طريق الناس -مَهمَّة صعبة بالتأكيد- كان يُضيِّع لحظةً لاقتناص نظرة عليَّ، لا على قذارتي ولا على الوجه الملائكي الذي يختفي تحتها.

وقفتُ خارج بعضٍ من أفخم القصور وحاولت استخلاص الأصوات من داخلها. سمعتُ همسات لفتاة تُغنِّي، لدرسٍ عن اللغة الفرنسية، لكدِّ خادمات وطهاة وحمَّالين. في معظمها جميعًا، لاحظتُ الهدوء المُدهش لهذه الأبنية المُذهلة. مفصَّلاتها لم تكن تئنُّ. عجلات العربات التي تتدحرج خارجةً من بوَّابتها لا تصرُّ. أقدام خادماتها تبدو وكأنها لا تُلامس الأرض. عندما أسمع أصواتًا من نافذة مفتوحة، لم تكن مُتعجِّلةً أو غاضبة قطُّ.

لم أفهم شيئًا عن المدينة سوى أنها كانت محاطة بأسوار من جميع جوانبها، أنها تميل قليلًا للأسفل ناحية نَتَن الأسواق والنهر، وعاليًا ناحية أكثر القصور بهاءً، وأنه في مركزها تنتصب هذه الكاتدرائية السوداء العملاقة (سان ستيفن St. Stephansdom)، التي في بُرجها السامق الجنوبي يتدلَّى ذلك الجرس العظيم، الذي كان رنينه أضخم صوت سمعته في حياتي، أكبر حتَّى من رنين جرس أمِّي الأكبر.

كنتُ إذا وجدتُ بابًا مواربًا، أخطو عبره. طاردتني امرأة مُتغضِّنة عبر واحدٍ منها بساطورٍ في يدها، لكن وراء الأبواب الأخرى كان حظِّي

أفضل. تسلَّلتُ إلى غُرف مؤن، كانت غنائمي رغيف خبز، نصف ديك رومي بارد، قطعتي سجق، ثلاث جَزرات مسلوقة، ونصف كعكة. ثم مضيتُ أبعد، صاعدًا أدراجًا ملتوية عريضة؛ إلى غرف نوم خاوية بوسائد منتفخة؛ وأعلى، إلى غرف علِّيَّات ضئيلة (في أحدها وجدتُ طالبًا شابًّا نائمًا، غطيطه برائحة كحوليات عَفِنة). أخرجتُ برأسي من كل نافذة عالية صادفتني، واسترقتُ النظر عبر أسطح الأسقف، آملًا من ناحية أن ألمح محبوبتي محبوسةً في بُرجٍ ما، ومن ناحية أن أسمع، موسى! موسى! تحملها همسات الرياح.

لكنني سرعان ما أدركتُ أن أساليبي الاعتباطية لن تفيد بالتأكيد في مَهمَّة إيجاد فتاة جميلة في حاضرة مزدحمة بالبشر. مع اقتراب المساء، بدأت في سؤال المارَّة عن كيفية الوصول إلى المدعو أنطون ريشر ذاك.

ربما كنتُ لأجد فرصةً للاستحمام قبل أن أبدأ بحثي المحموم، رغم أن تخطيطًا مُتمهِّلًا كهذا كان ليقتل الكثير مما حدثَ لاحقًا في تلك الليلة الإعجازية الأولى في ڤيينا. كنتُ ما زلت أحمل خطوط الطين على وجهي، بأظافري طويلة وقذرة، وشعري كأذرع نباتات المستنقعات. كان بنطالي ممزَّقًا من الركبة إلى الكاحل، ونعل فردة من حذائي يرفرف كلسان كلب مُرتخٍ في كل خطوة أخطوها؛ لذلك لم تَجِد تحرِّياتي سوى تحديقات مُشمئزَّة. أخيرًا، وقع اختياري على خادم بدا في عجلةٍ شديدة من أمره، لحدٍّ أنني اضطررتُ لقطع طريقه بذراعيَّ الطويلتين. طوَّح بقُفَّازه ناحيتي، لكنه خشيَ حتمًا أن يلوِّثه بوجهي.

"ساعدني أرجوك، وسأمضي بعيدًا"، توسَّلت. أخبرته بما أبحث عنه. "إنها مَهمَّة حبٍّ"، أضفت.

أجالَ فيَّ نظرَه. ثم سمَّى شارعين وأخبرني أن أبحث عن موضع تقاطعهما.

"لكن في أيِّ جزء من المدينة عليَّ أن أبدأ بحثي؟" سألته.

نظـرَ إليَّ وكأننـي أبلـه بحـقٍّ. "اذهـب إلى كاتدرائيـة القديـس سـتيفن"، قـال، مُشـيرًا إلى الـبرج الأسـود في السـماء، "وانظـر مـا إذا كنـت سـتجد فائـدة أكـبر داخـل جدرانهـا. إذا كنـتَ مـا تـزال ترغـب في العثـور عـلى قـصر ريـشر، فلـن تضطـرَّ إلى السـفر بعيـدًا".

كان ينبغـي أن أعـرف! هِمـتُ عـبر المدينـة لنهـارٍ كامـل، في حـين كانـت (هـي) تمامًـا حيـث بـدأتُ. كانـت أمِّـي وذلـك الجـرس قـد دعيـاني إليهـا! فقـط لـو كانـت عينـاي مثـل أذنـاي، لكنـتُ تجسَّـسَـتُ عليهـا مـن الـبرج. بعـد نصـف سـاعة، عـثرتُ عـلى التقاطُـع الـذي ذكـره لي الخـادم، وحينهـا، رافعًـا بـصري، رأيـت قـصر ريـشر، جليـلًا ومثاليًّـا ككنيسـة شـتاوداخ.

(3)

كان الظلام قد حلَّ تمامًا. رأيتُ قصر ريشر محصورًا بين واجهتَيْن أكبر، لكن أقل عراقةً؛ لذلك لم أرَ من البناء العظيم سوى وجهه، بنافذتَيْن مضاءتين في الطابق الثاني كعينَيْن متوهِّجتَيْن، وبابة سوداء مغلقة كفمٍ مُخيف.

كانت البوابة الكبيرة، المُصمَّمة لاستيعاب أكبر عربات في الإمبراطورية، ذات باب صغير في منتصفها مُخصَّص للبائسين أمثالي. فيما أقترب من البوابة، لم أفكِّر فيما أفعله. طرقتُ الباب.

لم تأتِ إجابة. ثم لاحظتُ حبلًا يتدلَّى بجوار البوابة، لا يختلف عن حبال الأجراس كثيرًا. جذبته. في موضع ما عميقٍ داخلي سمعتُ رنينًا. مسحورًا كالعادة بأيِّ شيء يرنُّ، جذبتُه مُجدَّدًا، وحاولتُ تقدير حجم وشكل ومعدن الجرس؛ ثم جذبته مُجدَّدًا، وخمَّنتُ قُرب القَرع. طَنْ، طَنْ، طَنْ-طَنْ. طَنْ، طَنْ، طَنْ-طَنْ.

«لا تفعل هذا» كان أول درس تعلَّمتُه عندما أطلَّ رجلٌ على شكل غول من الباب الصغير. لم يحتَج إلى الشرح بالكلمات؛ كان الاتِّقاد في عينيه يكفي. أفلتُّ الحبل وابتسمت ببراءة. خطوتُ ناحيته. لم يبتسم بدوره.

«مساؤك طيب يا سيدي»، قلت.

«انصرف»، أجابني.

«ترى»، قلت. «أريد التَّحدُّث مع أماليا دوفت، امم، ريشر. تعيش في الداخل». أشرتُ إلى المنزل.

«إذا جذبتَ ذلك الحبل مُجدَّدًا»، قال، وقد بدا أنه لم يفهم طلبي، «سألفُّه حول عنقك». كان رأسه كبيراً بشكل مُفزع. استرقتُ نظرةً إلى ظلِّ الكتفَين الهائلتين، بلا عنق بينهما.

«للحظات قليلة فحسب»، قلتُ، «فقط لأقول لها...» توقَّفت، لأنني في واقع الأمر لم أكن أعرف ماذا أودُّ أن أقول لها. في شهور ترحالي الطويلة، كنتُ تصوَّرتُ الأمر بشكل مختلف بعض الشيء. «لنَطر ونهرب»، كنتُ لأقول لها، وكنَّا سنهرب. ببساطة؛ لا حاجة إلى فصاحة اللسان. لكن الآن، بذلك الغول يسدُّ طريقي، أيَّة رسالة بمقدوري إرسالها إليها؟ رسالة مثل «أخبرها أن الرجل الذي تحبُّه ليس ميتًا» لن تكفي. كنت أعرف ما يكفي لأدرك أن أفعال الحب المُحرَّم من الأفضل أن تتم وجهًا لوجه.

لكن لم أستطع الاستسلام بسهولة هكذا.

"هل بمقدوري أن أريك شيئًا؟" سألتُ الغول. أشرتُ إلى نهاية الشارع. "شيئًا سيثير اهتمامك. كثيراً جدًّا".

عندما خطا عبر الباب، اضطرَّ إلى إدارة كتفَيه ليتمكَّن من المرور. عندما اعتدلَ منتصبًا، تطلَّعَت رأسه إلى رأسي من علٍ. سرعان ما

أدركـتُ أنـه لم يـأتِ ليستكشـف التسـلية المُثيرة التـي وعدتُـه بهـا. بـل كان يرغـب في منحـي رسـالة. أشـار إليّ أن أقـترب. عندمـا فعلـت، قبـضَ عـلى شـعري وزمجـرَ في أذني، "لا يعجبنـي وجهـك. إذا رأيـتُ هنـا مُجـدَّدًا، سـأغيِّر أبعـاده حتَّـى يُعجبنـي".

لكـن شـعري كان زَلَقًـا للغايـة، لم يسـتطع إحـكام قبضتـه. تلوّيـتُ وأفلـتُّ مـن قبضتـه، وكراقـصٍ ماهـر، اندفعـتُ عـبر البـاب. كنـت عـلى وشـك إغلاقـه وحبـس الغـول في الخـارج عندمـا أمسـك بكاحـلي، وجـرَّني للخلـف ورفعنـي لأعـلى كسـمكة عملاقـة اصطادهـا مـن النهـر. ثـم طـوَّح بي إلى الشـارع وأغلـق البـاب ورائي.

نهضـتُ واقفًـا. كان الوحـش قـد سـلخَ مِرفقـي عـلى أرض الشـارع. صـارت البوابـة مُغلقـة بإحـكام الآن. لم أسـتطع قـرع الجـرس مُجـدَّدًا وإلَّا سـيجعلني قبيحًـا، وحتَّـى إن صادفنـي الحـظ وتمكَّنـتُ مـن تجـاوز هـذا الرجـل، كنـتُ أعـرف أننـي سـأقابل أيًّـا مَـن يحـرس الدائـرة التاليـة مـن هـذا المنـزل الفخيـم: خادمًـا، أو ربمـا ذكـرًا آخـر مـن آل ريـشر سـيرغب في معرفـة بُغيتـي. لـو أخبرتهـم بسـبب وجـودي هنـا، فسـيرمونني خارجًـا في أفضـل الأحـوال؛ وفي أسـوئها، سيحبسـونني ويرسـلون بأماليـا إلى مـكان نـاءٍ بعيـد حيـث لا أسـتطيع العثـور عليهـا أبـدًا.

لا، قـرَّرت، كنـتُ تصرَّفـتُ برعونـة. عـليَّ أن أدخـل إلى المنـزل بطريقـةٍ أخـرى.

كانـت نوافـذ الطابـق الأرضي مسـدودة بقضبـان حديديـة مُزخرفـة؛ بينمـا تلـك في الطوابـق الأعـلى ليـس كذلـك، لكنهـا كانـت مُغلقـة بإحـكام، وعـلى أيِّ حـال، لم تكـن لـديَّ وسـيلة للوصـول إليهـا. أدركـتُ أن قـصر ريـشر كان سـجنًا، وأن محبوبتـي محبوسـة فيـه.

اسـتدرتُ مبتعـدًا، غارقًـا في الإحبـاط، لكـن حينهـا فكَّـرت: مـاذا كان نيكـولاي الشـجاع ليفعـل؟ أطلـقَ هـذا اللجـام خيـالي. نسـجتُ الفانتازيَّـات:

ارتـداء زيٍّ مُنظِّـف مداخـن، أو سرقـة خنزيـر مـن السـوق وتسـليمه إلى المطبـخ ثـم الاختبـاء في خزانـة، أو إطـلاق سـهم مسـموم الـرأس عـلى الغـول ليسـتغرق في النـوم. لكـن كل هـذه الأفـكار جعلتنـي أهـزُّ رأسي؛ جميعهـا تحتـوي نفـس الخطـأ. أيْ، لفعلهـا، تنقصنـي المـوارد. لم يكـن لـديَّ سروال نظيـف حتَّـى، ولم أكتشـف مكانًـا حتَّـى لسرقـة واحـد.

لم أشـكَّ كثـيراً حينهـا أننـي سـأتوفَّر عـلى وسـيلة لدخـول قـصر ريـشر ذات يـومٍ، ليـس عـن طريـق حيلـةٍ مـا، بـل بدعـوة مـن سـيدة المنـزل ذاتهـا.

* * *

اتبعنـي في تلـك الأمسـية الإعجازيـة فيـما أنعطـفُ عنـد شـوتينتور عائـدًا إلى شوتينغاسـه ثـم إلى قلـب المدينـة. تمشـيَّتُ عـلى عـمائي، مُنصتًـا إلى قعقعـة الفضـة عـلى أرقـى أسـنان في ڤيينـا فيـما تنبعـث خارجـةً مـن المسـاكن الفخيمـة عـلى طـول الشـارع، عندمـا باغتتنـي عربـة أحصنـة، ثـم توقَّفـت عـلى بعـد عشريـن خطـوة تقريبًـا أمامـي. لم أُعرهـا اهتمامًـا، حتَّـى عندمـا هبـط منهـا رجـلٌ، وأكملـت العربـة طريقهـا، وبقيـت في مسـاري فيـما أقـترب منـه.

كنـتُ عـلى بُعـد خطـوات قليلـة عندمـا بـدأَ في الضحـك، ناخـرًا في البدايـة مـن أنفـه بطريقـة مُتشـكِّكَة، ثـم أخـذَ في القهقهـة، مـع اقـترابي أكـثر، بكامـل بطنـه لدرجـة أرعبتنـي بعـض الـشيء. مـن أنفاسـه الرشـيقة، العميقـة، أدركـتُ أنـه لا بُـدَّ إمَّـا موسـيقيٌّ أو راقـص، لكنـه كان بدينًـا للغايـة عـلى أن يكـون راقصًـا. في الظـلام كان بمقـدوري رؤيـة وجهـه المسـتدير، المتـورِّد؛ إمَّـا بالنوايـا الحسـنة أو بالنبيـذ.

"أورفيوس"، قال الرجل. "لقد انتصرتَ على نفسك".

(4)

تطلّعَ إليَّ الرجل متُجهِّمًا لكنه لم يستطع الإبقاء على عبوسه طويلًا، وانفجر مُجدَّدًا في قهقهاته فيما يقترب. انحنى عليَّ واشتمَّ ياقتي؛ ابتعد بفعل النفور. لكن حينها، لدهشتي الكبيرة، دفن وجهه في كتفي واستنشقَ رائحتي العفنة وكأنني وردة.

«فقط واحد من آل جاريك»، قال بصفيرٍ وكأن رئتيه لن تستنشقا نَفَسًا آخر أبدًا، «يجرؤ على أن تكون رائحته كريهة هكذا. ماذا فعلت؟ قضيتَ ليلةً في واحدٍ من مواخير سبيتلبرج؟ دعني أرى يديك».

رفعتُ يدَيَّ القذرتَيْن وبسطتُ أصابعي ليرى القَذَر المتراكم بينها.

«يا إلهي»، قال. «هاتان اليدان لا تقلّان قيمةً عن هاتين الأذنين». جذبَ شحمتَيْ أذنه. ثم قرصَ عنقي. «وهذا الحلق، الذي يبدو أنه أُصيب بالطفح الجلدي بسبب هذا القميص الذي وجدته في النهر،

يساوي أكثر عشر مرات. دوراتسو سيغضب بشدَّة. تكنيك الخِداع فعَّال حقًّا، لكن لنقل وداعًا له!».

ضيَّقَ الرجل عينيه في الظلام ليراني، وكأنه اندهش أن أنفي كان كبيراً هكذا. حمدًا للرب أنني لم أنطق بكلمة. كلمة واحدة، «مرحبًا» أو حتَّى «ماذا؟» كانت لتقطع هذا التواصل الإنساني بغتةً كما بدأ. لكن لحُسن الحظ كان الصمت ما يزال حالتي الطبيعية.

نفضَ الرجل الشكَّ عن نفسه وقال: "دعنا، إذن، ندلف إلى منزلك، ليس كسيِّدٍ وصديق، لكن كفنَّان ورفيقه الفنَّان". وضعَ يدًا على أسمالي القذرة ودفعني نحو منزل فخيم مُشيَّد من الحجارة، محشور بين قصرَيْن آخرين. قرعَ الجرس. فتحَ الباب خادمٌ طويل وعريض للغاية، من النوع الذي لا يترعرع سوى في مزارع بوهيميا.

"أوه!" هتفَ الخادم.

"أوه؟" قال مُرافقي مُعاتبًا. "أوه؟ أهكذا تتحدَّث إلى عبقرية؟" تراجع الخادم بضع خطوات واصطدمَ بجدارٍ، وبجَهدٍ انحنى انحناءة طفيفة.

"الفا-الفارس جلوك"، غمغم بصعوبة. "إنهم ينتظرون... ينتظرونكما".

"ولن نُخيِّب أملهم!" هتفَ هذا المدعو جلوك، ونغزَ مِرفقًا في أضلاعي. سيطر الخادم على نفسه وبدأ في قيادتنا عميقًا داخل المنزل الباذخ، الذي لم تستطع رائحة اللافندر فيه هزيمة رائحتي.

ضحكَ جلوك بخفوت في أذني. "بوريس نفسه يظنُّ أنك صعلوك"، همس.

اتَّفقتُ بعض الشيء مع بوريس المُتبصِّر ذاك، لكنه لم يستدر حتَّى ليُحدِّق فينا بينما يقودنا عبر الدَّرج العريض المُغطَّى بالسجاد، حيث كان صوت ضحكات مرحة يرتفع من وقتٍ لآخر، بذلك الصياح

الخفيـض لمحادثـة جـادَّة. أدخلنـا عـبر بـابٍ مـزدوج، ووجـدتُ نفـسي وسـط حفلتـي السـاهرة الأولى.

كان هنـاك مـا يقـرب مـن عشريـن رجـلًا في قاعـة الرقـص، وثرثـرة نسـاء أيضًـا. حتّـى أصغـر الرجـال سـنًّا كان لديهـم شـعر أبيـض منسـاب، وكل أنــف في الغرفـة بـدا مُسـتدقًّا، رغـم أننـي سرعـان مـا أدركـتُ أن لهـذا علاقـة بالرَّفْـع العـام للذقـون. كان هـؤلاء الرجـال والنسـاء يثرثـرون في دوائـر مُزدحمـة، ويتحدَّثـون في همسـات حـادة للغايـة، لدرجـة أننـي تيقَّنـتُ أننـي قاطعـتُ مؤتمـرًا دبلوماسـيًّا ذا أهميـة قصـوى. كانـت هنـاك مجموعـة مـن أربعـة رجـال تقـف بالقـرب مـن بيانـو قيثـاري، وبـدوا وكأنهـم وزراء أو قـادة؛ ذلـك أنهـم عندمـا يُبـدُون أيَّـة آهـة تعجُّـب، كانـت الأعـين في القاعـة تتطلَّـع، وبأمـل تقريبًـا، في اتِّجاههـم.

لكـن دخولنـا أفسـدَ هـذا التـوازن. فيـما جلـوك يخطـو ناحيـة مجموعـة الأربعـة، مـن أرجـاء القاعـة جـاءت "أووه!" و "آآه" وكأن طاووسًـا قـد نفـشَ ذيلـه لتـوِّه. رُفعـت الكـؤوس، كل كأس أعـلى مـن سـابقه.

ثم انصبَّت عليَّ كل عين أيضًا. أُنزلت الكؤوس. صمتَتْ القاعة.

أخـيرًا، خطـا واحد مـن الرجـال الأربعـة إلى الأمـام. "*Chevalier Gluck,* الفـارس جلـوك، *qui est-til?* مَـن هذا؟".

لم أكــن تعلَّمــتُ أيَّ فرنسـية، لكــن كان مــن الواضــح لي أن القاعــة بأكملهـا ترغـب في معرفـة مـاذا يفعـل هـذا المتُشرِّد وسـطهم. ابتسـمَ جلوك بخبـث. أجـالَ بـصره في الحاضريـن، متوقِّفًـا أولًا قليـلًا عنـد كل واحـد مـن الرجـال الأربعـة المهمِّين، "سـنيور كالزابيجـي، سـنيور أنجيولينـي، سـنيور كواليـو، الناظـر دوراتسـو، السـيدات والسـادة". أشـارَ بإصبـعٍ إليَّ. "هــذا هــو مستقبل فنِّنـا".

أمهـلَ الحاضريــن قليـلًا ليسـتوعبوا أثـر عبارتـه، فيـما يخطـو ببطء حــولي، مُتأمِّـلًا في أسـمالي المُمزَّقـة وكأنهـا أفخـم ملابـس وقعـت عليهـا

عينـاه. "لا ريـش نعـام، لا صدريَّـات مُرصَّعـة بالمـاس، بـلا تجمُّـل عـلى وجهـه. لا يبـدو كمُهـرِّج. امنحـوه نظـرةً واحـدة، واسـتوعبوا رسـالته". رفـعَ إصبعًـا إلى السـقف. "الخِـداع ليـس فنًّـا".

أومـأَ جلـوك ببـطء وخطـا إلى الأمـام ثـم عـادَ إليَّ فيـما يُحـدِّق في كل ضيـفٍ كأبٍ يـؤدِّب أطفالـه. "مـن أجـل هـذه الأوبـرا، لـن نعيـد إحيـاء أورفيـوس الـذي سـمعه الجمهـور مائـة مـرة. ليـس أورفيـوس نابـولي، ولا ڤينيسـيا. لا. لـن أفعـل هـذا. بموسـيقاي، مـع نـص سـنيور كالزابيجـي الأوبـرالي المُدهـش، سنسـتحضر بـدلًا مـن ذلـك أورفيـوس الـذي عـاش قبـل زمـن طويـل، الـذي لم يرتـدِ الريـش في رأسـه، الـذي شـدا بأجمـل موسـيقى قاطبـةً، والأهـم مـن كل هـذا، الـذي شُـغِفَ بعاطفـةٍ صادقـة وحقيقيـة". تطلَّـع جلـوك إلى السـقف وفـردَ ذراعيـه في تـضرُّع. "أورفيـوس!" هتـفَ. "تعـالَ وغـنِّ لنـا! نتـوقُ لأن نعـرف الحـبَّ! لأن نعـرف أعظـم حـزن وأعظـم فرحـة! بموسـيقاك، امـلأ قلوبنـا!".

لبضـع ثـوانٍ تـركَ جلـوك الصمـت يسـود، ثم عـادت العين العابسـة إلى الجمهـور. "في أكتوبـر، سـيقوم أورفيـوس كـما لم يسـمعه أحـدٌ منكـم قـطُّ؛ ذلـك أننـا سـنوقظ روحـه، ليـس بالنَّـصِّ الأوبـرالي والموسـيقى فحسـب، لكـن لدينـا أيضًـا المُغنِّـي الـذي سـيحمل صوتـه. في هـذه الليلـة يختفـي وراء حجـاب الوضاعـة، لكنكـم تعرفونـه جميعًـا. آنسـاتي سـاداتي، مُضيِّفكُم، أورفيوس(نـا)، أعظـم أصـوات أوروبـا، جايتانـو جـواداني".

بتلويحـةٍ مـن يـده قدَّمنـي إلى الحشـد، الـذي ذابـت وجوهـه المصدومة في الابتهـاج فيـما يتعرَّفـون عـلى جايتانـو جـواداني الشـهير ذاك، أيًّـا مَن كان، تحـت طبقـات السُّـخام عـلى وجهـي. أخـذوا في التصفيـق، وفيـما يفعلـون، أدركـتُ برعـبٍ مُباغـت أن القاعـة صـارت مُنتفخـة بالتوقُّعـات والآمـال، كفقَّاعـة عـلى وشـك الانفجـار بصـوتٍ صاخـب! لم أبتسـم فيـما يصفِّقـون، وزادوا مـن حـدَّة تصفيقهـم ردًّا عـلى ذلـك؛ ولهـذا قـرَّرتُ الهـروب. اتَّخـذتُ

خطوتين للوراء، لكن حينها أدركتُ أن هروبي قد أُعيق بفعل خطواتٍ تقترب. استدرتُ لأرى رجلًا يدخل. فسَّرَ منظره كل شيء، بالنسبة لي على الأقل.

كان جايتانو جوادانِي يكبُرني بخمسة عشر عامًا، لكننا كنَّا نتشارك نفس الوجه الذي لا يشيخ. كان طوله يصل إلى أذني فحسب، لكنَّ كلينا يتشارك في ذلك القُوام الملائكي الذي يجعل الحشود تظنُّ أن طوله ست أقدام، وتظنُّ أن طولي سبع أقدام. مثلي، كان له صدر الطيور ذاك الذي يُميِّز الطواشيِّين ورهافة الجسد الذي لا تثقله العضلات الرجولية. لم نكن توأمًا، بل شقيقين ربما. في تلك الليلة كان شبابي مشوبًا بالسخام، وفي معطفه الطويل المُوشَّى ظهرَ هو كملكٍ.

بدا وأنه يدلف إلى القاعة طافيًا. إذا كان الجميع قد سكتَ عندما رأوني، فالآن عندما رأوا جوادانِي -وأنا بجواره- لم يتنفَّسوا حتَّى. لم يجفل الطواشيُّ الشهير من رؤية هذا المتشرِّد في منزله، للحظة تطلَّع إلى الحاضرين بابتسامةٍ كريمة، عليمة. ثم نظرَ إليَّ بتمعُّن من رأسي إلى قدمي.

"أيُّها الفارس"، قال بألمانية قويَّة اللكنة، "هل وجدتَ لي بديلًا؟".

تحوَّل وجه جلوك المتورِّد إلى القرمزي. "أيُّها المحتال!" قال لي بكلمات لاهثة. هزَّ قبضةً ورفعَ الأخرى أمام صدره وكأن قلبه سينفجر من الحَرَج. خطوتُ إلى الوراء مُجدَّدًا وكنت لأصطدم بالطواشي لم لو يتحاشاني بمهارة راقص. رفع يدًا لتهدئة غضب المؤلف الموسيقي.

"ظننتَه أنا؟" سأله جوادانِي فيما يستدير ناحيتي واضعًا نفسه بيني وبين جلوك. شرعتُ في الاقتراب ببطء من الباب.

"كان يتصعلك خارج بابك. خدعني".

"تنكُّـر مُتقــن"، قــال جــواداني، وزمَّ شــفتيه حتَّــى يــدرك ضيوفــه أن بمقدورهــم الضحــك.

"سأرميه إلى الخارج بنفسي"، قال جلوك، ومدَّ يده ناحيتي.

"لا!" هتـفَ جـواداني. تجمَّـد جلـوك. لم يسـتَدِر جـواداني حتَّـى ليتأكـد أن المؤلـف الموسـيقي قـد أطـاعَ أمـره. وضـعَ المُغنِّـي راحتـه فحسـب عـلى صـدره، وكأنـه يستشـعر نبضـه، بالـرؤوس الحمـراء لأظافـره المطليـة تتـلألأ. "أبـدًا لا أتخـلَّى عـن شـقيق السِّـكِّين"، قـال بهـدوء.

أحنـى رأسـه وظلَّـت يـده عـلى قلبـه. تعجَّبَـت كلُّ عـينٍ في القاعـة مـن حنـوِّه هـذا.

"بوريـس!" نـادى بصوتـه الرَّنَّـان الناعـم. ظهـرَ بوريـس مـن حيـث كان يتـوارى خـارج البـاب المفتـوح.

"امنحــه اســتحمامةً وبعــض الملابــس، وطعامًــا. أعتقــد أن ملابســك وحدهــا ســتلائمه".

لم يُبدِ بوريـس شـيئًا سـوى ازدرادة مُرتعبـة. لم يلتفـت إليَّ فيـما يقـودني إلى خــارج القاعــة ثــم عــبر ردهــة. "انتظــر هنــا"، أمــرني. طــوال عشريــن دقيقــة، جثمــتُ هنــاك كتمثــال، خائفًــا أن يلــوِّث سُــخامي الحوائــط البيضـاء إن أبديـت أيَّ حركـة. أيَّ اتِّجـاه كان البـاب؟ أخـيرًا، عـاد بوريـس بكومـةٍ مـن الملابـس عـلى ذراعـه.

"اتبعنــي"، قــال، بصــوتٍ يخلــو مــن الاحــترام والازدراء عــلى الســواء. قـادني عـبر دَرجٍ خشـبي ضيـق يهبـط إلى غرفـة اغتسـال للخـدم في القبـو. كان هنــاك حــوض اغتســال خشــبي ممتلــئ حتــى منتصــف بالمــاء، كان بمقـدور بوريـس أن يُسـخِّنه أكـثر بالتأكيـد، لكـن بمـا أنـه كان أول مـاء دافـئ يُلامـس جلـدي منـذ شـهور، فلـم أجـرؤ عـلى التَّشـكِّي. أغلقـتُ البـاب

ووضعـت وراءه صندوقًـا خشـبيًّا لتريسـه قبـل أن أتجـرَّد مـن أسـمالي القـذرة وأغطـس في المـاء.

ظهـرَ الجلـد الرائـق تحـت طبقـات مـن القـذارة. فركـتُ الصابـون في يـدي حتَّـى تغضَّنـت حشـيَّات أصابعـي بأشـكال بيضاويـة ورديَّـة. فقـدَ شَـعري وزن سـنةٍ مـن الدهـن، وعندمـا جـفَّ، انتفـشَ إلى هالـةٍ مـن الزغـب الرقيـق كريـش صغـير الفـراخ.

عندمـا تأكَّـدتُ أننـي فركـتُ كل إنـشٍ مـن جلـدي، خطـوتُ خارجًـا من حـوض الاسـتحمام ووقفـتُ أمـام المـرآة. تفحَّصـتُ كامـل جسـدي العـاري. لا يوجـد مخـصيٌّ بعضـلات رجوليـة، لكـن بعـد عـام مـن الترحـال عـلى طـول جبـال الألـب، اكتسـبَ جسـدي عديـم الشَّـعر رشـاقة الحوريَّـات. رأيـتُ في فخـذيَّ لمحـةً مـن تلـك السـيقان العاريـة التـي كنـتُ ألصـقُ أذنيَّ بهـا في تلـك السـنة في عِلِّيَّـة أولرتـش. كانـت العظـام البـارزة في صـدري وحـوضي عظـام رجـل، لكـن الطَّبْـع الحليبـي، اللحيـم، لجلـدي كان شـبيهًا بذلـك الـذي كثـيرًا مـا قبَّلتُـه.

كنـتُ عديـم الشـعر، ومـع ذلـك، الآن وقـد تطهَّـرتُ مـن القَـذَر، سـطعَ زغـبٌ ذهبـي تحـت ذراعـيَّ، فـوق شـفتيَّ، وفي سـهم يشـير إلى الأسـفل مـن صُرَّتي. عندمـا رفعـتُ ذراعـي، تماوَجَـت الحركـة عـلى صـدري المسـتدير، عـبر معـدتي الطويلـة، وتلاشـت في فخـذيَّ. كان عـامٌ مـن المـشي قـد عـزَّز القـوام الـذي طالمـا عَمـلَ أولرتـش عـلى تمرينـه. لم يبـدُ الطـواشيُّ الـذي في المـرآة هشًّـا. كانـت قدمـاه راسـيتَيْن عـلى الأرض، وكتفـاه تبـدوان مُعلَّقتـين مـن خيـطٍ غـير مـرئي مربـوطٍ في السـماء. كان جسـدًا نبيـلًا، مثاليًّـا، بنقيصة واحـدة فقـط في مركـزه.

شـقيق السِّـكِّين، كان جـواداني قـد دعـاني؛ الاعـتراف الـذي طالمـا خشـيته. لم يحتَـجْ إلى سـماعي أُغنِّـي حتَّـى. رأيـتُ ذلـك فيـه أيضًـا. رأيـتُ ظـلًّا لذلـك الموزيكـو الآخـر. أنتونيـو بوجـاتي. وجهَاهـما الملائكيـان، الرائقَـان،

رونقهـما، أصواتهـما البديعـة- كلهـا كانـت علامـات تَسِـم جسـدي أيضًـا. أورفيـوس. مـا زال صـدى الاسـم يـتردَّد في أذنيَّ. أورفيـوس. ومُتأمِّـلًا هـذا الملاك العـاري في الزجـاج، فكَّـرتُ مزهـوًّا أنـه إذا كان بمقـدور جـوادانى أن يكـون أورفيـوس مـن أجـل إمبراطوريـة بأكملهـا، فحتـمًا بمقـدوري أن أكـون أورفيـوس مـن أجـل امـرأة واحـدة.

كان سروال بوريـس طويـلًا بمـا يكفـي بالـكاد، لكننـي لم أسـتطع تزريـر الصدريَّـة عـلى صـدري. بـرزَ رسـغاي مـن المعطـف، واضطـررتُ لـترك الحـذاء المـؤلم دون ربـاط. تمعَّنـتُ في نفـسي في المـرآة. أبـدًا لم أبـدُ وسـيمًا هكـذا.

في الردهــة، كان في انتظـاري صَحَفـةٌ كبـيرة تحمـل طبقًـا مـن الخبـز وجُـذاذات لحـم؛ وجبـة زهيـدة لشـخص مثـلي اعتـاد عـلى سرقـة الولائـم. تواثبـتُ صاعـدًا الـدَّرَج. لم أعُـد الصعلـوك الدخيـل، كان بمقـدوري إيجـاد طريقـي إلى الخـارج.

كان المنـزل الـذي يقطنـه جـوادانى مفروشًـا بسـجاجيد عـلى أرضيَّـات خشـبية بلوحـات مُؤطَّـرة بالذهـب عـلى الجُـدران. عـمَّ الهـدوء المـكان، وكأن الضيـوف قـد غـادروا جميعًـا أثنـاء اسـتحمامي وأُرسـلَ بالخـدَم إلى الفـراش. وجـدتُ البـاب الأمامـي، قبضـتُ عـلى المقبـض النحـاسي المُـوشَّى، وتهيـأتُ للانسـلال إلى الخـارج دون أن يـراني أحـد. لكننـي سـمعتُ صوتًـا جعلنـي أحبـس أنفـاسي.

بـدأ بيانـو قيثـاري في العـزف. سـمعتُ عـلى الفـور أن سـيِّدًا يجلـس عـلى لوحـة المفاتيـح. انسَـقتُ ناحيـة الصـوت، بعيـدًا عـن البـاب، صاعـدًا الـدَّرج، مُسرعًـا، صامتًـا، خائفًـا أن تتوقَّـف تلـك الموسـيقى بفعـل أيِّ صوت أُبديـه.

فيـما أقـترب مـن البـاب المفتـوح الـذي كانـت تنضـح منـه الموسـيقى -أدركـتُ أنهـا تلـك القاعـة التـي كنـتُ فيهـا مـن قبـل- وجـدتُ بوريـس

والخـدَم الآخريـن جاثمـين عـلى جانبَـي البـاب، مختبئـين عمَّـن يوجـد داخل القاعـة. لم يُبـدوا أيَّ ردٍّ فِعـل عندمـا انضممـتُ إليهـم؛ ذلـك أن أجسـادهم كانـت مشـدودة لتُنصـت. عـبر مدخـل البـاب ذاك، سـمعتُ مقاعـد تـصرُّ وأقدامًـا تتبـدَّل تحـت النغـمات الرائقـة للبيانـو القيثـاري.

كنـت أريـد أن أعـرف مَـن يجلـس عـلى البيانـو. ربمـا كان لي أن أدلـف عـبر البـاب وأفسـد الأمسـية -للمـرة الثانيـة- لـو لم أسـمع صوتـًا زادَ مـن ذهـولي أكـثر: شرعَ جايتانـو جـواداني في الغنـاء.

Che puro ciel! Che chiaro sol! Che nuova serena luce è questa mai!

يـا للسـماء الخالصـة! يـا للشـمس الرائقـة! يـا لـه مـن ضـوءٍ مُتجـدِّد أصيـل!

يـا لـه مـن دفء! أغلقـتُ عينَـيَّ واستنشـقتُ آخـر قطـرة مـن الهـواء في ثنايـا رئتَـيَّ. احتشـدتُ مـع كل الخَـدَم حتـى انضغطنـا عـلى بعضنـا البعـض كحفنـة مـن صغـار الخنازيـر تتسـابق عـلى ضَرْع أمِّهـا. في كتلـةٍ واحـدة، اقتربنـا مـن مدخـل البـاب زاحفـين. نظـرتُ في الأنحـاء لأرى جـواداني يقـف أمـام الحشـد المُنتـشي، ووراءه يجلـس جلـوك عـلى البيانـو القيثـاري.

كان جــواداني يلــوِّح بيديــه فيــما يغنِّــي، أصابعــه الطويلـة تصــف الانحســارات والتصاعــدات التــي يخلقهــا صوتــه. في لحظــات صوتــه الرهيفــة، كان يجعلنــي أتخشَّــب فيــما أعتــصر نفــسي لأُنصــت، ثــم في لحظاتـه العاتيـة، أشـعر وكأننـي عـلى وشـك الانسـحاق تحـت قـوَّة بهـاء صوتـه. حـدَّقَ جـواداني ناحيـة واحـدة مـن زوايـا القاعـة، ورأيـتُ في عينيـه أن هنــاك كانــت يوريديس(تــه)، التــي سريعًــا ســيمتلكها مُجــدَّدًا. اعــثر عليهـا! قالـت لي الموسـيقى. اعـثر عليهـا! أزاحَ ذلـك أيَّ خـوف كان يتلـكَّأ في ظـلال روحـي. دمـوعٌ دافئـة لوَّثـت وجهـي النظيـف الآن.

فيما يُنهي جوادانى آهته الأخيرة -(يوريديس، أين أنتِ *Euridice dov'è!*)- كان اجترار صوته عنيفًا، ووحدها قوَّة بوريس منعتنا من السقوط إلى قاعة الرقص. بدأ الضيوف في التصفيق؛ نفض الخدَم الذهول عن أنفسهم وفرُّوا هاربين. لم يكن ردُّ فِعلي في غاية التَّمرُّس: من اللحظة التي توقَّف فيها جواداني عن الغناء، شعرتُ بتراجع الدفء. زحفَ الخوف خارجًا من الظلال. مع كل لحظة تمرُّ، تراجعَ يقيني أكثر وأكثر أنني سأفوز بما أتوق إليه. شعرتُ بحاجة إلى سماع هذه الموسيقى مُجدَّدًا، بالحاجة إلى تعلُّم غنائها بنفسي، وهنا كان أستاذان بمقدورهما تعليمي.

شعرتُ بيد بوريس على ذراعي تحاول جذبي بعيدًا عن الباب، وأدركتُ أنه كان يهمس بشيءٍ ما في أذني، ويسألني إن كنتُ بهذه الحماقة حتَّى أقاطع الأمسية للمرة الثانية. كنتُ كذلك. اعتصرتُ نفسي للإفلات من قبضته.

لكن بوريس لم يكن يسمح بمقاطعة أخرى، على الأقل ليس بسبب أحمق يرتدي ملابسه؛ ولهذا جذبَ كتفي بعنف. تلوَّيتُ وقاومت حتَّى أفلتَ قبضته أخيرًا. سقطَ للوراء وأسقط زهريةً من مكانها. خطوتُ مُضطربًا إلى قاعة الرقص.

بملابس خادمٍ، ودموعٍ تجري على خدَّيَّ، هبطتُ على احتفالهم وكأنني سقطت عبر درجٍ لتَوِّي. توقَّفَ التصفيق. حدَّقوا فيَّ، لكن هذه المرَّة كانت تحديقتهم مختلفة. لم يتلاشَ اندهاشهم إلى اشمئزاز، بل إلى إعجابٍ؛ إعجاب بجمالي.

اتَّخذتُ بضع خطوات نحو جواداني، ورأى الجميع الطواشيَّيْن يقفان جوار بعضهما البعض: أنا مرآةٌ أكثر شبابًا وطولًا لجواداني. وجهه الملائكي الرائق، عظامه الرهيفة، وعيناه الخضراوان الوديعتان، كان كل ما أزدريه في نفسي.

حاولتُ استجماع الكلمات، لكن كل ما استطعتُه كان ضمَّ قبضتَيَّ وإرخاءهما أمام وجهي، وكأنني أجاهد لاقتناص ذرَّة مُراوغة من غبارٍ سحريٍّ يسبح في الهواء.

"ها هو أورفيوس(كَ) قد عاد، أيُّها الفارس جلوك"، قال جواداني وضحك. ضحكَ الجمهور أيضًا.

حدَّقَ المؤلف الموسيقي إليَّ من البيانو القيثاري. عادَ بوريس ونشبَ يدًا في ذراعي.

"انتظر"، قال جواداني لخادمه، دون أن يتحرَّك من موضعه على المنصة الخشبية. "ربما هذه هي فرصتنا، أيُّها الفارس، في غياب مدموازيل بيانشي، لنُسمِع جمهورنا دويتو من الفصل الثالث".

"معه هو؟" قال، نافثًا رذاذ لعابه. "يوريديس؟".

"هل تستطيع غناء السوبرانو؟" سألني.

أومأتُ. أثارَ جلوك اعتراضات أخرى، لكن عبارة إيطالية أوقفت حديثه، وأقنعه لغطٌ في القاعة أن الضيوف يسعدهم أن ينصتوا إلى جواداني يغنّي مع رفيقٍ شاب. انتزع جواداني بعض الأوراق وناولني نوتة موسيقي. تفحَّصتُها بحماس وغمرتني على الفور خيبة الأمل.

"لكن هذا... لا أستطيع..." تلعثمتُ.

"طبقةُ صوتٍ عالية جدًّا عليه". صرَّ مقعد جلوك على الأرض فيما ينهض واقفًا، ارتفعت راحتاه وكأنه يريد دفعي وإخراجي من القاعة.

"لا"، قلت. "ليست عالية عليَّ".

"ما المشكلة إذن؟" سألني جواداني.

"إنها الكلمات"، قلت. "ليست باللاتينية".

زمَّ جواداني شفتيه، ورأى الجميع أنه يكتم ضحكته.

"هل هي الإيطالية؟" سألته.

أومأ جواداني. "إنها كذلك".

"لا أتحــدَّث الإيطاليــة". سرى صمــتٌ عــبر القاعــة. "لا أعــرف كيــف أنطــق الكلــمات".

تنــاولَ جــواداني الأوراق مــن يــديَّ برفــق، وكأنهــا كنــز يســتعيده مــن قبضــة طفــل. "لا تتحــدَّث الإيطاليــة؟" ســألَ بهــدوء، لكــن عاليًــا بمــا يكفــي لتســمع كل أذن تُجاهــد لتســمع. "لكنــك طــواشيٌّ".

أومأت. احمرَّ وجهي رغم هدوء جواداني.

"هذا مستحيل"، قال. "في أيِّ دور أوبرا غنَّيتَ؟".

"دور أوبرا؟".

"مسارح!".

"لم أغنِّ قطُّ في مسارح".

"أين إذن تعلَّمت الغناء؟".

"في الدير"، قلت. "دير سانت غال".

استدار جواداني إلى جلوك. "أين هذا؟".

"في سويسرا"، قال جلوك. أومأ.

"لكــن ليــس لديهــم أي موزيكــو في الأراضي الألمانيــة"، قــال جــواداني، مُندهشًــا. هــزَّ جلــوك رأســه برفــق مؤكِّــدًا. أشرق وجــه جــواداني بغتــةً. ابتســمَ إليَّ. "لكــن هــذا شيء اســتثنائي. منــذ متــى وأنــت في ڤيينــا؟".

"وصلتُ اليوم".

"اليوم!".

بدأَ جوادانِي في الضحك، وكانت ضحكته بنفس قوة أغنيَّته. سرعان ما انغمس جميع مَن في القاعة في الضحك معه على هذا الموزيكو العجيب الذي لا يتحدَّث الإيطالية؛ القادم من أرضٍ لا يوجد فيها نوعه. بدا بوريس وكأنه رأى هذا فرصةً جيدة لإخراجي خِلسةً، لكن هذه المرَّة جذبتُ نفسي بنفسي بعيدًا.

لكن جوادانِي رفع يدًا فحسب. تجمَّدتُ أنا وبوريس، وخمدَ الجمهور على الفور. جالت عينا جوادانِي المُترفِّعة على كل واحدٍ من ضيوفه، وكأنه يبحث عن قلبٍ نبيل واحد بين هذه الصقور. "أنا، مثل هذا الموزيكو البائس"، قال، "لم يكن لديَّ أيّ كونسرڤاتوار (*conservatorio*) ليجعلني ما أنا عليه اليوم. علَّمتُ نفسي بنفسي. ولن أتخلَّى عنه".

"غدًا"، قال لي، "ستأتي إلى مسرح بيرج. ستكون تلميذ جايتانو جوادانِي".

(5)

"زائـر إلى المدينـة، سـيدي، ألسـت كذلـك؟ أيُّ خدمـة في مقـدوري؟" كان الصبـي قـد قـال بعـد أن اسـتيقظتُ في الصبـاح التـالي مـن فـراشي القـاسي عـلى الرصيـف وتقلَّبـتُ ثـلاث اسـتدارات كاملـة، بسـؤال واحـد في رأسي لا غير.

«في الواقع»، قلت، «بمقدورك. هل أنت من أبناء هذه النواحي؟».

"ابـن خالـة عمِّـي هـو الملـك عمليًّـا"، قـال بفخـر، مُـبرزًا صـدره، الـذي كان في غايـة النحـول لدرجـة أنـه كان باسـتطاعتي إحاطتـه بيديَّ. تسـاءلتُ متـى تنـاول طعامًـا آخـر مـرَّة.

"هـذا جيـد"، قلـت. "أنـا في حاجـة إلى اتِّجاهـات. هـل يمكنك مسـاعدتي في الوصـول إلى ذلـك المـسرح، الـذي يُسـمَّى مـسرح بيرج".

"مسرح القياصرة والملوك في القلعة (*Die Kaiserliches und Königliches Theater an der Burg*)"، سردَ الاسم بإيماءة. "إلى ساحة ميخائيل (*Michaelerplatz*). دعَ لوثر يكن مُرشدك".

وهكذا فعلتُ. سرتُ وراءه عبر المدينة النائمة بعد الفجر مباشرةً، صاعدين التَّلَّ المُنبسط، بتلك الكنيسة السوداء تطل علينا من اليسار عبر ضباب الصباح، ولطخات الرَّوَث الرطب تتناثر في كل مكان بين أحجار الشوارع. لم نستدر يسارًا أو يمينًا قطُّ. كانت القصور تزداد حجمًا وأبَّهةً.

بعد ما لا يزيد عن عشر دقائق، دلفنا إلى ميدانٍ. "ساحة ميخائيل"، قال لوثر، وانحنى.

فغرتُ فاهي. على مسافة ليست بعيدة، كانت خطوط الأسقف البارزة لأضخم أبنيةً رأيتُها في حياتي تشقُّ بحدَّةٍ السماء الساطعة. في الميدان نفسه: كان هناك قصر مُبهرج بقبابٍ وتماثيل بيضاء لمحاربين ينتصب عاليًا فوقنا.

"يا إلهي"، قلتُ لمُرشدي، مُشيرًا إلى الصرح العجائبي. "هل هذا هو المسرح؟".

"لا"، أجابني. "هذه المدرسة الشتوية لتعليم ركوب الخيل، للأميرات وخيولهن الصغيرة. هذا هو مسرحك". تتَبَّعتُ إصبعه الممدودة إلى الحافَّة الحادة لمدرسة تعليم ركوب الخيل هذه -التي بدت وكأنها تنتهي بغتةً، وكأنها مشقوقةٌ بسكِّينٍ من السماء- منكمشةً إلى مكعَّب حجري بلا نوافذ في إحدى الزوايا. في سانت غال كان ليُلفت النظر، لكن هنا، كان...

"صغير بعض الشيء، أليس كذلك؟" قلت.

نظـرَ لوثـر إليَّ بعبـوس. "أعظـم مـسرح في الإمبراطوريـة. يسـع ألفًـا وأربعمائـة إنسـان".

"لا يبدو كمسرح". كانت الواجهة بلا نوافذ، وبلا أبواب.

"كان دارَ رقص فيما مضى".

"مرقص؟".

"سـاحة للرقـص. حتَّـى يسـتطيع الأمـراء اللعـب والتراقـص. الآن هـو مـسرح. وليكـن بوابـة إلى الشـيطان فـلا أبـالي. لا يُسـمح لي أبـدًا بالدخـول".

تقدَّمتُ إلى الميدان. لاحت القصور وراء مسرحي أكبر وأكبر.

"راضٍ؟" سألني لوثر. "راضٍ عن خدماتي؟".

أؤمأتُ بشرود.

"اثنان كروزر"، قال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"ماذا؟" استفهمت.

"أتعابي. تدين لي باثنين كروزر".

"مقابل ماذا؟".

"مقابل الخدمة".

"لكن هذا لا شيء. أيُّ أحمق بإمكانه إيجاد الطريق".

"أيُّ أحمق إلَّا أنت. اثنان كروزر".

"لكن...".

"اثنان كروزر". مدَّ يده وتقدَّمَ ناحيتي.

"لا أملك بنسًا حتَّى".

"سأعضُّ كاحلك". كشفَ عن أسنانه. صفراء، لكن حادَّة بما يكفي لإنجاز المهمَّة. تَراجَعتُ.

"لا شيء!". هتفت. "أنا فقير مثلك".

تطلَّع إليَّ من رأسي إلى قدمي وكأنه لاحظ للمرة الأولى كم تلائمني ملابسي بالكاد. امتعضَ من فقري. "أعطني حذاءك إذن"، قال.

"لا!".

غطسَ إلى الأرض من أجله ونجحَ في انتزاع فردة فيما أثبُ مُبتعدًا، لكنه سرعان ما جندلَني، رغم أنه لم يكن بنصف بحجمي، واختطفَ الفردة الأخرى أيضًا. لكنني نشبتُ إصبعين في كل فردة واستبسلتُ في استرداد حذائي، وتطوَّحتُ إلى الأمام فيما يخطو للوراء. جرَّني الوحش الصغير عبر الميدان.

كشَّرَ.

عضَّ يدي.

جأرتُ وتلوَّيتُ، لكن هذا لم يفعل سوى خلخلة الشيء الوحيد في جيبي، خابور مُدهَّن من جبن مُتعرِّق، آخر ما سرقتُه من طعام.

جحظتَ عيناه. أفلتَ الحذاء ووثبَ لانتزاع خابور الجبن. مزَّقه بأسنانه. حاولتُ مطاردة إفطاري بحماسة فاترة، لكنه فرَّ هاربًا.

نفضتُ الغبار عن ملابس بوريس واستعدتُ زرًّا من التراب. كان لوثر قد ترك رائحة الجبن في إثره، وقرقعت بطني. نظرتُ من حولي وقرأتُ العمارة جيدًا: ميدان ميخائيل ليس مكانًا مناسبًا للتسلل خلسةً ما لم يكن المرء مُغرمًا بالزنازين الإمبراطورية. لهذا استدرتُ عائدًا إلى المسرح بسيط الحال. كان شاذًّا عن الميدان كجدَّةٍ مُتغضِّنة الوجه وسط حفلة راقصة باذخة.

شعرتُ بالنبضات الأولى للوقوع في حبِّه تخفق في قلبي.

اقتربتُ. رغم أن الواجهة كانت خاوية، في زاويته كان ينتصب باب مزدوج عالٍ من خشب البلُّوط، الشيء الوحيد في هذا البناء الذي يبدو أنه يناسب أبَّهة لقب المسرح الأول لإمبراطورية. طرقتُ على هذا الباب المهيب لكن ضرباتي لم تُحدث سوى صوت مكتوم. لم يتطوَّح الباب مفتوحًا.

أخذتُ في السير لساعة كاملة على طول الجوانب الثلاثة للمسرح. كان هناك القليل جدًّا ليُسمع، الإمبراطورية تصطخب ليلًا. من وقتٍ آخر تمرُّ عربة عبر ميدان ميخائيل. يجاهد بغل أمامه عربته المُحمَّلة بالشمَّام. وراء المسرح، عبر بوابة، لمحتُ "ميدان القلعة" الخاوي، وفي كل مرة أتمهَّل لأقترب منها، مُفكِّرًا أنني قد أنسلُّ عبرها إلى الميدان، كان الحارس هناك يرفع حاجبيه: أودُّ أن تجرِّب. ثم أستدير على عقبَيَّ.

لكن في نهاية تلك الساعة، رأيتُ شيئًا غريبًا. كان هناك باب معدني مربَّع صغير للغاية في واجهة المسرح، بارتفاع خاصرتي. تطوَّحَ هذه الباب مُنفتحًا بغتةً. ظهرَت منه ذراعان. ثم تلاهما رأسٌ. امتدَّت الذراعان إلى الأرض، حيث تظاهرتا أنهما قدمَان. في تلك الأثناء، ظهرت القدمان من الباب، وأغلق عَقِبٌ -يشبه راحة يد- البابَ بإحكام. ثم استقامت هذه التشكيلة من الأيادي والأقدام إلى وضع إنسان منتصب مُعتدل، وفرَّت بعيدًا. كنتُ لأتيقَّن أنه ليس سوى صبي؛ ذلك أنه انتصبَ واقفًا ليس أطول من لوثر الماكر، لكن هذا العفريت كانت له لحية رجولية وكومة من الشَّعر.

فورَ أن غابَ عن نظري، تفحَّصتُ الباب الصغير، الذي تعرَّفتُ فيه الآن على مَزلَق مهجور للفحم. تحسَّستُه بأظافري. حاولتُ أن أزيحه لأعلى أو لأسفل أو إلى الجانب. لكنني لم أستطع فتحه. داومتُ على فعل هذا لبضع دقائق حتَّى سمعت صيحةً غاضبة.

"هاي أنت! لا تلمس ذلك الباب!".

استدرتُ ورأيتُ أن الرجل الملتحي الضئيل قد عاد. كان هناك شيءٌ يشبه القوارض في هيئته. شعره ولحيته كانا بلون كستنائي، وكذلك ذؤابات الشَّعر التي تبرز من قميصه المفتوح. كان نحيلًا ومُعضَّلًا. كانت شفتاه مزمومتَيْن دومًا، وعيناه على شكل خرزتَيْن سوداوين، فيما رأسه بالكاد تبين وراء أذنيه. كان يحمل رغيف خبز في يدٍ وقطعة سجق في الأخرى. قطعة السجق سميكة كذراعيه؛ والخبز مستدير كهالة شعره.

"ذلك"، أشار بقطعة السجق، "هو باب الإمبراطورة". نشبَ أسنانه في اللحم بوحشية. "تريد أن تفقد رأسك؟".

أخبرته أنني لا أريد أن أفقد رأسي، لكنني أحتاج إلى الدخول إلى المسرح. أخبرته أنني تلميذ جايتانو جواداني الجديد.

نظرَ إليَّ من أعلى إلى أسفل.

"ليس لديك خصيتان؟".

تورَّد وجهي ولم أجب.

"كما تشاء"، قال. ناولَ الباب ضربةً هائلة، وانتثرَ مفتوحًا. وضعَ الخبز والسجق في المَزَلق. ثم، وكأنه ينحني فحسب لالتقاط عملة نحاسية، شقلبَ نفسه بحيث صارت قدماه فوق خصري بالضبط ويداه على الأرض. انثنت ركبتاه إلى الخلف واختفت قدماه في المَزَلق المُظلم، حيث أمسكتا بشيءٍ يشبه الدَّرج. ثم، شيئًا فشيئًا، أدخل جذعه إلى داخل التجويف. عندما لم تبقَ سوى رأسه وذراعيه، لامستُ كتفه.

"حسنًا"، قلتُ. "إنه كما قلتَ".

"هل تألَّمتَ عندما قطعوهما؟" سألني.

"نعم"، قلت. "تألَّمت".

بـرزت عيناه فيـما يسـتلقي عـلى ظهـره هنـاك في نفقِـه، وكأنـه جُحـر. بـدت رأسـه وكأنهـا مُثبَّتـة مبـاشرة في كتفيـه، دون الحاجـة إلى عنُـق. وذراعـاه مشـدودَتيْن كفـروع شـجرة. "هـل تعـرف مـاذا كنـتُ لأفعـل لـو حـاولَ أحدهـم قطـع خصيتَـيَّ؟".

لم أسأله.

"سأخبر الإمبراطورة، وستشنقه".

"ولماذا قد تحميك الإمبراطورة؟" سألتُه.

"إنها ربَّة عملي. أعمل لحساب الإمبراطورة".

"كيف تبدو؟" سألته.

"لديهـا سـتة عـشر طفـلًا. أسـمت البنـات جميعًـا باسـم ماريـا، عـلى اسـمها".

أومأتُ. "هل قابلتَها قطُّ؟".

"أراها طوال الوقت. تأتي إلى المسرح".

"هل صافحتها؟".

"لا تكن أبلهَ"، قال.

بـدأ في الانـزلاق أكـثر ببـطء إلى داخـل المَزلـق. "اسـمي تاسـو". قـالَ فيـما يوشـك رأسـه عـلى الاختفـاء. "تريـد بعـض الإفطـار؟".

أردتُ حقًّا.

"فقـط تأكَّـد مـن إدخـال قدمَيْـكَ أولًا"، صـاحَ مـن موضـعٍ مـا في الجُحر. كان صوتـه مكتومًا.

تفكَّـرتُ قليـلًا كيـف يمكننـي أداء هـذه الحـركات الأكروباتيَّـة البارعـة، ثـم استسـلمت ودلفـتُ بـرأسي أولًا. كان الكهـف رَحبًـا بمـا يكفـي لأزحـف

داخلـه بِمرفقـيَّ، وفي البدايـة لم يكـن مائـلًا بشـدَّة، لكـن فـورَ أن دخلـتُ بكامـل جسـدي إليـه، بالـكاد اسـتطعتُ منـع نفـسي مـن الانـزلاق. ثـم فقـدتُ السـيطرة تمامًـا. فيـما أنزلـق عـبر المَزلَـق المُظلـم، صرخـتُ ومـدَدتُ يـدَيَّ أمامـي. اصطدمـتُ بالأرضيـة وسرعـان مـا تكوَّمـتُ عـلى نفـسي كقطعـة سـجق محشـورة في جـرَّة. رفعـتُ بـصري إلى مـا وراء ركبتَـيَّ لأرى ضـوءًا خافتًـا وظـلَّ الرجـل الضئيـل يهـزُّ رأسـه بكآبـة.

ارتعبتُ، وتأوَّهتُ وتلوَّيت. "النجدة!" صحت.

"توقَّـفْ عـن التَّلـوِّي!" هتـفَ تاسـو مـن أعـلى. ربـطَ حبـلًا حـول كاحـليَّ. سـمعتُ طقطقـة بكـرات ثـم رفعنـي لأعـلى مـن خـارج الجُحـر، بالحبـل يُمـزِّق في جلـدي. في النهايـة، هويـتُ خارجًـا مـن الفتحـة إلى أرضيـة سـاحة الرقـص القديمـة.

اسـتلقيتُ في قاعـة ذات سـقف واطـئ بشـدَّة. كان بمقـدور تاسـو ملامسـته بأصابعـه بالـكاد عندمـا يقـف بذراعيـه مرفوعَتـيْن. اضطـررتُ للجثـوم في وضـع القرفصـاء حتـى لا يصطـدم رأسي بالسـقف. هـزَّ الرجـل الضئيـل إصبعًـا في وجهـي. "القدمـان أوَّلًا في مزالـق الفحـم"، قـال. "دائمًـا. مـن حظِّـك الطيـب أننـي هنـا".

انتصـب قائمًـا وجلـب مقعـده المُنمنـم، ثـم منحنـي نصـف رغيـف الخبـز ونصـف مـا تبقَّـى مـن السـجق تقريبًـا.

"كيف تبول؟" سألني فور أن قَبِلت عطيَّته.

أخبرتـه أن التَّبـوُّل لا يُسـبِّب لي أيَّ مشـاكل، وأننـي لسـت مُهتـمًّا بـأيِّ أسـئلة أخـرى مـن ناحيتـه. مـع ذلـك التهمـتُ طعامـه بشراهـة فيـما أتطلَّـع في أنحـاء كهفـه. كانـت شـمعة وحيـدة هـي مصـدر الضـوء الوحيـد. كان هنـاك موقـد صغـير غـير مُشـعَل، وبجـواره فِـراش مُتنقِّـل مُغطًّـى بالدُّثُـر بعنايـة. كان يحتـلُّ زاويـة صغـيرة فحسـب مـن المسـاحة الهائلـة. ومـا تبقَّـى منهـا يمتلـئ بظـلالٍ مشـؤومة، تشـبه أدوات تعذيـب

في زنزانـة. أفقيًّـا بارتفـاع خِـصر تاسـو، كانـت تمتـدُّ عارضـة خشـبية عـلى طـول القاعـة -مـن مَزلـق الفحـم حتـى منتصـف قاعـة الرقـص- كصـاري سـفينة موضـوع أفقيًّـا. في منتصـف العارضـة، تـبرز رافعـة بعجلـة مـن الأوتـاد، منهـا تنطلـق حبـالٌ، تَلـجُ في بكـرات في حـواف القاعـة، وتختفـي عـبر السـقف. في الطـرف البعيـد مـن القاعـة كان رأسٌ رحـويٌّ بحجـم تاسـو بمزيـدٍ مـن البكـرات ومزيـدٍ مـن الحبـال التـي تمـضي في كل اتجـاه. كانـت هنـاك أيضًـا ثمانيـة أجهـزة تبـدو كمراقـد تعذيـب مـن أحجـام مختلفـة، كل منهـا بحبـال وبكـرات كثـيرة حولهـا. تـردَّدَ صـدى مَضغِنـا للطعـام في الزوايـا المُظلمـة، وكأننـا فـئران تختبـئ وسـط الآلات.

"ما هذا المكان؟" سألتُ تاسو عندما انتهينا من طعامنا.

"انظـر بنفسـك". انتفـضَ واقفًـا وخطـا مُتعـثِّرًا إلى العارضـة الرئيسـية. سـارَ عـلى يديـه للحظـة، ودسَّ قدمًـا في حلقـة مـن الحبـال، وجذبهـا للأسـفل. فيـما تهبـط قدمـه وترتفـع رأسـه، انفتحـت بوابـة صغـيرة (كمبوشـة) في السـقف فـوق أكـبر مراقـد التعذيـب الخشـبية. رأيـتُ مُربَّعًا مـن سـماء سـوداء.

"اجلـس"، قـال. تسـلَّقتُ فـوق العارضـة وعـبر شـبكة الحبـال وجلسـت عـلى المرقـد، الـذي كان يتـدلَّى بحريـة. أسرعَ تاسـو عـبر القاعـة جاذبًـا حبـلًا بقـوَّة. راقبـتُ الحبـل يشـتدُّ عـبر مجموعـة مـن البكـرات. صحـتُ فيـما المَرقـد ينتـتر لأعـلى بغتـةً، ثـم أظلـم كل شيء.

جاهـدتُ لأقـف في الظـلام الحالـك، ملوِّحًـا بعـماء بيـدَيَّ أمـام وجهـي. لا شيء هنـا. طرقـتُ بقدمـي عـلى الأرضيـة الخشـبية. تـردَّد صـدى الطرقـة في الظـلام. سـمعتُ أننـي في تجويـف هائـل.

لم أستطع أن أقاوم. غنَّيتُ لحنًا مُتسارعًا في الظلام.

* * *

إلى المهندسـين: لا تشـيِّدوا قاعـات احتفـالات للمُسـتمعين، بحيـث يكونـوا مُرتاحـين، بحيـث يمكنهـم رؤيـة خشـبة المـسرح، بحيـث يشـعروا بالتبجيـل في مقاعدهـم. قاعـات كهـذه ينبغـي أن تُحـرَق وتسـوَّى بـالأرض عقابًـا عـلى جُـرم الوثنيـة. المعابـد الوحيـدة التـي ينبغـي أن تظـل قائمـة هـي معابـد تأليـه الأغنيـة.

في هندسـة الأغنيـة، الزمـن هـو الاعتبـار الجوهـري. في تلـك المعابـد المُشـيَّدة لأصنـامٍ أخـرى -نوتـردام، سـان بطـرس، أو حتَّى كنيسـة شـتاوداخ- ربمـا تُجلجـل أغنيـةٌ في سـماوات ذلـك الفضـاء لعـشر ثـوانٍ عـلى الأكـثر. ربمـا يمنـح هـذا الجمهـور خوفًـا مـن الـرب وحبًّـا لـه ولكنيسـته، لكـن في هـذه الثـواني العـشر، تشـيخ الأغنيـة وتتكـدَّر، كتفاحـة طريـة بـلا مـذاق. عـلى النقيـض، عنـد الغنـاء في بهـو منزلـك أو غرفـة طعـام، تظهـر المشـكلة المقابلـة: تصطـدم الأغنيـة بالحوائـط والبُسُـط وأطبـاق العشـاء سريعًـا جـدًّا، لحـدٍّ أنهـا لا تجـد وقتًـا لتنضـج قبـل أن تمـوت.

الآن لنُفكِّـر في القاعـة الكـبرى، هـذه التـي تظهـر الآن في حكايتنـا والتـي أراهـا للمـرة الأولى في حيـاتي. هنـا تُحبَـس دورة حيـاة الصـوت بشـكل مثـالي بحيـث لا يوجـد نُضـجٌ قبـل الآن، ولا مـوت تراچيـدي، ولا شـيخوخة؛ صـوت يعيـش لثـلاث ثـوانٍ مثاليـة. ثـلاث ثـوانٍ مـن الشـباب الزاهـي.

هـذا المـسرح عـلى القلعـة ربمـا يكـون قُـدس أقـداس معابدنـا؛ ذلـك أن الشـكل الهنـدسي للعبـة الكـفِّ (Jeu de Paume)[1] مثـاليٌّ للأغنيـة. عـلى نحـو فريـد، شُـيِّد طابقـاه مـن المقصـورات والشُّرَّافـات في الأعـلى مـن الخشـب بالكامـل، بـلا أحجـار عـلى الإطـلاق، وحتَّـى مـع سـتمائة فـرد يجلسـون داخلـه، فهـو يحـاكي الجسـد الخشـبي الرَّنَّـان لآلـة موسـيقية.

(1) () لعبـة رياضيـة ظهـرت في زمـن الثـورة الفرنسـية ومنهـا تطـورت لعبـة التنـس التـي نعرفهـا. كانـت تُلعَـب في سـاحة طويلـة وضيقـة بمقصـورات خشـبية عـلى جانبيهـا لجلـوس الجمهـور. (المترجـم)

القاعـة في المـسرح طويلـة وضيقـة -ليسـت مسـتديرة كـما هـو الحـال في قاعـات الأوبـرات العظيمـة الأخـرى-؛ ولهـذا فـإن الأغنيـة، مثـل كـرة لعبـة الكـف (Jeu de Paume) تتطـوَّح مـن أمـيرة إلى ابنـة عمتهـا، تنتقـل عـلى طـول القاعـة حتَّـى ترتـدَّ مـن الحـواف الرقيقـة للمقصـورات.

لم أدرك أيًّـا مـن هـذا حينهـا؛ لكننـي سـمعتُه فحسـب. لكـن فيـما أخطـو بحـذر قُدمًـا نحـو حافـة المـسرح، هـرعَ تاسـو ورائي بفتيلة مشـتعلة في يـده. صعـدَ السـلالم المغروسـة بسرعـة مُوقـدًا مصابيـح ألـواح الإضـاءة الجانبيـة. بـدأ المـسرح في التَّوهُّـج.

أطلقـت الشُّرَّافـات الرنـين في أرجـاء المـسرح عـلى ثـلاث جوانـب تحـت السـقف المطـليِّ بالزخـارف مبـاشرةً. تحتهـا كان طابقـان مـن مقصـورات ضئيلـة، كزنازيـن سـجن بحائـط واحـد مفتـوح، كلٌّ منهـا يمكـن الوصـول إليـه عـبر بـاب مُفـرد. عـلى أرض المـسرح، في الخلفيـة، انتصبـت صفـوف كثـيرة مـن مقاعـد طويلـة بـلا ظهـر، وأمـام هـذه، صفَّـان مـن اثنـي عـشر مقعـدًا مخمليًّـا.

"أين تجلس الإمبراطورة؟" سألتُه.

"هنـاك". أشـارَ بإبهامـه إلى أكـبر المقصـورات عـلى يسـاري. "حتَّـى يمكنهـا الدخـول مـن القـصر؟".

"ومَـن يجلـس هنـا؟" سـألت، مُشـيراً إلى صـفِّ المقاعـد تحتـي عـلى الأرض.

"ذوو الأصـوات المُزعجـة"، أجابنـي الرجـل الضئيـل. أمسـكَ بُسـلَّم يعلـوني مرَّتـين فـوق خشـبة المـسرح. "المسـتعرضون. نُسـمِّي هـذا الجـزء حظـيرة الثـيران. يتحدَّثـون في هـذه المقاعـد أعـلى مـن الممثلـين على خشـبة المـسرح".

"وماذا عن تلك النُّضُد القريبة من السقف؟ هل يمكنك رؤية أيِّ شيء من هناك؟ أشرتُ عاليًا إلى الشُرَّافات البعيدة.

"لا تستطيع رؤية نصف خشبة المسرح"، أجابني تاسو. "يُسمُّونها الجنَّة (Le Paradis)؛ ربما لأنها أقرب إلى السماء منها إلى خشبة المسرح".

"لكن لماذا يحبسون الناس في هذه الكبائن الصغيرة؟" قلت. "حتَّى لا يتحدَّثوا؟".

نخرَ. "مقصورات *(Loges)*"، صحَّح لي. "وأبوابها ليس لحبس الأغنياء في الداخل؛ بل لمنع الفقراء من الدخول. مُستعد؟".

"مُستعدٌّ لماذا؟" سألت، واستدرتُ فيما الضوء يخبو من الذهبي إلى الأحمر.

* * *

وجدتُ نفسي في جحيمٍ متأجِّج. كان كهفًا جحيميًّا. ألسنة نار مُتجمِّدة. أعمدة من حجارةٍ مُغضَّنة. نفق يؤدي إلى فتحة ساطعةٍ ما، بعيدة بُعد النجوم.

ظهرَ رأس تاسو عبر واحدة من الكمبوشات، سنجابٌ يُطلُّ من جحره. رفعت بصري إلى المصابيح الحمراء. "زجاج مصبوغ"، فسَّر. "مُستعد لما هو قادم؟" سألَ. اختفى رأسه قبل أن أُومئ بالموافقة.

سمعتُ طقطقة خطواته وأنين العارضة تحت قدمَيَّ. بغتةً -سريعًا بما يكفي للسهو عنه لو كنتُ رمشتُ- غادرنا الكهف الموحش إلى حقول جنَّة عدن. كانت الأشجار تنحني على نبعٍ. أغواني حقلٌ من العشب الناعم بالنوم. فور أن شرعَ جوادان بالغناء، ملأ الأمل قلبي. في مكانٍ كهذا سنكون أنا وأماليا معًا ذات يوم.

برزَ رأس تاسو من تجويفٍ آخر. "ترى؟" كان كل ما قاله.

"فعلتَ كل هذا؟" سألتُ، مشيراً إلى ستارة المسرح الخلفية.

"أوه!" قال. "احتاج الأمر جيشًا لإتمامه. نسبوا الفضل لكواليو. لا أحد يذكر تاسو. يجذب الحبال فحسب".

"ما هو شعور أن تشاهد أوبرا؟" سألتُه.

"لا أعرف"، قال. "لا أرى شيئًا من هنا في الأسفل".

"ألم تشاهد أوبرا من قبل قطُّ؟".

هزَّ رأسه. "لا أكترث".

"لا تكترث!" قلتُ. "يومًا ما سأغنِّي أمامك عن الحب. وحينها ستُغيِّر رأيك".

طرفَ بعينيه. "الحب؟" قال.

"نعم"، قلت، بأكبر ما في مقدوري من زهوٍ. "الحب".

نخرَ. "لديَّ طرق أفضل لقتل الوقت ". ثم اختفى في أخدوده.

(6)

في التاسـعة، وصـلَ ثلاثـة عُـمّال مـسرح ذوو وجـوه كالحـة. بعـد ذلـك، لم يغـادر تاسـو كهفـه قـطُّ. أطـلّ برأسـه مـن كمبوشـة وصـاح، "شـحِّموا كل ثلـمٍ وكأن الإمبراطـورة سـتأتي. دوراتسـو سـيكون في غضـون ثلاثـة سـاعات مـع المايسـترو! أقـل صريـر وسـيطالب برؤوسـكم!" انسـلَّ الرجـال الثلاثـة خلسـةً في كتلـة واحـدة، وكأنهـم مُقيَّـدون معًـا بأغـلالٍ في كواحلهـم. في الحاديـة عـشرة، ظهـرت فرقـة المـسرح الألمانيـة. أجـرَوا بروفـات لسـاعة، وطـوال عشريـن دقيقـة سُـمِحَ لي بالجلـوس في "حظـيرة الثـيران" ومشـاهدتهم، لكـن المشـاهد أصابتنـي بنوبـات شـديدة مـن الضحـك الدامـع لدرجـة أن المخـرج العابـس هتـفَ بغتـةً، "اخـرج ولا تَعُـد حتّـى تسـتطيع احتـواء ضجيجـك".

في الثانيـة عـشرة اقتحمـت الفرقـة الفرنسـية المـسرح، مقاطِعـةً البروفـة بأصواتهـا العاليـة. بـدا تمثيلهـم مُمـلًّا في نظـري، وأتوقَّـع أننـي كنـتُ لأجده كذلـك حتّـى لـو فهمـتُ الفرنسـية. في الواحـدة، اسـتولت فرقـة باليـه

أنجيوليني على خشبة المسرح، كانت رائعة بلمحات خاطفة، ووددتُ لو بقيتُ أشاهدهم للأبد لولا أن أنجيوليني كان يُوقف راقصيه بين كل خطوة وأخرى ليُطلق فيهم السباب بإيطاليّته المُبهجة.

لا أثر لتاسو، لكن عندما هتفوا، «أضواء!» ارتفع مصعد أضواء المسرح كالشمس على المُمثلين. «ستارة!»- وانغلقت الستارة كما لو بفعل السحر. لم أرَ وجه صديقي الجديد ثانيةً حتَّى وصلَ رجال مسرح ڤيينا العظماء في الثالثة، ولاحَ رأس تاسو من كمبوشة في أرضية المسرح للإيماء إلى سادتِه، الذين تعرَّفتُ عليهم من الأمسية السابقة. ثم اختفى تاسو، ولم أعُد أسمع سوى الأسطر شديدة الخفوت من تحت خشبة المسرح، فيما دوراتسو وجلوك وكالزابيجي يومئون ويفركون ذقونهم عندما يصرخ كواليو، «حسنًا، والآن امنحونا اليونان». «الكهوف، الكهوف! الحقول! أسرع يا رجل. لا تجعل هؤلاء الرجال ينتظرونك كثيراً!». تبدَّلت المشاهد بسلاسة، بلا صرير. تأمَّلَ هؤلاء الرجال المُهمُّون في كل مظهر خلفي بتقطيبةٍ؛ بأباهيمهم تضغط على حزٍّ أبيض في ذقونهم. وجدَ كلٌّ منهم تفصيلة أثارت استياءه. وعدهم كواليو بإحداث تغييرات.

أخيراً، في الرابعة، وصل جوادانى. هببتُ واقفًا لتحيَّته، لكنه خطا متجاوزني أنا والرجال الآخرين؛ لم يرَ سوى خشبة المسرح.

"نعم"، غمغمَ، عندما رفع تاسو المصابيح الحمراء فوق الكهوف. "هممم. نعم". ثم أغلق عينيه وراقبنا جميعًا فيما يتطوَّح جيئةً وذهابًا في الممر الأوسط، وكأنه يستدعي في عقله رؤيا لمستقبل هذه الأوبرا. فتحَ عينَيْه وأومأ، وأجابه الرجال الآخرون بإيماءةٍ. ثم ارتقى خشبة المسرح وخطا في عدة دوائر. لوَّح بيده على لحنٍ في رأسه، وطنطنَ الرجال الأربعة العجائز في رضا. "الآن امنحني الحقول"، أمرَ جواداني الهواء. سمعتُ تاسو يهرع بأسرع ما يستطيع تحت خشبة

المسرح. سقَطَ الستار الخلفي، انزلقت الأُطر الجانبية الجديدة في موضعها، تحوَّلَ الوهج المتَّقد إلى شمس الغروب. استدار جوداني ببطء، ثم هزَّ رأسه. "لا"، قال. "لا".

"ما المشكلة؟" سأله كواليو، كخادم مطيع لأميره.

"(إنها) المشكلة"، قال جوداني. لوَّحَ بيده واستدار مُبتعدًا عن الرسومات البديعة، وكأنه لا يطيق النظر إليها.

"كيف ذلك؟" توسَّلَ كواليو، فيما يخطو تجاه خشبة المسرح، لكن جوداني نزلَ بسرعة وتخطَّى كواليو في الممر الأوسط. نادى رسَّام المشاهد في إثر المُغنِّي، "ما هي المشكلة بالضبط؟".

توقَّف جوداني، لكنه لم يستدر. هزَّ رأسه. "أنا أغنِّي"، قال بهدوء. تطلَّع من فوق كتفه في اتِّجاه كواليو دون أن ينظر إليه على الأخص. "وأنت ترسم".

خطا جوداني ناحية المخرج. نادى جلوك في إثره، "لكن لا تريد أن ترى الرسومات الأخرى... اليونان، المعبد؟".

تابعَ جوداني. "ليس اليوم"، أعلنَ بشكل قاطع. "ليس اليوم".

"لكن متى؟"، ازداد صوت جلوك يأسًا. "الوقت اللازم للتغييرات ينفد بسرعة!".

لكن لم يَبدُ أن جوداني قد سمع السؤال. اتَّجه إلى بهو المدخل. خرجتُ من الظلال وخطوتُ لأسير جانبه. "ألن تغنِّي؟" سألته. لم يتوقَّف مع ذلك؛ ولهذا اضطررتُ للتراجع مُتعثِّرًا لأتجنَّب الاصطدام به، لكنني اصطدمتُ بالمقاعد ثم ارتطمتُ بالباب. للحظةٍ انهصرَ فيها قلبي، خشيتُ أن عرضه في الليلة الفائتة لم يكن سوى دعابة قاسية.

حملقَ جوداني في وجهي، مُنزعجًا من المقاطعة. "آها!" قال أخيرًا، وأطفأت ابتسامته المفاجئة مخاوفي. "موزيكا(نا) السويسري!" أمسكَ

بذراعي وجذبني برفق بعيدًا عن الباب حتَّى يستطيع فتحه. "أغنِّي؟ الليلة؟" تنشَّقَ. "لا، ليس الليلة. ليس غدًا. ليس الأسبوع القادم. أواخر سبتمبر ربما. ربما ليس قبل أكتوبر". أشارَ بمكرٍ إلى الرجال خلفه الذين ما زالوا يحدِّقون فاغري الأفواه في اتِّجاهه. "درسي الأول لك: أبدًا لا تمنحهم كل ما يريدون وإلَّا سيلتهمونك وكأنك فطيرة زلابيا (*Knödel*). أبدًا لا تجعلهم يظنُّون أنهم روَّضوك يا شقيقي (*mio fratello*). أبدًا". جذبني برفقٍ إلى ردهة الدخول الصغيرة وقرصني في ذراعي. "كلب الصيد الشجاع، فور أن يُجرح، يستلقي بهدوء في الزاوية. للأسف (*Purtroppo*)، هذا ما صارَ إليه كثيرٌ منَّا: نُدغدغ أميرةً قبل العشاء بغنائنا حتَّى نجعلها تحتسي النبيذ؛ ندغدغها بعد العشاء بأصابعنا حتَّى نتشارك فراشها من الريش".

هزَّ جواداني رأسه ورفعَ إصبعًا أمام وجهي. "أنا مختلف. عندما تطلب مني دوقةٌ أن أغنِّي لها، أخبرها أن لا وقت لديَّ. عندما يطلب ذلك أميرٌ، أنا مريض. هذا جزء من عملية الصيد. ولمَن لا يستطيع القتل، يصبح الصيد كلَّ شيء. تعال".

قادني إلى المخرج. عبر الباب السميك كان بمقدوري تبيُّن أصوات حشدٍ جائع: أصابع تكشط في الخشب، نساء يتداخلن في بعضهنَّ البعض، أصواتٌ تنادي، "جايتانو، أوه، جايتانو!" وقفَ أربعة جنود من حرس الإمبراطورية جاهزين لحمايتنا من الغوغاء.

"دعهم يلمسونك"، نصحني جواداني. "لكن أبدًا لا تدعهم يمسكونك". أومأَ، فانفتح الباب.

لم يكن الرجال والنساء الذي ينتظرون في الخارج من الفلَّاحين الذي كنتُ تَشارَكتُ معهم فراشي على رصيف الميناء. كانت النساء يرتدين أزياءً بديعة. بذهبٍ ومجوهرات فخيمة تسطع على أعناقهن. وراء

الحشـد كان يقـف صـفٌّ مـن العربـات التـي كانـت تطـلُّ منهـا سـيدات الطبقـة الأعـلى عـبر سـتائر مـن الدانتـلا.

خطـا جـواداني إلى وسـطهم. أحـاطَ بنـا الجنـود ودفعـوا الحشـد بعيـدًا بمـا يكفـي فحسـب حتَّـى تتمكَّـن الأيـادي الممـدودة عـن آخرهـا مـن مَـسِّ الموزيكـو العظيـم برفـق. بـدا جُـواداني وكأنـه يـرى كل يـدٍ -حتـى تلـك التـي وراءه- ويُمسِّـد كل يـد. تنـاول بعـض الأصابـع بـين أصابعـه لوهلـة. لكـن لم تحـاول أيُّ يـد الإمسـاك بـه -أو امتلاكـه- أيٌّ مـن هـذه لم تجـد مُسـتقرًّا لهـا. ألقـت قبضـات مضمومـة بقصاصـات أوراق، بأشـعار حُـبٍّ مخربشـة عـلى كلٍ منهـا.

قرصتني أصابع.

نتَفَت شعري.

مزَّقـوا ملابـسي حتَّـى يعتـصروا مَزقـات معطـف بوريـس على شـفاههم؛ فقـط لأننـي كنـتُ أخطـو بجانـب الطـواشيِّ العظيـم. أفـواهٌ جائعـة بـدت وكأنهـا تكتـم ألسـنةً هائجـة فيـما يمـدُّون أيديهـم إلينـا كفلَّاحـين يندفعـون طلبًـا للخبـز وسـط مجاعـة. معظـم الوجـوه كانـت لنسـاء، لكـن بـين لحظـةٍ وأخـرى كان رجـلٌ يناضـل بـين الحشـد؛ كان بعضهـم يرتـدي أقنعـة احتفاليـة لإخفـاء وجوههـم. عـرضَ رجـلٌ مـن المُقنَّعـين خاتمًـا مـن الياقوت. قبَّـل جـواداني الجوهـرة ووضعهـا في جيبـه. كانـت السـيدات يصرخـن بصـوتٍ حـادٍّ فيـما الآخـرون يدفعونهـن إلى الخلـف. مـدامٌ متكالبـة تجذب شـعر أخـرى. محـاور عربـات تَـصرُّ فيـما قوافـل مـن الشـقيقات يتقاطـرن خارجـاتٍ مـن أبوابهـا.

اختـارَ جـواداني عربـةً واحـدة مـن المعمعمـة. وراء البـاب، أرسـلت لـه امـرأةٌ إشـارةً تخلـو مـن إلحـاح الأخريـات، وكأنهـا تنـادي نـادِلًا فحسـب. انحنـى جـواداني وقبَّـل يدهـا. لم تبـدُ حتَّـى أنهـا شـعرت بلمسـته، لكنهـا تطلَّعَـت إلى مـا وراء رأسـه المُنحنـي لـكل هـؤلاء المُتعبِّديـن الـذي

يحسدونها على امتيازها. كانت امرأة جميلة؛ رداؤها من حرير أخضر أملس، حِلْيَتها تلتمع على عنقها، بلا أيِّ جزء في وجهها يشي بنقيصة واحدة، لكن جلدها الأبيض منحني الانطباع أنه بارد، وتيقَّنت أن لمسةً واحدة من أصابعها على عنقي ستبعث القشعريرة في أوصالي. لم تكن شابَّةً، لكنَّ وجهها وجبينها الأملسَيْن، عديمَيْ التعابير، جعلاها دائمة الشباب.

"ستأتين وتسمعين غنائي لأورفيوس الجديد؟" سألها جواداني.

"بالطبع"، أجابته المرأة. "مقصورتنا تمتلئ دائمًا عندما يغنِّي جواداني".

انحنى مُجدَّدًا.

"مَن هذا؟" سألَت وتطلَّعت إليَّ. دفعَ الحُرَّاس الحشد بعيدًا، لكن فتاة جائعة كانت ما تزال تجذب في قميصي المُرتخي.

"هذا، سيدتي الكونتيسة"، أجابها جواداني، وكأنه يكشف النقاب عن كنز، "هذا تلميذي الجديد".

هل كانت تلك غمزةً من مُعلِّمي إلى تلك المرأة؟ لم أحب ابتسامتها. استدارَ جواداني إليَّ. "يُشرِّفني أن أقدِّم الكونتيسة ريشر، أكثر نساء ڤيينا سحرًا".

كنتُ بدأتُ في الانحناء، لكن رأسي انتترَ لأعلى عندما سمعتُ الاسم. تأمَّلتُ في وجهها. بدت عيناها الخضراوان الباردتان وكأنهما تقبضان على تحديقتي داخلهما.

"آمل أنه يغنِّي أفضل من تلميذك السابق"، قالت بابتسامة عريضة.

أنصتُّ إلى ظلام عربَتها. هل كانت هناك أنفاس؟

منحها جـوادانى نظـرةً وهـزَّ كتفيـه اسـتهانةً. "لا يتحـدَّث الإيطاليـة *Non parla italiano*".

هزَّت الكونتيسة رأسها ومنحت جواداني نظرةً مُستاءة.

"إذن"، قالت لي بالألمانية، "كيف تشعر وأنت لديكَ مُعلِّم مشهور؟".

هـل ابنهـا لديـه هاتـان العينـان الخـضراوان أيضًـا؟ وهاتـان اليـدان المضمومتـان أمامهـا- هـل لامَسَـت محبوبتـي اليـوم؟

"هل يتحدَّث أيَّ لغة؟" سألَت جواداني.

"يبدو أنه مفتونٌ بجمالك، سيدتي الكونتيسة".

هــزَّت رأسـها ومنحتنــي ابتسـامةً مُبتهجــةً. اسـتدارت مُجـدَّدًا إلى جــوادانى. "لا بُــدَّ أن أســمعك تُغنِّــي"، قالــت. "ســأقيم حفلــةً صغــيرة".

"أنا مشغول بشدَّة، سيدتي".

"بعـد ثلاثـة أسـابيع"، قالـت. ثـم ناولـت جـواداني قصاصـة مـن الـورق. فضَّهـا، ورأيـتُ أنهـا لم تكـن تحـوي سـوى رقـم. فكَّـرتُ أننـي لمحـتُ ومضـة اندهـاش تعـبر وجـه المُغنِّـي.

"معظم الناس يكتبون إليَّ بقصائد حب"، قال، "للتَّزلُّف إليَّ".

هـزَّت كتفيهـا اسـتهانةً. "لتكـن هـذه شـهادةً عـلى مشـاعري إذن، تلـك التـي تـسري عميقًـا جـدًّا". تحدَّثَـت بـلا انفعـال.

"سـأفكِّر في الأمـر"، قـال جـواداني. وضـعَ قصاصـة الـورق في جيبـه. مـدَّت يدهـا إلى جـواداني لتقبيلها مُجـدَّدًا. أبقـى عينَيْـه عـلى عينيهـا فيـما ينحنـي للأمـام.

ابتسَـمَت إليَّ مُجـدَّدًا؛ ومـضَ لسـانٌ عـبر شـفتَيْها الرقيقتَـيْن. "بالطبـع، إذا حـضرتَ، اصطَحِـبْ معـك تلميـذك السـاحر". ثـم تراجَعَـت واختفـت داخـل عربتهـا، وفيـما تبتعـد، ابتلعنـا الحشـد مُجـدَّدًا. هـذه المـرَّة، كنـتُ

في غايـة الذهـول عـلى أن أتحـاشى الأيـادي. تمـزَّقَ قميـصي مـن تحـت معطفـي فيـما أنصـتُ إلى كل صـوتٍ مـن أصـوات كبـيرة آل ريـشر: تكتكـة بـاب العربـة المُغلِـق، توجيهاتهـا المُقتضبـة لسـائقها، فرقعـة السـوط، طقطقـة العجـلات عـلى أحجـار الشـارع.

راقبهـا جـواداني فيـما ترحـل. "إنهـا شـنيعة"، قـال بهـدوء، فيـما يدفـع بخشـونةٍ الأيـادي مـن حولنـا. "لكنهـا ثريـة جـدًّا، في غايـة الـثراء. أعتقـد أننـي لا بُـدَّ أن أبـارك حفلتهـا بصـوتي".

* * *

كان أكـثر مـا شـغلَ بـال جـواداني عنـد مغـادرة مـسرح بـيرج هـو أن أرتـدي ملابـس تليـق بتلميـذ للطـواشيِّ العظيـم. فصَّـلَ لي خيَّاطُـه الإيطـالي عـدَّة معاطـف ملسـاء، طويلـة، مُوشَّـاة، تتـماشى مـع زيِّ الطـواشي. في المـرآة، تأمَّلـتُ نفـسي فيـما الخيـاط يعمـل بالخيـوط الذهبيـة- سرعـان مـا تراقَصَـت القـرود عـلى صـدري.

"مُتقـن"، قـال جـواداني عندمـا تزيَّنـتُ كـما ينبغـي بالذهبـيِّ والمخمـلي، بحـذاء مُسـتدق. "بديع".

في نفـس تلـك الأمسـية الأولى، فيـما نمـضي في عربتنـا عائديـن إلى منزلـه البـاذخ، الـذي كان بمثابـة بيتـي أنـا أيضًـا في ڤيينـا. سـألته متـى سـيبدأ في تعليمـي الإيطاليـة حتَّـى أسـتطيع غنـاء أوبراتـه. كتـمَ ضحكـةً وأشـاح بنظـره إلى خـارج العربـة. "كُـن صبـورًا"، قـال. "كُـن صبـورًا. سـيكون عليـك تعلُّـم الكثـير. الغنـاء سـيأتي لاحقًـا. تـرى، قبـل أن يسـمحوا لـك بالصعـود عـلى خشـبات مسـارحهم، قبـل أن ينصتـوا إلى غنائـك حتَّـى، لا بُـدَّ أن يؤمنـوا بـك". تفحَّصنـي بتمعُّـن، مـن رأسي إلى قدمـي، وبهـذه الكلمـة الأخـيرة، تمـاوجَ منخـراه. "عليـك أن تكـون موزيكـو قبـل أن تتمكَّـن مـن الغنـاء كموزيكـو".

وصلنا إلى منزله.

"لكنني كذلك"، همستُ بخجل، "أنا موزيكو".

"لا"، قال بقسوة، وطقطقَ بلسانه. "أنت طواشيٌّ". تحدَّتني تحديقته على أن أشكِّكَ في هذه الحقيقة. فتح بوريس الباب للعربة. "وأنا موزيكو".

"إذا علَّمتني الإيطالية ربما يكون بمقدوري...".

رفعَ إصبعًا لمُقاطعتي. "سأعلِّمك ما يجب أن تعرفه"، قال، ثم تقدَّمَ وأنا في إثره إلى منزله.

* * *

كنتُ ظلَّه. تمامًا كما لم يكن يذهب قطُّ إلى أيِّ مكان دون ملابسه الأنيقة، وعربته الفخيمة، والابتسامة المُتكلِّفة المُبتهجة على وجهه، لم يكن يخطو إلى أيِّ مكان بدوني أسيرُ في أعقابه، كتلك الكلاب (*chiens*) منفوشة الوبر التي تسحبها السيدات الفرنسيات وراءهن بالرَّسْن.

طوال أسبوعين لم يؤدِّ أيَّ غناء، وكان درسه الوحيد لي أنه أعظم مخلوق على هذه الأرض. كنتُ في منزله، أتناول العشاء معه، أتبعه في أنحاء ڤيينا متى أحبَّ؛ يرسلني بعيدًا عندما يتطلَّبُ صيده الحميمية والخصوصية. أحمل معطفه عندما يكون الجوُّ دافئًا، أفتح الأبواب حين لا يتوفَّر بوَّاب. أدلف إلى الحفلات الساهرة عند مِرفقه، حتَّى تُفرِّقنا حشود المُعجبين.

في حفلتنا الساهرة الأولى، بعد أن أزاحني المُعجبون إلى زاوية مُقفرة، ظهرَ بغتةً مُمسكًا بذراعَيْ شقيقتَيْن؛ ابنتَيْن حمقاوين لدوقٍ ما. بدا أنفاهما التوأم الخشنان وكأنهما يتهدَّلان فيما يُمرِّرهما إليَّ، لكن فور أن اختفى مُجدَّدًا في الزحام، استدارتا إليَّ بابتسامتَيْن مُتطابقتَيْن وقالتا، اجعلنا مِلكك.

"ما اسمك *Comment t'appelles-tu*؟" قالت الفتاة الأقل بشاعةً بقَدْر طفيف من شقيقتها.

ضيَّقتُ عينَيَّ تجاهها، ساعيًا أن تُشرِّح أذناي هذا السؤال البسيط الذي قد يكون مفتاحَ هروبي. لكن هذا كان بلا فائدة.

"آها"، جرَّبت. "هممم". تضاحكت الشقيقتان والتصقتا بصدري بدفءٍ أكبر. حاولتُ التراجع، لكن سرعان ما وجدتُ نفسي مُثبَّتًا على الجدار. لمحتُ سيدي في الحشد. غمزَ لي.

أغلقتُ عينَيَّ وتظاهرت أنني جرسٌ يتدلَّى بصمتٍ في الزاوية. عندما فتحت عينَيَّ مُجدَّدًا، كانت الحفلة الساهرة قد فَرَغت بالكاد ووجدت الشقيقتان فريسةً أخرى أكثر انصياعًا.

* * *

ولا لثانية واحدة غابَ هدفي عن ناظريَّ. عبر مُعلِّمي الجديد كنت سأجد فرصة للدخول إلى سجن أماليا(تي)، لكن ثلاثة أسابيع بدت كانتظارٍ أبديٍّ؛ لهذا لم أتخلَّ عن فكرة النجاح بطرقٍ أخرى. في الصباح، عندما ينام جوداني أو يرسلني بعيدًا، كنتُ أتسكَّع في الشارع المُواجه لقصر ريشر، على أمل أن أراها بشكلٍ خاطف في واحدة من العربات التي تغادر البوابة. تخيَّلتُ الركض بجوارها فيما أُغنِّي رسالةً سرِّيَّة. "أوقفوا العربة!" ستصيح هي، ثم تهبط وتعانقني في الشارع، ثم يُهلِّل كل بائس مسكين آخر في ڤيينا لاتِّحادنا مُجدَّدًا.

وا أسفاه، لم يكن هذا ليحدث أبدًا. كانت ستائر العربات مُسدلة دائمًا، وأبدًا لم تُطلَّ عينان زرقاوان متألِّقتان من بينها. أحيانًا في الليل كنتُ أتسلَّل إلى القصر وأتفحَّص الواجهة الخارجية لإيجاد طريقة جديدة ما للدخول خلسةً. لكنني وجدتها محكمة الإغلاق أفضل من أيِّ منزل في سانت غال. ذات ليلة حاولتُ تسلُّق الحوائط لمعرفة ما

إذا كان من الممكن اقتحام نافذة علوية ما. عندما وصلتُ إلى ضعف طولي من عن الأرض خذلتني أصابعي. في الصباح ازرقَّ كاحلي وتورَّم.

كل يوم، في الظهيرة، لساعتين مُباركتَيْن، كان سيدي يُغنِّي. كان يتمرَّن في الأغلب على مسرحية أورفيوس الجديدة التي كتبها جلوك، مُكرِّرًا الألحان والإلقاءات المُنغَّمة مرَّةً تلو الأخرى حتَّى يصل إلى تلك الدقة التي اشتهرَ بها. أحيانًا ما كان يختار ألحان آريا أخرى (من مقطوعات هاندل غالبًا) يرغب في إبقائها مشحوذةً حتَّى يجدها عندما يحتاج إلى سلاحٍ في صيده. كنتُ أستلقي على أريكتي وأنصت لتشكيلِه الموسيقيِّ الاستثنائي يتردَّد عبر المنزل. أستظهر الموسيقى فيما بوريس المُطيع يجلب لي الشاي والكعك. "نعم يا سيدي"، يقول عندما أطلب كأسًا أخرى. و"لا يا سيدي"، عندما أطلب منه الجلوس واحتساء الشاي معي. في بضعة أيام فحسب، تحوَّلتُ من فلاح بائس أدنى منه بكثير إلى سيدٍ ثانٍ يعلوه بمسافات. الرِّفقة، تقول كل نظرةٍ عابرة من وجهه، هذا ما لن نجده معًا أبدًا.

مَسَّني غناء جواداني في أعماقي، لكن سرعان ما استحوَذَت عليَّ الألحان في الشكل الذي كان ينبغي أن تتَّخذه -أو كان لها أن تَّتخذه- لو غنَّيتُها أنا. أدركت أذناي المُدرَّبتان نقائص جواداني، والتي كانت كثيرة في الحقيقة؛ ولهذا كان ما وصلَ إلى سمعي في النهاية خليطٌ ضبابي من أغنيَّته والأغنيَّة التي في خيالي. كنتُ لأغنِّيها بنفسي، ربما كنتُ لأتهوَّر بما يكفي لأثبت لجواداني أنني قادر على الغناء، لكن مع اقتناص أذنَيَّ للأصوات، كان انتقالها إلى شفتَيَّ ولساني سيستغرق وقتًا. كان عليَّ أن أتعلَّم الإيطالية، أن أقرأها بحيث أستطيع إدراك أشكالها ومعانيها. لكن مُعلِّمي يحول بيني وبين ذلك. عليَّ أن أجد مُعلِّمًا آخر.

ثم وجدتُه ذات يومٍ: ذئبٌ عابسٌ، محصورٌ في زاوية.

(7)

كنـتُ أسـير في قلـب المدينـة، ضائعًـا في تلـك الشـوارع التـي تشـبه المتاهـة، بعدمـا ترصَّـدتُ خـارج قـصر ريـشر حتَّـى الظهـيرة، وقـرَّرتُ تجربـة مسـار أكـثر مبـاشرةً إلى المنـزل. كنـتُ تائهًـا الآن، وبالتأكيـد فـوَّتُّ موعـدي مـع سـيدي، لتنـاول العشـاء مـع أمـيرةٍ وشـقيقتها. بحثـتُ عـن علامـةٍ مألوفـة، أو حتَّـى لوثـر مُتخابـث، لكـن الشـارع كان خاويًـا، أو خاويًـا تقريبًـا؛ ذلـك أن رجـلًا واحـدًا كان ينتظـر عنـد مدخـل منـزل بكتابٍ قريـبٍ مـن وجهـه. لم أتمكَّـن مـن رؤيـة شيء مـن جلـده سـوى يديـه المُشـعِرَتَيْن. كان يرتـدي ملابـس مُهندمـة، لـولا أنهـا كانـت مُتغضِّنـة حـول فخذَيْـه وكأنهـا شـوال مشـدود عـلى خـصره. لم ألـقِ لـه بـالًا، حتَّـى مـررتُ بـه، وحينهـا أبـدى سـعلةً مُنظِّفـةً للحلـق واجـترع الهـواء كأنـه سـائل.

ذلك الصوت!

ملأني ببهجة، وكأنه الشمس تخترق السحب في شتاء بارد. انتزعتُ الكتاب عن وجهه ووثبتُ ناحيته. ظنَّ أنني قاطع طريق وحاول ضربي. لكنني ثبَّتُّه في مكانه.

"ريموس!" هتفت. "هذا أنت حقًّا!".

كان صديقي! تلك التقطيبة البشعة! ذلك الشَّعر المُشعَّث! ذلك الأنف المعوجُّ! ناديتُ اسمه ثانيةً في بهجة. ذلك الاسم، الذي لم يخاطبه به قطُّ سوى شخصين فحسب، كان كالتعويذة. ذابت التقطيبة. صار ذلك الوجه، الذي لم يكن قطُّ سعيدًا وحزينًا؛ سعيدًا وحزينًا في آنٍ. ضغطَ بوجهه في ياقتي، وانتحبتُ في شعره المُلَبَّد وكأنني أستقي دموعي من بحيرةٍ.

"موسى! أنت هنا!".

"وأنت كذلك!" قلت. "في ڤيينا!".

"رفضوا استقبالنا في مِيلك. لا بُدَّ أن شتاوداخ قد أرسل بخطاب. حاولنا أن نرسل بخطابات إليك، لكن أخشى أنها اعتُرِضَت".

"لقد اعتُرِضَت". قلت.

"حمدًا للرَّبِّ أنني وجدتك الآن! العالم شاسع جدًّا".

"هناك الكثير لأحكيه لك!" قلت.

"انظر إلى ملابسك"، هتفَ، دافعًا إيَّاي حتَّى يتمكَّن من إلقاء نظرة على معطفي الموشَّى، ثم عانقني بقوَّة مُجدَّدًا. تقدَّم في العمر -بشعره الرمادي، لم يكن هناك شكٌّ في ذلك- لكنني كنتُ على ثقة أنه لم يَبدُ بخيرٍ هكذا قطُّ. لوهلة تخضَّب وجهه.

"ونيكولاي! أين نيكولاي؟" تطلَّعت من حولي آملًا، وكأنني أتوقَّع أن يظهر بغتةً من أحد الأبواب مُنشدًا أغنية راقصة مَرحة.

تصلَّبَت ابتسامة ريموس. أومأ بتجهُّم. "إنه هنا"، قال.

أجفلتني نبرته. "ريموس، ما الأمر؟".

أجالَ ريموس بصره عبر الشارع، كان ريموس العجوز، الذي لم يكن لينظر في عيني، قد عاد. "نيكولاي تغيَّرَ كثيراً. إنه مريض".

"مريض"، قلتُ، عاجزًا عن تصديق أن الدُّبَّ قد يصاب بأيِّ مرض. "لكن هل سيتحسَّن قريبًا؟".

هزَّ رأسه وأشاحَ بنظره. استغرق في الصمت.

"أخبِرني يا ريموس. أنا صديقه".

أومأَ. "أعِدُكَ بأن أخبرك بكل شيء. لكن أولًا، من الأفضل أن تراه. احكم بنفس. رؤيتك سترفع من معنوياته حقًّا".

"إذن فلم ينسَني؟".

"ينساك؟" ضحك ريموس، ضحكةً قاسية وحزينة للغاية -لم أتذكَّر أنني سمعتُه يضحك قطُّ- لحدٍّ أنها أجفلتني. وضع يدًا على ذراعي، وأدارني إلى الشارع. "لا، لم يَنسَك. تعال، أنا في انتظار تلميذي ليفتح الباب، لكنه كان يشرب طوال الليل ولن يستيقظ ليتعلَّم درس اللاتينية. لن يخبر أباه، وبالتالي سيدفعون لي أجري. لا أحد يخسر، باستثناء القديس أوغسطين".

كانت الأعوام الخمسة هذه قد غيَّرت ريموس. كانت خطواته سريعةً، ولم يتردَّد فيما يقودني يسارًا ويمينًا عبر الشوارع الحلزونية. "هذا مملوك للأمير لاينبيرج"، قال، مُشيرًا لقصرٍ ذي نوافذ مُغبرَّة. "وذلك المسخ الهائل"، هزَّ رأسه تجاه قصر جديد بأحصنة رخامية تنتصب خارجةً من كل زاوية، "مملوك للكونت كيرسكي. وذلك، للأمير بارهايني؛ وذلك، للكونت ڤون بام".

"كيف يمكن أن يوجد أمراء وكونتات كثيرون هكذا في مدينة واحدة فحسب؟" سألته.

ضحكَ. "لا، يا موسى. ليست مدينة واحدة. بل إمبراطورية واحدة. وحتى مع هذا فهناك الكثير جدًّا منهم. البعض يحكم أراضي بعيدة؛ البعض لا يفعل سوى زيارة ڤيينا من وقت لآخر. آخرون لا يستطيعون إيجاد ضَيْعاتهم على خريطة. وآخرون لا يملكون أراضي على الإطلاق، بل مجرَّد لقب. الناس على استعداد لفعل الكثير لينالوا لقب "كونت". وهكذا، عندما تحتاج الإمبراطورة إلى أموال من أجل حروبها، تغصُّ هذه المدينة بالنُّبلاء".

قادني عبر الميادين الخضراء للمرة الأولى منذ وصولي إلى المدينة. تركنا القصور الحجرية لقلب المدينة وراءنا مُتَّجهين إلى منازل ضواحي المدينة نصف الخشبية. هنا كانت الشوارع أضيق؛ والأصوات البشرية أقل رُقيًّا: الأطفال تتراكض بلا أحذية فيما أمَّهاتهم يُعنِّفنهم من نوافذ مفتوحة؛ رجال يبصقون في الشارع بدلًا من المبصَقة؛ الأبقار ترتع في أكوام المُخلَّفات في الشارع بدلًا من ربطها في حظيرة.

ثم وصلنا إلى جزءٍ من المدينة كان بمقدوري التَّعرُّف عليه بأصواته المُخزية: إلحاحات الغانيات من أبواب ونوافذ الحانات المتهالكة التي تصطفُّ على طول الشارع الرئيسي في الحي. رآني ريموس أحدِّق في ذهول في كل سيدة مُلوِّحة. "مرحبًا في سبتلبيرج"، قال. "موطننا للثلاثة أعوام الفائتة. في الحقيقة، لا يوجد مكان أفضل لنا؛ ذلك أنه لا يوجد مكان أكثر بُعدًا عن دير شتاوداخ". لوَّح بيده إلى الشارع كدليل على ما يقوله. كانت النسوة يلقين بأسطال الماء القذر في طريقنا مباشرة. والرجال يدفعون بعربات يد مُحمَّلة بثمار كُرنب حامضة الرائحة. إلى ذلك كله، كانت الشوارع تغصُّ بالأطفال؛ يفيضون من المنازل، يصرخون من النوافذ المفتوحة، ينغزون العصيان في الفضلات المُتعفِّنة

على طول الشارع. في دفء أواخر الصيف، قليلون كانوا يرتدون القمصان ولا أحد يرتدي أحذيةً. فتاة صغيرة تجلس فوق أخرى وتدغدغها؛ شقيقتها الصغرى لا بُدَّ؛ ذلك أن كلتيهما كانتا بشعرٍ مُحمَرٍّ متوهِّج. أربعة صبيان يقفون على ركام حانة مُهدَّمة ويتصايحون بقواعد لعبة لم أفهمها. "تمَّ اختياره"، صاح أحدهم. "ثلاثة أحجار! ثلاثة".

لامَسَت يد ريموس مِرفقي، ليُعيدني إليه. "لم يكن الأمر هكذا دائمًا. قبل مائة عام، كان التُّجَّار من الجنوب والشرق يتوقَّفون هنا عندما يزورون المدينة الإمبراطورية. هذا الشارع الموحل كان مرصوفًا بالحجارة. هذه الحانات الرمادية الكابية كانت زاهية وبرَّاقة. كانت العربات تتزاحم في كل فناء. لكن الجيش التركي حاصرَ هذه المنطقة، لثمانية أشهر في عام 1683. استولوا على كل شيء ذي قيمة، ودمَّروا كل ما ليس له قيمة". أومأ ريموس إلى حانة مهجورة. لم يتبقَّ منها شيء سوى الواجهة الباهتة. على الجانب الآخر من النوافذ الخاوية كانت بضعة صبيان مُغبَّرين يسحقون الركام إلى تراب. "ابقَ بعيدًا عن الأزِقَّة في الليل"، تابع ريموس. "وإذا كنتَ تحمل أيَّة نقود، راقِبْ جيوبك".

وصلنا إلى عدَّة أزقَّة تؤدِّي صعودًا إلى تلٍّ، وفي زاوية واحدٍ منها توقَّفنا أمام منزلٍ من طابقين. كان في حالٍ أفضل من كثيرٍ من المنازل في الحيِّ، رغم أنه يميل إلى الجانب قليلًا. كان الطابق الأرضي يشبه حانة صغيرة، بكلمة واحدة مكتوبة على الباب: *Kaffee*.

"هنا"، قال ريموس. كانت القاعة الوحيدة مزدحمة برجالٍ على مقاعد طويلة. جميعهم يحتسي نفس السائل المُتبخِّر، ذي الرائحة اللاذعة، الفظَّة. بدا وأنه شراب مُتخمِّر سحري؛ ذلك أنهم كانوا جميعًا أسرى لنفس الحيوية مُتَّسعة الأعين. كانوا يخبطون على المناضد

ويبصقون بأحاديث ذاتية مُلحَّة في آذان بعضهم البعض. في الخلفية من كل هذا، كان رجل بشعرٍ كشعر الغربان يلعب دور المشعوذ؛ يطحن حبوب فاصوليا، سوداء كالموت، إلى مسحوق ناعم قبل خلطها مع ماء مغلي من سيماور.

تَبِعتُ ريموس إلى دَرَجٍ في الخلفية. توقَّف صديقي ووضع يدًا على كتفي. "لا تفزع"، قال، مُفزعًا إيَّاي. "هناك أيامٌ سِمان وأيامٌ عجاف".

ارتقينا الدرجات الضيقة، المُلتفَّة. فتح ريموس الباب ودعاني للدخول إلى مسكنهم المكوَّن من ثلاث غرف: ردهة استقبال، وغرفة نوم منفصلة لكل رجل وكل هذا معًا، كان أصغر من صومعة نيكولاي في الدير. في ردهة الاستقبال كان السقف يرتفع مستندًا على عوارض مائلة. قبالة واحدٍ من الجدارن كانت مدفأة خاوية. والستائر السميكة تغطِّي النوافذ الصغيرة الثلاثة؛ لذلك لم يكن هناك سوى وهج خافت، غير مباشر، ينير المكان. أكداس من الكتب كانت مكوَّمةً على المناضد وعلى الأرض على طول الحوائط، والهواء خانق برائحة التبن المُتيبِّس.

كان أحدهم يجلس في مقعد ذي مسندَيْن، ظهره ناحيتنا، لكنه كان رجلًا في غاية الضخامة لحدٍّ أنه حتَّى في الظلام كان بإمكاني تبيُّن أنه صديقي.

"نيكولاي!" هتفتُ وقد اختفى كل التوجُّس من صوتي. خطوت حول المقعد حتَّى أتفحَّص وجهه.

* * *

لسنوات طويلة بعدها، رأيتُ ذلك الوجه البشع في النواصي المظلمة لمدنٍ كثيرة: استدارته المتورِّمة؛ آثار القروح التي شُفِيَت منذ زمن طويل وتحوَّلت إلى ندوب؛ الأنف الناعم، المشوَّه، وكأن الدود قد

التهم غضروفه. كان ما يزال رجلًا ضخمًا، لكن الآن كان مستديرًا فيما كان رِبعةً من قبل. كان شعره ولحيته رماديَّيْن، وجلده شاحبًا.

"مَن هناك؟" سأل. اتَّجهت عيناه ناحيتي، لكن رفرفة جفنَيْه وشت بإخفاقهما. لا بُدَّ أنني بدوتُ ظلًّا بالنسبة له.

"سأفتح الستائر حتى ترى بنفسك"، قلت، محاولًا أن أبقى صوتي هادئًا وثابتًا.

"لا!" هتفَ بينما أمدُّ يدي نحو الستائر. هزَّ ريموس رأسه وهمسَ بأن عينَيْ نيكولاي لا تحتملان الضوء.

فما كان منِّي إلَّا أن ركعتُ بجوار صديقي القديم، أمسكت بذراعه، واقتربت بوجهي من وجهه حتَّى أتبيَّن الشحوب الإسفنجي لهذه الصمغات السِّفلسيَّة تحت جلده. جاهَدَت عيناه للتركيز على وجهي. شهقَ بغتةً. رفعَ يدًا مُرتعشةً ليُلامس خدِّي.

"هل هذا حقيقي يا ريموس؟ قل لي إنه حقيقي!".

"نيكولاي، إنه هو حقًّا. لقد جاء موسى إلى ڤيينا".

"ليباركنا الرب!" هتفَ نيكولاي وتناولَ يدي في كلتا يديه المتورِّمتَيْن وقرَّبني من صدره. انتحب على شعري، وبكيتُ على صدره، ثم رفع وجهه حتَّى ينظر إليَّ مُجدَّدًا. تمعَّن في كل تفصيلة بهاتين العينين الغائمتين حتَّى حفظها في ذاكرته.

"لقد كبرتَ جميلًا كما شِختُ أنا قبيحًا"، قال.

لم أعرف ماذا أقول؛ ذلك أنه حقًّا لم يكن ليمضي في الشارع دون أن يحدِّق فيه الناس وكأنه وحش مريع. لكنني لم أشعر بأيِّ نفور، أخبرته بهذا.

"أستحقُّ كلَّ هذا وأكثر"، قال.

"هراء"، قلت. "هذا هراء".

تطلَّع نيكولاي إلى ريموس ثم إليَّ. "ليس لديَّ شيء أفعله طوال اليوم سوى الجلوس هنا والتفكير في كيف خذلتُ الصديقَيْن الوحيدَيْن في حياتي".

"نيكولاي"، قال ريموس بحدَّة، "لا تَخُض في هذا الآن. ليس بعد. لنَكُن سعداء اليوم. لقد عاد موسى إلينا أخيراً".

"وأبدًا لم أتُق إلى شيءٍ أكثر من هذا"، قال نيكولاي، والدموع تلوح في عينيه، "حتَّى أخبره كم أنا نادم على ما فعلتُه. على ما فشلتُ في فعله".

"فشَلت؟" قلت. "نيكولاي، كنتَ أبًا لي. أنقذت حياتي! أبدًا لم أَلُمْك على أيِّ شيء".مكتبة سُر مَن قرأ

هزَّ رأسه. "لم يكن ينبغي أبدًا أن أتركك مع ذلك الرجل. كان علينا أن نغادر الدير قبلها بسنوات. كان العالم مفتوحًا أمامنا، وضيَّعنا فرصتنا".

"نيكولاي"، ترجَّاه ريموس، "ليس الآن. ستَـ...".

"كان علينا أن نرحل!" جأرَ نيكولاي في صديقه ثم غطَّى عينيه بيديه المرتختين، المتورِّمتَيْن. أحنى ريموس رأسه.

سرعان ما تحرَّكت يدا نيكولاي من وجهه إلى صدغيه، وسمعتُ أنفاسه تضيق فيما يستولي عليه الصداع، وتلك التَّورُّمات الطرية داخل دماغه تحتقن بالدماء. انبعثَ أنينٌ أسيان من حلقه المشدود، كأنفاسٍ متثاقلة لرجلٍ يختنق.

تناولتُ ذراعه وحاولت تهدئته. "نيكولاي، هل هناك شيء بمقدوري فعله؟".

لكـن ريمـوس كان يعـرف العـلاج الوحيـد، وخطـا ليجلب صبغـة الأفيون التـي صـارت خَـلاصَ نيكـولاي الوحيـد مـن الآلام. لم تكن لمسـتي قـد فعلت أيَّ شيء سـوى أنهـا فتَحَـت عينَـيْ نيكـولاي مُجـدَّدًا. غـادرت إحـدى يديـه صدغـه وقبَضَـت عـلى رسـغي بشـدَّة، لحـدٍّ أننـي خشـيتُ أن يحطِّمـه.

"اغفر لي أرجوك"، قال.

"لا يوجد شيء لأغفره".

ثـم عـاد ريمـوس، وصـبَّ الصبغـة في فمـه. لعَقهـا نيكـولاي بشراهـة. سرعـان مـا ذَوت عينـاه أكـثر، ثـم انغلقتـا. تراخـى في مقعـده.

وقفنـا أنـا وريمـوس وجهًـا لوجـه بجـوار صديقنـا لبضـع دقائـق، ثـم رفـع ريمـوس وسـادة وأسـند رأس نيكـولاي المُتهـدِّل. تلـكَّأت يـده عـلى خـدِّ صديقـه، كإيمـاءة حُـبٍّ لم أرَ مثلهـا مـن الرجـل قـطُّ.

ابتسم ريموس بحزن. "من الجيِّد أنك هنا يا موسى"، قال.

عانقتـه. كان جسـده مُتشـنِّجًا، غـير متجـاوب مـع لمسـتي، لكـن يـده عـلى ذراعـي لم تُفلتنـي لبضـع ثـواني. فيـما يفعـل، مسـحَ دموعًـا مـن عينيـه وأشـاح بنظـره، وكأنـه يشـعر بالعـار. قدتُـه إلى المنضـدة الصغـيرة المتهالكـة. جلـس عـلى مقعـدٍ وأخـذتُ الآخـر.

لدقائق طويلة لم يتحدَّث كلانا.

"خمسـة وأربعـون عامًـا"، بـدأ ريمـوس في الحديـث بغتـةً. "يَصعُـب تخيُّـل ذلـك بالـكاد. قـضى أكـثر مـن خمسـةٍ وأربعـين عامًـا في ذلـك الديـر، وطـوال كل تلـك الأعـوام تقريبًـا كان يتحـدَّث عـن الرحيـل. كانـت معجـزة أنهـم قَبلـوه حتَّـى- ذلـك الطفـل الـذي تُـركَ أمـام كنيسـتهم ذات ليلـة. أبـدًا لم يكـن الديـر ملجـأ أيتـام، ومـع ذلـك، مـن أجـل نيكـولاي، وضعـوا اسـتثناءً.

عندمـا قابلتُـه أوَّلَ مـرَّة كان عمـلاقَ الهيئـة بالفعـل. كان الراهـب المُبتـدئ الوحيـد الـذي لم يرفـض التَّحـدُّث معـي. وجـدتُ تشـوُّقه للعالَـم الأوسـع لا يُقـاوَم، لا بُـدَّ أننـا تحدَّثنـا عـن رؤيـة ذلـك العالَـم كل يـوم تقريبًـا طـوال ثلاثـين عامًـا. ثلاثـين عامًـا! ودائمًـا، في النهايـة، كنـا نبقـى بسـببي: كتُبـي وحاجتـي للهـدوء. أبـدًا لم نغـادر المدينـة. وعندمـا غادرنـا أخـيرًا، وذهبنـا إلى رومـا، كل يـوم، مـن أول يـوم، أردتُ دومًـا أن نعـود، رغـم أننـي أحببـت كل دقيقـة هنـاك. يـا اللـه، كنـتُ في غايـة السـعادة في الڤاتيـكان! لكننـي كنـت أقـول لـه كل يـوم، 'نيكـولاي، لا بُـدَّ أن نعـود للوطـن'، كنـت أقـول. 'أريـد أن نعـود إلى الوطـن!'".

وضع ريموس يدًا أمام فمه. أخذَ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع.

"تـرى، أبـدًا لم أسـتوعب وضعنـا. كنـتُ في غايـة الحماقـة. فقـط عندمـا رفضـوا استقبالنا في مِيلـك كان أن أدركـتُ الأمـر بغتـةً: لقـد بقينـا في ذلـك الديـر مـن أجلـه، ليـس مـن أجـلي. ذلـك اليـوم، فيـما نسـير هابطـين إلى الدانـوب بعـد أن رفضـوا اسـتقبالنا، اسـتولى عـليَّ الرعـب. 'نيكـولاي، لا بُـدَّ أن نعـود!' هتفـت. 'لِنَعُـد إلى الجبـال. ديـرٌ مـا سـيقبلنا!' كنـتُ عـلى اسـتعداد للذهـاب إلى أيِّ مـكان، إلى أيِّ مـكان مُتعفِّـن يدعـو نفسـه ديـرًا. بـلا كتـب؟ لم أبـالِ. كنـتُ لأعيـش معـه في كهـفٍ منعـزل. 'سـنجد ديـرًا آخـر'، قلـت. 'لا يسـتطيع شـتاوداخ أن يكتـب إلى كل الأديـرة'. 'هـراء'، أجابنـي. 'ألا تـرى؟ لقـد أرسـلنا الـرَّبُّ إلى ڤيينـا! نحـن أحـرار! أحـرار أخـيرًا!' مـوسى، هـذه الكلـمات كانـت كاللعنـة بالنسـبة لي، كعقوبـة مُنزلـة".

اسـتغرقَ ريمـوس في الصمـت لبضـع ثـوانٍ. نظـرَ إليَّ في عينَـيَّ. ربمـا كانـت المـرة الأولى في حيـاتي التـي أتطلَّـعُ فيهـا بعمـقٍ هكـذا إلى عينيـه. بـدت الدمـوع غريبـةً للغايـة عـلى ذلـك الوجـه المُتجهِّـم. "جعلنـي أخسـر إيمـاني بالـرَّبِّ يـا مـوسى"، همـسَ، مُنحنيًـا أقـرب. "تلـك القداسـة ذاتهـا التـي عبدتُـه مـن أجلهـا منـذ اليـوم الأول للقائنـا، عندمـا كنـتُ في الخامسـة

عشرة -ودفع أبي أموالًا ليُحبَس ابنه ناقص النُّموِّ بقيَّة عمره في الدير- ثم استدعَت تلك القداسة ذاتها الشيطانَ إلى هذه المدينة. قتلَ رجلًا. لا تخبره. لن يتذكَّر. رجلًا كان قد نعتَ عاهرةً بالعاهرة، ثم بصقَ في وجهها. طرحَ نيكولاي هذا الرجل في الشارع. ركلة واحدة كان كل ما يحتاجه لكسر عنقه. هلَّلَ الجميع وجلبوا له الشراب فيما جررتُ أنا الجثَّة إلى النهر.

"لقد أحبُّوه. احتسى شمبانيا الدوقات وشنابس الفلاحين. لم نحتَج إلى أموال. كانت لديه ابتسامته وضحكته. 'القديس بيندكت وذئبه!' كانوا يهتفون من نوافذ القصور، ومهما كان الوقت متأخرًا، كنا نضطرُّ للتوقف لاحتساء الشراب. كثيرًا ما كنَّا نبيت ليلتنا من أجل أغنية. الرجال والنساء. الأمراء والعاهرات. لَقيَ حُبًّا منهم جميعًا.

عندما ظهرت القروح، صارَ ميِّتًا في أعينهم بغتةً. أرسلَ إليه واحدٌ من المريدين بطبيب، ملأ جسده بالزئبق حتَّى لم يَعُد قادرًا على الأكل لشهر. نسيه الباقون، حتَّى عندما طرقَ على أبوابهم. في النهاية، أقامَ هنا فحسب، ولم يخرج قطُّ. يُحدِّق في كل قرحة جديدة لساعاتٍ ويراقبها تظهر. يراقب جمالها يخبو، يحدِّق في مرآته لساعات كل يوم.

ثم ذات يوم، بعد عامٍ من هذا، اختفت القروح. ورغم أنه صارَ قبيح الوجه، انطلق يصرخ في الشوارع، ويقتحم الحفلات ويصيح، 'لقد شُفيت!' لكنه لم يُشفَ. بدأت عيناه في الإعتام وازدادتا حساسيةً تجاه أوهى ضوء. ثم ظهرت التَّورُّمات -على ذراعيه وعلى عنقه- ومعها جاءت الآلام. أستيقظ ليلًا لأسمعه يئنُّ. بدأت أنفه في التَّهدُّل، بَدَت عظامها وكأنها تتحلَّل، وكأن بمقدوره أن يحملها في أصابعه".

استدارَ ريموس، وتطلَّع كلانا إلى صديقنا النائم. بدا المقعد الكبير ذو المسندَيْن وكأنه مقعد أطفال؛ انسدلَت ذراعا العملاق على المسندَيْن، وتفلطَحت ركبتاه. كانت الوسادة قد انزاحت، وسقطَ رأسه للأمام.

"وكنتَ أنت وحيدًا تمامًا"، قلت.

أومأ ريموس. "لكن أليس هذا ما تُقتُ إليه دومًا؟ أنا وهو وحدنا؟ في كهفنا الوحيد؟ ربما نلنا ما نستحقُّه حقًّا".

(8)

عندما يصفو الجو ولا يَعود لجواداني أيُّ تسلية أخرى، كان يأمرني بالدخول إلى عربته ويأمر حوذيَّه بأخذنا إلى غابات براتر أو إلى مُتنزَّهٍ ملكي آخر كان مسموحًا له بدخوله، ثم نقود لساعات على طول الطُّرق التي شيَّدها الإمبراطور لرحلات صيده. كنت أمقت تلك الأيام؛ ذلك أنها كانت تحرمني فرصة التَّسكُّع في الشوارع المحيطة بقصر ريشر. فيما نمضي بالعربة، دائمًا ما كنت أخشى أنه في هذا اليوم بالذات، من بين كل الأيام، ستختار محبوبتي اتِّخاذ بضعة خطوات في الشارع.

لكن في واحدة من تلك الظهائر، عميقًا في غابات براتر، بتسليتي الوحيدة متمثِّلَةً في نداءات الطيور على الأشجار وعجلات العربة على الحصى، قرَّرتُ أن أثبت لسيدي أنني أيضًا، لديَّ عقل. أنني، أيضًا، لديَّ قلبٌ مُتَّقد. سأثير مسألةً في غاية الأهمية لكلينا. سألتُ جواداني، "سنيور، مَن أخصاك؟".

حبستُ أنفاسي، منتظرًا ردَّة فعله. أغلق عينيه وهزَّ رأسه ببطء.

"شقيقي *Mio fratello*"، قال، "هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب ألَّا تسأله أبدًا لموزيكو".

اعتذرتُ وأغلقت فمي.

لكنه ابتسمَ بعدها. "أنا آسف. كيف لك أن تعرف قواعد كهذه؟ أنتَ، من بين كل الناس، تستحقُّ إجابة. وسأمنحك إيَّاها: أخصتني إيطاليا".

تخيَّلتُ جيشًا من الرابوتشيين يزحف عبر الأراضي الإيطالية تحت قيادة ملك شيطاني ما بتاجٍ على رأسه. لكن لم يكن هذا ما يعنيه سيِّدي. رفع إصبعًا.

"شقيقي *Mio fratello*، المخصيُّون قدماء قِدَم السكاكين التي تشقُّهم -لا توجد ثقافة تخلو من هذه البربرية- وأمثالنا أنا وأنت من طبقةٍ فريدة بين المخصيِّين. تفكَّر: في مصر القديمة، واليونان وروما، في الهند، وفي الأراضي الإسلامية، طالما كان شَقُّ الإخصاء إهانة. أن تُشقَّ يعني أن تنحدر من طبقة الرجال إلى شيءٍ أقل، شيءٍ بسيط، شيءٍ مُروَّض".

"في لندن"، تابع، "روى لي رجلٌ ذات مرة حكاية عن الطواشيِّين الصينيين، الذي يتألَّفون من طبقةٍ من الخَدَم في تلك الأراضي. بعد انتهاء العملية، يتلقَّى هؤلاء الصبيان أعضاءهم منقوعةً في الخلِّ في جَرَّةٍ من الفخَّار. يحتفظون بهذه الجرَّة معهم دائمًا. يضعونها على رفٍّ. يدعونها *Pao* عندما يتوقون إلى ترقية، أو تغييرًا في الوظيفة، يجلبون هذه الـ *Pao* معهم إلى ربِّ عملهم الجديد، الذي يرفع الغطاء ويفحص ما فقده الرجل، وكأنه دليل على شخصيته".

ابتلعتُ ريقي، شددتُ ياقتي. ضحك جواداني. "هل يصيبك هذا بالاشمئزاز؟" سأل. "لماذا قد يصيبك بالاشمئزاز؟".

"هل يجب عليهم... أن يحتفظوا به"، همست. "في جرَّة؟".

"نعـم"، قـال. "في شراب روحـي. أعتقـد أنهـم يغـيِّرون السـائل مـرَّةً كل عـام حتـى لا يغيـم. يُفـترض أن يُـرى الـشيء بوضـوح".

"أرجوك لا تتحدَّث عن هذا".

ضحـك بخفـوت. "حسـنًا"، قـال. "لا مزيـد من الــ *Pao* المُخلَّلة. سـأخبرك بـدلًا مـن ذلـك عـن اليونـان وروما، هاتـان الحضارتـان الشـهيرتان. هنـاك كانـوا يشـقُّون الصبيـان كتشـذيب الشـجيرات؛ خمسـون صبيًّـا -أو أكـثر- كل مـرَّة، رغـم أن عشريـن مـن كل دفعـة يموتـون بسـبب جروحهـم. ’شـقٌّ حتـى البطـن‘ كان يسـمُّون العمليـة؛ لا يبقـى سـوى ثقـبٌ صغـير. كان هـذا التشـويه يروِّضهـم، هكـذا فكَّـروا؛ ولهـذا كانـوا النـوع الأكـثر رواجًـا مـن العبيـد. لا يعملـون في حفـر الحُفَـر أو غسـل الأرضيـات. يرتـدون ملابـس مُذهَّبـة، وتُصقـل أجسـادهم بالزيـت، يطعمـونَ سـادتهم، يصبُّـون النبيـذ، ويدلِّكـون الظهـور الهَرمـة. كانـت أجسـادهم أوعيـةً يسـتمتع بها سـادتهم. ربمـا كان نـيرون السـيد الأكـثر بشـاعةً مـن بينهـم. كان لديـه صبـيٌّ عبـد، سـبوروس، أحبَّـه أكـثر مـن بقيـة العبيـد. طفـل بـريء، جميـل. أمـرَ الجـرَّاح بـأن يقطـع كل أثـرٍ لعضـو سـبوروس الرجـولي، وبعدمـا شُـفيَ الصبـي، ألبسـه نـيرون وشـاحًا عرائسـيًّا وتـزوَّجَ الطـواشيَّ الصغـير. ثـم أفقـده عذريتـه عـلى الفـراش الإمبراطـوري".

الآن كنـتُ أتنفَّـس بالـكاد. كنـت أدرك أن صبيانًـا كثيريـن عانـوا مصـيراً بشـعًا كمصـيري، لكنـي أدركـت الآن أن كثيريـن عانـوا مصـيراً أسـوأ... أسـوأ بكثـير جـدًّا.

"هلَّا توقَّفنا لوهلة"، سألت بضعف. "أودُّ أن أتمشَّى قليلًا".

"لكـن هـذا لا شيء"، اسـتمرَّ سـيدي في حديثـه السـاحج، صوتـه الثابـت وكأنـه يُمسـمرني في المقعـد. "نـيرون وسبوروس(ـــه). مسـألة لطيفـة للغايـة في الحقيقـة، عندمـا يتأمـل المـرء في الأمثلـة الأخـرى. اقـرأ إنجيـل متَّـى. هذا

الحـواريُّ يُبجِّـل النبـلاء مـن ’الخصيـان الذيـن خصـوا أنفسـهم‘[1]. يـا إلهي! يختلـف الأمـر كثـيرًا بـين أن تجعـل آخـر يقـوم بالشَّـقِّ، عـلى أن تقـوم بـه بنفسـك. وكـم مـن أنـاسٍ شرَّحـوا أنفسـهم بالخناجـر اقتـداءً بحكمـة متَّـى؟ الآلاف. أحبـارٌ، متصوِّفـون، حمقـى. قـرأتُ ذات مـرة عـن طقـسٍ انتشـائي: في (يـوم الـدَّم)، يحتشـد الرجـال عـلى جبـل، ومعًـا، مقيمـين صلواتهـم لإلـهٍ عطـوفٍ حنـونٍ مـا، يشـوِّهون أنفسـهم بشـظايا آنيـة فخَّاريـة مكسـورة".

فتحـتُ البـاب ليدخـل بعـض الهـواء، رغـم أن العربـة مـا زالـت تتقافـز قُدمًـا. نقـرَ مطـرٌ خفيـف عـلى حـذائي، لكـن الهـواء كان كقماشـة بـاردة، رطبـة عـلى جبينـي المُتَّقـد.

ضحـكَ جـواداني وجـذبَ خصلـةً مـن شـعري، وكأنـه شـقيقٌ أكـبر. "شـقيقي *Mio fratello*، لا تفكِّـر في الأمـر كثـيرًا، ألا تـرى؟ هـؤلاء البائسـون المُحطَّمـون لا علاقـة لهـم بنـا. نحـن طبقـة مختلفـة؛ مـا جعلهـم عبيـدًا مهانـين جعلنـا آلهـة مُبجلَّـين. حتَّـى أنـت، وإن لم تكـن ثريًّـا، أو معروفًـا لأيِّ أحـد. أبـدًا لـن يُجـبرك أحـد عـلى إظهـار مـا فقدتَـه. أبـدًا لـن تفقـد احترامـك أمـام ربِّ عملـك. أبـدًا لـن يأمـرك أحـد بالاسـتلقاء عـلى وجهـك عـلى فـراشٍ. لقـد اختفـى ألمـك منـذ سـنين، لـن تمـوت بسـبب جَرحِـكَ".

تنـاول يـدي في يـده ورفعهـا عاليًـا في الضـوء. "انظـر يـا شـقيقي *mio fratello*، انظـر إلى مـا منحـكَ هـذا الشَّـقُّ. لا يوجـد رجـل بهاتـين اليديـن الجميلتـين. وهـذه الأصابـع البديعـة! وانظـر إلى هـذا". لامـسَ خـدَّه ذاتـه، المطـلي بشـكل خفيـف لزيـادة توهُّجـه الطبيعـي. "لا يوجـد رجـل لـه جلـدٌ رائـق كهـذا؛ البثـور هـي محنـة غـير المخصيِّـين وحدهـم. وإلى ذلـك كلـه، انظـر كـم هـم قصـار القامـة وكـم ننتصـب نحـن عاليًـا". وضـع يديـه

(1) الآيـة كاملـةً: «لأنـه يوجـد خصيـان وُلِـدوا هكـذا مـن بطـون أمهاتهـم ويوجـد خصيـان خصاهـم النـاس ويوجـد خصيـان خصـوا أنفسـهم لأجـل ملكـوت السـماوات مَـن اسـتطاع أن يقبـل فليقبـل»، إنجيـل متَّـى (19:12). (المترجـم)

على صدره، المنتفخ تحت المعطف الموشَّى. "هل يوجد رجل له صدرٌ كهذا؟ رئتاي بضعف حجم أفضل مُغنٍّ غير مخصيٍّ في العالم. عليَّ أن أشكر الشقَّ القاسي على هذا أيضًا. كان سحر الشَّقِّ هو ما جعل أضلاعنا تنمو طويلًا هكذا. وهناك المزيد: أعظم كنوزنا يستلقي مختفيًا حتَّى نغنِّي". رفع إصبعًا وحدَّق إليَّ، وكأنه يتحدَّاني على تخمين إلى أين يشير. ثم أشار أخيرًا إلى منتصف عنقه. "لديهم ذلك الشيء الناتئ القبيح، تفاحة آدم *la pomme d'Adam*، يبرز من حلوقهم. ومُجرَّد أن تفكِّر أن صوتهم يبدأ من ذلك البروز الأعوج! غير صالح للغناء كآلة كمان بعنقٍ مُتشظٍّ". دلَّكَ عنقه وكأنه يُدلِّك ظَهْر قطَّة. "على النقيض من ذلك، تظلُّ عُلب أصواتنا مُعلَّقةً، تتدلَّى حيث وضعها الرَّبُّ".

"ألا ترى!" هتفَ. قبضَ على ذراعي. "غناؤنا يجعلنا مختلفين للغاية عن أولئك المخصيِّين في العصور الأخرى. تعرَّضوا للشَّقِّ لأنهم كانوا فقراء، أو جميلين، أو تعيسي الحظ. شقُّوني، في صباي؛ لأنني كنت أغنِّي كعندليب؛ ولهذا، فالآن، هنا في ڤيينا، يطلبون منِّي أن أكون أورفيوس(هم)! طالما غنَّيتُ أورلاندو، وسليمان ويوليوس قيصر. هؤلاء كالآلهة بين البشر! لستُ خادمهم. بل أنا بَطلهم. أنا ملاكهم. أنا الذي يحلمون به عندما يستغرقون في النوم في الليل. أوه، وكم يقعون في حُبِّي بمنتهى السهولة! الحب بين امرأة ورجل طبيعي مسألة مُملَّة في أفضل الأحوال، وقذرة ومُخزية في أسوئها. لكن عندما أكون بصحبتهم، تتحوَّل رغباتهم إلى شلَّالٍ دافق. لا يوجد خوف لكبتها؛ لن يُحبَل بأطفالٍ هذه الليلة، لن يحدث زواج بالإجبار، لا عارٌ دائم. يدركون أن ذكرى لذَّتهم ستكون نقيَّة في الصباح، بلا ندم. الرَّبُّ لا يرفض أن يشارك ملاكٌ في أحلامهم الشبقة. ولهذا لا أمثِّل أورفيوس فحسب، لكن باخوس (النشوة) أيضًا. أحيانًا ما يسخر أزواجهن الأغبياء منِّي -أسمعهم يقولون إن سيفي لا يستطيع الطعن- لكن هم الحمقى

حقًّا. فتلك النغزة المندفعة من تجويف أحواضهم، والتي يحسبونها أعظم مآثرهم، يمكن استبدالها، واستيلادها، وتجويدها".

ابتسمَ جوادانِي بتكلُّف، وكأنه تذكَّرَ مثالًا حديث العهد على مصدر افتخاره. حدَّقَ إلى خارج النافذة حتَّى تلاشت ابتسامته، ثم استدارَ إليَّ. "ماذا كان سؤالك؟ آها، نعم: مَن أخصاني. أخبرتك أن إيطاليا هي مَن جعلتني ما أنا عليه. لا أستطيع لوم أبي فحسب، ولا فرقة المُهرِّجين *buffo* التي باعني لها، ولا الحلَّاق الذي دفعوا له لشَقِّي. بالتأكيد، أتمنَّى أن يحترق كل هؤلاء في الجحيم، لكن ذلك لن يكون سوى تعويض لا يُذكر، سواءً لي، أو لك، أو للآلاف من الصبيان الآخرين الذي يُشَقُّون كل عام في الأراضي الإيطالية. شقيقي *Mio fratello*، لقد شُقِقْنا بسبب جمال أصواتنا. شُقِقْنا لأنه في كل ليلة في كل مدينة إيطالية، تغنِّي الملائكة على خشبة المسرح ويعود كل رجلٍ لديه ابن إلى بيته يُفكِّر، هل يستطيع ابني أن يكون ملاكًا أيضًا؟".

كان الهواء البارد قد أنعشني من خَدَري، ورفعتُ عينَيَّ مجدَّدًا إلى سيدي. كان هذا الوجه الأملس ثابت الجأش، كما هو دومًا على خشبة المسرح، لكنني كنت سمعتُ رعشةً خافتة في صوته. تطلَّعَ الآن إلى خارج النافذة وكأنه لم يَعُد يتحدَّث إليَّ، بل إلى نفسه. "كثيراً ما أسأل نفسي"، قال، "فيما أنحني احترامًا للمُصفِّقين، كم صبيٌّ تسبَّبتُ في إخصائه الليلةَ بصوتي؟".

(9)

عندما طلبتُ من ريموس تعليمي الإيطالية، استقبل طلبي بجدِّيَّة فاجأتني. بدأنا في الاستذكار لساعتين، في كل يوم أستطيع فيه التخلُّص من جوادني. كان ريموس مُعلِّم لغة أكثر تَطلُّبًا مما كان أولرتش في الغناء؛ كان يرى عبر الكلمات والجمل بنيةً أكثر غموضًا مما يستوعبه عقلي، فيها تتصل اللغات المختلفة ببساطةٍ رياضية. مع ذلك فإن التجميعات التي تبني اللغة ليست الكلمات، بل الأصوات، وهنا كانت موهبتي: كنتُ أتعرَّف على الأصوات الأساسية على الفور، ورغم أن دانتي كان ما يزال بعد أسبوعين يفتقد لأي معنى مترابط، بدأتُ، فيما أتلوه، في استيعاب تجميعات متناثرة من المعنى: ملكٌ يرقد في النفايات؛ ثور صِقليٌّ يخور؛ آلاف الوجوه الأرجوانية المُختنقة.

"إيطاليَّته صارت أفضل من إيطاليَّتك يا ريموس"، مازحنا نيكولاي من مقعده.

"لا فائدة من اللكنة"، أجابه ريموس، "إذا لم يعرف ماذا يقول".

"لا أفهم ما يقوله على الإطلاق أيضًا"، قال نيكولاي من الظلال؛ ذلك أننا أوقدنا شمعةً واحدة بسبب عينيه، "لكن ما يقرؤه جميل. شيءٌ ما عن الحب العميق؟".

"خلاعةٌ وشَبق"، قال ريموس بوضوح. "'تأوُّهات، دموع، انتحابات. يتعذَّب هنا من ارتكب خطايا الجسد. بلا انقطاع في الألم ولا أمل في الاستراحة'[1]".

"كم نحن محظوظون بوجودك معنا يا ريموس"، أجاب نيكولاي. "وإلّا توهَّمنا جميعًا الحبَّ النقي في الشهوة الوضيعة".

"استَمِرَّ في القراءة يا موسى. لا تدعه يُشتِّتك".

"هل يوجد أيُّ حب صادق في هذا الكتاب العَفِن؟" سأله نيكولاي.

"بكل صوره وأشكاله"، أفحمه ريموس. "قلوبٌ مكسورة، عاطفةٌ لا ترتوي، توهُّمات مستحيلة".

"اجلبوا كتابًا آخر"، قال نيكولاي بازدراء. "أريد الحُبَّ هنا والآن. دانتي ميِّت. الجحيم بعيد للغاية. ألا يستطيع أحدكما إخباري بشيءٍ يمكنني تذوُّقه بالكاد؟".

"اقرأ يا موسى".

فتحتُ الكتاب مُجدَّدًا، لكن يداي كانتا ترتجفان. أخبرهما! الآن! احكِ لهما عنها! أردتُ بشدَّة أن أفعل ذلك، لكنني لم أستطع. سيسخران منِّي، أعرف، لكنني كنتُ خائفًا أيضًا من قراءة الذهول في أعينهم. أنت؟ واقع في الحب؟ أنت؟

لن يقولا ذلك صراحةً، لكن ستقوله أعينهما.

* * *

(1) تصرُّف في الأبيات (34-43) من الكوميديا الإلهية لدانتي، الجحيم، النشيد الخامس. (المترجم)

ذات مساء، عندما لم يكن لدى مسرح بيرج مسرحيات، أو أوبرات، أو باليه في برنامجه، أقنعت تاسو بمغادرة كهفه والانضمام إلينا في سبتلبيرج. أسرع ورائي عبر الشوارع، ماكثًا في الظلال، وكأنه يخشى أن ينقضَّ عليه صقرٌ من السماء ويختطفه.

عندما قدتُ الرجل الضئيل صاعدين الدَّرج ثم إلى ردهة الاستقبال المُعتمة، توقَّف على العتبة وتفحَّصَ الغرفة كرجل يحكم ما إذا كانت السفينة التي يوشك على الصعود إلى ظهرها ستغرق أم لا. حيًّانا ريموس وقدَّم يده لتاسو، لكن عامل المسرح لم يصافحها. حدَّقَ وراء ريموس في الشكل البشري الهائل القابع في المقعد.

"رجلان فحسب، "سأل تاسو، "وحدهما؟".

"لا يوجد سوانا نحن الاثنين"، أجابه ريموس.

"بلا نساء؟".

"كلا".

حملقَ تاسو في ريموس. اختلجت أنفه.

نادى نيكولاي دون أن يستدير. "موسى، هذا هو الرجل الضئيل الذي أخبرتنا أنك ستجلبه للقائنا ذات يوم؟".

"نعم"، قلتُ بارتباك. "هذا هو تاسو. من المسرح".

"ادخل"، هتف نيكولاي. "ادخل! هل حقيقي أنك تعرف الإمبراطورة؟ احكِ لنا عن بناتها!".

رفعَ تاسو بصره إلى ريموس، وأشارَ بإبهامه إلى نيكولاي. "ما خطب زوجك؟".

"إنه ليس زوجي"، قال ريموس بغضب. أبدًا لم أرَ وجهه يَحمَرُّ هكذا. "إنه مريض".

"مريض في رأسه"، قال تاسو، ثم خطا متجاوزًا ريموس إلى الغرفة.

"موسى"، قال نيكولاي، "أحبُّ هذا الرجل الذي يشبه الفئران".

جلسَ تاسو بجوار نيكولاي، في مقعد ريموس.

"هـذا يسـتحق احتفـالًا!" قـال نيكـولاي. "مـوسى، غـنِّ لنـا! لا، لا، انتظـر... شـيئًا مـا لتهيئـة المـزاج أولًا. ريمـوس، اذهـب إلى الأسـفل وأخـبر السـيد كوسـت أننـا نريـد بعضًـا مـن ذلـك الـشيء حالـك السـواد".

ظهـرَ ريمـوس مُجـدَّدًا بعـد بضـع دقائـق وهـو يحمـل بحـذرٍ أربعـة أكـواب مـن سـائل أسـود، يتصاعـد منـه البخـار، كبحـار القطـران في جحيـم دانتـي.

"سُكَّر"، أمرنا نيكولاي. "هذا هو السِّرُّ لتستطيع ابتلاعه".

أذبنـا بضعـة مكعبـات في كل كـوب. حبـسَ تاسـو أنفـه وهـو يحتسـيه. لم أتمكَّـن مـن ابتلاعـه إلَّا بعـد مضاعفـة السُّـكَّر؛ بمـا يكفـي لتحويلـه إلى كُـدارةٍ حلـوة. بعـد هضمـه، لم يسـتغرق الأمـر سـوى دقيقـة ليظهـر تأثـير السـحر. صـارت الغرفـة المعتمـة تنبـض الآن. ظننـتُ أننـي لـن أحتـاج إلى النـوم مُجـدَّدًا أبـدًا. ضحـكَ تاسـو خلسـةً.

أخذ نيكولاي في هزِّ رأسه وكأن نحلة طنانة تئزُّ داخله.

"غـنِّ لنـا يـا مـوسى"، قـال ريمـوس. ابتسـمتُ؛ ذلـك أنـه لم يطلـب منـي قـطُّ في كل الأعـوام التـي عرفتـه فيهـا، لم يطلـب أن أغنِّـي، لكـن الآن، بهـذا الـشراب ينبـض في أوردتي، تقـتُ بشـدة إلى إخـراج الجلجـلات.

وقفـتُ أمامهـم وأمطـرتُ أصدقـائي الثلاثـة بالأغنيـات. اضطجـعَ نيكـولاي وأغلـق عينيـه. أخـذَ تاسـو في أرجحـة قدميـه، المتدليتَـيْن بعيـدًا عـن الأرض. اسـتندَ ريمـوس عـلى الحائـط، مؤرجحًـا قدمًـا مـع الموسـيقى، بدمـوعٍ نشـوانةٍ في عينيـه.

(10)

حلَّ سبتمبر أخيراً، وحلَّت معه ليلة حَفْل الكونتيسة ريشر. ألبسني جواداني رداءً بقطيفة حمراء وأسود ذهبية تزار على صدري.

«لماذا أنت متوتِّر هكذا؟» سألني مُعلِّمي فيما نُقعقع عبر ليل ڤيينا في عربته. «لن يطلبوا منك الغناء». كان وجهه هادئًا، وملابسه مضبوطة.

«لستُ متوتِّرًا»، قلت. أدرتُ زرًّا في معطفي. انتثرَ خارجًا من مكانه في يدي.

هزَّ رأسه. «فقط حاوِل ألَّا تكون مُمِلًّا»، قال. «الصيد، يا شقيقي *mio fratello*، الصيد هو كل شيء".

عبرنا البوابة إلى الفناء الخارجي، وفتحَ غول آل ريشر ذاته -الذي كان، منذ شهرين لا أكثر، قد رماني في الشارع، ووعدني بتحطيم وجهي إن رآني مُجدَّدًا- الباب لعربتنا. كنتُ في غاية الخوف منه لحدٍّ أنني

تعثَّرتُ على الدَّرج وسقطتُ. أمسكني بيديه ذواتَيْ القفَّازين الأبيضين. رفعني، واقترب وجهانا بشدَّة كوجوه العشَّاق. الإدراك. الصدمة. كتمَ كل ذلك. "سيدي"، كان كل ما قاله، ثم أوقفني على قدمَيَّ مُجدَّدًا.

قادني جواداني إلى داخل القصر، الذي كان منزل آل دوفت في سانت غال بالمقارنة به كمسكَن لإنسان الكهف: أرضيات من خشب الجوز، حوائط مُغطَّاة بالحرير الأحمر، كل إطار باب ومنضدة بزخارف ذهبية. في بهو الاستقبال، يقود دَرَجٌ مهول إلى الطوابق العليا من المنزل. تلكَّأتُ هناك، مُتسمِّعًا إلى الأصوات التي أتوق إلى سماعها، لكن جواداني جذبني من كُمِّي.

دلفتُ إلى قاعة الرقص. اصطدمتُ به عندما توقَّف للانحناء. "يا أحمق"، هسهسَ عبر ابتسامته فيما الجميع يستدير ليرانا. ابتسمتُ وانحنيت قليلًا حتى الخَصر، وكأنني أعاني من ألم في المعدة. ثم بدأَ هو رقصته؛ النساء يتضاحكن فيما يُقبِّل أياديهن، والرجال يتورَّدون خجلًا ويزدردون ريقهم عندما يغمز لهم.

انطلقتُ مُتعثِّرًا عبر القاعة، مُتدافعًا ومنعطفًا ككلبٍ يغرق في نبعٍ. جاهدتُ لسماع كل شيء. كعوب الرجال تُطقطق على الأرض الخشبية الصلبة. المُقدِّمات البيضاء لأحذية النساء تُحفحف على الحشايا المُكشكشة لأرديتهم. "لا أطيق زيارة ضيعتي"، قال واحد من الأمراء. "بعيدة كل البُعد عن ما يهمُّ حقًّا". "الفحم يتحوَّل إلى بخار"، قال آخر شارحًا. "أم البخار إلى فحم؟" تعثَّرتُ إلى دائرة من الوجوه المُتغضِّنة، نخروا وأسلموني إلى مجموعات من السيدات ذوات وجوه مطليَّة. "لا أفهم"، قالت إحداهن. "في الريف لديهم الحقول والمنازل والمياه لتنظيف أطفالهم، لكنهم يصرُّون جميعًا على العيش هنا". ثم، على مبعدة، كانت بضعة فتيات يبدين إعجابهن برجل رُسِّمَ دوقًا حديثًا. "يقول أبي إن اللقب كلَّفه ثروةً"، همست إحداهن،

فيما لعقت الأخريات شفاههن. "أوه، كم أحبُّ أن أكون زوجة دوق". لمحتُ الكونتيسة ريشر تنطلق عبر الزحام؛ نظراتٌ مُتحرِّقة تمضي في إثرها. رفع رجل بميداليات على صدره يده وخطا مُتخبِّطًا في إثرها. "أوه، سيدتي الكونتيسة"، قال. "هل لي بدقيقة من...".

توتَّرَت أذناي لسماع الصوت، أو الضحكة، أو التنهيدة التي تتماشى مع تلك المُخزَّنة في المُعتزَل العزيز من عقلي. لم أسمعها. اصطدمتُ بحائط مرتين، وظللت هناك كإنسان آليٍّ، حتَّى أخذتني فاتنةٌ ما من ذراعي وقادتني عائدةً بي إلى سيدي. ابتسمَ وشكرها، ثم تذمَّر في وجهي لأنصرف بعيدًا.

وحينها، كانت هناك.

واقع الأمر، وجَدَتها عيناي أولًا: شعرها مربوطٌ عل شكل تاج. حملقتُ عبر قاعة الرقص، عبر كل تلك الشعور الملساء والموسلين المُكشكش والمعاطف المُكدَّسة بالنياشين الذهبية التي منحتها الإمبراطورة، وكل هذا يُدوِّم كضباب شفاف، عديم الحياة. اشتدَّت أذناي لالتقاط أصواتها العزيزة، لكنها كانت تقف في صمت بين مجموعة من الرجال على رأس دَرَج، في رواقٍ يُطلُّ على قاعة الرقص.

قبَضَت يدٌ مرصَّعة بالمجوهرات على ذراعي. "أنت شاحب بعض الشيء"، قالت المرأة، ناغزةً أنفها في وجهي. "هل أنت مريض؟ تناول رشفةً من النبيذ". تركتُها تضع الكأس على شفتيَّ واحتسيتُ النبيذ، ثم دفعتُ ذراعها بعيدًا واتَّخذتُ خطواتٍ مُتعثِّرةً نحو الدَّرج وكأنني أسير على الجليد.

كانت أماليا تضوي بين هؤلاء الرجال كقطعة فحم متوهِّجة مدفونٌ نصفها في رماد منطفئ. كانوا يتجادلون، يلوِّحون بأيديهم، يُومئون بعنف، ورغم أنها كانت تُحدِّق فيما وراءهم، غير مبالية، كانت هي مَن يتحدَّثون إليها، كانت هي مَن يتوقون للوصول

إليهـا بكلماتهـم. "أوه، تعـالي"، قـال رجـل بديـن. "تعـالي. لا بُـدَّ أن تـأتي". أومـأً آخـر وكأن هـذه أعظـم حكمـة سـمعها في حياتنـا. يوجـد بيننـا أحـدٌ حـيٌّ! قالـت تحديقاتهـم الجائعـة. كانـت هـي تبتسـم بتـأدُّب، بكتفيهـا متراجعَتـيْن، وكأنهـا تقـف لترُسَـم في بورتريـه. ورداؤهـا الأبيـض، مربوطًـا أسـفل الصـدر بعقـدة بنفسـجية، يخفـي كل انحناءتهـا. كانـت هـي حقًّـا، ومـع ذلـك شيءٌ مـا في غايـة الاختـلاف. لم أسـتطع تبيُّنـه. تحـدَّثي! صلَّيـتُ، دعينـي أسـمعك تضحكـين!

انسـللتُ صاعـدًا الـدَّرج، مخفيًـا أصـواتي كـما كنـت أفعـل وأنـا أتسـلَّل إلى منـازل سـانت غـال في أواخـر الليـل. كان عنقهـا طويـلًا للغايـة. تلـك اللطخـة تحـت أذنيهـا، حيـث ينتهـي شـعرها المشـبوك في سـهمٍ مـن الزغـب الفـضي، الناعـم، كانـت أكـثر مـا أحـبُّ وضـع أذني عليـه.

درتُ مـن خلفهـا، ولوهلـة وقفـتُ عـلى بُعـد إنشـات فحسـب منهـا. سـمعتُ أنفاسـها: الانسـحاب عميقًـا داخـل أنفهـا، انفـراج شـفتيها، الزفـير الدافـئ عـبر فمهـا، الـرداء الناعـم عـلى جلدهـا فيـما كتفاهـا تصعـدان وتهبطـان.

ثـم خَطَـت هـي ورجـل شـاب مـن المجموعـة هابطـين الـدَّرَج. وضـع يـدًا عـبر ظهرهـا لتوجيههـا: أنطـون ريـشر، أدركـتُ، ووجـدتُ نفـسي أُعجـب بحاجبيـه المُشـذَّبَين، ببيـاض أسـنانه. كان رجـلًا بالضبـط قَـدْرَ مـا أخـشى: متأنِّقًـا وطويـلًا. أضفـى عليـه جبينـه النافـر وعينـاه الغائرتـان وسـامةً، لكنـه كان ناعسًـا بعـض الـشيء، وكأن خطواتـه المتهاديـة تتَّجـه بـه نحـو الفـراش. لبضـع دقائـق تعقَّبتهـما خلسـةً، وتوالفـت أذنـاي عـلى كل صـوتٍ يصدرانـه. عندمـا يقابـل أنطـون ضيفًـا، كان يمـدُّ يـده وكأنـه يبحـث عـن مـكان لإراحتهـا فحسـب. عندمـا يتحـدَّث إليـه أحـد، كان يُبـدي إيمـاءات متتابعـة تجعلـه ينحنـي أقـرب وأقـرب إلى فـم المتحـدِّث حتـى يبـدو عـلى اسـتعداد للارتمـاء بـين ذراعيـه. ثـم يعتـدل مُجـدَّدا، فقـط

عندما يكون مستعدًّا للتَّحدُّث بدوره، وهو ما يفعله ببطء، بنبرة أرستقراطية. "لقد سمعتُ الكثير عنك من أمِّي. كم هو لطيف أن أتعرَّف إليك أخيراً"، قال لأحد الضباط. "مُدهش ما تقوله"، لرجل أعمال. "حسب ما أفهم، فيينا تحتاج إلى مزيدٍ من الرجال أمثالك".

كان يهمس أحيانًا في أذن أماليا. "لا يوجد رجل في هذه القاعة يحظى بزوجةٍ تفوقك جمالًا"، قال. "تعرفين، الجميع يقولون هذا". "هل أقام أيُّ أحد من قبل حفلة كهذا؟ من أجلكِ أنتِ فحسب"، قال بعد برهة، "ومن أجلي أيضًا، بالطبع". ترَكَت نفسها تُقاد بيده وكأنها مُسَرنَمَةً. ورغم مجاهدتي لسماع صوتها، لم تتحدَّث أماليا قطُّ؛ عندما تقابل ضيفًا جديدًا، كانت ثنايا وجهها تلين بشكل طفيف، ثم تعود بسرعة إلى بورتريه الصبر الخَمول.

تناولتُ كأس شمبانيا ورفعتُه أمامي؛ شجيرة رفيعة لأختبئ خلفها. خطوتُ إلى بضع خطوات منها. لوَّحتُ بالكأس جيئةً وذهابًا أمامي وثبَّتُّ عينَيَّ عليها. كان زوجها مستغرقًا في الحديث؛ لهذا لم ينظر في اتِّجاهي، لكنني نجحتُ أخيراً في جذب انتباهها. تلاقت أعيننا للمرة الأولى منذ كنَّا أطفالًا. اشتعلت الدماء في عروقي.

كانت عيناها خاويتَيْن. لم تتعرَّف إليَّ. مجرَّد غريب يقف أمامها.

لكن هذا أنا! أوشكتُ على الصراخ. حبيبكِ لليالٍ كثيرة! لكن لو كنتُ فعلت هذا لخسرتها مُجدَّدًا. عوضًا عن هذا، ابتسمتُ. لوَّحتُ بيدي. أومأتُ برأسي. تورَّد وجهها واستدارت مُبتعدةً.

"ليست هذه يا أحمق". كان مُعلِّمي بجواري بغتةً، هامسًا في أذني. "هذه محجوزة لسادة الصيد. أولًا، لا أمل لديك. امرأة كهذه لن تتحدَّث معك حتَّى. ثانيًا"، غمغم، "إذا لمحت امرأة ريشر كيف تنظر عيناك إلى جواهرها، ستنتزعهما من محجريهما".

رجوتُ من سيدي أن يُقدِّمني إليها على الأقل، لكنه هزَّ رأسه وطقطقَ بلسانه. "لا بُدَّ أن أقول، على أقل تقدير، عيناك جميلتان. وهي حقًّا أبهى فريسة في القاعة. لكن انسَ الأمر. ليست لك". ابتسم جواداني مُجدَّدًا إلى أماليا. "رغم أنه ربما، عندما يحين الوقت، سأريك كيف تُنجز الأمر. لكن ليس الآن. الآن هو وقت الضرب في مكان آخر".

خطا مُندفعًا عبر القاعة، وكان انسلاله ثابتُ العزم كافيًا للإعلان عن نيَّته أمام الحاضرين. سكتوا جميعًا واحتشدوا حول البيانو القيثاري في نهاية قاعة الرقص. ظهرَ جلوك بنفسه وجلس إلى لوحة المفاتيح.

امتلأت قاعة الرقص بأصوات تبديل الأقدام، وحفيف الأردية فيما يتكاثف الجمهور، بهتافات خافتة تقول "جواداني! سيغنِّي!". أغلقتُ عينيَّ لوهلة؛ لحجب كل ذلك عن أذني. بالنسبة لي، لم يكن هناك سوى إنسانة واحدة في قاعة الرقص تلك، وكانت صامتة.

فيما يبدأ جواداني أغنية (أرميدا التي لا ترحم *Armida dispietata!*) من أوبرا *Rinaldo*، غادرتُ الدَّرج وانضممتُ إلى الحشد. اندفعتُ عبرهم. ضغطتُ بمرفقيَّ على ظهور السيدات، وقفتُ أمام الچنرالات المتقوِّسين، جذبتُ الأكمام. كان هؤلاء البشر بالنسبة لي كالأشجار في الغابة.

ثم صرتُ وراءها مُجدَّدًا، قريبًا منها للغاية لدرجة أنه كان بمقدوري تقبيل أسفل عنقها. وقفَ زوجها -الذي كان بنفس طولي تقريبًا- بجوارها، لكنهما لم يتلامسا. أغلقتُ عينَيَّ. في عنقها، في التجاويف الناعمة تحت فكِّها، سمعتُ الصدى الهامس لغناء جواداني. احتجتُ إلى كامل تركيزي لأقبض على الصوت، ثم تشبَّثتُ به، من أجلها.

* * *

لكـن حينهـا لم أسـتطع منـع نفـسي. كان صـوت جـواداني في غايـة الضَّعْـف. تلاعـبَ بذلـك الجسـد بخـرَق؛ ولهـذا فتحـت حلقـي مقـدار شَـعرة؛ أفلـتَ أوهـى صـوت، لم يسـمعه أحـدٌ وسـط الموسـيقى. لكـن ذلـك الصـوت الخافـت احتواهـا. لامـسَ العضـلات الطويلـة، الضيقـة عـلى ظَهْـر ذراعيهـا، تحـرّك ذراعاهـا برفـقٍ إلى الخـارج، كجناحَـيْن يسـتيقظان. تنهَّـدَت. للمـرة الأولى تلـك الليلـة، تعمَّقـت أنفاسـها، وسـمعتُ أنهـا كانـت قـد اسـتيقظت عـلى أغنيـة جـواداني. أفلتُّهـا لتسـمعها. جلجـلَ جسـدها.

وحينهـا، بـدأت في البـكاء. أفلَتَـت جهشـةٌ مـع زفيرهـا. رغـم أنهـا ضغَطَـت بإبهامهـا عـلى شـفتيها، لم تسـتطع كتـم الأنَّـة الخافتـة، التـي قبضـت عـلى قلبـي وخنقتـه. تحـرَّر الحـزن المُختـزَن داخلهـا -انتثر جسـدها قليـلًا- بفعـل الموسـيقى التـي تـرنُّ عـبر جسـدينا. ثـم لم تسـتطع تحمُّـل المزيـد. اندفعـت عـبر الحشـد وانطلقـت خارجـةً مـن القاعـة، وقـد بـانَ عرجهُـا الآن.

تطلَّعـتُ إلى جـواداني. رآهـا الطـواشيُّ العظيـم تهـرع، وابتسـمَ فيـما يغنِّـي؛ ذلـك أنـه كان جعـلَ ألـف امـرأة أخـرى تبـكي أيضًـا، وهـا هـو، فكَّـرَ، قـد امتلـكَ روحًـا جديـدة.

شـاهدَ أنطـون أيضًـا زوجتـه ترحـل، وبعـد أن اختفـت، اسـتدارَ وحطَّت تحديقتـه عـلى وجهـي. ربمـا بـدوتُ مذعـورًا؛ لأنـه ابتسـم بحنـوٍّ، وكأنـه يقـول، أوه حسـنًا، هنـاك حـزن بحـقٍّ في هـذا العـالم. لكنـك وأنـا، عـلى الأقـل، راضيـان.

انتهزتُ الفرصة. تراجعتُ، واندفعت عبر الزحام.

تبعتُها.

(11)

كنتُ ذلك الشبح المُدرَّب جيدًا. أنفاسي تيَّارات هادئة من الهواء. أنصتُّ إلى الأقدام المندفعة، لكن المنزل كان خاويًا؛ حتَّى الخدَم كانوا ينصتون إلى جوادِاني يغنِّي. وصلتُ إلى بهو المدخل، رفعتُ بصري إلى الدَّرج المهيب. سمعتُ خطواتها غير المستوية بعيدًا في الأعلى، فبدأتُ في ارتقاء الدَّرج. كتمَ السجاد السميك كل خطوةٍ. لم يصرَّ الدرابزين. حولي، هسهست المصابيح. عند الطابق الأول، توقَّفتُ. كانت هناك غرف كثيرة للغاية في المنزل، تكفي لجيش من آل ريشر. بورتريهات عتيقة كانت تتدلَّى على كل حائط، وشعرتُ بأعين آل ريشر الأموات تراقبني.

في الطابق العلوي أغلقتُ عينَيَّ. سمعتُ نحيبًا مكتومًا على يساري. بعد بضع خطوات، انعطفَ الرواق. رأيتُ جناحًا طويلًا، وأدركتُ أنه لا بُدَّ كان حيث يعيش أنطون وأماليا.

كان البـاب الأخـير مواربًـا، واندفعـت ناحيتـه كرجـل ظـمآن ناحيـة نبـعٍ. سـأحتويها في ذراعـيَّ! لكننـي أجـبرتُ نفـسي عـلى إبطـاء الخطـوات؛ كان الخـدم يصعـدون الـدَّرج بالفعـل خابطـين بأقدامهـم؛ انتهـت المعزوفـة القصـيرة. ألجمنـي التعقُّـل: لا أسـتطيع إجفالهـا؛ صرخـة واحـدة سـتدمِّر كل خططـي. انسـللتُ بخفَّـة إلى غرفتهـا.

كانـت مسـتلقية عـلى فراشـها، بيدهـا عـلى وجههـا، ورداؤهـا مسـفوح عـبر جسـدها.

توقَّفـتُ عنـد العتبـة. أدركـتُ عـلى الفـور مـا الـذي تغـيَّر فيهـا: شـكل جسـدها. كان رداء الموسـلين الرقيـق يسـتلقي منبسـطًا عليهـا الآن، ورأيـتُ أن بطنهـا كانـت متكـوِّرةً، حيـث كانـت مسـتوية فيـما مـضى.

اسـتولت عـليَّ حـرارةٌ مباغتـة؛ ذلـك أنـه كان هنـاك الكثـير جـدًّا لأسـتوعبه في لحظـة واحـدة: الطفـل الـذي ينمـو في داخلهـا، الفعـل الـذي كان خلَقَـه، ومـا يُمثِّلـه مـن أسرة مسـتقبلية. جسـدك لـن يسـمح لـك أن تكـون أبًـا، قـالَ رئيـس الديـر قبـل سـنواتٍ طويلـة، وهنـا والآن، يتجسَّـد الدليـل عـلى عجـزي أمامـي، بمـا لا يـدع مجـالًا للشـك. لثـوانٍ طويلـة لم أسـتطع التنفـس. كانـت تبـكي بعنـف في يديهـا، والحـزن يفيـض منهـا، وشـيئًا فشـيئًا انتـصرت أذنـاي عـلى عينَـيَّ. تذكَّـرتُ تلـك المـرأة الصامتـة في قاعـة الرقـص، لا مباليـة كجـرسٍ مكتـوم. هـذه الدمـوع كانـت مـن أجـلي! دفعنـي هـذا لأتَّخـذ خطـوةً أخـرى إلى داخـل الغرفـة. فتحـت ذراعـيَّ. لكننـي حـيٌّ! كنـت سـأهتف.

لكننـي كنـتُ تأخَّـرتُ كثـيرًا. سـمعتُ خطـوات أنطـون البطيئـة يصعـد الـدَّرج. كان يصفِّـر لحنًـا لهانـدل بإيقـاع نشـاز. لا ينبغـي أن يجـدني هنـا. تراجعـتُ بسرعـة إلى الـرُّواق وانسـللتُ عـبر البـاب التـالي، بالضبـط فيـما صفـيره ينعطـف عنـد الزاويـة.

* * *

لم يـؤدِّ البـاب إلى مَخـرج، بـل إلى غرفـةٍ أخـرى. كانـت مظلمـة، لكننـي استطعتُ تبيُّنُ أننـي في غرفـة أطفـال. بحثـتُ باهتيـاج عـن مخـرجٍ آخـر، بمعـدتي تَزبُـد، لكننـي لاحظـتُ أن البـاب الآخـر الوحيـد يتصـل بغرفـة أماليـا.

"يـا لـه مـن مُغـنٍّ!" سـمعتُ أنطـون يهتـف مـن الجانـب الآخـر مـن البـاب. "صـوتٌ كشـعاع الشـمس في الصيـف!".

سـمعتُ حفيـفَ تقلُّبهـا عـلى الفـراش، وتيقَّنـتُ أنهـا كانـت تمسـح الدمـوع عـن ذلـك الوجـه الجميـل.

"تشعرين بتوعُّك مُجدَّدًا، أليس كذلك؟" قال.

"لا حاجة بك إلى أن تقلق".

"الموسيقى؟" سألها مُتشكِّكًا. "هل يمكن أن تكون الموسيقى حقًّا؟".

"أخبرتكَ... لا حاجة بك أن تقلق".

خطـوتُ ببـطء إلى البـاب وتلصَّصـتُ عـبر ثقـب المفتـاح. كان أنطـون يقـف في منتصـف الغرفـة، وكأن أمامـه خطًّـا لا يُسـمح لـه بتجـاوزه: هـوَّةٌ. هـزَّ رأسـه. "حقًّـا، هـذا أمـرٌ عليـكِ أن تتجاوزيـه".

"لن أتجاوزه"، قال، بانفعال. "أخبرتك بذلك من قبل".

"أماليـا، لا تكـوني حمقـاء"، قـال موبِّخًـا. "لا أحـد يكـره الموسـيقى الجميلـة".

"لا يمكنك تغييري".

تصلَّبَـت عينـاه، وومضـت ابتسـامةٌ عـبر وجهـه. أوه، بـدا أنـه يقـول، أنـالُ كل مـا أُريـده. سـترَين.

"حسنًا"، قال. "لن أحاول تغيير الأمر. اكرهي أيَّ صوتٍ تسمعينه إذا شئتِ. لكن أماليا، حقًّا، عليكِ أن تكون عقلانية. لا يمكن للمرء أن يستمتع بحياته دائمًا. هناك مسؤوليات".

سمعتُ صوت تزحزحها على الفراش. هل تجلس مُعتدلة الظهر الآن؟ "أنطون، عندما انتزعتَني من منزل أبي"، قالت، "هل تتذكَّر ماذا قلتَ؟ 'أيَّ شيء تريدينه. في ڤيينا ستكونين حرَّة'".

"وأنتِ حُرَّة حقًّا"، قال، مُبتسمًا ما يزال، لكن غضبه لم يكن بعيدًا عن السطح. "هل أمنع عنكِ أيَّ شيء؟".

"تحرمني حرية التَّسكُّع في المدينة. أن أستقلَّ عربةً بمفردي".

"أماليا، حقًّا! أنتِ سيدة راقية من آل ريشر. لستِ في قرية جبلية في سويسرا. انظري حولك! أمنحك كل ما تتوقين إليه. تلك العربة التي تتذمَّرين منها لا تقلُّ فَخامةً عن عربة أيِّ أميرة. هذا المنزل، هذه الملابس! جايتانو جوداني يغنِّي من أجلك. وأكثر من هذا. في ذلك العرض الافتتاحي ستجلسين أمامهم جميعًا، فيما هم...".

"عن ماذا تتحدَّث؟ أيُّ عرض افتتاحي؟".

جفلَ أنطون. لقد أخطأ في الحديث.

"أجبني". طقطقَ الفراش فيما تقف.

"أورفيوس الجديد، بالطبع". قال مُترثِرًا. "بالتأكيد سمعتِ عنه شيئًا".

"لكننا لا نستطيع الذهاب". كانت صوتها فاترًا، خائفًا.

"ولِمَ لا؟". ابتسامة رقيقة، بريئة.

"لأننا سنرحل".

مكتبة
t.me/soramnqraa

هــزَّ أنطــون رأســه، وابتســامته المتعاليــة تتَّســع أكــثر وأكــثر. "أماليــا"، قــال.

"وعدتَنــي أننــا ســنرحل عــن ڤيينــا!" هتفــت بعنــفٍ مفاجــئ. اتَّخَــذَت بضــع خطــوات ناحيتــه، دالفــةً إلى مجــال رؤيتــي. كانــت عيناهــا مــا تــزالان حمراويــن مــن الدمــوع، لكــن الغضــب كان الانفعــالَ المســيطر الآن.

تراجعَ خطوةً صغيرة للخلف. "لستِ في حالة تسمح بالسفر".

"أنطــون! لهــذا أردتُ الســفر قبــل شــهر!" قبَضَــت يداهــا عــلى ردائهــا وكأنهــا تريــد تمزيقــه.

"عــلى أيٍّ، فــات الأوان الآن". حــاولَ أن يتنــاول يديهــا، لكنهــا دفعتــه بعيــدًا.

"لم يَفُــت!" لوهلــةٍ توتَّــر وجههــا وقاومــت الدمــوع. "لا بُــدَّ أن أخــرج مــن هــذه المدينــة قبــل أن يــأتي الطفــل". أشــارت بإصبــعٍ اتِّهاميَّــةٍ في وجهه. "وعدتَنــي أننــا ســنقضي الشــتاء في الريــف".

"لكن أمي...".

"اللعنة على أمِّكَ!".

"أماليــا!" قبــضَ عــلى ذراعهــا وهزَّهــا بعنــف. رفــع يــده الأخــرى إلى أذنــه، وكأنــه عــلى وشــك أن يضربهــا.

أمسكتُ بمقبض الباب. إذا جرؤ، فكَّرتُ.

لكنها نظرت فحسب إلى يده المنتصبة. كانت عيناها جليدًا.

ارتجــفَ جســده مــن الغضــب. أفلتَهــا. لكنهــا لم تتراجــع، بــل ظلَّــت تُحــدِّق في عينيــه.

"لا يمكــن أن نرحــل فحســب بعــدُ"، قــال بأقــصى مــا يســتطيع مــن هــدوء. "ترغــب أمِّــي في بقائنــا معهــا لبضعــة أســابيع أخــرى...".

تلفَّظَـت أماليـا بـكل كلمـة بوضـوح. "لـن أكـون بقرتَهـا السـمينة لأشـارك في...".

"أماليـا، لم تعـودي في سـانت غـال"، قـال مُوبِّخًـا. "هـذه ڤيينـا. أنـتِ واحـدة مـن آل ريـشر. لا بُـدَّ أن تسـتوعبي وضعـك. عائلـة ريـشر سـيكون لهـا وريـث. هـذا شيء جـليٌّ للغايـة في جسـدك، وفي العـرض الافتتاحـي ستجلس الإمبراطـورة قُبالـة مقصورتنـا. لا يمكنـك لـوم أمـي عـلى القَـدَرِ الـذي اخترتِـه بالفعـل".

بـدت هـذه الكلـمات وكأنهـا تضربهـا بقسـوة. ذابَ الجليـد في عينيهـا إلى دمـوع.

"لا"، قالـت بهـدوء، فيـما تهـزُّ رأسـها بحـزن، وتعـضُّ عـلى شـفتها. "لا، لا أسـتطيع. ليـس أمامـي سـوى الـرَّبِّ لألومـه عـلى ذلـك".

"إذا كنـتِ تعيسـةً يـا أماليـا"، قـال باسـتياء، "فابحثـي داخـل قلبـك عـن السبب".

"أعـرف تمامًـا لمـاذا أنـا تعيسـة"، قالـت، وأدارت كتفهـا إليـه، وظهرهـا إليَّ. راقبهـا بامتعـاض. لكـن حينهـا سـيطر عـلى نفسـه، وتنـاول يدهـا.

"وعدتُ أمي أننا سنحضر العرض الافتتاحي بعد ثلاثة أسابيع".

انتزعـت يدهـا. "لم يكـن ينبغـي أن تعدهـا. تعـرف أن هـذا عـذاب بالنسـبة لي. لـن أذهـب".

"لا بُـدَّ أن تذهبـي"، قـال. "إذا أغضبتِهـا، فلـن تسـمح لنـا بالرحيـل أبـدًا".

اسـتدارت إليـه، ببعـض الرعـب في عينيهـا الآن. "تسـمح لنـا بالرحيـل؟ هـل تتحكَّـم في حياتنـا؟".

"أظهـري بعـض الاحـترام!" اسـتمرًا في التحديـق لبعضهـما البعـض، ومُجـدَّدًا، كان هـو مَـن أرخـى تحديقتـه. حدَّقَ بغضـبٍ في الحائـط. تمعَّنَت فيـه. أخـيرًا، هـزَّت رأسـها برفـقٍ مـن جانـب إلى آخـر.

"إذا وافقـتُ عـلى الذهـاب"، قالـت بحـذر، "يمكننـا الرحيـل في اليـوم التـالي مبـاشرةً؟".

"نعم، بالطبع"، قال بسرعة.

"إذا حُزِمَـت أغراضنـا"، قالـت، "وتهيـأَ كل شيء للرحيـل، سـأذهب إلى العـرض الافتتاحـي، رغـم أننـي سـأكره كل لحظـة. لكـن إذا شـعرتُ أننـي لا أسـتطيع الثقـة في وعـدك، سأشـتكي مـن التقلُّصـات". خطـت ناحيـة فراشـها، عارجـةً. عندمـا حدَّقـت عينـاه في فخذَيْهـا المنبعجَـيْن، رأيـتُ مجـدَّدًا ذلـك الاشـمئزاز عـلى وجهـه.

"حسـنًا"، قـال بفتـور. "آمـل أنـك تدركـين الآن أنـه لم يكـن هنـاك سـبب للتَّحـدُّث معـي بهـذه النـبرة العنيفة".

سمعتُها تهمس حينها، "أتمنَّى جدًّا ألَّا يكون أبو طفلي نعجةً".

"ماذا كان هذا؟".

"لا شيء. يمكنك المغادرة الآن". لوَّحت بيدها لإبعاده.

"مغادرتـك؟ لقـد جئـتُ لإحضـاركِ. انتهـت الحفلـة الموسـيقية. يمكنـك العـودة". لم يكـن هنـاك أثـر لتلـك الابتسـامة المُتعاليـة عـلى وجهـه.

"لا أريد أن أعود"، قالت.

"لا بُدَّ لك".

اسـتدارت للحملقـة فيـه مُجـدَّدًا، لكنهـا بـدت مُتعبـة الآن. "سـألحق بـك سريعًـا"، قالـت.

"سأنتظر".

وقد انتظر حقًّا، حتَّى نظَّفَت وجهها من الدموع والغضب. تناول ذراعها برفق في ذراعه وقادها للخروج من الباب، وكأنها عمياء وكأنه عيناها.

عندما عدتُ إلى الطابق السفلي، قبضَ جوادانى على ذراعي فور أن دلفتُ إلى قاعة الرقص. "أين كنت؟ هناك سيدتان تنتظران في العربة"، همسَ في أذني. "سأعلِّمكَ الكثير الليلة". جذبني إلى الهواء في الخارج.

لكن فور أن أصبحنا في العربة، وضعني على المقعد المقابل له، بحيث أتمكَّن من رؤيته بين السيدتين المُشرقتَين. حملقت واحدة من المرأتين بعينين جائعتين فيما يُمسِّد على فخذ الأخرى. قبَّل المرأة الجائعة على خدِّها لتهدئتها؛ مما أثار الأخرى وجعلها تتسلَّق حِجره. دفعها لإنزالها. "الصبر"، ألحَّ. "هل هذا يليق بأميرة؟".

عندما وصلنا إلى منزله، انحنى للأمام وهمسَ في أذني، "هاتان الاثنتان ستتعاركان كالقطط الليلة. تسكَّع بالعربة قليلًا. عُد عندما يطلع النهار".

* * *

طوال ساعةٍ قادَ بي الحوذيُّ عبر المدينة، وتفكَّرتُ في إخفاقي. هل ستتاح لي فرصةٌ أخرى أبدًا؟ لعنتُ نفسي على بُطئي في التَّصرُّف. وعاهدتُ نفسي أنني أبدًا لن أشكَّ في حبِّ أماليا مُجدَّدًا.

لكن حتَّى فيما أزداد وهنًا ويأسًا تجاه فرصة استعادتها، كان هناك لهيبٌ ما يتصاعد شيئًا فشيئًا داخلي، حتَّى وجدتُ نفسي أبتسم.

طفل! سيكون لديها طفل!

في البداية شعرتُ تجاه هذا بوخزٍ في أعمقِ أعماق عاري، لكن، مع تراجُع ذلك الوخز، بدت هذه الحياة القادمة كباشرة أمل.

أتمنَّى ألَّا يكون أبو طفلي نعجة، قالت حينها.

في النهايـة، أمـرتُ الحـوذي أن يأخـذني إلى سـبيتلبرج. أقلَّنـي حتـى بيرجاسـه، قبـل أن يقـول إنـه لا يريـد كـسر عجـلات العربـة عـلى الشـارع المـليء بالحفـر. ترجَّلـتُ وبـدأت في السـير مـن هنـاك.

في الصبـاح الباكـر، كانـت السـماء مـا تـزال رماديـة. والشـوارع القـذرة صامتـة كـما سـمعتُها دومًـا. لم تكـن هنـاك سـيداتٌ يُغويـن مـن نوافـذ الحانـات المتداعيـة. في مقهـاه، اسـتغرق السـيد كوسـت في النـوم عـلى مقعـد طويـل. لم أوقظـه فيـما أنسـلُّ صاعـدًا الـدَّرج.

نزيـل واحـد في سـبيتلبرج كان مسـتيقظًا: نيكـولاي جالسًـا في مقعـده أمـام نافـذة مفتوحـة. جلسـتُ بجـواره، وحدَّقنـا معًـا في بيرجاسـه وعـبر المدينـة. كانـت أحجـار الشـارع القليلـة المُتبقِّيـة تـبرز مـن الأرض كأسـنان قديمـة، ملتويـة. في الحانـات، حفنـة مصابيـح مـا زالـت موقـدة، وعـلى نوافذهـا يتراكـم السِّـناج كالجليـد.

"أحـبُّ أن أجلـس هنـا وأتنفَّـس الهـواء"، قـال نيكـولاي، "قبـل أن تطلـع الشـمس وتـؤذي عينـيَّ. لم تتبـقَّ سـوى بضـع دقائـق أخـرى. ثـم سـأغلق السـتائر طـوال النهـار".

لم أقُـل أيَّ شيء؛ لذلـك سـألني مُتحقِّقًـا، "هـل كنـتَ في الخـارج حتَّـى وقـت متأخـر أم أنـك اسـتيقظت مبكِّـرًا؟".

"في الخارج حتَّى وقت متأخر".

"جواداني يأخذك إلى حفلاته؟".

أومـأتُ. خـرج كلبـان مـن الظـلال وأخـذا ينغـزان في جُـزرِ المخلَّفـات المُتعفِّنـة في الشـارع. جلسـنا لبضعـة دقائـق أخـرى قبـل أن أجـد الشـجاعة للتحـدُّث.

"نيكولاي، هل تتذكَّر عندما أخبرتني أن الحبَّ هو التقاء نصفَيْن؟".

هـزَّ نيكـولاي كتفَيْـه اسـتهانةً. أضفـى الضـوء الرقيـق للشـمس الصاعدة عـلى وجهـه المنتفـخ مزيـدًا مـن الرخـاوة، وكأنـه قالـبٌ مـن شـمعٍ دافـئ. "هـل قلـتُ ذلـك؟ أعتقـد أنـه بمقـدوري. ربمـا قلـتُ أشـياء أكـثر حماقـةً طـوال هـذه السـنين"، قـال للنافـذة المفتوحـة. "عـلى أيِّ حـال، سـيكون بديعًـا لـو كان حقيقيًـا. الحـب مثـل التقـاء القفـل والمفتـاح! لا يـا مـوسى. أيُّ رجـل يقـول هـذا ليـس سـوى أحمـق. وجـدتُ نصفـي الآخـر قبـل عقـود، وانظـر كيـف آلمتُـه. كان ينبغـي أن أتركـه وحيـدًا".

فتحَ أحدهـم بابًـا في واحـدة مـن الحانـات وترنَّـح مُتَّجهًـا إلى المدينـة. كانـت في السـماء الرماديـة الآن لطخـاتٌ مـن الـورديِّ عـلى طـول سـطحها، كلمعـان الزيـت عـلى بِركـة مـن الوحـل.

"نيكولاي"، قلتُ. "أنا واقع في الحب".

عندمـا نظـرَ إليَّ، بعينيـه الكابيتَـيْن تضيقـان في محاولـةٍ لرؤيـة وجهـي، كان هنـاك ذلـك الاندهـاش الـذي خشـيتُ أن أراه عـلى وجهـه. منّـي أنـا، لم يتوقَّـع قـطُّ اعترافًـا كهـذا. لكـن ذلـك الاندهـاش لم يؤلمنـي كـما توقَّعـتُ، لأنـه مـع المفاجـأة كانـت البهجـة الصافيـة أيضًـا.

"واقعٌ في الحبِّ!" قال.

وهكـذا أخبرتــه بــكل شيء: عــن تلــك الفتــاة كريمــة النَّســب وأمهــا المحتـضرة، عـن المـرأة الشـابة التـي تسـلَّلَت إلى الديـر، عـن لياليـنا في غرفـة العِلِّيَّـة. أخبرتـه أنهـا لم تعـرف وجهـي، بـل صـوتي فحسـب، أنهـا دعتنـي أورفيوس(هـا). حكيـتُ لـه أيضًـا عـن الأحمـق الـذي كنتُـه، وكيـف أننـي أضعـتُ فرصتـي، وكيـف تزوَّجَـت مـن أنطـون ريـشر العظيـم مـن فيينـا. كيـف ستلد طفـلًا قريبًـا. أخبرتـه كيـف تظـنُّ أننـي ميِّـت، وكيـف تحبُّنـي مـا تـزال.

"لكــن أمامــك الآن فرصــة أخــرى!" قــال، وكان أملـه في غايـة الاتِّقـاد، لحــدِّ أنــه ألهــبَ أمــلي. "بمقــدور أورفيــوس إنقــاذ يوريديس(تــه)!".

بوجهٍ يعلوه العار، أخبرته عن إخفاقي في الحفلة، وكيف أنني خشيتُ ألّا أستطيع اقتحام ذلك السجن الذي يُدعى منزلًا مُجدَّدًا، حيث يحبسونها. وكيف أنها، قريبًا، سترحل إلى الريف.

"إذن فعلينا ألّا نضيِّع لحظةً أخرى. سندلف إلى ذلك المنزل حتَّى لو اضطررنا إلى هدم جدرانه!".

شكرته على تشجيعه، رغم أنني كنت أعرف أنهم وحدهم الحمقى سيحاولون تجربة ما يقوله. لكن واتتني فكرة أخيرة. "ستكون في العرض الافتتاحي للأوبرا بعد ثلاثة أسابيع. إذا استطعتُ أن أتحايل بطريقةٍ ما لإيصال رسالة إليها، بمقدوري إخبارها أن تتسلَّل إلى الخارج. ربما نستطيع أن نهرب". ارتعش صوتي فيما أخبر صديقي بآمالي. هل سيراها حمقاء؟

"ستسرقها في الأوبرا!" هتفَ، ونظرَ بتمعُّن شديد في الفجر وكأنه رأى رؤيةً لنا نحن الاثنين في التدويمات الوردية للسماء.

تعاظَمَت الاستثارة داخلي، كقرع طبول يتزايد شيئًا فشيئًا. سأكون أورفيوس(ها) وأختطفها خفيةً! لكنني قمعتُ قلبي. "نيكولاي"، قلت. "الحذر ذو أهمية قصوى. إذا راوَدَت الكونتيسة ريشر شكوك حيال أيِّ شيء، فربما لا أراها مُجدَّدًا أبدًا".

"الحذر؟" قال. تفكَّرَ قليلًا. "ربما علينا أن نطلب نصيحة ريموس".

ساعدتُ نيكولاي في شَقِّ طريقه إلى غرفة ريموس. فراشٌ ضيِّق كان يشغل معظم المساحة، فيما تشغل أكوامٌ من الكتب ما تبقّى. تعثَّر نيكولاي فوقها، وأوشكَ على السقوط فوق الفراش، وعند صرَّ إطار الفراش، جفلَ ريموس مستيقظًا في اللحظة المناسبة بالكاد لتجنُّب الانسحاق تحت نيكولاي، الذي رفرفَ كسمكةٍ هائلة تحاول الانقلاب عائدةً إلى النَبع. عندما تموضعَ أخيرًا على الفراش، تحسَّسَ بحثًا عن

قميـص ريمـوس. هـزَّ الرجـل الأصغـر حجـمًا. "ريمـوس، اسـتيقِظْ! مـوسى واقـع في الحـب! في الحـب! اسـتيقظ!".

"أنـا مسـتيقظ"، قـال ريمـوس، دافعًـا يـدَيْ نيكـولاي بعيـدًا عـن حلقـه. "تولَّيـتَ ذلـك".

"إذن فانهـض وارقـص! إنـه حقيقـي؛ وهـي واقعـةٌ في حبِّـه أيضًـا! داوَمَـا طـوال سـنين عـلى التلاقـي سرًّا في غرفـة عِلِّيَّـة وكان يغنِّـي لهـا حتـى تبـكي. إنهـا جميلـة كأمـيرة، وأفضـل مـا في الأمـر أنهـا هنـا، في ڤيينـا! متزوِّجـة برجـل أثيـم. علينـا أن ننقذهـا ونلـمَّ شـملهما". كاد أن يُغمـى عـلى نيكـولاي مـن الانتشـاء.

"إنه... ليس أثيمًا بالضبط"، غمغمتُ.

"أوه، وكـدتُ أنـسى الجـزء الأكـثر رومانسـيةً"، أضـاف نيكـولاي. كانـت يـداه قـد تركتـا ريمـوس المبهـوت مـا يـزال، وامتدَّتـا إلى الفـراغ مـن حولـه، في محاولـة لاقتنـاص شـمسٍ بعيـدة مـا. "إنهـا لا تعـرف وجهـه".

"لا تعرف وجهه؟" سألَ ريموس.

"كانت ترتدي عِصابة على عينيها".

"عِصابة؟ لماذا؟" استدارَ ريموس إليَّ، واحمرَّ عنقي.

"لا يهـم لمـاذا"، قـال نيكـولاي. "المهـم أنهـا تعـرف صوتـه، تعرفـه أفضـل مـمَّا يعـرف العُشَّـاق وجـوه عُشَّـاقهم. كل مـا يحتاجـه هـو أن يتحـدَّث... أو يُغنِّـي! وحينهـا سيسـتعيدها وسـيمكنهما الهـروب!".

لـوَّحَ نيكـولاي بذراعـه وحـاولَ أن يشـير إلى هروبنـا البعيـد. أسـقطَ مصبـاح ريمـوس المُطفـأ. تهشَّـم الزجـاج عـلى الأرض.

"هلّا توقَّفت عن الحركة!" هتفَ ريموس.

"كيف لي أن...".

"وكُن هادئًا! أريد أن أتحدَّث إلى موسى". تطلَّعَ إليَّ ريموس بتجهُّم. "هل ما يقوله صحيح؟".

"ليس رجلًا أثيمًا، أنطون ذاك". قلتُ. "الباقي حقيقيٌّ في مُعظمه. إنها لا تحبُّه. هذا ما أعرفه".

"وأنت متيقِّن أنها تحبُّك؟" سألني. "موسى، هذه مسألة خطيرة. هل ستخون زوجها وعائلتها حقًّا؟".

انتظرَ كلاهما إجابتي. لحظة كانت كل ما أحتاجه لأراجع تاريخ حبِّنا بالأصوات. "أنا مُتيقِّن"، قلت. صفَّق نيكولاي بيديه، وريموس نفسه ابتسم.

"إذن فسأكتب رسالة"، قال.

"رسالة؟" سألَ نيكولاي. "لكن ريموس، كتابتك رتيبة للغاية".

"هذا لا يهم"، قال. "الأمر بسيط. ستنقل الرسالة الحقائق فحسب. موسى حيٌّ. وهو، أيضًا، سيحضر الأوبرا. عليها أن تتسلَّل خارجةً في لحظة بعينها".

"عندما يتطلَّع أورفيوس في عينَيْ يوريديس!" همسَ نيكولاي.

"أو في أيِّ لحظة أخرى"، قال ريموس. "لن يُحدِثَ ذلك فرقًا".

"لن يُحدث فرقًا!"، وبَّخه نيكولاي. "ريموس، ضيَّعت وقتك على كل هذه الكتب التي قرأتها". وابتسمَ نيكولاي مع المزحة. لكنَّ وجهه أظلمَ بغتةً. "لكن ريموس، هناك مشكلة في خُطَّتك. شيئًا أغفلتَه. كيف ستصل الرسالة إليها؟".

أومأ ريموس إليَّ إيماءة العارف.

"سيضعها موسى في يديها بنفسه".

"أنا؟".

"نعـم"، قـال ريمـوس. "أنـتَ تلميـذ جـواداني، رسـوله. أنـتَ وحـدك يمكنـه الولـوج إلى أيٍّ مقصـورة في الأوبـرا. يمكنـك تسـليم خطـاب إلى الإمبراطـورة. سـتُخبر أيَّ شـخص يسـألك أنـك تحمـل خطابًـا إلى السـيدة مـن الفنـان المُبـدع ذاتـه. سـيظنون أنهـا أثـارت إعجابـه فيـما يقـف عـلى خشـبة المـسرح".

"ريموس"، قال نيكولاي، "هذا عبقري!".

ابتسمَ ريموس بزهوٍ.

وهكـذا رُسِـمَت خُطتنـا، ولم يتبـقَّ أمامـي سـوى انتظـار العـرض الافتتاحـي.

(12)

قابلتُ إلهة الحبِّ لأول مرة ذات ظهيرة فيما تاسو وجلوك يحاولان تعليمها الطيران. فيما ندلف أنا ومُعلِّمي إلى المسرح، كانت لوسيا كلافارو البدينة تقف في منتصف خشبة المسرح بجناحين مُنمنمَيْن مُثبَّتَين في ظهرها. «يا إلهي»، غمغمَ جوداني. «ألا يدركون أن الدُّبَّ بجناحين يظل دبًّا؟».

"لكنك ضئيل جدًّا"، قالت لتاسو، بعد أن رَبَطها في حبال الرفع، "ستُسقِ...".

أطلقت صرخة سوبرانو مُجلجلة فيما تاسو يُحرِّر الوزن لرفعها إلى السماء. تأرجَحَت عبر خشبة المسرح.

"لا تتلَّوي!" هتفَ تاسو.

"أنزِلْني!" صرَخَت.

جـذبَ تاسـو حبـلًا آخـر وتقوَّسَـت هـي، صارخـةً وخابطـةً بقدميهـا، عائـدةً عـبر خشـبة المـسرح.

"أنزِلْهـا"، قـال جلـوك لتاسـو. "تبـدو كحـشرة أكـثر مـن كونهـا إلهـة للحـب. سـنضعها عـلى قاعـدة".

كانـت عـروس أورفيـوس، ماريانـا بيانتـشي، هزيلـة وشـاحبة، بصـوتٍ بديـع سُرعـان مـا أفـاضَ الدمـوع في عينـَيَّ. طـوال حيـاتي نـادرًا للغايـة مـا سـمعتُ امـرأةً تُغنّـي، وتيقَّنـتُ بغتـةً أن أمِّـي كانـت لتُغنِّـي هكـذا. أثنـاء البروڤـات كل ظهـيرة، كنـتُ أجلـس مـع تاسـو، أو في جانـب المـسرح في انتظـار حضـور مُعلِّمـي. كانـت إيطاليَّتـي جيـدة الآن بمـا يكفـي، وإيطاليَّـة كالزابيجـي بسـيطة بمـا يكفـي، لدرجـة أنـه بعـد الأسـبوع الأول مـن البروڤـات لم أعـد أفهـم القصـة فحسـب، بـل صـار بمقـدوري الغنـاء بجـوار جـواداني بصـوتٍ خافـت. تبيَّنـتُ الجَـمالَ والنواقـص في صوتـه.

"سـيدي"، قلـتُ بحـذرٍ شـديد ذات أمسـية في طريقنـا للعـودة إلى منزلـه، "يـا لـه مـن شرفٍ أن أسـمعك تُغنِّـي".

انحنى بلا مبالاة من مقعده.

"أتساءل إن كان بمقدوري، ربما، أن أسألك سؤالًا".

رفعَ جبينه.

"كان الفصـلان الأولان رائعَـيْن بحـقٍّ، ألا تظـنُّ أن الفصـل الثالـث كان... كان... أكـثر مـمَّا ينبغـي؟".

"كان (ماذا) أكثر ممَّا ينبغي؟" قال باندفاع.

بحثـتُ عـن الكلمـة المناسـبة لوصـف مـا أعنيـه. "عاليًـا... أكـثر مـمَّا ينبغــي؟".

"عاليًـا أكـثر مـمًّا ينبغـي؟" اسـتدارَ، وجعلنـي الوميـض المهتـاج في عينيـه أتراجـع لألتصـق بالباب.

"ليس عاليًا أكثر ممَّا ينبغي، على وجه الدقة"، تراجعتُ. "لكن... لكن عاليًا فحسب. لديكَ أجمل صوت سمعتُ قطُّ يا سيدي، لكن، حسنًا، ربما إذا كبحتَ لجام صوتك في مواضع بعينها، فإن جهارة صوتك المحدودة ستكون أكثر إقناعًا".

"جهارة صوت محدودة؟" حملقَ جوادانى إليَّ وكأنه يَشهد دودة مُقزِّزة تزحف خارجةً من أنفي.

"حسنًا، وفير جدًّا. لكن...".

انحنى للأمام. أدركتُ أنه كان يرتعش من أعماقه. "كيف تجرؤ! أنت!" هتف. "أنت لا تفقه شيئًا! لا تفقه شيئًا!".

"أنا آسف"، لوَّحتُ بيدَيَّ، على أمل صدِّ هجومه. "لم يكن ينبغي أن...".

رفعه غضبه عن مقعده بحيث صار يعلوني بجسده. "لا تعرف عن الأوبرا أكثر من الأمراء الحمقى في تلك الحفلات. أنت مجرَّد مُغنِّي جوقة شُقَّ من أجل متعة منحرفة لأحدهم. طواشيٌّ مُدلَّل لأحدهم فرَّ هاربًا". أخذَ بضعة أنفاس عميقة. عندما تحدَّث، كان صوته المخملي يتماوج من الغضب. "أبدًا"، اقترب وجهه من وجهي بشدَّة، لدرجة أنني ظننتُ أنه سيعضُّني- "أبدًا لا تخبرني مُجدَّدًا بما تراه".

* * *

لم أفعل قطُّ، لكن لاحقًا، كثيرون جدًّا سيفعلون. سيعود إلى لندن، ورغم أنهم في البداية سيحتفون به كابنٍ منتصر وقد عاد، إلَّا أن صوته سيفشل في أن يكون ذلك الصوت الذي طالما حَلُموا به. فرَّ إلى "بادوا" وإلى العزلة، حيث مات مُعدَمًا، بعد أن تفرَّقت ثروته بين المَخصيِّين البائسين الذين أحاطوا به كتلاميذ. كانت بهجته الوحيدة،

في أعوامـه الأخـيرة، تقديـم عـرض عرائـس منفـرد بشـكل منتظـم لأوبـرا جلـوك العظيمـة، سـيتذكَّره النـاس ذلـك العـرض لاحقًـا كمُنجـزه الأفضـل.

حتـمًا قـرأتَ الكثـير عـن العـرض الافتتاحـي لهـذه الأوبـرا. في غضـون أسـابيع فحسـب صـارت أوروبـا كلهـا تتحـدَّث عـن نجـاح جـواداني وجلـوك. لكـن علـيَّ أخيِّـب أملـك: لم يكـن شيءٌ مـن هـذا حقيقيًّـا. لم تكـن كل الحكايـات زائفـة فحسـب -لأنـه في تلـك الليلـة الشـهيرة في أكتوبـر 1762 تتابعـت الأحـداث عـلى خـلاف الراويـة الرسـمية- بـل كانـت زائفـة بشـكل مُضاعَـف؛ لأن تلـك الليلـة لم تكـن -في واقـع الأمـر- عرضًـا افتتاحيًّـا عـلى الإطـلاق. انعقـدَ العـرض الافتتاحـي الحقيقـي قبلهـا بعـدة أيـام. لم تكـن الإمبراطـورة حـاضرةً، ولا حتَّـى المؤلـف الموسـيقي. في واقـع الأمـر، كان المـكان الـذي انعقـدَ فيـه العـرض ردهـةً ضيقـةً في سـبيتلبرج. لم يضـمَّ الجمهـور الرسـمي سـوى ثلاثـة: عامـل مـسرح قـزم لا يعـرف أيَّ إيطاليَّـةً، كان يظـنُّ، قبـل شـهرين فحسـب، أن أورفيـوس نـوع مـن الأزهـار؛ وراهـب سـابق مُصـاب بالزُّهـري؛ وذئـب مولـع بالكتـب يعـرف اثنتـي عـشرة نسـخة مـن حكايـة أورفيـوس، وبمقـدوره سرد أعـمال أوفيـد وڤيرچيـل بـأيِّ لغـة تشـاء.

جلبـتُ أربعـة أكـواب مـن السـحر الأسـود. أدرتُ مقعد نيكـولاي ناحية خشـبة المـسرح المُرتجلـة التـي صنعتهـا عـلى المدفـأة الفارغـة. طلبـتُ مـن ريمـوس إغـلاق كتابـه، ثـم أخـبرتُ تاسـو أن أورفيـوس كان أعظـم موسـيقيٍّ عرفتـه البشريـة، وأنـه عـاشَ منـذ زمـن طويل جـدًّا، جـدًا، لكنني سـأعيده إلى الحيـاة تلـك الليلـة. شرحـتُ لـه أن زوجتـي المحبوبـة، يوريديـس، ميِّتـة.

"إذن ما المغزى؟" قال تاسو. "لماذا لا تُغنِّي عن شيءٍ آخر؟".

هزَّ نيكولاي رأسه. بدأتُ الغناء.

لم يكـن أعظـم أداء في حيـاتي. لم تعـزف الأوركسـترا ولم تُـردِّد الجوقـة إلَّا في رأسي، وبالتـالي سـمعَ جمهـوري لحظـات طويلـة مـن الصمـت. عندمـا

بـدأت، في الحقيقـة، رفعـتُ قبضتَـيَّ أمـام قلبـي ولم أتحـرَّك -كـما كنـتُ أرى جـواداني يفعـل عـلى خشـبة مسرحـة- طـوال الدقائـق الأربـع مـن افتتاحيـة الجوقـة. لم يسـمع جمهـوري سـوى صيحـاتي الثلاثـة *Euridice!* التـي غنَّيُتهـا، كـما كان جلـوك قـد أرشـدَ جـواداني، "وكأن أحدهـم يقطـع بمنشـار عـبر عظامـك". تخشَّـب نيكـولاي مـع كل صيحـة، واتَّسـعت عينـا تاسـو عـن آخرهـما.

كانـت ليلـةً دافئـة، والنوافـذ مفتوحـة. عـبر الهـواء تسرَّبَـت إلينـا هتافـات أطفـال مُتقطِّعـة، سـباب سـكارى، إغـواءات عذبـة، وآهـات لـذَّة، لتُذكِّـرني أنـه في ذلـك المـكان لا يحتـاج أحـدٌ إلى إخفـاء أصواتـه. يتـوق صـوتي إلى أن يختلـط بـكل الأصـوات الأخـرى فحسـب. لكـن مَـن سـيكترث ليُنصـت؟

لكننـي كنـتُ مخطئـًا: فيـما أُغنِّـي للعمـلاق والذئـب والقـزم في ردهـة الاسـتقبال تلـك، مُناديـًا عـلى عـروسي الميِّتـة، ترَكَـت العائـلات مناضدهـا المُزدحمـة وخطـت نحـو نوافذهـا، في محاولـة للتَّعـرُّف عـلى هويـة ذلـك النائـح. توقَّـفَ الأطفـال في الشـوارع عـن لَعِبهـم. أنـزل الرجـال جعَّتهـم ورفعـوا أبصارهـم إلى السـماء. أيقظَـت هـذه الصيحـات عـلى محبوبتـي كل قلـبٍ في ذلـك الحـيِّ.

لم أدرك حينهـا أن أحـدًا يسـمعني خـارج المسـكَن. في مـسرح عقـلي، غـادَرَت الجوقـة خشـبة المـسرح، وصرتُ أنـا، أورفيـوس، أقـف هنـاك وحيـدًا. كانـت يوريديـس قـد انتُزِعَـت منِّـي بقسـوةٍ إلى مـوتٍ بـلا يقظـة. غنَّيـتُ عاليًـا مـن أجلهـا. ثـم، مـع تصاعُـد موسـيقى الأوركسـترا، شـعرتُ بحـزني يتحـوَّل إلى غضـبٍ أنقـى مـمَّا عرفـتُ قـطُّ. أبغضـتُ تلـك الآلهـة الجشـعة لِـما سرَقَتـه منِّـي.

تخـدَّرَت يـداي فيـما أغنِّـي. عندمـا فتحـتُ عينَـيَّ مُجـدَّدًا، كان تاسـو ينكمـش في مقعـده تحـت بطـش صـوتي. جلجَلَـت لعنـاتي الأكـواب الفارغة

المستقرَّة على المنضدة. في الطابق السُّفلي، في المقهى، كان الرجال قد توقَّفوا عن السِّجالات.

انتهيتُ من غنائي، ولهثتُ طالبًا الهواء. صفَّق نيكولاي بيديه المُنتفختين. هزَّ ريموس رأسه في اندهاش. تطلَّع تاسو من أحدهما إلى الآخر؛ ضمَّ قبضتَيْه وفتحهما.

"لا أستطيع أن أغنِّي الثنائيات بمفردي"، قلتُ. ضاقَ جبين تاسو وكأنه يشتَمُّ خديعةً. "لكنني سأخبركم بما تغفلون عنه"، تابعتُ. "حزني كبير للغاية لحدٍّ أن چوبيتر (كبير الآلهة) قد أشفقَ عليَّ. أرسل بآمور، إلهة الحب، لتخبرني أنني إذا استطعتُ استرضاء ربَّات الانتقام (*Furies*) في العالم السفلي بغنائي، فربما أستطيع استعادة يوريديس(تي) مُجدَّدًا".

ضغطَ تاسو براحتَيْه معًا وتطلَّع إلى ريموس، الذي كان خبيرًا في هذه الأشياء. عندما أومأَ ريموس بتأكيد، نخرَ تاسو.

"كنت أعرف أنها ليست ميِّتة حقًّا!" قال.

"إنها كذلك"، قلت. "لكن بمقدوري إنقاذها!".

"حسنًا"، قال. "أنا مُستعدٌّ". قبضَ على ذراعَيْ مقعده وكأنه يخشى أن أيًّا ما سيأتي سيطرحه عن مقعده.

"لكن هناك شرط"، قلت.

تجمَّد وجه تاسو. "شرط؟" كرَّر.

"نعم، تقول آمور إنه فور أن أستعيدها، لا أستطيع النظر إليها حتَّى نغادر الكهوف بعد نهر ستيكس (الجحيمي)".

"لكن لماذا؟".

"هذه مشيئة الآلهة".

"لكن هذا ليس عدلًا!".

"الآلهة ليست عادلة".

"لكنك ستستعيدها، أليس كذلك؟".

"عليكَ أن تُنصت".

"إذن فلنبدأ على الفور!" قالَ مُزمجرًا.

غنَّيتُ. وفي عقلي، هبطتُ إلى الكهوف الجحيمية. تراقصت ربَّات انتقام أنچيوليني (Angiolini) حولي. رَجَوتُها أن تعطف عليَّ، لكنها تكاثرت وتصايحت لإبعادي. لم تستطع إخافتي؛ ذلك أن جحيمها لم يكن شيئًا بالمقارنة بجحيم الوحدة داخل قلبي. غنَّيتُ من أجلها: لن تَكُنَّ بهذه القسوة فقط لو علمتُنَّ أعماق حبي.

كان وجه نيكولاي مُخضَّبًا. مسحَ الدموع بظهر يده المتكوِّرة. في الخارج، كان الشارع هادئًا أيضًا؛ حشدٌ قد تجمَّع حول نافذتنا. تصايح الحوذيون لأن عرباتهم لا تستطيع المُضيَّ، وتدافع الرجال للاقتراب من النافذة. أخيرًا، على خشبة المسرح، توقَّفَت ربَّات الانتقام عن رقصاتها. تراجَعَ الشياطين، مذهولين من وجود حُبٍّ كهذا في الجحيم. سمحوا لي بالعبور.

انحسرت بوابات العالم السفلي مفتوحةً.

توقَّفت. كان هناك صمتٌ في الردهة. ابتلعَ ريموس ريقه، ومسحَ نيكولاي جبينه بكمِّه. مضغ تاسو شفته. لم أدعهم ينتظرون. بدأتُ في تلك الأغنية التي كانت أغوتني إلى مرقص جواداني قبل شهرين. غادرتُ الكهوف المظلمة، الملتهبة إلى الحقول الفردوسية الدافئة، الساطعة. كانت السماء صافية، وملأ الأمل قلبي، وفي عقلي، سمعتُ النغمات المُنعشة لمزمار جلوك.

كانت أغنيتي دثارًا دافئًا أضعه على أصدقائي. أردتُ طمأنتَهم كما طمأنَتْني الموسيقى. أردتُهم أن يشعروا بالأمل الذي كان في قلبي. زمَّ تاسو شفتيه، وأغلقَ نيكولاي عينيه وكأنه يتنعَّم في دفء صوتي. انبسطَ جبين ريموس، وارتخت عيناه. أبدًا لم أره وسيمًا هكذا.

في الخارج كان الليل صامتًا. ستُغيِّر هذه الأغنية من حال الشارع؛ لن أستطيع السير فيه أبدًا دون تحديق الناس، دون همساتهم. إنه مَن غنَّى في تلك الليلة الخريفية. جعلنا نتوقَّف ونُنصت. بثَّ فينا الرعشة. جعلَ أمِّي تبتسم. جعلَ أبي السقيم يغادر فراشه وينصت عند النافذة. إنه أورفيوس(نا)! كم كان جلوك ليبغضني، بعد أن أرقتُ عبقريته على آذانٍ ساذجة كهذه.

ثم هناك كانت هي، في عقلي، ظلُّ شكلها البشري. مددَتُ ذراعي، لكن فور أن خطَت إلى الضوء -قبل أن أرى وجهها- استدرتُ مبتعدًا؛ ذلك أنني لم أستطع النظر إليها، وإلَّا ستموت مُجدَّدًا.

عندما انتهيتُ من الأغنية، صارت أنفاس نيكولاي أمواجًا لطيفة؛ ظلَّت عيناه مُغلقَتيْن. ربما كان نائمًا. مالَ تاسو مُقتربًا. "هل عادت؟" همسَ. لم يرغب في تعكير صفو الليل.

"نعم"، قلتُ. رفعتُ يدي. "أحملها هنا. إنها حيَّةٌ مُجدَّدًا، لكنني لا أستطيع النظر إليها، وإلَّا ستموت".

تنشَّق تاسو بحدَّة.

"إنها لا تفهم"، قلت. "تظنُّ أنني لم أعد أحبُّها. هذا مؤلم جدًّا. تغنِّي وتقول أنها تُفضِّل الموت على أن تعيش دون حبِّي. إنه كالخنجر في قلبي. أودُّ لو أخبرها أن الآلهة تمنعني من النظر إلى عينيها. لا يوجد موضعٌ آخر أودُّ أن أنظر إليه. لكنني لا أستطيع قول كلمة واحدة حول عهدي، وإلَّا سيُنكَث، وستموت هي مُجدَّدًا".

"غنِّ ما تبقَّى بالألمانية"، قال تاسو. "لا أطيق انتظار الترجمة".

"تاسو"، قلتُ برفق. "لن تُلائم الموسيقى".

أشارَ ريموس إلى تاسو ليجلس على ذراع مقعده. قال إنه سيهمس بالترجمة في أذنه.

أغلقتُ عينَيَّ. لعقَت ألسنة النار الجُدران. أمسكتُ بيدها في يدي، لكنها ما زالت نائيةً عنّي. أسرعي! أسرعي! كان علينا أن نهرب من هذه الكهوف الشنيعة، لنعود إلى النور، حتَّى أستطيع رؤية وجهها. سيقتلنا هذا المكان. لكن الحزن كان قد أصابها بالوهن. انهارت على ركبتيها وتوسَّلَت إليَّ أن أنظر في عينيها.

طقطَقَت حواسي. سأجنُّ إذا لم ينتهِ هذا العذاب! توتَّر صوتي من الرعب. شعرتُ بأوتار عضلاتي تنتفخ في عنقي.

فتحتُ عينَيَّ. في ردهة الاستقبال، همَسَت شفتا ريموس في أذن تاسو. اتَّسَعَت عينا نيكولاي وثَبتَتا على وجهي. لم يكن أمامي خيار! لم أعد أتحمَّل وطأة آلامها!

نقضتُ وعدي. نظرتُ في عينيها، وللحظة واحدة أدركت يوريديس أنني أحبُّها. لكن عندها تحقَّقت مشيئة جوبيتر: ماتت.

حدَّقَ تاسو عند قدميَّ، حيث رأى يوريديس، ميِّتة على الأرض. رفع بصره إلى وجهي في ذهول، عيناه الصغيرتان جوهرتان لامعتان، مصقولتان بدموعه. سكَنَت المدينة في الخارج، لكنني صرتُ واعيًا الآن بالأنفاس الكثيرة. أدركتُ أن هناك أعينًا تُحملق وراء النافذة، يحدوها الأمل أن الأغنية لم تنتهِ بعد.

بدأت وتريات جلوك في العزف مُجدَّدًا في رأسي؛ أبدًا لم أشعر بالأنغام الأولى للمقطع (ماذا أفعل بدونكِ يا يوريديس *Che farò senza Euridice*؟) بكل هذا الحزن.

جلجلتُ. كنتُ جرسًا مصبوبًا من الجليد.

انحنى تاسو للأمام من مقعده، بعد أن لم يَعُد مباليًا بسماع ترجمة ريموس. بكى نيكولاي في يديه. جلسَ ريموس مُنتصبًا، بعينيه مُغلقتَيْن. في الشوارع كان هناك الكثير من البكاء. تشبَّثَ الأطفال بأمهاتهم. مالت العاهرات على عتبات نوافذهن، مُجاهدات ليرين وجهي؛ ذلك أنه كان هناك أمل في هذه الأغنية. وإذا استطاع أورفيوس، في حزنه، أن يستدعي هذا الأمل، فهم أيضًا سيقدرون. وفيما أغنِّي، ضمُّوا قبضاتهم وانخرطوا في البكاء.

عندما انتهيت، استندتُ إلى الحائط.

"هل انتهت؟" همسَ تاسو.

هززتُ رأسي، لكنني لم أستطع التحدُّث. بالطبع لم تنتهِ، وددتُ أن أقول. لكن هذا كان كثيرًا جدًّا. تذكَّرتُ أن يوريديس(تي) نائمة ليس بعيدًا عنِّي. لم أستطع التَّنفُّس. بدأت رأسي في الدوران. وحينها سقطتُ على ركبتَيَّ. كان آخر ما رأيته نيكولاي، عملاقًا، بعينَيْن مُغلقتَيْن، وابتسامة هادئة على وجهه، وكأنه رأى ملاكًا لتوِّه.

ثم تركتُ نفسي تهوي في الظلام.

* * *

كان تاسو بطلي المُنقِذ. اندفعَ من مقعد ريموس وأمسكَ بي قبل أن يصطدم صدغي بالمدفأة. وضعَ رأسي برفقٍ في حجره ومسَّدَ جبيني.

فيما أستفيق، سمعتُه يسأل ريموس، "هل هذا كل شيء؟ هل انتهى الأمر؟".

"نعم"، قال ريموس. "فقَدَ أورفيوس يوريديس مُجدَّدًا وللأبد. بحسب ڤيرچيل، سينوح لشهورٍ طويلة، شاديًا بمراثيَّ بديعة، لدرجة أن كل حيوانات الغابة ستهرع لسماعه. لكن هذا سيُغضب نساء أزمرا،

اللـواتي لا يؤمـنَّ بحـبٍّ كهـذا. سـيمزِّقنه إلى شـظايا. وفيـما يطفـو رأسـه المقطـوع عـبر نهـر هيـبروس، سـيهتف باسـم يوريديـس".

تنهَّدَ تاسو. "لكن كيف لهذا أن يحدث؟" سأل. "لقد أحبَّها بشدَّة".

"لا يهم"، قال ريموس. "الآلهة ليست في غاية الرحمة".

"هذا غير حقيقي!" لهثتُ. "لقد سُمِعَ حبُّه!".

ثبَّتني تاسـو، خشـية أن أغـشى مُجـدَّدًا، لكنـه ابتسـمَ ابتسـامةً عريضـة لريمـوس. "أنـا عـلى يقـين أن الأمـر لـن ينتهـي هكـذا!".

هـزَّ ريمـوس كتفيـه اسـتهانةً. "لكـن هكـذا ينتهـي الأمـر"، قـال. "بالطبع هنـاك روايـات أخـرى. في روايـة أوفيـد، كانـت نسـاء تراقيـا مَـن مزَّقـن جسـده".

"لا"، قلـتُ. جاهـدتُ للوقـوف عـلى يـد تاسـو المُعترضـة. "أنـا عـلى يقـين. يحـاول أورفيـوس قتـل نفسـه، لكـن آمـور تتدخـل، بتأثـيرٍ مـن مرثيـة أورفيـوس، ثـم تُعيـد آمـور يوريديـس إلى الحيـاة وتأخذهـما إلى معبـد الحـبِّ، حيـث تنتهـي القصَّـة! برقصـة باليـه".

تألَّقـت عينـا تاسـو. "نعـم، المعبـد!"، قـال. "سـتارة المـسرح الأخـيرة! هـذا حقيقـي. لقـد رأيتهـا!".

هزَّ ريموس كتفيه. "إذن فقد غيَّر كالزابيجي وجلوك القصة"، قال.

"ومـا المشـكلة في ذلـك؟" سـألَ تاسـو. نفـخَ غاضبًـا، وبقيـت شـفته السـفلى متدلِّيـة في تحـدٍّ للرجـل المُتعلِّـم.

"القصـة عمرهـا أكـثر مـن ألفـي عـام"، قـال ريمـوس. "واحـدة مـن أقـدم الأسـاطير. لا معنـى لهـا إذا داوَمَـت الآلهـة عـلى منـح أورفيـوس فرصـةً بعـد أخـرى. وإلَّا سـتصير رحيمـة إلى حـدِّ العبـث".

كان وجـه تاسـو غاضبًا. "أنـت لا تؤمـن بالحـبِّ فحسـب". غـرزَ إصبعًـا قصـيرةً في ريمـوس.

ابتسـمَ ريمـوس بحنـوٍّ. هـزَّ كتفيـه وكان عـلى وشـك الإجابـة، لكنـه لم يجـد الفرصـة؛ لأنـه في تلـك اللحظـة تحـدَّث نيكـولاي. "أؤمـن بالحـبِّ"، قـال. ظننـتُ أن العمـلاق كان غافيًـا، لكنـه استقام في مقعـده، باديًـا أقـوى مـمَّا رأيتُـه قـطُّ منـذ وصـولي إلى ڤيينـا. "ولأثبـت ذلـك..."، تابـع، "سـأحضر العـرض الافتتاحـي".

بدا لهيب الشمعة وكأنه يتوهَّج وينير ابتسامته.

"العرض الافتتاحي؟" غمغمَ ريموس. "ماذا تقصد بالـ..".

"نعـم!" قلـتُ ونهضـتُ واقفًـا، دائخًـا مـا زلـتُ مـن نوبـة إغـمائي، وخطـوتُ إلى مقعـد نيكـولاي. "لا بُـدَّ أن تكـون -أنـتَ- مـن بـين كل البـشر تسـتحقُّ أن تكـون في ذلـك الحشـد". "سـتَـ.."، لكننـي توقَّفتُ بغتـةً، مُدركًا حينهـا فقـط العقبـات الكثـيرة. لم تتـلاشَ ابتسـامة نيكـولاي. "لكـن... لكـن كيـف سـتحتمل عينـاك الضـوء؟".

"سـتضع شـوالًا عـلى رأسي وتقـودني مسـتعرضًا إيَّـاي عـبر الشـوارع كالخاطـئ الـذي كنتُـه"، قـال. "لكـن في المـسرح، حيـث سـأجلس، سـيكون ظلامًـا".

هـزَّ ريمـوس رأسـه. "لا. الضـوء ينتـشر في أرجـاء المـسرح"، قـال. "حتـى نـرى جميعنـا الإمبراطـورة".

"لا يوجـد ضـوء في كل مـكان"، قـال نيكـولاي. "ليـس تحـت خشـبة المـسرح".

نهَـضَ تاسـو مُندفعًـا. "لا"، قـال. "لا، لا يُسـمَح بهـذا". لـوَّحَ بيديـه، نابشًـا في الهـواء. "سـتقطع الإمبراطـورة رأسي".

"لا تقلـق بشـأن رأسـك"، قـال نيكـولاي بابتسـامة. "إنـه قلبـك مـا نريـد!".

اندفعـت تحديقـة تاسـو مـن نيكـولاي، إلى ريمـوس، ثـم إليَّ. تطلَّع إلى البـاب؛ مَهرَبـه. عـضَّ شـفته، ثـم تطلَّـعَ مُجـدَّدًا إلى البقعـة حيـث كنـتُ أغنِّـي، وأشرقَ وجهـه.

"لكن عليكم أن تعدوني ألَّا تلمسوا شيئًا"، حذَّرهم.

"يمكنـك ربـط يـدَيَّ خلـف ظهـري"، قـال نيكـولاي. "لا أحتـاج إلى شيء سـوى أذنَيَّ. هـذا، عزيـزي تاسـو، مـا أعـدك بـه".

(13)

وقعَ الأمر في الخامس من أكتوبر، 1762، قبل أربعين سنة تقريبًا من الآن إذا أحصينا دورات الشمس، لكن أطول من ذلك بكثير على أيِّ مقياس آخر. كان نابليون الضئيل ما يزال يحتاج إلى سبعة أعوام حتَّى يتهيَّأ ليُولد، وثلاثين عامًا أخرى ليغزو فرنسا. في تلك السنة كان روبسبيار وإرهابه يبكيان في مهدهما في كاليه فريديك العظيم كان فريدريك فحسب. أمريكا كانت مكانًا بعيدًا ينمو فيه القطن، لكن بلا أمَّة تُسبِّب الحَرَج لجورج الثالث بالثورات. باخ وڤيڤالدي كانا ما يزالان أبطالنا. أبدًا لم يكن أحدٌ قد سمعَ عن بيتهوفن؛ لم يكن حيًّا بعد. موتسارت الصغير كان في السادسة؛ يُسرع، في تلك الليلة على بُعد عشرة أميال فحسب من حيث تتكشَّف هذه القصة، نحو المدينة الإمبراطورية ليعزف على كمانه الصغير أمام الإمبراطورة. اليوم، أماديوس ميِّت منذ خمسة عشر عامًا بالفعل، رغم أنه سيفوقنا عمرًا جميعًا.

كان العـام 1762 عامًـا يغـصُّ بالحالمـين رغـم أيِّ شيء. وواحـد مـن أكـثر الحالمـين إخلاصًـا كان يحمـل شـوالًا عـلى رأسـه في تلـك الأمسـية مـن أكتوبـر. كان يُحشَر بقدميـه أولًا في مزلـق فحـم، الـذي لم يكـن، رغـم أنـه كان ربمـا أوسـع مَزلـق فحـم في الإمبراطوريـة، عريضًـا بمـا يكفـي لهـذا الحـالم، الضخـم كـدُبٍّ. دفعـه صديقـاه بعنـفٍ دفـعَ الكثـير مـن المـارَّة المُتأنقـين للتَّوقُّـف في ذعـر. ثـم كان هنـاك تمـزُّق في الملابـس وفرقعـة قويـة، وانزلـقَ حالمنـا إلى المزلَـق.

* * *

تركـتُ صديقَـيَّ في كهـف تاسـو وهرعـتُ عائـدًا إلى المـسرح. كان سـيدي قـد أرسـلني لجلـب النبيـذ وسـيوبِّخني إذا تلـكَّأتُ أكـثر. كان البهـو الصغـير ممتلئًـا عـن آخـره، لحـدٍّ أن الأصـوات المُدمدمـة كان تهـزُّ الأرض. انقسـمَ المدخـل. عـلى جانـب يتدافـع عامـة الشـعب. يلوِّحـون بتذاكرهـم كالأعـلام؛ ذلـك أن تلـك التذاكـر -التـي تسـمح لهـم فحسـب بالتحديـق من الشُّرَّافـات العاليـة أو الجلـوس عـلى المقاعـد الطويلـة القاسـية في المؤخِّـرة- تمنحهـم فرصـة أن يتنفَّسـوا نفـس الهـواء الـذي تتنفَّسـه الإمبراطـورة، وأن يُشـاهَدوا معهـا، وأن يُشـاهَدوا مـع مَـن شُـوهِد معهـا. انتظـرَ هـؤلاء الرجـال، بصحبـة زوجاتهـم، مـن المحامـين، والكَتبـة، والأطبـاء، والحرفيـين البسـطاء، بفـارغ الصـبر، فيـما عـلى الجانـب الآخـر، يتهـادى تيَّـارٌ مـن النبـلاء، وجوههـم معروفـة للجميـع، عـبر المدخـل.

كنـتُ أعرفهـم جيـدًا الآن. كان هنـاك صاحـب السـعادة الـدوق هيبرسـتين وبناتـه الثـماني، جميعهـن حمقـى، بسـيطات العقـل، ويسـعى الكثـيرون للـزواج منهـن. وراءهـم، كان السـفير الإسـباني، الـدوق أجيليـار، في مـزاج نَكِـد بوضـوح؛ ذلـك أنـه وافـقَ عـل مشـاركة مقصورتـه مـع أمـير جالزيـن المُضجِـر مـن روسـيا. الچـنرال بـراون كان في بروسـيا يحتـضر مـن الغنغرينـا، لكـن زوجتـه كانـت هنـا، بابتسـامةٍ عـلى وجههـا. فيـما

الدوق جروندكاير شتاريمبيرج العجوز في انتظار ابنٍ أو حفيد ليقوده إلى مقصورته؛ ذلك أنه لم يَعُد يستطيع الوصول إليها بمفرده. رغم أن الدوقة هاتسفيلدا وصلت في واحدة من أفخم العربات، إنها لم تتمكَّن من دفع الأربعمائة جولدن لمقصورتها هذا الموسم، ولهذا دلَفَت وراء الأميرة لوبكوفيتز، الذي أخذتها الشفقة وترَكَ الدوقة البدينة تجلس وراء أطول أبنائها. بين مسيرة الموسلين الخوخيِّ والباروكات المُغبرَّة كان أيضًا أولئك، أمثال الهير بوتون بعروسه الطفلة فائقة الجمال، الذين لا يحملون أيَّ ألقاب؛ لم يكترث بوتون قطُّ بشراء لقب.

اندفعتُ عبر البهو حاملًا نبيذ جواداني أمامي في يدٍ، ويدي الأخرى تصدُّ الأميرات بعيدًا. كانت هناك دانتلا، وأهداب، والتماعات كثيرٍ من النياشين. شعرتُ بالغثيان مع تمايُل كل ذلك. أغلقتُ عينَيَّ للحظة واحدة فحسب. شعرتُ بالنبيذِ يتناثر على رِسغي.

تلكَّأت الحشود في الأروقة خارج مقصوراتهم يثرثرون، ويتفاركون بين بعضهم البعض في المساحة الضيقة. التصقتُ بالحائط، محاولًا ألَّا ألامس الأردية الواسعة بركبتي الخرقاء. مزيدٌ من النبيذ انسكب عبر الحافة، أو يا إلهي، لطخة دامية على مؤخرة أرملة! أخيرًا، اجتزتُ المقصورة الأخيرة ووصلتُ إلى باب خشبة المسرح.

هنا، وجدتُ مزيدًا من الاستثارة. في نهاية ملعب الكرة السابق كانت هناك مساحة صغيرة لكل أشكال الماكينات السرِّيَّة التي تعمل وراء خشبة المسرح. اندفعَ الموسيقيون بآلاتهم محمولةً على أكتافهم، كجنودٍ يحملون البنادق. ملأَ عمال المسرح التابعون لتاسو المصابيح بالزيت، وزيَّتوا أخاديد الجناح. كنسوا خشبة المسرح لمرَّة أخيرة؛ لأنه إذا تعثَّرَ جوداني وسقط، فحتمًا سيُطعمهم للدِّببة في حديقة حيوان الإمبراطورة. لطَّخَت (ربَّات الانتقام) وجوههن بالمكياج الأسود. أخرجَ

تاسو رأسه عاليًا عبر الكمبوشة وصاح، "إذا لمَسَ أيٌّ منكم مشاهد كواليو، فسأقضم أصابعكم القذرة!".

جلجَلَت سنيورا كلافارو بالنغمات المُتسارعة في حجرة ملابسها المزدحمة، وفي حجرة سنيورا بيانشتي، رأيتُ عبر الباب ذي الشقوق، يوريديس تتلطَّخ بطلاء أبيض حتَّى تبدو ميِّتة كما ينبغي في المشهد الأول من الأوبرا. كنتُ سكبتُ نصف النبيذ حينها، ودافعت عمَّا تبقَّى كما كنتُ لأدافع عن دمائي.

كانت لدى جواداني الحجرة الوحيدة الأكبر من خزانة ملابس. طرقتُ الباب ودلفتُ، رغم أنه لم يُجب. كان أيُّ إنسان يجرؤ على الدخول عُرضةً للسباب، لكنه أرادني هنا؛ الطريقة التي تطلَّع بها إليَّ أنبأتني بهذا. جلسَ بظهره إليَّ ونظر إليَّ في مرآته. صُعِقتُ من الانعكاس، جفناه مُلتفَّان برفق، وتجاعيده مُنعَّمة بالدهان، ولأنه بدا أصغر بعشر سنوات. لوهلة، ظننتُ أنني أتطلَّع إلى نفسي في المرآة.

لكنه تحدَّثَ، ولم يكن صوتي. "هل نضبَ النبيذ من الإمبراطورية؟".

هززتُ رأسي وناولته الكأس. أخذَ رشفةً ووضعه جانبًا. نظرَ إلى المرآة. كان جلوك قد مضى في خططه؛ لم يكن هناك ريش طاووس، ولا دانتلا من الذهب، ولا باروكات. ارتدى أورفيوس مجرد غلالة بيضاء بسيطة، مفتوحةً عند صدره المنتفخ.

وقفتُ بجواره. حدَّق في نفسه فيما يتنشَّق عبر منخريه المُتَّقدَيْن، ثم أغلقَ عينيه وشكَّلَ فمه على شكل دائرة ضيقة، زافرًا وكأنه ينفخ برفق لإطفاء شمعه. عليه أن يدع حزنه يتعاظم، أخبرني، إذا أرادَ أن يجعلنا ندرك القصة عبر صوته.

وخزتني أصابع أقدامي داخل حذائي.

"سـنيور"، سـألتُ أخـيرًا، عاجـزًا عـن الوقـوف لحظـةً أخـرى. "هـل تحتـاج إليَّ؟".

"هل لديك مكان آخر لتذهب إليه؟".

"لا"، قلـت. "لا أرغـب في إزعاجـك، هـذا كل مـا في الأمـر. هـل أنتظـر في الخـارج؟".

لم يُجـب، لكننـي كنـتُ أدرك أنـه أبـدًا لـن يعـترف بحاجتـه إليَّ بجـواره. "حسـنًا جـدًّا"، قـال.

خطـوتُ إلى الخـارج وأوشـكتُ عـلى الاصطـدام بحامـلي نعـش جنـازة يوريديـس الأربعـة. تفاديتهـم وقبضـتُ عـلى صبـي مهـزول -بـدا أنـه يهـرع مـن مـكانٍ لآخـر بـلا شيء يفعلـه- وأمرتـه بـأن يقـف خـارج بـاب جـواداني ويصيـح في كهـف تاسـو إذا نـادى المُغنِّـي في طلبـي.

"ولمـاذا قـد أفعـل ذلـك؟" قـال الصبـي. رغـم أننـي أعلـوه طـولًا، رفـعَ إليَّ بـصره شـزرًا وكأننـي أقـصر منـه.

فتَّشـتُ في جيـوبي. فارغـة. وعدتُـه بعشريـن قرشًـا. أومـأَ واتَّخـذَ موقعه، وغطسـتُ أنـا في كمبوشـة مفتوحة.

تحـت خشـبة المـسرح، في كهـف تاسـو، كان نيكـولاي يضطجـع عـلى فـراش تاسـو النقَّـال. ابتسـمتُ لأنـه بـدا مسـتريحًا عليـه، رغـم أنـه سحقَه إلى اثنتـي عـشرة قطعـة. وريمـوس يجلـس بجـواره عـلى الأرض، مُسـتندًا عـلى الموقـد الحديـدي البـارد. انزلـقَ تاسـو في أرجـاء غرفتـه المُظلمـة، فاحصًـا الحبـال، ومُزيِّتًـا كُتَـل البكـرات. ثـم نهـضَ مندفعًـا ورفـعَ رأسـه عـبر كمبوشـة ليصيـح في العـمال الكسـالى ليضيئـوا المصابيـح، ثـم تـدلَّى مـن هنـاك، جسـدًا بـلا رأس، مُنتفضًـا في رعـب فيـما يوشـكون عـلى إحـراق السـتارة. لم يَبـدُ عـلى نيكـولاي أنـه لاحـظَ انشـغال الرجـل الضئيـل؛ أرادَ أن يعـرف كل حبـل، وكل كمبوشـة.

"ومـاذا عـن بكـرة السَّـحب في المقدمــة؟" سـأل. "هــل ترفـع رداء الإمبراطــورة، حتَّــى نــرى جميعنــا تنُّورتهــا؟".

"هــذه رافعــة مصابيــح المــسرح!" زمجــرَ تاســو، ممُتعضًــا مــن جهــل نيكــولاي.

"وذلــك الحبــل؟" قــال نيكــولاي، مُضيِّقًــا عينيــه في ضــوء المصبــاح الخافــت.

"يُشغِّل الكمبوشة الوسطى!".

"مُدهشةٌ"، قال نيكولاي لريموس، "معلوماته".

نظـرَ ريمـوس إلى نيكـولاي بارتيـاب. "لا تلمـس شـيئًا!" همـسَ، حتَّـى لا يسـمع تاسـو.

رفـعَ نيكـولاي يدَيـه. لم يُـصرَّ تاسـو، في نهايـة الأمـر، عـلى ربطهـما. "أنـا بـريء بـراءة الإمبراطـورة".

كنـتُ في غايـة السـعادة لرؤيـة نيكـولاي يتألَّـق. احتضنتـه فيـما أزحـف مُتخطِّيًـا إيَّاه.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سأل.

"لأرى"، قلت من فوق كتفي. "لأرى!".

قبـل بضعـة أيَّـام، اكتشـفتُ شـقًّا صغـيراً كان تاسـو يسـتخدمه للتلصُّص عـلى جلـوك. زحفـتُ إليـه وحدَّقـتُ مـن خلالـه. أبـدًا لم أرَ حشـدًا بديعًـا هكـذا. في "حظـيرة الثـيران"، حشـدٌ مـن أرقـى الرجـال في العـالم يتبادلـون الحديـث بصـوتٍ عـالٍ. لا بُـدَّ أن الجالسـين في المقصـورات سـمعوا كل كلمـة، وهـو مـا كان، بالطبـع، الغايـة مـن الصخـب. فوقهـم، طنطنـت الثُّريَّـا المُثقلـة بالشـموع برنـين أصـواتٍ كثـيرة جـدًّا.

على يساري كانت المقصورة الملكية، وراء الأوركسترا مباشرة. كانت مميَّزة تلك الليلة بمظلَّة قرمزية، وكأنهم يتوقَّعون سقوط رذاذ من المطر في المسرح. في المنتصف، ناهدة ومتورِّدة، كان تجلس المرأة العظيمة، الإمبراطورة والأمُّ لستَّة عشر طفلًا. التمعَ خدَّاها وكأن أحدهم قد صفعهما لتوِّه. بجوارها، كان الإمبراطور -بأنفه منتفخًا، وفمه رفيعًا وضيِّقًا- شكلًا بشريًّا شاحبًا، كابيًا. أحاطت بهما هالةٌ من أطفالهما.

لكنني لم أكن عند هذا الشقِّ لأنظر إلى الإمبراطورة.

مئات الأعين كانت تحملق إلى الأسفل من مقصورة *Le Paradis* المزدوجة، وكأنها تُفكِّر في القفز. ربما كانوا ليخاطروا بالإصابة، لكن السقوط على دوقة كان يعني نفيًا أبديًّا من المسرح.

بحثَ أذناي في جميع أصوات المسرح. لا بُدَّ أنها هنا، لا بُدَّ.

بدأت الأوركسترا في موالفة الآلات بفوضى نشاز. كانت المقصورات تمتلئ شيئًا فشيئًا. في معظمها يجلس ستَّة: ثلاثة على الحاجز، وثلاثة خلفهم (كان التنسيق ضروريًّا لرؤية خشبة المسرح من الصف الثاني!) وقفَ الأبناء والبنات من الفائضين وراء أشقَّائهم الأكبر سنًّا. كان هناك مصباح يشتعل في كل تجويف؛ لذلك بدت كل مقصورة وكأنه خشبة مسرح في حدِّ ذاتها.

ثمَّ، قُبالة الإمبراطورة على الطابق الثاني، دلفا. كانا قريبَيْن للغاية لحدٍّ أنني تبيَّنتُ الأوتار المُرهفة في عنق الكونتيسة ريشر فيما تقود الكونت ريشر إلى الداخل. ثم دلفت أماليا قبل أنطون؛ وحلَّقَ قلبي عاليًا! إنها هنا! تبعهما أربعة آخرون من سلالة ريشر، لكنَّ عينيَّ لم تريا سوى أماليا، غضَّة ومتوهِّجة، أجمل مثال كان بمقدور الكونتيسة ريشر استعراضه، مهما أنجَبَت من أطفال هي نفسها. مُنحت أماليا شرف الجلوس في المقعد الثالث في الصف الأمامي من مقصورة العائلة.

جلسَ أنطوان وراءها. وضع يدًا على كتفها وابتسم كأنه يقول، ترين؟ ترين أنني على حق؟

كنتُ متيقِّنًا أنها ستكون مِلكي مُجدَّدًا قريبًا. عندما ينظر أورفيوس في عينَيْ يوريديس، ستكون آمور رحيمةً بنا كما هي رحيمة مع هذين العَشيقَيْن الأسطوريَّيْن على خشبة المسرح.

* * *

ثم صاحَ القنفذ -الذي طلبتُ منه الوقوف والمراقبة خارج باب سيِّدي- في الكهف، "جوادانِي ينادي على صبيِّه!" كان البائس الضئيل يقف أعلى الكمبوشة، بيده ممدودةً لتلقِّي مكافأته. ابتسمتُ وأخبرته أنني سأدفع له غدًا. تجهَّمَ وجندلني فيما أمرُّ به.

تقدَّمتُ متعثِّرًا إلى باب جوادانِي فورَ أن فتحَه. كان يرتدي معطفه على كتفيه، ووجهه هادئ. "أنا جاهز"، قال.

أومأتُ، لكنني لم أكن متأكدًا ممَّا ينبغي فعله. استدرتُ إلى حشد العُمَّال الواقفين في إعجابٍ ذاهل بالمُغنِّي. "إنه جاهز"، قلت.

للمرَّة الأولى في حياتي، انصاعَ العالَم لكلماتي على الفور. ثم خبَت الحماسة. اندفعت "ربَّات الانتقام"، وكأنَّهن خفافيش عملاقة، للاختباء في الاستراحات على الجناحين. اتَّخذَ العُمَّال مواضعهم وسَكَنوا تمامًا. هرَعَت الجوقة إلى خشبة المسرح. تسلَّقَت يوريديس نعشها وصارت ميِّتة. وراء ستارة المسرح، كان كل شيء صامتًا فيما يخطو جايتانو جوادانِي إلى خشبة المسرح.

تبعتُه. شعرتُ بخطواتي ثقيلة للغاية، لحدٍّ أنني تأكَّدتُ أن الإمبراطورة نفسها ستسمعها. كان لغط الجمهور وراء الستار كجيشٍ غازٍ ينتظر وراء بوابة المدينة- رجاءً، انتظروا حتَّى أهرب! وقفَ

جـواداني في منتصـف خشـبة المـسرح. صالـبَ قبضتَيْـه عـلى صـدره. كان الحــزن مرسـومًا عــلى وجهــه.

أومأَ إليَّ.

مـاذا ينبغـي أن أفعـل؟ تطلَّعـتُ إلى يسـاري، إلى يمـين. حملـقَ فيَّ كل عامـل وكل مُغنِّـي جوقـة، لكـن تحديقاتهـم الخاويـة لم تسـاعدني في شيء. افعلهـا، قالـت التحديقـات. الجميـع ينتظـر أن تقـوم بمَهمَّتـك.

مـاذا أفعـل؟ أغـادر؟ أختلـس النظـر عـبر السـتارة وأخـبر جلـوك أن الجميـع مُسـتعد؟ لم يخـبرني أحـدٌ بـأي شيء! أبـدًا لم أحـضر أوبـرا مـن قبـل!

ثــم أدركــتُ الأمــر: معطفــه. كان ذلــك معطــف جــواداني وليــس أورفيــوس. أخذتــه وكأننــي أزيــل دثــارًا عــن رضيــعٍ نائــم.

هرعـتُ خارجًـا مـن خشـبة المـسرح عندمـا بـدأ التصفيـق. نقـرَ جلـوك مرَّتـين لجـذب الانتبـاه ثـم بـدأت الافتتاحيـة. لكـن جـواداني لم يتحـرك. كانــت رأســه منحنيــة. كانــت المصابيــح عــلى حافــة خشــبة المــسرح قــد ارتفعــت قليــلًا لتَوِّهــا، وأضــاءت وجهــه بإعتــام. وراءه، كانــت جوقــة النائحــين ســاكنةً كلوحــة لجنــازة.

انتهت الافتتاحية. افترقت ستارة المسرح.

تحوَّلــت موســيقى جلــوك إلى لحــنٍ جنائــزي حزيــن. بجــواري، رفــع الحَملَـة نعـش يوريديـس وتقدَّمـوا إلى الأمـام ببـطء. ظـلَّ جـواداني مُنحنيًـا حتَّــى بــدأت الجوقــة غناءهــا. ثــم ارتفعــت رأســه حتَّــى صــارت عينــاه في مســتوى حُبِّــه، ميِّتًــا أمامــه.

غنَّى باسمها.

كنـتُ أيقظـتُ سـبيتلبرج بذلـك النـداء. فيـما يمـلأ صوتـه فـراغ المـسرح، أيقـظَ جـواداني ألفًـا وأربعمائـة قلـب. لوهلـة جلجـلَ صـداه مـن كل ركـنٍ.

غنَّى مُجدَّدًا، بصوته أكثر حسرةً، ورنَّت المقصورات الخشبية والثُّريَّات الكريستالية باسمها، مُخمدةٍ الأقدام المتبدِّلة والأيادي المُتململة.

رأيتُ هذا مرَّات كثيرة في البروفات، لكنه الآن صار طقسًا سحريًّا؛ هذا الحشد المُجتمِع، بعطورهم من الورد والياسمين؛ هذه المرأة الميِّتة المُمدَّدة على نعشها؛ الحرارة الخانقة للمصابيح وألف وأربعمائة جسد؛ صوت جوداني أكثر إشراقًا ممَّا سمعته من قبل قطُّ- كل هذا استحضرَ العاشقَيْن الخالدَيْن إلى الحياة. التمعت الدموع على وجهي ووجوه أخرى كثيرة فيما أورفيوس يُغنِّي مرثيَّته، فيما چوبيتر يسمع نداءه ويرسل بآمور إليه. سرعان ما اختلطت أصوات جوداني وكلافارو في قعر المسرح. تماوجَ قلبي. سيستعيدها! سيُنقذ يوريديس من الموت.

عندما انغلقَ الستار، هرعتُ إلى جوداني بالمعطف، لكن هزَّ رأسه. انفجرَ المسرح بالتصفيق. أربع مرَّات خطا جوداني عبر الستار لينحني بالتحية لجمهوره. استمرُّوا في التصفيق، لكنه خطا عائدًا إلى حجرة ملابسه.

أطلَّ رأس تاسو من إحدى الكمبوشات، وعندما انغلق باب المُغنِّي، وثبَ عامل المسرح إلى العمل. سمعتُ التفاف كُتَل البكرات، وصرير دوران المحور، وشدَّ الحبال، وكأنه بفعل السحر، انزلقت أطُر الجناح إلى مسارتها. سقطَت الستارة الخلفية. تحرَّكَ الزجاج المصبوغ بالأحمر أمام المصابيح، مُحوِّلًا خشبة المسرح إلى أحمر مُرتعش. كان ذلك هو الكهف وراء نهر ستيكس، حيث سيروِّض أورفيوس "ربَّات الانتقام".

شرعَ جلوك في الفصل الثاني.

رقَصَت "ربَّات الانتقام" سوداوات الوجوه. طقطقت كواحلهن فيما ينتفضن ويتلوَّين. ثم تجمَّدن بفعل قيثار؛ ذلك أن الأمل والحب كانا مُحرَّمين في كهفهنَّ. أطلقن اللعنات والسباب على الرجل الذي

جـرؤَ عـلى جلـب الجَـمال إلى العـالم السـفلي. غنَّـينَ أعـلى ليهزمـن قيثـار أروفيـوس. انفتـحَ بـاب جـواداني فيـما يصـدح القيثـار مُجـدَّدًا. هـزَّ كتفيـه لطـرح المعطـف، دون أن يلمحنـي حتَّـى، وتقـدَّمَ إلى خشـبة المـسرح. حاولـتُ أن ألتقـط المعطـف، لكنـه سـقطَ عـلى الأرض.

رقصت "ربَّات الانتقام" حول أورفيوس، مُحاولاتٍ إخافته وإبعاده.

لكنـه وقـفَ بهـدوء: شـجرةً راسـخة وسـط عاصفـةٍ مـن فـروعٍ خافقـة. لا يعـرف حبُّـه مـا هـو الخـوف، وصوتـه الغـارق في الوحـدة أقـوى مـن الجوقـة. تكاثـفَ الهـواء في المـسرح عندمـا صـدحَ، وأدرك الجمهـور أنـه لا فرصـة لتلـك الشـياطين أمـام عنفـوان أورفيـوس. ازدادت أصـوات الرَّبَّـات ضعفًـا، ورقصاتهـن هـدوءًا. سـمحن لـه بالمـرور، وراقبنـه مُتهيِّبـاتٍ فيـما يختفـي في الظـلال.

غادرَ جواداني خشبة المسرح، وكنتُ هناك لاستقباله.

* * *

انغلقـت السـتائر للحظـة فحسـب. لـفَّ تاسـو بكرتـه وأرخـى السـتارة الخلفيـة. اختفـت أُطُـر الجنـاح الحمـراء القاتمـة، وحلَّـت محلهـا سـماء في غايـة الزُّرقـة. ارتـدَّ الزجـاج المصبـوغ بالأحمـر. عندمـا افترقـت سـتارة المـسرح مُجـدَّدًا، كان تاسـو قـد جلـب الجنَّـة إلى الإمبراطوريـة.

أبهـجَ باليـه أنچيولينـي أعـين الجمهـور. وقـفَ جـواداني بجـواري في الجنـاح، برأسـه مُنحـنٍ وكأنـه نائـم. ارتفـعَ كتفـاه العريضتـان وانخفضتـا. انتهـى الباليـه، واحتشـدت الجوقـة لرؤيـة دخـول البطـل.

عندمـا مـلأت أنغـام المزمـار الأولى المـسرح كشـعاع مـن الشـمس، تهـادى جايتانـو جـواداني عائـدًا إلى خشـبة المـسرح. توقَّـفَ أورفيـوس بالضبـط في نفـس البقعـة عـلى الخشـبة حيـث كان بـدأَ أوبـرا مأسـاته.

صـار يتضخَّـم الآن مـع كل نَفَـس. أدركَ الجمهـور أن شـيئًا كان يحتشـد داخلـه. جلسـوا مائلـين للأمـام، توَّاقـين لمشـاركة بهجتـه.

انسـابَت أغنيـة الآريـا مـن حلقِـه النفيـس، تخـدَّر جسـدي بدفئهـا. تناميـتُ، للأعـلى وللخـارج، فيـما يملـؤني الترَّقُّـب، لكننـي كنـتُ حـذرًا ألَّا أُصـدر أيَّ صـوتٍ فيـما أهبـط إلى كهـف تاسـو. كان الرجـال الثلاثـة مسـتلقين بجـوار بعضهـم البعـض عـلى الأرض، مُحملقـين في السـقف وكأنهـم قـادرون، عـبر الخشـب القاتـم، عـلى رؤيـة التدويمـات الذهبيـة لصـوت جـواداني تتفـشَّى عـبر خشـبة المـسرح. حقًّـا، كان صـوت سـيدي -ضعيفًـا للغايـة عـلى الانفعـالات المُتفجِّـرة- مناسـبًا لسَـكِينة هـذه الأغنيـة.

زحفـتُ تحـت شـبكة الحبـال إلى شـقِّ التَّلصُّـص. التمـعَ وجـه جلـوك بالعـرق فيـما يتجـلَّى في إبداعـه. وراءه، في "حظيرة الثيران"، كانـوا يحملقون في أورفيـوس بوجـوهٍ مُسـترخية، دون أن تطـرف أعينهـم. جلسَـت العائلـة الملكيـة بسـكونٍ شـديد، لحـدٍّ أننـي ربمـا كنـتُ أنظـر إلى بورتريـه. لم يكـن هنـاك أيُّ نَفَـس أو حركـة مـن *Le Paradis*، لا شيء سـوى وميـض الأعـين النَّديَّـة.

أماليـا! قبَضَـت عـلى الحاجـز أمامهـا وجلسـت مُعتدلـةً، مشـدودةً. آلَمتْهـا الموسـيقى. عضَّـت شـفتها، ذلـك أن ألـف وجـه سيسـتدير حتـمًا لـو فقـدت كِنَّـة الكونتيسـة ريـشر هدوءهـا. مسـحت دمعـةً بيـدٍ ذات قفَّـاز أبيـض، ثـم ضغطـت بمفصـل إصبـع عـلى ذقنهـا المُرتعـش.

وضـعَ أنطـون يـدًا عـلى كتـف زوجتـه. تخشَّـبَت. تنشَّـقَت بضعـة أنفـاس. أخَـذَت أصابعـه في أصابعهـا، لكـن فقـط طويـلًا بمـا يكفـي ليرفـع يـده عـلى كتفهـا ويُفلتـه. سـحبَ أنطـون ذراعـه وانصـبَّ بتركيـزه مُجـدَّدًا عـلى خشـبة المـسرح.

أبـدت الكونتيسـة ريـشر نظـرةً مسـتاءة، لكـن بـدا أن أماليـا لم تلاحظها. كانـت تنظـر بخـواء إلى المقصـورات عـبر المـسرح، بأنفـاسٍ قصـيرة وثابتـة حتَّـى انتهـى جـواداني مـن غنائـه.

قريبًـا سـتُحبِّين الموسـيقى مـن جديـد، همسـتُ، وزحفـتُ مبتعـدًا عـن شـقِّ التَّلصُّـص.

* * *

انحنــى جــواداني تحيَّــةً للجمهــور وخطــا إلى حجــرة ملابســه. حــان وقـت تسـليم الرسـالة، لكـن المُغنِّـي كان قـد تـركَ البـاب مواربًـا خلفـه. بـتردُّدٍ كبـير تَبعتُـه.

"سـنيورا كلافـارو تُغنِّـي كبقـرة"، قـال. لم تكـن هنـاك أيُّ حقيقـة في عبارتـه هـذه؛ لأنهـا غنَّـت بشـكل بديـع. لكننـي أومـأت. ارتشـفَ رشـفةً مـن النبيـذ.

اندفـع جلـوك مُقتحـمًا الغرفـة. ابتسـم المؤلـف الموسـيقي إليَّ وبـدا وكأنـه يـودُّ معانقتـي، ثـم أدرك أننـي لسـتُ مَـن يبحـث عنـه. دفعنـي جانبًـا ليخطـو إلى جـواداني.

"يا له من نجاح!" هتف جلوك.

أومأَ جواداني.

"انتظـر حتَّـى يسـمعوا الفصـل الثالـث! سـيحيا أورفيـوس مـن جديـد!" لمَحَـت عينـا جلـوك كأس جـواداني. "هـل تسـمح؟" سـألَ، ودون انتظـار إجابـة، اجـترعَ مـا تبقَّـى مـن نبيـذ جـواداني. صلَّيـتُ ألَّا يرسـلني لجلـب المزيـد. "سـأذهب إلى مقصـورة الكونـت"، قـال المؤلـف الموسـيقي.

"أرسِلْ بتحياتي إلى جلالتها"، أجابَ جواداني.

اختفى جلوك ليتحدَّث مع الكونت دوراتسو، الذي كانت مقصورته متاخِمةً لمقصورة الإمبراطورة. انسللتُ ناحية الباب. "سأكون في الخارج"، قلتُ. "إذا احتجتَ إليّ".

"لا"، قال. "ابقَ. أغلِقْ الباب".

فعلتُ، مُتمنِّيًا لو كنتُ على الجانب الآخر، ثم عدتُ للوقوف بجوار سيدي. تمعَّن في المرآة.

مدَّ يده بغتةً ووضعها على كتفي. أدركتُ أنه يقصد أن أضع يدي على كتفه. ضغطتُ بيدي على كتفه.

"من الخيرِ أننا وجدنا بعضنا البعض"، قال. "هذا العالم ليس مكانًا عطوفًا، وعلى الأخصِّ علينا".

علينا؟ فكَّرتُ. لكننا لسنا متساويَيْن.

"شقيقي *Mio fratello*"، تابعَ. "أنا آسف إذا كنتُ آذيتك تلك الليلة. كان اندفاعًا من جانبي. في جهلك، ظننتَ أن بمقدورك مساعدتي. أنا واثق أنك لن ترتكب ذلك الخطأ مُجدَّدًا. أُدرك ذلك الآن؛ ولهذا أنا نادم على كلماتي. ترى، عرفتُ تلاميذَ كُثرًا في الماضي. في النهاية، غادروني، أو أبعدتهم بنفسي. أبدًا لم أجد تلميذًا واحدًا بمقدوري الثقة فيه بالكامل. حتَّى وجدتُك. أنت مختلف".

كانت يدي تتعرَّق. دعني أغادر!

"عاجلًا أم آجلًا، جميعهم تحوَّلوا إلى ذئاب. أراودوا ما لديَّ. أنت مختلف. لا تريد شيئًا سوى سماعي أُغنِّي. أليس كذلك؟ هل هناك أيُّ شيء آخر تتوقُ إليه؟ أخبرني فحسب وسأمنحك إيَّاه".

"لا شيء"، قلت. لن تراني مُجدَّدًا أبدًا بعد الليلة.

ابتسمَ واعتصرَ يدي برفق. "هذا ما ظننتُه. تُدرك أن بمقدورك الوثوق بي أيضًا. لن أهجرك أبدًا. عندما أرحل عن ڤيينا، سترافقني. سنظلُّ المُعلِّم والتلميذ للأبد".

غمغمتُ بتشكُّراتي، وابتسم بلُطف. "والآن غادرني". قال. "لا بُدَّ أن أعود إلى أورفيوس. قبل أن ينتهي هذا الفصل الختامي، ستعرف ڤيينا أن أورفيوس صار حيًّا مُجدَّدًا".

خطوتُ متراجعًا بهدوء، كمُربِّيةٍ عن طفلٍ نائم خشيةَ إيقاظه، لكن عندما أغلقتُ بابه، اندفعتُ إلى أقرب كمبوشة. "الرسالة!" صحتُ في الظلام. "الرسالة!".

كان نيكولاي قد أصرَّ على حملها، قائلًا إنه يرغب في إبهاج قلبه مُجدَّدًا بحبٍّ حرون كحبِّنا. عندما صحتُ تحت خشبة المسرح، استردَّ ريموس قصاصة الورق ومرَّرها إلى الأعلى. لم تَعُد ذات مَظهَرٍ مَلكيٍّ الآن، بعد أن تغضَّنت عند إحدى الزوايا، وبدا أن قبضة نيكولاي المُتعرِّقة قد لطَّخت الختم الشمعي، الذي وضعه ريموس قبل عدة ساعات. لكن هذا لم يهمَّ. طرتُ خارجًا إلى الرواق ولم ألق بالًا لشكوكي.

بدا أن نصف ڤيينا يحتشد في الأروقة. أربعة دوقات وأمير واحد على الأقل سبُّوني لمُدافعتهم بمرفقي في أحشائهم الوافرة قبل أن أصل حتَّى إلى الدَّرج. سمعتُ اجتراعات النبيذ وكأن الألسنة تتدلَّى في أذني. نجحتُ أخيراً في الوصول إلى مقصورة آل ريشر. كان الباب مفتوحًا، ورجال كثيرون يتقاتلون لإقحام رؤوسهم إلى الداخل، في محاولة لمشاركة الحفل مع واحدة من أعظم عائلات ڤيينا.

"معذرةً"، قلت، مُزيحًا رَجُلًا كانت رأسه يتدلَّى قُرب مِرفقي. قاومني الرجل التالي، حتَّى عندما دستُ على قدمه. جذبتُ ذيل معطفه. وعندما استدارَ ليواجهني، انسللتُ من جانبه.

"رسالة إلى أماليا" -كتمتُ اسمها السابق- "ريشر".

كان هناك صمتٌ مُحرِج، وأدركتُ أنني صرختُ بذلك بصوت عالٍ بعض الشيء. تورَّد وجهي. استدارت الرؤوس ليس في المقصورة فحسب، لكن حتى في الجانب الآخر من المسرح. انقضَّ عليَّ القمر البارد لوجه الكونتيسة ريشر. استدارت أماليا أيضًا، وتسارعَ قلبي. حملقت إليَّ؛ فهذا الصوت ذكَّرها بصوتٍ تعرفه.

"من جايتانو جوادانِي"، قلت، بأهدأ ما أستطيع. استقرَّت عينا أماليا عليَّ للحظة أخرى، لكن تحديقتها المتوسِّلة ازدادت قتامةً؛ خدعتها عيناها. أشاحت بنظرها فيما يدٌ تمسح دمعةً.

تجهَّمت الكونتيسة ريشر، وكذلك كل إنسان داخل مدى السمع.

"أعطِها لي"، قالت الأم الكبيرة. مدَّت ثلاث أصابع بيضاء، مشدودةً كمخالب طير.

"طُلِبَ مِنّي أن أضعها في يد السيدة وحدها"، قلت، كما أرشدني ريموس.

غمغمَ أحدهم بشيءٍ ما عن وقاحة الطواشيِّ.

"دعيها تستلمها"، قال الكونت ريشر المهيب، دون أن ينظر إليَّ. "إنه إعجابٌ غير مؤذٍ. أيًّا كان، فالرجل جندي بلا سيف".

أثارَ هذا الضحك في أرجاء المقصورة. حتَّى الكونتيسة ريشر ابتسمت بتحفُّظ. تطلَّعوا جميعهم إلى أماليا، التي ظلَّت يداها في حِجرها. كان ظهرها ناحيتي ما يزال، ورأسها قد استدار نصف استدارة فحسب.

"عزيزتي"، همسَ أنطون في أذنها، "لا يمكنكِ رفضها. تقبَّلي الأمر كتشريفٍ. أثرتِ إعجابه من على خشبة المسرح".

هزَّت رأسها. "لا أريدها"، قالت.

قبل أن أتمكَّن من الاعتراض، قبض أنطون على الرسالة. عبثَ بالختم ومزَّقه، وبدأ في فضِّ الورقة.

"لا"، قلتُ بلا جدوى من الباب. رؤيا خاطفة: أَثبُ عليه وأُمزِّق...

لكنها استدارت واختطفت الرسالة. "ليس من حقِّكَ أن تقرأها"، قالت. أثار هذا ضحكةً مكبوتةً أخرى من الكونت ريشر، ثمَّ من المحيطين به بحذر.

فتحت أماليا الخطاب وبدأت في القراءة بصمت. كنتُ قرأتُه عشرات المرات ذلك اليوم وأعرف كلمة فيه:

عزيزتي أماليا،

من المهم للغاية ألَّا تُبدي أيَّ دهشة ممَّا ستقرئينه الآن. أنا حيٌّ. موسا(كِ). ما زلتُ أحبُّك، وقد جئتُ لآخذك بعيدًا، إذا كنتِ ما تزالين تحملين حبًّا لي. عندما ينظر أورفيوس في عينَيْ يوريديس، اختلقي أيَّ عذر وتسلَّلي خارجةً، سأكون في انتظارك خارج المسرح.

أخبريهم أنك تجدين هذا الخطاب مثيرًا للاشمئزاز. أعيديه إليَّ.

موسى

راقبتُ عينيها تتفحَّصان الورقة. كان أداؤها مُذهلًا. ذلك النسيج الذي طالما أخفق في إخفاء المشاعر المضطربة تحته لم يُظهر الآن سوى الارتباك، ثم ومضة من الازدراء. ثم الضيق. نظرت بغضبٍ إليَّ.

"ما معنى هذا؟" سألَت. لم أكن ممثلًا قديرًا مثلها، لكنني نجحتُ في هزِّ كتفيَّ استهانةً.

ثم، لرعبي الشديد، أبعدت الخطاب وأظهرته لجميع مَن في المقصورة.

كانت الورقة فارغة. تناولَ أنطون الخطاب من يديها وتفحَّصَ جانبيها. لم يكن هناك شيء مختبئ على سطحها المُدهَّن.

"فسِّر هذا"، أمرني الكونت ريشر.

"انظـروا إلى وجهـه"، قـال أنطـون. "أبيـض كالحليـب. طـواشيٌّ جـواداني مصـدوم مثلنـا".

لمحـتُ حرجًـا غاضبًـا عـلى وجـه أماليـا قبـل أن تشـيح بوجهها. ربَّـت زوجهـا عـلى كتفهـا.

"اخـرج"، أمرتنـي الكونتيسـة ريـشر. ثـم دُفعـتُ بعيـدًا بأيادٍ متحمِّسـة، فاقـد الحيـاة كدُميـةٍ مـن ورق.

(14)

غطستُ تحت خشبة المسرح فورَ أن اتَّخذ جلوك مكانه للفصل الثالث. كان ريموس في انتظار الأخبار، لكن عندما رأى وجهي الشاحب، أدركَ أن الأمر لم ينجح.

«كانت فارغة»، قلت. «مُسحت الكلمات».

"ماذا؟" هتف ريموس، خابطًا جبينه بقبضته. أخبرته بما حدثَ بالضبط، معجزة الورقة الفارغة.

"لكن هذا مستحيل"، همسَ ريموس، فيما تبدأ الأوركسترا عزفها.

"لا بدَّ أنك استخدمتَ حبراً سحريًّا"، وبَّخه نيكولاي.

"استخدمتُ نفس الحبر الذي أستخدمه دائمًا"، قال ريموس. "كيف حدثَ هذا؟".

"ابـقَ في الأسـفل"، أخـبرني نيكـولاي. تنـاولَ يـدي. "سـنفكِّر في خطَّـةٍ أخـرى. مـا زال لدينـا وقـت. في أسـوأ الأحـوال، مـع انتهـاء الأوبـرا، سنرسـل بريمـوس لتوصيـل رسـالة أخـرى".

اتَّسعت عينا ريموس في رعب.

"اهـدؤوا"، قـال نيكـولاي لنـا. "سـتخبرنا الموسـيقى بمـا يتوجَّـب علينـا فعلـه".

* * *

في الفصـل الثالـث، كان العاشـقان بمفردهـما في كهـوف سـتيكس. يدهـا في يـده؛ عينـاه تتفاديـان خطـر وجههـا. لم تكـن هنـاك "ربَّـات انتقـام"، ولا جوقـة، ولا راقصـات. الكَرْمـات تتشـابك مـن أجـل العاشِـقَيْن. الصخـور متناثـرة في الأنحـاء. أضـواء المـسرح المُعتمـة والمومضـة تُلقـي بظـلالٍ متنافـرة. الجمهـور ينصـت ويُصـلِّي أن يجـد أورفيـوس القـوة ليهـرب مـن مصـيره.

أنـا، أيضًـا، صلَّيـتُ لمصـيري. وتسـاءلتُ، هـل سـيكون حقًّـا الفَقْـد والإخفـاق فحسـب؟ هـا هـي انسـلَّت مـن يـدَيَّ مُجـدَّدًا، وإذا لم أجـد طريقـةً لأكشـف عـن نفـسي، سـترحل غـدًا. هـل أمـضي في إثرهـا؟ بالطبـع سـأفعل. سـأمضي في إثرهـا حتـى لـو كان هـذا يعنـي مُطاردتهـا للأبـد، كحـاجٍّ يُطـارد الأفـق.

وقـفَ العاشـقان عـلى خشـبة المـسرح فوقنـا. سـطَعَت الشـقوق في ألـواح الأرضيـة بشـظايا ذهبيـة، وشـدا أورفيـوس بـأن عـلى يوريديـس أن تـسرع. سـألَته لمـاذا لا يُعانقهـا. إلى مـاذا صـارَ جمالهـا السـاحر؟ مـاذا حـدثَ لُحبِّهـما.

لكـن أورفيـوس لم يسـتطع الإجابـة، حتـى مـع معرفـة الجمهـور أنـه عـلى اسـتعداد لاقتحـام ألـف جحيـمٍ لإنقاذهـا.

جلسَ تاسو على مقعده كتمثال، متأمِّلًا في لهيب المصباح المُنمنم. كانت الحبال كشبكة العنكبوت حول رأسه. لا يرفع بصره إلَّا عندما يمرُّ أورفيوس ويوريديس فوقه، وكأنه رجلٌ سمعَ فأرًا في سقف منزله.

أغلقتُ عينَيَّ. رنَّت أجساد الكمان مع صوت يوريديس، الذي كان رائقًا وقويًّا، رغم أنها تفتقد الرغبة لرفع قدمها حتَّى. وبين الجمهور، توالَفَت أجسادٌ كثيرة مع صوت جواداني، وهكذا، رغم أنه يغنِّي دوره فقط، كان الانطباع السائد أن كثيرين يهمهمون معه. لو كانت لجلوك أذنان ليسمع هذا، كان ليُعلِّق جمهوره كالأجراس من السقف، حتَّى يستولي جمال موسيقاه على كل خليَّةٍ في أجسادهم.

على المسرح، كانت يوريديس تتوسَّل إلى أورفيوس لينظر إليها، ولو للحظة واحدة. كان غناؤها متعاليًا وثاقبًا؛ شعرتُ به في الجلد الناعم وراء أذنيَّ، كدغدغة ريشة. لأورفيوس، كانت هذه الصيحات كخناجر حادة تطعن في ظهره. عزيمته تتصدَّع. رأيتُهم يتدرَّبون على هذا مرَّات كثيرة؛ لهذا كنت أدرك أن يوريديس تقف وراه مباشرةً. واجهَ الجمهور، بعينين مُغلقتَيْن.

فيما العاشقان يُغنِّيان -هي تتوسَّل إليه، وهو يهتف في الآلهة- بدأ صوت جواداني يفقد مثاليته. لم يَعُد قادرًا على دفع مزيدٍ من الألم في هذه الأنغام. حاولَ أن يُغنِّي أعلى، لكنه لم يستطع، وهكذا سمعتُ صوته وقد بدأ يفقد تعاظُماته وانحساراته المُنسابَة. لم يَعُد يملك سوى تعاظُمٍ مُصطنَع. سمعتُ خبطةً بالقرب من مقدمة المسرح. سقَطَت يوريديس على ركبتَيْها. لم تَعُد قادرة على اتِّخاذ خطوة أخرى. إذا لم يكن يحبُّها، فعليه أن يتركها وراءه في هذا الكهف المُريع.

لم يَعُد قادرًا على تحمُّل امتناعه عنها. كيف أمكنَ للآلهة أن تطلب شيئًا بهذه القسوة؟ لكنه سينظر في عينيها.

استدرتُ إلى نيكولاي، متوقعًا أن أراه يبكي من الموسيقى، لكن لدهشتي، لم يكن هناك حزنٌ في عينيه. كان مستندًا على مِرفق واحد ويُحدِّق بتمعُّن تحت خشبة المسرح. ظننتُ أنني رأيت ومضة ابتسامة على وجهه. كانت عيناه غائمتَيْن، لكنه كان مُستغرقًا في الموسيقى، وكأنه يجاهد ليفهم كل كلمةٍ يشدو بها العاشقان.

نادى أورفيوس على زوجته الحبيبة حتَّى يتمكَّن من معانقتها ربما، وحينها بالضبط تحطَّمت إرادته أخيراً.

نهضَ نيكولاي. تأوَّهَ من المجهود، واستدارَ ريموس، قلِقًا. لكن نيكولاي لم يكن متألِّمًا. مدَّ يده إلى معطفه وسحب ورقةً مطويَّة. كانت مطابقة تقريبًا للرسالة التي منحني إيَّاها من قبل. ناولها لي. "موسى"، قال. "أنا آسف. لقد خدعتك".

كانت هذه الرسالة مطويَّة بعناية، وختمها الأزرق مستدير بشكل متقن؛ تمامًا كما صنعه ريموس. فضضتُها. هنا كان الخطاب الذي انتويت إيصاله. رفعتُ بصري إلى عينَيْ نيكولاي الضبابيَّتَيْن. لماذا خانني صديقي؟ كانت هناك ابتسامة غريبة على وجهه.

"موسى"، همسَ. "ألا ترى؟ حُبٌّ مثل حبِّك لا يليق بالورق. ليس مع بهاء صوتك".

ارتعشتُ. لم أدرك ما يعنيه. ابتسمَ. فوقنا كانت ألواح الأرضية تصرُّ فيما يوريديس تخطو لتُعانق حبيبها. بدأ أورفيوس في إدارة رأسه. خطا العاشقان إلى بعضهما البعض.

شرعَ نيكولاي في الزحف عبر الكهف.

"نيكولاي!" همسَ ريموس. لكن لم يَبدُ أن نيكولاي سمعه.

تعانقَ أورفيوس ويوريديس. رأت في عينيه أنه يحبُّها. ذاقا النعيم للحظة واحدة، ثم ماتت بين ذراعيه.

غـرقَ المـسرح في الصمـت، بعـد أن قتـل أورفيـوس يوريديس(تـه). لم يتنفَّـس أحـد. لم يتحـرَّك أحـد. لم هنـاك شيءٌ يبعـث عـلى الأمـل.

* * *

لكـن تحـت خشـبة المـسرح، في وهـج المصبـاح الخافـت، كان نيكـولاي يزحـف عـبر كهـف تاسـو، ناخـرًا عنـد كل حركـة. تَبعـه ريمـوس، محـاولًا الإمسـاك بقدميـه، محـاولًا إيقـاف "الأمـل" قبـل أن يُفسـد هـذه الأمسـية، قبـل أن يُغضِـب الإمبراطـورة، قبـل أن يُـودي بهـم إلى الطـرد مـن هـذه المدينـة تمامًـا كـما طردهـم "الغضـب" مـن سـانت غـال. أدركَ تاسـو، أيضًـا، أن شـيئًا ليـس عـلى مـا يـرام. اهتـزَّت يـداه أمـام صـدره. هـرعَ إلى جانـب العمـلاق وهسـهسَ، "توقَّـف!".

لم أستطع التحرُّك. كنتُ ذاهلًا. أيَّ مصير كان نيكولاي يحلم به لي؟

وضـعَ أروفيـوس زوجتـه الميِّتـة عـلى خشـبة المـسرح ووقـف فوقهـا. لم تعـزف الأوركسـترا. كانـت تنتظـر حتَّـى يغنـي القائـد.

حملـقَ نيكـولاي لأعـلى في خشـبة المـسرح. ناظـرًا، مُنصتًـا. طقطقـة. كان جـواداني يخطـو للخلـف، بعيـدًا عـن جثـمان عروسـه الميِّتـة. زحـف نيكـولاي معـه، بوجهـه عـلى بُعـد إنشـات أسـفل خطوات جـواداني. تنشَّـقَ نيكـولاي. أمسـكَ ريمـوس بقـدم نيكـولاي بكلتـا يديـه، وضغـطَ تاسـو عـلى كتفَـيْ نيكـولاي. لكـن نيكـولاي، بوجهـه مرفوعًـا إلى الخطـوات المُطقطقـة فوقـه، كان أقـوى منهـما مُجتمعَـيْن.

توقَّـفَ جـواداني عـن تراجعـه في منتصـف خشـبة المـسرح، ليبـدأ أعظـم أغنيـة في هـذه الأوبـرا...

ثـم وثـبَ نيكـولاي، سـاحبًا ريمـوس وتاسـو معـه وكأنهـما وشـاحَان مربوطـان بعنقـه. امتـدَّت يـده ناحيـة حبـلٍ. قبضـت أصابعـه عليـه. جذبـه.

انفتحت الكمبوشة تحت قدم أورفيوس.

سقطَ جايتانو جوداني بعنف إلى ما تحت خشبة المسرح، وسرعان ما جثمَ نيكولاي فوقه قبل أن يتمكَّن المُغنِّي من الصراخ. ثبَّته جوداني على الأرض، ووضع يدًا ضخمة على فمه. ثم استدارَ إليَّ. اختلجت رأسه لأعلى؛ ناحية التجويف المربَّع في السماء فوقه، الذي كان ضوء المسرح المُغبَّر ينساب عبره.

ضيَّق عينيه المعطوبتَيْن؛ ذلك أن الضوء قد آذاهما، وقال، "أرجوك، يا موسى. أرجوك. اتلُ رسالتك".

(15)

لم أستطع التَّحرُّك.

أين؟ فكَّرتُ. هناك في الأعلى؟

ثـم تطلَّـع ريمـوس إلى صديقـه العمـلاق -رفيقـه لثلاثـين عامًـا- وهـزَّ رأسـه. أبـدى اسـتهانةً. كان الأمـر قـد تجـاوز الحـدَّ بالفعـل. لم يعـد هنـاك وقـتٌ لتغيـير أيِّ شيء.

كان ذئبًـا ضاريًـا. اندفـع ناحيتـي وانتـزع معطفـي وياقتـي. مـزَّقَ قميـصي مـن مُقدِّمتـه حتـى صـار يشـبه غلالـة أورفيـوس. لم أجـد وقتًـا للتفكـير فيـما يرفعنـي ناحيـة الكمبوشـة.

"أطفـئ المصابيـح"، همـسَ لتاسـو. وثـبَ تاسـو، الـذي لم يتحـرَّك منـذ سـقوط الطـواشيِّ العظيـم، إلى عمـود السـحب عنـد سـماع الأمـر، كبحَّـارٍ في عاصفـة ينصـاع لأوامـر قبطانـه.

أقعيـتُ تحـت الكمبوشـة. شـابكَ ريمـوس بـين يديـه عنـد خـصره. ابتسـمَ نيكـولاي، بالدمـوع تملأ عينيـه، وراحتـه مـا تـزال تُغطِّـي وجـه جـواداني المرتعـب. أومـأ ريمـوس. "أسرع يـا مـوسى"، همـسَ.

بـدا أننـي لا أحتـاج سـوى إلى خطـوة صغيرة لأضع قدمـي عـلى يـدَيْ ريمـوس، وهكـذا فعلـت. أمسـكت بحافـة أرضيـة المـسرح. فكَّـرت، مـا زال بإمـكاني العـودة. لكـن ريمـوس... يـا لهـا مـن قـوةٍ لديـك!

زمجرَ، ورفعني. سقطَ المسرح من حولي. اتَّخذتُ خطوة.

كنتُ على خشبة المسرح.

عنـد قدمـيَّ، جثـمان حبيبـة إنسـان آخـر. أمامـي، ألـف وأربعمائـة زوجٍ مـن الأعـين. تمايلـتُ برفـق مـن جانـبٍ إلى آخـر. اسـتغرقَ المـسرح في الصمـت.

هـل لاحظـوا؟ هـل رأوا بطلَهـم يسـقط؟ هـل أدركـوا أنـه عـاد إليهـم أطـول، وأكـثر شـبابًا، وأكـثر اسـتغراقًا في الحـبِّ؟ كان تاسـو قـد أخفـضَ مصابيـح الأرضيـة، وبهـذا أصبحـتُ مُضـاءً مـن الجانـب فقـط. عندمـا تطلَّعـت إلى بحـر الأعـين أمامـي، لم يكـن هنـاك شـكٌّ أو غضـب. بـل حدَّقوا بأعـين طفوليـة مُنتشـية. كانـت الأعـين تقـول، أورفيـوس! غـنِّ لنـا! غـنِّ!

ألقيـت نظـرةً خاطفـة عـلى الإمبراطـورة. كانـت تُحـدِّق وكأنهـا تعرفنـي جيـدًا. ضيَّـقَ جلـوك عينيـه، غـير مُتيقِّـن ممَّـا يـراه، ومـع ذلـك كانـت يـداه المرفوعتـان في موضعهـما؛ جاهزتَـيْن لقيـادة الأوركسـترا في اللحظـة التـي يبـدأ فيهـا أورفيـوس في الغنـاء.

ثـم وجـدتُ أماليـا. نظرنـا إلى عينَـيْ بعضنـا البعـض، لكنهـا لم تتعـرَّف عـليَّ. لم تَبـدُ أنهـا تتنفَّـس. كانـت تمثـالًا.

شـكَّلتُ شـفتَيَّ كدائـرة ضيِّقـة وزفـرت. في أذنيَّ، كان الصـوت كالإعصـار في المـسرح الصامـت. نفخـتُ حتَّـى تهدَّلَـت كتفـاي فـوق رئتَـيَّ. ثـم ارتدَّت

أضلاعـي العملاقـة. فتحـتُ فمـي عـلى اتِّسـاعه وانسـابَ الهـواء عـبر حلقـي. ازددتُ طـولًا وعرضًـا. اندفـعَ الهـواء إلى رئتَـيَّ، ممزِّقًـا العضـلات بـين ضلوعـي.

غنَّيت.

»Ahimè! Dove trascorsi! Ove mi spinse un delirio d'amor!"

«واحسرتاه! ماذا فعلت؟ إلى أين قادني جنون الحبِّ!».

بـدا ذلـك كهمـسٍ بالـكاد، لكـن صـوتي فـاضَ عـلى المـسرح. تنشَّـقَ جلـوك وباعـدَ مُختلِجًـا بـين يديـه المُرتفعتَـيْن. عـلى وجهـه، حلَّـت الصدمـة محـل الشـكِّ. انفرجـت شـفتا الإمبراطـورة المزمومتـان. بـدَّلَ كلُّ مَـن في المـسرح مـن وضعـه قليـلًا في اندهـاش. البعـض اعتـدلَ في جلسـته. آخـرون ارتخـوا، وكأن دعامـةً قـد أزيلـت. قبضـت أيـادٍ عـلى الحواجـز. كشـطت كعـوبٌ الأرضيـة. في *Le Paradis*، تطـاولَ أربعمائـة عنـق ليقـترب مـن السـقف.

تركـت يـدا أماليـا الحاجـز وأمسـكت بخدَّيهـا. داخلهـا، هبَّـت عاصفـة مُباغتـة. كانـت الإنسـان الوحيـد في ذلـك الجمهـور الـذي سـمع ذلـك الصـوت مـن قبـل. مـع الأنغـام الأولى، قالـت لنفسـها إنهـا لا بُـدَّ خُدعـةٌ قاسـية، مـن خيالهـا الأحمـق، المُترقِّـب، لكـن كل تلـك الجـدران ارتجَّـت. طرَفَـت بعينيهـا لطـرد الدمـوع، وعندمـا تطلَّعَـت إليَّ مُجـدَّدًا بعينَـين صافيتَـين، وحدَّقـتُ إليهـا بـدوري، أدرَكَـت أن هـذا الموزيكـو الماثـل عـلى خشـبة المـسرح كان موسـا (هـا) - واسـتوعبت كل شيء.

كان جلـوك تـردَّد لوهلـة، بيديـه مرفوعتَـين مـا تـزالان. حملـقَ إليَّ. اتَّسَـعَت عينـاه؛ ذلـك أن شـبحًا كان يقـف أمامـه. سـمعَ جلـوك الموسـيقى التـي كتبهـا، تُغنَّـى كـما في أحلامـه.

* * *

في لحظةٍ عادَ جلوك مُجدَّدًا المايسترو العظيم. يداه تشُقَّان الهواء. الأوركسترا تنصاع، وأقواس الكمانات تضرب على أوتارها. شعرتُ بصوتها في صدري. عندما غنَّيتُ الآن كان صوتي عملاقًا. يرتدُّ عن الجدران ويعود من كل ركنٍ. يتمايل جلوك للخلف وكأن رياحًا تهبُّ. عيناه مُغلقتَان.

ثم كانت هناك استراح... صمت. بدت يدا جلوك المرتفعتان وكأنهما تتحكَّمان ليست فقط في الأوركسترا، لكن في كل شخص في المسرح. إبهاماه، يضغطان على سبَّابتَيْه، يمسكان بكل نفس. عندما يبسط أصابعه مفترقةً، تتهدَّل ألف وأربعمائة كتف. وحين يشبُّ على قدميه ويرفع يدَيْه عاليًا قَدْر ما يستطيع، يتَّسع ألف وأربعمائة زوجٍ من الرئات. ذراعا جلوك تشقَّان الهواء.

أشعرُ أنني عارٍ على خشبة المسرح، لكنني أريد أن ترى أماليا كل ثنيَّة في وجهي. شفتا الإمبراطورة ما تزالان مُنفرجتَيْن، وكأنها عطشى. أبدأً في مرثيَّة أورفيوس العظيمة كما كان ليُغنِّيها جواداني؛ كل نغمةٍ مشقوقة بسكِّينٍ حاد.

أعينٌ كثيرة تنغلق. أجسادٌ تتلوَّى برفق. عطشى لحزن أورفيوس النقي. بدت الإمبراطورة عاجزة عن التنفُّس. فمها مفتوح على اتِّساعه. الدموع تحتشد في عينيها. تتعاظم موسيقاي، ويتراجع كثيرون برؤوسهم فيما يتمايلون ليشعروا بأغنيتي عبر أجسادهم. عينا جلوك منغلقتان. ذراعاه تهويان كالأجنحة. لكنه لم يفقد السيطرة. حركاته دقيقة. موسيقيُّوه يستجيبون لكل حركة منه بتركيزٍ شديد وكأنه مشعوذ يُخضِعهم بسحره. أنا، أيضًا، تركتُ نفسي أنقاد لإيقاع حركاته. إنه سيِّد هذه الموسيقى.

أُغنِّي.

يـدا أماليـا تقبضـان عـلى الحاجـز. تنحنـي للأمـام وتضغـط ببطنهـا المتكـوِّرة عـلى الخشـب، الـذي يـرنُّ بصـوتي.

ثـم ينتهـي كل شيء. تتفـشَّى همهمـةٌ في المـسرح؛ صـوتي يهمـس في كل صـدرٍ مـا يـزال. تتوقَّـف الأوركسـترا عـن العـزف. يفتـح جلـوك عينيـه وينظـر بـإشراق مُجـدَّدًا إلى الشـبح الـذي اسـتدعاه إلى الحيـاة.

أخطو متراجعًا وأسقط.

(16)

في الكهف، كان نيكولاي يحمل جوداني المصدوم كالرضيع في ذراعيه. وضعهُ على الرافعة وهمسَ بإيطالية مُتكسِّرة أنه حان وقت الغناء مُجدَّدًا، لم يلاحظ أحدٌ شيئًا، ولهذا بمقدور جوداني أن يسترخي؛ ما يزال بطل الليلة. ثم منحَه نيكولاي صفعتَيْن قاسيتَيْن.

«كل شيء على ما يرام *Tutto bene!*" قال نيكولاي. جذبَ تاسو حبلًا، وارتفعت الرافعة. صعدَ جايتانو جوداني عائدًا إلى خشبة المسرح.

* * *

انزلقتُ خارجًا من مزلق الفحم وهرعتُ إلى مدخل المسرح. هذه المرة، لن أفقدها. أمسكتُ بالباب الثقيل وفي عقلي رؤيا جميلة لأماليا تنتظرني هناك في بهو المدخل، بذراعيها مفرودَتيْن لمُعانقتي...

لكن الباب تطوَّح مفتوحًا واصطدمَ بوجهي.

أسقطني أرضًا على الدَّرج القصير. استلقيتُ في الشارع، مُحدِّقًا في سماء الليل.

كانت لتُلقي بنفسها عليَّ، لكن حالتها تمنعها، ولهذا ارتَقَت الدَّرج بصعوبة حتى تتمكَّن من الجثوم بجواري. ثم قبَّلتني وتطلَّعت، أخيرًا، عميقًا في عينَيَّ.

ساعدتني على الوقوف. لوهلة تشبَّثنا ببعضنا البعض.

"أنت حيّ!" قالت.

"نعم!".

"أنت حيٌّ!" قالت مُجدَّدًا، وددنا لو نستمرُّ هكذا فحسب، بيديها تُربِّت على كل إنشٍ في جسدي تستطيع الوصول إليه، وذراعاي يقبضان على جسدها الدافئ قريبًا من جسدي، وكأننا ضفيرة مجدولة.

"أنت حيٌّ!" قالت ثالثةً، ودموعها تلوِّث قميصي بخطوطٍ شفَّافة.

"أنا آسف..." بدأتُ القول، لكنها هزَّت رأسها ووضعت إصبعًا على شفتَيَّ.

"موسى"، قالت. "لا وقت لدينا علينا أن نسرع. إنهم... إنها..." تناولت يدي وجذبتني إلى الميدان، عيناها تبحثان عن عربة للاختباء فيها. تركتُ نفسي أُسحَب فيما ألقي نظرة واحدة أخيرة من فوق كتفي على ذلك المسرح.

سمعتُ صوتًا من الداخل، كاندفاعة نهر.

كانوا يصفِّقون. الإمبراطورة والإمبراطور، الدوقات، الأمراء، وكل مَن في المقصورات، كانوا يهلِّلون لصوتي. مع انحناءاته لتحية الجمهور، كان جايتانو جواداني يحصد الثناء عليَّ. تسلَّلَت ابتسامة إلى وجهي فيما أخطو بعماءٍ في إثر أماليا. صاح صوتٌ مدوٍّ، "عاشت السِّكِّين! السِّكِّين

المباركة!" (*Evviva il coltello! Il Benedetto coltello*) وتعاظم الصخب، وقد اجتمعت الهتافات الآن مع هزيم التصفيق.

سمعته أماليا أيضًا. توقَّفنا.

واقفًا وحدي معها في ذلك الميدان الخاوي، انحنيتُ أول انحناءة في مسيرتي احترامًا للجمهور فيما تضحك هي وتُصفِّق لي. داخل المسرح، لم ينقطع التصفيق؛ ولهذا انحنيتُ مرَّةً تلو الأخرى، لأعلى ولأسفل، كلعبةٍ تتدلَّى من خيط. ثم تناوَلَت يدي مُجدَّدًا. تعال! وأطلقنا سيقاننا للرياح.

* * *

ارتقينا عربةً وأسرعنا إلى قصر ريشر. فيما يختفي أورفيوس ويوريديس في معبد الحب على خشبة المسرح، ويغادر أنطون مقصورته ليبحث عن زوجته (التي همست له أنها تشعر بتوعُّكٍ وتودُّ التَّمشِّي في الأروقة قليلًا)، أخبرتني أماليا، "أخفِ وجهك". مررنا بالغول إلى داخل فناء آل ريشر.

"لكن لماذا هنا؟" سألتها. "أرجوكِ، أيَّ مكان إلَّا هنا".

"سترى"، أجابتني.

غادَرَت العربة وخَطَت إلى المنزل وكأن كل شيء على ما يرام. فتحَ واحد من الحرّاس الباب لها ونظرَ إلى الخارج. سحبتُ الستارة مُجدَّدًا لإخفاء وجهي. لكن متأخرًا جدًّا؟ هل لمحَ وجهي؟

سمعتُ ضوضاء، اختلستُ نظرةً من النافذة الأخرى لأرى الغول نفسه يتمعَّن في عربتنا. يا إلهي، فكَّرت. إذا رأى وجهي سيضيع كل شيء. ستطاردنا (الكونتيسة) حتى تمسك بنا.

"هل يوجد أحد في الداخل؟" سأل الغول الحوذيَّ.

"نعم"، غمغمَ الحوذيّ. "چنتلمان".

"چنتلمان؟" هل أنت متأكِّد؟".

"هل أنا متأكد؟ ألا أعرف مَن يستقلُّ عربتي؟".

"مَن هو؟".

"لم أرَه. الظلام حالك".

اقتربَ الغول من الباب. تمعَّن فيه. تنفَّسَ خمس مرات، وكل زفير كثورٍ على وشك الاندفاع. ثم طرقَ مرتين، كل ضربةٍ كمطرقة.

"مَن هناك؟" سأل.

أوصدتُ الباب، بأهدأ ما أستطيع.

"افتح هذا الباب!" انثنى الباب فيما يجذبه.

"احذر! هذا بابي!" قال الحوذيُّ.

"سأحطم نافذتك إذا لم يفتح الباب على الفور".

انكمشتُ في الزاوية. انثنى الباب مُجدَّدًا، أنَّتْ المفصلات.

"ماذا تفعل؟" صاحت أماليا من بعيد.

"سيدتي"، قال الغول بصرامة، "أودُّ أن أعرف مَن يوجد داخل هذه العربة. أين السيد أنطون ريشر؟".

سمعتُ خطواتها تعبر الفناء ببطء. عندما اختلستُ نظرة بين الستائر، كانت تقف قريبةً جدًّا منه، لحدٍّ أن بطنها المتكوِّر لامَسَ فخذيه. كانت ترتدي الآن عباءة ثقيلة على كتفيها.

"أنت أيُّها البهيمة عديمة الاحترام"، قالت. نغزته في صدره، وتراجع خطوتين. "في هذه العربة يجلس رجل عجوز فاضل شوَّهته الحرب؛ بالطبع لن يُري وجهه لفلاح ساذج مثلك. وأين أنطون؟ سأخبرك

بذلك. إنه ينتظرنا في منزل الكونت ناداستي، يزداد غضبًا في كل دقيقة تُبقينا فيها متأخِّرين".

رفعتُ مغلاق الباب فورَ أن مدَّت يدها لفتح الباب. جلسنا ساكنَيْن كجُثث حتَّى أفلت بنا الحوذيُّ من البوابة. ثم زفرَ كلانا أنفاسه.

"أتمنَّى أن تحرق كل فستان اشترَته لي"، قالت أماليا. "ثم تطلق اللعنات على اسمي".

وضَعَت صندوقًا صغيرًا، مزخرفًا في حِجري؛ ربما يحوي إنجيلًا صغيرًا. فتحته.

عشرة أكوام، كلٌّ منها يحوي عشرين عملة ذهبية من فئة العشرة جولدن، بمجموع ألفي جولدن. فغرتُ فاهي. أبدًا لم أمسك بجولدن واحد حتَّى في يدي.

"في يومي الأخير في سانت غال"، قالت. "دلفَ أبي إلى غرفتي. ظننتُ أنه في غاية السعادة لزواجي، لكنه أخذَ يخطو بعصبية جيئةً وذهابًا. عندما سألتُه ما الأمر، وضع هذا في يدي. "تحسُّبًا"، قال، "ليومٍ ما تودِّين فيه العودة إلى الوطن"، ثم أضاف، بدافع من اللباقة، "أعني لزيارتنا". ألفا جولدن من أجل زيارة!".

أغلقتُ الصندوق.

"هذا يكفي"، قالت، "لأيِّ مكان نتمنَّى الهروب إليه. لكن علينا أن نسرع. عندما تعود (الكونتيسة) وتسمع أنني لستُ هناك، لن يصدِّقوا أنني تُهت أو خُطِفتُ. لن يبحثوا عن زوجةٍ وابنة. سيتعقَّبون خائنةً".

انطلقنا عبر ڤيينا طوال ساعتين، مُتفكِّرين في خيارتنا للهروب. غيَّرنا العربات مرَّتين؛ حتَّى نتأكد أنه لا يمكن تعقُّبنا.

"الطـرق المؤديـة مـن ڤيينـا لـن تكـون آمنـة"، قلـت. "الكونـت ريـشر لديـه جواسـيس في كل اتِّجـاه. مـن الأفضـل أن نختبـئ لبعـض الوقـت ونُجهِّـز بعـض وسـائل التَّنكُّـر".

وافقتُهـا. سـيكون مـن الصعـب عـلى سـيدة حامـل -مثـيرة للأنظـار كأماليـا- أن تتنكَّـر في نُـزُل البلـدات المحيطـة، ولا تسـتطيع النـوم في عربـة. إذا حاولنـا الهـرب مـن المدينـة، لـن يسـتغرق الأمـر سـوى يـوم واحـد حتَّـى نقـع في يـد ذلـك الغـول.

أخبرتها أنني أعرف أين بمقدورنا أن نختبئ.

* * *

"إنـه صغـير جـدًّا"، قلـت فيـما عربتنـا تجـوب أكـوام المخلَّفـات في شـارع بيرجاسـه في سـبيتلبرج. "والهـواء قـد يكـون خانقًـا بعـض الـشيء. إنـه صاخـب. لكـن الحوائـط مُصمتـة. الأثـاث بـالٍ، لكنـه مريـح".

"أوه، موسى"، قالت، "قلت لك، لا أبالي".

"لـن يكـون الأمـر كـما اعتـدتِ"، قلـتُ، مُتفكِّـرًا في ثـروات قـصر ريـشر وآل دوفـت.

"مـا أنـا معتـادة عليـه هـو سـاحرةٌ تراقبنـي ليـلًا ونهـارًا. مـا أنـا معتـادة عليـه هـو زوجٌ بـلا إرادة. السـبب الوحيـد لحمـلي هـو أنهـا طلبـت ذلـك".

تقافَـزَت العربـة فيـما تدهـس حجـارة شـارع مُخلخلـة، أو كلـب ربمـا. عندمـا قـال الحـوذيُّ إنـه لـن يمـضي أكـثر مـن هـذا، عرضـتُ عليـه دفـع الضعـف. جلبنـا إلى بـاب المقهـى.

"هـا هـو"، قلـتُ، شـاعرًا بالهـوان عندمـا رأيـت كيـف يبـدو المبنـى ضئيـلًا الآن. كان لـه أن يكـون قطعـة ديكـور عـلى خشـبة مـسرح تاسـو. أخفضـت أماليـا قلنسـوة عباءتهـا عـلى جبينهـا. حملـتُ صنـدوق النقـود في يـدٍ فيـما أسـاعدها بالأخـرى عـلى الخـروج مـن العربـة. كانـت قويـة،

لكـن ظهرهـا كان مُتقرِّحًـا مـن سـاعات الجلـوس عـلى المقاعـد القاسـية في المقصـورة والعربـة، وصـارَ عرَجهـا أكـثر وضوحًـا فيـما نعـبر الشـارع المـليء بالحُفَـر إلى البـاب.

كان الوقـت قـد تجـاوزَ منتصـف الليـل الآن -سـاعةُ المحرَّمـات في هـذا الحـي- ولهـذا حـدَّق المـارَّة في الأرض بـدلًا مـن التَّطلُّـع إلى وجوهنـا. كان المقهـى فارغًـا تقريبًـا. أربعـة رجـال، متورِّديـن مـن الـشراب، يحتسـون دواءهـم المُـرَّ، القاتـم، يحدِّقـون في أماليـا وكأنهـا رؤيـا فانتازيـة اسـتحضرها شرابهـم. نظـرَ السـيد كوسـت المُوسـوس في حذائـه، واثقًـا أنـه لا يفـترض بـه رؤيـة هـذه السـيدة الأنيقـة تدخـل مقهـاه.

ارتقينـا الـدَّرج إلى مسـكن صديقَـيَّ. اندفـع ريمـوس ناهضًـا مـن مقعـده. جاهـدَ نيكـولاي للوقـوف عـلى قدميـه. نظـرتُ إليهـما بـإشراق، ومـلأ الارتيـاح وجهَيْهـما.

"حمـدًا للـرَّبِّ"، قـال ريمـوس، كأمٍّ قتلهـا الخـوف. ضـمَّ يديـه أمـام صـدره عندمـا ظهـرتُ عـلى عتبـة البـاب، رغـم أن ابتسـامته تلاشـت إلى إيمـاءة تحيَّـةٍ عصبيـة فيـما تدلـف أماليـا ورائي وتُنـزل قلنسـوتها.

لكـن ابتسـامة نيكـولاي تعاظمـت عندمـا تبيَّنـت عينـاه الضعيفتـان ظـلًّا أنثويًـا. "مرحبًـا في معبـد الحـب!" هتـفَ. شـحبَ وجـه ريمـوس بظـلٍّ آخـر، فيـما احمـرَّ وجهـي في حَـرج. وحدهـا أماليـا ابتسـمت. ثـم نظـرت بتمعُّـن في ريمـوس.

"يا إلهي!" قالت. "إنه ذلك الراهب الذئبيُّ!".

"مرحبًا، آنسة دوفت". انحنى.

"في الحقيقـة، يدعونـني السـيدة ريـشر الآن"، قالـت. "لكـن الليلـة أودُّ أن أدعـى بدوفـت مُجـدَّدًا".

"في هـذا المنزل يمكنـكِ اختيـار أيِّ اسـم تحبينـه"، قـال نيكـولاي، وتناول يدهـا في يديـه الضخمتـين، وكأنـه يريـد تدفئتها.

"أصدقائي"، قلتُ. "هل لنا أن نبقى هنا لبعض الوقت؟".

رفع نيكولاي يد أماليا إلى خدِّه. "قَدْرَ ما تحبَّان!" هتفَ.

"شـكرًا"، قالـت وابتسـمت. تطلَّعـت في أرجـاء الغرفـة الباليـة. لارتياحي، لم يَبـدُ عـلى وجههـا أيُّ امتعاض.

"لمـاذا لا تأخـذان غرفـة ريمـوس"، قـال نيكـولاي بفروسـية. "يمكنـه الانـزواء هنـا مـع كتبـه".

"لا أريد أن أكون عبئًا عليكم"، قالت أماليا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"لستِ عبئًا بأيِّ شكل"، قال ريموس.

"لن يستمرَّ الأمر طويلًا"، قلت.

"أُصلِّي للرَّبِّ أن يستمرَّ طويلًا!" قال نيكولاي.

"سنذهب إلى ڤينيسيا!" قلتُ بغتة.

"إلى ڤينيسيا؟" قال نيكولاي، واتَّسعت عيناه.

"سيغنِّي موسى في الأوبرا"، قالت أماليا.

"نعم!" هتف نيكولاي. "في تياترو سان بينديتو!".

"وأنتما الاثنان أيضًا"، قلت. "لا بُدَّ أن تأتيا معنا!".

ضـمَّ نيكـولاي يديـه المتورِّمتـين تحـت ذقنـه. تدفَّقَـت الدمـوع في عينيـه. "ڤينيسـيا! حلمـي يتحقَّـق! بالطبـع سـنصحبكما!".

لم يتحـدَّث ريمـوس لوهلـة. كان وجهـه كسـحابةٍ تحجـب شـعاع شـمس مُسـتقبلنا. "ريمـوس"، قـال نيكـولاي، "لا تكـن مُضجـرًا هكـذا".

"نيكولاي لا يستطيع السفر إلى ڤينيسيا"، قال ريموس لأماليا. "إنه مريض".

"ذهبتُ إلى المسرح الليلة!" كانت ابتسامة نيكولاي مُكابِرَةً وعنيدة. "يمكنك وضع شوال على رأسي بحيث أتجنَّب الشمس".

"نيكولاي، ڤينيسيا على بعد أربعمائة ميل من هنا، عبر جبال الألب. لا يمكنكَ امتطاء حصان. على أيِّ حال، لا نملك أيَّة أموال لرحلةٍ كهذه".

"نعم، لدينا!" قلتُ. أخذتُ الصندوق من تحت ذراعي وفتحتُ الغطاء. التمعَ الذهب في ضوء الشمعة.

"يا إلهي"، همسَ ريموس.

"ما هذا؟" سألَ نيكولاي، محاولًا تثبيت عينيه على الذهب. "هل هو حريق؟".

"موسى وأماليا لديهما ثروةٌ"، أخبره ريموس. "مالٌ أكثر مما لمستَ طوال حياتك".

شهقَ نيكولاي.

"سنشتري عربة"، قلت. "سنشيِّد لنيكولاي فراشًا داخلها".

"ترى، نحن في حاجةٍ إليكما"، أوضحت أماليا. "هنا في النمسا، أنتما الستار الذي يخفينا. وفي إيطاليا، لن يصدق أحد أن موسى زوجي".

"سأكون زوجك!" قال نيكولاي.

تورَّد وجه أماليا.

"نُفكِّر"، قلت، "أن يكون ريموس أباها. وزوجُها، سنقول، بعيدٌ في الحرب".

"بمقدوري أن أكون عمَّها إذن".

"فكَّرنا أنك قد تكون مريضًا"، قالت أماليا. ثم نظرت إلى ريموس. "مريض يرعاه أبي".

"مريض ثري، إذن"، قال نيكولاي.

"مريض ثري"، أكَّدتُ.

ثم سمعنا صوت خطوات على الدَّرج. نظرَ ريموس ناحية الباب، وانسحبت الدماء من وجهه. مدَّ نيكولاي ذراعًا طويلة وقادني أنا وأماليا إلى خلف ظهره، ليواجه الخطر الصاعد على الدَّرج بنفسه.

لكنني ابتسمتُ فحسب: سَمِعَت أذناي أكثر ممَّا سمعت آذانهم. عندما انفتح الباب أخيرًا، وتخشَّب نيكولاي للأمام في وضعية الهجوم، لم يكن الغازي يصل إلَّا إلى خصره بالكاد.

كان وجه تاسو مُحمرًّا وغارقًا في العرق من الركض عبر المدينة. فركَ كفَّيه في ارتياح عندما رآني.

"جواداني يبحث عنك!" قال تاسو بين أنفاسه اللاهثة. "وثبَ من بين الظلال فيما أكنس المسرح. أمسك بي من حلقي. قال إن دوراتسو سيطردني من المسرح!".

"ماذا ستفعل؟" سألتُ.

ابتسمَ الرجل الضئيل وهزَّ رأسه. "ركلته في قصبة ساقه وسخرت من تهديداته"، قال متباهيًا. "سمعتُ دوراتسو نفسه يهنِّئ جواداني. وقال الناظر إن ما غنَّيتَه كان أعظم أغنية غُنِّيت على الإطلاق في مسرح الإمبراطورة. يظنُّون أنه مَن كان يُغنِّي؛ لهذا لا يستطيع جواداني أن ينطلق بكلمة! لكنه سألني أين تختبئ. أجبته أنك تلميذه؛ ينبغي أن يعرف أين أنت".

"أشكرك"، قلت.

"وسأركله مُجدَّدًا غدًا"، تفاخرَ تاسو.

أخـذت أماليـا ذراعـي وخطـت خارجـة مـن خلـف نيكـولاي. جفـلَ تاسـو. "لكـن هـذا يعنـي أن كِلَيْنـا ينبغـي أن يظـلَّ مُختبئًـا حتـى نتمكَّـن مـن مغـادرة المدينـة"، قالـت لي.

"تاسو"، قلتُ. "هذه أماليا".

تطلَّـعَ إليهـا الرجـل الضئيـل مـن رأسـها إلى قدميهـا. عندمـا سـقطت عينـاه عـلى بطنهـا المتكـوِّر أطلـقَ صفـيراً مـع نفحـة مـن الهـواء. لم نكـن أخبرنـاه بـشيءٍ عـن خطتنـا، وصـارَ الآن يسـتدير ناحيـة كل واحـدٍ منَّـا بنظـرة غضـب لم أرهـا قـطُّ عـلى وجهـه الصغـير. خشـيتُ لوهلـة أن ينطلـق بنفسـه ليبحـث عـن جـواداني والكونتيسـة ريـشر.

طـوَّح بالبـاب لإغلاقـه وراءه؛ قعقـعَ عـلى إطـاره المتهالـك. هـزَّ تاسـو رأسـه ناحيـة كلٍّ مـن أصدقائـه ثـم خطـا إلى جانـب أماليـا وأمسـك برسـغها. كان رأسـه يصـل إلى مِرفقهـا بالـكاد. رفـع ذراعهـا، ممُسـكًا بهـا في كلتـا يديـه فـوق رأسـه -كنـادل يحمـل صحفـة- وقادهـا أولًا ناحيـة البـاب، ثـم التـفَّ حـول نيكـولاي، ومـرَّ بكومـة كتـب، بـين كأسَيْ قهـوة مقلوبَـيْن، وحـول بقعـة داكنـة عـلى السـجَّادة، حتَّـى وصـل بهـا إلى أمـام نيكـولاي. ثـم اسـتدارَ إليهـا. لم نتحـرك. تجهَّـم. "تعـالَ إلى هنـا"، قـالَ مُشاكسًـا. "الآن حـالًا". أشـارَ إلى الأرضيـة بجوارهـا. عندمـا خطـوتُ إليـه، سـاعدني عـلى إجلاسـها ببـطء، بحـذرٍ، لترتـاح في المقعـد. نـزعَ حذاءهـا وأمـرني، "دلِّـك قدميهـا".

* * *

أومـأَ تاسـو فيـما أُقـدِّم لـه موجـزًا وأسـبابًا لـكل مـا كان قادنـا إلى وضعنـا الحـالي ولـكل مـا سـيأتي. انخفـضَ رأس الرجـل الضئيـل فيـما نتحـدَّث؛ ولهـذا عندمـا انتهينـا، بـدا كأنـه كان نائمًـا. اسـتغرقنا في الصمـت لوهلـة، ذاهلـين.

كانت أماليا مَن أدركَ الأمر."تاسو، هل ستأتي أيضًا؟".

رفع بصره إليها. "ربما"، قال.

"لكن تاسو"، قلت، "لن تترك المسرح بالطبع!".

أبدى استهانةً. "هناك مسارح أخرى".

"هناك حقًّا!" قال نيكولاي، فاردًا ذراعيه. طأطأ ريموس عندما لامست أصابع نيكولاي أذنه. "وسنحتاج إلى شخصٍ ما لقيادة عربتنا! تاسو، هل تستطيع الضرب بالسوط؟".

"الأحصنة عنيفة، بهائم غبية"، قال. "لكنني أعرف كيف أُسيِّسُها".

وهكذا اتفقنا. سنبقى في سبيتلبرج لشهر أو شهرين -بما يكفي فحسب ليولد الرضيع- ثم نتنكَّر كمريضٍ وحاشيته، سنسافر معًا عبر جبال الألب إلى ڤينيسيا. نظَّفنا غرفة ريموس الصندوقية من الكتب والغبار؛ حتَّى تجد أماليا الراحة فيها. كان الفجر قد حلَّ تقريبًا عندما استلقيتُ بجوارها على الفراش وأخذنا في التحديق في عينَيْ بعضنا البعض.

"أنت حيٌّ"، همَسَت للمرة المائة تلك الليلة. أَجْرَت يدها عبر شعري وتمعَّنت في كل ثنيَّة في وجهي. "عندما أحلم بك، كنتُ أضطرُّ إلى الحُلم بذلك الصبي الضئيل، أو حتَّى بظلِّه. من حقِّي أن أغضب: كذبتَ عليَّ لسنوات، أنتَ أيُّها الأحمق".

"لكنني..." أوشكتُ على القول، ورغم أنها منحتني الوقت للتَّحدُّث، عجزتُ عن إيجاد الكلمات المناسبة لتسمية عُذري، أو القوة للنُّطق به. عندما أشحت بعينَيَّ أخيرًا شاعرًا بالإحراج، ابتسَمَت وجذبت وجهي إلى وجهها.

استغرقنا في النوم أخيرًا. نمتُ بجوارها في الفراش الضَّيِّق حتَّى تقلَّبتُ ساقطًا إلى الأرض، حيث كان دثارٌ في انتظاري. هكذا كان الأمر

كل ليلـة. لم يكـن في الغرفـة أيَّـة زخرفـة باسـتثناء نافـذة واحـدة صغـيرة؛ لذلـك في اليـوم التـالي علَّـقَ نيكـولاي صليبًـا أعـلى الفـراش، وظهـرَ تاسـو بسـتائر حريريـة، كان صنعهـا مـن بقايـا الأزيـاء التـي أخذهـا مـن المـسرح. كان ريمـوس ينـام عـلى الأريكـة، بشـخيره يبقينـا جميعًـا مسـتيقظين، لكننـا لا نعـترض؛ لأنـه فيـما نسـتلقي مسـتيقظين، كنَّـا نحلـم بمسـتقبلنا الڤينيـسيِّ السـعيد: النـوارس تتصايـح فـوق القنـوات، والجناديـل تصطـدم بالأرصفـة، وصـدى الأوبـرا يمـلأ الهـواء.

(17)

وجـدَ ريمـوس وتاسـو حنطـورًا باليًـا مُتعفِّنًـا وراء واحـدة مـن حانـات سـبتلبيرج المُتهدِّمـة. ذهبـتُ معهـما لمعاينتـه، وأصابنـي إحبـاطٌ شـديد مـن حالتـه البائسـة: عجلـة واحـدة فقـط كانـت مسـتديرة، لطخـات مـن الطـلاء المُتقـشِّر، بـلا زجـاج في النوافـذ.

«سـنحتاج إلى الذهـب حتَّـى نصـل إلى ڤينيسـيا فقـط»، أشـارَ ريمـوس. «بعدهـا سـيغنِّي مـوسى. لمـاذا لا نشـتري شـيئًا... سـليمًا أكـثر؟».

«شيئًا أحدث؟» اقترحت.

رفـع تاسـو بـصره إليَّ، ثـم إلى ريمـوس. هـزَّ رأسـه. ثـم أخـذَ في تطويـح البـاب جيئـةً وذهابًـا عـلى مفصلتـه الوحيـدة المُتبقِّيـة. عـوى كمُغنِّـي سـوبرانو مخمـور. «لا»، قـال. «سـنأخذ هـذه العربـة»، قـال. «اذهـب وادفـع الثمـن».

كان تاسو عبقريًّا. لم نكن أنا وريموس سوى مُساعديه الحمقى فيما يُشيِّد على الهيكل، الثابت بعض الشيء، أكثر عربة طبيب إقناعًا شُيِّدَت قطُّ. عندما انتهينا، كانت هائلة ومظلمة، بنوافذ صغيرة عليها ستائر رمادية. في الداخل، ركَّبنا فراشًا كبيرًا على نوابض من أجل نيكولاي، وفراشًا بستائر لأماليا ورضيعها، وستة خطاطيف للأراجيح، في حال لم نجد حانةً في أيٍّ ليلة على طول رحلتنا. ثبَّت تاسو موقدًا صغيرا في الأرض وحفر ثقبًا في السقف لوضع مدخنة. رغم كتلة العربة الكبيرة، كانت الركوبة على نوابضها الرفيعة الجديدة سَلِسَة وكأنها على فراشٍ بريش. طليتُ العجلات الكبيرة بالأسود والذهبي.

عندما امتطى تاسو موقعه، ألمحَ ريموس إلى توهُّمٍ عجيب: ظهرَ الرجل الضئيل بالحجم الطبيعي وبَدَت العربة العجيبة أكبر بمقدار الضعف من أعظم عربة لدى الإمبراطورة.

اشترينا أكبر أربعة خيول رمادية مُروَّضة استطعنا إيجادها، ووضعناها في الحانة مع العربة إلى أن نتهيَّأ للرحيل. مُعتصرًا عينيه في مقعده، رسمَ نيكولاي لافتةً تقول: «الدكتور: ريموس مونش: احذروا من الأمراض الرهيبة». علَّقنا اللافتة على باب العربة.

اشترينا ملابس فلّاحين لأماليا: ولوَّثناها بالفحم؛ حتى لا تثير الشكوك. في الصباحات الباكرة، عندما لا نخشى كثيرًا أن يرانا أحد، كانت أماليا ترتدي عباءتها ثم نمشي في الأنحاء لنتنفَّس الهواء المتَجدِّد. كنتُ أقودها عبر أكوام الكرنب المُتعفِّن. ونتحدَّث عن مستقبلنا: عن إيطاليا ومُدنها؛ عن باريس وإنجلترا البعيدة؛ عن أعظم دور الأوبرا في العالم، التي كنا ننطق أسماءها فيما بيننا كتعاويذ سحرية: تياترو سان كارلو، تياترو ديلا بيرجولا، تياترو سان بينديتو، تياترو كابرانيكا، تياترو كمونالي، تياترو ريجيو، كونفنت جاردن، دي هوفوبر. كان الأطفال رفقتنا الوحيدة في الشارع. وفور أن تطلع الشمس كانوا

يتسلَّقون نوافذ المنازل المهجورة، يتقافزون عبر الأزقة، تهشُّهم أمهاتهم بعيدًا عن الأبواب. كان الأطفال الأكبر يقطرون بسلاسل أشقائهم الأصغر ورائهم. فيما يتسابق الأطفال حولنا، كنتُ أجد نفسي أتفحَّص كل وجه مبتسم. هل سيكون طفلنا مثله؟ أم مثلها؟

أخبرتني أماليا ذات يوم أنها تودُّ الانطلاق في رحلة قصيرة إلى المدينة لشراء هدية لنيكولاي. في اليوم السابق، كانت اقترضت شريط من الكتان المُرقَّم الذي يستخدمه تاسو لقياس الأطوال وربطته حول رأس نيكولاي، مُخربشةً بالأرقام على قصاصة ورق. حزمَت شَعرها للخلف بوشاح ولطَّخت وجهها بالرماد حتى صارت تبدو كخادمة مُشعَّثة، ومررنا عبر بوابة السور إلى سوق السمك حيث أخبرتني أن أنتظر في العربة.

اختفت في متجر، بلافتة تقول «عدسات Linsen". هبَّت رائحة السمك العفنة في الهواء البارد وأصابتني بالغثيان. تطلَّعت عبر الشارع يمينًا ويسارًا بحثًا عن غول الكونتيسة ريشر أو جاسوس آخر ما ربما يسرق مني حبِّي مُجدَّدًا. دفعَ رجل عجوز بعربةٍ تصرُّ مُحمَّلة بأكوامٍ من الصابون المُدهَّن، فيما صبيٌّ مُتَّسخ يحمل صحفًا مُتهدِّلة في يده ويصيح، "الهزيمة في سيليسا! الحرب ستنتهي حتمًا!" دلفت امرأةٌ أخرى إلى متجر العدسات بعباءة سميكة حول أذنيها، واقتنعتُ بغتةً أنها الكونتيسة ريشر نفسها. لكن فور أن استجمعت شجاعتي لمواجهتها، خَطَت أماليا خارجةً، بخدَّيها الورديَّيْن باديَيْ الرضا والفرح. كانت تحمل علبة صغيرة تحت ذراعيها.

في تلك الظهيرة كشفت عن هديتها: زوج من العدسات المستديرة المُصفرَّة مُعلَّقة على إطارات من الأسلاك.

"لا تتحرَّك"، قالت لنيكولاي فيما يحاول مدَّ يده وتحسُّس الأداة الغريبة بيديه الخرقاوين. "دعني أضعها على وجهك".

أصبحت عيناه شكلَيْن بيضاويَّيْن، بشرائط من الجلد الأسود حولهما لحجب الضوء. أبدى نيكولاي اندهاشةً، رغم أنه لم يستطع رؤية شيءٍ في ضوء الردهة المُعتم. نهض واقفًا. فتحت أماليا الستارة. انساب ضوء أواخر ما بعد الظهيرة إلى الداخل، وللمرة الأولى في سنوات طويلة، لم يجفل نيكولاي.

شهقَ من البهجة ولوَّح بيده أمام وجهه، وكأن العدسات تجعله يُبصر أرواحًا غير مرئية لنا تطير في الهواء. خطا إلى النافذة ووقف هناك كخيال ظلٍّ مهيب، بذراعيه ممدودَتيْن لمعانقة الشمس الدافقة. "إنها معجزة!" هتف.

لم تكن معجزة، بل مجرد هديَّة أخرى من العِلم، ولم تكن الحل المثالي كذلك. عندما يرتدي العوينات، كان بمقدوره الإبصار جيدًا فقط في الظهائر المشمسة كما يُبصر الآخرون في منتصف الليل. "لا، لا"، أجاب على تأكيدات ريموس بأنه يخدعنا. "أستطيع الإبصار بأفضل ما استطعتُ قطُّ. مثل خفَّاش".

هزَّت أماليا كتفيها استهانةً وهمست لي، "إنها زجاج مُغبَّش فحسب. لكن لماذا نخبره؟".

تواثبَ نيكولاي في أرجاء المسكن وكأنه يرى كل كومة كتب لريموس، كل منضدة، وكل كأس قهوة أو نبيذ، وهكذا عندما يقلبها، وهو ما فعله كثيرًا، كان يهتف، "أوه، أخرق للغاية. ينبغي لي أن أكون حذرًا مع قدمي السمينة في المستقبل". طلبَ من ريموس أن يرافقه فيما يتنزَّه في الحيِّ. "حتَّى الوحوش البشعة"، قال، "لا تخيف أحدًا مع صحبة الأطباء باهظي التكلفة".

عندما يتحرك رضيعها، كانت أماليا تضع يدي على جسدها حتَّى أشعر بالحركة أنا أيضًا. وعندما يطول صمت الرضيع، وأراها تنغز برفقٍ، على أمل إيقاظ علامةٍ ما على الحياة، كنت أجذب يدها بعيدًا

وأضغط بأذني على بطنها. أنصتُ إلى القلب المُنمنم الذي يخفق أسرع من قلب أمِّه مقدار الضِّعف. ذات يوم، فيما أغنِّي لها صدى القلب، لوب-دوب- لوب-دوب لوب-دوب، أخذت يدي في يديها وجذبتني إلى وجهها حتى تَلامَس أنفانا. "موسى"، قالت. "سيدعوكَ (أبي)".

تورَّد وجهي وأشحتُ بنظري، لكن الفكرة سحَرتني خلسةً. أبي، كرَّرتها لنفسي فور أن صرتُ بمفردي. أبي.

منذ ذلك الحين، كل يوم عندما أغنِّي لأماليا كنتُ أغنِّي كذلك لطفلنا في رحِمِها. تمنَّيتُ في أعماقي أن يخترق صوتي أذنيه المنمنمتين كما اخترق صوتُ أجراس أمي أذنيَّ. هل سأقدر أن أكون أبًا لهذا الطفل كما كانت الأجراس لي؟

ذات ليلة، بعد أن تهيَّأنا للنوم، وقفتُ أمام أماليا في غرفتنا الضيقة. أخذت تتمعَّن فيَّ في ضوء الشمعة: ذراعاي الطويلتان وصدري البارز. في الهواء البارد، اشتدَّت معدتي الملساء إلى ما يشبه قشرة بيض. استقرَّت عيناها للحظة على اللفافة التي أرتديها دائمًا حول وسطي، ثم رمشتَا بسرعة على وجهي. لكنني لمحتُ تلك النظرة المُختلِسة، وعندما تلاقت عينانا، تورَّد وجهها.

فككتُ اللفافة. اقشعرَّ الجلد الرطب تحتها بفعل الهواء البارد. لم أستطع أن أُخفض بصري؛ وإلَّا فلن أحتمل عاري. لكن أماليا لم تحوِّل بصرها. مدَّت يدها، وعاريًا، بارتياحٍ هائل، ارتقيتُ تحت دثارها. استكانت بين ذراعيَّ.

"أماليا"، قلتُ بغتةً بعد بضعة دقائق.

"ما الأمر يا موسى؟" سمعتُ في حيرتها أنها كانت نائمة.

"لن أدع هذا يحدث له".

"عن ماذا تتحدَّث؟".

"إذا كان صبيًّا... ابننا. لن أدع هذا يحدث له كما حدثَ لي".

"أوه موسى. لا تكن أحمقَ. بالطبع لن يحدث".

سرعان ما سمعتُ في أنفاسها المتطاولة أنها عادت إلى النوم، لكنني بقيتُ مستيقظًا لدقائق طويلة.

سأحميه -أو أحميها، ابننا أو ابنتنا، أيًّا كان- سأحمي ذلك الطفل من الشَّرِّ الذي حلَّ بي ومن كل الشرور الأخرى التي تتربَّص به في العالم. لكنني أبدًا لن أذكر ذلك الشيء مُجدَّدًا، ولا حتَّى لأماليا: سيكون ميثاقي السِّرِّي: إذا استطعتُ أن أفعلها -أن أكون أبًا لهذا الطفل الذي يكبر في بطنها- فإن عاري بشأن نقيصتي سيتلاشى أخيرًا إلى العدم. ورغم أنني لن أستطيع أبدًا أن أصل ما انقطع، فسأتوقَّف تمامًا عن النواح على كل ما فقدتُه.

وهكذا حلَّ نوفمبر البارد. بدت أيَّامُنا هيِّنةً ومشرقة؛ نسينا بالكاد أن هناك أيَّ إنسان أو شيء في العالم قد نخافه. نسينا أننا نتشارك مدينةً مع أناس يمقتوننا بشدَّة؛ ذلك أن سبيتلبرج كانت ملاذنا، والرجال والنساء الذين يقطنون هذه الشوارع كانوا بعيدين عن حفلات آل ريشر الساهرة وغناء جواداني بُعد الترابِ عن السماء.

(18)

«شيءٌ مـا مختلـف يـا مـوسى»، قالـت أماليـا ذات صبـاح. كانـت قـد ازدادت تكـوُّرًا، وأخمـدَ قوامهـا المنتفـخ مـن رنـين جسـدها. كان عرجهـا باديًـا حتَّـى عندمـا تُبـدِّل قدمَيْهـا عـلى الأرض ببـطء. صـارت الآن تقـف، ومنامتهـا الرقيقـة تنسـدل عـلى بطنهـا كشـلالٍ عـلى صخـور. لاحظـتُ أن بـروز طفلهـا قـد ارتخـى.

«هل يؤلم؟» سألتها.

"لا"، قال. وضعت يديها بمحاذاة بطنها. "لا يؤلم على الإطلاق".

لكـن تلـك الظهـيرة، بـدأ الألم؛ ألم زاحـف، متثاقـل. سـمعتُه في حـدَّة أنفاسـها وهـي تتحـرّك. "أنـا بخـير"، داوَمَـت عـلى إخبارنـا عندمـا نُحـدِّق في رعـبٍ أخـرس. جلسـنا أنـا وريمـوس ونيكـولاي أمامهـا في الردهـة. سـألتها إذا كانـت ترغـب في بعـض الشـاي، أو التفـاح مـن تاجـر الفواكـه، أو أن

يقـرأ ريمـوس عليهـا مـن كتبـه بصـوتٍ عـالٍ، أو أن يحـكي لهـا نيكـولاي مُجـدَّدًا كيـف كانـت حياتـه في إيطاليـا، أو...

"أمسـك يـدي فحسـب ولا تسـألني أيَّـة أسـئلة أخـرى"، قالـت. لكـن حينهـا امتعـض وجههـا وكأن أحدهـم يهـرس بيـده في أحشـائها. سـندت نفسـها عـلى المقعـد بذراعـين ممدودتـين ورفعـت بطنهـا، وكأنهـا تحـاول رفـع رضيعهـا ناحيـة السـقف.

حاولتها مساعدتها في رفعه.

"أفلِتني!" صرخت بين شهقاتها.

اندفـع ريمـوس ناهضًـا وخطـا ناحيـة البـاب. "مـن الأفضـل أن أجلـب تاسـو"، غمغـمَ، واندفـعَ إلى الخـارج بسرعـةٍ لم أره يتحـرَّك بمثلهـا قـطُّ.

عندمـا وصـلَ تاسـو، ركـضَ عامـل المـسرح صاعـدًا الـدَّرج، تـاركًا ريمـوس بعيـدًا وراءه. كان الرجـل الضئيـل الأكـبر مـن بـين ثلاثـة عشر طفـلًا؛ والولادة عـادةٌ في أسرتـه وكأنهـا صـوم الأربعـين. دلَّـكَ يـدا أماليـا بكفَّيـه وأخبرهـا أن أمامهـا سـاعات كثـيرة قبـل أن تضـع مولودهـا، وأن علينـا أن ننتظـر قبـل أن نرسـل في طلـب القابِلَـة (*Hebamme*). "قِـف بجوارهـا"، أمـرني، "أمسِـكْ يدهـا". فعلـتُ كـما قـال. بـدأت الغرفـة في الـدوران مـن حـولي.

"بحـقِّ الـرَّبِّ يـا مـوسى"، قـال ريمـوس، "عليـك أن تتنفَّـس، وإلَّا سـتفقد وعيك".

فركـت أماليـا ظهـر يـدي عـلى خدِّهـا الحـار. "مـوسى"، قالـت، "لا ينبغـي أن تقلـق. سـأكون بخـير".

لكننـي كنـتُ خائفًـا حقًّـا. رفضَـت أضلاعـي التَّمـدُّد، ولم أسـتطع التنفُّـس سـوى برفـع كتفَـيَّ. عضضـتُ شـفتي حتـى دَمِيَـت. تراخـت إحـدى رُكبتـيَّ؛ أسـندني ريمـوس إلى مقعـد. ثـم كانـت أماليـا تفـرك يـدي.

"هل كل مَن على شاكلته بهذه الهشاشة؟" سمعتُ تاسو يهمس لنيكولاي.

"لا، لا"، أجابه نيكولاي مُغمغمًا. "إنه دائمًا هكذا. حتَّى قبل أن... حسنًا، تعرف. أعتقد أنها طفولته في الجبال ربما... العيش قريبًا جدًّا من الشمس".

تمعَّن إليَّ تاسو وأومأ.

* * *

بعد بضع ساعاتٍ، ازدادت آلام أماليا قوة. "أعتقد"، قالت، لاهثةً، وعاصرةً عينيها لإغلاقهما، "أنني أودُّ الاستلقاء على الفراش".

اندفعنا جميعًا ناهضين، لكن تاسو أومأ لي. "أنت فحسب". ساعدتها على الاستلقاء على الفراش فيما يهبط تاسو الدَّرج مُسرعًا إلى الشارع ليجلب القابلة.

"غنِّ لي يا موسى"، قالت أماليا. ركعتُ بجوارها واخترتُ واحدة من الأغاني المُقدَّسة التي غنَّيتُها لأمِّها فيما مضى، وصار بمقدوري التنفُّس مُجدَّدًا بغتةً. أغلَقَت عينيها، وتحرَّكت أصابع قدميها جيئة وذهابًا فيما تُعمِل صوتي عبر ساقيها المتورِّمتين. تنهَّدَتْ فيما يهتزُّ الصوت عبر ظهرها ويُرخي أحشاءها. تباطأت أنفاسها، وفتحت عينيها مُجدَّدًا وابتسمت. هذا كل ما أردتُه في حياتي، قالت نظرتها لي، وفيما أركع هناك في تلك الغرفة الضيقة وكأنني أغنِّي صلاةً، مع قعقعة أكواب القهوة عبر الأرضية البالية والمذاق اللاذع لدخان الخشب على لساني، أدركتُ أيَّ هبةٍ تلقَّيتُ. ليأتِ المستقبل! فكَّرت، مزهوًّا، يملؤني الأمل كما كنتُ دومًا.

ثم، وكأنها رأت شبحًا متربِّصًا وراء رأسي، اتَّسعت عيناها وتقلَّصَ وجهها. فقدَ جسدها صوتي، مثل يدٍ تُسكتِ أوتارَ كمان. مدَّت يدها تحت انحناءة بطنها ولهثت.

في ثلاثين ثانية انتهى الأمر، لكن التماعات الفتاة الجَزعة التي قابلتها قبل أعوامٍ طويلة كانت أقرب إلى السطح الآن. "أوه، موسى"، قالت، "هذا سيؤلم". وضعتُ منشفة باردة على جبينها، وبحثتُ عن الكلمات لتعزيتها، لكنني كنتُ ضائعًا.

تناوَلَت يدي. "أخشى كثيرًا أن يحمل وجه أنطون"، قالت. "أريد لطفلنا أن يكبر على شاكلتك".

كان هذه المرَّة الأولى التي تُلمِّح فيها لمخاوف كهذه. تناوَلتُ يدها وقبَّلتها. "لديَّ سرٌّ"، أخبرتها. "كان عندي أب. كان أشنعَ رجُلٍ عرفتُه في حياتي. كان قبيحًا. ووضيعًا جدًّا. وهكذا، إذا لم ترَيْ ذلك الرجل الشنيع في وجهي، فلا تخافي على هذا الرضيع. لا أستطيع القول إلى ماذا سيصير هذا الطفل، لكنني أعِدُكِ، أنه لن يكون مثل أبيه".

اعتصَرَت يدي، وكنتُ سعيدًا أن أرى أن هذا قد منحها العزاء، حتَّى وإن جعلتها نوبة الألم التالية تُغلق عينيها بقوَّة وبطء. عندما انتهت تلك النوبة، انفتحَ الباب ودلفَ تاسو بصحبة القابلة. كانت طويلة ونحيلة، بشعر رمادي سلكيٍّ. تجهَّمَت عندما رأت الغرفة المزدحمة. لكن هذا كان كل شيء. قابلاتٌ كثيرات (*Hebamme*) من إنينشتادت كُنَّ ليندهشن ويهربن من هذا المشهد: امرأة بمفردها مع أربعة رجال، أيٌّ منهم ليس الأب! لكن هذه المرأة -المتمرِّسة في شوارع المواخير، والأمهات الأطفال، والنساء المستعدَّات لقتل الرضيع داخل أرحامهن- لم تطرح أيَّ أسئلة.

ألقت نظرة خاطفةً عليَّ، ولا بُدَّ أنها قرأت رعبي بوضوح. أمرت تاسو أن يغلي الماء، ويجلب الملاءات والمناشف، وأن يوفِّر لها منضدة لتضع أدواتها عليها. ثم أصدرت أمرًا أخيرًا. "خُذ هذا الرجل"، أومأت في اتِّجاهي، "إلى خارج هذه الغرفة، ولا تسمح له بالعودة حتى يظهر الطفل".

جاهـدت أماليـا للاعتـدال عـلى الفـراش، لكـن القابلـة أبقتهـا مُسـتلقيةً بالقـوة. التقـت عينانـا. أبـدًا لم أرَ خوفًـا كهـذا عـلى وجههـا.

"موسى!" قالت.

"سـيكون كل شيء عـلى مـا يـرام"، قلـت. بحلقـي مشـدودًا للغايـة لدرجـة أنـه كان همسًـا. "سـأكون في الخـارج بجـوارك".

وكزني تاسو إلى خارج الغرفة.

أودعنـي في مقعـدٍ، وجلسـنا جميعًـا في الردهـة، مُرتعشـين في صمـت الغرفـة المُعتمـة: خَبْـطُ بـاب المقهـى بـين لحظـةٍ وأخـرى، الـصراخ الحـاد المتكـرر لطفـلٍ في الشـارع، صرخـات الألم المنتظمـة تخـترق البـاب المُهـترئ.

"الآن لنجلـس وننـ..." أوشـك ريمـوس عـلى القـول، لكنـه توقَّـف لأنني نهضـتُ مـن مقعـدي بغتـةً.

سـمعتُ وقـع الخطـوات البطيئـة تصعـد الـدَّرج قبـل أن يسـمعها الآخـرون بلحظـة. أبـدًا لم نسـتقبل زائـرًا مـن قبـل. لا أرغـب في زوَّار الآن.

"مَن هذا؟" غمغمَ تاسو.

"سأصرفهم"، قال ريموس، ناهضًا باندفاع. "لا بُدَّ ألَّا...".

لم يجـد وقتًـا. أُديـرَ المقبـض، وانفتـحَ البـاب. خطـا شـكلٌ بـشري طويـل مُغطًّـى بقلنسـوة إلى الداخـل وأغلـق البـاب وراءه ببطء. ثـم، وكأنـه عـلى خشـبة مـسرح، ببـطء شـديد، مـدَّ جايتانـو جـواداني يديـه المثاليتـين لأعـلى وأنـزل عباءتـه. تأمَّـل جمهـوره الصغـيرة. عندمـا رآني، ابتسـم، كـما لـو بارتيـاح كبـير.

"*Mio fratello*"، قال.

(19)

أبـدًا لم تَبـدُ الرَّدهــة صغـيرةً هكـذا. أخــذت عينــا جــوادانى البرَّاقتــان تتأمَّــل الســتائر المُهترئــة، والكتــب المُغــبرَّة المُكدَّســة عــلى طــول الحوائــط، وقطــع الأثــاث غــير المتناســقة، وكأن كل جســم يهمــس لــه بــالأسرار حــول الرجــال القاطنــين في هــذا المســكن. اســتدارَ ناحيتــي أخــيراً.

"تُخفـي نفسـك جيـدًا"، قـال. "مـن حُسـن حظِّـي أنـك تحيـط نفسـك" -أشــار بيــده في أنحــاء الغرفــة- "بأشــخاص لافتــين للنظــر، كانــوا في غايــة النشــاط اليــوم". ابتســمَ إلى تاســو. "مَــن هــي تلــك المــرأة التــي رافقتَهــا إلى هنــا لتــوِّك، هــل لي أن أســأل؟" عقــدَ الرجــل الضئيــل ذراعيــه وحــدَّق في الأرض.

كان هنـاك أنـينٌ عـالٍ قـادم مـن غرفـة أماليـا؛ يجيبـه الصـوت الثابـت، العميـق للقابلـة.

وحده جوداني استدارَ لينظر إلى باب الغرفة. «سيذهب موسى ليراك»، قال ريموس، «في وقتٍ آخر. أو ربما تزوره أنت. لكننا اليوم لسنا مستعدِّين لأي زيارة».

«لا، لا»، قال جوداني شارد الذهن، مراقبًا ما يزال غرفة النوم. «زيارة أخرى ليست ضرورية. لن أطيل. أودُّ فقط أن أقول وداعًا لتلميذي. ثم سأرحل».

«وداعًا»، قلت.

ابتسمَ جوداني إليَّ وهزَّ رأسه لسذاجتي. خطا للأمام، حتى وقف داخل دائرتنا. نيكولاي على يساره، ريموس وتاسو على يمينه، وأنا جالس أمامه. «بالطبع، لا أريد أن أغادر»، قال، «دون أن أناقش ما حدث بيننا. أنا على يقين أن عامل المسرح قد أخبرك أن الأغنية التي سرقتها قد تركت تأثيرًا هائلًا».

«موسى يُغنِّي أفضل منك بكثير»، قال نيكولاي بغتة. لم يَبدُ أن جوداني قد تأثَّر بهذه الاندفاعة، لكنه تمعَّن في نيكولاي، وكأنه يلاحظ تشوُّهاته لأول مرة. رفعَ حاجبيه.

«موسى»، قال، مُتأمِّلًا في اسمي هذه المرة الأولى التي يرد على شفتيه، «قبل أن أغادر، قبل أن أدع رجلًا كهذا» -أشارَ براحته إلى نيكولاي- «يُضخِّم من طموحاتك، أودُّ أن أمنحك بعض النصائح. أغنِّي الأوبرات منذ كنتُ في العاشرة. غنَّيتُ على خشبات مسارح مُتعفِّنة في قرى إيطاليَّةٍ نائية. غنَّيتُ في كوفنت جاردن. لستَ أول تلميذ يترك كنفي مُعتقدًا أنه أعظم من المُعلِّم. وإلى ماذا صاروا؟ لا أعرف. أبدًا لم أسمع اسم واحد منهم مُجدَّدًا». هزَّ كتفيه استهانةً وتطلَّع مُجدَّدًا ناحية باب أماليا. «أعتقد أنهم يغنُّون في مكان ما. جوقات كنائس قروية، أو يسافرون مع فرق أوبرات الـ *buffa* التهريجية. أعرف كيف يعيشون؛ ذلك أنني عشتُ مثل ذلك يومًا. يغنُّون على مسارح

صغيرة في الخلاء، ويبتهج الناس لأصواتهم. يجعلون الرجال يبكون. ثم ينتهي الحفل. يغادر الجمهور، وفيما يمشون عائدين إلى بيوتهم عبر الشوارع، يضع الرجال، من الجمهور الذي ضحكَ وبكى على غنائهم، أيديهم على أعضائهم" -نظرَ بتركيزٍ إلى حقويَّ، ثم أعاد عينيه إلى وجهي- "ويتظاهرون بالغناء كفتيات صغيرات".

هزَّ نيكولاي رأسه بتحدٍّ من مقعده، لكن جواداني لم يكن ينظر إلا إليَّ.

تطلَّعتُ في قدمَيْ المُغنِّي.

"موسى"، تابع، "هل تظنُّ أن هؤلاء المُغنِّين البائسين لا يتمتَّعون بأيِّ موهبة؟ هل لهذا يتعفَّنون في قرى بلا اسم؟ موسى"، نطقَ باسمي بخفوتٍ ورفعتُ بصري. هزَّ رأسه بحزن. "أوه نعم، لديهم موهبة! لديهم أصواتٌ عظيمة، مثل صوتك وصوتي. بمقدورهم جعل الإمبراطورة تبكي، كما فعلتَ أنتَ، فقط لو جعلوها تؤمن بهم". ازداد وجهه قتامةً. "لكن لا تظن أنه من قبيل الصدفة أنهم ينامون في العربات فيما أنام أنا في واحدٍ من أرقى منازل ڤيينا. ليست صُدفةً".

بدأت أماليا في الأنين مُجدَّدًا، وتوقَّفَ جواداني، مُحملقًا في الباب وكأن مُعاناتها مُجرَّد سعال قطعَ غناءه على المسرح.

"ليست صُدفةً على الإطلاق"، تابع، باهتياجٍ أكبر الآن. "الغناء ليس سوى بوابة الدخول إلى حرفتنا. موسى، أوضحتُ لك كل هذا من قبل، لكنك لم تنصت. لم تكن لترتكب حماقةً كتلك لو كنتَ فهمت...". توقَّفَ عن الحديث، حتَّى يسيطر على الغضب المُتنامي في صوته، لكنَّ أذنيَّ قالتا لي أكثر من ذلك؛ كان أيضًا خائفًا من شيءٍ ما في هذه الغرفة. بيدٍ مرتجفة، ربَّت على جيب عباءته. أخذَ نفسًا بطيئًا، عميقًا.

"إنهم لا يمنحوننا الحُبَّ من أجل غنائنا"، بدأ مُجدَّدًا. اتَّخذ خطوةً أخرى للأمام. "لديك صوتٌ بديع يا موسى...".

"لديه أجمل صوت سمعتُه في حياتي"، قاطعه نيكولاي، ملوِّحًا بإصبعٍ تكفي لإيقاف جوداني في مشيه.

"صوتٌ بديع"، قال جوداني. أومأَ باحترام. "أيُّ فرقة أوبرا تهريجية سيسعدها ضمُّك. شيءٌ طيب"، تطلَّع في أرجاء الغرفة، "أنك تبدو مُتكيِّفًا للغاية مع ظروف حياتك هذه".

"ارحل أرجوك"، قلت.

"لكن كنتُ سأعلِّمك كيف تكون موزيكو!" أجفلتني القوَّةُ المباغتة لكلماته، وكأنه قصدَ ضربي. عندما رفعتُ بصري، رأيتُ أنه يرتجف من الغضب.

بهدوءٍ شديد قلت، "لكن لم تُعلِّمني أيَّ شيء".

"حان وقت رحيلك"، قال ريموس.

استدارَ جوداني بسرعة. "سأغادر عندما يناسبني ذلك!" أغلق عينيه لوهلة. ثم استدارَ ناحيتي وأشارَ بإصبع مُرتجفة. "يظنُّون أنهم سمعوني أغنِّي. لو عرفوا أنه كان أنت، لانفجروا من الضحك. ولطردَك جنود الإمبراطورة من المسرح. كان صوتك، لكنه كان أنا مَن هتفوا له".

"هراء"، غمغمَ نيكولاي.

طوَّح جوداني بذراعه وصفع نيكولاي بظهر يده. تركت أصابعه الطويلة أربعة خطوط بيضاء على خدِّ نيكولاي وصدغه. تطايَرَت عدسات نيكولاي الجديدة عن وجهه وتحطَّمت على الأرض.

"أنـا مَـن خلقـتُ أورفيـوس"، زمجـرَ جـواداني، وارتجَفَـت الرَّدهـة الصغيرة بفعـل صوتـه. "أعـدتُ روحـه إلى الحيـاة! ثـم جـاء هـذا الصبـي، هـذا الهـاوي، وسرق صوتـه منّـي!".

ضيَّـقَ نيكـولاي عينيـه، لكنـه لم يجفـل مـن الضـوء. ببـطء، شرعَ في محاولـة النهـوض مـن مقعـده بصعوبـة. ارتفـعَ فـوق المُغنّـي. تعـثَّر جـواداني للـوراء حتـى اصطـدم بالحائـط ثـم أخـذَ في تحسُّـس عباءتـه. فيـما يقـترب نيكـولاي منـه، أخـرج مُسدَّسًـا وصوَّبـه ناحيـة العمـلاق.

ضحـك نيكـولاي وشـبَّ لأقـصى طـولٍ لـه. "هيـا"، قـال. "تأكَّـد ألّا تخطئ هدفك".

جذبَ ريموس ذراع نيكولاي. "نيكولاي، اجلس".

ارتعـشَ المُسـدَّس. أبقـاه جـواداني موجَّهًـا إلى نيكـولاي لكنـه اسـتدارَ إليَّ. "أنـا أكـثر مـن مُجـرَّد صـوت بكثـير، ولسـتَ سـوى لـصٍّ لا غـير".

لوهلـة عابـرة، شـعرتُ بالتعاطـف ناحيتـه. كان عـلى حـقٍّ: لقـد سرقتـه. اختلسـتُ منـه مـا يحتاجـه كل عبقـري: الإيمـان أن لا أحد في العـالم بإمكانه أن يتفـوَّق عليـه. أمسـكَ بالمُسـدَّس بارتخـاء، بخـرَق. لـن يُطلقـه؛ يُريدنـا أن ننصـت إليه فحسـب.

"هل هذا كل ما جئتُ لتقوله؟" سألتُ بحذر.

"جئتُ لأخبرك أن ترحل عن هذه المدينة. لا أريدك هنا".

حينهـا، انبعثـت التَّأوُّهـات مُجـدَّدًا. غـرزتُ أصابعـي في فخـذيَّ. اندفـعَ تاسـو ناهضًـا مـن مقعـده. ثـم سـكنت أماليـا مُجـدَّدًا، وارتعـش المُسـدَّس بعنـفٍ أكـبر في يـد جـواداني. تقافـزت عينـاه مـن كل رجـلٍ في الغرفـة إلى الـذي يليـه. اسـتوعبَ أخـيرًا بشـكل بـاتٍّ معنـى هـذه الصرخـات. كان يبحـث عـن الأب.

"سنرحل عن ڤيينا"، قلت. محاولًا التحدُّث رغمًا عنِّي لتشتيته، لكن صوتي كان همسًا ذاويًا.

"متى؟" قال.

"قريبًا جدًّا".

أومأ، لكنه كان ذاهلًا. انسحبت الدماء من وجهه. "يا إلهي"، همسَ. "لا يمكن أن يكون".

"اخرج!" صرخَ نيكولاي، مُجاهدًا للإفلات من قبضة ريموس ناحية المُسدَّس، الذي كان يرتعش الآن أكثر وأكثر.

تراجعَ جواداني. "هل هذا حقيقي؟" غمغم. "هل هي فتاة ريشر؟".

لم يُجب أيٌّ منَّا. تجمَّدَ نيكولاي في انقضاضته.

"هرَبَت معك؟" سألني. كانت شفتاه المُحمرَّتان وعيناه الثاقبتان هي اللون الوحيد في وجهه.

وحينها صرخت أماليا. كان هناك ألمٌ مريع في صوتها لدرجة أنني نهضتُ مندفعًا وهرعتُ نحو الباب، لكن ريموس أمسك بذراعي وأوقفني.

عندما خَبت صرختها، كان جواداني يقف عند الباب المؤدي إلى الدَّرج. "ملعونون جميعكم"، قال، ثم فرَّ هاربًا.

وحده نيكولاي أبدى ردَّة فعل. لكنه لم يَعُد الرجل الذي هرعَ عبر الدير نحو غرفة أولرتش قبل أعوام طويلة. قعقعَ هابطًا الدَّرج. خطونا أنا وريموس وتاسو إلى النافذة. رأينا المُغنِّي ينطلق إلى الشارع ويختفي وسط الزحام. استغرقَ الأمر بضعة ثوانٍ قبل أن يتبعه نيكولاي، وعندما اندفعَ إلى أشعة شمس الظهيرة، دون عدساته، صرخَ وغرزَ أصابعه في عينيه. بجواري، لهثَ ريموس فيما نراقب نيكولاي يقبض على رأسه ويسقط على ركبتَيْه في الشارع من تحتنا.

(20)

وقفتُ عند باب أماليا فيما الآخرون يساعدون نيكولاي لصعود الدَّرج. وضعوه في مقعده. "لا!" هتفَ، ضاغطًا بكعبَيْ راحتَيْه على صدغيه. "لا، لا، لا!". جلبَ ريموس نبيذه المخلوط بصبغة الأفيون، لكن نيكولاي ضربَ الكأس بعنفٍ، وتحطَّم إلى شظايا على الأرض.

"هل سيخبرها؟ هل ستأتي امرأة ريشر؟" همسَ تاسو لريموس، معتقدًا أنني لا أسمعهم.

"أعتقد أنها ستأتي".

"لماذا؟" سأل. "إنه ليس طفلها".

"إذا كان صبيًّا، فسيكون أكبر ابن لأكبر أبنائها: كونت ريشر ذات يوم. وسيكون وريثَ آل دوفت كذلك. ستحاول انتزاعه".

"لكننا لن نسمح لها"، قال تاسو.

لم يُجب ريموس. خطا إليّ، وواضعًا يديه على كتفيّ، قادني إلى مقعدٍ. كان نيكولاي يُطلق أنفاسًا منتظمة، في محاولة لإخراج الألم من رأسه.

"ريموس"، قلت. "ماذا سنفعل؟".

"لا أعرف".

"إذا حاولَت انتزاع الطفل"، قال نيكولاي، "سأقتلها".

* * *

وقد جاءت حقًّا، بعد ساعة، ولم تأتِ بمفردها.

كان الظلام يزداد حلكةً في الخارج. جاءت في عربتها بصحبة أربعة جنود. «تنحَّ!» هتفوا. «تنحَّ، أيُّها الخسيس!» خبطوا بهراواتهم على راحاتهم ولوَّحوا بها في الهواء ناحية أيِّ شخص يُبطئ في إفساح الطريق لجيادهم. راقبهم تاسو من النافذة. طقطَقَت نوابض العربة فيما تجاهد في السير على الحُفر وأكوام المخلفات في الشارع. ثم حلَّ الصمت، باستثناء نخير الجياد الفحول الأربعة.

«انفتحَ باب العربة»، همسَ تاسو. «أحدهم يخرج منها».

سمعتُ وَقْع حذائها على الدرجات الضَّيِّقة لعربتها وحفيف ردائها فيما ترفعه عن الشارع القذر. تقدَّمتها الخطوات الثقيلة لجندي، فاتحًا باب المقهى. «إلى الخارج يا خنازير»، صرخَ. «سيدة تودُّ الدخول». صرَّت المقاعد الطويلة بالأرضية. ارتدى زبائن معاطفهم بصعوبة. تحطَّمت ثلاثة أكواب قهوة على أحجار الأرضية. أسرع الرجال خارجين إلى الشارع.

سمعنا جميعًا وقع الخطوات: الأحذية الثقيلة لاثنين من الجنود، طقطقة كعبَيْ الكونتيسة ريشر، وخطوات مُتخبِّطة أخرى لم أتعرَّف عليها. ارتقوا الدَّرج. ارتدَّ الباب مفتوحًا ليصطدم بالحائط. أحصى

واحـد مـن الجنـود، بيـده عـلى سـيفه، الموجوديـن في الغرفـة بسرعـة، لكنـه سرعـان مـا رأى فينـا عـدوًّا مثـيراً للشـفقة. وازنَ نيكـولاي رأسـه بـين إصبعـين. وقـفَ تاسـو مهزومًـا بجـوار النافـذة. تطلّـع ريمـوس إلى يديـه في حِجـره.

عندمـا خطـت الكونتيسـة ريـشر إلى الغرفـة، بحفيـف عباءتهـا وردائهـا السـاطِعَين حـول بابنـا المائـل، ونقـرات أصابـع قدمهـا عـلى أرضنـا الصّـارَّة، وكل شـعرة في رأسـها مربوطـة بنظـام مُحكَـم؛ أدركنـا حقًّـا كـما كنَّـا حمقى. وراءهـا دلـفَ الجنـدي الثالـث، ثـم امـرأة بدينـة، شـاحبة -مُمرِّضـة- كانـت مطأطئـة الـرأس ككلـب صيـدٍ خنـوع يُجَـرُّ بحبـل.

حملقـت الكونتيسـة ريـشر إليَّ بعينـين هائجتـين. «هـل مـا يقولـه الطـواشيُّ صحيـح؟» سـألتني. «هـل هـي هنـا؟» خطـت للأمـام، وانسـحقت شـظايا عدسـات نيكـولاي تحـت حذائهـا.

«أجِبني»، قالت.

هـززتُ رأسي، لكـن في تلـك اللحظـة سـمعنا أنينًـا، تحـوَّل إلى صرخـةٍ، وكأن أحدهـم يغـرز سـكينًا في بطـن محبوبتـي. اتَّسـعت عينـا المُمرِّضـة، وتجمَّـدتُ، بالصـوت يمـزِّق داخـل رأسي.

كانـت تعبـيرات وجـه الكونتيسـة ريـشر خاويـة. انتظـرت حتَّـى يخمـد الـصراخ. «حسـنًا جـدًّا»، قالـت. «سـأرى بنفـسي أيَّ مخلـوق بائـس يُطلـق هـذا الضجيـج». خطـت حـول نيكـولاي مُتَّجهـةً إلى بـاب أماليـا.

حـالَ ريمـوس دونهـا. كان أطـولَ منهـا، وفي تلـك اللحظـة بَـدَت أكـثر هشاشـةً بمرَّتـين. «لا»، قـال. رفـعَ يديـه عاليًـا.

"تنحَّ"، قالت.

"لا حاجـة بـكِ للدخـول إلى الغرفـة. تعرفـين أنهـا مَـن تبحثـين عنهـا، لكنهـا لا تحتمـل ارتياعًـا أكـثر مـمَّا هـي فيـه الآن".

تفحَّصَـت وجهـه، لكنهـا لم تمـضِ في طريقهـا. عـرضَ عليهـا مقعـدًا. لوَّحـت لإبعـاده. "سـأقف حتَّـى يولـد. حينهـا سأسـتطيع مغـادرة هـذا المـكان القـذر".

"لـن نسـمح لـكِ بأخـذه"، زمجـرَ صـوت نيكـولاي العميـق، وراحتـاه مـا زالتـا تضغطـان عـلى صدغيـه. كانـت عينـاه مُغلقتَـيْن.

اسـتدارت الكونتيسـة ريـشر لمواجهـة نيكـولاي في مقعـده "لن تسـمحوا لي؟".

لم يَقُـل نيكـولاي شـيئًا، لكننـي كنـتُ خائفًـا أن تُحطِّـم يداه المرتعشـتان رأسه.

تجهَّمـت الكونتيسـة ريـشر، نظـرت في أرجـاء الغرفـة. هـزَّت رأسـها وتنشَّـقت. "باسـتطاعتي إلقـاء القبـض عليكـم في التَّـوِّ واللحظـة. أربعتَكـم جميعًـا". ابتسـمت بـبرود. "لا أحتـاج إلى أسـمائكم حتَّـى. باسـتطاعتي إرسـالكم إلى حبـل المشـنقة عـلى اختطافكـم لهـا، قبـل أن تـشرق الشـمس غـد". حدَّقـت في تاسـو، ورغـم أنـه أجابهـا بتحديقـة مماثلـة، إلَّا أنـه كان يرتعـش. "هـل جميعكـم بهـذه الحماقـة؟ هـل كان في نيَّتكـم حقًّـا سرقـة هـذا الطفـل وتربيتـه هنـا، في هـذا الكـوخ؟ لمـاذا؟ لأن" -أشـارت إلى بـاب غرفـة النـوم وأطلقـت كلماتهـا باهتيـاج- "تلـك الفتـاة الماجنـة أخبرتكـم أنهـا تريـد هـذا؟".

لا بُـدَّ أن جـواداني قـد أخبرهـا أن توجِّـه غضبهـا إليَّ؛ ذلـك أنهـا كانـت تنظـر لي باهتيـاج. تمنَّيـتُ لـو كنـتُ أحمـل سـكِّينًا. كنـت لأقتلهـا.

تابَعَـت: "لا حـقَّ لهـا في أن تختـار مـا سـيحدث لذلـك الطفـل. سـيكون واحـدًا مـن آل ريـشر". تطلَّعـت إليَّ مـن رأسي إلى قدمَـيَّ. هـزَّت رأسـها.

أمرت الجنود أن يحرسا باب غرفة أماليا. "اجلس"، أمرت ريموس.

انصاعَ لأمرها.

افترست كلَّ واحدٍ منَّا بنظراتها على التناوب: أطراف تاسو المُتقزِّمة، وجه نيكولاي المشوَّه، ريموس القبيح. ثم أنا. "طواشي"، هسهَسَت. "من أجلكَ هجَرَت منزلنا؟ هجَرَت ابني؟" ابتسَمَت بقسوة. "أوه، آمل أن يكون لديك صوت جميل حقًّا. بعد عشرين عامًا، عندما تصير هي بائسة ووحيدة، آمل أن تمنحها ذكرى صوتك الباهتة بعض العزاء".

لم أُجِب. شعرتُ بتحديقتها كإصبعٍ باردة على وجهي، يتحسَّس بحثًا عن كل علامة على عجزي.

"سأمنحك خيارًا إذن"، تابَعَت. استدارت ولوَّحت بيدها بازدراء. "سننتظر حتَّى يولد الرضيع. سآخذه. ستعتني به مُربِّيتي بالشكل اللائق لمكانته. سأرسل بعربة للأم. ثم سأرسلها إلى حيث أحبُّ. سيُعتنى بها، لكنها ستكون بعيدة جدًّا عن أيِّ مكان يمكنها فيه الإضرار بمستقبل حفيدي بسلوكها المُخزي. وأنتم، أربعتكم، سترحلون عن ڤيينا. لا أرغب أن يعرف أحد أن وريثي قد وُلِدَ في..." تطلَّعت في أرجاء الغرفة، وكأنها تبحث عن أبشع الكلمات المُمكنة، لكنها تنهَّدت أخيرًا وقالت، "سبيتلبرج". تابعت. "إذا رفعتم يدًا لإيقافي، أو إذا سمعتُ مُجدَّدًا عنكم في هذه المدينة، فلن يكون أمامي خيار. ستموتون".

لم نتحدَّث، لكن فيما الصرخات من غرفة أماليا تنطلق مُجدَّدًا، صرخت قلوبنا أيضًا. نظرتُ إلى أصدقائي. أومأَ لي نيكولاي بما أعرفه بالفعل: أنه على استعداد ليموت على أن يترك هذه المرأة تفعل ما تريده. تاسو أيضًا، واقفًا ما يزال في الركن، بدا مُستعدًّا لعضِّها وخربشتها. حتَّى عنق ريموس كان متورِّدًا.

ارتعشت يداي على جانبيَّ. صلَّيتُ أن تصمد ركبتاي. "لا يمكنكِ انتزاع هذا الطفل من أمه"، قلت. كان همسًا. "لن نسمح لكِ".

حدَّقت إليَّ وكأنها تظنُّ أنني في غاية الوهن لدرجة أنها لا تحتاج سوى إلى تحديقة لطرحي أرضًا. "من الرجال"، قالت أخيرًا، "أتوقَّع الحماقة. كنتُ آمل أنهم انتزعوها منك مع رجولتك".

ثم انفتحَ باب غرفة أماليا. أطلَّت القابلة برأسها. اختفت تعبيرات وجهها الهادئة. تشابكَ شَعرها، ورغم أنها أخفت يديها وراء إطار الباب، إلَّا أن شريط الدم عبر جبينها أنبأَ عن السبب. تطلَّعَت إلى الغرفة المُزدحمة.

"لا بُدَّ أن تُحضر طبيبًا"، قالت اعتباطًا للَّا أحد.

نهضَ تاسو، لكن الكونتيسة ريشر رفعت يدها. "ستحصل على أفضل طبيب في ڤيينا". خطت إلى النافذة وصرخت بالأوامر إلى حوذيِّها في الأسفل لجلب طبيب آل ريشر.

(21)

عندما وصلَ الطبيب، كان الليل قد حلَّ. أوقدَ ريموس شمعةً، وأعطى القابلة مصباحًا. كان الطبيب رجلًا ضئيلًا، عُصابيًّا، ودلفَ إلى الغرفة كفأرٍ خائف، عيناه تتواثبان بحثًا عن علامات الخطر. كان يُمسك بحقيبة سوداء وكأنها درع. حدَّد مكان الكونتيسة ريشر في الضوء المُعتم -وكأنه اكتشفَ مُعتزلًا يمكنه الاختباء فيه- وانحنى قليلًا، مُتقدِّمًا بتعثُّر ليقف بجوارها، مُتيقِّنًا أن قذارة هذه الغرفة لن تتجمَّع كثيراً حول شخصها.

تشاورَ قليلًا مع القابلة، وسمعتُ الكونتيسة ريشر تهمس له، «أنقذ الطفل يا دكتور. بأيِّ ثمن». جفلَ للحظة تجاه هذه النصيحة الخطيرة، لكنه أومأ بثبات، وخطا إلى باب أماليا، رافعًا يديه وكأنه سيطرق الباب، ثم راجعَ نفسه وخطا إلى الداخل. تبعته القابلة وأغلقت الباب.

* * *

يمنحها شيئًا لتهدئتها. تتلاشى صرخاتها، وأتساءل إن كانت تصرخ داخل رأسها كما فعلتُ تحت مشرط الجرَّاح قبل عشرة أعوام. "ثبِّتيها إلى الفراش"، يُرشد الطبيب القابِلَة.

تاسو متقوقع في الركن، يُحدِّق في الأرض. عينا نيكولاي مغلقتان، لكنني أعرف أنه ليس نائمًا. ريموس يضع مِرفقه في يدٍ، والأخرى على وجهه، وكأنه غارق في التفكير. أنا على يقين أننا جميعًا نُفكِّر، لقد فشلنا. الكونتيسة ريشر تعقد ذراعيها المُرصَّعَتين بالمجوهرات على صدرها. ينقضي ما يبدو أنه ساعات ولا تتحرَّك هي. لا تنفعل بتاتًا عندما تتأوَّه أماليا.

سأموت قبل أن ينتزعوا ذلك الطفل من أمه.

الطبيب يصيح باستعجال مُلحٍّ، ونرفع جميعًا أبصارنا، حتى الكونتيسة ريشر، تبدو وقد جفلت حقًّا للمرة الأولى. نحاول أن نرى عبر خشب الباب.

كان الهواء خانقًا للغاية على أن نتنفَّس.

* * *

ثمَّ، نعيب غُراب. الآخرون عاجزون عن التفريق بين الصوت القادم من تأوُّهات أماليا وأوامر الطبيب، لكنني أسمع كل نغمة. إنه صوت رئتَيْن منمنمتين تنبسطان. تجترعان هواء ودماء ومياه الرحم. يحبسان أول نفس، ليستا واثقتين ماذا تفعلان به، وثم، أول عواء: أغنية الحياة. يرفع أصدقائي الثلاثة أبصارهم. الرضيع.

وأسمع الآن، بلا شك، أنه صبيٌّ. ابننا.

نقف.

يذوي عواؤه. ينتهي بثلاث شهقات آه! آه! آه! ثم يبكي مُجدَّدًا. يا له من رعب بارد هذا العالم! أذناي تبتهجان بكل صرخةٍ يبديها

كهاويـة تنفتـح في مركـز عالمنـا -أنصـت! أنصـت!- فهنـاك مزيـدٌ مـن الأصـوات أتـوق إليهـا، ومـا زالـت غائبـة.

عاجـز عـن الـكلام. عاجـز عـن الحركـة. يسـتمرُّ العـالم في الـدوران بـدوني. كتفـا تاسـو مُنحنيتـان للأمـام، ومرفقـاه للخـارج. كل شَـعرة عـلى عنقـه المُشـعِر منتصبـة. في عينَـيْ ريمـوس هنـاك غضـب. نيكـولاي يُضيِّـق عينيـه. يرمـش. ترتفـع قبضتـاه.

الرضيع يبكي طلبًا لأمه.

أحدِث ضجيجًا حتَّى أسمعه!

عاجـزٌ عـن التَّنفُّـس. أترنَّـح. يمـرُّ بي ظـلٌّ: ريمـوس. يتشـاجر مـع الكونتيسـة ريـشر، والجنـود يقبضـون عـلى سـيوفهم. يُصفِّـر أحدهـم، والآخـران، اللـذان يحرسـان بـاب المقهـى الأمامـي، يخبطـان بأقدامهـم صاعديـن الـدَّرج. يُربِّتـون عـلى الهـراوات الناعمـة في أيديهـم.

"لسنا خائفين منكم!" يجأر نيكولاي.

لا! حاولتُ أن أقول. لا! ألا تسمعون؟ لقد فشلنا بالفعل!

يقـف الطبيـب عنـد بـاب أماليـا. شـعره ووجهـه مُزيَّتـان بالعـرق. ياقتـه محلولـة. الدمـاء متناثـرة عـلى وجهـه، وعـلى صـدره، تُغطِّـي ذراعيـه حتَّـى مِرفقيـه، وكأنـه أغطسـهما في نهـرٍ دامٍ. يحمـل ذلـك الطفـل الصـارخ. القابلـة تُضيء مصباحًـا فـوق كتـف الطبيـب. الطفـل المُبتـلُّ يلتمـع، باكيًـا، ثـم يتجمَّـد في اختنـاقٍ صامـت طلبًـا للهـواء، مُحدِّقًـا في السـقف. تمتـدُّ يـداه ويرتعـش، يعـاود البـكاء.

"أنقذتُ الصبي"، يقول الطبيب. "لكنني لم أستطع إنقاذ الأم".

* * *

كانت أذناي قد سمعتا هذه الحقيقة بالفعل، وصارت تخترق جسدي الآن بكل قوة. يُمسك بي ريموس فيما أترنَّح. لا أستطيع جذب الهواء لرئتَيَّ. أغرق في الهواء. عاجز عن التَّحرُّك، لكن العالم لا يتوقَّف معي. نيكولاي يصرخ، والجنود يضربونه بهراواتهم، ثم يركلونه بأحذيتهم الثقيلة.

الرضيع يبكي! الكونتيسة ريشر قُبالتي، الطفل بيننا، لكنها تُشيح بوجهها بعيدًا، مُشمئزةً من الدماء. المُمرِّضة تَلفُّ الطفل الصارخ في قطعة قماش وتضمُّه إلى صدرها. ثم انتهى الأمر؛ رحلوا.

تاسو يركع بجوار نيكولاي. العملاق يئنُّ من الألم. القابلة ما تزال تحمل المصباح كتمثال، فيما ريموس يخطو معي إلى فراشها.

أماليا مُغطاة بملاءة. النصف العلوي منها أبيض، والأسفل يلتمع بالأحمر. ريموس يجذبه لأسفل حتَّى نرى وجهها. كان مثاليًّا، بلا دماء على الإطلاق. قد يظنُّها الناظر أنها نائمة، لكنني أسمع أنها ليست كذلك؛ لأنها لا تتنفَّس، وهذا الصمت هو حقًّا أصدحُ صوت سمعتُه في حياتي. يَهزُّ كل جزءٍ منِّي، وأوشِكُ على التشظِّي إلى ألف قطعةٍ لو لم يمسكني ريموس بقوَّةٍ ويعانقني كابنٍ.

(22)

عندمـا ماتـت أمُّهـا، امتـلأت تلـك الكنيسـة المثاليـة بألـفِ نَفْـسٍ. غنَّـت جوقـة كاملـة. رنَّـت حجـارة الكنيسـة مـن أجلهـا. أزهـار كثـيرة جـدًّا وُضِعَـت أمـام قبرهـا حتـى بـدا أنـه يسـتقر عـلى فـراشٍ مـن الأزهـار.

دُفنـت أماليـا في المقـبرة المزدحمـة بالأمـوات وراء كنيسـة القديـس ميخائيـل في سـبيتلبرج. الحشـائش تنمـو بـدلًا مـن الأزهـار. المُعترشـات تخنـق أشـجار السـنديان المُغضَّنـة. شـواهد القبـور تسـتقرُّ مقلوبـةً عـلى القبـور، كـما لـو أنهـا تمنـع الجثـث مـن الهـروب إلى مـكانٍ أفضـل.

في اليـوم الـذي دفنَّاهـا فيـه، تسـاقطَ المطـر البـارد بشـدَّة لدرجـة أن تابوتهـا الخشـبي البسـيط طفـا في القـبر إلى أن ألقينـا عليـه الـتراب لتثبيتـه. تـلا القـسُّ الشـاب تبريكاتـه عـلى عجَـل واسـتدارَ ليرحـل، وكان الأمـر لينتهـي عنـد هـذا، لـولا أن بـدأ نيكـولاي في إنشـاد (حَمَـل الـرَّبِّ *Agnus Dei*).

كانـت المـرَّة الأولى التـي أسـمعه فيهـا يُغنِّـي منـذ سـنوات. ارتفـع صوتـه الرَّنَّـان ليغطِّـي عـلى صـوت المطـر الخافـت. أحنيـتُ رأسي حتَّـى تتسـاقط القطـرات عـلى عنقـي وتنسـاب عـبر ظهـري في أنهـارٍ جليديـة. اختلـطَ المطـر بدموعـي. غرقـت أقـدام تاسـو وريمـوس ببـطءٍ في الوحـل، لكنهـما لم يُحرِّراهـا حتَّـى انتهـى نيكـولاي مـن الابتهـال.

أسـقمني المطـر البـارد، المختلـط بحـزني. حلَّـت بي الحُمَّـى، ولعـشرة أيـام اسـتلقيتُ في فـراش مـوت أماليـا. كان ريمـوس قـد نظَّـفَ الغرفـة مـن الدمـاء، فـركَ الحوائـط والأرضيـات وأعمـدة الفـراش بـلا كَلَـلٍ، لكنهـا ظلَّـت رغـم ذلـك في الشـقوق بـين ألـواح الأرضيـة، تغـزوني في أحلامـي. تمامًـا كـما كان فعـل أولرتـش الأعمـى، نظَّـفَ ريمـوس مـرارًا وتكـرارًا، ومـا زلـت أسـمع أنفاسـها. سـمعتُها تهمـس بكلـمات الحـب. عندمـا حاولـوا نقـلي إلى غرفـة نيكـولاي، صرخـتُ.

جلبـوا لي طبيبًـا. أنزفَنـي وسـقاني أعشـابًا مُـرَّة المـذاق، لكننـي لم أتحسَّـن. ظـنَّ أصدقـائي أنهـم عـلى وشـك دفنـي أيضًـا. لكـن بعـد بضعـة أسـابيع اختفـت الحمـى واختفـت معهـا رائحـة الدمـاء مـن الغرفـة. مـا زالـت أصواتهـا مُخزَّنـة عميقًـا في ذاكـرتي، أحملهـا في أذني كمُـدلَّاة مـن الفضـة بصورتهـا محفـورة داخلهـا.

اسـتيقظتُ ذات ليلـةٍ عـلى صراخ طفـلٍ. نهضـتُ مـن الفـراش عـلى الفـور، واندفعـتُ إلى الردهـة، مـارًّا بريمـوس النائـم وهابطًـا الـدَّرج. كنـتُ في الشـارع الجليـدي، حـافي القدمـين، بملابـس مُهلهلـة، قبـل أن أسـتيقظ وتعـود إليَّ حـواسي. كان البـكاء قادمًـا مـن منـزل بعيـد. رأيـتُ نافـذةً مضـاءة، وأمًّـا تخطـو بـصُرَّةٍ عـلى كتفهـا. لم يكـن الاختـلاج النابـض في قدمَـيَّ شـيئًا بالمقارنـة بـالألم في قلبـي.

أمسـياتٍ كثيرة جلسـنا صامتـين في الردهـة؛ يتراكـم الجليـد عـلى ألـواح النوافـذ ويمحـو الليـل. حتَّـى ريمـوس لم يقـرأ كتابًـا.

"لا بُـدَّ أن نستردَّه عنـوةً!" هتـف نيكـولاي بغتـةً ذات ليلـةٍ بغضـب. عندمـا لم نُجـب أنـا وريمـوس، تابـعَ، بهـدوءٍ أكـبر، "كُنَّـا لنحبَّـه حقًّـا، أكـثر مـمَّا تسـتطيع الكونتيسـة".

"اهـدأ يـا نيكـولاي"، حـذَّره ريمـوس. نظـرَ إليَّ وكأنـه يخـشى أن حديثًـا كهـذا سـيجلب الحُمَّـى علـيَّ مُجـدَّدًا.

"لـن أهـدأ! لـن أهـدأ حتَّـى نفعـل مـا ينبغـي فعلـه. سأنشـئ جيشًـا. هـؤلاء النـاس في الشـوارع سيسـاعدوننا. مائـة رجـل كل مـا نحتاجـه".

"نيكولاي!".

"ريموس!" هتفَ بدوره. "هل تنقصك الشجاعة؟".

"توقَّـف أرجـوك"، قلـتُ لصديقـي. "أشـكرك عـلى شـجاعتك يـا نيكولاي، لكـن لا جـدوى مـن الأمـر. تعـرف أننـي أفكِّـر مثلـك، لكـن ذلـك المنـزل قلعـة؛ سـيهرع جنـود الإمبراطـورة لنجدتهـا. سـتكون المخاطـرة عاليـة جـدًّا، علينـا وعـلى الطفـل".

"لكن لا بُدَّ أن نحاول"، أصرَّ.

"لا"، قلـتُ بحسـم. "لا بُـدَّ أن نُصـلِّي مـن أجـل أن نكـون سـعداء في المصـير الـذي اختـاره الـرَّبُّ لنـا، ولننـسَ الطفـل".

أطلقَ نيكولاي أنفاسه كُدبٍّ غاضب، لكنه لم يتكلَّم.

"عليكَ أن تقسم لي أنك لن تتحدَّث عن الأمر مُجدَّدًا أبدًا".

احتشدت الدموع في عينيه. ارتجفت شفتاه.

بذلَ لي قَسمَه.

* * *

مضينـا وأنـا أصدقـائي مُتعثِّريـن في الحيـاة كمُمثِّلين منبوذيـن محرومـيَن مـن أيِّ نَـصٍّ مسرحـي. ثـم، ذات يـوم، اسـتقبلنا زائرَيْـن. ارتقـى الرجـلان،

كلاهـما بحجـم نيكـولاي تقريبًـا، الـدَّرَج واندفعـا ناحيـة الردهـة. لم أنهـض مـن الفـراش، لكننـي سـمعتُ كل كلمـة. أُرسِـلا، قـالا لريمـوس، مـن جانـب ربِّ عملهـما، لتذكـير "الطـواشيِّ السـويسري" بتعهُّـده بمغـادرة ڤيينـا. سـمعتُ طقطقـة مقعـد نيكـولاي فيـما ينهـض لمواجهتهـما، لكـن ريمـوس خطـا بسرعـة حائـلًا بينهـم. قـال إنـه سـيوصل الرسـالة. "أمامـه حتَّـى العام الجديـد"، قـال واحـد مـن الرجلـين. "ثـم سـنضطر إلى ترحيلـه بأنفسـنا". بعـد مغادرتهـما، دلـفَ ريمـوس إلى غرفتـي وكـرَّرَ رسـالة جـواداني. "ربمـا حـان الوقـت لنرحـل"، قـال لي. "لنبـدأ مـن جديـد".

"ماذا تقصد؟" سألته.

"العربة تنتظرنا"، قال. "يمكننا الرحيل إلى ڤينيسيا في أيِّ يومٍ نريده".

"نرحـل إلى ڤينيسـيا؟" قلـت، مصدومًـا. "لقـد جهَّزنـا تلـك العربـة مـن أجلهـا!".

"موسى، كانت لتحثَّنا على الرحيل".

"لا أبـالي"، قلـت. "إنهـا ميِّتـة ومدفونـة هنـا، ولـن أفقدهـا مُجـدَّدًا. لـن أرحـل عـن ڤيينـا".

انقـضى أسـبوعٌ آخـر. أثنـاء النهـار، كُنَّـا أنـا ونيكـولاي نجلـس في الغرفـة المُعتمـة. وأحيانًـا، في السـاعات الأولى مـن الصبـاح عندمـا يعجـز كلانـا عـن النـوم، نجلـس معًـا عنـد النافـذة المفتوحـة، بالدُّثُـر عـلى أكتافنـا لاتِّقـاء بواكـير الشـتاء القـارس، ونُحـدِّق في الشـارع الخـاوي ناحيـة المدينـة.

كان صديقـي يحـاول رفـع معنويـاتي بحـكي القصـص. "أخـبرني راهـب"، قـال ذات مـرة، "أنـه في النرويـج، ينـام النـاس طـوال الشـتاء كالدِّبَبة. شـهورًا متواصلـة". في صبـاحٍ آخـر: "يـدور القمـر بسرعـة كبـيرة جـدًّا حـول الأرض، لدرجـة أننـا إذا وقفنـا عليـه، سـنندفع بعيـدًا ونحـترق في الشـمس". أو: "قابلـت رجـلًا، هنـا في هـذا الشـارع، يصنـع الفسـاتين للإمبراطـورة. كل رداء

يستغرق منه عامًا لصنعه، وترتديه هي مرة واحدة فقط". أحيانًا ما أنجح في الابتسام بحزن له، لكنني نادرًا ما أتحدَّث. نجلس في الصمت لساعات. مُجرَّد وجودِه كان عزاءً لي.

باكرًا ذات صباح، تحدَّثَ نيكولاي بغتة. "موسى، اليوم هو الكريسماس". كانت الليالي طويلة في ذلك الوقت من العام، وهكذا، رغم أن المدينة تستيقظ ببطء، كانت السماء رمادية قاتمة ما تزال. أخفَت الجليد على حواف النافذ من وهج المصابيح. كان الثلج قد تساقط قبل أسبوع، وعلى سبيل التغيير لم يكن هواء سبيتلبرج ينضح برائحة البول والعفن.

لم أستطع تحديد إذا كان على صواب أو خطأ بشأن التاريخ. لم تكن هناك مظاهر احتفال في الشارع. "طالما كان اليوم المفضَّل لي في السنة"، قال حينها. "يا لها من قُدَّاسات بديعة كنَّا لنُغنِّيها!" ضحكَ بحزن. تبلَّلَت عيناه. "خمسة وأربعين عامًا يا موسى! خمسة وأربعين عامًا قضيتُ كُلَّ صباح منها في كنيسة. والآن، لخمس سنوات كاملة، لم أنطق بصلاة واحدة".

تطلَّعتُ إليه، لكنه هزَّ رأسه.

"لا"، قال. "ولا صلاة واحدة".

كان صديقي مغمورًا تحت الدُّثُر. لم أتبيَّن أين ينتهي جسده وأين يبدأ. هزَّ كتفيه استهانةً وارتفَعَت الكتلة بأكملها وهبطت.

"أريد أن أصلِّي حقًّا"، قال. "ليس الأمر أنني تخلَّيتُ عن الرب. لستُ أيوب، لا أشتكي. أستحقُّ كل ما حدثَ لي وأكثر. بالطبع هناك أشياء بالتأكيد أودُّ أن أطلبها من الرب". هزَّ كتفيه استهانةً مُجدَّدًا. "لكن إذا كنتُ أتوق لأطلب من الرَّبِّ أيَّ شيء. فهناك أشياء كثيرة عليَّ أن أخبره بها أولًا. من أين أبدأ؟ وهكذا فإن كل كريسماس يحدث

نفس الشيء. أقول لنفسي إنه من الأفضل أن أنتظر أكثر قليلًا، وأن أصلي في عيد الفصح".

"سأذهب إلى الكنيسة معك اليوم"، همستُ، "إذا أردتَ".

نظرَ بحميميةٍ إليَّ، سعيدًا بسماعي أتحدَّث، وأكثر سعادةً أنني أهتم بشأنه. لكنه هزَّ رأسه. "لا يا موسى. هذه هي المشكلة. لا أحبُّ. ربما السبب الحاسم، بين أسباب كثيرة، هو أنني عندما أجلس على كرسي الاعتراف وأسمع ذلك الصوت يسألني إن كنتُ أذنبت، ينتابني الخوف من وجه شتاوداخ على الجانب الآخر".

اهتاجت الكراهية داخلي عندما سمعت الاسم. كان وقتٌ طويل قد انقضى منذ فكَّرتُ في رئيس الدير. لكنني أدركتُ في تلك اللحظة أنني لم أعُد أخشى سلطته، التي كان من الواضح أن نيكولاي لم يتخلَّص منها تمامًا. "ربما لستَ مستعدًّا لنَيْل الغفران بعد"، ألمحت.

"ربما"، شرعَ في القول. "لكن لو كنتُ مستعدًّا، فهل أتوق إليه كثيرًا؟ يقول ريموس...".

لكنني رفعتُ يدي؛ ذلك أنني سمعتُ شيئًا. همسًا في الليل.

"ما الأمر؟" سألني.

"أنصِتْ"، قلت. انحنيتُ للأمام، وجاءنا الهمس مُجدَّدًا، أعلى بخمسين ضِعفًا. كل أذن في المدينة تسمع الجلجلة الآن.

* * *

نادتني إلى ڤيينا فيما مضى، والآن تناديني مُجدَّدًا. قَرعَ ذلك الجرس العظيم عبر المدينة واستدعى المؤمنين إلى قُدَّاسِ الكريسماس. من مسافةٍ كهذه، كان الصوت هائلًا. غطَّى نيكولاي أذنيه، رغم أنه ابتسمَ بابتهاج على وقع الاهتزاز المارِّ عبر جسده.

صدحَ ذلك الجرس العملاق بمليون نغمة، وتداخَلَت تلك مع مليون نغمة أخرى. مثل قوس قزح، وهو الضوء مُخلَخلًا إلى كل ألوان العالم، كانت تلك كل أصوات العالم. سمعتُ أجراس أمِّي وتنهُّدات بهجة أماليا، وهزَّتني وتلاشت في طين الأرض المُتجمِّد، ثم صارت معي مُجدَّدًا، محفوظةً للأبد في تلك الجلجلة. وجدتُ نفسي أبكي بين يدَيَّ. بكيتُ على رحيلها، وبكيتُ على الأحلام التي فقدتُها، وعلى الصبي الذي كان ليصير ابني.

حتمًا سمعَ الجلجلة هو أيضًا، في قصره تحت الجرس مباشرة. تمنَّيتُ أن يستطيع سماعها كما فعلت، لكن الأغلب أن هذا الصوت كان مُرعبًا له كالرعد. مَن هناك ليُطمئنه؟ مَن يحمي أذنيه ويُضمُّه إلى صدره؟ ليس أباه، ليست جدَّته؛ كانت تلك المُربِّية كل ما لديه. تخيَّلتُ تلك المرأة الضئيلة التي كانت مُنكمشةً وراء الكونتيسة ريشر هنا في ردهتنا. كيف ستُغطِّي أذنيها وتحمي أذنَيْ صبيٍّ في نفس الوقت؟

استدعى هذا رؤيا في عقلي: أحمله، أضغط بإحدى أذنيه على صدري، أحمي الأخرى براحتي. أضمُّه بشدَّة وأُهدهده. أغنِّي بخفوت، ورغم أنه لا يستطيع سماع صوتي مع تلك الجلجلة، إلَّا أن غنائي يُهدِّئ أطرافه المشدودة. كانت هذه الرؤيا حقيقة للغاية، لدرجة أنني وجدتُ نفسي أضمُّ الدثار بذراعيَّ. شعرتُ بدفء جسده. شعرتُ بتضخُّم أنفاسه.

ثم أخفضتُ بصري ورأيتُ أن ذراعيَّ خاويتان. ملأني الندم بحدَّةٍ، لدرجة أنني نهضت واقفًا ونظرت إلى خارج النافذة، نحو الصباح الأسود، المُجلجِل.

أدركتُ أيَّ سعادةٍ فقَدتُ، وفي تلك اللحظة، أدركتُ أن بمقدوري استعادة جزءٍ منها مُجدَّدًا.

(23)

كان المؤلـف الموسـيقي تشـيڤالير كريسـتوف ڤيليبالـد جلـوك نائمًـا عندمـا تسـلَّلَ الشـبح إلى غرفـة نومـه. خطـا ببـطء إلى جانـب فراشـه وسـعلَ. لم يسـتيقظ المايسـترو. "هاللـو!" قـال الشـبح. "اسـتيقِظْ!" لم يتحركْ جلـوك أيضًـا؛ ولهـذا هـزَّ الشـبح ذراعـه.

انفتحت عينا جلوك بغتةً. جفلَ في فزع. "مَن هناك؟" سألَ.

"أوقِدْ شمعةً".

مـالَ جلـوك إلى المنضـدة بجـوار فراشـه وفعـلَ كـما قيـل لـه. أُضيءَ وجـه الشـبح، شـهقَ.

"أورفيوس!" قال.

أومأ أورفيوس ببطء.

"هل ستُغنِّي مُجدَّدًا؟" سألَ. "هل ستغنِّي من أجلي مُجدَّدًا؟".

بـدا أورفيـوس وكأنـه يتفكَّـر في هـذا لوهلـة. "لا يمكنني القـول"، قـال. "لسـتُ أنـا مَـن يُقـرِّر".

"مَـن يُقـرِّر إذن؟" أزاحَ جلـوك الغطـاء ونهـضَ خارجًـا مـن الفـراش. "مَـن يُقـرِّر؟" خطـا الشـبح للخلـف فيـما يتقـدَّم جلـوك.

"الــ.. الموسيقى"، أجابه الشبح. "الموسيقى هي مَن تُقرِّر".

أومـأ جلـوك. "نعـم"، قـال. "نعـم، بالطبـع". تنـاولَ المؤلف الموسـيقي يد أورفيـوس في يديـه. لبرهـة ضغـطَ بهـا عـلى جبينـه في ابتهـال. "أورفيـوس"، همـسَ، "لكـن لمـاذا جئـتَ إليَّ الليلـة؟".

"الموسـيقى"، قــال الشــبح، وكأنــه يتلــو رســالةً محفــورة في ذاكرتــه، "باركتْـكَ بنعمتهـا. والآن عليـك أن تفعـل شـيئًا في المقابـل". وحينهـا أخـبرَ أورفيـوس جلـوك بمـا عليـه أن يفعلـه، ثـم اسـتيقظ واضـع الألحـان مـن أحلامـه عـلى وقـع جـرسٍ رنَّـان.

* * *

اسـتغرقَ منِّـي الأمـر سـبعة أيـام لترتيـب كل شيء. أخـبرتُ أصدقـائي بالـدور الـذي عليهـم أن يلعبـوه، وبالخطـر الـذي ينتظرهـم. "ربمـا تقطـع الإمبراطـورة رؤوسـنا"، قـال نيكـولاي. شـحبَ تاسـو عندمـا سـمع كلـمات نيكـولاي، فخبطـه العمـلاقُ عـلى ظهـره، مُدحرجًـا إيَّـاه بضـع خطـوات عــلى الأرض. ودَّعنــا الســيد كوســت وأخبرنــاه أن بمقــدوره البحــث عــن مســتأجرين آخريــن. كان ريمــوس قــد اســتبدل عدســات نيكــولاي التــي تشـظَّت. اشـتريتُ سـكِّينًا قصيراً، قـال الحـدَّاد إنهـا أمـضى سـكِّين يمكننـي إيجادهـا في ڤيينـا، ووضعتهـا في حزامـي، وقطعـةً كبـيرة مـن شـمع النحـل الناعـم، وبطانـة مـن الصـوف، ويـاردةً مـن قـماش الموسـلين، قطَّعتُهـا إلى أشرطـة.

جلـبَ لي تاسـو الموقـد الحديـدي الصغـير الـذي كان يسـتخدمه في الليـالي البـاردة تحـت خشـبة المـسرح. جمـعَ كلَّ مُتعلَّقاتـه في صرَّة، ثـم عـادَ مـن أجـل أمسـية أخـيرة في المـسرح- كان جـواداني يُغنِّـي أورفيـوس مُجـدَّدًا.

في أواخـر تلـك الليلـة، سـمعنا تاسـو يهـرع صاعـدًا الـدَّرج. اندفـع إلى الردهـة، مُبتسـمًا بخبـث. "الآن لا أسـتطيع العـودة أبـدًا!" أغلـق البـاب بعنـف وراءه. عندمـا سـألتُه مـاذا يقصـد، أسرعَ أولًا إلى المدفـأة؛ خشـبة المـسرح التـي غنَّيـتُ عليهـا حفلتـي قبـل شـهور. زحـفَ جيئـة وذهابًـا كلـصٍّ منـازل. حملـقَ في السـقف. "راقبـتُ قدمَيْـه عـبر الشـقوق فوقـي"، حـكى في همـسٍ ماكـر، "لكننـي أنصـتُّ أيضًـا. انتظـرتُ حتَّـى صـار يُغنِّـي عاليًـا وصادحًـا، وحينهـا" -جـذبَ تاسـو خطًّـا وهميًّـا- "جذبـتُ الحبـل. تحـوَّلَ غنـاؤه إلى صرخـات. سـقطَ!".

"لكـن حينهـا"، اكتسـبَ وجـه تاسـو شـحوبًا وتجهُّـمًا، "كـدتُ أن أمـوت". أومـأَ ثـلاث مـرَّات: إيمـاءة لـكلٍّ منَّـا. "تـرى، جـواداني كان يتوقَّـع هـذا. لا بُـدَّ أنـه حَلُـمَ بـه كل ليلـة. كانـت صرختـه كهتـاف المعـارك! هبـطَ عـلى الأرض كقـطٍّ. سـحبَ سـكِّينًا مـن قميصـه، وحتَّـى قبـل أن يتمكَّـن مـن رؤيتـي في الظـلام طعـنَ الهـواء". وخـزَ تاسـو مـا عـلى يسـاره، ويمينـه، قاتـلًا نصـف دزينـة مـن الرجـال. "كان ليقتلنـا جميعًـا!".

هـزَّ كتفيـه اسـتهانةً. "لكننـي كنـتُ سريعًـا جـدًّا عـلى أن يمسـك بي. أمسـكتُ بحبـل، وحـرَّرتُ ثقـلًا مُوازِنًـا، سـقط وراء رأسـه مبـاشرةً. ركلـتُ السِّـكِّين مـن يـده. ابتسـمتُ ولوَّحـت لـه مـن المزلـق. "لـن تنجـو بحياتـك هـذه الليلـة"، زمجـرَ، وحـاولَ أن يتسـلَّق عائـدًا إلى خشـبة المـسرح، لكنـه لم يسـتطع، تخبَّـط هنـاك كفـأرٍ يغـرق ويتشـبَّث بجـذاذة خشـب طافيـة، حتـى جـاء عامـلان ورفعـاه لأعـلى. ضحـكا عليـه! ضحـكَ المـسرح بأكملـه عـلى جـواداني!".

ضحكنا نحن أيضًا وهتفنا للبطل تاسو، لكن ريموس أوقفنا وأوضح لنا أن جواداني ربما كان جادًّا في تهديده. "من الأفضل أن تُخفوا العربة حتَّى نستعد"، نصحنا. "سيأتي للبحث عن تاسو هنا". اتَّسعت عينا تاسو في رعبٍ. اختفى كالفأر.

كما اقترحَ علينا ريموس، قضى تاسو هذين اليومين الأخيرين في تجهيز عربتنا وقافلة الخيول. حاولَ أن يُعلِّمنا قيادتها، لكنني وجدتُ هذا بصعوبة الشعوذة. عندما قدَّرتُ أخيرًا أننا مُستعدُّون، ملأتُ بيتنا الجديد بأغراضنا. في النهاية، بمساعدة نيكولاي، رفعنا موقد تاسو إلى سطح العربة، وأحكمتُ ربطه.

غادرنا مسكننا للمرة الأخيرة في منتصف الليل، في الثلاثين من ديسمبر، عام 1762، قبل الموعد الذي حدَّده جواداني بيومٍ واحد. استغرقَ منَّا الأمر ساعة تقريبًا للنزول بالعربة على الشارع الجليدي، المليء بالحفر. جلسَ تاسو في موقعه وسايسَ الخيول ببطء، مُحاذرًا بشدَّة ألَّا تنفلق العجلات. وصلنا إلى منحدر خفيف ورأينا قمرًا مكتملًا يسطع على الجليد الشاسع. قعقعت هذه الطبقة من الجليد فيما نمرُّ فوقها، وكأن الطين من تحتها يهتاج في نومه. قُدنا عبر بوابة السور ثم إلى المدينة. كانت الشوارع خاوية، والنوافذ مظلمة، المدينة نائمة، تمامًا كما خطَّطت.

توجَّه تاسو بالعربة إلى قصر ريشر، وعندما وصلت، انحنيتُ إلى خارج باب العربة وهمستُ إليه بأين سنقف بالضبط.

استدرتُ إلى صديقيَّ. "مُستعدَّان؟" أومأ، وانطلقنا.

سرنا عائدين نحو كاتدرائية القديس ستيفن، وبرجها الأسود السامق في السماء. أمسكنا أنا وريموس بذراعَيْ نيكولاي حتَّى لا يسقط على ركامات الجليد. سرعان ما وصلنا إلى الكاتدرائية وانسللنا إلى الداخل. توقَّفنا عند المدخل. كان صحن الكنيسة الكهفيُّ مضاءً بوهج الشموع

التي كان ضوؤها بالكاد يُدفِّئ الأعمدة المُتشعِّبة للسقف. لم نرَ أحدًا، لكنني سمعتُ صرير مقعد في الكنيسة، ووقع خطوات خافتة على الحَجر، وأدركتُ أننا لسنا وحدنا. ضيَّقَ نيكولاي عينيه ناحية المذبح وكأن شيئًا شيطانيًا يختبئ وراءه.

همستُ لتاسو أن يتبعني. أريته أيَّ باب أودُّ فتحه. أسرعَ الرجل الضئيل إليه عبر الظلال. أنصتُّ إلى طقطقة المعدن فيما يعبث في القُفل. ثم سمعتُ الصرير المُبهج للمفصلات.

ارتقينا الدَّرج ببطء. زحفَ نيكولاي على أربع في المُقدِّمة، وفور أن أدركنا أننا خارج مدى سمع القابعين في صحن الكنيسة، قال بين أنفاسه المتثاقلة، "أشعر بوطأة... ذنوبي... تتخفَّف مع كل درجة". صلَّيتُ في سرِّي ألَّا يتدحرج لأسفل ويقتلنا جميعًا.

وصلنا أخيرًا إلى آخر الدَّرج، واسترحنا لبضع دقائق. أوقدتُ شمعةً. مسحَ نيكولاي جبينه بكمٍّ معطفه المُهترئ. ضيَّقَ عينيه إلى حبال الأجراس الستة عشر المُتدلِّية من ست عشرة فتحةً في السقف.

"إذا كان هذا الجرس يحتاج لستة عشر رجلًا لقرعه، كيف سنفعل ذلك نحن الثلاثة؟ تُبالغ في تقدير مقاس خصري إذا كُنت تظنُّ أنني أساوي أربعة عشر رجلًا".

"لا"، قلت، منتصبًا وسائرًا إلى واحد من الحبال. "ليس بالضرورة ستة عشر. إنها مسألة توقيت فحسب. ولا حتَّى ستة عشر رجلًا يمكنهم رفعه، لكن ثلاثة بمقدورهم هزُّه. يمكننا جعله يتأرجح".

أمسكتُ بواحد من الحبل بيدٍ واحدة وجذبتُ بقوة. لا بُدَّ أن الحبل معقوف بالسقف لأنني لم أشعر سوى أنني زحزحتُه قليلًا. لكنني أنصتُّ. هذه الحبال الستة عشر تمرُّ عبر ست عشرة فتحة في السقف، ثم عبر ست عشرة بكرة، ثم إلى جديلة واحدة، تلتفُّ حول عجلة الجرس. أصدرت تلك البكرات أوهى صرير ممكن. تأرجحَ

البوميريـن بمقـدار شـعرة. أنصـتُّ الآن لصريـر ثـانٍ -العلامـة بـأن حركـة الجـرس قـد تعاظمـت وانعكسـت- وعندمـا سـمعتُه، جذبـتُ مُجـدَّدًا. كان الصريـر أعـلى هـذه المـرة. كـرَّرتُ العمليـة -ثـم مُجـدَّدًا، ومُجـدَّدًا ومُجـدَّدًا- مانحًـا الحبـل جَذْبـات حـادة ومتناسـقة زمنيًـا، وشـيئًا فشـيئًا شـعرتُ بالعطيَّـة.

"إنها تتحرّك!" قال تاسو. أشارَ إلى الحبال.

كانـت تتحـرّك حقًّـا. كل الحبـال السـتة عـشر أحنـت ذيولهـا برفـق عـلى الأرض في تناسُـق تـام.

"سيسـتغرق بعـض الوقـت"، قلـت، "قبـل أن يتأرجـح بتثاقـلٍ يكفـي لقرعـه. لكـن هـذا حسـن. أمامـي الكثـير لأفعلـه".

وضـعَ ريمـوس يـده عـلى حبـلٍ آخـر. عندمـا شـعر بـه يسـقط في يـده، جذبـه ناحيتـه. "أسـتطيع الشـعور بـه"، قـال. أجـرى إبهامـه عـلى طـول الأنسـجة المُهترئـة وكأن الحبـل مخلـوق غرائبـي لم يقـرأ عنـه قـطُّ في أيٍّ مـن كتبـه.

"استمرَّ في جذبه"، قلت، وتركتُ حبلي.

أخرجـتُ شـمع النحـل والصـوف والموسـلين مـن الجِـراب، وبـدأتُ بأذنَيْ نيكـولاي. مـلأتُ التجاويـف بالشـمع الطـري، ثـم غطَّيتُهـا بالصـوف. لففـتُ الموسـلين حـول رأسـه عـدة مـرات لتثبيـت غطـاء الصـوف في مكانـه. سرعـان مـا بـدا كجنـدي شـوَّهته الحـرب، هاربًـا مـن عمليـة جراحيـة.

"هل تستطيع سماعي؟" سألته.

"هـل بـدأ قـرع الأجـراس؟" صـاح عاليًـا لحـدّ أن ريمـوس جفـل. شـكرتُ الـرَّبَّ أننـا معزولـون في أعـلى بـرجٍ في المدينـة؛ لم يكـن لأحـدٍ أن يسـمع صياحنـا.

"تاسو، أنت التالي!" قلت. نهضَ نيكولاي واقفًا وأمسك بأقرب الحبال إليه. جذبه بكل قوته، لكن بتوقيت خاطئ.

"لا!" صرخ ريموس. "الآن!".

سرعان ما أصبحا يجذبان بتناغُم، وتراقصت حبال الجرس. انتهيتُ من أذنَيْ تاسو وشرعتُ في أذنَيْ ريموس.

"ثم سأتعامل مع أذنيك"، قال ريموس.

"ليس ضروريًا"، أجبته.

"ماذا تعني؟" سأل. "ستُصاب بالصَّمَم!".

لم يكن لديَّ وقتٌ للشرح. "أمِّي"، قلت، "كانت جرسًا". بدا مرتبكًا، ثم سددتُ أذنه الثانية، ولم يَعُد بمقدورنا التحدُّث. فيما يأخذ ريموس موضعه، خطرَ لي أنه ربما ينبغي مراجعة خُطَّتي معهم لمرة أخيرة. لكن الآن، كانت أرْجَحةُ الجرس كافية لرفع تاسو عن الأرض. كان ريموس يجلس مع كل جذبة ثم ينهض عندما ينعكس الجرس ويسحبه لأعلى. كان نيكولاي يجذب الحبل من فوق رأسه إلى خصره.

كم من الوقت قبل أن يصدح الجرس؟ وإلى ذلك، كم أمامنا من وقتٍ قبل أن يصل أحدهم لإيقافنا؟ لا بُدَّ أن يكون التوقيت مضبوطًا. لكن قبل أن أغادر، بقيَ شيء واحد: شيءٌ أقسمتُ على إنجازه.

هرعتُ صاعدًا الدَّرج، اقتحمتُ الظلام. تحَسَّستُ طريقي حتَّى وصلت إلى برج الجرس. كان القمر يسطع على الجوانب المفتوحة، مُلقيًا بظلالٍ حادَّة على حوافِّ الجرس فيما يتأرجح، ثم زحفت تحته. أطلق اهتزازه الخافت الساكن برياحٍ باردة على وجهي. قدَّرتُ عشر دقائق قبل أن يضرب.

تناولتُ السِّكِّين من حزامي وقطعتُ اللفافة الجلدية حول المِدقَّة، التي يضعونها لإخفات الرنين المهول. انتزعتُ جذاذات الجلد ولفائف

البطانة الصوفية. كان مجهودًا بطيئًا، لكن بعد بضع دقائق نجحتُ في إزالتها بالكامل. الليلة سيصدح الجرس كما خُلقَ ليصدح.

* * *

أسرعتُ نازلًا الدَّرج. "استَمِرُّوا في الجذب!" صحتُ فيما أندفع مارًّا بأصدقائي، كلٌّ منهم يعلو ويهبط برفق، لكنهم لم يسمعوني. هبطتُ دَرَج البرج في دوَّامات، ولحُسن الحظ وصلتُ إلى صحن الكنيسة قبل أن يُغشى عليَّ. أطفأتُ شمعتي. انسللتُ عبر الكنيسة وهربتُ إلى الليل.

عندما وصلتُ إلى منتصف الميدان، سمعتُ طنطنةً في غاية الخفوت، لكنها ملأتني ببهجةٍ عارمةٍ لدرجة أنني توقَّفت. أغلقتُ عينَيَّ. خفقَ الليل بالدَّويِّ. تركتُه يهزُّني من رأسي إلى أصابع قدمي. تلاشى معه كل خوفٍ باقٍ.

"نعم!" صحتُ عاليًا لأصدقائي. "ها أنتم تفعلونها!".

كانوا يفعلونها حقًّا! كانوا يقرعون أكبر وأصخب جرس في الإمبراطورية، ذلك الجرس الذي يدقُّ الآن كخطوات أقدام على السماء. بوم! بوم! بوم! ملأت الجلجلة حتَّى الصمت بين كل ضربةٍ وأخرى، وكل أذن في ڤيينا لا بُدَّ سمعته الآن. نهضَ الجنود في فُرُشهم فَزِعين، مُعتقدين أن الجيش البروسي يتقدَّم ناحية ڤيينا. استيقظت الإمبراطورة واستدعت وزيرها. صرخَ الأطفال في كل منزل، مستيقظين بذعرٍ من أحلامهم. نبحَت الكلاب في اتِّجاه السماء. خلخلت الارتعاشات الجليدَ والثلج من على الأسقف. شرخَ الرَّنينُ النوافذ في قلب المدينة، وبعيدًا حتَّى القصر الإمبراطوري. الجميع كان يعرف هذا الصوت، لكنه بالتأكيد، فكَّروا، لم يُجلجل بهذا الصخب منذ خمسين عامًا.

ركضتُ خارجًا من الميدان.

مع ارتقائي العربة، فككتُ أربطة الموقد في الأعلى. جاهدتُ لرفعه على كتفي. ومَضَت بضع نوافذ في قصر ريشر، لكن النافذة الأقرب للعربة ما زالت مظلمة. أدَّيتُ صلاة خاطفةً للرب. ترنَّحت للخلف، تعثَّرت للأمام، وألقيت بالموقد عبر النافذة.

صوت تحطُّم هادر. خبط الموقد الهابط الأرض ككرة مدفع، وصلصلَ وجلجل الزجاج المُتحطِّم عبر الغرفة المُظلمة، ثم صلَّيتُ أن تكون أذناي الأذنين الوحيدتين التي كان بمقدورها تمييز الأصوات وسط هذا الدَّويِّ.

من موقعي على سقف العربة، تطلَّعتُ يمينًا ويسارًا عبر الشارع، وتأكدتُ أن الغول لم يُطلَّ بوجهه من بوابته، وحينها، وكأنها باب، خطوتُ عبر النافذة.

اكتشفتُ أن نقطة سقوطي كانت أقرب ممَّا ينبغي، وسرعان ما وجدتُ نفسي غارقًا في الزجاج المكسور. لكن بعد لحظة نهضتُ مُجدَّدًا، بلا وقت للتفكير في الجروح والخدوش. نفضتُ عنِّي شظيَّات الزجاج ككلبٍ ينفض عنه الماء.

تراءى لي أنني هبطتُ فيما يشبه المكتبة. حشرتُ الموقد تحت مكتبٍ وانسللتُ نحو الباب وأنصتُّ. لكن حينها فحسب، نَضُبَ حظِّي. وسط الدَّويِّ الهائل، تبيَّنتُ وقع خطوات، ثم في رعب، لاحظتُ اهتزاز مقبض الباب وهو يستدير. كانت حساباتي كلها خاطئة! لقد سمعني أحدهم! بالكاد كان لديَّ وقتٌ للاندفاع إلى وراء الباب عندما انفتح وخطت الكونتيسة ريشر نفسها إلى الداخل.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

وضعـت يدَيْهـا عـلى أذنيهـا، فتجمَّـع كُـمَّا منامتهـا الحريريـة حـول كتفيهـا. اندهشـتُ مـن بـروز كوعيهـا. حدَّقَـت في النافـذة المُحطَّمـة. "ذلـك الجـرس الملعـون"، غمغمـت، واسـتدارت مُبتعـدةً.

ربما لم تسمعني رغم كل شيء. بدا أنها تُفتِّش في واحد من الرفوف.

لم أتحرّك.

وجَـدَت مـا تبحـث عنهـا، وبحركـة سريعـة، أفلتـت أذنًـا، وتناولـت شـيئًا مـن الـرَّفِّ، ووضعتـه في جمجمتهـا.

بالطبـع! أدركـتُ. إنهـا تعيـش تحـت الأجـراس مبـاشرة. كانـت فحسـب مـن شـاكلة البـشر الذيـن يملكـون وسـيلةً مـا لحجـب الصـوت. عندمـا اسـتدارت عائـدةً إلى البـاب، كنـتُ أقـف هنـاك مـا أزال، عـلى أمـل أن تظـنَّ ظـلِّي مجـرد تمثـال منـسي أو مـا شـابه. لكنهـا، بالطبـع، لم تكـن مـن نـوع النسـاء الـذي ينـسى أيَّ شيء. حملقـت إليَّ في ضـوء القمـر المُعتـم. مُجاهـدةً لتبـيُّن وجهـي. تراجَعَـت مُجفلـةً.

اندفعـتُ ناحيتهـا. صرخـت، لكـن حتَّـى وإن كان زوجهـا مسـتلقيًا في الجانـب الآخـر مـن الحائـط، لم يكـن بمقـدوره سـماعها.

اتَّسـعت عيناهـا. "أنـت!" قالـت، رغـم أننـي أشـكُّ أنهـا سـمعَت نفسـها وسـط الضجيج.

"أنتِ!" هتفتُ بدوري. فردتُ ذراعيَّ الطويلتين ورفعتهما ناحيتها.

انقضَّت عليَّ.

خمشـت عنقـي وحاوَلَـت انتـزاع عينَـيَّ بخناجـر أظافرهـا المطليـة. عويـتُ وحاولـتُ إبعادهـا، لكنهـا كانـت لبـؤةً؛ لا شيء سـوى مخالـب وزئـير.

مـع كل جلجلـة للجـرس ضاعَفَـت مـن ضراوتهـا. ثـم شـدَّت شـعري بيـدٍ وحاولـت بالأحـرى تحطيـم عنقـي. لم أسـتطع التنفـس. لم تسـتطع سـماعي وأنـا أئـزُّ، لكننـي سـمعتها تهـدر في أذني.

أخرجـتُ سـكِّيني ولوَّحـتُ بهـا في وجههـا. أخطأتُهـا، لكنهـا لمحَـت النصـل يلتمـع في ضـوء القمـر وتراجَعَـت، مُفلتـةً عنقـي. التصقـت بالحائـط. أشرتُ بالسِّـكِّين المرتعشـة إلى صدرهـا ولهثـتُ طالبًـا الهـواء.

كنـتُ اشـتريتُ السِّـكِّين مـن أجـل الجـرس فحسـب. لم أرغـب في تلويث معدنهـا بدمائها الشـيطانية.

كان هنـاك صنـدوقٌ عـلى الأرض بـدا وكأنـه رافـقَ جـنرالًا مـن النبـلاء في حملـةٍ عسـكرية ذات أهميـة. فكَّـرتُ أنـه مناسـب لإخفـاء الكونتيسـة حتَّـى يهـدأ الجـرس وأختفـي. أشرتُ لهـا بالسِّـكِّين أن تخطـو إلى داخلـه، وهـو مـا فعلتـه، لكـن مـع نظرتهـا الخاطفـة الأخـيرة، شـعرتُ برجفـة؛ ذلـك أن عينيهـا أخبرتـاني أننـي لـن أحيـا حتـى اللقـاء القـادم. أوصـدتُ قفـل الصنـدوق، وانطلقـتُ لإكـمال مَهمَّتـي.

كان القـصر يغـصُّ بالحيـاة. لحسـن الحـظ، احتـاج الجميـع إلى كلتـا يديـه لحمايـة أذنيـه، ولهـذا لم يكـن آل ريـشر وخدَمهـم سـوى ظـلال خرقـاء في الأروقـة المُعتِمـة. بـدا وكأن الـدَّويَّ قـد ازداد صخبًـا في الحقيقـة. تخيَّلـتُ أصدقـائي الثلاثـة يتواثبـون إلى السـقف ويهبطـون برفـق مُجـدَّدًا. توخَّـزَت قدمـاي فيـما المنـزل يرتعـش تحتهـما.

سـمعت أذنـاي كل خطـوةٍ، وكل صـوتٍ يلعـن الجـرس المشـؤوم، وأخـيراً كان هنـاك الصـوت الـذي جئـتُ مـن أجلـه: بـكاء رضيـع. انسـللتُ مـارًّا بالظـلال البشريـة فيـما أرتقـي الـدَّرج، نحـو البـكاء، عـبر الـرواق الـذي يـؤدي إلى جنـاح أنطـون. هنـاك أوشـكتُ عـلى الاصطـدام بظـلٍّ آخـر، وعندمـا دمـدمَ، "ذلـك الجـرس اللعـين!" سـمعتُ أنـه كان أنطـون ريـشر نفسـه.

لكنـه كان أصـمَّ عـلى أن يسـمع ابنـه البـاكي، رغـم أن الصرخـات تـأتي مـن بـاب لا يبعـد عنـه عـشر خطـوات. هـرعَ مـارًّا عـبر الـرواق ناحيـة الـدَّرج، باحثًـا بـلا شـكٍّ عـن أمِّـه. افترشـتُ الحائـط فيـما الخطـوات تختفي عـبر الـدَّرج. ثـم أسرعـتُ عـبر الـرواق واندفعـتُ إلى غرفـة نـوم الطفـل.

(24)

تلك المُربِّية الشفوق، والرضيع: أربع آذان تحتاج إلى حماية، ويدان فقط تعرفان كيف تفعل ذلك. انفطرَ قلبي من المشهد. كانت المرأة تستلقي على الأرض الخشبية العارية، مُلتفَّةً حول نفسها وكأنها سقطت عبر الدَّرَج. من النافذة الوحيدة، كان نصلٌ من ضوء القمر يفصل بينهما. الرضيع يستلقي على صدر المُربِّية، بأذنٍ تضغطُ على صدرها. كانت تضع يدها اليمنى على أذن الطفل الخارجية، ولم تتبقَّ لها سوى يدها اليسرى. رأسها منحنٍ على كتفها اليسرى، وذراعها اليسرى مُلتفَّة حول رأسها لتصل إلى أذنها اليمنى.

ربما كان هذا لينجح، لكن الطفل تلوَّى في يديها، بجسده مُحطَّمًا بفعل الصرخات. اندفعتُ ناحيتهما واختطفتُ الطفل، وضَمَمتُه إلى صدري. بيدٍ حميتُ أذنه المكشوفة، وبالأخرى، سحبتُ قطعة من الشمع من جيبي. سددتُ أذنًا ثم الأخرى فيما يهتاج في ذراعيَّ. احمرَّ وجهه وتوقَّف بكاؤه فقط عندما لم يتبقَّ له هواءٌ ليصرخ.

ضممتـهُ أكـثر إلى صـدري الـذي يشـبه صـدور الطيـور -ذلـك الـذي خُلـقَ ليُغنِّي وليـس ليحتضـن طفـلًا- وأمسـكتُ رأسـه براحتـي، بأصابعـي الطويلـة، الرقيقـة، تُربِّـتُ عـلى جبينـه. مـا زال الجـرس يهـزُّ المدينـة. بـدأت بالغنـاء للطفـل -ابنـي!- شـعرتُ بصـوتي داخلـه. منحـه غنـائي السـكينة تمامًـا كـما منـح جدَّتـه في فـراش مرضهـا، وأمَّـه في ولادتـه. سرعـان مـا توقَّـفَ بـكاؤه، ثـم نظـرَ في عينَـيَّ.

أعـرف هـذه الوجـه. عينـا أمِّـه ترنـوان إليَّ. وحينهـا، فيـما أغنِّـي، رفرفت هاتـان العينـان. اسـتغرقَ في النوم.

كانـت المُربِّيـة عـلى الأرض ترتعـش، تضغـط عـلى أذنيهـا مـا تـزال بـكل قوتهـا. رفَعَـت بصرهـا بامتنـان، مُحاولـةً أن تتبـيَّن مَـن هـرعَ إلى نجدتهـا مـن خَـدَمِ القـصر. عندمـا خطـوتُ مُتقدِّمًـا إلى ضـوء القمـر، لم تَبـدُ متفاجئـة أكـثر مـن دهشـة جلـوك عندمـا رأى أورفيـوس في غرفتـه. ربمـا حَلُمـت بي هــي أيضًـا.

"أخـشى أننـي مضطـرٌّ إلى حبسـك في تلـك الخزانـة"، قلـتُ لهـا، وأشرتُ بوجهـي. تمعَّنَـت في حركـة شـفتَيَّ. "لا أريدهـم أن يلقـوا باللـوم عليـكِ. أخبريهـم أنـكِ قاومـتِ لصًّـا". لا، لم تفهـم كلمـة، لكنهـا تركتنـي أقودهـا إلى خزانـة الملابـس، وخَطَـت إلى داخلهـا وكأننـي أسـاعدها لركـوب عربـة في انتظارهـا. أوصـدتُ القفـل عليهـا. لم تـصرخ طلبًـا للنجـدة.

وعندهـا أصبحـتُ وحيـدًا مـع ابنـي. هـذا الوجـه الجميـل النائـم! ملاكٌ بـين ذراعـيَّ! لكـن فيـما أحنـي رأسي للخلـف وللأمـام، أدركـتُ أن الضَّجَّـة الطَّنَّانـة قـد تراجَعَـت. أنصـتُّ: كل ارتطـام هـادر كان أَخفـتَ مـن سـابقه. كان هنـاك تفسـير واحـد فقـط: أحدهـم ارتقـى ذلـك الـدَّرج وقبـضَ عـلى أصدقـائي. مـا زال الجـرس يـرنُّ بفعـل قوَّتـه الدافعـة؛ مـا يعنـي أنـه لم يَعُـد أمامـي سـوى بضـع دقائـق قبـل أن يخمـد تمامًـا، ومـا زال أمامـي الكثـير لأفعله.

لَفَفتُ الطفل في بعض الدُّثُر من مهده واندفعت عبر الرواق. كان المنزل قد هدأ بشكلٍ ما؛ وجدَ الجميع موضعًا للجلوس بهدوء والإمساك بآذانهم حتى يتوقَّف الدَّويُّ. لكنني سمعتُ شخصًا فيما أقترب من آخر الدَّرج. كان أنطون يقف أمام الباب المؤدي إلى مكتبة الكونتيسة ريشر: الباب إلى مهربي.

"أمِّي!" هتفَ، وخطا داخلًا إلى الغرفة. رأى النافذة المكسورة. "أمِّي!" هتف مُجدَّدًا. بأذنيه المسدودتين، لا بدَّ أنه سمع صوته وكأنه قادم من نفقٍ الطويل.

"أمِّي؟"، صرخَ مرَّةً أخرى، ليس بعيدًا بأكثر من ثلاث خطوات عن الصندوق، الذي تنبعث منه الآن خبطاتٌ مُتقطِّعة. ثم هزَّ كفتيه استهانةً وأغلق الباب. استدارَ ناحية الدَّرَج -فقط لو رفعَ بصره لرآني أُطلُّ عليه من أعلى- لكنه اختارَ الاستمرار في البحث عن أمِّه في الطابق الأدنى. اختفى هابطًا الدَّرج.

في لحظة، كنتُ في المكتبة، انغلق الباب ورائي. وضعتُ قدمًا على حافة النافذة عندما ألقيت نظرة على ذلك الصندوق. في عجلتي كنتُ أغلقت الإبزيم فحسب، لكنني تركتُ القفل مفتوحًا. صحَّحتُ الخطأ وألقيت المفتاح في الشارع المُتجمِّد.

ستنقضي ساعات قبل أن يُخرجوا المرأة من الصندوق.

* * *

خطوتُ بحذر إلى العربة في الخارج وارتقيتُ إلى مقعد تاسو، الذي كان الرجل الضئيل قد كيَّفه لنفسه، وليس لموزيكو أطول منه بضعفين. أحكمتُ مسكتي على اللفيفة الثمينة بذراعٍ، وتناولت اللجام بالذراع الآخر. بحذر، قلت لنفسي، مع الأحصنة أنت أحمق. أدرتُ

البهائم وكأنها فريقٌ من العجائز المُصابات بالروماتيزم. "ببطء"، قلتُ للخيول العليلة. "لا حاجة إلى الإسراع. أمامنا أربعمائة ميل لنقطعها".

اصطدمنا بباب كاتدرائية القديس ستيفن. فيما أُوقف العربة، سمعتُ البوميرين يضرب بالمدقَّة العارية للمرة الأخيرة. ما تزال جلجلته تتدلَّى في الهواء، لكنها لم تَعُد تؤذي آذان ڤيينا. هبطتُ، بوريث ريشر مضمومًا بأمان إلى صدري، وخطوتُ إلى الكنيسة.

* * *

كان الأمر كما خشيتُ بالضبط. اختبأتُ وراء عمود واختلستُ النظر لأرى أصدقائي في الأغلال. يحرسهم ستة جنود، فيما رجل آخر، شمَّاس (*Kirschner*)، يصيح في وجوههم. كانوا قد أزالوا اللفافات من رؤوسهم، رغم أن موسلين نيكولاي كان ما يزال مربوطًا حول عنقه كوشاح. كان الرجال الثلاثة ينتفون الشمع من وقتٍ لآخر من آذانهم.

"هل تدركون ماذا فعلتم؟" زمجرَ الشمَّاس. "هذا جرسٌ مُقدَّس! لقد أيقظتم كل روحٍ في هذه المدينة. الإمبراطورة نفسها! لا بُدَّ أنها تظنُّ أننا تحت الحصار!".

ضيَّقَ نيكولاي عينيه وحاولَ تبيُّن ملامح الرجل.

"ستنالون عقابكم!".

"على استعداد لأفعلها ألف مرة!" قال نيكولاي. رفعَ يديه فوق رأسه وكأنه سيمُزِّق أغلاله. "لن يحويني سجنٌ أبدًا!".

أخبر ريموس صديقه أن يهدأ. "الآن هو الوقت المناسب للمهادنة"، غمغمَ. "أودُّ أن نُبقي وقتنا في سجن الإمبراطورة إلى الحد الأدنى".

"سنين!" هتف الشمَّاس. "هذا ما يوجد أمامكم. انظروا لما فعلتم!" أشارَ إلى أرضية الكنيسة، حيث تتناثر الشظايا الصغيرة للزجاج المصبوغ كمليون ياقوتة.

"يمكن إصلاحها"، قال نيكولاي. "بمقدور تاسو إصلاحها في يوم".

"هل يستطيع إصلاح كل نافذة في ڤيينا؟" صرخ الشمَّاس.

"أفضل ممَّا يستطيع جيشٌ من حمقاكم...".

"نيكولاي!" هتفَ ريموس.

أصدرَ الشمَّاس أوامره للجنود بأخذهم إلى أبشع سجون الإمبراطورة. دفعَ جنديَّان نيكولاي نحو الباب، واصطحب جنديٌّ واحد كلًّا من تاسو وريموس. سار جنديان آخران في إثرهم. تسلَّلتُ من وراء العمود حتّى لا يقبضوا عليَّ أيضًا.

أسرع! صلَّيت.

وحينها على الفور، كإجابة لصلاتي، اندفعَ باب الكنيسة مفتوحًا وهرعَ رجلٌ عبره. من تحت معطف طويل، داكن، أطلَّ رداؤه الأبيض. تطلَّع إلى الجنود وأسراهم. "توقَّفوا!" صرح. رفعَ كلتا يديه كقائد أوركسترا يطلب الانتباه.

أطاعت العُصبة أمره القوي. حملقَ الشمَّاس فيه. شهقَ. "تشيڤاليير!".

"أطلِق سراح هؤلاء الرجال!" زأرَ جلوك وكأنه يتحدَّث إلى المذبح البعيد. خطا إلى نيكولاي. "أعطِني المفتاح!" أمرَ أقرب الجنود إليه. أطاعه الرجل، وبدأ جلوك في فكِّ الأصفاد.

"لكن تشيڤاليير!" قال الشمَّاس. "ألم تسمع؟ كان هؤلاء مَن قرعَ الجرس!".

"بالطبع كانوا هم!" هتف جلوك، وكأنه لا يزال يتحدَّث إلى جمهورٍ بعيد. "أنا مَن أمرت بهذا!".

تحرَّر نيكولاي. فركَ رسغيه وحدَّق مُتهيِّبًا في المؤلف الموسيقي.

"أنت؟" شهق الشمَّاس.

"هو؟" غمغمَ نيكولاي.

"أنـا!" جـأرَ جلـوك إلى السـماء. شرعَ في العمـل عـلى أصفـاد ريمـوس. فيـما لم يكـن أحـدٌ ينظـر، أزلـق تاسـو يـده عـبر أصفـاده ووضعهـا بصمـت عـلى الأرض. أسرعَ إلى وراء عمـود.

"لكن لماذا؟" سأل الشمَّاس. "لماذا؟".

توقَّـف جلـوك عـن عملـه. تـراءى لي أنـه يُمسـك بيـدَيْ ريمـوس في يديـه، كـما ينبغـي لعشـيق. تطلَّـعَ إلى الشـمَّاس. "أليـس لديـك آذان؟ أليـس لديـك قلـب؟".

"بل... بل لديَّ"، تلعثَم الشمَّاس.

"إذن يـا سـيدي"، قـال جلـوك بنـبرة توبيخيـة، "في المـرة القادمـة التـي تسـمع فيهـا الجَـمَال ينـادي في الليـل، فأنصحـك بـأن تُنصـت".

(25)

خـرجَ بنـا تاسـو مـن هـذه المدينـة وكأن كل شـياطين مـاضيً تطاردنـا وتوشـك عـلى اللحـاق بنـا. تقافـزَ تُجَّـار الصبـاح الباكـر مـن طريقنـا فيـما نهـرع غربًـا لنمـضي في طريـق سـالزبيرج. لكنـا لم نصـل سـوى إلى هوتيلـدورف قبـل أن تواجهنـا مشـكلة. كان الطفـل قـد بـدأ في الـصراخ. لم ينفـع الغنـاء هـذه المـرة. أخـبرني تاسـو أن أضـع إصبعـي الصغـير في فمـه، وهـو مـا نجـح مؤقتًـا، لكـن ريمـوس كان أكـثر معرفـةً؛ الرُّضَّـع يأكلـون مـا هـو أكـثر مـن الأصابـع. أمـرَ تاسـو أن يُوقـف العربـة. كُنَّـا في مـكانٍ كئيـب. الحانـات والمتاجـر عـلى طـول الطريـق الواسـع معقولـة، لكـن المنـازل داخـل الأزقَّـة كانـت مُتهدِّلـة وكأنهـا مُثقلـة بالميـاه. كانـت الشـمس تُشرق. سريعًـا سـيمضي آل ريـشر في إثرنـا.

"لكننا لا نستطيع التوقُّف!" ألححت.

"لا مفـرَّ مـن هـذا"، قـال ريمـوس. "تذكَّـر، أيٌّ مَـن يطاردنـا سـيبحث عـن أربعـة رجـال مُفتقِريـن وطفـل. لا بُـدَّ أن نتـصرَّف بالـثراء الـذي نحـن

عليه، وأن نُخفي الطفل قَدْر استطاعتنا. صرخاته، وعَجلَتنا، لن تفعل سوى جذب الانتباه إلينا". مدَّ ريموس يده إلى صندوق ذهب السيد دوفت، الذي كان ما يزال ممتلئًا عن آخره تقريبًا. أخرجَ قطعة معدنية واحدة، هبطَ من العربة، واختفى في واحدٍ من الأزقة الكئيبة. انقَضَت ثلاثون دقيقة، وبدأَ الرضيع في الارتياب في إصبعي. صرخَ حتى احمرَّ وجهه. صرخَ حتى فرَغَت رئتاه. انسابت الدموع على خدَّيه. راقبتُه بعجزٍ وملأني الخوف أنني ارتكبتُ خطأ شنيعًا.

ثم أشارَ تاسو إلى خارج النافذة. كان ريموس يمشي بتثاقل عبر الزقاق. وراءه كان يقعقع شكلٌ بشري مُترهّل بذراعين طويلتين تتدلّيان حتّى ركبتيه تقريبًا. غول الكونتيسة ريشر؟

بدا ريموس مبتهجًا، وعندما اقتربا، رأيتُ أن هذه الغوريلا كانت امرأةً؛ أغرب عيِّنة بشرية رأيتُها في حياتي. كانت طويلة للغاية، ومتكوِّرة في كل المواضع الصحيحة، وفي كثيرٍ من المواضع الخاطئة أيضًا، بخدَّيْن يتدلَّيان في لفائف من الدُّهن لأسفل إلى صدرها البارز، وبطنٍ متساقط ناحية ركبتَيْها.

فتحَ ريموس الباب وأطلَّت بوجهها المربوع إلى داخل العربة. كان ذقنها أكثرَ ذكوريةً من ذقني؛ ولها شعرٌ أسود في مواضع لا ينمو لي فيها شعر. تطلَّعَت إلى نيكولاي، وريموس، ثم إليَّ. استأنفَ الرضيع صراخه، واحمرَّ وجهه، لكن لم يَبدُ عليها أنها رأت أو سمعت شيئًا منه. وزَنَت عملة السيد دوفت الذهبية في يدها وتمعَّنت فينا مُجدَّدًا، وكأنها تحاول تقرير أيٍّ منَّا أثقل.

"ونفس الشيء بعد ثلاثة أشهر؟" سألت ريموس من فوق كتفها.

"نفس الشيء. لكن رجاء أسرعي. لا وقت لدينا".

"لا بُدَّ أن أجهِّز أدواتي".

"سنشتري أيًّا ما تريدين في الطريق".

أبـدت ابتسـامة خبيثـة عـلى هـذه العـرض، ومالَـت العربـة فيـما تنحـشر بصعوبـة عـبر البـاب. مالـت فوقنـا، هائلـةً. كانـت يداهـا ضخمتَـين ومُتشـقِّقتَين؛ يـدا جـزّار.

"هل أنت الأب؟" هتَفَت للتغطية على صرخات الرضيع.

"إنه صبيٌّ شقيقته"، تطوَّع ريموس بالقول.

"لكنه سيدعوني أبي"، قلتُ مندفعًا.

"يمكنـه مناداتـك بابـا"، قالـت، "مـا دمـتَ سـتدفع لي حينـما يُسـتحقُّ السـداد".

أومأتُ أننا سأفعل.

"ناوِلنـي إيّـاه". مـدَّت ذراعيهـا. رفـسَ وضربَ بذراعيـه فيـما أرفعـه برفـق. اختطَفَتـه ورفعتـه إليهـا لتفحصـه. بـكى في وجههـا.

"صبي جميل الوجه"، قالت. "ماذا ستسمِّيه؟".

في خِضَـمٍّ استثارة معاركنـا، لم يخطـر هـذا السـؤال عـلى بـالي قـطُّ. كان الجميـع ينظـر إليَّ الآن. اسـتدارَ الصبـي وبـكى ناحيتـي أيضًـا.

«اسمه نيكولاي»، قلتُ.

صفَّقَ نيكولاي الكبير بيديه مُبتهجًا.

«حسـنًا نيكـولاي»، قالـت في وجـه الرضيـع. «أعتقـد أنـك ترغـب في إفطـارك».

هشَّـت تاسـو عـن المقعـد بنقـرةٍ مـن يدهـا. أنَّـت نوابـض العربـة فيـما تنطـرح بجسـدها الضخـم. ثـم صعقتنـا جميعًـا؛ فرقعَـت إصبـعٌ بارعـة زرِّيـن في قميصهـا، الـذي تحـرَّر مُرفرفًـا. بغتـةً، صرنـا جميعًـا نُحـدِّق في صـدرٍ منتفـخ، وحلمـةٍ سـميكة كالإصبـع.

«أغلقـوا أفواهكـم»، قالـت المربِّيـة المُخضَّلة آمِـرةً، دافعـةً رأس نيكولاي الصغـير إلى تلـك الرابيـة الطريـة، لكـن فكوكنـا كانـت في غايـة الثِّقـل. هـزَّت رأسـها. «حسـنًا، لكـن لا تتوقَّعـوا منِّـي إخفـاء أدوات صَنْعتـي».

* * *

كان اسـم الغوريـلا الآنسـة شـميك. سرعـان مـا أحكمـت سـيطرتها عـلى مُسـتقرِّنا، بيـدٍ تضغـط بنيكـولاي الصغـير عـلى صدرهـا، والأخـرى تفـرك الزيـت في صدغَـيْ نيكـولاي الكبـير (كان بمقـدور يدهـا الضخمـة تغطيـة وجهـه بأكملـه)، كل هـذا فيـما تصيـح بالأوامـر إلى تاسـو الـذي يقـود العربـة، وتـشرح تفاصيـل طلباتهـا لريمـوس ولي بشـأن مـا يتوجَّـب علينـا شراؤه في المدينـة التاليـة. بحلـول ظهـيرة ذلـك اليـوم الأول، صرنـا جميعًـا نتفكَّـر في صمـتٍ مـا إذا كانـت هنـاك طريقـة لطردهـا مـن عربتنـا. لكـن بعـد يـوم، مـع رضيـعٍ سـعيد، ونيكـولاي يشـعر بصحَّـةٍ أفضـل مـمَّا عـرفَ في سـنوات، وهـدوءٍ يكفـي ريمـوس لقـراءة كتبـه، وأميـال كثـيرة بيننـا وبـين ڤيينـا، تخلَّينـا عـن كل فكـرة بشـأن الإطاحـة بمليكتنـا الجديـدة. لم تكـن سـيِّدةً راقيـة، لكـن فـور أن أدركـت أن ثروتنـا لا حـدود لهـا، قـرَّرَت أن تعيـش كسـيدة راقيـة. اشـترت دهانـات وعطـورًا. في سـالزبرج، طلبـت أزيـاءً وفسـاتين. ولا بُـدَّ أن يتنعَّـم الرضيـع بأرديـة حريريـة وقطنيـة، أصرَّت، وكل أشـكال الأقمطـة التـي تتناسـب مـع السـوائل والجوامـد المتنوعـة التـي يُطلقهـا. كانـت تأمرنـا وكأننـا مُعاونـون مسـتأجَرون، وننصـاع نحـن لـكل أمـر.

في الواقـع، كانـت تحكـم بيتنـا -عربـةً كانـت أم فيـلًا- منـذ عشـية العـام الجديـد تلـك، ولسـبع سـنواتٍ، حتَّـى عـام 1769، جعلتنـا نشـتري لهـا كوخًـا يُطـلُّ عـلى خليـج نابـولي. أعتقـد أنهـا مـا زالـت تعيـش هنـاك، تهـرس حبَّـات العنـب بقبضتَيْهـا الهائلتـين لتحـوِّل عُصارتهـا إلى نبيـذ.

* * *

وهكـذا كانـت جماعتنـا تتكـوَّن مـن سـتة أشـخاص ونحـن نعـبر الألـب ذلـك الشـتاء. أسرعنـا عـبر سـالزبرج وإنسـبروك ووصلنـا إلى معـبر بريـنر الواطـئ مـع بـدء ذوبـان الجليـد المُبكِّـر بالضبـط. وبحلـول الربيع، سـمعتُ إيطاليَّـةً عـلى ألسـنة مزارعـين بـلا أسـنان وبناتهـم ذوات الشَّـعر الأسـود والأعـين البرَّاقـة. تـردَّدت اللغـة التـي ظننـتُ ذات مـرَّة أنهـا خُلقـت للأوبـرا فقـط كشـدو الطيـور فيـما نعـبر بسـاتين الكسـتناء. بدَّلنـا الأحصنـة مـرارًا وتكـرارًا، وازدادت الشـمس دفئًـا كل يـومٍ. كنَّـا نجلـس عـلى سـقف العربـة فيـما تاسـو يقـود بنـا عـبر السـهل الڤينيـسيِّ، وريمـوس مُنبطـحٌ بكتـابٍ. ينادينـا نيكـولاي للنظـر إلى العجائـب التـي يزعـم أنـه يراهـا بعدسـاته: حبَّـات عنـب منتفخـة تنضـج في مـارس، شـذرات ذهـب متناثـرة عـلى الطريـق، طيـور بضعـف حجـم الإنسـان تطـير أمـام الشـمس.

أشـدو بالأغنيـات التـي سـمعتُ جـواداني يتـدرَّب عليهـا في منزلـه، ويتوقَّـف المزارعـون عـن حلـب أبقارهـم لينصتـوا فيـما نمـرُّ بهـم. يطاردنـا الأطفـال في انشـداهٍ. وفي وسـط كل ذلـك، عـلى رأس تلـك العربـة الهائلـة، تجلـس الآنسـة شـميك متصالبـة السـاقين، كإلهـة للخصوبـة، بثـدي متكـوِّر واحـد يجـفُّ في الشـمس، والآخـر يحتضنـه طفـل مُسـمَّن، مُنغمسًـا في اجـتراع الحليـب.

* * *

أتذكَّـر يومًـا، قبـل تلـك الرحلـة عـبر جبـال الألـب بأعـوام كثـيرة جـدًّا، في نيبلـمات، وأنـا جالـسٌ عـلى حافـة بـرج أجـراس كنيسـتنا وأمِّـي تقـرع الأجـراس. أتطلَّـع إلى التفافـات طريـق أوري بعيـدًا في الأسـفل، عبرهـا يتقـدَّم رتـلٌ مـن الجنـود ببطء. كان اليـوم سـاكنًا لدرجـة أنـه بمقـدوري سـماع قعقعـة السـيوف وهتافـات سـائقي العربـات. لا بُـدَّ أننـي تطاوَلـتُ بعنقـي ومِلـتُ للأمـام قليـلًا، غـير واعٍ بالحافـة، توَّاقًـا لاستكشـاف تلـك الكائنـات الغرائبيـة التـي تحتشـد أمـام مُسـتقرِّي. لا أعتقـد أننـي كنـتُ

لأسـقط، لكـن أمِّـي، رغـم اسـتغراقها في أجـراس، جفَلَـت بغتـةً بانحنـائي البسـيط. ترَكَـت مطارقهـا وقبَضَـت عـلى كلتـا ذراعـيَّ، وسـحبتني بعيـدًا عـن الحافـة. احتضنتنـي بقـوَّة. بـدا وجههـا مُرتاعًـا لحـدٍّ أننـي أشرتُ إلى الرتـل عـلى الطريـق وكأننـي أقـول، أمِّـي، كنـتُ أنظـر إلى الجنـود فحسـب. لم تسـمع شـيئًا بالطبـع، لكنهـا ضيَّقَـت عينيهـا ورأت المعـدن المتلألـئ: الثعبـان البـشري ينزلـق عـبر الطريـق. ثـم عـلا الحـزن وجههـا. نظـرت إلى الجنـود ثـم إليَّ، وكأنهـا تقـول، أوه بُنـيَّ، أنـا في غايـة الأسـف.

لم تكن لديَّ أي فكرة ماذا كانت تعني حينها.

لكـن بعـد سـنوات، جالسًـا في تلـك العربـة، بصحبـة أصدقـائي وابنـي، وإيطاليـا تنفتـح أمامنـا، أدركـتُ أخـيراً: أنـا في غايـة الآسـف أننـي جعلـتُ عالَمـك صغـيراً هكـذا، أرادت أن تقـول لي هـذا. وحينهـا ابتسـمتُ عـلى سـطح عربتِنـا، لأننـي أدركـتُ أنهـا كانـت تتمنَّـى لي كل هـذا.

نيكـولاي، بُنـيَّ، هـل عوَّضتُـك عـن كل مـا سرقتُـه منـك؟ هـل يكفـي الحـبُّ بديـلًا للـثروة والحظـوة التـي كانـت تنتظـرك؟ إرثـكَ المُضاعـف؟ عُدْ بذاكرتـك إلى كل ماضيـك: حياتنـا في لنـدن، نحـن الاثنـان فحسـب. مجـدٌ عـالٍ لدرجـة أن الحشـود تتآلـب عـلى عربتنـا. ربمـا تتذكَّـر أنـه كان لـديَّ غراميـاتٌ أخـرى، رغـم أنهـا في قلبـي لم تكـن سـوى صـدى لغرامـي الأول. ألا تُذكِّـرك رائحـة روث الأحصنـة بأسـفارنا عـبر الأراضي الإيطاليـة في عربتنـا السـوداء العظيمـة؟ في ذلـك الوقـت، كانـت لعربتنـا سـتائر مـن السـاتان ومفـارش مـن أفخـم الأنـواع، وعمـلاتُ الذهـب والفضـة -ثمـرة نجاحـي- تتسـاقط عـلى الأرض في كل مـرة تنفـض فيهـا الآنسـة شـميك دُثُرنـا.

بالتأكيـد تتذكَّـر شـيئًا مـا مـن أعـوام نابـولي. كان لديـك حينهـا ثلاثـة حجـور لتجلـس عليهـا، بالإضافـة إلى حِجـر أبيـك. كان لديـك مُربِّيـة، أحببتَهـا كجـدَّة. كان لديـك تاسـو الضئيـل، الـذي سـتفوقه طـولًا قريبًـا. كان لديـك ريمـوس، تناديـه بالعَـمِّ، و تـسرق كتبـه وتُخفيهـا تحـت فراشـك.

لكـنَّ الرابـع، نيكـولاي، سَـمِيَّك، أنـا عـلى ثقـة أنـك نسـيتَه. اضطررنـا إلى تركـه وراءنـا في ڤينيسـيا. دفنَّـاه تحـت حجـارة رَصْـفٍ في شـارع ضيـق، كـما جـرت العـادةَ في المدينـة، بـلا علامـة مـن أيِّ نـوع. كنَّـا قضينـا سـتة أشـهر فحسـب بعـد أن وصلنـا إلى تلـك المدينـة التـي طالمـا حَلُـمَ بزيارتهـا. وجـده ريمـوس ميِّتًـا ذات صبـاح، بعـد أن سـقطَ عـلى وجهـه في صلاتـه الراكعـة الليلـة الفائتـة.

أمَّـا عـن حياتنـا في ڤينيسـيا، فحتَّـى وإن لم تتذكَّـر الكثـير، فأنـت تعرفهـا جيـدًا، مـن ناحيـة لأننـا تحدَّثنـا عنهـا سـويًّا ومـن ناحيـة لأنهـا تُشـكِّل جوهـر الأسـطورة. يسـجِّل التاريـخ وَقْـع خطـوات أبطالهـا، وفي أواخـر عـام 1763، في ليلـة ظهـوري الأول عـلى تياتـرو سـان بينديتـو، صرتُ بطـلًا. كل سِـجلٍّ لصـوتي يحـكي كيـف أذهلـتُ الجمهـور في ڤينيسـيا، فيـما تحـكي المُجلَّـدات الأضخـم عنـكَ أيضًـا في ذراعـيَّ فيـما النسـاء الجميـلات يُمطِرننـا ببتـلات الأزهـار مـن مقصوراتهـن. منـذ ذلـك الربيـع، سُـجِّلَت حيـاتي مـن قِبـل كثيريـن آخريـن وهـي سِجِلات ليـس لي أن أحكيهـا.

لكنني احتفظتُ بسرٍّ واحد أخير.

في ذلـك الربيـع بعـد فِرارنـا مـن ڤيينـا، انطلـقَ تاسـو بعربتنـا حتَّـى أوشـكنا، لـو لـوَّحَ بسـوطه مـرَّةً واحـدة أخـرى، عـلى السـقوط في البحـر. ثـم هبطنـا جميعًـا مـن مجاثمنـا: تاسـو الضئيـل، نيكـولاي العمـلاق، ريمـوس القبيـح، المُربِّيـة الغوريـلا، الموزيكـو، ورضيعـه. لم يخطـر عـلى بـال أحـد أن يخـبرني أن ڤينيسـيا جزيـرة، وهـو مـا كان سـببًا كافيًـا لي لأختـار وجهـةً أخـرى. ارتجفـتُ وقلـت إننـي لـن أضـع قدمـي عـلى المعدِّيَّـة. أمسـكني نيكـولاي والآنسـة شـميك أرضًـا فيـما وضـعَ ريمـوس عصابـة عـلى عينَـيَّ. ورغـم ذلـك، فيـما أسـتلقي عـلى ظهـر المركـب، تمنيَّـتُ لـو كان لـديَّ شـوال مـن الحنطـة لأعانقـه.

وحينها وصلنا. أذهلتنا القصور الغارقة في البحر. أمسكَ ريموس بِمرفق نيكولاي حتَّى لا يتعثَّر ويسقط في الماء المُنتن. تهادينا عبر الأزقَّة الضيقة واشترينا للآنسة شميك كل ما تاقت إليه من ملابس وعطور وحُليٍّ. في بياتزا سان ماركو عويتَ في بهجةٍ عندما رأيتَ السفن في قناة دي سان ماركو. حدَّقَ نيكولاي عاليًا في ظلِّ كاتدرائية سان ماركو البازيليكا. أومأَ لي ثم خطا إلى الكاتدرائية كجندي مُستعدٍّ لمواجهة عدوٍّ يفوقه عُدَّةً وعتادًا. احتشدَ الباعة الجائلون حول الآنسة شميك. ربَّتَت وشمَّت وتذوَّقَت كل شيء عرضوه عليها. أنفقَت الكثير من ذهبنا. شردَ تاسو إلى المياه وحدَّقَ بعيدًا إلى السُّفن في البحر. وحده ريموس بقيَ معنا. كان يبتسمُ إليَّ.

"هل ستنتظرنا هنا بالضبط؟" سألته.

"بالطبع"، أجابني.

ثم صرنا أنا وأنت بمفردنا. حملتُكَ عبر أزقَّةٍ ضيقة لم ترَ الشمس قطُّ، على جسورٍ توقَّفنا عليها حتَّى تُحدِّقَ في الجندولات تنساب من تحتنا. سألتُ كلَّ مَن صادفتُه، أين المسرح (*Dov' è il teatro*)؟ ثم أشاروا لي، وسرنا إلى حيث أشاروا، لكن عندما شهقتَ وقبضتَ بيدك على عمود من ضوء الشمس يتلألأ على نوافذ قصرٍ وفي ذا جراند كنال، أخذنا ذلك الاتِّجاه. ضعنا مرارًا وتكرارًا، لكن كل عابر ساعدنا للمُضي قدمًا، حتى وصلنا أخيرًا إلى المسرح المنشود، تياترو سان بينيدتو، الذي طالما همستُ به أنا وأمُّك لبعضنا البعض. كان الوقت في أوائل الظهيرة، والميدان الصغير خاوٍ، رغم أنني سمعتُ البروفات تأتي من داخل المسرح. كان للمبنى واجهة عظيمة بأعمدة نصفُ غارقة في الجدار وثلاثة أبواب مزدوجة من البلوط المصقول. جلستُ على الدَّرج ووضعتك على ركبتي.

"نيكولاي"، قلت. "نحن هنا".

تطلَّعتَ إلى فمي وتقافزتَ على ركبتي.

"أتمنَّى لو كانت معنا هنا، لكنها ليست معنا. سأفعل ما قالت إنني ينبغي أن أفعله. سأطرق على تلك الأبواب حتى تفتح ويسمحوا لي بالغناء. سيجعلوننا أثرياء، وسيعرف الجميع اسمي. هذا ما قالت إنه سيحدث، وأنا على يقين أنها مُحِقَّة. نيكولاي، لا يمكن أن نتحدَّث عنها مُجدَّدًا أبدًا. كل ما حدثَ يجب أن يظلَّ سرًّا. لا يمكن أن نسمح لأحد أن يربط بين ذلك الطواشيِّ البائس في ڤيينا بالموزيكو الذي سأصيره. لا ينبغي أن يعرف أحدٌ أنك ابنٌ مسروق. لا أريدهم أن ينتزعوك منِّي.

تطلَّعتَ من شفتيَّ إلى عينَيَّ، المُمتلئتَيْن بالدموع. لم تفهم كلمةً ممَّا قُلتُ. لكنكَ أدركتَ أنني حزين، وبدأت شفتك السفلى تنثني.

نهضتُ، وخطونا جيئةً وذهابًا عبر الميدان الفارغ. وضعتُكَ على كتفي. عانقتك بقوَّة، وتركتُ العالم ينتظر صوتي عشر دقائق أخرى؛ ذلك أنه، في تلك اللحظة، غنَّيتُ لك وحدكَ يا بُنيَّ.

تنويه المؤلّف

في البدايـة، ألهمتنـي أصـواتٌ حقيقيـة: زوجتـي تشـدو بأغنيـة مـن أروفيـوس جلـوك؛ دويٌّ حـادٌّ، رنَّـان، مـن بـرج كنيسـةٍ ألبيَّـة صغـيرة؛ قعقعة أجـراس أبقـار سـويسرية، سِـجلٌّ لأناشـيد قروسـطية حبيسـة ديـر سـانت غـال. مـع البحـث الـذي تـلا ذلـك، انطلقـتُ في وضـع سـياق تاريخـي دقيـق لأطلـق فيـه شـخصياتي الخياليـة.

تـم حـلُّ ديـر سـانت غـال، بإيعـازٍ مـن نابليـون، في عـام 1805؛ مـمَّا جعـل رئيـس الديـر كويلسـتن جاجـر ڤـون شـتاوداخ (1701-1767) رئيـس الديـر الثالـث قبـل الأخـير. أشرفَ رئيـس الديـر كويلسـتن عـلى التطويـرات الباروكيـة المذهلـة لهـذا الديـر الـذي يبلـغ عمـره الألـف عـام، واشـتملَ هـذا عـلى إنشـاء كنيسـة سـانت غـال، المُدرجـة الآن في مواقـع اليونيسـكو للـتراث العالمـي.

للتَّحقُّـق مـن جغرافيـا ڤيينـا في القـرن الثامـن عـشر، اعتمـدتُ عـلى كتـاب «خريطـة لقلـب مدينـة ڤيينـا *Vogeschauplan der Wiener*

"*Innenstadt*" (1785) لجوزيف دانيل فون هوبر. مع بداية القرن التاسع عشر، هُدِمَت حانات سبيتلبرج المتهالكة سيئة السمعة في معظمها، لكن ما أتصوَّر الآن أنه كان منزل نيكولاي وريموس في شارع بورجاسه ما زال موجودًا حتَّى يومنا هذا، والطابق الأرضي ما يزال مقهًى بديعًا حقًّا. يستند قصر آل ريشر على قصر فورست فون كليري؛ ومنزل جوداني، على بناء أكثر تواضعًا قرب البوابة الاسكتلندية- لا يوجد أيٌّ منهما اليوم. الكثير من أوبرات جلوك وموتسارت وبيتهوفن عُرضت لأول مرة في مسرح بيرج قبل هدمه في 1888. تستند تفاصيل آليات المسرح وخشبة المسرح السفلية لتاسو على المسرح الباروكي المُرمَّم بشكل مُذهل في شيسكي كروملوف.

عُرِضَت "أورفيوس ويوريديس *Orfeo ed Euridice*" لأول مرة في 5 أكتوبر، 1762، والأحداث التي أدَّت إليها، بما في ذلك العرض التمهيدي في 6 أغسطس، 1762 (الذي قُدِّم في منزل كالزابيجي وليس في منزل جواداني)، سُجِّلَت في اليوميات الدقيقة للكونت كارل كينزيندورف. لا يوجد سوى مُراجعتَيْن، هزيلتَيْن للغاية، للعرض الافتتاحي، في عدَدَيْ "يوميات ڤيينا *Wienerisches Diarium*" اللذين نُشرا بعد العرض، بتاريخَيْ 6 و13 أكتوبر. لم تذكر أيٌّ من المُراجعتَيْن أسماء المؤدِّين. وضعتُ قائمة "موسى" للنُّبلاء الذين حضروا العرض الافتتاحي من سجلات اشتراك مسرح بيرج.

رحلَ جلوك نفسه عن ڤيينا إلى باريس عام 1774، وهناك أعاد كتابة مسرحيته "أورفيوس"، مُغيِّرًا البطل من مؤدٍّ طواشيٍّ، ميتزو-سوبرانو، إلى صوت تينور. عادَ جايتانو جواداني إلى لندن في 1767، لكنه أخفقَ في الحفاظ على مستواه المعروف، فرحلَ بعد سنتين بعد أن خسر شعبيته. انتهى به الأمر في بادوا، حيث عُرف بغنائه عروض العرائس السولو المقتبسة من "أورفيوس" جلوك. ماتَ مُفلسًا في 1792، بعد أن تخلَّى عن ثروته لتلاميذه الكثيرين.

تمَّ صبُّ جرس البوميرين في عام 1705 من 208 مدافع تركيَّة، وبقيَ حتَّى عام 1944، عندما دُمِّر في حريق أشعله ناهبو الحروب. ثم أُذيبَ، وأعيد صبُّه وتعليقه في عام 1957. يُقرَع كل عام للاحتفال بالعام الجديد. ويشاهد النمساويون الجرس المتأرجح على التلفزيون الوطني.

في وقتٍ ما من عام 1750، جلبَ الكونت كارل إيوجين طبيبَيْن إيطاليَّين إلى شتوتغارت لغرض إخصاء الصبيان؛ وبهذا فإن بلاط الدوق كان المكانَ المعروفَ الوحيد للإخصاء المُنظَّم شمال الألب. في إيطاليا، استمرَّ إخصاء الصبيان لدور أوبرا أوربا طوال القرن التاسع عشر، رغم أن العصر الذهبي للموزيكو انقضى مع تزايُد تفضيل الأوبرات الرومانسية لصوت التينور. غنَّى الموزيكو الأخير، أليساندرو موريشي، في الجوقة البابوية حتَّى عام 1913.

في مواضع قليلة للغاية، عندما تتعارض قصتي مع التاريخ، تنتصر القصة الخيالية. لم تنتهِ معظم أعمال كنيسة شتاوداخ الرهيبة إلَّا في عام 1766، متأخِّرًا جدًّا على إخصاء موسى من أجل أوبرا جلوك. بدا لي تحريك الإنشاءات بضع سنوات للوراء ذنبًا هيِّنًا، في مقابل فرصة مزامَنَة البناء البديع مع أوبرا جلوك المُذهلة، وكلاهما، بعد مُضيٍّ أكثر من مائتي عام، ما يزالان رموزًا خالدة على ذلك العصر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وعرفان

أنـا في غايـة الامتنـان لألكسـندرا مينديس-ديـس عـلى السـاعات الطويلـة التـي قضتهـا في القـراءة والتعليقـات، عـلى بُعـد محيـط وسـتّ مناطـق زمنيـة. أَديـنُ لبريدچيـت تومـاس لإضافاتهـا وتحسـيناتها القيِّمـة جـدًّا في اللغـة والأسـلوب. والشـكر للكُتَّـاب في ثـين رافـت، بـازل، عـلى تشـجيعهم لسـنوات.

إلى دان لازار في رايرتـس هـاوس، أشـكرك عـلى منحـكَ الروايـة حيـاةً جديـدة، وعـلى جعلهـا أفضـل كثـيرًا. الشُّـكر أيضًـا لسـتيڤن بـار عـلى آرائـه العظيمـة. في سـارة نايـت، وجـدتُ مُحـرِّرةً مذهلـة، أبقـاني حماسـها الـذي بـلا حـدود ماضيًـا قُدمًـا. ممـتنٌ لشـاي أريهـارت، كـيرا والتـون، كاريـن شـولز، ليـندا كابـلان، أنسـلي روسـنر، سـارة بريفوجـل، هيـثر لازار، بـاتي بـيرج، كاتي واينرايـت، راشـيل بيركوفيتـس، چيـل فلاكسـمان، وكريسـتين كوبـراش؛ عـلى دعمهـم وعملهـم الـدؤوب. أشـكركم دومنيكـو سـبوزاتو

وزملائي الآخرين في مينفيرا شولين بازل، وفرانس جشتيتر، وإرنست زوشلنج، والقساوسة في كاتدرائية القديس ستيڤن.

أمي وأبي، بالطبع لم يكن لي أن أبدأ حتَّى دون دعمكم وإرشادكم. ريبيكا وسام، أشكركما على حبِّكم. وأخيراً، بالطبع، محيط من التَّشكُّرات لدومينيك؛ بدونكِ لم يكن الكتاب ليوجد.

نبذة عن المؤلف

ولـــدَ ريتشـــارد هارڤـــل في نيـــو هامبشـــاير، في الولايـــات المتحـــدة الأمريكيـــة، ودرسَ الأدب الإنجليـــزي في جامعـــة دورتمـــاوث. يعيـــش الآن في بـــازل، ســـويسرا، مـــع زوجتـــه وابنيـــه. "الأجـــراس" هـــي روايتـــه الأولى، وتُرجِمَـــت إلى أكـــثر مـــن 15 لغـــة.

نبذة عن المترجم

عماد منصور، 1983 -

مُتَرجِـم وروائي مـن مواليـد القاهـرة، حاصـل عـلى ليسـانس آداب قسـم لغـة إنجليزيـة مـن جامعـة القاهـرة، ترجـمَ العديـد مـن المقـالات النقديَّـة والسـينمائيَّة في دوريَّـاتٍ مثـل: مجلـة "عـالم الكتـاب"، و"مجلـة الفيلـم". صـدَرَت لـه روايـة "تحـت السَّـمع والبَـصَر" عـام 2014، وترجمـة "يوميَّـات كافـكا" عـام 2019، وعـن دار المحروسـة صـدَرَت لـه ترجـماتٌ مثـل: "ألواح مـوسى" لتومـاس مـان، والترجمـة العربيـة الأولى لروايـة "ماتيلـدا" لمـاري شـيلي، و"الرجـل الـذي كان الخميـس" لجـي كيـه تشسـتيرتون، و"طفـل فيـلا" لدالـين مـاتي، و"ليليـث" لجـورج ماكدونالـد، نابليـون في نوتنـج هيـل لجي كيه تشستيرتون.

الأجــــراس

في آخر أضواء المساء الوردية، رأيتُ زوجة الرسّام في البورتريه، كان يستلقي ساكنًا على الأرض حيث كانت أماليا قد ألقته في غضبها، احتضنتُ قماشة الرسم إلى صدري وتذكّرت حينها أن الرسّام في حزنه، قد رسمَ بورتريهًا لها بدمائه. فقط لو أستطيع سكب دمائي في أغنية!

بين العاطفة والشجاعة، الموهبة والكفاح، الحب والغيرة، نتدفق بعذوبة حكاية رائعة عن مغني الأوبرا الشهير موسى فروبن الذي يمتلك على نحو فريد موهبة في أذنيه وجمالًا في صوته ومأساة في حكايته.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-977-313-984-1
9 789773 139841

المحروسة

تصميم الغلاف: عثمان ستو و كريم هشام